الرواية ـ الوثيقة
التي قرأها ٦ ملايين قارئ
في ٣٠ لغة

يونغ تشانغ

بَجعَات بَرّيَة

دراما الصّين في حَياة نساء ثلاث
١٩٠٩ ـ ١٩٧٨

علي مولا

دار الساقي

للمزيد من زاد المعرفة وكتب الفكر العالمي

اضغط (انقر) على الرابط التالي

www.alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الإسكندرية

يونغ تشانغ

بَجعَات بَرِّيَّة

دراما الصين في حياة نساء ثلاث
١٩٠٩-١٩٧٨

ترجمة :

عبد الإلـه النعيمي

دار الساقي

عن الكاتبة

ولدت يونغ تشانغ في يي بِين، بإقليم سيشوان في الصين، في عام ١٩٥٢. كانت حرساً أحمر لفترة قصيرة في الرابعة عشرة من العمر، ثم عملت فلاحة و«طبيبة حافية» وعاملة فولاذ وكهربائية قبل أن تصبح طالبة تدرس اللغة الإنكليزية، ثم مساعدة محاضر في جامعة سيشوان. غادرت الصين إلى بريطانيا في عام ١٩٧٨، وفيما بعد قدمت لها منحة من جامعة يورك (المملكة المتحدة) حيث نالت شهادة الدكتوراه في اللسانيات في عام ١٩٨٢ ـ أول شخص من جمهورية الصين الشعبية يتلقى شهادة دكتوراه من جامعة بريطانية.

يونغ تشانغ تعيش في لندن. وتدرِّس في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، جامعة لندن. شاركت في العديد من المشاريع الأنغلو ـ صينية وكثيراً ما تعلّق حول الشؤون الصينية في التلفزيون البريطاني.

Wild Swans

© Globalflair Ltd, 1991.

الطبعة العربية

© دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية ٢٠٠٢

ISBN 1 75446 654 8

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

الإهـداء

إلى جدتي وأبي،

اللذين لم يعيشا لرؤية هذا الكتاب.

كرونولوجيا

السنة	العائلة/ المؤلفة	ملاحظات عامة
١٨٧٠	مولد الدكتور شيا	امبراطورية مانشو (١٦٤٤ - ١٩١١)
١٨٧٦	مولد شو تزي - هنغ (جدي)	
١٩٠٩	مولد جدتي	
١٩١١		سقوط الإمبراطورية، قيام الجمهورية، أسياد الحرب
١٩٢١	مولد والدي	
١٩٢٢ - ١٩٢٤	الجنرال شو رئيس الشرطة في حكومة أسياد الحرب، بكين	
١٩٢٤	جدتي تصبح جارية الجنرال، شو. الجنرال شو يفقد سلطته	
١٩٢٧		الكومنتانغ بقيادة شيان كاي - شيك يوحدون القسم الأعظم من الصين

ملاحظات عامة	العائلة/المؤلفة	السنة
اليابان تغزو منشوريا	مولد والدتي	١٩٣١
اليابانيون يحتلون يشيان وجنجو تأسيس «مانشوكوو» برئاسة بو يي	جدتي وأمي إلى لولونغ	١٩٣٢
	موت الجنرال شو	١٩٣٣
المسيرة الكبرى: الشيوعيون إلى ينان		١٩٣٤ ـ ١٩٣٥
	جدتي تتزوج الدكتور شيا	١٩٣٥
	الدكتور شيا وجدتي وأمي ينتقلون إلى جنجو	١٩٣٦
اليابان تهاجم عمق الصين. تحالف الشيوعيين والكومنتانغ		١٩٣٧
	انضمام أبي إلى الحزب الشيوعي	١٩٣٨
	أبي يسير إلى ينان	١٩٤٠
استسلام اليابانيين. جنجو يحتلها الروس والشيوعيون الصينيون والكومنتانغ	أبي إلى تشاويانغ	١٩٤٥

السنة	العائلة/ المؤلفة	ملاحظات عامة
١٩٤٦ ـ ١٩٤٨	أبي في وحدة ثوار حول تشاويانغ أمي تصبح قائدة طالبية وتنضم إلى الحركة الشيوعية السرية	حرب أهلية بين الكومنتانغ والشيوعيين (حتى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠)
١٩٤٨	اعتقال أمي، لقاء أبي وأمي.	حصار جنجو.
١٩٤٩	أبي وأمي يتزوجان ويغادران جنجو ويسيران إلى نانجنغ. أمي تجهض وصول أبي إلى يي بين	إعلان الجمهورية الشعبية الشيوعيون يستولون على سيشوان شيان كاي ـ شيك إلى تايوان
١٩٥٠	وصول أمي إلى يي بين، جمع المواد الغذائية، مكافحة العصابات. ميلاد شياو ـ هونغ	الإصلاح الزراعي الصين تدخل الحرب الكورية (حتى تموز/يوليو ١٩٥٣)
١٩٥١		حملة «لضرب أعداء الثورة» (إعدام هوي ـ غي)

السنة	العائلة/المؤلفة	ملاحظات عامة
	أمي مسؤولة رابطة الشبيبة في يي بين بقيادة السيدة تنغ، وحصولها على عضوية الحزب الكاملة جدتي والدكتور شيا إلى يي بين	حملة الأضداد الثلاثة
١٩٥٢	ولادتي موت الدكتور شيا أبي حاكم يي بين	حملة الأضداد الخمسة
١٩٥٣	ميلاد جين منغ، انتقال العائلة إلى تشينغدو أمي رئيسة قسم الشؤون العامة للمنطقة الشرقية	
١٩٥٤	أبي نائب رئيس قسم الشؤون العامة في سيشوان مولد شياو ـ هي	
١٩٥٥	احتجاز أمي، الأطفال إلى دور حضانة	حملة «للكشف عن المتسترين من أعداء الثورة» (إدانة أصدقاء من جنجو) التأميم

السنة	العائلة/ المؤلفة	ملاحظات عامة
١٩٥٦	الإفراج عن أمي	الزهور المئة
١٩٥٧		حملة ضد اليمين
١٩٥٨	بداية ذهابي إلى المدرسة	الطفرة الكبرى إلى الإمام: أفران الفولاذ في الباحات الخلفية والكوميونات
١٩٥٩		مجاعة (حتى ١٩٦١) بنغ ديهواي يتحدى ماو ويُدان حملة للقبض على «الانتهازيين اليمينيين»
١٩٦٢	مولد شياو ـ فانغ	
١٩٦٣		«تعلموا من لي فينغ»، تصاعد عبادة ماو
١٩٦٦	أبي كبش فداء وإلى الاعتقال أمي إلى بكين للاستعطاف، والاستئناف انضمامي إلى الحرس الأحمر، الحج إلى بكين خروجي من الحرس الأحمر	بدء الثورة الثقافية

السنة	العائلة/المؤلفة	ملاحظات عامة
١٩٦٧	تعذيب والداي أبي يكتب إلى ماو، يعتقل، ويصاب بانهيار عصبي. أمي إلى بكين، تقابل شو إن لاي. تكرر اعتقال والديّ والإفراج عنهما في تشينغدو (حتى ١٩٦٩)	المارشالات يفشلون في وقف الثورة الثقافية الزوجان تنغ يمسكان مقاليد السلطة في سيشوان
١٩٦٨	انتقال العائلة من المجمّع	تشكيل اللجنة الثورية في سيشوان
١٩٦٩	أبي إلى معسكر مي يي، وأنا منفية إلى نينغنان وفاة جدتي عملي كفلاحة في ديانغ أمي إلى معسكر شيتشانغ	المؤتمر التاسع يضفي طابعاً رسمياً على الثورة الثقافية
١٩٧٠	موت العمة جون ـ ينغ، تحولي إلى «طبيبة عارية القدمين»	طرد الزوجين تنغ

السنة	العائلة/ المؤلفة	ملاحظات عامة
١٩٧١	أمي تمرض مرضاً شديداً، إلى المستشفى في تشينغدو رد الاعتبار إلى أمي، عودتي إلى تشينغدو، عاملة فولاذ وكهربائية	موت لن بياو
١٩٧٢	الإفراج عن أبي	زيارة نكسون.
١٩٧٣	دخولي جامعة سيشوان	عودة دينغ شياو بنغ
١٩٧٥	موت أبي، أول لقاء لي بأجانب	
١٩٧٦		موت شو إن لاي، إقصاء دينغ تظاهرات في ميدان تيانانمين موت ماو، اعتقال «عصابة الأربعة»
١٩٧٧	عملي مساعدة محاضر، إرسالي إلى قرية	عودة دينغ إلى السلطة
١٩٧٨	منحي بعثة إلى بريطانيا	

١ ـ «زنابق ذهبية بطول ثلاث بوصات»
جارية لجنرال من أسياد الحرب
(١٩٠٩ ـ ١٩٢٢)

في سن الخامسة عشرة أصبحت جدتي جارية جنرال من أسياد الحرب، كان رئيس الشرطة في حكومة وطنية هزيلة على الصين. كان العام ١٩٢٤ والصين في فوضى. وأسياد الحرب يحكمون قسماً كبيراً منها، بما في ذلك منشوريا حيث كانت تعيش جدتي. تم الارتباط بترتيب من أبيها الذي كان مسؤولاً في الشرطة بمدينة يشيان الإقليمية جنوب غرب منشوريا، حوالي مئة ميل شمال «السور العظيم» و ٢٥٠ ميلاً شمال شرق بكين.

مثل غالبية المدن في الصين بُنيت يشيان وكأنها حصن. كانت مطوقة بأسوار ارتفاعها ثلاثون قدماً وسمكها اثنا عشر قدماً تعود إلى سلالة تانغ (٦١٨ ـ ٩٠٧ بعد الميلاد)، تعلوها مرابض دفاعية ويتخللها ستة عشر متراساً متباعدة مسافات منتظمة، وعريضة بما فيه الكفاية لركوب حصان بكل سهولة على سطحها. وكانت هناك أربع بوابات تفضي إلى المدينة، وتحصيناتها محاطة بخندق عميق.

كان سمة المدينة الأبرز برج جرس عالٍ، كثير الزخرفة، من الحجر الرمادي الأدكن، شُيِّد في الأصل خلال القرن السادس مع دخول البوذية إلى المنطقة. وكان الجرس يقرع كل ليلة لإعلان الوقت، ويعمل البرج أيضاً بمثابة ناقوس إنذار في حالات الحريق والفيضان. وكانت يشيان مدينة سوقية مزدهرة. والسهول المحيطة بها تنتج القطن والذرّة والسرغوم وفول الصويا والسمسم والكمثرى (الإجاص) والتفاح

علي مولا

والكرمة. وفي مناطق الأرض العشبية وعلى التلال الواقعة غرباً، كان المزارعون يرعون الأغنام والماشية.

وُلِد أبو جدي، يانغ رو ـ شان، في عام ١٨٩٤ حين كانت الصين كلها يحكمها امبراطور يقيم في بكين. والعائلة الامبراطورية من المانشو الذين فتحوا الصين في عام ١٦٤٤ انطلاقاً من منشوريا التي كانت قاعدتهم. وكان آل يانغ من الهان، وهم صينيون أصليون غامروا بالرحيل شمال السور العظيم بحثاً عن الفرص.

كان أبو جدي الابن الوحيد، فجعله ذلك عظيم الأهمية لعائلته. فالابن وحده يستطيع أن يخلِّد اسم العائلة ـ من دونه يتوقف نسل العائلة، وكان هذا عند الصينيين أكبر خيانة يمكن أن تُرتكب بحق الأسلاف. وقد أُرسِل إلى مدرسة جيدة، وكان الهدف أن يجتاز الامتحانات ليصبح ماندارن، موظفاً حكومياً، حيث كان هذا مطمح غالبية الرجال الصينيين وقتذاك. فإن كون المرء موظفاً كان يجلب السطوة، والسطوة كانت تجلب المال. ومن دون سطوة أو مال ما كان صيني يشعر بالأمان من تجاوزات الجهاز الوظيفي أو العنف العشوائي. إذ لم يكن هناك قطّ نظام قانوني بالمعنى الحقيقي.

كانت العدالة اعتباطية، والقسوة مُتَمأسِسة ونزوية على السواء. فالموظف صاحب السطوة هو القانون. وكان السبيل الوحيد لإفلات طفل عائلة لا تنتمي إلى النبلاء، من دورة الظلم والخوف هذه، هو أن يصبح ماندارن. فقرر والد يانغ أن ابنه ينبغي أن لا يسير على خطاه إلى مهنة العائلة في صنع اللباد، فضحى بنفسه وبعائلته لتسديد نفقات تعليم ابنه. وتوجهت النساء إلى الخياطة لحساب الخياطين وصنّاع الألبسة المحليين، كادحات حتى ساعة متأخرة من الليل. ولتوفير المال كُنَّ يُخفِضن مصابيحهن الزيتية إلى أدنى الحدود، ما تسبّب بإصابة عيونهن بعطب دائم. وتورّمت مفاصل أصابعهن من ساعات العمل الطويلة.

وحسب العادة المتّبعة تزوج أبو جدي وهو فتى في الرابعة عشرة، من امرأة تكبره ست سنوات. وكان يُعتبر من واجبات الزوجة أن تساعد على تربية زوجها.

كانت قصة زوجته، أم جدتي، كقصة ملايين النساء الصينيات في زمنها. هي تتحدر من عائلة دبَّاغين تدعى وو. ولأن عائلتها لم تكن عائلة مثقفة ولم يكن لديها

أي مركز رسمي، ولأنها كانت فتاة، فإنها لم تُمنح اسماً بالمرة. كانت تسمى ببساطة «الفتاة رقم ٢» (اير ـ يا ـ تو). توفي والدها حين كانت رضيعة وتولىٰ تربيتها أحد أعمامها. وذات يوم، وفي عمر السادسة، كان العم يتناول العشاء مع صديق كانت زوجته حاملاً. واتفق الرجلان خلال العشاء على أنه إذا كان الطفل صبياً سيُعقد قرانه على ابنة الأخ ذات الست سنوات. ولم يلتق الفتى والفتاة قط قبل زواجهما. في الواقع كان الحب يُعَدُّ عيباً يجرُّ الخزي على العائلة. ليس ذلك لأنه كان محرماً ـ بل لأنه لم يكن لائقاً بالشباب أن يتعرضوا إلى أوضاع يمكن لشيء كهذا أن يحدث فيها. فمن ناحية، كان من اللاأخلاقي أن يلتقيا، ولأن الزواج كان، من الناحية الأخرى، واجباً في المقام الأول، وترتيباً بين عائلتين. ويمكن للمرء، إذا أسعفه الحظ، أن يحب بعد الزواج.

في الرابعة عشرة، وبعد أن عاش حياة محمية للغاية، لم يكن أبو جدي يزيد كثيراً على كونه صبياً وقت زواجه. وفي الليلة الأولى رفض أن يدخل غرفة الزفاف. وذهب إلى الفراش في حجرة أمه وتعين حمله إلى عروسه بعد أن غلبه النوم. ولكن رغم أنه كان طفلاً مدلّلاً وكان لم يزل بحاجة إلى من يساعده على ارتداء ملابسه، فقد كان يعرف كيف «يزرع الأطفال»، على حدّ قول زوجته.

ولدت جدتي في غضون عام من الزواج، في اليوم الخامس من القمر الخامس، في أوائل صيف ١٩٠٩. وكانت أفضل حالاً من أمها لأنها في الواقع مُنحت اسماً: يو ـ فانغ. وكان يو، الذي يعني حجر «اليَشْب»، اسم جيلها، يطلق على كل مواليد الجيل الواحد، فيما يعني فانغ «الأزهار العطرة».

كان العالم الذي ولدت فيه عالماً لا يمكن فيه التنبؤ بما سيحدث على الإطلاق. فقد كانت امبراطورية المانشو التي حكمت الصين أكثر من ٢٦٠ عاماً امبراطورية متداعية. وفي ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ قامت اليابان بمهاجمة الصين في منشوريا حيث منيت الصين بهزائم ساحقة وخسائر في الأرض. وفي عام ١٩٠٠ أُخمد «تمرد الملاكمين» الوطني بتدخل ثمانية جيوش أجنبية، ظلت وحدات منها مرابطة، بعضها في منشوريا وبعضها الآخر على امتداد «السور العظيم». ثم في ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ خاضت اليابان وروسيا حرباً كبيرة على سهول منشوريا. وأصبحت اليابان بانتصارها القوّة الأجنبية المهيمنة في منشوريا. وفي عام ١٩١١ أطيح بامبراطور الصين البالغ من العمر خمس

سنوات، بو يي، وأقيمت جمهورية ترأسها لفترة وجيزة الزعيم الكارزمي صن يات ـ سن.

سرعان ما انهارت الحكومة الجمهورية الجديدة وتفتتت البلاد إلى إقطاعيات. وكانت منشوريا ساخطة بصفة خاصة على الجمهورية لأن سلالة المانشو تحدَّرت من هناك. وكثفت القوى الخارجية، وخاصة اليابان، محاولاتها للتدخل في المنطقة. وتحت هذه الضغوط كلها انهارت المؤسسات القديمة ليسفر انهيارها عن فراغ في القوة والأخلاق والسلطة. وسعى كثيرون إلى بلوغ القمة برشوة الحكام المحليين بالهدايا النفيسة كالذهب والفضة والمجوهرات. لم يكن أبو جدتي ثرياً بما فيه الكفاية لشراء مركز مربح في مدينة كبيرة، وحين بلغ الثلاثين من العمر لم يرتق إلى أعلى من مسؤول في قسم الشرطة بمدينته الأصلية، يشيان، وهي مدينة إقليمية منقطعة عن العالم. ولكن كانت لديه مشاريع، ورصيد ثمين ـ ابنته.

كانت جدتي حسناء ذات وجه بيضوي ووجنتين ورديتين، وبشرة براقة. كان شعرها الأسود، الطويل اللمّاع، يُعقد في ضفيرة ثخينة تصل إلى خصرها. وكانت قادرة على التحلي بالسكينة كلّما اقتضت المناسبة، وكان هذا غالباً معظم الوقت، ولكنها تحت ظاهرها الرصين كانت تمور بطاقة مكبوتة. صغيرة، طولها حوالي خمسة أقدام وثلاث بوصات، ذات قوام نحيف ومنكبين منحدرين، كانا يعتبران النموذج المثالي للمنكبين.

لكن رصيدها الأكبر كان قدميها المربوطتين، تسميان باللغة الصينية «زنابق ذهبية بطول ثلاث بوصات» (سان ـ تسون ـ غن ـ ليان). وكان هذا يعني انها تمشي «كأنها عود صفصاف طري، غضّ في نسمة ربيعية»، كما كان خبراء النساء الصينيون يقولون تقليدياً. إذ كان يفترض بمنظر المرأة التي تتهادى على قدمين مربوطتين أن يكون له تأثير مثير في الرجال، لأسباب منها أن انكشاف ضعفها يثير لدى الناظر إحساساً بالاحتماء.

رُبطت قدما جدتي عندما كانت في سنتها الثانية، إذ قامت أمها، التي كانت نفسها مربوطة القدمين، بلف قطعة من القماش الأبيض طولها حوالي عشرين قدماً، حول قدميها طاوية كل الأصابع، باستثناء الإصبع الكبير، إلى الداخل تحت باطن

القدم. ثم وضعت حجراً كبيراً فوقها لسحق قوس القدمين. وكانت جدتي تصرخ من العذاب وتتوسّل إليها أن تكف. واضطرت أمها إلى أن تحشو فمها بقطعة قماش لتكمه. وأغمي على جدتي مراراً بسبب الألم.

دامت العملية عدة سنوات. وحتى بعد أن تكسّرت العظام كان يتعيّن ربط القدمين ليلاً ونهاراً بقماش سميك، لأنه في اللحظة التي تتحرّران فيها ستحاولان العودة إلى وضعهما السابق. وعلى امتداد سنوات عاشت جدتي بألم ممض، لا هوادة فيه. وحين كانت تستعطف أمها أن تفك رباطها كانت أمها تأخذ في النحيب وتقول لها إن القدمين غير المربوطتين ستخربان كل حياتها، وإنها تفعل ذلك من أجل سعادتها في المستقبل.

في تلك الأيام، حين كانت المرأة تتزوج، كان أول ما تفعله عائلة العريس أن تفحص قدميها. كانت الأقدام الكبيرة، أي الأقدام الطبيعية، تُعدّ مجلبة للعار على بيت الزوج. ترفع الحماة طرف تنورة العروس، فإذا كان طول القدمين يزيد على أربع بوصات تقريباً، كانت تشدُّ التنورة إلى الأسفل في حركة ظاهرة تنمّ على الازدراء وتبتعد باستنكاف تاركة العروس نهباً لنظرات التفرس النقدي من ضيوف العرس الذين يحدقون إلى قدميها ويدمدمون استهجاناً. وأحياناً تعطف الأم على ابنتها فتزيل ربطة القماش، ولكن حين تكبر الطفلة ويكون عليها أن تتحمل ازدراء عائلة زوجها واستهجان المجتمع، فإنها تلوم أمها لأنها كانت ضعيفة.

أُدْخِلَتْ ممارسة ربط القدمين في الأصل قبل حوالي ألف عام، ويُزعم أن من أدخلَها جارية من جواري الامبراطور. لم يكن منظر النساء وهنّ يطلعن على أقدام صغيرة يعتبر مثيراً فحسب، بل كان الرجال يُستثارون أيضاً بمداعبة أقدام مربوطة كانت دائماً تُخفى داخل أحذية حريرية مطرّزة. ولم تكن المرأة قادرة على إزالة الأقمشة الرابطة حتى في سن الرشد لأن قدميها ستبدآن بالنمو من جديد. ولم يكن بالإمكان إرخاء الرباط إلا مؤقتاً خلال الليل في الفراش، حيث كانت تنتعل حذاء رخو النعل. ونادراً ما كان الرجال يرون الأقدام المربوطة عارية، إذ يغطيها عادة لحمٌ متعفّن وتنبعث منها رائحة كريهة عند إزالة الرباط. وأستطيع أن أتذكّر، وأنا طفلة، جدتي في ألم دائم. وحين كنا نعود إلى البيت من السوق كان أول شيء تفعله أن تغمر قدميها في طست من الماء الساخن متنفّسة الصعداء وهي تفعل ذلك. ثم كانت

تشرع في قطع نتف من البَشَرة الميتة. وكان الألم لا يأتي من العظام المكسرة فحسب، بل من أظافر أصابعها التي كانت تنمو في لحم قدميها.

لقد رُبِطَت قدما جدتي في الحقيقة في الوقت الذي أخذ ربط الأقدام يختفي إلى غير رجعة. وحين ولدت شقيقتها في عام ١٩١٧، كانت الممارسة قد نُبذت من الناحية العملية، فأفلتت من العذاب.

ولكن حين كانت جدتي في مرحلة النمو، كان الموقف السائد في مدينة صغيرة مثل يشيان ما زال يذهب إلى أن القدمين المربوطتين ضروريتان للزواج الناجح ـ ولكنهما ليسا إلا البداية. كانت مشاريع والدها أن يجري إعدادها إما كسيدة كاملة الأوصاف أو محظية بلاط من الطبقة الراقية. ولما كان يسخر من الحكمة الشائعة وقتذاك ـ أن من الفضيلة أن تكون امرأة الطبقة الدنيا أُمّية ـ أرسلها إلى مدرسة بنات فُتحت في المدينة في عام ١٩٠٥. كما تعلمت لعب الشطرنج الصيني، والما ـ جونغ، و «غو». ودرست الرسم والتطريز. وكان تصميمها المفضل بطّ الماندرين (الذي يرمز إلى الحب لأنه دائماً يسبح أزواجاً)، وكانت تطرزه على الأحذية الصغيرة التي تصنعها لنفسها. ولتتويج قائمة إنجازاتها، استُؤجر لها أستاذ يعلمها العزف على الـ «كِن»، وهو آلة موسيقية تشبه القانون.

كانت جدتي تعتبر حسناء المدينة. وكان أهل المدينة يقولون إنها تتميز «مثل الكركي بين الدجاج». وفي عام ١٩٢٤ كانت في الخامسة عشرة، وأخذ القلق يستبدّ بأبيها من فوات الميعاد على رصيده الحقيقي الوحيد ـ وفرصته الوحيدة في حياة هانئة. وفي تلك السنة جاء للزيارة الجنرال شو تزي ـ هنغ، مفتش عام الشرطة المتروبوليتانية لحكومة أسياد الحرب في بكين.

ولد شو تزي ـ هنغ في عام ١٨٧٦ في إقليم لولونغ، حوالي مئة ميل شرق بكين، وإلى الجنوب مباشرة من «السور العظيم» حيث يمتد سهل شمال الصين الشاسع حتى الجبال. وكان أكبر الأبناء الأربعة لمعلم في الريف.

كان وسيماً وله حضور قوي يلفت انتباه كل من يلتقي به. وتنبأ عدة عرّافين مكفوفين تحسّسوا وجهه بأنه سيرتقي إلى مركز ذي سطوة. كان خطاطاً موهوباً، وكانت تلك موهبة يُنظَر إليها باحترام كبير. وفي عام ١٩٠٨ لاحظ سيد حرب اسمه

وانغ هوي ـ كنغ، كان يزور لولونغ، جمال الخط على لوحة فوق بوابة المعبد الرئيسي وطلب مقابلة الرجل الذي أنجز الخط. أُعجب الجنرال وانغ بشو البالغ من العمر ٣٢ عاماً، ودعاه إلى أن يصبح أمين سرّه.

أثبت شو كفاءة عالية، وسرعان ما رُقِّي إلى ضابط تموين. وكان يترتب على ذلك كثير من السفر، وأخذ يبتاع متاجر للمواد الغذائية في أنحاء لولونغ وعلى الجانب الآخر من السور العظيم، في منشوريا. وتلقى صعوده السريع دفعة عندما ساعد الجنرال وانغ على قمع انتفاضة في عمق منغوليا. وبسرعة خاطفة تقريباً جمع ثروة، وبنى قصراً من ٨١ غرفة لنفسه في لولونغ قامَ بتصميمه بنفسه.

في العقد الذي تلا نهاية الامبراطورية، لم تتمكن أي حكومة من بسط سلطتها على القسم الأعظم من البلاد. وما لبث أسياد الحرب الأشدّاء أن أخذوا يتقاتلون من أجل السيطرة على الحكومة المركزية في بكين. وهيمنت جماعة شو التي كان يقودها سيد حرب اسمه وو بي ـ فو، على الحكومة الاسمية في بكين في أوائل العشرينات. وفي عام ١٩٢٢ أصبح شو المفتش العام للشرطة المتروبوليتانية والمدير المشارك لدائرة الأشغال العامة في بكين. وكان يسيطر على عشرين مقاطعة على جانبي «السور العظيم»، وعلى أكثر من ١٠ آلاف شرطي، من الخيالة والمشاة. إن عمل الشرطة منحه سطوة ومنصبه في الأشغال العامة أعطاه محسوبية.

كانت الولاءات متقلبة. وفي أيار/مايو ١٩٢٣ قرّر جناح الجنرال شو أن يتخلص من الرئيس لي يوان ـ هونغ الذي نصَّبَه قبل عام فقط. وبالتحالف مع جنرال يُدعى فينغ يوشيانغ، وهو سيد حرب مسيحي أصبح أسطورة بتعميد جنوده جماعياً بخرطوم الأطفاء، حشد شو رجاله العشرة آلاف وطوّق المباني الحكومية الرسمية في بكين مطالباً بالمرتبات المتأخرة التي كانت الحكومة المفلسة تدين بها لرجاله. وكان هدفه الحقيقي أن يذلّ الرئيس لي ويجبره على التنحّي. وقد رفض لي أن يستقيل، فأمر شو رجاله بقطع الماء والكهرباء عن قصر الرئاسة. وبعد أيام قليلة أصبحت الأوضاع داخل المبنى لا تطاق. وفي ليلة ١٣ حزيران/يونيو، هجر الرئيس لي محل إقامته النتن وهرب من العاصمة إلى ميناء مدينة تيانجين، على بعد سبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي.

لم تكن سلطة المنصب في الصين تكمن في صاحب المنصب فحسب، بل في الأختام الرسمية أيضاً. فما من وثيقة كانت صالحة حتى لو حملت توقيع الرئيس عليها، ما لم تكن مذيلة بختمه. ولما كان الرئيس لي يعرف أن لا أحد يستطيع الاستيلاء على الرئاسة من دونها، فقد ترك الأختام مع جارية من جواريه تمضي فترة نقاهة في مستشفى في بكين يديره مبشرون فرنسيون.

فيما كان الرئيس لي يقترب من تيانجين أوقف قطاره شرطة مسلحون طالبوه بتسليم الأختام. في البداية رفض أن يقول أين أخفاها، ولكنه امتثل بعد ساعات. وفي الساعة الثالثة صباحاً توجه الجنرال شو إلى المستشفى الفرنسي لجمع الأختام من الجارية. وحين ظهر جنب سريرها، رفضت الجارية في البداية حتى أن تنظر إليه. وقالت باستعلاء: «كيف أُسلِّم أختام الرئيس إلى مجرد شرطي». ولكن الجنرال شو، متألّقاً في قيافته الكاملة، بدا مهيباً بحيث أنها سرعان ما وضعت الأختام في يديه طائعة.

خلال الأشهر الأربعة التالية، استخدم شو شرطته للتوثق من فوز الرجل الذي كانت جماعته تريد أن تراه رئيساً، وهو تساو كون، في ما اعتبر واحداً من أوائل الانتخابات في الصين. وتعيَّن رشوة أعضاء البرلمان الثمانمائة وأربعة أعضاء. وضع شو والجنرال فينغ حراساً على مبنى البرلمان وأعلنا عن مكافأة سخية لكل من يصوّت على الوجه المطلوب، الأمر الذي أغرى الكثير من النوّاب بالعودة مسرعين من الأقاليم. وحين كان كل شيء مهيّأ للانتخاب، كان في بكين ٥٥٥ نائباً. وقبل أربعة أيام من الانتخاب، بعد كثير من المساومة، أُعطي لكل منهم ٥٠٠٠ يوان فضي، وهو مبلغ لا يستهان به. وفي ٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٣، انتخب تساو كون رئيساً للصين بـ ٤٨٠ صوتاً. وكوفيء شو بترقيته إلى جنرال كامل. كما رُقِّي سبعة عشر «مستشاراً خاصاً» ـ كلهم عشيقات أو جوارٍ مفضلات لدى أسياد حرب وجنرالات شتى. وسجلت هذه الواقعة في تاريخ الصين بوصفها مثالاً سيىء الصيت على كيفية التلاعب بالانتخابات. وما زال الناس يذكرونها للاحتجاج بأن الديموقراطية لن تعمل بنجاح في الصين.

في أوائل صيف العام التالي، قام الجنرال شو بزيارة يشيان. ورغم أنها لم تكن مدينة كبيرة فقد كانت مهمة استراتيجياً. وهنا على وجه التحديد بدأت حكومة بكين

تفقد سلطتها. وفي ما وراءها كانت السلطة بيد سيّد الحرب الكبير في الشمال الشرقي، تشانغ تسو ـ لن، المعروف بلقب «المارشال العجوز». رسمياً، كان الجنرال شو في رحلة تفقّدية، ولكن كانت لديه أيضاً مصالح شخصية في المنطقة. ففي يشيان كان يملك مخازن الحبوب الرئيسية وأكبر المتاجر، بما فيها مكتب رهن كان يمارس نشاطاً مزدوجاً بمثابة المصرف، وكان يصدر نقوده الخاصة التي كانت متداولة في المدينة وفي المنطقة المحيطة.

كان ذلك بالنسبة لوالد جدتي فرصة العمر، فقد شعر أنه أقرب ما يكون لأن يصبح شخصاً هاماً جداً بحق. فخطّط للحصول على وظيفة مرافق للجنرال شو، وقال لزوجته إنه سيحاول تزويج ابنته للجنرال. لم يطلب موافقتها، بل مجرد إبلاغها. فعدا كون هذه هي العادة التي كانت متّبعة يومذاك، كان أبو جدتي يحتقر زوجته. بكتْ ولكنها لم تقل شيئاً. أخبرها أن لا تنبس بكلمة لابنتهما. فاستشارة ابنته لم تكن واردة بالمرة. الزواج صفقة وليس مسألة مشاعر. وسيتم إخطارها عند ترتيب العرس.

كان أبو جدتي يعرف أن تقرُّبه من الجنرال شو يجب أن يكون غير مباشر. فتقديم يد ابنته بشكل سافر سيقلّل ثمنها، وكان هناك أيضاً احتمال أن يُقابَل بالرفض. كان يتعين أن تتاح للجنرال شو فرصة أن يرى ما يُعرَض عليه. في تلك الأيام لم يكن من الممكن تقديم النساء المحترمات إلى غرباء، لذا كان على يانغ أن يخلق فرصة لكي يرى الجنرال شو ابنته. وكان يتعين أن يبدو اللقاء مصادفة.

في يشيان كان هناك معبد بوذي رائع عمره ٩٠٠ عام مبني من الخشب النفيس، وينتصب مرتفعاً زهاء مئة قدم. وكان قائماً داخل فناء بديع تحيط به صفوف من أشجار السرو ويغطي مساحة تقرب من ميل مربع. وفي الداخل كان تمثال خشبي لبوذا ذو ألوان برّاقة، يرتفع ثلاثين قدماً، وكان داخل المعبد مغطى بجداريات رقيقة تصور حياته. لقد كان مكاناً من الطبيعي أن يأخذ يانغ شخصاً مهماً جداً إليه للزيارة. وكانت المعابد من الأماكن القليلة التي يمكن لنساء العوائل المحترمة أن يذهبن إليها بمفردهن.

قيل لجدتي أن تذهب إلى المعبد في يوم معين. وبغية إبداء إجلالها لبوذا، أخذت معها مستحضرات معطرة وأمضت ساعات طويلة في التأمّل أمام مبخرة مشتعلة

في محراب صغير. ولكي تصلي في المعبد كان يفترض بها أن تكون في حالة هدوء قصوى، وأن تكون متحرّرة من كل الانفعالات المكدِّرة. انطلقت في عربة مستأجرة يجرها حصان وترافقها خادمة. ارتدت سترة زرقاء زرقة بيض البط، حوافها مطرزة بخيط ذهبي لإظهار خطوطها البسيطة، وتعلو جهتها اليسرى أزرار على شكل فراشات. وارتدت مع ذلك تنورة وردية ذات ثنيات، مطرزة كلها بزهور صغيرة. وحُبك شعرها الأسود الطويل في ضفيرة واحدة. وكانت تبرز من أعلاه زهرة فاوانيا سوداء ـ مخضرة، حريرية، كانت أندر الأنواع. ولم تضع أي ماكياج، ولكنها كانت معطرة، ما كان يعتبر لائقاً بزيارة المعبد. وما إن دلفت حتى ركعت أمام تمثال بوذا العملاق. وسجدت عدة مرات للصورة الخشبية ثم ظلت راكعة أمامها، ويداها معقودتان في صلاة.

وفيما كانت تصلي، وصل أبوها مع الجنرال شو. وراح الرجلان يراقبان من الممر المعتم. لقد خطط أبو جدتي تخطيطاً حسناً. فالوضع الذي كانت جدتي تركع فيه لم يكشف عن سروالها الحريري الذي كان موشى بالذهب على غرار سترتها فحسب، ولكنه كان يكشف أيضاً عن قدميها الصغيرتين في حذاء مصنوع من الساتان المطرز.

عندما أنهت جدتي صلاتها سجدت لبوذا ثلاث مرات. ولدى نهوضها فقدت توازنها قليلاً، حيث كان ذلك سهل الحدوث بقدمين مربوطتين. مدت يديها لإسناد نفسها على ذراع خادمتها. وكان الجنرال شو وأبوها قد شرعا لتوهما في السير إلى المقدمة. احمرّت خجلاً وأحنت رأسها، ثم استدارت وبدأت تمشي مبتعدة، وكان ذلك هو المطلوب. خطا أبوها إلى الأمام وقدمها إلى الجنرال. انحنت احتراماً مبقية رأسها خفيضاً طوال الوقت.

وكما يليق برجل في مركزه، لم يقل الجنرال شيئاً يذكر عن اللقاء ليانغ الذي كان مرؤوساً متدني الرتبة، ولكن أبا جدتي كان يستطيع أن يرى أنه كان مفتوناً. وكانت الخطوة التالية تدبير لقاء أكثر مباشرة. بعد يومين استأجر يانغ، معرِّضاً نفسه إلى خطر الإفلاس، أحسن مسرح في المدينة وقدم أوبرا محلية داعياً الجنرال شو بصفته ضيف الشرف. وكان المسرح، شأن غالبية المسارح الصينية، مبنياً حول فضاء مستطيل مفتوح على السماء مع هياكل خشبية على ثلاثة جوانب، وكان الجانب الرابع يشكل

المسرح الذي كان عارياً بالكامل: لم تكن فيه ستارة ولا ديكورات. وكانت منطقة الجلوس أشبه بالمقهى منها بمسرح في الغرب. فلقد كان الرجال يجلسون إلى طاولات في الفضاء المفتوح، حيث يأكلون ويشربون ويتحدثون بصوت عال طوال العرض. وعلى الجانب، إلى أعلى، كان القسم الدائري حيث تجلس السيدات بقدر أكبر من الاحتشام، إلى مناضد صغيرة وتقف خادماتهن وراءهن. وقد رتّب أبو جدتي الأمور بحيث تكون ابنته في مكان يستطيع الجنرال شو أن يراها بسهولة.

كانت هذه المرة أكثر تأنقاً مما كانت عليه في المعبد. فقد ارتدت فستاناً من الساتان المطرز بإسراف ووضعت مجوهرات في شعرها. وكانت أيضاً تبدي حيويتها وطاقتها الطبيعيتين، ضاحكة ومتجاذبة أطراف الحديث مع صديقاتها. كان الجنرال شو نادراً ما ينظر إلى المسرح.

بعد العرض، كانت هناك لعبة صينية تقليدية تسمى ألغاز القناديل. وكانت هذه تجري في صالتين منفصلتين، صالة للرجال وصالة للنساء. وفي كل غرفة توضع دزينات من القناديل الورقية المصمّمة بدقة، وقد أُلصق عليها عدد من الألغاز بصيغة أبيات من الشعر. والشخص الذي يحرز إجابات أكثر يفوز بجائزة. من الرجال كان الجنرال شو هو الفائز، بالطبع. ومن النساء كانت جدتي.

منح يانغ، الآن، الجنرال شو فرصة لتقدير جمال ابنته وذكائها، وكان الشرط الأخير هو الموهبة الفنية. بعد ليلتين دعا الجنرال إلى داره لتناول العشاء. كانت ليلة صافية، دافئة، بقمر مكتمل ـ جو تقليدي للاستماع إلى عزف على الكِن. بعد العشاء جلس الرجال في الشرفة، واستدعيت جدتي للعزف في الباحة. وإذ جلست تحت عريشة حيث أريج الليلج يضمّخ الهواء، سَحَر أداؤها الجنرال شو. وقال لها فيما بعد إن عزفها في تلك الأمسية تحت ضوء القمر خطف قلبه. وحين ولدت أمي سماها باو كِن، أي «القانون النفيس».

قبل أن تنقضي السهرة طلب يدها ـ ليس من جدتي، بالطبع، وإنما من أبيها. لم يعرض الزواج، بل إن جدتي ينبغي أن تصبح جاريته. ولكن يانغ لم يكن يتوقع شيئاً آخر. فعائلة شو كانت سترتب زواجاً للجنرال منذ زمن بعيد على أساس المراكز الاجتماعية. وعلى أية حال، كانت عائلة يانغ أشد تواضعاً من أن توفر زوجة. ولكن

كان من المتوقع أن يتخذ رجل مثل الجنرال شو جواري له. فالزوجات لسن للمتعة ـ هذا ما وجدت الجواري من أجله. ويمكن للجواري أن يكتسبن سطوة كبيرة، لكن مركزهن الاجتماعي كان يختلف تماماً عن مركز الزوجة. فالجارية كانت نوعاً من العشيقة المؤسسة على نظام، تُقتنى وتُنبذ حسب الرغبة.

كانت أول مرة عرفت فيها جدتي بارتباطها الوشيك عندما زفّت أمها الخبر إليها قبل أيام من الحدث. طأطأت جدتي رأسها وبكت. كرهت فكرة أن تكون جارية، ولكن أباها كان قد اتخذ القرار، ولم يكن من الممكن التفكير في معارضة الوالدين. وكان وضع قرار أبوي موضع تساؤل يُعدُّ «عقوقاً» ـ والعقوق بمثابة الخيانة. وحتى إذا رفضت الاستجابة لرغبات أبيها، فإنها لن تؤخذ على محمل الجد. وسيُفَسَّر عملها على أنه إشارة إلى أنها تريد البقاء مع والديها. وكانت الطريقة الوحيدة لقول كلمة «لا» وأخذها مأخذ الجد هي الانتحار. عضت جدتي على شفتها ولم تقل شيئاً. في الواقع لم يكن هناك ما تستطيع قوله. وحتى قول كلمة «نعم» كان يُعَد غير لائق بسيدة، إذ يُنظر إليها على أنها توّاقة إلى الافتراق عن والديها.

وإذ رأت أمها شدّة تعاستها، بدأت تقول لها إن هذه هي خير علاقة ممكنة. وإن زوجها حدَّثها عن سطوة الجنرال شو: «في بكين يقولون «عندما يخبط الجنرال شو قدمه، تهتز المدينة كلها»». وفي الحقيقة ان مظهر الجنرال العسكري الوسيم استهوى جدتي بعض الشيء. وطربت لكل كلمات الإعجاب التي قالها عنها لأبيها، والتي جرى الآن الإطناب والاستزادة في تزويقها. ولم يكن أحد من الرجال في يشيان مهيباً مثل الجنرال سيد الحرب. وفي سن الخامسة عشرة لم تكن لديها فكرة، حقاً، عن معنى أن تكون جارية، واعتقدتْ أنها تستطيع أن تكسب حب الجنرال شو وتعيش حياة سعيدة.

قال الجنرال شو إنها تستطيع أن تبقى في يشيان، في بيت سيشتريه خصيصاً لها. وكان هذا يعني أنها تستطيع البقاء قريبة من عائلتها، والأهم من ذلك أنها لن يتعين عليها أن تعيش في محل إقامته حيث سيكون عليها أن تخضع لسلطة زوجته والجواري الأخريات اللواتي لهن جميعاً أسبقية عليها. وفي بيت حاكم مثل الجنرال شو، كانت النساء سجينات عملياً، يَعِشْنَ في حالة من الشجار والخصام الدائمين بدافع انعدام الأمان في الأساس. فالأمان الوحيد الذي لديهن هو ما يتفضل به

الزوج. وكان عرض الجنرال شو بأن يكون لجدتي بيتها، ذا معنى كبير عندها، وكذلك وعده بتعميد هيبة الارتباط بمراسم زواج كاملة. وكان هذا يعني الحفاظ على قدر كبير من ماء الوجه لها ولعائلتها. وكان هناك اعتبار أخير واحد ذو أهمية بالغة بالنسبة لها: فالآن وقد ارتاح أبوها كانت تأمل في أن يعامل أُمَّها معاملة أفضل.

كانت السيدة يانغ تعاني الصرع الذي جعلها تشعر بالدونية أمام زوجها. إذ كانت خَنوعاً أمامه على الدوام، وكان هو يعاملها كأنها قذارة دون مراعاة لصحتها. ولسنوات كان يلومها لأنها لم تنجب له ولداً. فقد حدثت لأم جدتي سلسلة من الإسقاطات بعد ولادة جدتي إلى أن جاء طفل ثانٍ في عام ١٩١٧ ـ ولكن كان بنتاً أيضاً.

كان أبو جدتي مهووساً بامتلاك ما يكفي من المال لتمكينه من اقتناء جوار. وقد أتاح له «الزفاف» تحقيق هذه الأمنية لأن الجنرال شو أغدق هدايا الخطوبة على العائلة، وكان المستفيد الرئيسي أبا جدتي. كانت الهدايا رائعة، تتناسب مع مركز الجنرال.

في يوم العرس، ظهرت في بيت يانغ محفة مكسوة بحرير ثقيل، أحمر برّاق، مطرز، وبالساتان. وجاء في المقدمة موكب يحمل رايات ولافتات وقناديل حريرية رسمت عليها صور عنقاء ذهبية، أعظم رمز للمرأة. وجرى حفل الزفاف في المساء، حسب التقليد المتَّبع، وكانت القناديل الحمراء تتوهج في الظلام. وكانت هناك جوقة بطبول وصنوج، وآلات هوائية تعزف ألحاناً بهيجة. فقد كانت الضوضاء العالية تعتبر ضرورية للزفاف الجيّد، لأن التزام جانب الهدوء كان يُنظر إليه على أنه يوحي بأن هناك شيئاً معيباً في الحدث. ولبست جدتي ثياباً مطرَّزة برّاقة رائعة، ونقاباً حريرياً أحمر يغطي رأسها ووجهها. وحملها على المحفة إلى بيتها الجديد ثمانية رجال. في داخل المحفة كان الجو خانقاً وحاراً إلى حدّ الغليان، وبحذر سحبت الستارة بضع بوصات. وإذ استرقت النظر من تحت حجابها، سرَّها أن ترى الناس في الشوارع يتابعون موكبها. كان ذلك يختلف اختلافاً كبيراً عما تناله مجرد جارية ـ محفة صغيرة مكسوة بقماش قطني بسيط بلون النيلة الذي لا رونق له، يحملها شخصان أو أربعة أشخاص في أقصى الأحوال، وبلا موكب أو موسيقى. جرى الطواف بها حول المدينة، زائرة البوابات الأربع كلها، كما يقتضي الطقس كاملاً، مع عرض هدايا

زفافها الباهظة على عربات وفي سلال كبيرة من الخيزران محملة وراءها. وبعد التباهي بها أمام المدينة، وصلت إلى بيتها الجديد، وكان داراً كبيرة من الطراز الأنيق. كانت جدتي راضية. إذ جعلتها الأبّهة والمراسيم تشعر أنها نالت سمعة وتقديراً. ولم يُعرف شيء كهذا في يشيان في الذاكرة الحيّة.

عندما وصلت إلى البيت كان الجنرال شو ينتظر بكامل قيافته العسكرية، محاطاً بوجهاء البلد. وكانت شموع حمراء ومصابيح غازية باهرة تضيء وسط الدار، أو غرفة الجلوس، حيث سجدا سجوداً مراسيمياً للوحات السماء والأرض. بعد ذلك سجد أحدهما للآخر، ثم دخلت جدتي غرفة العرس بمفردها، حسب العادة المتّبعة، فيما ذهب الجنرال شو إلى حفلة باذخة مع الرجال.

لم يبارح الجنرال شو المنزل ثلاثة أيام. وكانت جدتي سعيدة. ظنت أنه أحبها، فقد أبدى نحوها نوعاً من الشغف الخشن. ولكنه نادراً ما كان يتكلم معها عن أمور جدية عملاً بالمثل التقليدي: «للنساء شعر طويل وذكاء قصير». وكان يُفتَرض بالرجل الصيني أن يبقى صموتاً وجليلاً حتى داخل أسرته. لذا ظلت ساكتة مكتفية بتدليك أصابعه قبل أن ينهضا في الصباح، وبعزف الكن له في المساء. بعد أسبوع أخبرها فجأة أنه راحل. لم يقل إلى أين ـ وكانت تعرف أن السؤال ليس فكرة جيدة. كان واجبها أن تنتظره حتى يعود. وكُتِب عليها أن تنتظر ست سنوات.

في أيلول/سبتمبر ١٩٢٤ اندلع قتال بين فئتي أسياد الحرب الرئيسيتين في شمال الصين. ورُقي الجنرال شو إلى نائب القائد العسكري لحامية بكين، ولكن في غضون أسابيع انقلب عليه حليفه القديم الجنرال فينغ، سيد الحرب المسيحي. وفي ٣ تشرين الثاني/نوفمبر أُجبِر تساو كون الذي ساعد الجنرال شو والجنرال فينغ في تنصيبه رئيساً في العام السابق، على الاستقالة. وفي اليوم نفسه سُرِّحت حامية بكين، وبعد يومين حُلَّ مكتب شرطة بكين. وكان على الجنرال شو أن يغادر العاصمة على عجل. واعتكف في بيت يملكه في تيانجين، منطقة الامتياز الفرنسي التي كانت لها حصانة فوق قانون البلد. وكان هذا المكان نفسه الذي هرب إليه الرئيس لي قبل عام عندما أجبَره شو على مغادرة قصر الرئاسة.

في هذه الأثناء وقعت يشيان في غمار القتال المتجدّد. فقد كانت السيطرة على

الشمال الشرقي ذات أهمية حيوية في الصراع بين جيوش أسياد الحرب، وكانت المدن الواقعة على خط السكة الحديد، وخاصة نقاط الاتصال مثل يشيان، أهدافاً مرصودة. بعد مغادرة الجنرال شو بفترة وجيزة وصل القتال إلى أسوار المدينة بمعارك ضارية جرت خارج البوابات مباشرة. وكانت أعمال النهب واسعة الانتشار. وقد توّجهت شركة إيطالية من شركات إنتاج السلاح إلى أسياد الحرب الذين كانوا يفتقرون إلى النقود، بالإعلان عن قبولها «قرى قابلة للنهب» كضمانة. وكان الاغتصاب شائعاً بالقدر نفسه. ومثل كثير من النساء الأخريات كان على جدتي أن تسوِّد وجهها بالسخام لتبدو قذرة وبشعة. ولحسن الحظ خرجت يشيان هذه المرة دون أن يمسها أذى عملياً. في النهاية انتقل القتال إلى الجنوب وعادت الحياة إلى حالتها الطبيعية.

كانت «الحالة الطبيعية» تعني لجدتي العثور على طرائق لقتل الوقت في بيتها الكبير. كان البيت مبنياً على الطراز الصيني الشمالي المعهود، حول ثلاثة أضلع لشكل رباعي حيث يكون الضلع الجنوبي لفناء الدار سوراً ارتفاعه حوالي سبعة أقدام مع بوابة قمرية تنفتح على باحة خارجية محروسة بدورها ببوابة مزدوجة ذات مِقرَعَة نحاسية مدوّرة.

كانت هذه البيوت تُبنى لكي تتحمل عوادي مناخ شديد القساوة ينقلب من شتاءات مُجمِّدة إلى أصياف حارقة، دون ربيع أو خريف بينها من الناحية الفعلية. في الصيف يمكن أن ترتفع درجة الحرارة إلى ٩٥° فهرنهايت ولكنها في الشتاء كانت تنخفض إلى ناقص ٢٠° فهرنهايت، مع رياح عاصفة تهبّ هادرة من سيبيريا عبر السهوب. كان الغبار يشق العيون وينهش الجلد على امتداد فترة طويلة من السنة، وكان على الناس أن يرتدوا في أحيان كثيرة أقنعة تغطي وجوههم ورؤوسهم كلها. وفي الباحة الداخلية للبيوت، كانت كل النوافذ في الغرف الرئيسية تنفتح على الجنوب لإدخال أكبر قدر ممكن من ضوء الشمس، فيما كانت الأسوار على الضلع الشمالي تصدّ الريح والغبار. وكان الضلع الشمالي من البيت يحوي غرفة جلوس وحجرة جدتي. فيما خصصت أجنحة الضلعين الآخرين للخدم ولكل الأنشطة الأخرى. وكانت أرض الغرف الرئيسية مفروشة بالبلاط، فيما الشبابيك الخشبية مغطاة بالورق. وكان السطح المطلي بالزفت مصنوعاً من بلاطات سوداء ناعمة.

كان البيت منيفاً بالمقاييس المحلية ـ وأرقى بكثير من بيت والديها ـ ولكن جدتي

كانت وحيدة وبائسة. كان هناك كثير من الخدم، بينهم بواب وطباخ وخادمتان. ولم تكن مهمتهم الخدمة فحسب، بل القيام أيضاً بدور الحرس والجواسيس. كانت لدى البواب تعليمات بأن لا يدع جدتي تخرج وحدها بأي حال من الأحوال. وروى الجنرال شو، قبل أن يغادر، قصة لجدتي عن جارية من جواريه. فقد اكتشف أن لها علاقة غرامية بأحد الخدم، فأوعز بربطها إلى السرير وكم فمها بقطعة قماش. ثم نُقِّط كحول خام على قطعة القماش خانقاً إياها ببطء حتى الموت. وقال: «بالطبع، ما كنت أستطيع أن أمنحها متعة الموت بسرعة. فخيانة المرأة لزوجها أحقر شيء ممكن». وحين يتعلق الأمر بالخيانة، فإن رجلاً مثل الجنرال شو كان يكره المرأة أكثر بكثير من الرجل. وأضاف بشكل عابر: «كل ما فعلته مع العشيق كان رميه بالرصاص». ولم تعرف جدتي قط ما إذا كان هذا كله قد حدث أم لا، ولكنها في سن الخامسة عشرة رُوِّعت على الوجه المطلوب.

منذ تلك اللحظة عاشت في خوف دائم. ولأنها لم تتمكن من الخروج إلا ما ندر، كان عليها أن تخلق عالماً لنفسها بين الجدران الأربعة. ولكنها حتى هناك لم تكن سيدة بيتها الحقيقية، وكان عليها أن تمضي كثيراً من الوقت في ترضية الخدم لكيلا يلفقوا حكايات ضدها ـ وهو أمر شائع حتى انه كان يُعدّ أمراً محتوماً. كانت تعطيهم هدايا كثيرة، وتنظم حفلات للعب الما ـ جونغ أيضاً، لأنه كان على الفائزين دائماً أن يكافئوا الخدم ببقشيش سخيّ.

لم تكن قطّ في عوز إلى المال. إذ كان الجنرال شو يرسل لها مخصّصات منتظمة، يسلمها لها كل شهر مدير مكتب الرهن الذي كان أيضاً يدفع فواتير خسائرها في حفلات الما ـ جونغ.

كانت حفلات الما ـ جونغ جزءاً طبيعياً من حياة الجواري في عموم الصين. وكذلك تدخين الأفيون الذي كان متاحاً على نطاق واسع، ويُنظر إليه على أنه وسيلة لإبقاء أمثالها قانعات ـ بأن يكنّ مخدرات وتابعات. وأصبح الكثير من الجواري مدمنات في محاولاتهن تحمل وحدتهن. وكان الجنرال شو يشجع جدتي على ممارسة هذه العادة ولكنها تجاهلته.

المرة الوحيدة تقريباً التي سمح لها بالخروج من البيت، كانت للذهاب إلى

الأوبرا. وخلاف ذلك كان عليها، كل يوم، أن تجلس في البيت طول اليوم. كانت تقرأ بنهم، مسرحيات وروايات بالدرجة الأولى، وتعتني بزهورها المفضّلة، بلسم الحديقة، الخبازي، شبُ الليل، وورود شارون في أصص في الفناء، حيث كانت أيضاً تزرع أشجاراً قزمة. وعزاؤها الآخر في قفصها الذهبي، كان قطة.

كان يسمح لها بزيارة والديها، ولكن حتى هذا كان يُنظر إليه بتبرّم، ولم يكن مسموحاً لها بالمبيت معهم. ورغم أنهما كانا الشخصين الوحيدين اللذين تستطيع الحديث معهما، فقد وجدت زيارتهما محنة. وكان أبوها رُقّي إلى نائب رئيس الشرطة المحلية بسبب علاقته بالجنرال شو، وامتلك أطياناً وعقارات. وكلما كانت تفتح فمها حول شدّة تعاستها، كان أبوها يشرع في توبيخها قائلاً لها إن المرأة الفاضلة ينبغي أن تكبت مشاعرها وأن لا ترغب في شيء سوى واجبها تجاه زوجها. ولا ضَيْر في افتقادها لزوجها، فهذا من باب الفضيلة، ولكن لا يفترض بالمرأة أن تجاهر بالشكوى. في الواقع، لا يُفتَرض بالمرأة الصالحة أن تكون لها وجهة نظر. وإذا كانت لها وجهة نظر، فينبغي أن لا تكون وقحة بحيث تتكلم عنها. وكان يذكر المَثَل الصيني القائل: «إذا كنتِ متزوجة لفرخة فأطيعي الفرخة، وإذا كنتِ متزوجة لكلب فأطيعي الكلب».

مرّت ستُ سنوات. في البداية كانت هناك رسائل قليلة ثم صمت مطبق. وإذ كانت جدتي عاجزة عن حرق طاقتها العصبية وإحباطها الجنسي، وعاجزة حتى عن ذرع الأرض بخطى كاملة بسبب قدميها المربوطتين، فقد لجأت إلى تَصَنُّع الكلام في أنحاء البيت. في البداية كانت تعول على رسالة ما، مسترجعة المرة تلو الأخرى، في ذهنها، حياتها القصيرة مع الجنرال. حتى خضوعها الجسدي والنفسي كان موضع تفكير يشوبه الحنين. كانت في شوق بالغ إليه رغم أنها كانت تعرف أنها ليست إلا واحدة من جواريه الكثيرات، ربما موزعات في أنحاء الصين، ولم تتخيّل قط أنها ستمضي بقية العمر معه. ومع ذلك كانت ملهوفة عليه لأنه كان فرصتها الوحيدة للعيش حياةً من نوع ما.

ولكن مع امتداد الأسابيع إلى أشهر والأشهر إلى سنوات، أصبحت لهفتها فاترة. وغدت تدرك أنها عنده مجرد لعبة لا يعود إلى التقاطها إلا عندما يحلو له التقاطها. ولم يكن في قلقها الآن موضوع تركز عليه. لقد أصبح محشوراً في قالب ضيّق، وعندما كان يمد أطرافه، في بعض الأحيان، كانت تضطرب حتى انها لا تعرف ما

تفعله بنفسها. وكانت أحياناً تسقط على الأرض فاقدة وعيها. وكُتب عليها أن تصاب بمثل هذه الإغماءات لما تبقى من حياتها.

ذات يوم، بعد ستّ سنوات على رحيله، حين خرج دون تكلّف، عاد «زوجها» إلى الظهور. كان اللقاء يختلف كثيراً عما كانت تحلم به في بداية افتراقهما. فحينذاك تخيّلت أنها ستمنحه نفسها كلياً وبعاطفة متقدة، ولكن كل ما استطاعت أن تجده الآن في نفسها هو إحساس منضبط بالواجب. وكانت معذّبة أيضاً بالتوجس من أنها لربما أساءت إلى أحد الخدم أو أنهم قد يختلقون قصصاً لتملق الجنرال وتخريب حياتها. ولكن كل شيء مرَّ بسلام. وبدا الجنرال الذي تعدّى الآن سن الخمسين، ليّن العريكة، وقطعاً لم يبدُ مهيباً كسابق عهده. وكما توقعتْ فإنه لم يقل كلمة عن أين كان ولماذا غادر على هذا النحوالمفاجىء أو لماذا عاد، وهي لم تسأل. فلم تكن تريد أن تُعَنَّف على فضولها، فضلاً عن أنها لم تكن مكترثة.

في الحقيقة، كل هذا الوقت لم يكن الجنرال بعيداً على الإطلاق. وكان يعيش الحياة الهانئة التي يعيشها وجيه متقاعد ثري، موزعاً وقته بين بيته في تيانجين وقصره الريفي قرب لولونغ. كان العالم الذي ازدهر فيه أخذ يصبح شيئاً يمتُّ إلى الماضي. فقد انهار أسياد الحرب ونظامهم الإقطاعي، وصار القسم الأعظم من الصين الآن تحت سيطرة قوة واحدة، الكومنتانغ أو الوطنيين، بقيادة تشاي كاي ـ شيك. ولإعلان القطيعة مع الماضي الفوضوي ومحاولة الإيحاء ببداية جديدة وإشاعة الاستقرار، عمد الكومنتانغ إلى نقل العاصمة من بكين («العاصمة الشمالية») إلى نانجنغ (العاصمة الجنوبية). في عام ١٩٢٨ تعرض حاكم منشوريا، تشانغ تسو ـ لن، المارشال العجوز، إلى الاغتيال على يد اليابانيين الذين أخذوا يزدادون نشاطاً في المنطقة. وانضمّ نجل المارشال العجوز، تشانغ هشو ـ ليانغ (المعروف بلقب المارشال الشاب) إلى الكومنتانغ ودمج منشوريا رسمياً ببقية الصين ـ رغم أن حكم الكومنتانغ لم يُبسَط قط بفاعلية في منشوريا.

لم تدم زيارة الجنرال شو لجدتي طويلاً. وكالمرة الأولى تماماً، أعلن على حين غرة، بعد أيام قليلة، أنه مغادر. وفي الليلة التي سبقت موعد رحيله، طلب من جدتي أن تذهب وتعيش معه في لولونغ. توقف قلبها لحظة. فإذا أمرها بالذهاب سيكون ذلك بمثابة حكم مؤبّد تحت سطح واحد مع زوجته وجواريه الأخريات.

اجتاحتها موجة من الهلع. وفيما كانت تدلك قدميه، استعطفته بهدوء أن يتركها في يشيان. حدثته عن مدى كرمه حين وعد والديها بأنه لن يأخذها بعيداً عنهما، وذكَّرته برقة أن أمها ليست في صحة جيدة: أنجبت لتوها طفلاً، الولد المنتَظر. وقالت إنها تود أن تراعي واجب البنوَّة مع السهر، بالطبع، على خدمة زوجها وسيدها كلما شرَّف يشيان بحضوره. في اليوم التالي حزمت أمتعته وغادر، وحيداً. ولدى رحيله، كما عند وصوله، أهال الجواهر على جدتي ـ ذهب وفضة ويَشْب ولؤلؤ وزمرد. كان يعتقد، مثل رجال كثيرين من نوعه، أن هذا هو الطريق إلى قلب المرأة. وبالنسبة لنساء مثل جدتي كانت الجواهر ضمانتهن الوحيدة.

بعد فترة وجيزة أدركت جدتي أنها حامل. وفي اليوم السابع عشر من القمر الثالث، في ربيع ١٩٣١، ولدت طفلة ـ أمي. كتبت إلى الجنرال شو لإحاطته علماً، وكتب جواباً يقول لها فيه أن تسمي البنت «باو كن» وأن تأتي بها إلى لولونغ حالما يقويان على السفر.

كانت جدتي سعيدة سعادة غامرة بإنجابها طفلاً. وشعرت أن لحياتها الآن غرضاً، وأغدقت كل حبها وطاقتها على أُمي. ومر عام سعيد. كتب الجنرال شو مرات عديدة يطلب منها المجيء إلى لولونغ، ولكنها في كل مرة كانت تفلح في التملّص منه. ثم، ذات يوم في منتصف صيف ١٩٣٢، وصلت برقية تقول إن الجنرال شو مريض مرضاً خطيراً وتأمرها بأخذ ابنتهما لرؤيته في الحال. وقد أوضحت اللهجة أن عليها الانصياع هذه المرة.

كانت لولونغ تبعد حوالي ٢٠٠ ميل، وبالنسبة لجدتي التي لم تسافر قط، كانت الرحلة عملاً كبيراً. كما كان من الصعب صعوبة بالغة السفر بقدمين مربوطتين. وكان من المتعذّر تقريباً حمل أمتعة، وخاصة مع احتضان طفل صغير. فقرّرت جدتي أن تأخذ معها شقيقتها ابنة الأربعة عشر عاماً «يو ـ لان» التي كانت تسميها «لان».

كانت الرحلة مغامرة. فقد عادت الاضطرابات إلى المنطقة من جديد. وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٣١ بدأت اليابان التي كانت توسع نفوذها في المنطقة باطّراد، غزواً شاملاً لمنشوريا. واحتلّت القوات اليابانية يشيان في ٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٢، وبعد شهرين أعلن اليابانيون تأسيس دولة جديدة سموها مانشو كوو (بلاد المانشو)،

كانت تغطي القسم الأعظم من شمال شرق الصين (مساحة بحجم فرنسا وألمانيا مجتمعتين). ادّعى اليابانيون أن مانشو كوو مستقلة ولكنها في الواقع كانت صنيعة طوكيو. وقد نصّبوا على رأسها بو يي الذي كان، وهو طفل، آخر أباطرة الصين. في البداية سُمّي رئيس الهيئة التنفيذية، ولاحقاً، في عام ١٩٣٤، صُنع منه امبراطور مانشو كوو. هذا كله لم يكن يعني الكثير لجدتي التي لم تكن على اتّصال يذكر بالعالم الخارجي. وكان عامة السكان جبريين بشأن من يُولّ عليهم لأنه لم يكن لهم خيار في الأمر. وبالنسبة للكثيرين كان بو يي هو الحاكم الطبيعي، امبراطوراً من المانشو و «ابن السماء» كما ينبغي. وبعد عشرين عاماً من قيام الثورة الجمهورية لم تكن هناك بعد أُمّة موحدة تحل محل حكم الامبراطور ولا كانت لدى الناس، في منشوريا، فكرة يُعتد بها عن كونهم مواطني شيء اسمه «الصين».

ذات يوم قائظ في صيف ١٩٣٢ ركبت جدتي وشقيقتها وأمي القطار إلى الجنوب من يشيان، خارجات من منشوريا عند مدينة شانهيغوان حيث ينحدر «السور العظيم» من الجبال إلى البحر. وإذ انطلق القطار هادراً على امتداد السهل الساحلي، كان بمقدورهن رؤية المنظر وهو يتغيّر: بدلاً من الأرض البنية ـ الصفراء العارية لسهول منشوريا كانت الأرض هنا دكناء أكثر والمزروعات أكثف، تكاد تكون مترعة بالمقارنة مع الشمال الشرقي. وبعد اجتياز «السور العظيم» بقليل استدار القطار باتجاه العمق، وفي غضون ساعة تقريباً توقف في مدينة تسمى تشانغلي حيث نزلن في مبنى له سطح أخضر، بدا كأنه محطة قطارات في سيبيريا.

استأجرت جدتي عربة تجرّها الخيول وانطلقت شمالاً على طريق ترابي وعر إلى قصر الجنرال شو الذي يبعد حوالي عشرين ميلاً، مباشرة خارج سور مدينة صغيرة تسمى يانهِيَنغ كانت في السابق معسكراً كبيراً يزوره أباطرة المانشو وحاشيتهم في أحيان كثيرة. ومن هنا اكتسب الطريق الاسم الفخم «الطريق الامبراطوري». وكان طريقاً تحفّه أشجار الحور وأوراقها فاتحة الخضرة تتلألأ في ضوء الشمس. وبين الأشجار، كانت بساتين من أشجار الدراق التي تزدهر في التربة الرملية. ولكن جدتي قلّما تمتعت بالمناظر، إذ كان الغبار يعفرها والطريق الوعر يخضّها بشدة. وكانت، قبل كل شيء، قلقة مما ينتظرها في الطرف الآخر.

حين رأت القصر أول مرة، هالتها عظمته. كانت البوابة الأمامية الضخمة

محروسة بمسلحين يقفون منتصبين في وضع الاستعداد إلى جانب تماثيل عملاقة لأسود رابضة. وكان هناك صفّ من ثمانية تماثيل حجرية تُربط عندها الخيول: أربعة تماثيل لفيلة وأربعة لقرود. وقد اختير هذان الحيوانان لِجَرْسِ الحظ في كل منهما: في اللغة الصينية لكلمتي «فيل» و «منصب رفيع» لفظ واحد (شيانغ) وكذلك لكلمتي «قرد» و «أرستقراطية» (هو). وحين مرت العربة عبر البوابة الخارجية إلى الفناء الداخلي، لم ترَ جدتي إلا جداراً مصمتاً ضخماً في مواجهتها. ثم، على جانب آخر، رأت بوابة ثانية. لقد كان هذا بناء صينياً كلاسيكياً، جداراً ساتراً لكي لا يتمكن الغرباء من النظر إلى داخل المبنى ولكي يتعذر أيضاً على المهاجمين أن يطلقوا النار أو يقتحموا البوابة الأمامية مباشرة.

ما إن عَبَرْنَ البوابة الداخلية، حتى ظهر خادم بجانب جدتي وأخذ طفلتها بطريقة قاطعة. وقاد خادم آخر جدتي صعوداً على درجات البيت وأدخلها غرفة جلوس زوجة الجنرال شو.

عندما دخلت جدتي الغرفة، خرَّت راكعة وسجدت قائلة «أحييك سيدتي»، بحسب مقتضيات الأصول المرعية. ولم يُسمح لشقيقة جدتي بدخول الغرفة، بل كان عليها الوقوف في الخارج كالخادم. لم يكن في ذلك شيء ضد شخصها: ذوو الجارية لا يُعامَلون كجزء من العائلة. وبعد أن سجدت جدتي فترة مناسبة من الوقت قالت لها زوجة الجنرال إنها تستطيع النهوض مستخدمة صيغة مخاطبة حَدَّدت على الفور موقع جدتي في تراتبية المنزل بوصفها شبه عشيقة، أقرب إلى شكل أرقى من أشكال الخدم منها إلى زوجة.

قالت لها زوجة الجنرال أن تجلس. وكان على جدتي أن تتخذ قراراً خلال جزء من الثانية. ففي البيت الصيني التقليدي حيث يجلس المرء، يعكس تلقائياً مركزه. وكانت زوجة الجنرال تجلس في النهاية الشمالية من الغرفة، كما يليق بشخص في مركزها. وإلى جانبها، تفصلها عنه طاولة جانبية، كان كرسي آخر أيضاً يواجه ناحية الجنوب: كان هذا مجلس الجنرال. وعلى امتداد كل جانب من جوانب الغرفة كان صف من الكراسي للأشخاص على اختلاف مراكزهم. سارت جدتي متراجعة وجلست على أحد الكراسي الأقرب إلى الباب، لإبداء تواضعها. وحينذاك طلبت منها الزوجة أن تتقدم ـ قليلاً فحسب. لقد كان عليها أن تبدي قدراً من اللطف.

حين جلست جدتي أخبرتها الزوجة أن ابنتها ستُربى من الآن فصاعداً وكأنها ابنتها (ابنة الزوجة) وستناديها هي، وليس جدتي «ماما». وعلى جدتي أن تعامل الطفلة بوصفها سيدة البيت الشابة، وأن تتصرف على هذا الأساس.

استُدْعيت خادمة لاقتياد جدتي إلى الخارج. شعرت أن قلبها يتفطّر، ولكنها حبست نشيجها ولم تطلق العنان لدموعها إلا حين وصلت غرفتها. كانت عيناها ما زالتا حمراوين حين أُخذت لمقابلة الجارية رقم اثنين بين جواري الجنرال شو، الجارية الأثيرة لديه التي كانت تدير البيت. كانت مليحة، ذات وجه شفاف، ولدهشة جدتي كانت متعاطفة تماماً معها، ولكن جدتي ضبطت نفسها ممتنعة عن الترويح بجلسة بكاء جيدة معها. وفي هذه البيئة الجديدة الغريبة حدست أن خير سياسة هي الحيطة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم أُخِذت لرؤية «زوجها». وسُمح لها بأخذ أمي معها. كان الجنرال مستلقياً على كانغ، ذلك النوع من الأسرّة الذي يُستخدم في سائر أنحاء شمال الصين، وهو سطح مستطيل، منبسط، كبير يرتفع حوالي قدمين ونصف القدم ويُسَخّن من تحت بموقد من الآجر. وكانت اثنتان من الجواري أو الخادمات تركعان حول الجنرال الممدَّد، تدلكان ساقيه وبطنه. كانت عينا الجنرال شو مغلقتين، وبدا شديد الشحوب. انحنت جدتي على حافة السرير ونادته بصوت خافت. فتح عينيه وتمكن من إطلاق نصف ابتسامة. قامت جدتي بوضع أمي على السرير وقالت: «هذه باو كِنْ». وبما بدا مجهوداً كبيراً مسَّدَ الجنرال شو رأس أمي بوهن وقال: «باو كِنْ تشبهك، مليحة جداً». ثم أغلق عينيه.

نادته جدتي ولكن عينيه ظلتا مغلقتين. كانت تستطيع أن ترى أنه مريض مرضاً خطيراً، بل لعله كان يُحتضر. التقطت أمي من على السرير وضمّتها إلى صدرها بقوة. ولكن لم تسنح لها إلا ثانية لاحتضانها عندما أخذت زوجة الجنرال التي كانت تحوم قربها، تشد كمها متأففةً. وفي الخارج حذرت الزوجة جدتي من إزعاج السيد بكثرة التردّد عليه، بل من إزعاجه أصلاً. لقد كان عليها في الواقع أن تبقى في غرفتها ما لم تُستدع.

كانت جدتي مرعوبة. فبوصفها جارية، كان مستقبلها كله ومستقبل ابنتها في

خطر، ربما حتى في خطر قاتل. لم تكن لديها حقوق. وإذا مات الجنرال ستكون تحت رحمة الزوجة التي كانت لديها سلطة الحياة والموت عليها. إنها تستطيع أن تفعل كل ما يعنُّ لها ـ بيعها إلى رجل ثري، أو حتى إلى ماخور، وهو أمر شائع تماماً. وحينذاك لن ترى جدتي ابنتها مرة أخرى أبداً. كانت تعرف أن عليها أن تهرب مع ابنتها بأسرع وقت ممكن.

حين عادت إلى غرفتها بذلت مجهوداً هائلاً لتهدئة نفسها والشروع في التخطيط لفرارها. ولكنها عندما حاولت التفكير شعرت كأن رأسها يفيض دماً. كانت ساقاها ضعيفتين حتى انها لم تتمكن من المشي دون التشبّث بالأثاث. انهارت وبكت ثانية ـ بكاء كان في جزء منه غضباً لأنها لم تستطع أن ترى مخرجاً. وأسوأ ما في الأمر التفكير في أن الجنرال يمكن أن يموت في أي لحظة، ويتركها أسيرة إلى الأبد.

تمكّنت تدريجياً من السيطرة على أعصابها وإجبار نفسها على التفكير بصفاء. بدأت تنظر حول القصر بمنهجية. كان مقسماً إلى عدة فناءات مختلفة، قائمة داخل مجمع كبير محاط بأسوار عالية. حتى الحديقة كانت مصمّمة بمراعاة الجانب الأمني وليس الجمالي. كان هناك قليل من أشجار السرو وبعض أشجار البتولا والبرقوق الشتائية، ولكن لم تكن أي منها قرب الأسوار. وللتوثق مرتين من أن أي قاتل محتمل لن يكون لديه غطاء، لم تكن هناك ولا حتى أي شجيرات كثيفة. وكانت البوابتان المؤديتان إلى الخارج من الحديقة مغلقتين بأَقفال، وكانت البوابة الأمامية محروسة على مدار الساعة برجال مسلّحين.

لم يُسمح لجدتي قط بمغادرة الفناءات المسوَّرة. كان مسموحاً لها بزيارة الجنرال كل يوم، ولكن فقط في نوع من الجولة المنظمة مع بعض النساء الأخريات، حين كانت تمرّ على سريره وتغمغم: «أحييك، سيدي».

في هذه الأثناء بدأت تكوّن فكرة أوضح عن الشخصيات الأخرى في البيت. فإلى جانب زوجة الجنرال، بدا أن المرأة التي لها أكبر قدر من الأهمية هي الجارية رقم اثنين. واكتشفت جدتي أنها أوعزت إلى الخدم بأن يُحسنوا معاملتها فجعل هذا وضعها أسهل بكثير. وفي بيت كهذا البيت، كان موقف الخدم يتحدّد بمركز مَنْ عليهم خدمتهم. فكانوا يتزلفون لمن لديهم حظوة ويضطهدون من كان مغضوباً عليهم.

كانت لدى الجارية رقم اثنين ابنة أكبر قليلاً من أمي. وكانت هذه وشيجة أخرى بين المرأتين، فضلاً عن كونها سبباً لحظوة الجارية لدى الجنرال شو الذي لم يكن لديه أطفال آخرون سوى أمي.

بعد شهر أصبحت خلاله الجاريتان على علاقة ودية تماماً، ذهبت جدتي لرؤية زوجة الجنرال وأخبرتها أنها يجب أن تعود إلى بيتها لجلب بعض الملابس. فأعطت الزوجة إذناً بذلك. ولكن حين سألت جدتي إن كان بوسعها أخذ ابنتها لتوديع جديها، رفضت. فنسل شو لا يمكن أن يخرج من البيت.

وهكذا انطلقت جدتي على الطريق الترابي إلى تشانغلي. وبعد أن أنزلها الحوذي عند محطة القطارات بدأت تستفسر من الذين كانوا يتسكعون هناك. وعثرت على فارسين أبدَيا استعدادهما لتوفير واسطة النقل التي تحتاج إليها. وانتظرت حلول الظلام ثم هرعت عائدة إلى لولونغ مع الفارسين وحصانيهما متخذين طريقاً مختصراً. أجلسها أحد الرجلين على السرج وراح يعدو في المقدمة ماسكاً الحصان من عنانه.

حين وصلت القصر توجهت إلى بوابة خلفية وأعطت إشارة متفقاً عليها سلفاً. وبعد انتظار بدا ساعات، ولكنه لم يكن في الواقع إلا بضع دقائق، فتحت البوابة وظهرت شقيقتها في ضوء القمر حاملة أمي بين ذراعيها. كان قفل الباب قد فتحته الجارية الصديقة رقم اثنين التي ضربته عند ذاك بفأس ليبدو وكأنه فتح عنوة.

لم يكن في الوقت متّسع لكي تعانق جدتي أمي ـ كما أنها لم تكن تريد إيقاظها لكي لا تثير ضجيجاً وتنبّه الحرس. ركبت وشقيقتها الحصانين فيما رُبطت أمي إلى ظهر أحد الفارسين، وانطلق الجميع في الظلام. كان الفارسان قد أُجزلا العطاء، فراحا يعدوان بسرعة. مع بزوغ الفجر كانوا في تشانغلي، وقبل أن يمكن إطلاق الإنذار كان يقلهنّ القطار المتجه شمالاً. وحين دخل القطار في النهاية مدينة يشيان مع حلول الليل، سقطت جدتي على الأرض وبقيت طريحة هناك زمناً طويلاً، غير قادرة على الحركة.

لقد أصبحت نسبياً في أمان، على بعد ٢٠٠ ميل من لولونغ وبعيدة عملياً عن متناول آل شو. لم تتمكن من أخذ أمي إلى بيتها، خوف الخدم، فسألت صديقة قديمة من أيام الدراسة إن كانت تستطيع إخفاء أمي. كانت الصديقة تعيش في بيت

حماها، وهو طبيب مانشوي يدعى الدكتور شيا، كان معروفاً كرجل طيب لا يخيِّب أحداً أو يخون صديقاً على الإطلاق.

ما كان آل شو ليكترثوا بجدتي، التي كانت مجرد جارية، إلى حد ملاحقتها. أمي، صاحبة النسب، كانت هي المهمة. فأرسلت جدتي برقية إلى لولونغ تقول فيها إن أمي أصيبت بمرض في القطار وماتت. وأعقب ذلك انتظار من العذاب تقلّب خلاله مزاج جدتي تقلباً جامحاً. فأحياناً كانت تعتقد أن العائلة لا بد صدَّقت روايتها. ولكنها كانت حينذاك تعذب نفسها بالتفكير أن الحال لا يمكن أن تكون كذلك، وأنهم بصدد إرسال عتاة يعيدونها أو يعيدون ابنتها بالإكراه. وفي النهاية واست نفسها بالتفكير أن عائلة شو أكثر انشغالاً بموت كبيرها الوشيك من أن يصرفوا طاقة في القلق بشأنها، وأنه لربما كان لمصلحة النساء أن لا توجد ابنتها بينهن.

وما أن أدركت جدتي أن عائلة شو ستتركها وشأنها حتى عادت إلى الاستقرار بهدوء في بيتها في يشيان مع أمي. ولم تقلق حتى بشأن الخدم لأنها كانت تعرف أن «زوجها» لن يأتي. دام الصمت من لولونغ أكثر من عام حتى جاء يوم من أيام الخريف في عام ١٩٣٣، عندما وصلت برقية تُعْلمها أن الجنرال شو مات ويُنْتَظَر حضورها إلى لولونغ على الفور لدفنه.

مات الجنرال في تيانجين في أيلول/ سبتمبر وأعيد جثمانه إلى لولونغ في تابوت مصقول بورنيش اللك يغطيه حرير أحمر مطرّز. وكان في رفقته تابوتان آخران، أحدهما مصقول على الغرار نفسه ومكسوّ بالحرير الأحمر الذي يكسو تابوته، والآخر من الخشب العادي بلا غطاء. كان التابوت الأول يضم جارية من جواريه ابتلعت كمية من الأفيون لمرافقته في الموت. وكان هذا يعتبر قمة الوفاء الزوجي. وفي وقت لاحق عُلِّقت لوحة نقشها سيد الحرب الشهير وو بي ـ فو على شرفها في قصر الجنرال شو. كان التابوت الثاني يضم رفات جارية أخرى ماتت بمرض التيفوئيد قبل عامين. وأُخرِج جثمانها لإعادة دفنه إلى جانب الجنرال شو بحسب العادة المتبعة. وكان تابوتها من الخشب العادي إذ كانت تُعدّ فألاً سيئاً لموتها بمرض رهيب. وقد وُضِع زئبق وفحم داخل كل تابوت لمنع تعفن الجثث، وكان هناك لؤلؤ في أفواه الجثث.

دُفن الجنرال شو والجاريتان معاً في قبر واحد. وسوف تُدخَل زوجته والجواري الأخريات في النهاية لوضعهن إلى جانبه. وخلال التشييع كان على ابن المتوفى أن يضطلع بالواجب الضروري المتمثّل في حمل علم خاص لدعوة روح الفقيد. ولأنه لم يكن لدى الجنرال ابن، عمدت زوجته إلى تبني ابن أخيه البالغ من العمر عشر سنوات ليستطيع أداء المهمة. كما نفذ الفتى طقساً آخر ـ الركوع جنب التابوت والمناداة: «تَجَنَّب المسامير!». كان التقليد يذهب إلى أنه إذا لم يتم ذلك فإن المسامير ستؤذي الميت.

كان موقع القبر من اختيار الجنرال شو نفسه بحسب مبادىء الهندسة. وكان في بقعة هادئة، جميلة مؤخرتها باتجاه الجبال النائية في الشمال فيما تواجه مقدمتها جدولاً يجري بين أشجار الأوكالبتوس إلى الجنوب. وكان هذا الموضع يعبر عن الرغبة في امتلاك أشياء صلبة يستند المرء إليها ـ الجبال ـ وانعكاس الشمس المجيدة، رمزاً للازدهار الصاعد، في المقدمة.

ولكن جدتي لم ترَ البقعة قط: تجاهلت الدعوة التي أُرسلت إليها ولم تحضر التشييع. ما حدث بعد ذلك أن مكتب الرهن تخلف عن المجيء لتسليم مخصّصاتها. وبعد أسبوع تلقى والدها رسالة من زوجة الجنرال شو. كانت كلمات جدي الأخيرة أن تُمنح جدتي حريتها. كادت لا تصدق حظها السعيد.

لقد صارت حرة في سن الرابعة والعشرين.

٢ ـ «حتى الماء العادي البارد حلو المذاق» ـ جدتي تتزوج طبيباً مانشوياً (١٩٣٣ ـ ١٩٣٨)

طلبت الرسالة التي بعثتها زوجة الجنرال شو من والدَيْ جدتي أيضاً أن يعيداها إلى بيتهما. ورغم أن المسألة كانت مبطنة بالصيغة اللامباشرة التقليدية، فإن جدتي عرفت أن ذلك كان أمراً لها بالمغادرة.

أخذها أبوها لإيوائها عنده، ولكن بقدر كبير من التمنع. فهو الآن تخلى عن أي ادّعاء بكونه رجل أسرة. فمنذ اللحظة التي رتّب فيها الارتباط مع الجنرال شو تحسّنت أحواله فضلاً عن ترقيته إلى نائب رئيس شرطة يشيان والانضمام إلى صفوف أصحاب العلاقات الجيدة. أصبح ثرياً نسبياً، واشترى بعض الأطيان وتوجّه إلى تدخين الأفيون.

وما إن رقّي حتى اقتنى جارية، امرأة منغولية قدّمها إليه مسؤولُه المباشر. كان إهداء جارية إلى زميل صاعد ممارسة شائعة، وكان رئيس الشرطة المحلية سعيداً بخدمة محسوب من محاسيب الجنرال شو. ولكن أبا جدتي سرعان ما بدأ يبحث عن جارية أخرى. فقد كان من المفيد لرجل في مركزه أن يمتلك أكبر عدد ممكن منهن ـ كان ذلك تعبيراً عن مكانة الرجل. ولم يضطر إلى البحث بعيداً، إذ كانت لدى الجارية أخت.

حين عادت جدتي إلى بيت والديها، كانت الأحوال تختلف تماماً عما كانت عليه عندما غادرت قبل قرابة عقد من الزمان. فبدلاً من مجرد أمها التعيسة، المسحوقة،

كانت هناك الآن ثلاث زوجات. وأنجبت إحدى الجواري ابنة كانت في سن أمي. وكانت «لان» شقيقة جدتي، لا تزال غير متزوجة بعد، في سن السادسة عشرة، فكان ذلك سبباً لضيق يانغ.

انتقلت جدتي من بؤرة دسائس إلى بؤرة أخرى. وكان أبوها يمقتها ويمقت أمها. كان يمقت زوجته لمجرد كونها موجودة هناك، وكان حتى أشدّ غلاظة معها الآن وقد أصبح لديه جاريتان يفضلهما عليها. كان يتناول وجباته مع الجاريتين تاركاً زوجته تأكل وحدها. أما جدتي فكان يمقتها لعودتها إلى البيت بعد أن نجح في بناء عالم جديد لنفسه.

كما كان يعتبرها منحوسة (كي) لأنها خسرت زوجها. ففي تلك الأيام كانت المرأة التي يموت زوجها، تُحمَّل خرافياً مسؤولية موته. وكان أبو جدتي ينظر إلى ابنته على أنها فأل سيىء، تهديد لثروته المحترمة، وكان يريدها أن ترحل عن البيت.

كانت الجاريتان تحرّضانه. فقبل عودة جدتي كانت الأمور تجري إلى حد بعيد حسب مشيئتهما. وكانت أم جدتي شخصاً رقيقاً، بل شخصاً ضعيفاً. ورغم أنها كانت نظرياً المتسيّدة على الجاريتين، فقد عاشت تحت رحمة نزواتهما. وفي عام ١٩٣٠، أنجبت ولداً هو يو ـ لن. فحرم ذلك الجاريتين من ضمان مستقبلهما، لأنه لدى وفاة والد جدتي ستؤول كل ممتلكاته تلقائياً إلى ابنه. وكانتا تستشيطان غضباً إذا أبدى يانغ أي محبة تجاه ابنه. ومن اللحظة التي ولد فيها يو ـ لن صعَّدتا حربهما النفسية ضدّ أم جدتي حيث جمدتاها في عقر دارها. وكانتا لا تتكلمان معها إلا للتذمر والشكوى، وإذا نظرتا إليها كانتا تنظران إليها بوجهين باردين مثل الحجر. ولم تلقَ أم جدتي مساندة من زوجها الذي لم يفتر ازدراؤه لها لأنها أعطته ولداً. فقد وجد طرائق جديدة لتَسقُّط عيوبها.

كانت جدتي شخصية أقوى من أمها، وعمل بؤس العقد السابق على تقسيتها. وكان حتى أبوها يهابها إلى حد ما. قالت لنفسها إن أيام الخنوع لأبيها قد ولّت، وإنها ستكافح من أجل نفسها ومن أجل أمها. وما دامت هي في البيت كان على الجاريتين أن تعرفا حدودهما، بل أن تكشّرا عن ابتسامة متزلّفة أحياناً.

في هذا الجوّ، عاشت أمي سنوات التكوين من العام الثاني إلى العام الرابع من

عمرها. ورغم أنها كانت محمية بحب أمها، فقد كانت قادرة على تحسّس التوتر السائد في البيت.

كانت جدتي الآن شابة جميلة في منتصف العشرينات من عمرها. وهي على درجة عالية من الاقتدار، وقد طلب يدها من أبيها رجال عديدون. ولكن لأنها كانت جارية، فإن الوحيدين الذين عرضوا أخذها كزوجة حقيقية كانوا فقراء ولم تكن لديهم أي فرصة مع السيد يانغ.

ضاقت جدتي ذرعاً بما في عالم الجواري من ضغائن وثارات صغيرة، حيث الخيار الوحيد بين أن تكون ضحية أو أن تضطهد الآخرين. لم يكن هناك حلّ وسط بين هذا وذاك. وكل ما كانت جدتي تريده هو أن تُترك وشأنها لتربية ابنتها بسلام.

كان أبوها يضايقها دوماً بإلحاحه عليها أن تتزوج ثانية، تارة بتلميحات قاسية وتارة بإخبارها صراحة أن عليها أن تزيح نفسها عن كاهله. ولكن لم يكن هناك ملاذ تلجأ إليه. لم يكن لديها مكان تعيش فيه، ولم يكن مسموحاً لها بإيجاد عمل. وبعد زمن، لم تعد تطيق الضغط، فأصيبت بانهيار عصبي.

دُعي طبيب إلى البيت. كان الدكتور شيا الذي أُخفيت أمي في بيته قبل ثلاث سنوات، بعد الفرار من قصر الجنرال شو. ورغم أنها كانت صديقة كنّته، فإن الدكتور شيا لم يرَ جدتي ذات يوم ـ التزاماً بالفصل الصارم بين الجنسين الذي كان سائداً وقتذاك. وحين دخل غرفتها أول مرة، صُعق بجمالها حتى انه لارتباكه تراجع خارجاً من جديد وتمتم للخادم أنه لا يشعر بصحة جيدة. وفي النهاية استعاد هدوءه وجلس وتحدث معها حديثاً طويلاً. كان أول رجل تلتقيه وتستطيع أن تقول له ما تشعر به حقاً، وباحت له بأحزانها وآمالها ـ وإن بتحفظ كما يليق بامرأة تتحدث إلى رجل ليس زوجها. وكان الدكتور رقيقاً ودافئاً، ولم تشعر جدتي أن أحداً فهمها ذات يوم كما فهمها هو. وقبل أن يمضي وقت طويل أحب الاثنان أحدهما الآخر، وتقدم الدكتور شيا لخطبتها. والأكثر من ذلك أنه قال لجدتي إنه يريدها أن تكون زوجته على الوجه الصحيح، وأن يربّي أمي كما لو كانت ابنته. وافقت جدتي، بدموع الفرح. وكان أبوها سعيداً أيضاً، رغم أنه سارع إلى أن يبين للدكتور شيا أنه لن يكون قادراً على توفير أي جهاز لابنته. وقال له الدكتور شيا إن ذلك لا يهم على الإطلاق.

كان الدكتور شيا قد بنى عيادة كبيرة لممارسة الطب التقليدي في يشيان، وكان يتمتع بسمعة مهنية عالية جداً. لم يكن صينياً من الهان، كما كان آل يانغ وغالبية الناس في الصين، بل كان مانشوياً، من سكان منشوريا الأصليّين. وكانت عائلته في وقت مضى أطباء بلاط لأباطرة المانشو، وكُرِّموا على خدماتهم.

كان الدكتور شيا معروفاً لا كطبيب ممتاز فحسب، بل كرجل طيب جداً غالباً ما يعالج الفقراء مجاناً. كان رجلاً ضخماً، يزيد طوله على ستة أقدام، ولكنه يتحرك بخفّة رغم حجمه. كان دائماً يرتدي ثياباً تقليدية طويلة وسترة. له عينان بنيتان حانيتان ولحية صغيرة مشذّبة وشاربان طويلان متدليان. كان وجهه وهيئته كلها تشع هدوءاً.

كان الدكتور متقدماً في السن حين طلب يد جدتي. كان في الخامسة والستين من العمر، وأرمل لديه ثلاثة أبناء كبار وابنة واحدة كبيرة، كلهم متزوجون. وكان الأبناء الثلاثة يعيشون معه في البيت. الأكبر يعتني بشؤون المنزل ويدير مزرعة العائلة. والثاني يعمل في عيادة أبيه والثالث المتزوج من صديقة جدتي من أيام المدرسة، معلم. وكان لدى الأبناء مجتمعين ثمانية أطفال، أحدهم متزوج ولديه ولد.

دعا الدكتور شيا أبناءه إلى مكتبه وأخبرهم بمشاريعه. استرقوا نظرات متجهمة، غير مصدِّقة، إلى بعضهم بعضاً. كان هناك صمت ثقيل. ثم تحدث الأكبر: «على ما أفترض، يا أبي، أنك تعني أنها ستكون جارية». أجاب الدكتور شيا قائلاً إنه سيأخذ جدتي زوجةً حقيقيةً. وكانت لذلك دلالات هائلة لأنها ستصبح زوجة الأب وسيتعين أن تعامل بوصفها من الجيل الأقدم، ذات مكانة تستدعي الاحترام على قدم المساواة مع زوجها. ففي البيت الصيني الاعتيادي، يتعيّن على الجيل الأصغر أن يخضع للجيل الأقدم، بما في ذلك من سلوك مناسب لتحديد مواقعهم النسبية، ولكن الدكتور شيا كان يتمسك بنظام آداب مانشوي أشدّ تعقيداً. إذ كان على الأجيال الأصغر أن تقدم احتراماتها إلى الجيل الأكبر كل صباح وكل مساء، حيث الرجال يركعون والنساء ينحنين. وفي المهرجانات، يتعين على الرجال أن يسجدوا سجوداً كاملاً. ولأن جدتي كانت جارية، بالإضافة إلى فارق السن، فقد كان عليهم أن يقدموا آيات الاحترام إلى شخص أدنى مكانة وأصغر سناً منهم بكثير، وذلك أكثر مما يتحمله الأبناء.

اجتمعوا مع باقي أفراد العائلة وأذكوا مشاعرهم إلى حالة من الغضب المتفجر. حتى الكنَّة التي كانت صديقة جدتي القديمة من أيام المدرسة، كانت حانقة لأن زواج حميها سيفرض عليها علاقة جديدة من الأساس مع شخص كان زميل صف معها. ولن تكون قادرة على الأكل من المائدة نفسها التي تأكل منها صديقتها القديمة، أو حتى الجلوس معها. وسيكون عليها أن تنحني لها وحتى السجود لها.

توجّه كل فرد من أفراد العائلة ـ الأبناء والكنّات والأحفاد وحتى ابن الحفيد ـ بحسب الدور، للتوسّل إلى الدكتور شيا «أن يراعي مشاعر لحمه ودمه». خرّوا راكعين، انبطحوا ساجدين، نحبوا وصرخوا.

توسلوا إلى الدكتور شيا أن يراعي أنه مانشوي، وبحسب عادة المانشو القديمة فإن رجلاً بمنزلته ينبغي أن لا يتزوج صينية من الهان. ردّ الدكتور شيا قائلاً إن هذه القاعدة أُلغيت منذ زمن بعيد. قال أبناؤه إنه إذا كان مانشوياً جيداً سيلتزم بها مع ذلك. استرسلوا في الحديث عن فارق السن. كان الدكتور شيا يكبر جدتي ضعف عمرها. وساق أحد أفراد العائلة مثلاً قديماً: «الزوجة الشابة التي لها زوج عجوز هي في الحقيقة امرأة رجل آخر».

كان الابتزاز العاطفي أشد ما جرح الدكتور شيا ـ خاصة الحجة القائلة إن اتخاذ جارية سابقة زوجة حقيقية سيؤثر في مركز أبنائه في المجتمع. كان يعرف أن أبناءه سيفقدون ماء وجههم، ويشعر بالإثم لذلك. ولكن الدكتور شيا شعر أن عليه أن يضع سعادة جدتي أولاً. فإذا اتخذها جارية لن تفقد ماء وجهها فحسب، بل ستصبح عبدة لكل العائلة. وحبّه وحده لن يكفي لحمايتها إن لم تكن زوجته الحقيقية.

ناشد الدكتور شيا عائلته أن تلبّي رغبة رجل عجوز، لكنهم ـ والمجتمع ـ اتّخذوا الموقف القائل إن الرغبة اللامسؤولة ينبغي أن لا تستجاب. وألمح البعض إلى أنه خَرِف. وقال له آخرون: «لديك أبناء وأحفاد وحتى ابن حفيد، عائلة كبيرة وناجحة. فماذا تريد أكثر؟ لماذا يجب أن تتزوجها؟».

ومضت الحجج تترى. وظهر أقارب وأصدقاء أكثر فأكثر على المسرح، كلهم بدعوة من الأبناء. وأعلنوا بالإجماع أن الزواج فكرة مجنونة. ثم وجّهوا حقدهم ضد جدتي. «تتزوج ثانية وجثة زوجها وعظامه لم تبرد بعد!»، «هذه المرأة دبّرت الأمر

كله وفق خطة محسوبة: إنها ترفض القبول بوضع الجارية لكي تتمكن من أن تصبح زوجة حقيقية. إذا كانت تحبك حقاً، لماذا لا ترضى بأن تكون جاريتك؟». ونسبوا إلى جدتي انها تخطّط لاستدراج الدكتور شيا إلى الزواج منها ثم تبسط سيطرتها على العائلة وتسيء معاملة أبنائه وأحفاده.

كما ألمحوا إلى أنها تتآمر لوضع يدها على أموال الدكتور شيا. وتحت كل حديثهم عن الأصول والأخلاق ومصلحة الدكتور شيا نفسه، كانت هناك حسابات غير معلنة تتعلق بأرصدته. إذ كان الأقارب يخشون أن تضع جدتي يدها على ثروة الدكتور شيا لأنها ستصبح تلقائياً مديرة المنزل بصفتها زوجته.

كان الدكتور شيا رجلاً ثرياً. كان يمتلك ٢٠٠٠ فدّان من الأراضي الزراعية المنتشرة في أنحاء مقاطعة يشيان، وكانت لديه بعض الأراضي جنوب «السور العظيم». وكان بيته الكبير في المدينة مبنياً من الآجر البني المخطّط بدهان أبيض على الطريقة الحديثة. وكانت سقوفه مبيَّضة وغرفه مغطّاة بورق الجدران بحيث إن الدعامات والوصلات كانت مخفية، الأمر الذي كان يعتبر مؤشراً هاماً على الرفاه. كما كان يمتلك عيادة طبية ناجحة ومتجراً لبيع الأدوية.

حين رأت العائلة أنها لم تخرج بنتيجة، قرّرت الاتجاه نحو جدتي مباشرة. وذات يوم زارتها الكنَّة التي كانت في المدرسة معها. بعد الانتهاء من الشاي والمجاملات الاجتماعية، انتقلت الصديقة إلى مهمتها. انفجرت جدتي بالبكاء ومسكتها من يدها بطريقتها الحميمية المعتادة. سألت، ماذا ستفعل لو كانت في مكانها. وحين لم تتلقَ إجابة ألحّت: «إنك تعرفين معنى أن تكون المرأة جارية. لن تريدي أن تكوني واحدة، أليس كذلك؟ أو لا تعرفين أن هناك قولاً لكونفوشيوس: «جيانغ ـ شن ـ بي ـ شن ـ تخيَّل قلبي قلبك!» ». إن التوجّه إلى غرائز المرء الخيّرة بوصية من الحكيم يكون أحياناً أجدى من «لا» مباشرة.

عادت الصديقة إلى عائلتها وهي تشعر بالإثم تماماً، ونقلت فشلها. ألمحت إلى أن قلبها لم يطاوعها لدفع جدتي أكثر. وقد وجدت لها حليفاً في دي ـ غوي، ابن الدكتور شيا الثاني الذي يمارس الطب مع أبيه، والأقرب إليه من شقيقيه. إذ قال إنه يعتقد أن عليهم أن يسمحوا للزواج بأن يتم. وبدأ الابن الثالث أيضاً يضعف عندما سمع زوجته تصف كَرَب جدتي.

كان الأشد غضباً الابن الأكبر وزوجته. وحين رأت زوجة الابن الأكبر أن الابنين الآخرين أخذا يتردّدان، قالت لزوجها: «إنهما طبعاً لا يكترثان. فلديهما أعمال أخرى. وهذه المرأة لا يمكنها أن تأخذ هذه الأعمال منهما. ولكن ماذا لديك أنت؟ لست إلا مدير منزل الرجل العجوز ـ وسيؤول ذلك إليها وإلى ابنتها! وماذا سيكون مصيري أنا المسكينة ومصير أطفالي المساكين؟ ليس لدينا شيء نستند إليه. ربما علينا أن نموت جميعاً! ربما هذا ما يريده أبوك حقاً! ربما ينبغي أن أقتل نفسي وأسعدهم جميعاً!». كل هذا اقترن بعويل وأنهار من الدموع. أجاب زوجها مهتاجاً: «أمهليني فقط حتى الغد».

حين استيقظ الدكتور شيا صباح اليوم التالي وجد عائلته كلها، باستثناء دي ـ غوي وحده، خمسة عشر شخصاً في المجموع، يركعون خارج غرفة نومه. وما إن خرج، حتى صاح ابنه الأكبر «سجود!»، وتمدّدوا كلهم في تناغم. ثم أعلن الابن بصوت يرتجف عاطفة: «أبتاه، أبناؤك وعائلتك كلها سيبقون هنا ويسجدون لك حتى مماتنا ما لم تبدأ التفكير فينا، عائلتك ـ وفي المقام الأول نفسك العجوز».

غضب الدكتور شيا حتى انتفض جسمه كله. وطلب من أبنائه أن ينهضوا، ولكن قبل أن يتمكن أحد من التحرك تحدث الابن الأكبر ثانية: «كلا يا أبت، لن نفعل ـ ما لم تلغ الزواج!». حاول الدكتور شيا أن يتفاهم معه بالعقل، ولكن الابن استمرّ في توعده بصوت مرتجف. وأخيراً قال الدكتور شيا: «أعرف ما يجول في أذهانكم. لن أكون في هذا العالم زمناً طويلاً. وإذا كنتم قلقين حول الطريقة التي سوف تتصرّف بها زوجة أبيكم القادمة فليس لدي أدنى شك في أنها سوف تعاملكم جميعاً معاملة حسنة جداً. أعرف أنها شخص طيّب. ومن المؤكّد أنكم تستطيعون أن تروا أنه ليست هناك ضمانة أخرى أقدّمها لكم غير شخصيتها».

لدى ذكر كلمة «شخصية» عبّر الابن الأكبر عن استهجانه بشخرة عالية: «كيف تستطيع أن تذكر كلمة «شخصية» عن جارية! ما من امرأة صالحة كانت ستصبح جارية أصلاً!». ثم بدأ يشتم جدتي. عند ذاك لم يتمكن الدكتور شيا من السيطرة على نفسه. رفع عصاه وانهال بها على ابنه.

كان الدكتور شيا طول حياته رمزاً للرصانة والهدوء. وقد ذهلت العائلة بكل

أفرادها الذين ما برحوا راكعين، وبدأ ابن الحفيد يصرخ بهستيريا. وكان الابن الأكبر مصعوقاً ولكن للحظة فقط ثم رفع صوته مرة أخرى، لا من شدة الألم الجسدي فحسب، وإنما لكبريائه المجروحة بضربه أمام عائلته. توقف الدكتور شيا، لاهثاً من الغضب والإنهاك. وفي الحال بدأ الابن يكيل مزيداً من الشتائم لجدتي. صرخ أبوه به أن يخرس وضربه بقوة حتى أن عصاه انكسرت.

فكّر الابن بما لحقه من مهانة وألم بضع ثوان، ثم سحب مسدساً ونظر إلى الدكتور شيا في وجهه. «الوفي من الرعية يستخدم موته لإبداء اعتراضه لدى الإمبراطور. والوفي من الأبناء ينبغي أن يفعل الشيء نفسه مع أبيه. وكل ما لديَّ لإبداء اعتراضي لديك هو موتي». ولعلعت طلقة. ترنح الابن ثم جنح ساقطاً على الأرض. فقد أطلق رصاصة في بطنه.

هرعت به عربة تجرّها الخيول إلى مستشفى قريب حيث فارق الحياة في اليوم التالي. لعله لم يعتزم قتل نفسه بل مجرد القيام بحركة مسرحية ليكون الضغط على أبيه ضغطاً لا يقاوم.

تحطّم الدكتور شيا بموت ابنه. ورغم أنه كان يبدو في الظاهر هادئاً كالمعتاد، فإن من كانوا يعرفونه كانوا يرون أن سكينته أصبحت مشروخة بحزن عميق. ومنذ ذلك الحين أمسى عرضة لنوبات من الكآبة على نقيض حادّ مع تماسكه السابق.

كانت يشيان تغلي بالغضب والشائعات والاتّهامات. ودُفع الدكتور شيا، وخاصّة جدتي، إلى الشعور بأنهما مسؤولان عن ذلك الموت. أراد الدكتور شيا أن يبين أنه لن يرتدع. فبعد فترة وجيزة من تشييع ابنه حدّد موعداً للعرس. وحذّر أبناءه بأن عليهم أن يقدموا آيات الاحترام اللازم لأُمهم الجديدة، وأرسل دعوات إلى وجهاء المدينة. وكانت العادة تقضي بحضورهم وتقديم الهدايا. كما قال لجدتي أن تتهيّأ لحفلة كبيرة. وهي المرتاعة من الاتهامات وتأثيرها المجهول في الدكتور شيا، كانت تحاول باستماتة أن تقنع نفسها بأن لا ذنب لها. ولكنها شعرت، في المقام الأول، بروح التحدّي فيها. وقد وافقت على طقوس احتفالية كاملة. في يوم العرس غادرت بيت أبيها في عربة مستفيضة الأناقة يرافقها موكب من العازفين. وبحسب عادة المانشو، كانت عائلتها هي التي استأجرت العربة لنقلها حتى منتصف الطريق إلى بيتها

الجديد، وبعث العريس عربة أخرى لنقلها النصف الثاني من الطريق. وفي نقطة التسليم كان شقيقها البالغ من العمر خمس سنوات، يو ـ لن، ينتظر عند أسفل باب العربة وظهره محني انحناءة مزدوجة ترمز إلى فكرة حمله إياها على ظهره إلى عربة الدكتور شيا. وكرّر الحركة عندما وصلت إلى بيت الدكتور شيا. فالمرأة لا يمكن أن تدخل بيت الرجل كيفما اتّفق. إذ إن ذلك سينطوي على خسارة فادحة في المقام. ويتعيّن رؤيتها وهي تؤخذ إليه إشارة إلى الممانعة المطلوبة.

قادت إشبينتان جدّتي إلى الغرفة التي تقرّر إقامة حفلة الزفاف فيها. وكان الدكتور شيا يقف أمام منضدة مكسوّة بحرير أحمر مطرّز وضعت عليها ألواح «السماء» و «الأرض» والامبراطور والأسلاف والمعلم. وكان يرتدي قبّعة مزينة كالتاج مع ريشة شبيهة بالذَنَب في الخلف، وعباءة تقليدية طويلة، فضفاضة، مطرّزة ذات أكمام على شكل جرس، وهي رداء مانشوي تقليدي مناسب لركوب الخيل ورمي السهام، مستمدّ من ماضي المانشو البدوي. ركع وسجد خمس مرات للألواح ثم دخل غرفة الزفاف بمفرده.

بعد ذلك انحنت جدتي، والإشبينتان ما زالتا في رفقتها، خمس انحناءات، لامسة شعرها كل مرة بيدها اليمنى في حركة تشبه التحية. لم تتمكن من السجود بسبب حجم غطاء رأسها المتكلّف. ثم تبعت الدكتور شيا إلى غرفة الزفاف حيث رفع الغطاء الأحمر عن رأسها. قدمت إشبينتا العروس لكل منهما زهرية فارغة على شكل يقطينة، ما لبثا أن تبادلاهما، ثم غادرت الإشبينتان. جلس الدكتور شيا وجدتي صامتين وحدهما بعض الوقت، ثم خرج الدكتور شيا للسلام على الأقارب والضيوف. وكان على جدتي أن تجلس، ساكنة ووحيدة، على الكانغ في مواجهة الشباك الذي وضعت عليه قطعة حمراء ضخمة من ورق «السعادة المضاعفة» المحفور، طيلة ساعات كاملة. كان هذا يدعى «إجلاس السعادة في الداخل»، رمزاً لغياب القلق الذي كان يُعدّ صفة أساسية من صفات المرأة. وبعد أن غادر جميع الضيوف، دخل شاب من أقارب الدكتور شيا وشدّها من كمّها ثلاث مرات. وحينذاك فقط كان مسموحاً لها بالنزول من على الكانغ. وبمساعدة إشبينتيها، غيّرت لباسها المطرّز بكثافة لترتدي ثوباً أحمر بسيطاً وسروالاً أحمر. أزاحت غطاء الرأس الضخم بكل جواهره الرنّانة وعقصت شعرها في لفّتين فوق أذنيها.

وهكذا في عام ١٩٣٥ انتقلت أمي، في الرابعة من العمر حينذاك، وجدتي، في السادسة والعشرين، إلى بيت الدكتور شيا المريح. في الحقيقة كان مجمَّعاً قائماً بذاته، يتألّف من البيت نفسه في الداخل والعيادة، مع متجر الأدوية، في مواجهة الشارع. كان من المعتاد أن يكون للأطباء الناجحين متاجرهم. وهنا كان الدكتور شيا يبيع عقاقير صينية تقليدية من أعشاب ومستخلصات حيوانية يصنعها ثلاثة متمرنين في معمل.

كانت واجهة البيت يعلوها إفريز أحمر وذهبي شديد الزخرفة. وفي الوسط توجد لوحة مستطيلة تشير إلى بيت شيا بأحرف مذهَّبة. وكان وراء المتجر فناء صغير ينفتح عليه عدد من الغرف للخدم والطهاة. وما وراء ذلك ينفتح المجمّع على عدّة فناءات أصغر، حيث تعيش العائلة. وعلى مسافة أبعد، في الخلف، كانت هناك حديقة كبيرة مزروعة بأشجار السرو والدراق الشتوي. لم يكن هناك عشب في الفناءات ـ المناخ شديد القسوة. كانت مجرد بقع من الأرض البنية، العارية، الصلبة تتحوّل إلى غبار في الصيف وإلى أوحال في الربيع القصير عندما تذوب الثلوج. كان الدكتور شيا يعشق الطيور. لديه حديقة طيور، وفي كل صباح، مهما كان الطقس، كان يمارس الـ «كيغونغ»، وهو ضرب من التمارين الصينية الرشيقة البطيئة التي تسمى في أحيان كثيرة تي آي تشي، فيما يستمع إلى الطيور تغني وتزقزق.

كان على الدكتور شيا، بعد موت ابنه، أن يتحمّل توبيخ عائلته الصامت، المتواصل. لم يتحدّث قط لجدتي عن الألم الذي يسبّبه له ذلك. فعند الرجال الصينيّين، كان عدم البوح بما في دواخلهم واجباً. كانت جدتي تعرف معاناته، بالطبع، وتعاني معه، بصمت. كانت بالغة الحنان معه، وتسهر على تلبية حاجاته من كل قلبها.

كانت تقابل عائلته دائماً بوجه مبتسم، رغم أنهم عموماً كانوا يعاملونها بازدراء تحت ستار من الاحترام الشكلي. حتى الكنَّة التي درست في المدرسة معها، كانت تحاول أن تتحاشاها. معرفتها بأنها تُحمَّل المسؤولية عن موت الابن الأكبر، كانت شديدة الوطأة عليها.

تعيّن تغيير نمط حياتها كلّه إلى أسلوب حياة المانشو. فكانت تنام في غرفة مع

أمي، وكان الدكتور شيا ينام في حجرة منفصلة. وفي ساعة مبكرة من كل صباح، قبل أن تنهض بوقت طويل، كانت أعصابها تبدأ بالتوتر والتشاحن بانتظار ضجيج أفراد العائلة وهم يقتربون. كان عليها أن تغتسل على عجل وأن تسلِّم على كلّ واحد منهم حسب دوره بمجموعة جامدة من التحيات. بالإضافة إلى ذلك كان عليها أن ترتّب شعرها في تسريحة بالغة التعقيد، ليتمكّن من إسناد غطاء رأس ضخم عليها أن ترتدي تحته شعراً مستعاراً. وكل ما كانت تتلقاه هو سلسلة من عبارة «صباح الخير» تقال ببرود قاتل، وكانت عملياً الكلمات الوحيدة التي تقولها العائلة لها. وإذ كانت تراقبهم ينحنون ويمسحون أقدامهم أثناء التحية، كانت تعرف أن في قلوبهم كراهية. وكان الطقس يزداد إيلاماً لعدم صدقه.

في المهرجانات والمناسبات المهمة الأخرى، كان على العائلة كلها أن تسجد وتنحني لها وكان عليها أن تقفز من كرسيها وتقف جانباً لتبين أنها أخلت الكرسي الذي يرمز إلى أُمهم الراحلة، وذلك اعترافاً منها باحترامهم. تآمرت عادات المانشو لإبقائها والدكتور شيا متباعدين. إذ كان يفترض بهما حتى أن لا يأكلا معاً، وكانت إحدى الكنّات تقف دائماً وراء جدتي لخدمتها. ولكن هذه المرأة كانت تقدّم وجهاً بارداً حتى أن جدتي كانت تجد صعوبة في إنهاء وجبتها، وأقلّ من ذلك بكثير الاستمتاع بها.

ذات يوم، بعد فترة وجيزة من انتقال جدتي وأمي إلى بيت الدكتور شيا، كانت أمي قد استقرّت لتوّها في ما بدا أنه مكان لطيف ومريح ودافىء على الكانغ حين رأت سحنة الدكتور شيا تعبس على حين غرّة، ثم وثب نحوها وسحبها بفظاظة من مقعدها. فقد جلست في مكانه الخاص. وكانت تلك المرة الوحيدة التي ضربها فيها. فحسب العادة المتّبعة عند المانشو، كان مكانه مقدّساً.

الانتقال إلى بيت الدكتور شيا جَلَب لجدتي قدراً حقيقياً من الحرية أول مرة - ولكنه جلب أيضاً درجة من الأسر. وبالنسبة لأمي كان الأمر لا يقلّ تناقضاً. فالدكتور شيا كان بالغ الطيبة معها، ربّاها كما لو كانت ابنته. وكانت تناديه «بابا» ومنحها اسمه، شيا، الذي تحمله حتى هذا اليوم - واسماً جديداً هو «دي - هونغ» المؤلف من رمزين: «هونغ» ويعني «بجعة برية» و «دي»، اسم الجيل، ويعني «فضيلة».

لم تكن عائلة الدكتور شيا تجرؤ على إهانة جدتي في وجهها ـ إذ سيكون ذلك بمثابة خيانة بحق «أم» المرء نفسه. ولكن ابنتها كانت شأناً آخر. فذكريات أمي الأولى، عدا حنان أمها عليها، هي ذكريات اضطهادها على أيدي أفراد عائلة الدكتور شيا الأصغر سناً. كانت تحاول أن لا تبكي، وأن تخفي كدماتها وجروحها عن أمّها، ولكن جدتي كانت تعرف ما يجري. ولم تقل شيئاً قطّ للدكتور شيا لأنها لم تكن تريد إزعاجه أو خلق مزيد من المشاكل له مع أبنائه. ولكن أمي كانت تعيسة. وغالباً ما توسّلت لإعادتها إلى بيت جدها وجدتها، أو إلى البيت الذي اشتراه الجنرال شو، حيث كان الجميع يعاملونها وكأنها أميرة. ولكنها سرعان ما أدركت أنها ينبغي أن تكفّ عن طلب «الذهاب إلى البيت»، لأن هذا لم يكن يسفر إلاّ عن ترقرق الدموع في عيني أمّها.

كان أقرب أصدقاء أمي إليها حيواناتها الأليفة. كان لديها بوم وطائر مينه يستطيع أن ينطق بضع جُمَل بسيطة، وصقر وقطة وفئران بيضاء وبعض حشرات الجُندُب والجُدجُد التي كانت تحفظها في قوارير زجاجية. وعدا عن أمها، كان صديقها البشري القريب الوحيد حوذي الدكتور شيا، «العجوز الكبير لي». كان رجلاً خشناً، ذا بشرة قاسية من جبال هنغان في الشمال البعيد حيث تلتقي حدود الصين ومنغوليا والاتحاد السوفياتي. كان ذا بشرة دكناء جداً وشعر أشعث وشفتين غليظتين وأنف مرفوع إلى أعلى، وكلّها قسمات غريبة جداً بين الصينيين. لم يكن يبدو في الواقع صينياً بالمرّة. كان طويلاً، رفيعاً ونحيفاً. ربّاه أبوه ليكون صيّاداً وقنّاصاً بواسطة الفخاخ، ينبش جذور الجنسنغ ويصيد الدببة والثعالب والغزلان. ولفترة من الزمن عاشا بيسر على بيع الجلود، ولكنهما في النهاية أفلسا بسبب قطاع الطرق الذين كان يعمل أعتاهم لحساب «المارشال العجوز تشانغ تسو ـ لن». وكان لي «العجوز الكبير» يشير إليه بوصفه «ذلك الوغد قاطع الطريق». فيما بعد، حين قيل لأمي إن «المارشال العجوز» كان وطنياً عنيداً معادياً لليابانيين، تذكرت سخرية «العجوز الكبير لي» من «بطل» الشمال الشرقي.

كان العجوز الكبير لي يعتني بحيوانات أمي ويأخذ أمي في رحلات معه. وفي ذلك الشتاء علّمها التزلّج. وفي الربيع، مع ذوبان الثلج والجليد، كانا يراقبان الناس وهم يؤدّون الطقس السنوي الهام في «كنس القبور» وغرس الزهور على قبور

أسلافهم. وفي الصيف كانا يذهبان لصيد الأسماك وجمع نبات الفطر، وفي الخريف يخرجان إلى أطراف المدينة لصيد الأرانب.

في الأمسيات المنشورية الطويلة، حين كانت الريح تعصف عبر السهول ويتجمّد الجليد على الوجه الداخلي من النوافذ، كان لي «العجوز الكبير» يُجْلِس أمي على ركبته فوق الكانغ الدافىء ويروي لها حكايات ساحرة عن جبال الشمال. وكانت الصور التي تحملها معها إلى الفراش صور أشجار طويلة غامضة، وزهور غريبة وطيور زاهية الألوان تغني ألحاناً شجيّة، وجذور جنسنغ كانت في الحقيقة فتيات صغيرات ـ بعد إخراجها من الأرض بحفرها يتعيّن ربط خيط أحمر حولها وإلاّ فإنها ستهرب.

كما حدَّث «لي الكبير العجوز» أمي عن أخبار الحيوانات. فالنمور التي تجوب جبال شمال منشوريا، طيّبة القلب ولا تؤذي البشر إلاّ إذا شعرت بأنها في خطر. كان يعشق النمور. ولكن الدببة شيء آخر: إنها ضارية وينبغي تجنّبها بأي ثمن. وإذا حدث أن التقيتَ واحداً منها فيجب أن تقف جامداً حتى يُخفض رأسه. كان هذا لأن لدى الدب خصلة من الشعر على جبينه، تسقط على عينيه وتعميه عندما يخفض رأسه. مع الذئب ينبغي أن لا تدير ظهرك وتركض، لأنكَ لن تستطيع أبداً أن تسبقه في الركض. ينبغي أن تقف وتجابهه وجهاً لوجه كأنكَ لست خائفاً. ثم ينبغي أن تتراجع إلى الوراء ببطء شديد جداً. بعد سنوات عديدة قُدر لنصيحة «لي العجوز» أن تنقذ حياة أمي.

ذات يوم عندما كانت أمي في الخامسة من العمر، كانت في الحديقة تكلّم حيواناتها عندما تجمع أحفاد الدكتور شيا حولها في عصبة. وبدأوا يدفعونها ويشتمونها، ثم بدأوا يضربونها ويَدْفعونها بعنف أشدّ. حاصروها في زاوية من الحديقة حيث كانت هناك بئر جفَّ ماؤها ودفعوها نحوها. كانت البئر عميقة تماماً، وسقطت بقوّة على الأنقاض في قعرها. في النهاية سمع أحدهم صراخها ونادى «لي العجوز» الذي هرع إليها بسُلّم. أمسكه الطاهي بثبات فيما نزل هو إلى تحت. هنا كانت جدتي قد وصلت مذعورة من شدّة القلق الذي استبدّ بها. وبعد دقائق ظهر «لي العجوز» وهو يحمل أمي التي كانت في نصف غيبوبة وتغطّيها الجروح والرضوض. وضعها بين ذراعي جدتي. أخذت أمي إلى الداخل حيث فحصها الدكتور شيا. كان

أحد عظام الورك مكسوراً. ولسنوات بعد ذلك، كان أحياناً ينخلع، وقد خلف الحادث عندها عرجاً طفيفاً.

عندما سألها الدكتور شيا عمّا حدث قالت أمي إن «[الحفيد] رقم ستة» دفعها. وحاولت جدتي، بمراعاتها الدائمة لمزاج الدكتور شيا، أن تُسكتها لأن «الرقم ستة» كان الأثير لديه. حين غادر الدكتور شيا الغرفة قالت جدتي لأمي أن لا تشكو من «الرقم ستة» ثانية لكي لا تزعج الدكتور شيا. ولبعض الوقت كانت أمي أسيرة البيت بسبب وركها. وقاطعها الأطفال الآخرون مقاطعة تامة.

بعد هذا مباشرة بدأ الدكتور شيا يغيب عدة أيام كل مرة. كان يذهب إلى العاصمة الإقليمية، جنجو، على بعد حوالي ٢٥ ميلاً إلى الجنوب بحثاً عن فرصة عمل. كانت الأجواء في العائلة لا تطاق، وأقنعه حادث أمي الذي كان يمكن أن يكون مميتاً بكل سهولة، أن الانتقال ضروري.

لم يكن هذا بالقرار الهيّن. ففي الصين كان وجود أجيال متعدّدة من العائلة تعيش تحت سطح واحد، يعتبر شرفاً عظيماً. وكانت الشوارع تحمل أسماء مثل «خمسة أجيال تحت سطح واحد» لإحياء ذكرى مثل هذه العوائل. وكان تفريق العائلة الكبيرة يُنظر إليه على أنه مأساة يجب تفاديها بأي ثمن، ولكن الدكتور شيا حاول التظاهر بالبشاشة أمام جدتي قائلاً إنه سيكون من دواعي سروره أن يخفّف من عبء مسؤولياته.

شعرت جدتي بارتياح عميق، ولكنها حاولت أن لا تبيّن ذلك. بل في الواقع كانت تدفع الدكتور شيا برفق إلى الانتقال، وخاصة بعدما حدث لأمي. فلقد تحمّلت ما يكفي من العائلة الكبيرة، بحضورها الجليدي الدائم وكيدها البارد من أجل إتعاسها، وحيث لم تكن لها حرمة ولا صُحبة.

وزّع الدكتور شيا ممتلكاته على أفراد عائلته. والأشياء الوحيدة التي أبقاها لنفسه كانت الهدايا التي وهبها أباطرة المانشو لأجداده. أعطى كل أراضيه لأرملة الابن الأكبر. وورث الابن الثاني متجر الأدوية، وترك البيت لأصغر أبنائه. وتأكد من أن العجوز لي والخدم الآخرين سيحاطون بعناية جيدة. وحين سأل جدتي إن كان لديها مانع أن تكون فقيرة، قالت إنها ستكون سعيدة بابنتها وبه فقط: «إذا كان لديك الحب يكون حتى الماء العادي البارد حلو المذاق».

ذات يوم متجمّد من أيام كانون الأول/ديسمبر في عام ١٩٣٦، تجمّعت العائلة خارج البوابة الأمامية لتوديعهم. كانت عيونهم جميعاً ناشفة لم تُذرف منها دمعة، باستثناء دي ـ غوي، الابن الوحيد الذي أيّد الزواج. أخذهم «لي العجوز» في العربة التي تجرّها الخيول إلى المحطة حيث ودّعته أمي بدموع منهمرة. ولكنها وجدت الأمر شائقاً عندما ركبوا القطار. فقد كانت تلك أول مرة تركب فيها القطار منذ أن كانت في عامها الأول، ولكنها كانت مستثارة تتنطط وهي تنظر من النافذة.

كانت جنجو مدينة كبيرة، يبلغ سكانها زهاء ١٠٠ ألف، وعاصمة أحد أقاليم مانشو كوو التسعة. وهي تقع على بعد حوالي عشرة أميال في الداخل بعيداً عن البحر، حيث تقترب منشوريا من «السور العظيم». وعلى غرار يشيان، كانت مدينة مسوَّرة ولكنها نمت نموّاً متسارعاً وامتدت بعيداً خارج أسوارها. وكانت تزهو بعدد من معامل النسيج ومصفاتين للنفط. وتشكل خلقة وصل هامة في شبكة السكة الحديد ولها حتى مطارها الخاص.

احتلّها اليابانيون في مطلع كانون الثاني/يناير ١٩٣٢، بعد قتال عنيف. كانت جنجو في موقع استراتيجي للغاية، وقامت بدور مركزي في الاستيلاء على منشوريا حيث أصبح احتلالها محور نزاع دبلوماسي كبير بين الولايات المتحدة واليابان، وواقعة أساسية في السلسلة الطويلة من الأحداث التي أدّت في نهاية المطاف إلى الهجوم على بيرل هاربر بعد عشر سنوات.

حين بدأ اليابانيون هجومهم على منشوريا في أيلول/سبتمبر ١٩٣١، اضطر «المارشال الشاب»، تشانغ هسوه ـ ليانغ إلى التخلّي عن عاصمته، موكدن، لليابانيين. وانسحب إلى جنجو مع زهاء ٢٠٠ ألف من رجاله وأقام مقرّه هناك. وفي هجوم هو الأول من نوعه في التاريخ، قصف اليابانيون المدينة من الجوّ. وعندما دخل الجنود اليابانيون جنجو، عاثوا فيها خراباً.

تلك كانت المدينة التي تعيّن على الدكتور شيا، البالغ ٦٦ عاماً من عمره الآن، أن يبدأ فيها مجدّداً، من الصفر. لم يتمكّن إلاّ من استئجار كوخ من الطين مساحته زهاء ١٠ × ٨ أقدام في جزء فقير جداً من المدينة، كان منطقة منخفضة عند أحد الأنهر، تحت ربوة. وكانت غالبية أصحاب الأكواخ المحليّين أفقر من أن يتمكنوا من

بناء سطح حقيقي: مدُّوا ألواحاً من الحديد المموَّج فوق جدرانها الأربعة ووضعوا أحجاراً ثقيلة عليها لكي لا تطير في الرياح القوية. كانت المنطقة على حافّة المدينة تماماً. على الجانب الآخر من النهر توجد حقول مزروعة بالسرغوم. حين وصلوا في البداية في كانون الأول/ديسمبر، كانت الأرض البنيّة صلبة كالجليد ـ وكذلك كان النهر الذي يبلغ عرضه حوالي ثلاثين ياردة في هذه النقطة. وفي الربيع، عندما يذوب الجليد، كانت الأرض المحيطة بالكوخ تتحول إلى مستنقع، ورائحة المجاري التي تبقى كامنة في الشتاء لأنها تتجمّد في الحال، كانت حاضرة بصورة دائمة في مناخيرهم. وفي الصيف كانت المنطقة تعجّ بالبعوض، وكانت الفيضانات مصدر قلق دائم لأن النهر يرتفع فوق مستوى البيوت بكثير وصيانة السدود سيّئة.

كان الأثر الطاغي الذي طُبع في نفس أمي، أثر برد يكاد لا يطاق. فكل نشاط، وليس مجرد النوم، كان يتعيّن أن يُمارَس على الكانغ الذي احتلّ غالبية المكان في الكوخ، ما خلا مدفئة صغيرة في أحد الأركان. وكان على الثلاثة جميعاً أن يناموا معاً على الكانغ. ولم تكن هناك كهرباء أو ماء. وكانت المرافق الصحية كوخاً من الطين بحفرة جماعيّة.

كان يوجد مقابل البيت تماماً معبد مطلي بألوان برّاقة، مكرس لـ «إله النار». وكان الذين يفدون للصلاة فيه يربطون خيولهم أمام كوخ شيا. وحين كانت حرارة الجوّ ترتفع، كان الدكتور شيا يأخذ أمي للمشي على ضفة النهر في الأمسيات، يقرأ لها ما يعنُّ له من الشعر الكلاسيكي، على خلفية الغروب الرائع. ولم تكن جدتي تصحبهما: لم يكن من المعتاد أن يتماشى الأزواج والزوجات معاً، وعلى أيّة حال، كانت قدماها المربوطتان تعنيان أن المشي لا يمكن أن يكون متعة لها بالمرّة.

كانوا على شفا المجاعة. ففي يشيان كانت العائلة تموَّن بالطعام من أرض الدكتور شيا، الأمر الذي يعني أن بعض الرزّ كان دائماً متوافراً لهم حتى بعد أن يأخذ اليابانيون حصّتهم. والآن انخفض دخلهم انخفاضاً حادّاً ـ وكان اليابانيون يصادرون نسبة أكبر بكثير من الغذاء المتاح. فقد كان الكثير مما يُنتَج محلياً يُصدَّر قسراً إلى اليابان، وكان الجيش الياباني الكبير في منشوريا يأخذ القسم الأكبر مما يتبقى من الرزّ والقمح لنفسه. والسكان المحليّون يحصلون أحياناً على بعض الذّرة أو السرغوم،

ولكن حتى هذه كانت نادرة. كان الغذاء الرئيسيّ وجبة من البلوط المقزّزة في مذاقها ورائحتها.

لم يسبق لجدتي أن عرفت مثل هذا الفقر، ولكن ذلك كان أسعد أيام حياتها. فالدكتور شيا يحبها وابنتها معها كل الوقت. ولم تعد مكرهة على المرور بأي من طقوس المانشو المملّة، وكان كوخ الطين الصغير يصدح بالضحك. وكانت هي والدكتور شيا أحياناً يمضيان الأمسيات الطويلة في لعب الورق. كانت القواعد تقضي بأنه إذا خسر الدكتور شيا تصفَعه جدتي ثلاث صفعات، وإذا خسرت، يقبّلها شيا ثلاث قبلات.

كان لجدتي عدة صديقات في الحي، وهو شيء جديد عليها. وبوصفها زوجة طبيب، كانت موضع احترام رغم أنها لم تكن موسرة. وبعد سنوات من امتهانها ومعاملتها كقطعة أثاث، إذا بها الآن محاطة حقاً بالحرية.

بين حين وآخر كانت وصديقاتها يقمن عرضاً فنياً قديماً من عروض المانشو لأنفسهن، حيث يضربن على الطبول وهن ينشدن ويرقصن. وكانت الألحان التي يعزفنها تتألّف من أنغام وإيقاعات متكرّرة، بسيطة جداً، وكانت النّسوة يبتكرن الكلمات في أثناء الأداء. المتزوجات يغنين عن حياتهن الجنسية، والعذراوات يطرحن أسئلة عن الجنس. فالنساء، إذ كنّ أمّيات في الغالب، كنَّ يستخدمن هذه الطريقة للتعرّف بحقائق الحياة. ومن خلال غنائهن كنَّ أيضاً يتحدثن مع بعضهن بعضاً عن حياتهنّ وأزواجهنّ، ويتناقلن القيل والقال.

كانت جدتي تعشق هذه اللّقاءات، وغالباً ما كانت تتمرّن لها في البيت. كانت تجلس على الكانغ تهزّ الطبلة بيدها اليسرى وتغنّي على الإيقاع، مؤلّفة الكلمات وهي تغني. وفي أحيان كثيرة كان الدكتور شيا يقترح كلمات لها. وكانت أمي أصغر من أن تؤخذ إلى هذه اللّقاءات، ولكنها كانت تستطيع أن تراقب جدتي وهي تتمرّن. كانت مفتونة وتريد بصفة خاصة معرفة الكلمات التي اقترحها الدكتور شيا. تعرف أنها لا بدّ أن تكون تسلية عظيمة لأنه وأمّها كانا يضحكان كثيراً. ولكن عندما كانت أمها تعيد لها الكلمات «تسقط في غيوم وضباب». لم يكن لديها أية فكرة عن ما تعنيه.

لكن الحياة كانت قاسية. وكل يوم كان معركة من أجل البقاء فحسب. ولم يكن الرزّ والقمح متوافرين إلا في السوق السوداء، لذا بدأت جدتي تبيع بعض الجواهر

التي أعطاها لها الجنرال شو. كانت نفسها تكاد لا تأكل شيئاً، قائلة إنها أكلت قبل ذلك أو إنها لا تشعر بالجوع وستأكل فيما بعد. وعندما اكتشف الدكتور شيا أنها تبيع جواهرها، أصرّ على أن تكفّ قائلاً: «إني رجل عجوز. وسأموت ذات يوم، وسيكون عليك أن تعتمدي على هذه الجواهر من أجل البقاء»، قال.

كان الدكتور شيا يعمل طبيباً براتب، ملحقاً بمتجر أدوية يعود إلى رجل آخر، فلم يمنحه ذلك فرصة تذكر لإبداء مهارته. ولكنه كان دؤوباً على العمل، وتدريجياً بدأت سمعته في النموّ. وسرعان ما دُعي للذهاب في أول زيارة له إلى منزل أحد المرضى. وحين عاد ذلك المساء كان يحمل رزمة ملفوفة بقطعة قماش. غمز لأمي وزوجته وطلب منهما أن يحزرا ما في داخل الرزمة. كانت عينا أمي مسمّرتين على الحزمة التي يتصاعد منها البخار، وحتى قبل أن تتمكّن من أن تصيح: «أرغفة حارّة!» كانت تمزق الرزمة لفتحها. وفيما كانت تلتهم الأرغفة رفعت نظرها والتقت بعيني الدكتور شيا الملتمعتين. بعد أكثر من خمسين عاماً كانت لا تزال تتذكر نظرة السعادة عليه، وحتى هذا اليوم تقول إنها لا تستطيع أن تتذكر طعاماً لذيذاً كتلك الأرغفة البسيطة من القمح.

كانت الزيارات المنزلية مهمة للأطبّاء، لأن العوائل تدفع للطبيب الذي قام بالزيارة وليس لربّ عمله. وحين يكون المرضى راضين أو أثرياء، فإن الأطبّاء غالباً ما يُمنحون مكافآت سخيّة. كما يعطي المرضى الذين يشعرون بالامتنان هدايا ثمينة للأطبّاء في «السنة الجديدة» وغيرها من المناسبات الخاصة. بعد عدد من الزيارات المنزلية بدأت أوضاع الدكتور شيا تتحسّن.

بدأت سمعته في الاتّساع أيضاً. وذات يوم وقعت زوجة حاكم الإقليم في غيبوبة، فدعا الدكتور شيا الذي تمكّن من إعادتها إلى وعيها. واعتبر هذا معادلاً تقريباً لإعادة شخص من القبر. وأمر الحاكم بإعداد لوحة كتب عليها بخطّ يده: «الدكتور شيا، الذي يمنح الحياة للناس والمجتمع». وأمر بحمل اللوحة واختراق المدينة بها في موكب.

بعد ذلك بفترة وجيزة جاء الحاكم إلى الدكتور شيا طالباً معونة من نوع آخر. إذ كانت لديه زوجة واحدة واثنتا عشرة جارية، ولكن ما من واحدة منهن أنجبت له طفلاً. وسمع الحاكم أن الدكتور شيا ماهر بصفة خاصة في قضايا الخصوبة. وقد

وصف الدكتور شيا عقاقير للحاكم ونسائه الثلاث عشرة، اللواتي تحقق الحمل لدى العديد منهن. في الواقع كانت المشكلة في الحاكم، ولكن الدكتور شيا الدبلوماسي عالج الزوجة والجواري أيضاً. وطار الحاكم من الفرح وكتب لوحة أكبر حجماً للدكتور شيا، نقش عليها: «تَجَسُّد كوانين» (إلهة الخصوبة والحنان البوذية). وحُملت اللوحة الجديدة إلى بيت الدكتور شيا بموكب أكبر من الموكب الأوّل. بعد ذلك بدأ الناس يتوافدون على الدكتور شيا من أماكن نائية مثل هازبين التي تبعد ٤٠٠ ميل إلى الشمال. وأصبح معروفاً بوصفه أحد «الأطبّاء الأربعة المشهورين» في مانشوكوو.

بانتهاء عام ١٩٣٧، بعد سنة من وصولهم إلى جنجو، تمكن الدكتور شيا من الانتقال إلى بيت أكبر خارج بوابة المدينة الشمالية القديمة مباشرة. وكان أرقى بكثير من الكوخ الواقع على النهر. فبدلاً من الطين كان مبنياً من الآجر الأحمر. وبدلاً من حجرة واحدة كان فيه ما لا يقل عن ثلاث غرف نوم. وتمكّن الدكتور شيا من فتح عيادته الخاصة مجدّداً، واستخدم غرفة الجلوس غرفة لعمليّاته.

كان البيت يحتلّ الجانب الجنوبي لفناء كبير مشترك مع عائلتين أخريين، ولكن بيت الدكتور شيا وحده الذي له باب يفتح مباشرة عليه. وكان البيتان الآخران يواجهان الشارع ولهما أسوار متينة على جهة الفناء، من دون حتى نافذة تطلّ عليه. وحين كانوا يريدون دخول الفناء كان عليهم الالتفاف عبر بوابة من الشارع. وكان الجانب الشمالي للفناء جداراً صلباً. وكانت في الفناء أشجار سرو وأشجار بلوط أخضر صينية كانت العوائل الثلاث تعلّق عليها حبل غسيلها. كانت هناك أيضاً بعض ورود شارون التي كانت قويّة بما فيه الكفاية للصمود في مواسم الشتاء القاسية. وخلال الصيف، كانت جدتي تضع في الخارج زهورها الحولية المفضّلة: زهرة مجد الصباح الموشّاة بالأبيض والأقحوان والدهلية وبلسم الحديقة.

لم تنجب جدتي والدكتور شيا أي أطفال لهما معاً. كان الدكتور شيا من أنصار النظرية القائلة إن الرجل الذي تجاوز الخامسة والستين ينبغي أن لا يقذف ليحفظ سائله المنوي الذي يعتبر جوهر الرجل. وبعد سنوات أخبرت جدتي أمي، بقدر من الغموض، أنه من خلال الـ «كيغونغ» طوَّر الدكتور شيا أسلوباً يمكنه من بلوغ الذروة دون قذف. ولرجل في سنّه، كان يتمتع بصحة استثنائية، لم يمرض ذات يوم، وكان يأخذ دشاً بارداً كل يوم، حتى في درجات حرارة تبلغ ناقص ١٠ فهرنهايت. ولم يمدّ

يده قط إلى الكحول أو التبغ التزاماً بتعاليم الطائفة شبه الدينية التي ينتمي إليها، الـ «زاي ـ لي ـ هوي» (جمعية العقل).

رغم أن الدكتور شيا كان نفسه طبيباً، لم يكن يكترث بتناول الدواء مصرّاً على أن طريق العافية هو الجسم السليم. وكان يرفض بعناد أيّ علاج يداوي، في رأيه، جزءاً من الجسم ويلحق الأذى بجزء آخر، ولا يستخدم العقاقير القويّة لما يمكن أن تسببه من آثار جانبيّة. وغالباً ما كان على أمي وجدتي أن تتناولا الأدوية من وراء ظهره. وحين كانتا تمرضان، كان دائماً يجلب طبيباً آخر، طبيباً صينياً تقليدياً يكون أيضاً كاهناً يستخدم السحر ويؤمن بأن بعض العلل سببها أرواح شريرة يتعيّن تسكينها أو طردها بطرائق دينية خاصّة.

كانت أمي سعيدة. وأوّل مرة شعرتْ بالدفء من حولها. ولم تعد تشعر بتوتّر كما شعرت طيلة عامين في بيت جدها وجدّتها، ولم يكن هناك شيء من الاضطهاد الذي عانته طيلة عام كامل من أحفاد الدكتور شيا.

كانت تثيرها بصفة خاصة المهرجانات التي تحصل كل شهر تقريباً. لم يكن هناك مفهوم لأسبوع العمل بين الصينيين البسطاء. وحدها مكاتب الحكومة والمدارس والمعامل اليابانية كانت تعطّل يوماً واحداً هو الأحد. وبالنسبة للآخرين، كانت المهرجانات وحدها توفّر استراحة من الروتين اليومي.

في اليوم الثالث والعشرين من القمر الثاني عشر، قبل سبعة أيام من حلول «السنة الجديدة» الصينية، بدأ «مهرجان الشتاء». وحسبما تقول الأسطورة، فإن هذا هو اليوم الذي صعد فيه «إله المطبخ»، الذي يعيش فوق الموقد مع زوجته على شكل صورتين لهما، إلى «السماء» ليقدّم تقريراً عن سلوك العائلة إلى «الامبراطور السماوي». وكان التقرير الإيجابي يجلب للعائلة طعاماً وفيراً في المطبخ خلال العام المقبل. لذا كانت كل عائلة تسجد في هذا اليوم بنشاط لصورتي «السيد والسيدة» إله المطبخ قبل حرقهما تمثيلاً لصعودهما إلى السماء. وكانت جدتي دائماً تطلب من أمي أن تلصق بعض العسل على شفتيها. كما كانت تحرق نماذج مصغّرة لخيول وأشكال خَدَم صنعتها من نباتات السرغوم ليحظى الزوجان الملكيان بخدمة استثنائية ويكونا أسعد وبالتالي أكثر ميلاً إلى قول الكثير من الأشياء اللطيفة عن عائلة شيا للإمبراطور السماوي.

كانت الأيام القليلة التالية تُقضى في تحضير كل أصناف الطعام. وكانت اللحوم تُقطّع بأشكال خاصة، وحبوب الرز وفول الصويا تُطحن ويصنع منها كعك وأرغفة وزلابية. وكان الطعام يوضع في القبو بانتظار «السنة الجديدة». وبدرجة حرارة منخفضة إلى حدّ ناقص ٢٠ درجة فهرنهايت، كان القبو ثلاجة طبيعية.

في منتصف ليلة «السنة الجديدة» الصينية، كانت تنطلق فرقعة هائلة من الألعاب النارية، وكان في ذلك إثارة عظيمة لأمي. كانت تتبع أمها والدكتور شيا إلى الخارج وتسجد في الاتجاه الذي يُفترض أن يأتي منه «إله الحظ». وعلى طول الشارع كان الناس يفعلون الشيء نفسه، ثم يحيّون بعضهم بعضاً قائلين «أرجو لك حظاً سعيداً».

في «السنة الجديدة» الصينية كان الناس يقدّمون الهدايا لبعضهم بعضاً. وعندما يضيء الفجر الورق الأبيض في النوافذ المفتوحة على الشرق، كانت أمي تثب من الفراش وتسرع بارتداء حلّتها الجديدة. سترة جديدة وسروال جديد وجوارب جديدة وحذاء جديد. ثم كانت وأمّها تزوران الجيران والأصدقاء ساجدة لكل الكبار. وكلما كانت تمس الأرض برأسها، كانت تحصل على «غلاف أحمر» بداخله نقود. وكانت هذه العلب تكفيها العام كله كمصرف جيب.

طيلة الأيام الخمسة عشر الأولى كان الكبار يتزاورون ويتمنون لبعضهم بعضاً حظاً سعيداً. وكان الحظ السعيد، أي المال، هاجساً لدى غالبية الصينيّين البسطاء. فقد كان الناس فقراء، وفي بيت عائلة شيا، شأن الكثير من البيوت الأخرى، كانت المرة الوحيدة التي يتاح فيها اللحم بكمية وفيرة إلى حدّ ما هي وقت المهرجانات.

كانت الاحتفالات تبلغ ذروتها في اليوم الخامس عشر بموكب كرنفالي، يليه عرض القناديل بعد حلول الظلام. وكان الموكب يدور حول زيارة تفقّدية يقوم بها «إله النار». وكان الإله يُحمَل حول الحيّ لتحذير الناس من خطر النار. فنظراً لأن غالبية البيوت مبنية جزئياً من الخشب، ولأن المناخ جاف وكثير الريح، فقد كانت النار تشكل خطراً دائماً ومصدر رعب. وكان تمثال الإله في المعبد يتلقى النذور على مدار العام. ينطلق الموكب من معبد «إله النار»، أمام كوخ الطين الذي عاشت فيه عائلة شيا عند قدومها إلى جنجو. تُحمل نسخة من التمثال، وهو عملاق ذو شعر أحمر ولحية وحاجبين وعباءة، على محفّة مكشوفة يرفعها ثمانية شبان. وتليه تنينات وأسود تتلوى، كلّ منها يتكون من عدّة رجال، وعربات طوّافة وطوّالات وراقصو

«يانغي» يلوُّحون بأطراف قطعة طويلة من الحرير زاهي الألوان مربوطة حول الخصر. ويسفر عن الألعاب النارية والطبول والصنوج ضوضاء مدوية. وكانت أمي تسير متقافزة وراء الموكب. وكانت كل عائلة تقريباً تعرض أطعمة شهية على طول الطريق نذوراً للإله، ولكنها لاحظت أن الإله مرَّ بسرعة بعض الشيء، دون أن يمسّ أيّاً منها. وأخبرتها أمها «النية الحسنة للآلهة والنذور للبطون البشرية». وفي أيام الشحّ تلك، كانت أمي تتطلّع بلهفة إلى المهرجانات، حيث تستطيع إشباع بطنها. وكانت لا تبالي إطلاقاً بتلك المناسبات ذات الارتباطات الشاعرية لا المِعَدِّية، وكانت تنتظر بشوق لكي تفكّ أمها الألغاز الملصقة على قناديل رائعة معلّقة على الأبواب الأمامية لبيوت الناس خلال «مهرجان القناديل»، أو لجولة أمها على زهور الأقحوان في حدائق الناس في اليوم التاسع من القمر التاسع.

خلال معرض «معبد إله المدينة»، ذات عام، أرَتها جدتي صفاً من المنحوتات الطينية، كلّها أعيد تزيينها وتلوينها للمناسبة. وكانت تلك المنحوتات مشاهد من «جهنم» تبيّن البشر وهم يُعاقَبون على خطاياهم. وأشارت جدتي إلى شكل طيني لإنسان سُحِب لسانه إلى الخارج قدماً على الأقل، فيما يقطعه اثنان من الشياطين لهما شعر إبري منتصب كأشواك القنفذ وعيون منتفخة كعيون الضفادع. قالت إن الرجل الذي يُعذَّب كان من الكاذبين في حياته السابقة ـ وهذا ما سيحدث لأمي إذا كذبت.

كانت هناك حوالي دزينة مجموعات من التماثيل، موضوعة بين جموع الناس الضاجّة وأكشاك المأكولات التي يسيل لها اللّعاب، كلّ منها يرسم عِبرة أخلاقية. وكانت جدّتي تُري أمي بمرح المشهد تلو الآخر من المشاهد المرعبة، ولكن عندما وصلتا إلى مجموعة من التماثيل قادتها بعيداً عنها دون تفسير. ولم تكتشف أمي إلا بعد سنوات أن تلك المجموعة كانت تصوّر امرأة يقطعها رجلان إلى نصفين بمنشار. كانت المرأة أرملة تزوّجت ثانية، وكان زوجاها ينشرانها مناصفة لأنها كانت ملك الاثنين. في تلكم الأيام كانت أرامل كثيرات يرتعبن من هذا المصير ويبقين وفيات لأزواجهن الأموات مهما سبّب ذلك من بؤس لهنّ. وكان البعض ينتحرن إذا أجبرتهن عوائلهن على الزواج ثانية. وأدركت أمي أن قرار أمها بالزواج من الدكتور شيا لم يكن قراراً سهلاً.

٣ ـ «كلهم يقولون، يا لمانشوكوو من مكان سعيد!» ـ الحياة تحت سيطرة اليابانيين (١٩٣٨ ـ ١٩٤٥)

في أوائل ١٩٣٨، كانت أمي في السابعة من العمر تقريباً. كانت ذكية جداً، وتوّاقة جداً إلى المدرسة. وكان والداها يعتقدان أنها ينبغي أن تبدأ التعلّم في المدرسة عند بداية السنة الدراسية الجديدة، بعد «السنة الجديدة» الصينية مباشرة.

كان اليابانيون يسيطرون على التعليم سيطرة محكمة، وخاصّة على مناهج التاريخ والأخلاق. وكانت اليابانية هي اللغة الرسمية في المدارس، وليس الصينية. وبعد السنة الرابعة في المرحلة الابتدائية، كان التدريس كلّه باليابانية، وأغلبية المعلّمين من اليابانيّين.

في ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩، عندما كانت أمي في سنتها الثانية في المدرسة الابتدائية، جاء أمبراطور مانشوكوو بو يي، وعقيلته إلى جنجو، في زيارة رسمية. ووقع الاختيار على أمي لتقديم باقة زهور إلى الأمبراطورة لدى وصولها. وقف حشد كبير في ممرّ مزيّن زينة بهيجة، وكلّهم يمسكون أعلاماً ورقية صفراء بألوان مانشوكوو. أعطيت أمي باقة زهور ضخمة، وكانت كلها ثقة بالنفس عندما وقفت قرب جوقة الآلات النحاسية ومجموعة من «الأشخاص المهمّين جداً» بمعاطف الصباح. وكان صبي، بعمر أمي تقريباً، يقف جامداً قربها حاملاً باقة زهور لتقديمها إلى بو يي. وعندما ظهر الثنائي الملكي، شرعت الفرقة في عزف النشيد الوطني المانشوكووي. وهبّ الجميع في وقفة استعداد. تقدّمت أمي وانحنت موازِنة باقتها

بدراية. كانت الأمبراطورة ترتدي فستاناً أبيض وقفازات بيضاء طويلة لطيفة جداً تصل إلى كوعيها. ظنّت أمي أنها تبدو في غاية الجمال. وتمكّنت من خطف نظرة إلى بو يي الذي كان يرتدي بدلة عسكرية. ووراء نظاراته السميكة حَسِبتْ أن لديه «عينين خنزيريتين».

إلى جانب أن أمي كانت تلميذة متفوقة، كان من أسباب اختيارها لتقديم الزهور إلى الأمبراطورة، أنها كانت دائماً تكتب قوميّتها في استمارات التسجيل بوصفها من «المانشو»، كالدكتور شيا، وكانت مانشوكوو، على ما يفترض، دولة المانشو المستقلّة. وكان بو يي نافعاً بصفة خاصة لليابانيين، لأنه بقدر تعلّق الأمر بأغلبية الناس، إن فكّروا في الأمر أصلاً، فإنهم كانوا لا يزالون في عهد أمبراطور المانشو. وكان الدكتور شيا يعتبر نفسه أحد الرعايا المخلصين، وكانت لجدتي النظرة نفسها. وتقليدياً، فإن من الطرائق المهمة التي تعبّر بها المرأة عن حبّها لزوجها، توافقها معه على كل شيء، وكانت جدتي تفعل ذلك بعفوية. كانت راضية مع الدكتور شيا بحيث إنها لم تكن تريد توجيه ذهنها، ولو بشكل طفيف، نحو الاختلاف.

في المدرسة، كان يجري تعليم أمي أن بلدها هو مانشوكوو، وأن من بين البلدان المجاورة له جمهوريتين صينيتين - جمهورية معادية بقيادة شيان كاي - شيك، وجمهورية صديقة يرأسها وانغ جنغ - وي (صنيعة اليابان التي كانت تحكم جزءاً من الصين). ولم تُعَلَّم أي مفهوم عن وجود «صين»، تعدّ منشوريا جزءاً منها.

كان التلاميذ يُربَّون ليكونوا رعايا مطيعين في مانشوكوو. وكان من أول الأناشيد التي تعلّمتها أمي:

فتيان حمر، وفتيات خضر، يمشون في الشوارع،

كلهم يقولون يا لمانشوكوو من مكان سعيد!

أنت سعيد وأنا سعيد،

الكل يعيشون بسلام ويعملون بفرح، بعيداً عن أي هموم.

كان المعلّمون يقولون إن مانشوكوو جنّة على الأرض. ولكن أمي، على حداثة عمرها، كانت تستطيع أن ترى أنه إذا أمكن وصف المكان بالجنّة، فهو جنة لليابانيين وحدهم. كان الأطفال اليابانيون يتعلّمون في مدارس منفصلة، حسنة التجهيز وحسنة

التدفئة، بأرضيّات لمّاعة ونوافذ نظيفة. وكانت مدارس أطفال البلد في معابد خَرِبة وبيوت متداعية، تبرّع بها أفراد. ولم تكن هناك تدفئة. وفي الشتاء، غالباً ما كان على تلاميذ الصف كله أن يَعْدوا حول المبنى، في منتصف الدرس، أو يمارسوا خبط الأرض بأقدامهم جماعياً، لاتّقاء البرد.

لم يكن المعلّمون يابانيين في الغالب فحسب، بل كانوا يستخدمون أساليب يابانية، حيث ضرب الأطفال ممارسة طبيعية. وكان يعاقب بالصفع عند أدنى خطأ أو تخلّف عن الالتزام بالقواعد المتبعة أو آداب السلوك، كأن تطلق فتاة شعر رأسها نصف بوصة تحت أرنبة أذنها. وكانت البنات والأولاد على السواء يُلطَمون على الوجه، بقوّة، وغالباً ما كان الأولاد يضربون على الرأس بهراوة خشبية. وكان من العقوبات الأخرى فرض الركوع ساعات في الثلج.

وحين كان أطفال البلد يمرّون بياباني في الشارع، كان عليهم أن ينحنوا ويخلوا الطريق، حتى إذا كان الياباني أصغر منهم سنّاً. وغالباً ما كان الأطفال اليابانيون يوقفون أطفال البلد ويصفعونهم دون أي سبب. وكان على التلاميذ أن ينحنوا بخشوع لمعلّميهم كلما التقوا بهم. وكانت أمي تمزح مع صديقاتها بأن المعلم الياباني الذي يمرّ مطرِقاً، يشبه الزوبعة التي تهب على حقل من الأعشاب ـ حيث لا يرى المرء إلاّ الأعشاب منحنية مع هبوب الريح.

كان الكثير من الكبار أيضاً ينحنون لليابانيين، خوفاً من الإساءة إليهم. ولكن الوجود الياباني لم يمسّ كثيراً بعائلة شيا في البداية. فمناصب المستويين الأوسط والأدنى كان يشغلها أبناء البلد من المانشو والصينيّين الهان على السواء، مثل والد جدتي الذي احتفظ بوظيفته نائباً لرئيس شرطة يشيان. وبحلول عام ١٩٤٠، كان في جنجو زهاء ١٥ ألف ياباني. وكان الذين يعيشون في البيت المجاور لعائلة شيا، يابانيين، وكانت جدتي على ودٍّ معهم. كان الزوج موظفاً حكومياً. وفي كل صباح، كانت زوجته تقف خارج البوّابة مع أطفالها الثلاثة وتنحني له انحناءة عميقة، وهو يركب العربة للتوجّه إلى العمل. بعد ذلك، تبدأ عملها الخاص، عاجنة غبار الفحم على شكل كرات للوقود. ولأسباب لم تفهمها جدتي وأمي قطّ، كانت دائماً ترتدي قفازات بيضاء تتسخ بسرعة.

كانت المرأة اليابانية تزور جدتي في أحيان كثيرة. كانت وحيدة، نادراً ما يكون

زوجها في البيت. كانت تأتي ومعها قليل من الساكي، وتحضّر جدتي بعض الوجبات الخفيفة، مثل الخضراوات المخلّلة بصلصة فول الصويا. كانت جدتي تتكلم قليلاً من اللغة اليابانية، والمرأة اليابانية تتكلّم قليلاً من اللغة الصينيّة. وكانتا تدندنان أغنيات، إحداهما للأخرى، وتذرفان الدموع معاً عندما تنفعلان. وفي أحيان كثيرة كانت كل منهما تساعد الأخرى في حديقتها. وكان لدى الجارة اليابانية أدوات بستنة أعجبت جدتي بها إعجاباً كبيراً، وغالباً ما كانت أمي تُدعى للّعب في حديقتها.

ولكن عائلة شيا لم يكن في وسعها أن تتجنّب سماع ما كان اليابانيون يفعلونه. ففي السهول الشاسعة لشمال منشوريا، كانت القرى تُحرق، والنّاجون من السكان يُساقون إلى «قرى استراتيجية». وقد شُرّد أكثر من خمسة ملايين إنسان، يشكّلون حوالي سدس السكان، ولاقى عشرات الألوف حتفهم. وكان العمّال يُشَغَّلون، حتى الموت، في المناجم تحت مراقبة حرّاس يابانيين لإنتاج صادرات إلى اليابان؛ لأن منشوريا كانت غنية بالثروات الطبيعية. وكان كثيرون يُحرمون من الملح، لكي لا تكون لديهم الطاقة على الهرب.

لطالما كان الدكتور شيا يرى أن الأمبراطور لا علم له بالشرور التي كانت ترتكب، لأنه من الناحية العملية أسير اليابانيين. ولكن حين غيّر بو يي طريقة إشارته إلى اليابان من «جارنا الصديق» إلى «الأخ الأكبر» وأخيراً إلى «الأب»، ضرب الدكتور شيا الطاولة بقبضته، وسمّاه «الجبان الرعديد». بيد أنه كان يقول إنه ليس متأكّداً من حجم المسؤولية التي ينبغي أن يتحمّلها الأمبراطور عن الفظائع، إلى أن تسبّب حدثان مهمان بتغيير عالم عائلة شيا.

ذات يوم في أواخر عام ١٩٤١، كان الدكتور شيا في عيادته عندما دخل الغرفة رجل لم يره قطّ في حياته. كان يرتدي أسمالاً، وكان جسمه الضامر مقوّساً في انحناءة مزدوجة تقريباً. أوضح الرجل أنه كولي (حمّال) في السكك الحديد، وأنه يعاني آلاماً شديدة في المعدة، وأن عمله يشتمل على رفع أحمال من مطلع الفجر حتى غروب الشمس، ٣٦٥ يوماً في السنة. ولا يعرف كيف يستطيع الاستمرار، ولكنه إذا فَقَد عمله، فلن يكون قادراً على إعالة زوجته وطفله الرضيع.

أخبره الدكتور شيا أن معدته لا تستطيع هضم الطعام الرديء الذي يأكله. ففي

الأول من حزيران/ يونيو، أعلنت الحكومة أن الرزّ، من الآن فصاعداً، محفوظ لليابانيين وعدد صغير من المتعاونين معهم. وعلى أغلبية السكان المحليّين أن يقتاتوا بغذاء من وجبة بلوط وسرغوم، اللذين كانا عسيرين على الهضم. أعطى الدكتور شيا للرجل بعض الدواء، مجاناً، وطلب من جدتي أن تعطيه كيساً صغيراً من الرزّ ابتاعته بصورة غير قانونية من السوق السوداء.

لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك، حتى سمع الدكتور شيا أن الرجل مات في معسكر لأعمال السخرة. فبعد أن غادر العيادة أكل الرز وعاد إلى العمل، ثم تقيّأ في فناء السكة الحديد. لاحظ أحد الحرّاس اليابانيين الرز في قيئه، فاعتُقل بوصفه «مجرماً اقتصادياً» ونقل إلى أحد المعسكرات. ولم يصمد في حالته المعتلّة إلا بضعة أيّام. وعندما سمعت زوجته بما حدث له، انتحرت غرقاً مع رضيعها.

حزن الدكتور شيا وجدتي حزناً شديداً بسبب الحادث، وشعرا أنهما مسؤولان عن موت الرجل. وكان الدكتور شيا يقول في أحيان كثيرة: «الرز يمكن أن يفتك، كما يمكن أن ينقذ! مقدار كيس صغير، كلَّف ثلاثة أرواح!». وبدأ يدعو بو يي: «ذاك الطاغية».

بعد ذلك بفترة وجيزة، اقتربت المأساة أكثر من البيت. كان الابن الأصغر للدكتور شيا يعمل معلّماً في يشيان. وكما في كل مدرسة في مانشوكوو، كانت هناك صورة كبيرة لبو يي في مكتب المدير الياباني، كان على الجميع أن يؤدّوا لها التحية عند دخولهم الغرفة. وذات يوم، نسي ابن الدكتور شيا أن ينحني لبو يي. فصرخ به المدير أن ينحني على الفور ولطمه على وجهه لطمة أفقدته توازنه. استشاط ابن الدكتور شيا غضباً: «هل يتعيّن عليّ أن أنحني مرتين كل يوم؟ ألا أستطيع الوقوف منتصباً حتى للحظة واحدة؟... لقد أدّيت ولاء الطاعة في مجلس الصباح...». لطمه المدير ثانية وصاح: «إن هذا أمبراطوركم. أنتم المنشوريون في حاجة إلى من يعلّمكم مبادئ الأدب!». وردَّ ابن الدكتور شيا صائحاً: «يا لخيبتك! إنها مجرد قصاصة ورق!». في تلك اللحظة، جاء معلّمان، كلاهما من أبناء البلد، واستطاعا منعه من قول أي شيء يزيده تورّطاً. استعاد السيطرة على نفسه، وفي النهاية، أجبر نفسه على أداء انحناءة كيفما اتّفق أمام الصورة.

في ذلك المساء، جاء صديق إلى بيته وأخبره بأنه يقال إنه وُصم بكونه «مجرماً فكرياً» ـ وهي جناية يعاقب عليها بالسجن، وربما بالإعدام. هرب ولم تسمع عنه عائلته شيئاً بعد ذلك. لعلّه وقع في الأسر ومات في السجن، أو خلاف ذلك في معسكر عمل. لم يشفَ الدكتور شيا قط من هذه الضربة التي حوّلته إلى عدوّ لدود لمانشوكوو وبو يي.

لم تكن هذه نهاية القصة. فإن مجرمين محليّين بدأوا يضايقون دي ـ غوي، الوحيد الباقي من أبناء الدكتور شيا، بسبب «جريمة» شقيقه، مطالبين بإتاوة، مدّعين أنه قصّر في واجبه بوصفه الأخ الأكبر. كان يدفع، ولكن العتاة لم يفعلوا سوى المطالبة بالمزيد. وفي النهاية، اضطرّ إلى بيع متجر الأدوية والرحيل عن يشيان إلى موكدِن، حيث فتح متجراً جديداً.

في ذلك الوقت، كان الدكتور شيا يزداد نجاحاً. كان يعالج اليابانيين فضلاً عن أهل البلد. وفي بعض الأحيان، بعد معالجة ضابط ياباني كبير أو متعاون، كان يقول: «أتمنى لو يموت». ولكن آراءه الشخصية لم تؤثر قطّ في موقفه المهني. كان يقول: «المريض إنسان. وهذا كل ما ينبغي أن يفكّر فيه الطبيب. ينبغي أن لا يضيره أي نوع من البشر يكون».

في هذه الأثناء، جاءت جدتي بأمها إلى جنجو. فحين غادرت بيتها للزواج من الدكتور شيا، تُركت أمّها وحيدة في البيت مع زوجها الذي يحتقرها، ومع الجاريتين المنغوليتين اللتين تكرهانها. وبدأت ترتاب أن الجاريتين تريدان تسميمها وبيع ابنها يو ـ لن. وكانت دائماً تستخدم عودين فضيّين في الأكل لأن الصينيّين يعتقدون أن الفضّة تَسْوَدُّ عند الاحتكاك بالسم، ولم تلمس طعامها قط أو تدع يو ـ لن يلمسه قبل تجربته على كلبها. وذات يوم، بعد أشهر قليلة من رحيل جدتي عن البيت، سقط الكلب ميتاً. وأول مرة في حياتها دخلت في شجار كبير مع زوجها، وبمؤازرة حماتها السيدة يانغ العجوز، انتقلت مع يو ـ لن إلى سكن مستأجر. ونَفَرت السيدة يانغ العجوز من ابنها بحيث أنها غادرت البيت معهما، ولم ترَ ابنها قط بعد ذلك ـ إلاّ خلال احتضارها على فراش الموت.

في السنوات الثلاث الأولى، كان السيد يانغ يرسل لهما، على مَضَض،

مخصّصات شهرية، ولكن هذه المخصصات توقّفت في بداية ١٩٣٩، وكان على الدكتور شيا وجدتي أن يعيلاهم. في تلك الأيام، لم يكن هناك قانون إعالة، أو نظام قانوني حقيقي، لذا كانت الزوجة تحت رحمة زوجها تماماً. وحين ماتت السيدة يانغ العجوز في عام ١٩٤٢، انتقلت أم جدتي ويو ـ لن إلى جنجو، وذهبا للعيش في بيت الدكتور شيا. وكانت تعد نفسها وابنها مواطنين من الدرجة الثانية، يعيشان على الصَّدَقة. وكانت تقضي وقتها في غسل ملابس العائلة والتنظيف بشكل مهووس، متذلّلة بأعصاب متوتّرة أمام ابنتها والدكتور شيا. كانت بوذية تقيّة، وكل يوم في صلواتها تطلب من بوذا أن لا يعيدها متقمصة في امرأة: «دعني أصبح قطة أو كلباً، ولكن ليس امرأة». كانت غمغمتها، وهي تجرّ قدميها حول البيت، تقطر اعتذارات مع كل خطوة.

جاءت جدتي أيضاً بشقيقتها «لان»، التي كانت تحبّها كثيراً، إلى جنجو. وتزوجت «لان» رجلاً في يشيان، قدّمها زوجها إلى عم ثري كان يعمل لحسابه، وكان العم يملك معملاً لإنتاج الزيت النباتي. كان العم قد اغتصب العديد من إناث العائلة، بمن فيهن حفيدته الصغيرة. ولأنه رب العائلة، فقد كانت لديه سلطة هائلة على كل أفرادها، ولم تجرؤ «لان» على مقاومته. غير أن جدتي لجأت إلى المال دفعاً للزوج إلى التنكر لزوجته، لأن المرأة لم تكن تستطيع طلب الطلاق. جاءت بها جدتي إلى جنجو، حيث تزوجت ثانية من رجل اسمه بي ـ أو.

كان بي ـ أو سجّاناً، وغالباً ما كان الاثنان يزوران جدتي. كانت قصص بي ـ أو تبعث القشعريرة في بدن أمي. فالسجن كان يغصّ بالمعتقلين السياسيّين. وغالباً ما كان بي ـ أو يتحدث عن شجاعتهم، وكيف يلعنون اليابانيين حتى وهم تحت التعذيب. كان التعذيب ممارسة روتينية، ولم يكن السجناء يتلقون أي علاج طبي. بل تُترك جروحهم لتتعفن.

عرض الدكتور شيا أن يذهب ويعالج السجناء. وفي واحدة من زياراته الأولى، عرَّفه بي ـ أو بصديق له اسمه دونغ، وهو جلاد مسؤول عن تشغيل المخنَقة. كان السجين يوثق إلى كرسي بحبل حول عنقه. ثم يُشدُّ الحبل ببطء. كان الموت البطيء فظيعاً.

عرف الدكتور شيا من نسيبه، أن ضمير دونغ كان يعذّبه، إذ كلما يكون مُقبلاً على خنق أحدهم، كان يسكر قبل ذلك. قام الدكتور شيا بدعوة دونغ إلى بيته. قدّم إليه هدايا، واقترح أنه ربما يستطيع أن يتجنّب شدّ الحبل على طول الخط. قال دونغ إنه سيرى ما يستطيعه. كان يحضر عملية الخنق، عادة، حارس ياباني أو متعاون موثوق، ولكن اليابانيين، أحياناً، لم يكونوا يكلّفون أنفسهم عناء الحضور، إذا لم يكن الضحية مهماً. وفي أحيان أخرى، كانوا يغادرون قبل أن يموت السجين. ألمح دونغ إلى أنه في مثل هذه المناسبات، يستطيع إيقاف المخنقة قبل أن يموت السجين.

بعد خنق السجناء، كانت جثثهم توضع في صناديق خشبية خفيفة وتنقل على عربة إلى رقعة أرض جرداء على أطراف المدينة، تسمّى «تل الجنوب»، حيث كانت الجثث تُلقى في حفرة. وكان المكان يعجّ بالكلاب السائبة التي تقتات على الجثث. كما كانت تلقى في الحفرة بنات رضيعات قتلتهن عوائلهن، حيث كان ذلك شائعاً في تلك الأيام.

أقام الدكتور شيا علاقة مع سائق العربة العجوز، وكان يعطيه نقوداً بين حين وآخر. وفي بعض الأحيان، كان السائق يأتي إلى العيادة ويشرع في الثرثرة عن الحياة، على نحو غير مفهوم في الظاهر، ولكنه في النهاية يبدأ الحديث عن المقبرة: «أخبرتُ النفوس الميتة أني لست مسؤولاً عن مآلها. قلت لها إني، من ناحيتي، أتمنى لها الخير. «عودي في العام القادم لذكراك السنوية أيتها النفوس الميتة. ولكن في هذه الأثناء، إذا كنتِ تريدين التحليق للبحث عن أجساد أفضل تتناسخين فيها، فاذهبي في الاتجاه الذي يشير إليه رأسك. فهذا طريق صالح لك»». لم يتحادث دونغ وسائق العربة عمّا يفعلانه قطّ، ولم يعرف الدكتور شيا قط عدد الذين أنقذهم. وبعد الحرب، عمدت «الجثث» التي أُنقذت إلى جمع المال لكي يشتري به دونغ بيتاً وقطعة أرض. وكان سائق العربة قد مات.

كان أحد أولئك الذين أُنقذوا ابن عم بعيد لجدتي، اسمه هان ـ تشن، كان شخصية هامّة في حركة المقاومة. ولأن مدينة جنجو كانت حلقة الوصل الرئيسية في خطوط السكّة الحديد شمال «السور العظيم»، فقد أصبحت نقطة تجمّع اليابانيين في هجومهم على الصين نفسها، الذي بدأ في تموز/يوليو ١٩٣٧. كانت الإجراءات الأمنية مشدّدة للغاية، وكانت منظمة هان ـ تشن مختَرقة بجاسوس مدسوس،

واعتُقلت المجموعة كلها. وتعرّض الجميع للتعذيب. في البداية، دُفع ماء مخلوط بفلفل حار عبر مناخيرهم ثم صُفِعَت وجوههم بحذاء تنتأ من نعله مسامير حادة. ثم أعدمت أغلبيّتهم. مضت فترة طويلة كانت عائلة شيا تعتقد أن هان ـ تشن قد مات، إلى أن أخبرهم العم بي ـ أو، ذات يوم، أنه ما زال على قيد الحياة ـ ولكنه على وشك أن يُعدَم. وفي الحال، اتّصل الدكتور شيا بدونغ.

في ليلة الإعدام، توجّه الدكتور شيا وجدتي إلى «تل الجنوب»، ومعهما عربة. توقفا وراء أجمة كثيفة الأشجار. كانا يستطيعان أن يسمعا الكلاب السائبة وهي تبحث حول الحفرة، التي كانت تنبعث منها الرائحة النتنة للحم المتحلل. وأخيراً، ظهرت عربة. كانا يستطيعان أن يريا، في العتمة، السائق العجوز وهو يترجّل ويرمي بعض الجثث من الصناديق الخشبية. انتظرا حتى ابتعد، ثم توجّها إلى الحفرة. وبعد تلمّس طريقهما بين الجثث، عثرا على هان ـ تشن، ولكنهما لم يتمكّنا من التوثّق إن كان حياً أو ميتاً. وفي النهاية، أدركا أنه ما زال يتنفّس. لقد عُذّب تعذيباً بشعاً حتى إنه لم يتمكن من المشي، فرفعاه بعد عناء كبير إلى العربة، وانطلقا به عائدين إلى بيتهما.

أخفياه داخل غرفة صغيرة في أبعد زاوية من البيت. كان بابها الوحيد يفضي إلى حجرة أمي، التي كان المنفذ الآخر الوحيد إليها من غرفة والديها. وما كان أحد يدخل هذه الغرفة مصادفة على الإطلاق. وبما أن البيت كان الوحيد الذي ينفتح مباشرة على الفناء، فقد كان في مقدور هان ـ تشن أن يمارس تمارينه في مأمن، ما دام هناك من يقوم بالمراقبة.

كان هناك خطر أن تقوم الشرطة أو لجان الحي المحلية بالدهم. ففي وقت مبكر من الاحتلال، شدَّد اليابانيون نظام مراقبة الأحياء السكنية الذي كان قائماً. ونصَّبوا الوجهاء المحليّين على رأس وحدات المراقبة. وكان زعماء الأحياء هؤلاء يجبون الضرائب ويمارسون الرقابة على مدار الساعة ضدّ «العناصر الخارجة على القانون». كان ذلك شكلاً من أشكال عالم العصابات المنظم، حيث كانت الإتاوة بذريعة «الحماية» والوشاية طريقين إلى السطوة. كما كان اليابانيون يعرضون مكافآت كبيرة على تسليم الناس. وكانت شرطة مانشوكوو أقلّ خطراً من بعض المواطنين. فقد كان كثير من أفراد الشرطة، في الواقع، معادين تماماً لليابانيين. كانت إحدى مهامهم الرئيسية التدقيق في تسجيل الأشخاص، وكانوا يقومون، في أحيان كثيرة، بحملات

تفتيش من بيت إلى بيت. ولكنهم كانوا يعلنون عن وصولهم بالمناداة: «تدقيق السجلات! تدقيق السجلات!»، بحيث كان هناك متّسع من الوقت لكل من يريد الاختفاء. وكلّما سمع هان ـ تشن أو جدتي هذا النداء، كانت جدتي تخفيه في كوم من السرغوم المجفّف، مكدّس في الغرفة الأخيرة المخصّصة للوقود. وكان أفراد الشرطة يدخلون البيت بمشية متئدة ويجلسون ويتناولون فنجان شاي، قائلين لجدتي بلهجة اعتذار: «كل هذا مجرد شكليات، أنت تعرفين...».

في ذلك الوقت كانت أمي في الحادية عشرة من العمر. ورغم أن والديها لم يقولا لها ما يجري، كانت تعرف أنها يجب ألاّ تتحدّث عن وجود هان ـ تشن في البيت. لقد تعلّمت الحيطة منذ الطفولة.

سهرت جدتي على تمريض هان ـ تشن حتى استردّ عافيته. وبعد ثلاثة أشهر، كان في صحة جيّدة، بما يكفي للرحيل. كان وداعاً عاطفياً. قال: «أيتها الشقيقة الكبرى، أيها النسيب الأكبر، لن أنسى أبداً أني مدين لكما بحياتي. وحالما تتاح لي الفرصة، سأسدّد ما في عنقي من دين كبير لكما». بعد ثلاث سنوات، عاد وكان عند كلمته.

كان على أمي وتلميذات صفّها أن يشاهدن، كجزء من تربيتهن، أشرطة إخبارية عن تقدم اليابانيين في الحرب. وكان اليابانيون، بدلاً من الخجل من وحشيّتهم، يتباهون بها كطريقة لزرع الخوف. كانت الأفلام تعرض الجنود اليابانيين وهم يقطعون الناس إلى نصفين، وسجناء موثوقين إلى أوتاد تمزّقهم الكلاب إرباً إرباً. وكان اليابانيون يراقبون التلميذات بنات الأحد عشر والاثني عشر عاماً للتوثّق من أنهنّ لا يغمضن عيونهنّ، أو يحاولن غلق أفواههنّ بالمناديل لخنق صراخهنّ. وظلّت أمي ترى كوابيس طيلة سنوات من بعدها.

خلال عام ١٩٤٢، وجد اليابانيون أنفسهم في شح من الأيدي العاملة، مع تمدّد جيشهم منتشراً في عموم الصين وجنوب شرق آسيا والمحيط الهادىء. وجُنِّد صف أمي كله للعمل في معمل نسيج، كما جُنِّد الأطفال اليابانيون. وكان على بنات البلد أن يمشين زهاء أربعة أميال ذهاباً ومثلها إياباً. وكان الأطفال اليابانيون يذهبون بالشاحنات. كانت بنات البلد يحصلن على عصيدة خفيفة من الذرة العفنة، تطفو

عليها ديدان ميتة. وكانت للبنات اليابانيات وجبات غداء مغلَّفة من اللحم والخضار والفاكهة.

كانت لدى الفتيات اليابانيات أعمال سهلة، مثل تنظيف الشبابيك. ولكن كان على بنات البلد تشغيل آلات غزل معقّدة، شديدة التطلّب، وخطرة حتى على الكبار. وعملهنّ الرئيسي إعادة ربط الخيوط المقطوعة، بينما الآلات تدور بسرعتها. وإذا لم يلتقطن الخيط المقطوع أو يُعِذْن ربطه بالسرعة المطلوبة، كان المراقب الياباني يعاقبهن بهمجية.

كانت البنات مرعوبات. وتسبّب تضافر التوتّر العصبي والبرد والجوع والإرهاق في حوادث كثيرة. فقد تعرض أكثر من نصف زميلات أمي التلميذات إلى إصابات. وذات يوم، رأت أمي مكوكاً يطير من إحدى الآلات، ويفقأ عين البنت الواقفة إلى جنبها. وعلى طول الطريق إلى المستشفى، كان المراقب الياباني يعنّف الفتاة لعدم انتباهها.

بعد انتهاء فترة الخدمة في المعمل، انتقلت أمي إلى مدرسة ثانوية للناشئين. فلقد تغيّر الزمن منذ شباب جدتي، ولم تعد الفتيات حبيسات الجدران الأربعة لبيوتهن. وكان من المقبول، اجتماعياً، أن تتلقى الفتيات تعليماً ثانوياً. ولكن البنين والبنات كانوا يتلقّون تعليماً مختلفاً. كان الهدف بالنسبة إلى البنات تحويلهنّ إلى «زوجات مهذّبات وأمهات صالحات»، على حدّ تعبير شعار المدرسة. وكنّ يتعلمن ما كان اليابانيون يسمّونه «طريقة المرأة» ـ العناية بالبيت والطبخ والخياطة ومراسم الشاي وتنسيق الزهور والتطريز والرسم وتذوُّق الفن. وكان أهم شيء في تعليم البنت هو كيف تُرضي زوجها. تعليم يشتمل على الملبس وتسريحة الشعر وطريقة الانحناء وفي المقام الأول، الطاعة بلا نقاش. كان لدى أمي، على حدّ تعبير جدتي، «عظام متمرّدة»، فلم تتعلّم أي مهارة تقريباً من هذه المهارات، ولا حتى الطهي.

كانت بعض الامتحانات تتخذ شكل مهمات عملية، مثل تحضير أكلة معينة أو تنسيق الزهور. وكان مجلس الامتحانات يضمّ مسؤولين محليّين، يابانيين وصينيين على السواء، وفضلاً عن تقويم الامتحانات، كانوا أيضاً يقوّمون البنات. وكانت صورهن وهن يرتدين مآزر لطيفة من تصميمهن، تعلّق على لوحة الإعلانات مع واجباتهن. وفي أحيان كثيرة، كان المسؤولون اليابانيون ينتقون خطيبات من بين الفتيات، نظراً إلى تشجيع الزواج المختلط بين الرجال اليابانيين ونساء البلد. كما كان

يجري اختيار بعض الفتيات للذهاب إلى اليابان والزواج من رجال لم يلتقينهم. وفي أحيان كثيرة، كانت الفتيات ـ أو بالأحرى عوائلهن ـ راغبات في ذلك. ومع اقتراب الاحتلال من نهايته، اختيرت إحدى صديقات أمي للذهاب إلى اليابان، ولكن السفينة فاتتها وكانت لا تزال في جنجو حين استسلم اليابانيون.

وعلى النقيض من سابقيهم الماندارن الصينيين، الذين كانوا يعزِفون عن النشاط البدني، كان اليابانيون يقبلون بحماسة على الألعاب الرياضية التي تعشقها أمي. فلقد تعافت من إصابتها في الورك، وكانت عداءة جيدة. واختيرت، ذات مرة، للركض في سباق هام. تدرّبت طيلة أسابيع، وكانت متحفّزة لليوم المشهود، ولكن قبل أيام من السباق، انتحى بها جانباً المدرب الذي كان صينياً، وطلب منها ألاّ تحاول الفوز. وقال إنه لا يستطيع أن يبين السبب. وكانت أمي متفهمة، إذ كانت تعرف أن اليابانيين لا يحبون أن يهزمهم الصينيون في أي شيء. كانت هناك بنت واحدة من بنات البلد في السباق، وطلب المدرّب من أمي أن تنقل إليها النصيحة نفسها، على أن لا تقول لها إنها منه. وفي يوم السباق، لم تكن أمي حتى بين الست الأوائل. وكان واضحاً لصديقاتها أنها لم تكن تحاول. ولكن بنت البلد الأخرى لم تتحمل لجم نفسها، وجاءت في المرتبة الأولى.

ما لبث اليابانيون أن نفذوا انتقامهم. ففي كل صباح، كان هناك اجتماع يرأسه المدير الذي كان يلقب بـ «الحمار»، لأن اسمه حين يُقرأ بالطريقة الصينية (ماو ـ لي) كان لفظُهُ شبيهاً بكلمة «حمار» (ماو ـ لو). كان يصدر الأوامر بنبرات خشنة لأداء الانحناءات الواطئة الأربع صوب النقاط المعينة الأربع. أولاً، «صلاة بعيدة للعاصمة الأمبراطورية!» في اتجاه طوكيو. ثم «صلاة بعيدة للعاصمة الوطنية!» نحو هسنكنغ، عاصمة مانشوكوو. بعد ذلك، «صلاة متفانية للأمبراطور السماوي!» ـ أي أمبراطور اليابان. وأخيراً، «صلاة متفانية للصورة الأمبراطورية!» ـ هذه المرة لصورة بو يي. وبعد ذلك، تأتي انحناءة أقصر للمعلّمين.

في هذا الصباح تحديداً، بعد الانتهاء من الانحناء، جُرّت الفتاة التي فازت في السباق في اليوم السابق، على حين غرة، من طابورها بيد «الحمار»، الذي زعم أن انحناءاتها لبو يي كانت أقلّ من تسعين درجة. صَفَعها وركلها وأعلن طردها. كان هذا كارثة عليها وعلى عائلتها.

زوَّجها والداها على عجل لموظف حكومي صغير. وبعد هزيمة اليابان، وُصم زوجها بالتعاون مع العدوّ. ونتيجة لذلك، كان العمل الوحيد الذي تمكّنت زوجته من الحصول عليه، في منشأة كيمياوية.

لم تكن هناك ضوابط للتلوّث وحين عادت أمي إلى جنجو في عام ١٩٤٨ واقتفت أثرها حتى عثرت عليها، كانت عيناها قد ابيضّتا تقريباً من المواد الكيمياوية. سخرت سخرية مرة من مفارقات حياتها: بعد أن فازت على اليابانيين في سباق، انتهى بها المآل إلى أن تُعامل كأنها متعاونة. ومع ذلك، قالت إنها ليست نادمة على الفوز في السباق.

كان من الصعب على الناس في مانشوكوو أن يكوّنوا فكرة واضحة عمّا يجري في بقية العالم، أو كيف كان وضع اليابان في الحرب. فقد كان القتال بعيداً والأخبار خاضعة لرقابة شديدة، والإذاعة لا تبثّ إلا الدعاية. ولكن كان لديهم إحساس بأن اليابان في موقف صعب، على أساس عدد من المؤشرات، وخاصّة تردّي الوضع الغذائي.

جاءت أول الأنباء الحقيقية في صيف ١٩٤٣، عندما أوردت الصحف أن أحد حلفاء اليابان، وهو إيطاليا، قد استسلم. وفي منتصف ١٩٤٤ كان بعض المدنيين اليابانيين الذين يديرون مكاتب حكومية[1] في مانشوكوو يُساقون إلى الجندية. ثم، في ٢٩ تموز/يوليو ١٩٤٤، ظهرت قاذفات أميركية من طراز بي - ٢٩ في سماء جنجو للمرة الأولى، رغم أنها لم تقصف المدينة. وأمر اليابانيون كل بيت بحفر ملاجىء ضد الغارات الجوية، وكان هناك تدريب إلزامي كل يوم في المدرسة تحسّباً للغارات الجوية. وذات يوم، التقطت فتاة في صف أمي أسطوانة إطفاء الحرائق ورشتها على معلم ياباني كانت تمقته بصفة خاصة. في السابق، كان من شأن هذا أن يستنزل عقاباً شديداً، ولكنها الآن نجت من عواقب فعلتها بغضّ الطرف عنها. لقد أخذ ميزان القوى يتغيّر.

كانت هناك حملة لاصطياد الذباب والجرذان. وكان التلاميذ يقطعون أذناب الجرذان ويضعونها في أغلفة ويسلّمونها إلى الشرطة. أما الذباب فكان يتعيّن وضعه في قنانٍ زجاجية. وكان رجال الشرطة يحصون كل ذنب وكل ذبابة ميتة. وذات يوم

من عام ١٩٤٤، عندما سلَّمت أمي قنينة زجاجية مليئة بالذباب حتى الحافة، قال لها الشرطي المانشوكووي: «لا يكفي لوجبة». وعندما رأى نظرة الاستغراب على وجهها قال: «أوَ لا تعرفين؟ إن اليابانيين يحبون الذباب الميت. إنهم يقلونه ويأكلونه!». كانت أمي تستطيع أن ترى، من التماعة التهكّم في عينيه، أنه لم يعد يعتبر اليابانيين مرهوبين.

كانت أمي جذلة وكلها أمل، ولكن في خريف ١٩٤٤، ظهرت غيمة سوداء: بيتها لم يبدُ سعيداً كما كان في السابق. وأحسَّت أن هناك جفوة بين والديها.

كانت الليلة الخامسة عشرة من القمر الثامن من السنة الصينية «مهرجان منتصف الخريف». وفي تلك الليلة، تضع جدتي مائدة من الشمام والكعك المدوّر والأرغفة في الخارج تحت ضوء القمر، بحسب العادة المتبعة. والسبب في كون هذا التاريخ مهرجان لمِّ الشمل هو أن الكلمة الصينية التي تعني «لمَّ الشمل» (يوان)، هي نفسها الكلمة التي تُستخدم بمعنى «مدور» أو «مكتمل». وكان يُفتَرض في قمر الخريف المكتمل أن يبدو مدوَّراً بصفة خاصة، مدوَّراً بشكل رائع، في ذلك الوقت. ويتعيّن أن تكون كل الأطعمة التي تؤكل في ذلك اليوم أطعمة مدوّرة.

في ضوء القمر الحريري، كانت جدتي تروي لأمي حكايات عن القمر: أكبر ظل فيه كان شجرة قرفة عملاقة، أمضى السيد وو غانغ، حياته كلها محاولاً قطعها. ولكن الشجرة كانت مسحورة، وكان محكوماً عليه بالفشل المتكرّر. وكانت أمي تحدّق عالياً إلى السماء وتنصت مفتونة. كان القمر المكتمل جميلاً جمالاً أخّاذاً في نظرها، ولكنها في تلك الليلة لم يكن مسموحاً لها بوصفه، فأمها حرَّمت عليها التفوّه بكلمة «مدوَّر»، لأن عائلة الدكتور شيا انفرط عقدها. وكان الدكتور شيا مغتماً اليوم كله، ولأيام عديدة قبل المهرجان وبعده. وأخذت جدتي تفقد حتى ميلها المعهود إلى رواية القصص.

ليلة المهرجان، في عام ١٩٤٤، كانت أمي وجدتي تجلسان تحت عريشة مغطاة بشمام شتوي ولوبيا تحدّقان، من خلال الأوراق الظليلة، إلى السماء الواسعة، الصافية. همَّت أمي تقول: «القمر مدور بصفة خاصة هذه الليلة»، ولكن جدتي قاطعتها بحدة، ثم انفجرت باكية على حين غرّة. ركضت مسرعة إلى داخل البيت،

وسمعتها أمي تنشج وتصيح: «عد إلى ابنك وأحفادك! اتركني واترك ابنتي واذهب في سبيلك!». ثم قالت وهي تشهق بين تنهداتها: «هل الذنب ذنبي ـ أو ذنبك ـ في انتحار ولدك؟ لماذا يجب أن نتحمل هذا العبء عاماً بعد آخر؟ ليس أنا مَنْ يمنعك من رؤية أبنائك. هم الذين رفضوا المجيء لرؤيتك...». منذ أن غادرا يشيان، لم يزرهما إلا دي ـ غوي، الابن الثاني للدكتور شيا. لم تسمع أمي كلمة واحدة من الدكتور شيا.

منذ ذلك الحين، شعرت أمي أن شيئاً ما ليس على ما يرام. أصبح الدكتور شيا قليل الكلام بصورة متزايدة، وأخذت تتجنّبه بالغريزة. وكانت الدموع تترقرق في عيني جدتي، بين حين وآخر، وتهمهم في نفسها قائلة إنها والدكتور شيا، لا يمكن أبداً أن يكونا سعيدين تماماً إزاء الثمن الباهظ الذي دفعاه لحبهما. وكانت تضمّ أمي إلى صدرها بقوة، وتقول لها إنها الشيء الوحيد الذي لديها في حياتها.

كانت أمي في مزاج كئيب، على غير عادتها، عندما حلّ الشتاء على جنجو. وفشل ظهور الطلعة الثانية من قاذفات بي ـ ٢٩ الأميركية في سماء كانون الأول/ ديسمبر الباردة، الصافية، في رفع معنوياتها.

أخذ اليابانيون يصبحون متطيرين أكثر فأكثر. وذات يوم، وقع بيد إحدى صديقات أمي في المدرسة كتاب من تأليف كاتب صيني ممنوع. وإذ كانت تبحث عن مكان هادىء للقراءة، ذهبت إلى الريف، حيث وجدت مغارة ظنّت أنها ملجأ مهجور من الغارات الجوية. وفيما كانت تتلمس طريقها في العتمة، لامست يدها ما شعرت أنه مفتاح الضوء. انطلق زعيق يصمّ الآذان، فقد مسّت يدها جهاز إنذار. وقادتها قدماها إلى مستودع للسلاح. لم تعد ساقاها تقويان على حملها. حاولت الهروب، ولكنها لم تقطع إلا بضع ياردات قبل أن يمسكها بعض الجنود اليابانيين ويجرّونها بعيداً.

بعد يومين، سُيِّرت المدرسة كلها إلى بقعة جرداء، مغطاة بالثلج خارج البوابة الغربية، عند منحنى من منحنيات نهر شياولنغ. كما استدعى زعماء الأحياء، الأهالي إلى هناك. قيل للأطفال إنهم سيشهدون «معاقبة شخص شرير يعصي اليابان العظيمة». وفجأة رأت أمي صديقتها يدفعها حرّاس يابانيون إلى موقع أمامها مباشرة. كانت الفتاة مقيّدة بالسلاسل، وبالكاد تستطيع المشي. لقد عُذِّبت، وكان وجهها

متورماً حتى إن أمي لم تعرفها إلا بصعوبة. ثم رفع الجنود اليابانيون بنادقهم وصوّبوها نحو الفتاة التي بدا أنها تحاول أن تقول شيئاً، ولكن صوتها أُخمد. كان هناك أزيز طلقات نارية، وخرّت الفتاة صريعة، فيما أخذ الدم يقطر منها على الثلج. كان «الحمار»، المدير الياباني، يجول ببصره بين صفوف تلميذاته. وبمجهود هائل، حاولت أمي أن تخفي مشاعرها. وأجبرت نفسها على النظر إلى جثة صديقتها التي كانت الآن ممدّدة في رقعة حمراء تتلألأ في الثلج الأبيض، وعاهدت نفسها أن تكون شجاعة، وأن لا تنسى أبداً ما فعله اليابانيون.

سمعتْ أحداً يحاول إخماد نشيجه. كانت الآنسة تاناكا، وهي معلمة يابانية شابة كانت تُحبها. وما هي إلا لحظة حتى انهال «الحمار» على الآنسة تاناكا، لكماً وركلاً. سقطت على الأرض، وحاولت أن تتدحرج بعيداً عن جزمته، ولكنه استمرّ في ركلها بعنف. «لقد خانت العرق الياباني»، قال زاعقاً. وفي النهاية، توقف «الحمار»، نظر إلى تلميذاته وأصدر أمر المسير.

ألقت أمي نظرة أخيرة على جسم معلمتها المشوّه وجثة صديقتها، وكبتت كراهيتها.

٤ ـ «عبيد بلا وطن» ـ يحكمهم أسياد مختلفون (١٩٤٥ ـ ١٩٤٧)

في أيار/مايو، شاع الخبر في أنحاء جنجو أن ألمانيا استسلمت، وأن الحرب في أوروبا وضعت أوزارها. كانت الطائرات الأميركية تحلّق فوق المنطقة أكثر من ذي قبل: قاذفات بي ـ ٢٩ كانت تقصف مدناً في منشوريا، إلا أن جنجو لم تُهاجَم. وساد المدينة شعور بأن اليابان ستهزم عما قريب.

في ٨ آب/أغسطس، أُمِرت مدرسة أمي بالذهاب إلى أحد الأضرحة للصلاة من أجل انتصار اليابان. وفي اليوم التالي، دخلت القوات السوفياتية والمنغولية مانشوكوو. ووردت أنباء أن الأميركيين ألقوا قنبلتين ذريتين على اليابان: هلّل الأهالي للخبر. تخلّلت الأيام التالية إنذارات كاذبة بوقوع غارات جوية، وتعطّلت المدرسة. بقيت أمي في البيت تساعد على بناء ملجأ من الغارات الجوية.

في ١٣ آب/أغسطس، سمعت عائلة شيا أن اليابان تسعى للسلام. وبعد يومين، هرع جار صيني يعمل في الحكومة إلى بيت العائلة ليخبرها أن بياناً هاماً سيذاع عبر الراديو. توقف الدكتور شيا عن العمل، وجلس مع جدتي في الفناء. قال المذيع إن أمبراطور اليابان قد استسلم. بعد ذلك مباشرة، جاء نبأ تنازل بو يي عن منصب أمبراطور مانشوكوو. تجمّع الأهالي في الشوارع في حالة من الهياج الشديد. وذهبت أمي إلى مدرستها لرؤية ما يجري هناك. بدا المكان ميتاً، إلا من ضوضاء خافتة مصدرها أحد المكاتب. تسلقت أمي لإلقاء نظرة من خلال النافذة، كانت تستطيع أن ترى المعلمين اليابانيين متجمّعين معاً ينتحبون.

لم يغمض لها جفن تقريباً في تلك الليلة، وأمست مستيقظة حتى بزوغ الفجر. وحين فتحت الباب الأمامي، في الصباح، رأت تجمّعاً صغيراً في الشارع. كانت جثث امرأة يابانية وطفلين يابانيين ملقاة على الطريق. ضابط ياباني انتحر بطريقة الهارا ـ كيري، وكانت عائلته قد أُعدِمت بلا محاكمة.

ذات صباح، بعد أيام قليلة من الاستسلام، عُثر على جيران عائلة شيا اليابانيين قتلى. قال البعض إنهم سمّموا أنفسهم. وفي كل أنحاء جنجو، كان اليابانيون ينتحرون أو يُعدمون بلا محاكمة. نُهبت بيوت اليابانيين، ولاحظت أمي أن أحد جيرانها الفقراء صار لديه، فجأة، الكثير من الأشياء الثمينة للبيع. وانتقم تلاميذ المدارس من معلّميهم اليابانيين وضربوهم ضرباً مبرحاً. بعض اليابانيين تركوا أطفالهم الرضع على أعتاب عوائل من أهل البلد أملاً في إنقاذهم. تعرّض عدد من النساء اليابانيات إلى الاغتصاب، وكثيرات حلقن رؤوسهن في محاولة للإيهام بأنهن رجال.

كانت أمي قلقة على الآنسة تاناكا، التي كانت الوحيدة بين المعلّمين في مدرستها التي لم تضرب التلميذات قط، والوحيدة بين اليابانيين، التي أبدت حزناً عندما أُعدمت صديقة أمي في المدرسة. سألت والديها إن كانت تستطيع إخفاءها في بيتهم. بدت جدتي قلقة، ولكنها لم تقل شيئاً. واكتفى الدكتور شيا بهزّ رأسه.

استعارت أمي طقم ملابس من خالتها «لان»، التي كانت تقريباً بحجم المعلمة، ثم ذهبت ووجدت الآنسة تاناكا متمترسة في شقّتها. كانت الملابس على مقاسها. وهي أطول من متوسط المرأة اليابانية، وكان يمكن لها بسهولة أن تمرّ على أنها صينية. وإذا سأل أحد فسيُقال إنها ابنة عم أمي. فلدى الصينيين أبناء وبنات عمومة كثيرون، بحيث لا يستطيع أحد حصرهم. انتقلتْ إلى الغرفة الأخيرة التي كانت ذات يوم مأوى هان ـ تشن.

في الفراغ الذي تركه استسلام اليابانيين وانهيار نظام مانشوكوو، لم يكن الضحايا من اليابانيين وحدهم. كانت المدينة في فوضى. وفي الليل، كانت تسمع طلقات نارية، وفي أحيان كثيرة، صرخات استغاثة. وكان الذكور من أفراد العائلة، بمن فيهم شقيق جدتي، البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، يو ـ لن، والعمال المتمرنون عند الدكتور شيا، يتناوبون على الحراسة فوق السطح كل ليلة، مسلّحين بالحجارة

والفؤوس والسواطير. وبخلاف جدتي، لم تكن أمي خائفة قط. كانت جدتي مندهشة، وكانت تقول لها: «يسري في عروقك دم أبيك».

استمرّ النهب والاغتصاب والقتل ثمانية أيام بعد استسلام اليابانيين، حين أُبلغ السكان أن جيشاً جديداً سيصل ـ الجيش الأحمر السوفياتي. وفي ٢٣ آب/أغسطس، قال زعماء الأحياء للأهالي أن يذهبوا إلى محطة القطارات في اليوم التالي، لاستقبال الروس. بقي الدكتور شيا وجدتي في البيت، ولكن أمي انضمّت إلى الحشد الكبير المتحمّس من الشباب، الذين حملوا أعلاماً ورقية ملوّنة على شكل مثلث. وعندما وصل القطار بدأ جمهور الحاضرين يلوّحون بأعلامهم ويهتفون: «وولا» (التقريب الصيني لكلمة «أورا» الروسية، بمعنى «مرحى»). تخيّلت أمي الجنود السوفيات أبطالاً ظافرين، بذقون مهيبة، يركبون خيولاً. وما رأته كان مجموعة من الشبان الشاحبين، بملابس رثّة. وما عدا اللمحة الخاطفة أحياناً لشخصية غامضة في سيارة عابرة، فإن هؤلاء كانوا أول بشر بيض تراهم أمي.

كان يرابط في جنجو حوالي ألف جندي سوفياتي، وعندما وصلوا، شعر الناس في البداية، بالعرفان لهم للمساعدة على التخلّص من اليابانيين. ولكن الروس حملوا معهم مشاكل جديدة. فالمدارس أغلقت عندما استسلم اليابانيون، وكانت أمي تتلقى دروساً خاصة. وذات يوم، وهي عائدة إلى بيتها من بيت المعلم، رأت شاحنة متوقفة إلى جانب الطريق: كان بعض الجنود السوفيات يقفون إلى جنبها ويوزعون لفائف من القماش. في ظل اليابانيين، كان القماش مقنناً بصرامة، حسب الحصص. ذهبت لإلقاء نظرة، فاتّضح أن القماش من المعمل الذي عملت فيه عندما كانت في المدرسة الابتدائية. وكان الروس يقايضونه بساعات يدوية وساعات كبيرة وشتى الحلى التافهة. وتذكّرت أمي أن هناك ساعة كبيرة مدفونة في مكان ما في قعر خزانة في البيت. أسرعت عائدة ونبشتها. خاب أملها قليلاً عندما وجدت أنها مكسورة، ولكن الروس كادوا يطيرون فرحاً وأعطوها لفافة من القماش الأبيض الجميل، تزينه زهرة وردية رقيقة. وخلال العشاء، جلست العائلة تهزّ رؤوسها غير مصدقة أمر هؤلاء الأجانب الغرباء، الذين كانوا في مثل هذا الشوق إلى ساعات قديمة مكسورة وحلى رخيصة تافهة.

كان الروس لا يوزّعون السلع من المعامل فحسب، بل ويفكّكون معامل برمتها،

منها مصفاتا النفط في جنجو، ويشحنون المعدات إلى الاتحاد السوفياتي. قالوا إن ذلك «تعويضات حرب»، ولكن ذلك كان يعني، في نظر الأهالي، قصم ظهر الصناعة.

كان الجنود الروس يدخلون بيوت الناس، ويأخذون ببساطة كل ما يستهويهم ـ الساعات والملابس بصفة خاصة. واجتاحت جنجو، كالنار في الهشيم، قصص عن اغتصاب الروس للنساء. ولجأت نساء كثيرات إلى الاختفاء خوفاً من «محرريهن». وخلال فترة وجيزة، كانت المدينة تغلي بالغضب والقلق.

كان بيت عائلة شيا خارج أسوار المدينة، وكان محمياً حماية سيئة للغاية. وعَرَضت صديقة من صديقات أمي أن تقدّم إليهم بيتاً داخل بوابات المدينة، تحيط به أسوار حجرية عالية. انتقلت العائلة على الفور وأخذت معها معلمة أمي اليابانية. وكان الانتقال يعني أن على أمي أن تمشي مسافة أبعد كثيراً ـ حوالي ثلاثين دقيقة ـ إلى بيت معلمها الخصوصي. وأصرّ الدكتور شيا على أخذها إلى هناك والعودة إليها في العصر. ولم تكن أمي تريده أن يمشي كل هذه المسافة. لذا، كانت تمشي جزءاً من الطريق عائدة بمفردها وكان هو يلتقي بها. ذات يوم، توقفت سيارة جيب محمّلة بجنود روس يضحكون قربها، ووثب الروس من السيارة وشرعوا يركضون نحوها. ركضتْ بكل سرعتها، والروس يعدون وراءها. وبعد بضع مئات من الياردات، لمحت زوج أمها من بعيد يلوح بعصاه. كان الروس قريبين في أعقابها وانعطفت أمي داخلة دار حضانة مهجورة تعرفها جيداً، وكانت كالمتاهة. اختفت هناك أكثر من ساعة، ثم تسلّلت من الباب الخلفي ووصلت البيت سالمة. لقد رأى الدكتور شيا الروس يطاردون أمي داخل المبنى، وكان من دواعي ارتياحه البالغ أنهم سرعان ما خرجوا ثانية، محتارين، كما هو واضح، من تصميم المبنى.

بعد ما يربو على أسبوع بقليل من وصول الروس، قال رئيس لجنة الحي لأمي أن تحضر اجتماعاً في مساء اليوم التالي. وحين وصلت إلى هناك، رأت عدداً من الصينيين بملابس رثّة ـ وقلة من النساء ـ يلقون خطابات حول قتالهم ثماني سنوات لدحر اليابانيّين، من أجل أن يتمكّن الناس البسطاء من أن يصبحوا أسياد الصين الجديدة. كان هؤلاء «شيوعيين» ـ شيوعيين صينيين. وقد دخلوا المدينة في اليوم السابق، بلا ضجة ودون سابق إنذار. كانت الشيوعيات في الاجتماع يرتدين ملابس مثل ملابس الرجال تماماً، ممزقة وتربة. فكرت أمي في نفسها: كيف تستطيعون

الادّعاء أنكم دحرتم اليابانيين؟ ليس لديكم حتى أسلحة يعتدّ بها أو ملابس لائقة! بدا الشيوعيون، في نظرها، أفقر من الشحاذين وأكثر وضاعة منهم.

خاب أملها لأنها تخيّلتهم كباراً ووسيمين، فوق البشر. وكان عمها بي ـ أو، السجّان، ودونغ، الجلاد، قد أخبراها أن الشيوعيين هم أشجع السجناء: «لديهم أقوى العظام»، كما كان عمها يقول في أحيان كثيرة. وكان دونغ يقول: «كانوا يغنون ويهتفون بالشعارات، ويلعنون اليابانيين حتى الدقيقة الأخيرة قبل خنقهم».

علّق الشيوعيّون إعلانات تدعو السكان إلى الحفاظ على النظام، وبدأوا يعتقلون المتعاونين ومن عملوا لقوى الأمن اليابانية. وكان من بين المعتقلين، يانغ، أبو جدتي، الذي كان لا يزال نائب رئيس شرطة يشيان. سجن في سجنه ذاته، وأُعدم مسؤوله، رئيس الشرطة. وسرعان ما أعاد الشيوعيون النظام، وأعادوا عجلة الاقتصاد إلى الدوران. وتحسّن الوضع الغذائي الذي كان ميؤوساً منه، تحسناً ملحوظاً. وتمكن الدكتور شيا من البدء برؤية المرضى مجدداً، وأعيد فتح مدرسة أمي.

أُسكِن الشيوعيون في بيوت الأهالي. بدوا أمناء ومتواضعين، وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث مع العوائل: كانوا يقولون لصديقة من صديقات أمي: «ليس لدينا ما يكفي من المتعلمين. تعالي وانضمّي إلينا ويمكن أن تصبحي مسؤولة إقليم».

كانوا في حاجة إلى مجندين. ووقت استسلام اليابانيين حاول الشيوعيون والكومنتانغ على السواء احتلال أكبر مساحة ممكنة من الأرض، ولكن كان لدى الكومنتانغ جيش أكبر وأفضل تسليحاً. وكان الاثنان يناوران لتعزيز مواقعهما استعداداً لاستئناف الحرب الأهلية التي جُمّدت، جزئياً، خلال السنوات الثماني السابقة من أجل محاربة اليابانيين. في الواقع، كان القتال قد اندلع فعلاً بين الشيوعيين والكومنتانغ. وكانت منشوريا ساحة القتال الحاسمة، بسبب ثرواتها الاقتصادية. ولأن الشيوعيين كانوا قريبين، فقد كانوا الأوائل في دفع قوّاتهم إلى منشوريا، دون مقاومة من الروس. ولكن الأميركيين كانوا يساعدون شيان كاي ـ شيك على تثبيت نفسه في المنطقة، بنقل عشرات الآلاف من جنود الكومنتانغ إلى شمال الصين. وفي مرحلة من المراحل، حاول الأميركيون إنزال البعض منهم في هولوداو، الميناء الذي يبعد زهاء ثلاثين ميلاً عن جنجو، ولكنهم اضطروا إلى التراجع تحت نيران الشيوعيين الصينيين. وأُجبرت قوات الكومنتانغ على النزول جنوب «السور العظيم» والتوجّه

شمالاً بالقطارات. وقد وفّرت الولايات المتحدة لها غطاء جوياً. وفي الإجمال، أنزلت الولايات المتحدة ما يربو على ٥٠ ألف جندي من مشاة البحرية في شمال الصين، محتلّين بكين وتيانجين.

اعترف الروس رسمياً بالكومنتانغ، بقيادة شيان كاي ـ شيك، سادة للصين. وفي ١١ تشرين الثاني/نوفمبر، رحل الجيش الأحمر السوفياتي عن منطقة جنجو، وانسحب إلى شمال منشوريا، كجزء من التزام ستالين بالانسحاب من المنطقة في غضون ثلاثة أشهر من الانتصار. ترك ذلك الشيوعيين الصينيّين يسيطرون وحدهم على المدينة. وذات مساء، في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، كانت أمي عائدة إلى البيت من المدرسة حين رأت أعداداً كبيرة من الجنود يجمعون أسلحتهم وعدّتهم على عجل، ويتحركون في اتّجاه البوابة الجنوبية. كانت تعرف أن قتالاً عنيفاً يحتدم في المناطق الريفية المحيطة، وخَمَّنت أن الشيوعيين راحلون، لا محالة.

كان هذا الانسحاب يتماشى مع استراتيجية القائد الشيوعي، ماو تسي تونغ، في الامتناع عن محاولة الاحتفاظ بمدن يكون التفوّق العسكري فيها للكومنتانغ، والتراجع إلى الأرياف. . . كان شعار ماو للمرحلة الجديدة «تطويق المدن بريفنا، وفي النهاية الاستيلاء عليها».

في اليوم التالي لانسحاب الشيوعيين الصينيين من جنجو، دخل المدينة جيش جديد ـ الرابع خلال أربعة أشهر. وكانت لهذا الجيش بدلات نظيفة وأسلحة أميركية جديدة، لمّاعة. كان الكومنتانغ. وتراكض الناس من بيوتهم وتجمّعوا في الشوارع الموحلة، الضيّقة، مصفّقين ومهلّلين. شقّت أمي طريقها إلى مقدمة الحشد الهائج. وفجأة، وجدت نفسها تلوح بذراعيها وتهتف عالياً. هؤلاء الجنود يبدون حقاً بمظهر الجيش الذي دحر اليابانيين، فكرتْ في نفسها. ركضت عائدة إلى البيت في حالة من الإثارة البالغة لتحدّث والديها عن الجنود الجدد الأنيقين.

كان هناك جوّ احتفالي في جنجو. وكان الناس يتسابقون إلى دعوة الجنود للإقامة في بيوتهم. وجاء ضابط للعيش مع عائلة شيا. كان يتصرّف باحترام شديد، وأحبّته العائلة كلها. شعرت جدتي والدكتور شيا أن الكومنتانغ سيحافظون على القانون والنظام ويضمنون السلام المرتجى.

لكن المشاعر الطيبة التي شعر بها الناس تجاه الكومنتانغ، ما لبثت أن تحوّلت

إلى خيبة مريرة. فأغلبية المسؤولين كانوا من أنحاء أخرى من الصين، وكانوا يتحدثون مع أهل البلد باستعلاء، ويخاطبونهم بوصفهم «وانغ ـ غوو ـ نو» (عبيداً بلا وطن)، ويعظونهم كيف ينبغي أن يكونوا ممتنين للكومنتانغ على تحريرهم من اليابانيين. وذات مساء، كانت هناك حفلة في مدرسة أمي للطلاب وضباط الكومنتانغ. وقرأت ابنة أحد المسؤولين البالغة من العمر ثلاث سنوات، استهلّتها بالقول: «نحن الكومنتانغ حاربنا اليابانيين ثماني سنوات، والآن أنقذناكم يا مَنْ كنتم عبيد اليابان...». فانسحبت أمي وصديقاتها.

كما شعرت أمي بالاشمئزاز من الطريقة التي تهافت بها الكومنتانغ على خطف الجواري. في أوائل ١٩٤٦، كانت جنجو تمتلىء بالجنود، وكانت مدرسة أمي مدرسة البنات الوحيدة في المدينة، وانقضّ الضباط والمسؤولون عليها أسراباً للبحث عن جوارٍ أو، في بعض الأحيان، عن زوجات. تزوجت بنات راغبات، فيما كانت بنات أخريات عاجزات عن أن يقلن «لا» لعوائلهن، التي كانت تعتقد أن الزواج من ضابط سيمنحهنّ بداية جيّدة في الحياة.

كانت أمي في الخامسة عشرة من العمر، وهي سنٌّ مناسبة جداً للزواج. فقد أينعت شابة جذابة وشعبية للغاية، وكانت التلميذة اللامعة في مدرستها. وتقدم لخطبتها عدة ضباط، لكنها قالت لوالديها إنها لا تريد أيّاً منهم. هدَّد أحدهم، وكان رئيس أركان أحد الجنرالات، بإرسال محفّة لاختطافها بعد أن رُفضت سبائكه الذهبية. وكانت أمي تسترق السمع خارج الباب، عندما قَدَّم هذا الاقتراح إلى والديها. اندفعت إلى الداخل وأخبرته، وجهاً لوجه، أنها ستقتل نفسها على المحفّة. ولحسن الحظ، صدرت الأوامر إلى وحدته بمغادرة المدينة بعد وقت قليل.

قرّرت أمي أن تختار هي نفسها من سيكون زوجها. وكانت ساخطة على معاملة المرأة، وكرهت نظام اقتناء الجواري كله. وكان والداها معها، ولكن العروض كانت تضايقهما، وتعيَّن عليهما استخدام دبلوماسية معقّدة، تحطّم الأعصاب لإيجاد طرائق يرفضان بها، دون أن يستنزلا أعمالاً انتقامية على نفسيهما.

كانت إحدى معلمات أمي شابة، اسمها الآنسة ليو، وكانت تحبها حباً جمّاً. في الصين إذا أولع الناس بأحد، فإنهم في أحيان كثيرة يحاولون جعله عضواً فخرياً في

عائلتهم. وفي هذا الوقت، لم يكن الفصل بين البنين والبنات صارماً، كما كان في أيام جدتي، إلا أنه لم تكن هناك فرص كثيرة للاختلاط، ولذا كان التعرّف بأخي أو أخت صديق طريقة شائعة لكي يعرف الشباب، الذين لا تروق لهم فكرة الزواج المخطّط، بعضهم بعضاً. وقامت الآنسة ليو بتعريف أمي بأخيها. ولكن كان يتعين، أولاً، أن يوافق السيد والسيدة ليو على العلاقة.

في أوائل عام ١٩٤٦، في عشية «السنة الجديدة» الصينية، دُعيت أمي إلى بيت عائلة ليو الذي كان فخماً بحق. فلقد كان السيد ليو من أكبر أصحاب المتاجر في جنجو. وبدا الابن الذي كان في حوالي التاسعة عشرة، رجلاً عصرياً بحق. كان يرتدي بدلة خضراء غامقة، بمنديل بارز من جيب الصدر، الأمر الذي كان آية في الذوق والتأنّق بالنسبة إلى مدينة متخلّفة، مثل جنجو. كان مسجّلاً في جامعة في بكين، حيث يدرس اللغة والأدب الروسيين. وكانت أمي شديدة الإعجاب به، ولاقت استحسان عائلته. وسرعان ما أرسلوا وسيطاً إلى الدكتور شيا لطلب يدها، دون أن يقولوا كلمة واحدة لها، بطبيعة الحال.

كان الدكتور أكثر تحرّراً من أغلبية رجال عصره، وسأل أمي عن شعورها حول المسألة. وافقت على أن تكون «صديقة» للسيد ليو الابن. في ذلك الوقت إذا شوهد فتى وفتاة يتحادثان معاً في الأماكن العامة، فلا بدّ أن يكونا مخطوبين على أقلّ تقدير. وكانت أمي تصبو إلى شيء من التسلية والحرية، وأن تكون قادرة على عقد صداقات مع رجال، دون ارتباط بالزواج. وإذ كان الدكتور شيا وجدتي يعرفان أمي، فقد تعاملا بحذر مع عائلة ليو، واعتذرا عن قبول كل الهدايا المعهودة. وفي التقليد الصيني، كانت عائلة المرأة، في أحيان كثيرة، لا توافق في الحال على طلب الزواج منها، لكي لا تبدو متهافتة. وإذا قبلت الهدايا، فإن هذا يشير ضمناً إلى الموافقة. وكان الدكتور شيا وجدتي قلقين من أن يحدث سوء تفاهم.

ظلت أمي تخرج مع ليو الابن. كانت مأخوذة إلى حد ما بكياسته، وقال كل أقاربها وأصدقائها وجيرانها إنها أحسنت الاختيار. واعتَقَد الدكتور شيا وجدتي أنهما ثنائي لطيف، واتّفقا فيما بينهما على القبول به صهراً لهما. ولكن أمي شعرت بأنه سطحي. لاحظت أنه لا يذهب أبداً إلى بكين، بل يقعد في البيت متمتعاً بحياة المتأدّب. وذات يوم، اكتشفت أنه لم يقرأ حتى «حلم الغرفة الحمراء»، ذلك العمل

الكلاسيكي الصيني الشهير من القرن الثامن عشر، الذي يعرفه كل صيني متعلّم. وحين أبدت ما تشعر به من خيبة أمل، قال ليو الابن بخفّة إن الكلاسيكيات الصينية ليست موطن قوّته، وإن أكثر ما يستهويه حقاً هو الأدب الأجنبي. وفي محاولة لإعادة تأكيد تفوّقه، أضاف: «طيب، هل قرأتِ «مدام بوفاري»؟ هذا هو الأثير عندي على الإطلاق. إني أعتبره أعظم أعمال موباسان».

كانت أمي قد قرأت «مدام بوفاري»، وكانت تعرف أن كاتبها فلوبير، وليس موباسان. تسبّب هذا التحدي الأخرق بنفورها من ليو نفوراً شديداً، ولكنها امتنعت عن مواجهته في الحال ـ فلو فعلت ذلك، لعد «سلاطة لسان»، في ذلك الوقت.

كان ليو يعشق لعب القمار، وخاصة لعبة ما جونغ، التي تُضجر أمي ضجراً قاتلاً. ذات مساء، بعد فترة وجيزة من ذلك، دخلت خادمة، في غمرة اللعب، وسألت: «أي خادمة يحب السيد ليو أن تخدمه في الفراش؟». وبطريقة طبيعية جداً، قال ليو: «فلانة الفلانية». كانت أمي ترتجف غضباً، ولكن كل ما فعله ليو أنه رفع حاجبيه، وكأنه مستغرب من ردّة فعلها. ثم قال باستعلاء: «إن هذه عادة شائعة تماماً في اليابان. الكل يفعلها. إنها تسمى سي ـ كن (فراش مع الخدمة)». كان يحاول أن يجعل أمي تشعر أنها ريفية وغيور، الأمر الذي كان يُعدّ في الصين من أسوأ مثالب المرأة، وسبباً لأن ينكر الزوج زوجته. ومرة أخرى، لم تقل أمي شيئاً، رغم أنها كانت تغلي غيظاً في داخلها.

قرّرت أمي أنها لا يمكن أن تكون سعيدة مع زوج يعتبر المغازلات والجنس، خارج إطار العلاقات الزوجية، جوانب أساسية من «الرجولة». كانت تريد مَنْ يحبها، مَنْ لا يريد أن يؤذيها بعمل شيء كهذا. وفي تلك الأمسية، عقدت العزم على إنهاء العلاقة.

بعد أيام قليلة، مات السيد ليو الأب، بصورة مفاجئة. في تلك الأيام، كان التشييع المهيب بالغ الأهمية، وخاصة إذا كان الميت رب العائلة. والتشييع الذي لا يرتقي إلى توقعات الأقارب والمجتمع، كان يضع العائلة موضع استهجان. أرادت عائلة ليو مراسيم تشييع مستفيضة، وليس مجرد موكب من البيت إلى المقبرة. وجيء بكهنة لقراءة الحكمة البوذية في «إنزال الرأس» في حضور العائلة كلها. وحالما تمّ

ذلك، انفجر أفراد العائلة بالبكاء. ومنذ ذلك الوقت حتى يوم الدفن، في اليوم التاسع والأربعين بعد الوفاة، كان يُفترض في صوت البكاء والعويل أن يكون مسموعاً بلا توقّف، من الصباح الباكر حتى منتصف الليل، مصحوباً بحرق نقود مصطنعة على الدوام، ليستخدمها الميت في العالم الآخر. لم يكن في استطاعة كثير من العائلات الاستمرار في هذا الماراثون، فكانت تستأجر محترفين يؤدّون المهمة عنها. كانت عائلة ليو أكثر وفاء من أن تفعل ذلك، وأخذت كل العويل على عاتقها، بمساعدة أقارب كان يتوافر منهم الكثير.

في اليوم الثاني والأربعين بعد موت السيد ليو، وُضِع جثمانه في تابوت من خشب الصندل محفور حَفْراً جميلاً، ووضع التابوت داخل سرادق في الفناء. وفي كل ليلة من الليالي السبع الأخيرة قبل الدفن، كان يفترض في الميت أن يصعد جبلاً عالياً في العالم الآخر وينظر تحت إلى عائلته كلها. ولن يكون سعيداً إلاّ إذا رأى كل فرد من أفراد عائلته حاضراً وموضع عناية. وبخلافه، حسبما كان يُعتَقَد، لن يجد الراحة أبداً. أرادت العائلة أن تكون أمي حاضرة بوصفها الكنَّة المرتقبة.

رَفَضَتْ أمي ذلك. كانت تشعر بالحزن على السيد ليو العجوز، الذي كان طيّباً معها، ولكنها إذا حضرت، فلن تكون قادرة أبداً على التملّص الزواج بابنه. وجاءت فرق من السعاة من عائلة ليو إلى بيت شيا.

قال الدكتور شيا لأمي إن فسخ علاقتها في هذه اللحظة، سيكون كما لو أنها تخذل السيد ليو الأب، وإن هذا عمل شائن. وما كان له أن يعترض على انقطاع أمي عن السيد ليو الابن في الأحوال العادية، لكنه شعر أن رغباتها في هذا الظرف ينبغي أن تخضع لأحكام أعلى. وكانت جدتي تعتقد أيضاً أنها ينبغي أن تذهب. وقالت إضافة إلى ذلك: «مَنْ سمع بفتاة ترفض رجلاً لأنه أخطأ في اسم كاتب أجنبي أو لأن لديه علاقات؟ كل الشباب الأثرياء يحبون اللهو والانغماس في حماقاتهم. إلى جانب ذلك، لا داعِي للقلق في شأن الجواري والخادمات. فأنتِ شخصية قوية وتستطيعين السيطرة على زوجك».

لم تكن أمي لتوافق على أفكار جدتي، وهو ما أعلنته. وكانت جدتي، في قرارة نفسها، موافقة. لكنها كانت تخاف إبقاء أمي في البيت بسبب كثرة الخُطاب من ضباط الكومنتانغ. وقالت لأمي: «نستطيع أن نقول لا لواحد، ولكننا لا نستطيع أن

نقول لا للجميع. إذا لم تتزوجي جانغ، سيكون عليك القبول بأن تتزوجي لي. فكّري في الأمر: أليس ليو أفضل بكثير من الآخرين؟ إذا تزوَّجتِهِ لن يتمكن ضابط من إزعاجك بعد ذلك. إني أشعر بالقلق، ليلاً ونهاراً، مما قد يحدث لكِ. لن يهدأ لي بال ما لم تغادري البيت». لكن أمي قالت إنها تفضّل الموت على أن تتزوج شخصاً لا يستطيع أن يمنحها السعادة ـ والحب.

غضبت عائلة ليو غضباً شديداً على أمي، كما غضب عليها الدكتور شيا وجدتي. وطيلة أيام، جادلا وتوسّلا وضغطا وصرخا وبكيا، بلا جدوى. وأخيراً ثارت ثائرة الدكتور شيا على أمي للمرة الأولى منذ أن ضربها وهي طفلة لجلوسها في مكانه على الكانغ. «ما تفعلينه هو إلحاق العار باسم شيا. إني لا أريد ابنة مثلك». نهضت أمي وردت عليه قائلة: «حسناً، إذاً، لن تكون لديك ابنة مثلي. إني راحلة». وخرجت من الغرفة حانقة ثم حزمت أمتعتها وغادرت البيت.

في زمن جدتي، كانت مغادرة البيت بهذه الطريقة غير واردة. إذ لم تكن هناك فرص عمل للنساء إلا كخادمات، حتى الخادمات كان عليهنّ أن يُقدِّمن شهادات تُزكِّيهن. ولكن الأمور تغيّرت. وفي عام ١٩٤٦، كان في مقدور المرأة أن تعيش بمفردها، وأن تجد لها عملاً، كالتعليم أو الطبّ، رغم أن العمل كان لا يزال يعتبر الملاذ الأخير، في نظر أغلبية العوائل. كان في مدرسة أمي قسم لإعداد المعلّمات يقدم سكناً وتعليماً مجانيين للفتيات اللواتي أكملن ثلاث سنوات في المدرسة. وإلى جانب الاختبار، كان الشرط الوحيد للقبول أن على المتخرّجات أن يصبحن معلّمات في المدرسة نفسها. كانت أغلبية الطالبات في القسم إما من عائلات فقيرة تعجز عن دفع أجور التعليم، أو فتيات لا يعتقدن أن لديهن فرصة لدخول الجامعة، ولذا لا يُردن الاستمرار في المدرسة الثانوية العادية. ولم تتمكّن المرأة من التفكير في بدخول الجامعة إلا بعد عام ١٩٤٥. في ظلّ اليابانيين، لم تكن قادرة على المضي أبعد من المدرسة الثانوية، حيث تُعَلَّم أساساً كيف تدير عائلة. حتى ذلك الحين، لم تفكِّر أمي قط في دخول هذا القسم، الذي كان ينظر إليه عموماً باستهانة على أنه دون المستوى. وكانت دائماً تعتبر نفسها من قماشة جامعية. لذلك أبدى القسم بعض الاستغراب حين تقدّمت بطلبها، ولكنها أقنعتهم برغبتها المحمومة في الانخراط في مهنة التعليم. ولم تكن قد أنهت السنوات الثلاث الإلزامية في المدرسة، ولكنها كانت معروفة بوصفها

طالبة لامعة. قبلها القسم بسرور، بعد أن أعدّ لها اختباراً اجتازته دون صعوبة تذكر. وذهبت للعيش في المدرسة. ولم يمضِ وقت طويل حتى هرعت جدتي إليها متوسّلة أن تعود إلى البيت. كانت أمي فرحة بالمصالحة، ووعدت بالمجيء إلى البيت والبقاء فيه أحياناً كثيرة. ولكنها أصرّت على الاحتفاظ بسريرها في حرم المدرسة. كانت عازمة على أن لا تكون معتمدة على أحد، مهما بلغ حبه لها. وبالنسبة إليها كان القسم مثالياً. فقد ضمن لها فرصة عمل بعد التخرّج، في حين أن خرّيجي الجامعات كانوا، في أحيان كثيرة، لا يستطيعون العثور على عمل. ومن الميزات الأخرى أنه كان مجاناً، في حين بدأ الدكتور شيا يعاني وطأة الآثار الناجمة عن سوء الإدارة الاقتصادية.

كان عناصر الكومنتانغ الذين أنيطت بهم مسؤولية المعامل ـ تلك التي لم يفكّكها الروس ـ فاشلين فشلاً بيّناً في تحريك عجلة الاقتصاد من جديد. وقد أفلحوا في تشغيل بضعة معامل دون طاقتها القصوى بفارق كبير، ولكنهم كانوا يضعون القسم الأعظم من الإيرادات في جيوبهم.

أخذ نفعيُو الكومنتانغ ينتقلون إلى البيوت الأنيقة، التي أخلاها اليابانيون. البيت المجاور لبيت عائلة شيا القديم، حيث كان يعيش المسؤول الياباني، أصبح يشغله الآن مسؤول وإحدى جواريه، التي اقتناها حديثاً. وكان عمدة جنجو، المدعو السيد هان، نكرة محلية، أثرى على حين غرة ـ من عوائد الممتلكات المصادرة من اليابانيين والمتعاونين معهم. وقد اقتنى عدّة جوارٍ، وبدأ أهل البلد يسمون حكومة المدينة «بيت هان»، لأنها كانت متخمة بأقاربه وأصدقائه.

حين استولى الكومنتانغ على يشيان أفرجوا عن والد جدتي، يانغ، أو إنه اشترى حريّته بالمال. وكان أهل البلد يعتقدون، لسبب وجيه، أن مسؤولي الكومنتانغ جمعوا ثروات من المتعاونين السابقين. وحاول يانغ أن يحمي نفسه بتزويج ابنته المتبقية، التي ولدت له من إحدى جواريه، بمسؤول في الكومنتانغ. ولكن هذا الرجل لم يكن إلا برتبة نقيب، ليس قوياً بما فيه الكفاية لإحاطته بأية حماية حقيقيّة. صودرت ممتلكات يانغ، وأحيل إلى المعاش كشحاذ ـ «يقبع عند المجاري المفتوحة»، كما كان يقول أهل البلد. وعندما سمعت زوجته بذلك، قالت لأطفالها أن لا يعطوه أي نقود وألا يفعلوا شيئاً لمساعدته.

في عام ١٩٤٧، بعد ما يربو على العام من إطلاق سراحه، أصيب بدُرَاقٍ

سرطاني. وأدرك أنه ميت فأرسل خبراً إلى جنجو، يتوسل أن يرى أطفاله. رفضت أم جدتي، ولكنه ظلّ يبعث بالرسائل يستعطفهم أن يأتوا. وفي النهاية، رقّت زوجته. وتوجهت جدتي ولان ويو ـ لن إلى يشيان بالقطار. مضت عشر سنوات منذ أن رأت جدتي أباها، وكان ظلاً متداعياً لما كان عليه آنفاً. انهمرت دموعه عندما رأى ولديه. ولاقيا صعوبة في أن يغفرا له معاملته لأمهما ـ ولهما أنفسهما ـ وتكلما معه مستخدمين صيغ مخاطبة لا روح فيها. تضرّع إلى يو ـ لن أن يناديه «أبي»، ولكن يو ـ لن رفض. كان وجه يانغ الملتاع قناعاً من اليأس. وتوسّلت جدتي إلى شقيقها أن يناديه «أبي»، مرة واحدة. وقد فعل في النهاية، وأسنانه تصرّ. أخذ أبوه يده وقال: «حاول أن تكون عالماً، أو أن تفتح مشروعاً تجارياً صغيراً. لا تحاول أبداً أن تكون موظفاً مسؤولاً. سيحطمك ذلك كما حطمني». كانت هذه كلماته الأخيرة لعائلته.

مات وإلى جانبه جارية واحدة فقط من جواريه. كان فقيراً حتى إنه لم يستطع أن يدفع ثمن التابوت. وُضع جثمانه في حقيبة قديمة مضعضعة ودفن بلا مراسيم. ولم يكن هناك أحد من أفراد عائلته.

كان الفساد متفشّياً حتى إن شيان كاي ـ شيك استحدث منظمة خاصة لمكافحته. كانت تسمى «فرقة قهر النمر»، لأن الناس كانوا يقرنون المسؤولين المرتشين بالنمور الشرسة، وكانت المنظمة تدعو المواطنين إلى إرسال شكاواهم. ولكن سرعان ما أصبح واضحاً أن هذه كانت وسيلة بيد المتسلّطين حقاً، لابتزاز المال من الأثرياء. لقد كان «قهر النمور» مهنة رابحة.

كان النهب السافر أسوأ من ذلك بكثير. فقد كان يزور الدكتور شيا بين الحين والآخر جنود يؤدّون التحية، ثم يقولون بصوت مبالغ في تملّقه: «حضرة الدكتور شيا، بعض زملائنا يعوزهم المال. هل تستطيع أن تقرضنا شيئاً؟». كان الرفض حماقة. فكل من لا يُرضي الكومنتانغ، كان من المرجح أن يُتّهم بالشيوعية، الأمر الذي كان يعني الاعتقال عادة، والتعذيب في أحيان كثيرة. كما كان الجنود أيضاً يدخلون العيادة متبخترين، ويطالبون بالعلاج والدواء دون أن يدفعوا قرشاً. ولم يكن لدى الدكتور شيا مانع ضدّ منحهم العلاج الطبي مجاناً على وجه التحديد ـ كان يعتبر من واجب الطبيب أن يعالج أي شخص ـ ولكن الجنود كانوا أحياناً يأخذون الدواء

دون سؤال، ويبيعونه في السوق السوداء. كان هناك نقص شديد في الأدوية.

مع احتدام الحرب الأهلية، ازداد عدد الجنود في جنجو. وكان جنود القيادة المركزية التي تخضع مباشرة لشيان كاي ـ شيك، منضبطين انضباطاً حسناً نسبياً، ولكن الآخرين لم يكونوا يتلقون مرتّباتهم من الحكومة المركزية، وكان عليهم أن يعيشوا «بجهودهم الخاصة».

في قسم إعداد المعلّمات، عقدت أمي صداقة حميمة مع فتاة جميلة، تتفجّر حيوية، في السابعة عشرة من العمر، اسمها «باي». كانت أمي معجبة بها، وتنظر إليها باحترام. وعندما أخبرت «باي» عن خيبة أملها بالكومنتانغ، قالت لها «باي» أن «تنظر إلى الغابة، وليس إلى الأشجار المنفردة فيها». قالت إن أية قوة لا بدّ أن تكون لها سلبيّاتها. كانت «باي» مؤيّدة للكومنتانغ بعاطفة متّقدة، حتى إنها انضمّت إلى أحد الأجهزة التجسّسية. وفي إحدى الدورات التدريبية، أوضحوا لها أنه يُنْتَظَر منها أن ترفع تقارير عن زميلاتها الطالبات. رفضتْ. وبعد ليال قليلة، سمع زملاؤها في الدورة صوت طلقة نارية من غرفة نومها. وحين فتحوا الباب رأوها ممدّدة على السرير تشهق، وجهها أبيض كوجوه الموتى. كان هناك دم على وسادتها. وماتت دون أن تتمكن من التفوّه بكلمة واحدة. نشرت الصحف نبأ موتها على أنه ما سمي «قضية لون الدراق»، أي جريمة عاطفية. وادّعت أن عاشقاً غيوراً قتلها. ولكن لم يصدق أحد ذلك. فقد كانت باي تتصرّف تصرّفاً محتشماً للغاية حينما يتعلق الأمر بالرجال. وسمعت أمي أنها قُتلت لأنها حاولت الانسحاب.

لم تنته المأساة هنا. فقد كانت أم باي تعمل خادمة مقيمة في بيت عائلة ثرية، تملك متجراً صغيراً لبيع الذهب. كانت محطمة القلب لموت ابنتها الوحيدة، وساخطة بسبب الإيحاءات البذيئة في الصحف بأن لابنتها عدة عشاق يتقاتلون عليها، وفي النهاية قتلوها. فأقدس ما تملكه المرأة هو عفّتها، التي يفترض أن تدافع عنها حتى الموت. بعد أيام من موت باي، شنقت أمها نفسها. وزار ربّ عملها جلاوزة اتّهموه بالمسؤولية عن موتها. كان ذلك ذريعة جيّدة لابتزاز المال، ولم يمضِ وقت طويل حتى خسر الرجل متجر بيع الذهب.

ذات يوم، طُرق باب عائلة شيا، ودخل رجل في أواخر الثلاثينات من العمر،

يرتدي بزّة الكومنتانغ، وانحنى لجدتي مخاطباً إياها بصفة «الأخت الأكبر» والدكتور شيا بصفة «النسيب الأكبر». ومرت لحظة قبل أن يدركا أن هذا الرجل الوسيم، المتعافي، حسن التغذية هو هان ـ تشن، الذي عُذِّب وأُنقِذ من المخنقة، والذي أخفياه في بيتهما القديم ثلاثة أشهر، واعتنيا به حتى استردّ عافيته. وكان معه شاب نحيف، طويل يرتدي أيضاً بزة الكومنتانغ بدا طالب كلية أكثر منه جندياً. قدمه هان ـ تشن على أنه صديقه جو ـ غي. وقد استظرفته أمي في الحال.

كان هان ـ تشن مسؤولاً كبيراً في مخابرات الكومنتانغ، وكان مسؤولاً عن أحد فروعها لكل منطقة جنجو. وإذ همَّ بالمغادرة قال: «أيتها الأخت الكبرى، عائلتك أعادت لي حياتي. إذا احتجتم ذات يوم إلى أي شيء، أي شيء على الإطلاق، ليس عليكم إلا أن تقولوا فيكون لكم ما أردتم».

أخذ هان ـ تشن وجو ـ غي يتردّدان للزيارة في أحيان كثيرة. وسرعان ما وجد هان ـ تشن وظيفة في جهاز المخابرات لكل من دونغ، الجلاد السابق الذي أنقذ حياته، ونسيب جدتي بي ـ أو، السجّان السابق.

أصبح جو ـ غي صديقاً حميماً للعائلة. كان يدرس العلوم في الجامعة في نيانجين، وهرب للانضمام إلى الكومنتانغ عندما سقطت المدينة بيد اليابانيين. وفي واحدة من زياراته، عرَّفته أمي بالآنسة تاناكا، التي كانت تعيش مع عائلة شيا. انسجما وتزوجا وذهبا للعيش في غرف مؤجرة. وذات يوم، كان جو ـ غي ينظف مسدسه حين لَمَس الزناد بطريق الخطأ، فانطلقت منه رصاصة، اخترقت الرصاصة أرض الغرفة وقتلت أصغر أبناء مالك الدار، الذي كان في السرير. لم تكلّف العائلة نفسها توجيه تهمة إلى جو ـ غي، لأنها كانت تخاف رجال المخابرات، الذين يستطيعون أن يتّهموا من يختارون بالشيوعية. كانت كلمتهم قانوناً، وكانت لديهم سلطة الحياة والموت. دفعت أم جو ـ غي مبلغاً كبيراً للعائلة كتعويض. وكان جو ـ غي بالغ التأثّر، ولم تكن لدى العائلة حتى الجرأة على إبداء أي غضب نحوه. بل إنها أبدت بدلاً من ذلك امتناناً مبالغاً فيه، خوفاً من أن يفكّر أنهم غاضبون فيعمد إلى إيذائهم. وقد شقَّ عليه الأمر، وسرعان ما انتقل إلى مكان آخر.

حقّق العم بي ـ أو، زوج لان، نجاحاً في شبكة المخابرات، وكان سعيداً بأرباب

عمله الجدد، حتى إنه غيَّر اسمه إلى «شياو ـ شيك» («الولاء لشيان كاي ـ شيك»). كان عضواً في مجموعة من ثلاثة أعضاء بقيادة جو ـ غي. في البداية، كانت مهمّتهم تطهير كل من كان مع اليابانيين، ولكن بي ـ أو ما لبث أن تحوّل إلى مراقبة الطلاّب الذين يبدون ميولاً متعاطفة مع الشيوعيين. ولفترة من الوقت كان يفعل ما يُطْلَب منه، ولكن سرعان ما بدأ ضميره يعذّبه. لم يكن يريد أن يكون مسؤولاً عن إرسال الناس إلى السجن، أو اختيار ضحايا للابتزاز. فطلب نقله، وعُيّن حارساً عند إحدى نقاط التفتيش في المدينة. كان الشيوعيون قد رحلوا عن مدينة جنجو، ولكنهم لم يذهبوا بعيداً جداً. كانوا يخوضون معارك متواصلة مع الكومنتانغ في الريف المحيط. وكانت سلطات جنجو تحاول فرض رقابة محكمة على السلع الضرورية، لمنع الشيوعيين من الحصول عليها.

إن وجود «ولاء» في المخابرات منحه سطوة جلبت له المال. فأخذ يتغير تدريجياً. شرع يدخن الأفيون، ويشرب بإفراط، ويلعب القمار، ويرتاد المواخير، وبعد فترة وجيزة أصيب بأحد الأمراض الزهرية. عرضت جدتي عليه مالاً، في محاولة لإصلاحه، ولكنه استمرّ كالسابق. غير أنه لاحظ أن المواد الغذائية تزداد ندرة عند عائلة شيا، وكان في أحيان كثيرة يدعوهم لتناول وجبات دسمة في بيته. كان الدكتور شيا لا يسمح لجدتي بالذهاب. كان يقول: «هذا سُحت حرام ولا نريد أن نلمسه». ولكن فكرة الحصول على بعض الطعام اللائق، كانت في بعض الأحيان إغراء أقوى من أن تقاومه جدتي. ومن حين إلى آخر، كانت تذهب خلسة إلى بيت بي ـ أو مع يو ـ لن وأمي لتناول وجبة شهية.

عند مجيء الكومنتانغ إلى جنجو، كان يو ـ لن في الخامسة عشرة من العمر. وكان يدرس الطب على الدكتور شيا الذي كان يعتقد أن له مستقبلاً واعداً كطبيب. حينذاك، كانت جدتي تبوّأت مركز ربة العائلة، لأن أمها وشقيقتها وشقيقها كانوا كلهم يعتمدون على زوجها في معيشتهم، وشعرت أن الوقت قد حان لزواج يو ـ لن. وسرعان ما استقرّ رأيها على امرأة تكبره بثلاث سنوات وتنحدر من عائلة فقيرة، الأمر الذي يعني أنها مثابرة ومقتدرة. ذهبت أمي مع جدتي لرؤية عروس المستقبل. وحين دخلت لتنحني للزوار في غرفة الجلوس، كانت ترتدي ثوباً مخملياً أخضر، استعارته للمناسبة. تزوجا في أحد مكاتب التسجيل في عام ١٩٤٦، وكانت العروس تضع

حجاباً حريرياً أبيض من الطراز الغربي، تمّ استئجاره. كان يو ـ لن في السادسة عشرة وزوجته في التاسعة عشرة من العمر.

طلبت جدتي من هان ـ تشن أن يجد عملاً ليو ـ لن. واتفق أن كانت إحدى السلع الضرورية الملح، قد منعت السلطات بيعها للريف. بالطبع، كانت السلطات نفسها تدير تجارة محرّمة بالملح. ووجد هان ـ تشن ليو ـ لن وظيفة حارس على الملح، فكاد يتورّط عدة مرات في مناوشات مع المقاتلين الشيوعيين وأجنحة أخرى من الكومنتانغ يحاولون الاستيلاء على الملح. ولاقى كثيرون حتفهم في القتال. غير أن يو ـ لن رأى أن هذه الوظيفة مخيفة، وكان ضميره أيضاً يعذّبه. وفي غضون أشهر قليلة، قدّم استقالته.

حينذاك، كان الكومنتانغ يفقدون تدريجياً السيطرة على الريف، ويجدون صعوبة متزايدة في الحصول على مجنّدين. كان الشبان يرفضون أن يصبحوا «رماد قنابل» (باو ـ وي). وأضحت الحرب الأهلية أكثر دموية، مع خسائر فادحة، وكان التجنيد أو مجرد الانخراط في صفوف الجيش خطراً آخذاً في التعاظم. وكان السبيل الوحيد لإبعاد يو ـ لن عن البزّة العسكرية، هو أن ييسر له شكل من أشكال التأمين. لذا، طلبت جدتي من هان ـ تشن أن يجد له عملاً في المخابرات. وكم كانت دهشتها حينما رفض قائلاً لها إنها ليست مكاناً لشاب شريف.

لم تدرك جدتي أن هان ـ تشن كان في يأس عميق في عمله. وأصبح، مثل بي ـ أو «ولاء»، مدمناً على الأفيون، ويشرب بإفراط، ويعاشر العاهرات. كان يذوي بشكل واضح. كان هان ـ تشن دائماً رجلاً منضبطاً، ذا حسّ أخلاقي مرهف، ولم يكن من طبعه أن يسمح لنفسه بالانزلاق على هذا النحو. كانت جدتي تعتقد أن الزواج يمكن أن يصلح أحواله، ولكن حين اقترحت ذلك عليه، قال إنه لا يستطيع أن يقترن بزوجة، لأنه لا يريد أن يعيش. ارتاعت جدتي، وألحّت عليه أن يقول لها لماذا، ولكن هان ـ تشن أخذ يبكي، وقال بمرارة إنه ليس حرّاً في أن يخبرها، وإنها على أيّة حال لا تستطيع أن تكون عوناً له.

انضمّ هان ـ تشن إلى الكومنتانغ لأنه كان يكره اليابانيين. ولكن الأمور آلت إلى غير ما كان يتصوّره. وكان ارتباطه بشبكة المخابرات يعني أنه نادراً ما يستطيع أن

يتجنّب تلطيخ يديه بدماء بريئة ـ دماء أقرانه الصينيّين. ولكنه لم يكن يستطيع الانسحاب. فما حدث لصديقة أمي في الكلية «باي»، كان يحدث لكل من يحاول الانسحاب. ولعلّ هان ـ تشن شعر أن المخرج الوحيد هو أن يقتل نفسه. ولكن الانتحار كان شكلاً تقليدياً من أشكال الاحتجاج، وقد يسبّب متاعب لعائلته. ولا بد أن هان ـ تشن خلص إلى أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله، هو أن يموت ميتة «طبيعية». ولذلك، كان يمعن في ما أدمن عليه بتهوّر لإيذاء جسده، وكان يرفض أن يتلقّى أيّ علاج.

في عشية «السنة الجديدة» الصينية، عام ١٩٤٧، عاد إلى بيت عائلته في يشيان لقضاء فترة العيد مع شقيقه وأبيه العجوز. ومكث هناك، كما لو أنه شعر أن هذا لقاؤهم الأخير. مرض مرضاً مميتاً، ومات في الصيف. وكان قد قال لجدتي إن الشيء الوحيد الذي سيندم عليه، هو موته قبل أن يتمكن من أداء واجب البنوّة وإقامة تشييع مهيب لأبيه.

ولكنه لم يمت دون الوفاء بالتزامه لجدتي وعائلتها. فرغم أنه رفض تشغيل يو ـ لن في عمل المخابرات، حصل له على بطاقة هوية تقول إنه موظف في مخابرات الكومنتانغ. لم يمارس يو ـ لن قطّ أي عمل في المخابرات، ولكن عضويّته أمّنته ضد التجنيد، وتمكن من البقاء مع الدكتور شيا ومساعدته في متجر الأدوية.

كان أحد المعلّمين في مدرسة أمي شاباً، اسمه كانغ، يدرِّس الأدب الصيني. كان ذكياً واسع المعرفة، وكانت أمي تحترمه احتراماً عظيماً. قال لها ولبعض الفتيات الأخريات إنه شارك في أنشطة ضد الكومنتانغ في مدينة كونمنغ، جنوب غرب الصين، وإن صديقته قُتلت بقنبلة يدوية خلال إحدى التظاهرات. كانت محاضراته مؤيّدة للشيوعيين بوضوح، وتركت أثراً قوياً في نفس أمي.

ذات صباح في أوائل ١٩٤٧، أوقف البواب العجوز أمي عند بوابة المدرسة. سلّمها رسالة، وقال لها إن كانغ قد رحل. ما لم تعرفه أمي أن كانغ تلقى إشارة تحذّره، من أن بعض عملاء مخابرات الكومنتانغ كانوا يعملون سرّاً للشيوعيين. في حينه، لم تكن أمي تعرف الكثير عن الشيوعيين، أو أن كانغ كان واحداً منهم. كل ما كانت تعرفه أن المعلم الذي أعجبت به أيما إعجاب، اضطرّ إلى الفرار لأنه كان على وشك التعرّض للاعتقال.

كانت الرسالة من كانغ، وتضمّنت كلمة واحدة: «الصمت». رأت أمي معنيين ممكنين في هذه الكلمة. إنها يمكن أن تشير إلى قصيدة كتبها كانغ في ذكرى صديقته، «صمت ـ تتجمع فيه قوتنا»، وفي هذه الحالة، ربما كانت دعوة إلى أن لا تيأس. ولكن الرسالة يمكن أن تكون أيضاً تحذيراً من الإقدام على عمل طائش. وكانت أمي قد بنت لنفسها سمعة عريضة تماماً بكونها لا تعرف الخوف، وكانت تحظى بتأييد بين الطلاب.

بعد ذلك عَلمت بوصول مديرة جديدة. كانت مندوبة إلى المؤتمر القومي للكومنتانغ، شاع أن لها ارتباطات بالأجهزة السريّة. فقد جاءت معها بعدد من رجال المخابرات، بينهم رجل اسمه ياو ـ هان، أصبح المشرف السياسي الذي مهمته الخاصة وضع الطلاب تحت المراقبة. وكان المشرف الاجتماعي سكرتير الكومنتانغ الحزبي في المنطقة.

كان أقرب أصدقاء أمي إليها، وقتذاك، ابن عم بعيد اسمه «هو». كان أبوه يمتلك سلسلة من المخازن الكبيرة في جنجو وموكدِن وهازبين، ولديه زوجة وجاريتان. أنجبت زوجته ابناً هو ابن العم «هو»، في حين أن الجاريتين لم تنجبا. لذا، أصبحت أم «هو» موضع حسد شديد من جانبهما. وذات ليلة، حين كان زوجها خارج البيت، وضعت الجاريتان مادة مخدّرة في طعامها وفي طعام خادم شاب، ثم وضعتاهما في فراش واحد. عندما عاد السيد «هو» ووجد زوجته، التي بدت مخمورة، في الفراش مع الخادم، ثار مسعوراً، وحبس زوجته داخل غرفة صغيرة في زاوية نائية من البيت، وحرّم على ابنه أن يراها بعد ذلك. كان لديه شكّ خفي في أن الأمر كله ربما كان مؤامرة من تدبير جاريتيه، فلم ينكر زوجته ولم يطردها، الأمر الذي كان سيشكل عاراً ما بعده عار (عليه وعلى زوجته). وكان يخشى على ابنه من كيد الجاريتين، فأرسله إلى مدرسة داخلية في جنجو، وهكذا التقت به أمي، عندما كانت في السابعة، وكان هو في الثانية عشرة من العمر. وسرعان ما أصيبت أمه بالجنون في حبسها الانفرادي.

نشأ ابن العم «هو» فتى حسّاساً منطوياً على نفسه. لم يتجاوز قط ما حدث، وكان أحياناً يتحدث عنه إلى أمي. دفعت قصته أمي إلى التفكير في حياة النساء المنكودة في عائلتها، وفي المآسي الكثيرة التي حدثت لكثير من الأمهات والبنات والزوجات والجواري الأخريات. كانت تستشيط غضباً بسبب عجز المرأة وبربرية

العادات القديمة، التي تتستر تحت برقع «التقليد» وحتى «الأخلاق». ورغم ما حدث من تغييرات، فإنها كانت مدفونة في ظل التحيّز السائد. وكانت أمي تصبو إلى شيء أكثر جذرية.

في مدرستها علمت أن قوة سياسية واحدة وعدت بالتغيير علناً ـ الشيوعيون. وجاءت المعلومة من صديقة قريبة، فتاة في الثامنة عشرة، اسمها شو، انفصلت عن عائلتها، وكانت تسكن في المدرسة، لأن أباها حاول إكراهها على الاقتران بصبي في الثانية عشرة في زواج مرتب سلفاً. وذات يوم، ودّعت شو أمها: هربت والرجل الذي تحبه للانضمام إلى الشيوعيين. كانت كلمات الوداع التي قالتها: «إنهم أملنا».

في ذلك الوقت على وجه التقريب، أصبحت أمي قريبة جداً من ابن العم «هو»، الذي أدرك أنه يحبها عندما وجد أنه شديد الغيرة من السيد ليو الابن، الذي كان يعتبره مغناجاً. وسُرَّ عندما أنهت علاقتها بليو، وكان يأتي لرؤية أمي كل يوم تقريباً.

ذات مساء في آذار/مارس ١٩٤٧، ذهبا إلى السينما معاً. كان هناك نوعان من التذاكر: تذكرة لمقعد، وأخرى أرخص للوقوف فقط. اشترى ابن العم «هو» لأمي تذكرة مقعد ولنفسه تذكرة وقوف، قائلاً إنه لا يحمل معه ما يكفي من المال. وفكّرت أمي أن هذا غريب بعض الشيء، لذا كانت تسترق النظر في اتّجاهه من حين إلى آخر. وفي منتصف الفيلم، رأت شابة أنيقة تقترب منه، وتنزلق من حوله ببطء، ولجزء من الثانية، تلامست يداهما. نهضت في الحال وأصرّت على المغادرة. وحين خرجا، طالبت بتفسير. في البداية، حاول ابن العم «هو» أن ينكر حدوث شيء. وحين أوضحت أمي أن هذا لن ينطلي عليها، قال إنه سوف يشرح لها فيما بعد. قال إن هناك أشياء لا تستطيع أمي أن تفهمها، لأنها ما زالت صغيرة. وحين وصلا إلى بيتها، رفضت السماح له بالدخول. وخلال الأيام القليلة التالية، اتّصل مراراً ولكن أمي رفضت رؤيته.

بعد حين، كانت مستعدة لاعتذار ومصالحة، وكانت تطيل النظر صوب البوابة، لعلها تراه هناك. وذات مساء، حين كان الثلج يتساقط بكثافة، رأته يدخل الفناء، يرافقه رجل آخر. لم يتوجه إلى ناحيتها من البيت، بل سار مباشرة إلى حيث يعيش مستأجر لدى عائلة شيا، وهو رجل اسمه يو ـ وو. بعد فترة وجيزة، خرج «هو» من جديد، ومشى بخطى متسارعة نحو غرفتها. وبنبرة استعجال في صوته، أخبرها أنه

مضطر إلى مغادرة جنجو على الفور، لأن الشرطة تلاحقه. وعندما سألته عن السبب، كل ما قاله، «إني شيوعي»، واختفى في الليل المثلج.

فهمت أمي أن حادث السينما لا بد أن يكون مهمة سرية، كان ينفّذها ابن العم «هو». كانت محطمة القلب، لأنه لم يكن في الوقت متّسع للتصالح. وأدركت أن المستأجر عندهم، يو ـ وو، لا بدّ أن يكون شيوعياً متخفّياً كذلك. وكان سبب جلب ابن العم «هو» إلى مسكن يو ـ وو للاختفاء هناك. ولم يكن ابن العم «هو» ويو ـ وو يعرف أحدهما هوية الآخر، حتى ذاك المساء. وأدرك كلاهما أن بقاء ابن العم «هو» هناك أصبح غير ممكن، بأي حال، لأن علاقته بأمي كانت معروفة على نطاق واسع، وإذا جاء الكومنتانغ إلى البيت للبحث عنه، سيكتشف أمر يو ـ وو أيضاً. في تلك الليلة نفسها، حاول ابن العم «هو» الوصول إلى المنطقة التي يسيطر عليها الشيوعيون، على بعد حوالي عشرين ميلاً خارج حدود المدينة. وبعد مضي بعض الوقت، مع تفتّح أول براعم الربيع، بلغ يو ـ وو أنباء تقول إن «هو» أُسر وهو يغادر المدينة. وإن من كان يرافقه قُتل رمياً بالرصاص. وقال تقرير لاحق إن «هو» أُعدم.

كان عداء أمي للكومنتانغ يزداد شدّة منذ بعض الوقت. والبديل الوحيد الذي كانت تعرفه هو الشيوعيون، وقد استهوتها بصفة خاصة وعودهم بإنهاء الظلم الواقع على المرأة. وفي ذلك الحين، في سن الخامسة عشرة، لم تكن تشعر أنها مستعدة للالتزام بشكل كامل. غير أن خبر موت ابن العم «هو» حسم الأمر، فقرّرت الانضمام إلى الشيوعيين.

٥ ــ «ابنة للبيع بعشرة كيلوغرامات من الرز» ــ في المعركة من أجل صين جديدة (١٩٤٧ ــ ١٩٤٨)

ظهر يو ـ وو أول مرة في البيت، قبل شهور، حاملاً ما يعرِّف به من صديق مشترك. كانت عائلة شيا انتقلت لتوها من محل إقامتها المستعار، إلى بيت كبير داخل الأسوار قرب البوابة الشمالية، وكانت تبحث عن مستأجر غني يساعد على الإيجار. وصل يو ـ وو وهو يرتدي بذلة ضابط في الكومنتانغ، ترافقه امرأة قدمها على أنها زوجته، وطفلة رضيعة. في الواقع، لم تكن المرأة زوجته، بل كانت مساعدته. وكانت الطفلة طفلتها، وكان زوجها في مكان ما بعيد في الجيش الشيوعي النظامي. وتدريجاً، أصبحت «عائلته» عائلة حقيقية. وأنجبا فيما بعد طفلين. أما الزوج الأصلي والزوجة الأصلية، فقد تزوّجا من جديد فيما بعد.

انضمّ يو ـ وو إلى الحزب الشيوعي في عام ١٩٣٨. وأُرسل إلى جنجو من مقرّ قيادة الشيوعيين في زمن الحرب، ينان، بعد فترة وجيزة من استسلام اليابانيين، وكان مسؤولاً عن جمع المعلومات وإيصالها إلى القوات الشيوعية خارج المدينة. كان يعمل منتحلاً شخصية مسؤول المكتب العسكري للكومنتانغ في إحدى مناطق جنجو، وهو مركز اشتراه الشيوعيون له بالمال. ففي ذلك الوقت، كانت المناصب في الكومنتانغ، حتى في جهاز مخابراته، برسم البيع عملياً لمن يدفع أعلى ثمن. وكان البعض يشترون المناصب لحماية عوائلهم من إجبارها على الانخراط في الجيش ومن مضايقة العتاة، والبعض الآخر يشترونها ليتمكّنوا من ابتزاز المال. ونظراً إلى أهمية

جنجو الاستراتيجية، كان فيها كثير من الضباط، الأمر الذي كان يسهل اختراق الشيوعيين للنظام.

كان يو ـ وو يمثل دوره إلى حدّ الكمال. إذ كان يقيم الكثير من حفلات القمار والعشاء لعقد صلات من ناحية، ولإحاطة نفسه بشبكة تحميه من الناحية الأخرى. وكان يختلط بالرائح والغادي من ضباط الكومنتانغ ومسؤولي مخابراتهم، وسيل لا ينتهي من «أبناء العمومة» و «الأصدقاء». كانوا أناساً مختلفين، ولكن أحداً لم يطرح أية أسئلة.

كان لدى يو ـ وو غطاء آخر لهؤلاء الزوار كثيري التردّد. فقد كانت عيادة الدكتور شيا مفتوحة دائماً، وكان «أصدقاء» يو ـ وو يستطيعون الدخول من شارع جانبي دون أن يلفتوا الانتباه، ثم يمرّون عبر العيادة إلى الفناء الداخلي. وكان الدكتور شيا يتحمل حفلات يو ـ وو الصاخبة بلا تبرّم، رغم أن طائفته «جمعية العقل»، كانت تحرّم الخمرة والميسر. وكانت أمي في حيرة، ولكنها عَزَتْ الأمر إلى الطبيعة المتسامحة لزوج أمها. ومضت سنوات قبل أن تعيد أمي التفكير في الأمر وتوقن أن الدكتور شيا كان يعرف هوية يو ـ وو الحقيقية أو أنه حزرها.

حين سمعت أمي أن الكومنتانغ قتل ابن عمّها «هو»، فاتحت يو ـ وو في شأن العمل للشيوعيين. فرفضها على أساس صغر سنّها.

أصبحت أمي طالبة مرموقة في مدرستها، وكانت تأمل في مفاتحة الشيوعيين لها. وقد فاتحوها، ولكنهم احتاجوا إلى وقت للتوثّق منها. في الواقع، إن صديقتها شو حدّثت من كانت تتّصل به من الشيوعيين عن أمي، قبل أن تغادر إلى المنطقة التي يسيطر عليها الشيوعيون. وبعد زمن، فيما كانت تتمشى في الشارع، أخبرها، دون سابق إنذار، صديق كان يعمل سرّاً مع الشيوعيين، دون معرفة أمي، أن تذهب في يوم معيّن إلى نفق السكة الحديد في منتصف الطريق بين محطة جنجو الجنوبية، ومحطتها الشمالية. وقال إن رجلاً وسيماً في منتصف العشرينات من عمره، يتكلّم بلهجة شنغهاي، سيتصل بها هناك. وأصبح هذا الرجل الذي اكتشفت لاحقاً أن اسمه ليانغ، مسؤولها.

كانت مهمّتها الأولى توزيع أدبيات مثل «حول الحكومة الائتلافية» لماو تسي تونغ، وكراسات عن الإصلاح الزراعي وسياسات شيوعية أخرى. وكان يتعيّن تهريب

الأدبيات هذه إلى داخل المدينة مخفية، عادة، في حزم كبيرة من سيقان السرغوم التي تستخدم للوقود. ثم كان يعاد رزم الكراسات، ملفوفة في أحيان كثيرة، داخل حبات كبيرة من الفلفل الأخضر.

أحياناً، كانت زوجة يو ـ لن تشتري الفلفل وتقوم بالمراقبة في الشارع حين يأتي رفاق أمي لتسلم الأدبيات. كما كانت تساعد على إخفاء الكراسات في رماد مواقد مختلفة أو أكداس من العقاقير الصينية أو أكوام من الحطب. وكان على الطلاب أن يقرأوا هذه الأدبيات في السرّ، رغم أن الروايات اليسارية كان من الممكن أن تُقرأ في العلن إلى حدّ ما: كان من بين الروايات المفضّلة رواية مكسيم غوركي «الأم».

ذات يوم، انتهى المطاف بنسخة من أحد الكراسات التي كانت توزعها أمي، وهو كراس «حول الديموقراطية الجديدة» لماو، عند صديقة لها في المدرسة، شاردة الذهن بعض الشيء، دسّته في حقيبتها ونَسِيَتْه. وعندما ذهبت إلى السوق فتحت حقيبتها لأخذ بعض النقود فسقط الكرّاس. وحدث أن كان هناك اثنان من رجال الأمن عرفاه من وَرَقه الأصفر الحائل. فاُقتيدت الفتاة وأُخضعت للاستجواب. وماتت تحت التعذيب.

مات كثيرون على أيدي مخابرات الكومنتانغ، وكانت أمي تعرف أنها تواجه خطر التعذيب إذا اعتُقِلت. وقد زادها هذا الحادث تحدّياً، بدلاً من أن يثنيها. كما ارتفعت معنويّاتها كثيراً لأنها أخذت الآن تشعر أنها جزء من الحركة الشيوعية.

كانت منشوريا ساحة المعركة الفاصلة في الحرب الأهلية، وما يحدث في جنجو أمسى حاسماً أكثر فأكثر في حصيلة النضال من أجل الصين. لم تكن هناك جبهة ثابتة، بمعنى خط واحد من خطوط القتال. إذ كان الشيوعيون يسيطرون على القسم الشمالي من منشوريا وكثير من الريف. وكان الكومنتانغ يسيطرون على المدن الرئيسية، باستثناء هاربين في الشمال، فضلاً عن الموانىء وأغلبية خطوط السكة الحديد. وفي نهاية ١٩٤٧، كانت جيوش الشيوعيين في المنطقة متفوّقة عددياً، أول مرة، على جيوش أعدائهم. وفي ذلك العام، أنزلوا بالكومنتانغ خسائر زادت على ٣٠٠ ألف رجل، وأخذ كثير من الفلاّحين ينضمّون إلى جيش الشيوعيين، أو يحوّلون دعمهم إلى الشيوعيين. وكان السبب الأهم في ذلك أن الشيوعيين نفّذوا إصلاحاً

زراعياً على أساس: الأرض لمن يحرثها، فشعر الفلاّحون أن مساندتهم هي السبيل الوحيد للاحتفاظ بأرضهم.

في نهاية ١٩٤٧، كان الشيوعيون يسيطرون على قسم كبير من المنطقة المحيطة بجنجو. وكان الفلاحون يُحجمون عن دخول المدينة لبيع محاصيلهم، إذ كان عليهم المرور عبر نقاط تفتيش تابعة للكومنتانغ، حيث كانوا يتعرّضون للمضايقات: تبتزّ منهم رسوم باهظة أو تصادر محاصيلهم بكل بساطة. وكان سعر الحبوب في المدينة يزداد بحدّة من يوم إلى آخر تقريباً، ويفاقمه تلاعب التجار الجشعين والموظفين المرتشين.

حين وصل الكومنتانغ، في البداية، أصدروا عملة جديدة عرفت باسم «نقود القانون». ولكنهم أثبتوا عجزهم عن السيطرة على التضخّم. وكان الدكتور شيا قلقاً على الدوام مما سيحدث لجدتي وأمي بعد موته ـ كان الآن يقترب من الثمانين. وأخذ يحوّل مدّخراته إلى النقود الجديدة لثقته بالحكومة. وبعد حين، استبدلت بنقود «القانون» عملة جديدة هي غوانجين، التي سرعان ما أصبحت قليلة القيمة بحيث إن أمي، حين كانت تريد أن تسدّد أجور مدرستها، كان عليها أن تستأجر عربة يجرّها شخص لحمل الكومة الضخمة من الأوراق النقدية («لإنقاذ ماء الوجه» رفض شيان كاي ـ شيك طبع أية ورقة نقدية تزيد فئتها على ١٠ آلاف يوان). وضاعت مدخرات الدكتور شيا كلها.

تردّى الوضع الاقتصادي باطّراد، خلال شتاء ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨. وتصاعدت الاحتجاجات ضدّ شُحّ المواد الغذائية والأسعار الابتزازية. كانت جنجو قاعدة التموين الأساسية لجيوش الكومنتانغ الكبيرة في الشمال، وفي منتصف كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، اقتحم حشد من ٢٠ ألف شخص مخزنين عامرين بالحبوب.

تجارة واحدة كانت في ازدهار: بيع الفتيات للمواخير، والعمل خادمات مستَعْبَدات للأثرياء. وكانت المدينة تغصّ بالمتسوّلين الذين يعرضون أطفالهم مقابل الغذاء. وكانت أمي، طيلة أيام، ترى خارج مدرستها امرأة ضامرة، يائسة في مظهرها، هامدة في أسمالها على الأرض المتجمدة. وإلى جنبها تقف فتاة في حوالي العاشرة، وعلى وجهها تعبير الفقر البليد. وكانت تنتأ من خلف ياقتها عصا، عليها لافتة تقول بكتابة ركيكة: «ابنة للبيع بعشرة كيلوغرامات من الرز».

كان بين مَنْ لا يستطيعون تدبير معيشتهم بمداخيلهم، المعلّمون. وقد أخذوا

يطالبون بزيادة المرتبات، فاستجابت الحكومة بزيادة رسوم التعليم. ولم يكن لذلك تأثير يذكر، لأن الآباء لم يتمكنوا من دفع رسوم أعلى. ومات معلم في مدرسة أمي بعد أن أكل قطعة لحم التقطها من الشارع. كان يعرف أن اللحمة متعفّنة، ولكنه كان جائعاً لدرجة أنه قرّر المجازفة.

في ذلك الوقت، أصبحت أمي رئيسة الاتحاد الطلابي. وأعطاها مسؤولها الحزبي ليانغ تعليمات بأن تحاول كسب المعلمين، فضلاً عن الطلاب. فشرعت في تنظيم حملة لجمع التبرّعات لأعضاء الهيئة التدريسية. كانت تذهب مع بعض الفتيات الأخريات إلى دور السينما والمسارح، وقبل أن تبدأ العروض كن يدعين إلى التبرّع، كما كنَّ يقدمن عروضاً من الغناء والرقص، ويقمن أسواقاً خيرية، ولكن ريعها كان ضئيلاً ـ كان الناس إمّا فقراء جداً، أو بخلاء جداً.

ذات يوم، التقت مصادفة بصديقة لها كانت حفيدة آمر لواء، ومتزوجة بنقيب في الكومنتانغ. أخبرتها الصديقة أن حفلة ستقام ذلك المساء لحوالي خمسين ضابطاً وزوجاتهم في مطعم راقٍ في المدينة. في تلكم الأيام، كان هناك كثير من الترفيه لمسؤولي الكومنتانغ. انطلقت أمي مسرعة إلى مدرستها، واتّصلت بأكبر عدد مكن من الفتيات الأخريات. قالت لهن أن يتجمعن في الساعة الخامسة عصراً أمام أبرز معالم المدينة، وهو برج الطبل الحجزي الذي يرتفع ٦٠ قدماً، من القرن الحادي عشر. وعندما وصلت المكان، على رأس مجموعة كبيرة، كان هناك أكثر من مئة فتاة بانتظار أوامرها. في حوالي الساعة السادسة، رأين أعداداً كبيرة من الضباط يصلون في عربات. وكانت النساء في كامل أناقتهن يرتدين الحرير والساتان ويخشخشن بالجواهر.

عندما قدرت أمي أن الضيوف سيكونون في أوج نشوتهم، دخلت المطعم ومعها بعض الفتيات في طابور. كان الكومنتانغ في حال من التدهور بحيث إن الإجراءات الأمنية كانت متراخية إلى حدّ لا يصدق. صعدت أمي على كرسي حيث جعلها رداؤها القطني الأزرق الأدكن البسيط، تبدو آية في التقشّف بين الحرائر المطرّزة والجواهر البرّاقة. ألقت كلمة قصيرة حول الضائقة التي يعيشها المعلّمون، واختتمت كلمتها قائلة: «كلنا نعرف أنكم أُناس كرماء. ولا بدّ أن تكونوا مسرورين جداً بأن تتاح لكم هذه الفرصة، لكي تفتحوا جيوبكم وتُظهروا كرمكم».

كان الضبّاط في مأزق. لم يكن أحد منهم يريد أن يبدو بخيلاً. وكان عليهم، في الواقع، أن يحاولوا لفت الأنظار. وبالطبع، كانوا يريدون التخلّص من المتطفّلات غير المرغوب فيهن. دارت الفتيات حول الموائد المترفة، وسجّلن مساهمة كل ضابط. وفي صباح اليوم التالي، طفن على منازل الضباط وجمعن ما تعهّدوا به. كان المعلّمون في غاية الامتنان للفتيات اللواتي سلّمن النقود إليهم على الفور ليتمكّنوا من استخدامها قبل أن تُمحى قيمتها، الأمر الذي سيحدث في غضون ساعات.

لم يتم الاقتصاص من أمي، ربما لأن المدعوين خجلوا من اقتناصهم في هذا الوضع، ولم يكونوا يريدون أن يسبّبوا مزيداً من الإحراج لأنفسهم ـ رغم أن المدينة كلها، بالطبع، عرفت بالأمر في الحال. لقد نجحت أمي في قلب قواعد اللعبة ضدّهم. وكان قد راعها البذخ العابث لنخبة الكومنتانغ، فيما كان الناس يموتون جوعاً في الشوارع ـ وزاد ذلك من صلابة التزامها بقضية الشيوعيين.

مثلما كان الغذاء يشكل مشكلة داخل المدينة، كان هناك شح حاد في الملبس خارجها، لأن الكومنتانغ فرضوا حظراً على بيع المنسوجات للريف. وكانت مهمة بي ـ أو، «ولاء»، الرئيسية، بوصفه حارساً على البوابات، أن يمنع تهريب المنسوجات خارج المدينة وبيعها للشيوعيين. وكان المهرّبون خليطاً من تجار السوق السوداء ورجال يعملون لمسؤولين في الكومنتانغ وشيوعيين يعملون في الخفاء.

كانت الطريقة المعتادة أن يقوم «ولاء» وزملاؤه بإيقاف العربات ومصادرة الأقمشة، ثم يفرجون عن المهرب على أمل أن يعود بحمولة أخرى يستطيعون ضبطها أيضاً. وأحياناً، كانوا يتّفقون مع المهربين لقاء نسبة. وسواء كان هناك اتفاق أو لم يكن، فقد كان الحرّاس يبيعون القماش للمناطق التي يسيطر عليها الشيوعيون في كل الأحوال. وأثرى «ولاء» وزملاؤه ثراء فاحشاً.

ذات ليلة، تقدّمت عربة قذرة غريبة نحو البوابة، حيث كان «ولاء» خفيراً. أدى تمثيليّته المعهودة جاسّاً كومة القماش في الخلف، وهو يتبختر حولها على أمل تخويف السائق وتليينه لعقد صفقة رابحة. وإذ قدّر قيمة الحمولة ومقاومة السائق المحتملة، كان يأمل أيضاً في جرّه إلى الحديث واكتشاف ربّ عمله. لم يكن «ولاء» في عجلة من أمره، لأن الشحنة كانت أكبر من أن يستطيع إخراجها من المدينة قبل الفجر.

صعد إلى جانب السائق، وأمره بالاستدارة وإعادة الحمولة إلى المدينة. وإذ كان السائق معتاداً على تلقّي التعليمات الاعتباطية، فقد فعل ما قيل له.

كانت جدتي نائمة في فراشها نوماً عميقاً، عندما سمعت طرقاً على الباب في حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وعندما فتحته وجدت «ولاء» واقفاً هناك. قال إنه يريد أن يترك حمولة العربة في البيت خلال الليل. وكان على جدتي أن تقبل، لأن التقليد الصيني يجعل من المستحيل عملياً أن يُرفض طلب من قريب. فالواجب إزاء العائلة والأقارب، كان دائماً له الأسبقيّة على المحاكمة الأخلاقية. قطّب الدكتور شيا وجهه، ولكنه لم يقل شيئاً.

قبل انبلاج الفجر بوقت طويل ظهر «ولاء» من جديد ومعه عربتان، نقل الحمولة إليهما، وانطلق فيما بدأ الفجر يضيء السماء. وبعد أقل من نصف ساعة، ظهر شرطة مسلحون وطوّقوا البيت. فإن سائق العربة الذي كان يعمل لجهاز أمني آخر، أبلغ أولياء نعمته. وهم، بالطبع، يريدون استرداد بضاعتهم.

كان الدكتور شيا وجدتي في حالة يرثى لها، ولكن البضاعة اختفت. وكاد الدهم يكون كارثة على أمي. إذ كانت لديها منشورات شيوعية مخفيّة في البيت. وما إن ظهرت الشرطة، حتى اختطفت المنشورات، وركضت بها إلى الحمام، حيث دسّتها تحت سروالها المبطن، الذي كان مشدوداً حول الكاحلين للاحتفاظ بالحرارة، وارتدت معطفاً ثقيلاً. ثم خرجت ماشية دون تكلف قدر الإمكان، متظاهرة أنها في طريقها إلى المدرسة. أوقفها الشرطة وقالوا إنهم سيقومون بتفتيشها. صرخت بهم قائلة إنها ستخبر «عمها» جو ـ غي عن معاملتهم لها.

لم يكن لدى أفراد الشرطة، حتى تلك اللحظة، فكرة عن علاقات العائلة بالمخابرات، ولا كانت لديهم أية فكرة عمَّن صادر المنسوجات. فقد كانت إدارة جنجو في بلبلة تامّة بسبب العدد الضخم من وحدات الكومنتانغ المختلفة، التي ترابط في المدينة، ولأن كل من لديه سلاح ونوع من الحماية، كان يتمتّع بسطوة اعتباطية. وعندما صادر «ولاء» ورجاله هذه الحمولة، لم يسألهم السائق لمن يعملون.

في اللحظة التي ذكرت فيها أمي اسم جو ـ غي، حدث تغير في موقف الضابط. لقد كان جو ـ غي صديق رئيسه. وبإشارة منه أنزل مرؤوسوه بنادقهم، وكفّوا عن

تصرّفهم العدواني الوقح. انحنى الضابط انحناءة رسمية، وقدم فيضاً من الاعتذارات عن إزعاج مثل هذه العائلة الجليلة. وبدا أفراد الشرطة العاديين أشدّ خيبة من ضابطهم ـ لا غنيمة يعني لا نقود، ولا نقود يعني لا طعام. غادروا متجهمين يجرّون أقدامهم بخطى متثاقلة.

في ذلك الوقت، أقيمت جامعة جديدة، هي جامعة مهجري الشمال الشرقي، في جنجو حيث شُكِّلت من الطلبة والمدرّسين الذين فرّوا من شمال منشوريا، الواقع تحت احتلال الشيوعيين. فسياسة الشيوعيين هناك كانت، في أحيان كثيرة، شديدة القسوة: قُتل الكثير من ملاّك الأراضي. وفي المدن، أدين حتى أصحاب المعامل الصغيرة وأصحاب المتاجر، وصودرت ممتلكاتهم. وكانت أغلبية المثقفين من عوائل موسرة نسبياً، ورأى كثيرون منهم معاناة أسرهم تحت حكم الشيوعيين أو تعرّضوا هم أنفسهم للإدانة.

كانت هناك كلية طب في جامعة المهجرين، وأرادت أمي دخولها. كان طموحها دائماً أن تصبح طبيبة. وكان هذا في جزء منه بتأثير من الدكتور شيا، وفي جزئه الآخر أن مهنة الطب تتيح أمام المرأة خير فرصة لتحقيق استقلالها. وقد أيّد ليانغ الفكرة بحرارة. فقد كان لدى «الحزب» مشاريع لها. فسجّلت في كلية الطب على أساس دوام جزئي في شباط/ فبراير ١٩٤٨.

كانت «جامعة المهجرين» ساحة معركة، يتبارى فيها الكومنتانغ والشيوعيون بضراوة من أجل النفوذ. وكان الكومنتانغ يرون تدهور موقفهم في منشوريا، وراحوا يعملون بنشاط على تشجيع الطلاب والمثقفين على الهرب جنوباً. وكان الشيوعيون لا يريدون أن يفقدوا هؤلاء المتعلمين، فعدّلوا برنامج إصلاحهم الزراعي، وأصدروا أمراً بمعاملة رأسماليي المدن معاملة حسنة، وحماية المثقفين أبناء العوائل الموسرة. وإذ تسلّح التنظيم السرّي في جنجو بهذه السياسات الأكثر اعتدالاً، شرع في إقناع الطلاب والمعلمين بالبقاء في المدينة. وأصبح هذا نشاط أمي الرئيسي.

رغم التغيّر الذي حدث في سياسة الشيوعيين، رأى بعض الطلاب والمعلمين أن الهرب أسلم. وقد أبحرت سفينة محمّلة بالطلاب إلى مدينة تيانجين، على بعد حوالي ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي، وذلك في أواخر حزيران/ يونيو. وعندما

وصلوا إلى هناك، اكتشفوا عدم توافر المأكل والمسكن: وحثهم الكومنتانغ المحلّيون على الانخراط في صفوف الجيش. قيل لهم: «قاتلوا من أجل العودة إلى وطنكم!». لم يكن هذا ما هربوا من منشوريا من أجله. وقد شجّعهم بعض العاملين في التنظيم الشيوعي السرّي، الذين أبحروا معهم، على اتخاذ موقف. وفي ٥ تموز/يوليو، تظاهر الطلاب في مركز تيانجين من أجل الخبز والسكن. فتح الجنود النار وجُرح عشرات الطلاب، كانت جروح بعضهم مخطرة، وقتل عدد آخر.

حين بلغت الأنباء جنجو، أصدر ليانغ لأمي تعليمات بتنظيم حملة تأييد للطلاب الذين غادروا إلى تيانجين. فدعت إلى اجتماع لرؤساء الاتحادات الطالبية في المدارس العليا والتقنية السبع كلها، التي صوّتت لمصلحة تأسيس «فدرالية الاتحادات الطالبية في جنجو». وانتُخبت أمي رئيسة له. قرّروا توجيه برقية تضامن إلى الطلاب في تيانجين وتنظيم مسيرة إلى مقرّ الجنرال تشيو، القائد العسكري، لتقديم مذكرة إليه.

كان أصدقاء أمي ينتظرون التعليمات بشوق في المدرسة. كان يوماً مكفهراً ممطراً، وتحوّلت الأرض إلى وحل لزج. حلَّ الظلام، ومع ذلك، لم يكن هناك أثر لأمي وقادة الطلاب الستة الآخرين. ثم وردت أنباء بأن الشرطة دهمت الاجتماع واعتقلتهم. أبلغهم ذلك ياو ـ هان، المشرف السياسي في مدرسة أمي.

اقتيدوا إلى مقرّ قيادة الحاكم العسكري. وبعد مرور بعض الوقت، دخل الغرفة الجنرال تشيو. جلس إلى طاولة قبالتهم، وراح يتحدث إليهم بنبرة أبوية متأنية، تنمّ على مشاعر الأسى أكثر منها على الغضب. قال إنهم شباب ويمكن أن يفعلوا أشياء طائشة. ولكن ماذا يعرفون عن السياسة؟ هل يدركون أن الشيوعيين يستخدمونهم؟ ينبغي أن ينكبّوا على كتبهم. وقال إنه سيفرج عنهم إذا وقّعوا اعترافاً يقرّون فيه بأخطائهم، ويكشفون عن هوية الشيوعيين الذين يقفون وراءهم. ثم توقف ليراقب مفعول كلماته.

وجدت أمي أن موعظته وموقفه كليهما لا يطاقان. فتقدمت وقالت بصوت عالٍ: «قل لنا، أيها القائد، أي خطأ ارتكبنا؟». هاج الجنرال: «استخدمتكم العصابات الشيوعية لإثارة أعمال شغب. ألا يكفي ذلك؟». ردت أمي صارخة: «أي عصابات شيوعية؟ أصدقاؤنا ماتوا في تيانجين لأنهم هربوا من الشيوعيين، بناء على نصيحتكم.

هل يستحقون أن تطلقوا النار عليهم؟ هل فعلنا شيئاً غير معقول؟». وإثر بعض المناقشات العنيفة، ضرب الجنرال الطاولة بقبضته، وصرخ منادياً حرّاسه: «خذوها في جولة»، ثمّ قال، ملتفتاً إلى أمي: «يجب أن تدركي أين أنتِ!». وقبل أن يتمكن الجنود من الإمساك بها وثبت أمي إلى الأمام وضربت الطاولة بقبضتها: «أنّى كنتُ، لم أفعل أي خطأ!».

ما حدث لأمي بعد ذلك أنها مُسِكت بقوة من الذراعين واقتيدت بعيداً عن الطاولة. سُحبت على امتداد دهليز إلى غرفة معتمة. وعلى الجانب البعيد، كانت تستطيع أن ترى رجلاً يرتدي أسمالاً. بدا أنه يجلس على مصطبة ويستند إلى عمود. كان رأسه يتدلّى جانباً. ثم أدركت أمي أنه موثوق إلى العمود وفخذاه مربوطتان إلى المصطبة. وكان رجلان يدفعان كتلاً من الآجر تحت عقبيه. ومع إضافة كل كتلة كانت تنطلق حشرجة عميقة خافتة. شعرت أمي بالدم يصعد إلى رأسها، وفكّرت أنها تسمع طقطقة عظام. ثم ما لبثت أن وجدت نفسها تنظر داخل غرفة أخرى. لفت دليلها، وهو ضابط، انتباهها إلى رجل بجانب المكان الذي كانا يقفان فيه تقريباً. كان معلّقاً من رسغيه على دعامة خشبية، وعارياً من الخصر فما فوق. كان شعره يتدلى ساتراً محياه، فلم تتمكن أمي من رؤية وجهه. على الأرض كانت مجمرة يجلس قربها رجل يدخن سيجارة بلا اكتراث. وفيما كانت أمي تراقب، رفع قضيباً حديدياً من النار، طرفه بحجم قبضة الرجل. وبابتسامة عريضة، دفعه إلى صدر الرجل المعلّق على الدعامة. سمعت أمي صرخة ألم حادّة وصوت نشيش رهيب، ورأت دخاناً ينبعث من الجرح، وكانت تستطيع أن تشمّ الرائحة الثقيلة من اللحم المحترق. ولكنها لم تصرخ أو يُغمَ عليها. أثار الرعب فيها غضباً قوياً، متّقداً، منحها قوة هائلة وتغلباً على كل خوف.

سألها الضابط إن كانت ستكتب الآن اعترافاً. رفضت مكرّرة أنها لا تعرف أي شيوعيين. حُشرت في غرفة صغيرة تحوي سريراً وبعض الملاءات. وهناك أمضت أياماً طويلة تستمع إلى صراخ من كانوا يُعذّبون في الغرف القريبة، وترفض المطالبة المتكرّرة بتقديم أسماء.

وذات يوم، أُخِذت إلى باحة خلف المبنى تغطّيها أعشاب وأنقاض، وأُمرت

بالوقوف أمام حائط مرتفع. وأُسنِد جنبها رجل كان من الواضح أنه تعرّض للتعذيب وبالكاد يستطيع الوقوف. واتّخذ عدة جنود مواقعهم بتثاقل. عصّب رجل عينيها. ورغم أنها لم تكن تستطيع أن ترى، فقد أغمضت عينيها. كانت مستعدة للموت، فخورة بالتضحية بحياتها من أجل قضية عظيمة.

سمعتْ طلقات نارية ولكنها لم تشعر بشيء. بعد دقيقة أو نحو ذلك، رفعت العصابة عن عينيها، ونظرت حولها بعينين طارفتين. كان الرجل الذي يقف جنبها ممدّداً على الأرض. تقدّم الضابط الذي اقتادها إلى الأقبية، مبتسماً. كان أحد حاجبيه مرفوعاً في استغراب من أن هذه الفتاة ابنة السبعة عشر عاماً لم تنهر. أخبرته أمي بهدوء أنه ليس لديها ما تعترف به.

أعيدت إلى زنزانتها. لم يضايقها أحد ولم تُعذَّب. وبعد بضعة أيام أُفرج عنها. خلال الأسبوع السابق، كان التنظيم الشيوعي السرّي منهمكاً في استعمال وسائله الخاصة. كانت جدتي تذهب إلى مقر الأحكام العرفية كل يوم، منتَحبة، مستعطفة ومهدّدة بالانتحار. زار الدكتور شيا أشدّ مرضاه سطوة حاملاً معه هدايا ثمينة. كما استُنفِرت علاقات العائلة بمعارفها في الجهاز الأمني. وكتب كثيرون يزكُّون أمي قائلين إنها ليست شيوعية، إنها مجرد شابة متهوّرة.

لم يثنها ما حدث لها. ففي اللحظة التي خرجت فيها من السجن، شرعت تنظم قداساً لإحياء ذكرى الطلاب القتلى في تيانجين. وسمحت السلطات بإقامة القداس. إذ كان هناك غضب شديد في جنجو بسبب ما حدث للشبان الذين غادروا المدينة، بناء على نصيحة الحكومة. وفي الوقت نفسه، أعلنت المدارس على عجل نهاية الفصل الدراسي في وقت مبكر، صارفة النظر عن الامتحانات، على أمل أن يذهب الطلاب إلى بيوتهم ويتفرّقوا.

إزاء هذه الحال، نصحت الحركة السرية أعضاءها بالمغادرة إلى المناطق التي يسيطر عليها الشيوعيون. وصدرت الأوامر إلى من لم يرغبوا، أو لم يتمكّنوا من المغادرة، بتجميد نشاطهم السرّي. فقد كان الكومنتانغ يشنون حملة شعواء، وكان كثير من النشطاء يتعرّضون للاعتقال والإعدام. كان ليانغ من المغادرين، وطلب من أمي أيضاً أن ترحل، ولكن جدتي لم تسمح بذلك. قالت إن أمي لا يشتبه في أنها

شيوعية، ولكن سيُشتبه فيها إذا رحلت مع الشيوعيّين. وماذا عن كل الذين زكُّوها؟ إذا ذهبت الآن، سيقعون كلهم في متاعب.

بقيت أمي، ولكنها كانت توّاقة إلى العمل. توجهت إلى يو ـ وو، الشخص الوحيد الباقي في المدينة، وتعرف أنه يعمل للشيوعيين. لم يكن يو ـ وو يعرف ليانغ أو الآخرين، الذين كانوا يتّصلون بأمي. فقد كانوا ينتمون إلى تنظيمات سرية مختلفة، تعمل منفصلة تماماً عن بعضها بعضاً، بحيث إذا وقع أحد في الأسر، ولم يتحمل التعذيب، فإنه لن يتمكن إلا من الكشف عن عدد محدود من الأسماء.

كانت جنجو مركز الإمدادات والدعم اللوجستي الأساسي لكل جيوش الكومنتانغ في الشمال الشرقي. وكانوا يزيدون على نصف مليون رجل، منتشرين على خطوط السكك المكشوفة، ومحتشدين في بضع مناطق آخذة في الانكماش حول المدن الرئيسية. في صيف ١٩٤٨، كان هناك زهاء ٢٠٠ ألف جندي من جنود الكومنتانغ في جنجو، تحت عدة قيادات مختلفة. وكان شيان كاي ـ شيك يخاصم العديد من جنرالاته الكبار متلاعباً بالقيادات، الأمر الذي تسبّب بهبوط المعنويات بحدّة. وكانت القوات المختلفة سيّئة التنسيق، وغالباً ما كان يرتاب بعضها ببعض. وكان القسم الأعظم من الجنود القادمين من داخل الصين، لا يرون سبباً للقتال في منشوريا، فيما كان الجنود المحليون يحتقرون القادمين من جنوب «السور العظيم». وكان كثيرون، بمن فيهم كبار المستشارين الأميركيين، يعتقدون أنه ينبغي على شيان أن يتخلّى عن منشوريا بالكامل. وكان المفتاح إلى أي انسحاب «طوعي» أو بالإكراه، بحراً أو بالقطارات، هو الاحتفاظ بجنجو. فالمدينة تبعد ١٠٠ ميل فقط شمال «السور العظيم»، على مقربة من داخل الصين نفسها، حيثما ما زالت مواقع الكومنتانغ تبدو أمينة، وكانت تُعزّز بسهولة من البحر ـ كانت هولوداو لا تبعد إلاّ حوالي ثلاثين ميلاً إلى الجنوب، وترتبط بخط سكة حديد آمن في الظاهر.

في ربيع ١٩٤٨، بدأ الكومنتانغ يبنون منظومة دفاعية جديدة حول جنجو، مصنوعة من كتل إسمنتية مكسوّة بأطر فولاذية. كانوا يعتقدون أن الشيوعيّين لا يملكون دبابات، وأن مدفعيتهم هزيلة، وأنهم يفتقرون إلى الخبرة في مهاجمة المواقع المنيعة التحصين. وكانت الفكرة أن تُزنَّر المدينة بحصون، كل منها يستطيع، إذا طُوّق، العمل كوحدة مستقلة. وأن ترتبط الحصون فيما بينها بخنادق عرضها ستة أقدام

وعمقها ستة أقدام، محمية بسياج متّصل من الأسلاك الشائكة. وقد قام القائد الأعلى في منشوريا، الجنرال وي لي ـ هوانغ بزيارة تفقّدية، وأعلن أن المنظومة منيعة، لا يمكن اختراقها.

ولكن المشروع لم ينجز، لأسباب منها عدم توافر المواد، وسوء التخطيط، ولكن السبب الرئيسي كان الفساد. فالرجل المكلّف بأعمال البناء، كان يسرق مواد البناء ويبيعها في السوق السوداء. ولم تكن أجور العمال كافية لإطعامهم. وبحلول أيلول/ سبتمبر، حين بدأ الشيوعيون عزل المدينة، كان ثلث المنظومة فقط قد أنجز، وكان قسم كبير منه تحصينات إسمنتية صغيرة، غير متصلة. وبُنيت أسوار المدينة القديمة. ولم يكن في جنوب المدينة أية منشآت دفاعية.

كان من الأهمية بمكان أن يعرف الشيوعيون عن هذه المنظومة وعن انتشار قوات الكومنتانغ. فقد كانوا يحشدون قوات ضخمة ـ حوالي ربع مليون رجل ـ لخوض معركة فاصلة. وأبرق القائد الأعلى لسائر جيوش الشيوعيين، جو دي، إلى القائد الميداني لن بياو: «احتلّوا جنجو. . . فيصبح الوضع الصيني بأسره في أيدينا». وطلب من مجموعة يو ـ وو توفير المعلومات، أولاً بأول، قبل الهجوم الأخير. كان بأمسّ الحاجة إلى مزيد من الأيدي، وعندما فاتحته أمي طالبة العمل، كان ذلك مبعث سرور له ولمسؤوليه.

كان الشيوعيون قد أرسلوا بعض الضباط إلى المدينة متخفّين للاستطلاع، ولكن من يتجوّل حول أطراف جنجو وحيداً، سيلفت الانتباه في الحال. واثنان عاشقان سيكونان أقلّ إثارة للانتباه. في ذلك الوقت، كان حكم الكومنتانغ قد جعل من المقبول تماماً رؤية الشباب والشابات معاً في الأماكن العامّة. ولأن ضباط الاستطلاع كانوا من الرجال، فإن أمي ستكون «الصديقة» المثالية.

قال لها يو ـ وو أن تحضر إلى مكان معين في ساعة محددة. وأن ترتدي ثوباً أزرق فاتحاً، وتضع زهرة حريرية حمراء في شعرها. وسيحمل الضابط الشيوعي نسخة من جريدة الكومنتانغ «اليومية المركزية»، مطوية على شكل مثلث، وسيعرّف بنفسه بمسح العرق ثلاث مرات عن الجانب الأيسر من وجهه، وثلاث مرات عن الجانب الأيمن.

في اليوم المحدد، ذهبت أمي إلى معبد صغير خارج السور الشمالي القديم مباشرة، ولكنه داخل المحيط الدفاعي. تقدم نحوها رجل يحمل الجريدة المثلثة وأعطاها الإشارات الصحيحة. مسّدت أمي خدّه الأيمن ثلاث مرات بيدها اليمنى، ومسّد خدها الأيسر ثلاث مرات بيده اليسرى. ثم تأبطت أمي ذراعه ومضيا.

لم تفهم أمي تماماً ما كان يفعله، ولم تسأل. سارا بصمت معظم الوقت، ولم يتحدثا إلا حين كانا يصادفان أحداً. مرت العملية دون أي حادث.

كان هناك مزيد من هذه المهمات، حول أطراف المدينة وإلى السكة الحديد، شريان الاتصالات الحيوي.

كان الحصول على المعلومات شيئاً، ولكن إخراجها من المدينة كان شيئاً آخر. ففي نهاية تموز/ يوليو، أُحكم إغلاق نقاط التفتيش، وكان كل من يحاول الدخول أو المغادرة يتعرّض لتفتيش دقيق. طلب يو ـ وو مشورة أمي التي أصبح يثق بقدرتها وشجاعتها. كانت عربات الضباط الكبار تستطيع الدخول والخروج دون تفتيش، وفكّرت أمي في عنصر اتّصال قد تستطيع استخدامه. لقد كانت إحدى زميلاتها الطالبات حفيدة قائد عسكري محلي هو الجنرال جي، وكان شقيق الفتاة عقيداً في لواء جدّها.

كان لعائلة جي نفوذ واسع في جنجو. كانوا يشغلون شارعاً كاملاً يدعى «شارع جي»، حيث لديهم مجمّع كبير بحديقة شاسعة حسنة التزيين. وغالباً ما كانت أمي تتمشى في الحديقة مع صديقتها، وكانت في منتهى الودّ مع شقيقها هوي ـ غي.

كان هوي ـ غي شاباً وسيماً في منتصف العشرينات من العمر، يحمل شهادة جامعية في الهندسة. وبخلاف الكثير من شباب العوائل الثرية وذات السطوة، لم يكن مدللاً. كانت أمي تستلطفه، وكان هذا الشعور متبادلاً. بدأ يتردّد إلى عائلة شيا في زيارات اجتماعية، ويدعو أمي إلى حفلات شاي. أحبّته جدتي كثيراً. كان دمثاً للغاية، واعتبرته على درجة عالية من الجدارة.

ما لبث هوي ـ غي أن بدأ يدعو أمي إلى الخروج معه بمفردها. في البداية، كانت شقيقته تصحبه، متظاهرة بكونها مرافقة من باب اللياقة، ولكنها سرعان ما كانت تختفي بذريعة واهية. كانت تطري شقيقها أمام أمي، وتضيف أنه الأثير لدى جدهما. ولا بدّ أنها كانت أيضاً تحدث شقيقها عن أمي، لأن أمي اكتشفت أنه يعرف الكثير

عنها، بما في ذلك حقيقة اعتقالها بسبب نشاطاتها الراديكالية. وجدا أن هناك الكثير مما هو مشترك بينهما. كان هوي ـ غي صريحاً جداً عن الكومنتانغ. ومرة أو مرتين، شدّ بزة العقيد التي يرتديها، وتنهد قائلاً إنه يتمنى أن تنتهي الحرب قريباً، ليتمكّن من العودة إلى هندسته. قال لأمي إنه يعتقد أن أيام الكومنتانغ معدودة، وكان لديها إحساس بأنه كان يميط اللثام عن أعمق أفكاره.

كانت متأكّدة من تولّعه بها، ولكنها تساءلت إن كانت هناك دوافع سياسية وراء أعماله. وقد خلصت إلى أنه يحاول إيصال رسالة إليها ومن خلالها إلى الشيوعيين. ولا بد أن تكون الرسالة: إني لا أحب الكومنتانغ، ومستعد لمساعدتكم.

أصبحا متآمرين صامتين. وذات يوم، اقترحت أمي أن يستسلم للشيوعيين مع بعض الجنود (كان ذلك شائعاً بقدر لا يستهان به). قال إنه ضابط أركان فحسب، ولا يقود أي جنود. طلبت أمي منه أن يحاول إقناع جدّه بالانتقال إلى الجانب الآخر، ولكنه أجاب بحزن أن الرجل العجوز سيعمل على الأرجح من أجل قتله رمياً بالرصاص، لمجرّد الاقتراح.

أبقت أمي يو ـ وو على اطّلاع، وأخبرها أن تحتضن هوي ـ غي. وما لبث يو ـ وو أن دفعها إلى أن تطلب من هوي ـ غي أن يأخذها في رحلة خارج المدينة بسيارته الجيب. كانا قد خرجا في رحلات كهذه ثلاث أو أربع مرات، وفي كل مرة عندما كانا يصلان إلى مرحاض طيني بدائي، كانت تقول إنها يجب أن تستخدمه. كانت تنزل وتخفي رسالة داخل ثقب في جدار المرحاض، فيما كان ينتظر في سيارته الجيب. لم يطرح ذات يوم أية أسئلة. أصبحت أحاديثه تدور، أكثر فأكثر، حول همومه بسبب القلق على عائلته وعلى نفسه. وبطريقة ملتوية، ألمح إلى أن الشيوعيين قد يعدمونه: «أخشى أنني سأكون، قريباً، مجرد جسد بلا روح خارج البوابة الغربية!» (كان يفترض أن تكون «السماء الغربية» مآل الموتى، لأنها كانت موطن السلام الأبدي. لذا، كانت ساحة الإعدام في جنجو، مثل أغلبية الأماكن في الصين، تقع خارج البوابة الغربية). حين يقول ذلك كان ينظر متسائلاً إلى عيني أمي داعياً بوضوح إلى ما ينقضه.

كانت أمي على يقين أن الشيوعيين لن يضيروه بسبب ما فعله من أجلهم. ورغم أن كل شيء كان ضمنياً، فقد كانت تقول بثقة: «لا تفكر في مثل هذه الأفكار السوداء!»، أو «إني واثقة أن هذا لن يحدث لك!».

استمرّ موقف الكومنتانغ في التردّي خلال أواخر الصيف ـ ليس بسبب العمل العسكري وحده. إذ الفساد كان متفشياً. والتضخم ارتفع إلى رقم لا يمكن تخيّله، يزيد قليلاً على ١٠٠ ألف في المئة في نهاية ١٩٤٧ ـ وكان يقدر له أن يبلغ ٢ ٨٧٠ ٠٠٠ في المئة مع نهاية ١٩٤٨ في مناطق الكومنتانغ. فقد ازداد سعر السرغوم، وهي الحبوب الرئيسية المتاحة، سبع مرات بين ليلة وضحاها في جنجو. وأخذ الوضع بالنسبة إلى السكان المدنيين يزداد تفاقماً كل يوم مع ذهاب المزيد من المواد الغذائية إلى الجيش، حيث كان القادة العسكريون المحليون يبيعون الكثير منها في السوق السوداء.

كانت القيادة العليا للكومنتانغ منقسمة في شأن الاستراتيجية. فقد أوصى شيان ـ كاي ـ شيك بالتخلّي عن موكدِن، أكبر مدينة في منشوريا، والتركيز على الاحتفاظ بجنجو، ولكنه لم يتمكن من فرض استراتيجية متماسكة على جنرالاته الكبار. وبدا أنه يعلّق كل آماله على قدر أكبر من التدخّل الأميركي. كانت الانهزامية سائدة بين كبار العاملين معه.

بحلول أيلول/ سبتمبر، كان الكومنتانغ يحتفظون بثلاثة معاقل فقط في منشوريا ـ موكدِن وتشانغ تشون (عاصمة مانشوكوو القديمة هسنكنغ) وجنجو ـ و ٣٠٠ ميل من خط السكة الحديد الذي يربط بينها. وكان الشيوعيون يطوّقون المدن الثلاث كلّها في آن واحد، ولم يكن الكومنتانغ يعرفون من أين سيأتي الهجوم الرئيسي. في الواقع، كان سيستهدف جنجو، أبعد المدن الثلاث جنوباً والمفتاح الاستراتيجي، لأنه ما أن تسقط، حتى تُقطع المدينتان الأخريان عن خطوط إمداداتهما. وتمكن الشيوعيون من تحريك أعداد كبيرة من الجنود، دون أن تُرْصَد، ولكن الكومنتانغ كانوا يعتمدون على السكك الحديد التي كانت تتعرض لهجوم متواصل، وبقدر أقل، على النقل الجوي.

بدأ الهجوم على جنجو في ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨، وسجل الدبلوماسي الأميركي جون ف. ميلبي، في مفكّرته في ٢٣ أيلول/ سبتمبر وهو يطير إلى موكدِن: «شمالاً على امتداد الممرّ المؤدي إلى منشوريا، كانت مدفعية الشيوعيين تحيل المطار في تشينشو (جنجو) إلى أنقاض بطريقة منهجية». وفي اليوم التالي، ٢٤ أيلول/ سبتمبر، تقدّمت القوات الشيوعية مسافة أقرب. وبعد ٢٤ ساعة، أصدر شيان كاي ـ شيك أمراً إلى الجنرال وي لي ـ هوانغ بالخروج من موكدن مع خمس عشرة فرقة

لتخفيف الضغط عن جنجو. تردّد الجنرال وي، وفي ٢٦ أيلول/سبتمبر كان الشيوعيون قد عزلوا جنجو من الناحية العملية.

في ١ تشرين الأول/اكتوبر تمّ تطويق جنجو. وفي ذلك اليوم، سقطت يشيان، مدينة جدتي التي تبعد ٢٥ ميلاً إلى الشمال. طار شيان كاي ـ شيك، الذي لم يزر الشمال الشرقي قط، إلى موكدِن لتولي القيادة شخصياً. أمر بدفع سبع فرق إضافية إلى معركة جنجو، ولكنه لم يتمكّن حتى من حمل الجنرال وي على الخروج من موكدِن حتى ٩ تشرين الأول/أكتوبر، بعد أسبوعين من صدور الأمر ـ بإحدى عشرة فرقة فقط، وليس خمس عشرة فرقة. في ٦ تشرين الأول/أكتوبر طار شيان كاي ـ شيك إلى هولوداو، وأمر القوات هناك بالتحرّك شمالاً لإغاثة جنجو. وقد تحرّك بعضها ولكن بصورة منفصلة، وسرعان ما عُزلت ودمّرت.

كان الشيوعيون يهيّئون لتحويل الهجوم على جنجو إلى حصار. وفاتح يو ـ وو أمي طالباً منها تنفيذ مهمة حرجة: تهريب صواعق تفجير إلى داخل أحد مستودعات الذخيرة ـ المستودع الذي يزود فرقة هوي ـ غي. كان العتاد مخزوناً في فناء كبير تعلو أسواره أسلاك شائكة، أشيع أنها مكهربة. وكان كل من يدخل ويخرج يتعرض للتفتيش. وكان الجنود الذين يعيشون في الداخل يقضون معظم الوقت في القمار والشرب. وأحياناً كان يؤتى بعاهرات، ويقيم الضباط حفلة رقص في ناد فُتِح مؤقتاً لهذا الغرض. قالت أمي لهوي ـ غي إنها تريد الذهاب ومشاهدة الرقص، فوافق دون أن يطرح أية أسئلة.

سلّم الصواعق إلى أمي في اليوم التالي رجل لم تره قط. وضعتها في حقيبتها ودخلت المستودع بسيارة مع هوي ـ غي. لم يتعرّضا للتفتيش. وحين كانا في الداخل طلبت من هوي ـ غي أن يريها المكان تاركة حقيبتها في السيارة، حسب التعليمات. حين يبتعدا عن الأنظار، كان مخططاً لعناصر من التنظيم السري أن تأخذ الصواعق. تعمّدت أمي أن تمشي على مهل لإعطاء أولئك العناصر مزيداً من الوقت. وكان هوي ـ غي سعيداً بالاستجابة لها.

في تلك الليلة، هزّ المدينة انفجار هائل. وتوالت الانفجارات في تفاعل متسلسل، وأضيئت السماء بالديناميت والقذائف، كما في عرض رائع للألعاب

النارية. اشتعلت النيران في الشارع الذي كان فيه المستودع، وتحطّمت النوافذ داخل دائرة يبلغ نصف قطرها حوالي خمسين ياردة. في صباح اليوم التالي، دعا هوي ـ غي أمي إلى قصر عائلة جي. كانت عيناه غائرتين ولم يحلق ذقنه. كان واضحاً أنه لم يذق طعم النوم. حيّاها باحتراس أكثر من المعتاد.

بعد صمت ثقيل، سألها إن سمعت بالأنباء. ولا بدّ أن تعبير وجهها أكّد أشدّ ما كان يخشاه ـ إنه ساعد في شلّ فرقته ذاتها. قال إن تحقيقاً سيجري. وتنهّد قائلاً: «أتساءل إن كان الانفجار سيطيح رأسي من على كتفي، أم سيضع مكافأة في طريقي؟». قالت أمي التي شعرت بالعطف عليه، مطمئنة إياه: «إني واثقة بأنك فوق الشبهات. وإني متأكدة أنك ستكافأ». وهنا وقف هوي ـ غي وحياها تحية رسمية قائلاً: «شكراً لتمنياتك!».

في ذلك الحين، بدأت قذائف المدفعية الشيوعية تنهمر على المدينة. وعندما سمعت أمي صفير القذائف المتطايرة، أول مرة، خافَتْ قليلاً. ولكنها اعتادت عليه فيما بعد، عندما أصبح القصف أشدَّ كثافة. أصبح كأنه رعد دائم. وكان نوع من اللامبالاة الجبرية قد أمات الخوف لدى أغلبية الناس. كما أن الحصار كسر طقس الدكتور شيا المانشوي الجامد. وللمرة الأولى كانت العائلة كلّها تأكل معاً، رجالاً ونساء، أسياداً وخدماً. في السابق كانوا يأكلون في ما لا يقل عن ثماني مجموعات، كل يتناول طعاماً مختلفاً. وذات يوم، فيما كانوا يجلسون حول المائدة يتهيّأون لتناول العشاء، دخلت قذيفة مندفعة عبر النافذة فوق الكانغ حيث كان يلعب ابن يو ـ لن البالغ من العمر سنة واحدة، واستقرت هامدة تحت المائدة. لحسن الحظ كانت عاطلة، مثل كثير من القذائف.

مع بداية الحصار، اختفى الغذاء، حتى من السوق السوداء. وكانت مئة مليون دولار من دولارات الكومنتانغ بالكاد تكفي لشراء رطل من السرغوم. وكأغلبية العوائل القادرة على الشراء، عمدت جدتي إلى تخزين بعض السرغوم وفول الصويا، واستخدم زوج شقيقتها بي ـ أو «ولاء» علاقاته للحصول على بعض التموين الإضافي. وخلال الحصار، قتلت شطية حمار العائلة، فأكلوه.

في ٨ تشرين الأول/أكتوبر، دفع الشيوعيون نحو ربع مليون جندي إلى مواقع

هجومية. وأصبح القصف أشدّ كثافة. كما كان دقيقاً جداً. وقال قائد الكومنتانغ الأعلى، الجنرال فان هان ـ جي، إن القصف، على ما يبدو، يلاحقه أينما ذهب. دُمّرت مرابض عديدة للمدفعية، وتعرّضت التحصينات في المنظومة الدفاعية الناقصة لنيران كثيفة، وكذلك الطرق وخطوط السكة الحديد. وقطعت خطوط الهاتف والبرق، وتعطّلت شبكة الكهرباء.

في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر، انهارت الدفاعات الأمامية. وانسحب أكثر من ١٠٠ ألف جندي من قوات الكومنتانغ انسحاباً تعمّه الفوضى إلى مركز المدينة. وفي تلك الليلة، اقتحمت عصابة من حوالي دزينة جنود ببدلات بالية، بيت عائلة شيا وطالبوا بشيء من الطعام. لم يأكلوا منذ يومين. استقبلهم الدكتور شيا بكياسة، وشرعت زوجة يو ـ لن في الحال تطهو في قِدر ضخمة معكرونة السرغوم. وحين كانت جاهزة، وضعتها على مائدة المطبخ ودخلت الغرفة المجاورة لإبلاغ الجنود. وعندما أدارت ظهرها سقطت قذيفة في القِدر وانفجرت، وتطايرت المعكرونة في كل ناحية من المطبخ. انبطحت تحت منضدة ضيّقة أمام الكانغ. كان يوجد جندي أمامها ولكنها أمسكته من ساقه وسحبته خارجاً. كانت جدتي مرعوبة. «ماذا لو استدار وضغط على الزناد»، همست ما أن ابتعدا عن الأسماع.

حتى المرحلة الأخيرة من الحصار، كان القصف دقيقاً بشكل مذهل. لم يُصَبْ إلا قليل من المساكن، ولكن السكان عانوا الحرائق الفظيعة التي كان القصف يشعلها، ولم يكن هناك ماء لإطفاء لهيبها. كانت السماء محجوبة تماماً بدخان كثيف أسود، والرؤية مستحيلة أبعد من بضع ياردات، حتى في النهار. كان هدير المدفعية يصمّ الآذان. وأمي تسمع الناس يولولون، ولكنها لم تتمكّن من أن تحدد أين هم، أو ماذا يجري.

في ١٤ تشرين الأول/أكتوبر، بدأ الهجوم الأخير. أخذ ٩٠٠ مدفع تقصف المدينة بلا انقطاع. واختبأت أغلبية أفراد العائلة في ملجأ مُرْتَجَل ضدّ الغارات الجوية، حفروه في وقت سابق. ولكن الدكتور شيا رفض أن يغادر البيت. جلس بهدوء على الكانغ في زاوية غرفته قرب النافذة، وراح يصلي بصمت لبوذا. ومرّ وقت تراكضت فيه داخل الغرفة أربع عشرة قطة. كان مغتبطاً. قال إن «المكان الذي تحاول قطة أن تختفي فيه مكان محظوظ». لم تدخل غرفته طلقة واحدة ـ وعاشت القطاط

كلها. الشخص الآخر الوحيد الذي رفض النزول إلى الملجأ كان أم جدتي، التي تكوّرت تحت طاولة البلوط إلى جنب الكانغ في غرفتها. وعندما انتهت المعركة، كانت اللحف والبطانيات السميكة التي تغطي المنضدة تبدو كالغربال.

في غمرة إحدى موجات القصف، أراد ابن يو ـ لن الصغير الذي كان في الملجأ أن يبول. أخذته أمه خارجاً، وبعد ثوان انهارت ناحية الملجأ التي كانت تجلس فيها. اضطرت أمي وجدتي إلى الصعود والاحتماء داخل البيت. جثمت أمي إلى جنب الكانغ في المطبخ، ولكن سرعان ما بدأت الشظايا تضرب جانب الكانغ المبني من الآجر وأخذ البيت يهتزّ. ركضت إلى الحديقة الخلفية. كانت السماء ملبدة بالدخان. والطلقات تتطاير في الهواء وترتدّ في كل مكان، متناثرة على الجدران. كان الصوت كالمطر المنهمر مدراراً، يختلط به صراخ وصياح.

في الساعات المبكرة من اليوم التالي، اندفعت مجموعة من جنود الكومنتانغ داخل البيت، يجرون معهم حوالي عشرين مدنياً مرعوباً من كل الأعمار ـ سكان الفناءات الثلاثة المجاورة. كان الجنود في حالة تقرب من الهستيريا. جاؤوا من موقع مدفعية في معبد عبر الشارع، كان أصيب لتوه بدقة متناهية، وكانوا يصرخون بالمدنيين أن أحدهم لا بدّ أنه كشف موقعهم. ظلّوا يصيحون أنهم يريدون أن يعرفوا من أعطى الإشارة. وحين لم ينطق أحد، خطفوا أمي ودفعوها إلى الحائط متَّهمينها. كانت جدتي مرعوبة، وسارعت إلى نبش بعض القطع الذهبية الصغيرة ودسّتها بأيدي الجنود. خرَّت والدكتور شيا راكعين وتوسّلا إلى الجنود أن يخلوا سبيل أمي. قالت زوجة يو ـ لن إن هذه كانت المرة الوحيدة التي رأت فيها الدكتور شيا يبدو خائفاً بحق. استعطف الجنود: «إنها ابنتي الصغيرة. أرجوكم أن تصدقوني، إنها لم تفعل ذلك...».

أخذ الجنود الذهب وأخلوا سبيل أمي، ولكنهم أدخلوا الجميع في غرفتين بالإكراه تحت تهديد الحراب وأغلقوا عليهم الغرفتين ـ لكي لا يرسلوا إشارات أخرى، كما قالوا. كان الظلام دامساً في الغرفتين، ومخيفاً جداً. ولكن أمي لاحظت بعد قليل أن حدّة القصف أخذت تخفّ. وتغيّر الضجيج في الخارج. وكان يختلط بأزيز الرصاص أصوات قنابل يدوية متفجّرة وصليل حراب مشتبكة. ارتفعت أصوات: «ألقوا سلاحكم وسنصون حياتكم!» ـ كانت هناك صرخات تجمّد الدم في العروق

وصيحات غضب وألم. ثم اقتربت الطلقات والصيحات أكثر فأكثر، وسمعت أصوات جَزمات، تقعقع على الحجارة المرصوفة، عندما هرب جنود الكومنتانغ أسفل الشارع.

في النهاية، هدأ الدوي قليلاً، فاستطاعت عائلة شيا أن تسمع طرقاً على البوابة الجانبية للبيت. ذهب الدكتور شيا بحذر إلى باب الغرفة وفتحه ببطء: لقد رحل جنود الكومنتانغ. ثم ذهب إلى بوابة البيت الجانبية وسأل: «مَنْ هناك؟». أجاب صوت: «نحن الجيش الشعبي. جئنا نحرّركم». فتح الدكتور شيا البوابة وأسرع بالدخول عدة رجال يرتدون بدلات فضفاضة. في الظلام، استطاعت أمي أن ترى أنهم يضعون مناشف بيضاء ملفوفة حول أكمامهم اليسرى كالأشرطة التي تربط حول الذراع، ويمسكون أسلحتهم في حالة استعداد، بحراب مثبّتة. قالوا: «لا تخافوا. لن نؤذيكم. فنحن جيشكم، جيش الشعب». قالوا إنهم يريدون تفتيش البيت للبحث عن جنود الكومنتانغ. لم يكن رجاءً، رغم أنه قيل بأدب. لم يقلب الجنود المكان رأساً على عقب، ولا طلبوا طعاماً أو سرقوا شيئاً. بعد التفتيش، رحلوا مودعين العائلة توديعاً مهذباً.

لم يتّضح أن الشيوعيين استولوا حقاً على المدينة، إلا عندما دخل الجنود البيت. كادت أمي تطير من الفرح. ولم تخذلها هذه المرة بزات الجنود الشيوعيين الممزقة، المعفرة بالغبار.

كل من لاذوا ببيت عائلة شيا، كانوا في شوق إلى العودة إلى بيوتهم، ليروا إن تضرّرت أو نهبت. بيت واحد، في الحقيقة، سُوِّي بالأرض، وقتلت فيه امرأة حامل بقيت هناك.

بعد فترة وجيزة من مغادرة الجيران، كانت هناك طرقة أخرى على البوابة الجانبية. فتحتها أمي: كان نصف دزينة من جنود الكومنتانغ مرعوبين يقفون هناك. كانوا في حالة يرثى لها، وكانت عيونهم ينهشها الخوف. سجدوا للدكتور شيا ولجدتي وتوسّلوا طالبين ملابس مدنية. عطفت عائلة شيا عليهم وأعطتهم بعض الملابس القديمة التي ارتدوها على عجل فوق بزاتهم ورحلوا.

عند طلوع ضوء اليوم التالي، فتحت زوجة يو ـ لن البوابة الأمامية. كانت هناك عدة جثث خارج البوابة مباشرة. أطلقت صرخة رعب وركضت عائدة إلى داخل البيت. سمعت أمي صرختها فخرجت لإلقاء نظرة. كانت الجثث متناثرة في كل

الشارع، كثير منها بلا رؤوس أو أطراف، وأخرى مندلقة أمعاؤها. كان بعضها مجرد كتل دموية. قطع من اللحم وأذرع وسيقان كانت تتدلى من أعمدة التلغراف. والمجاري المفتوحة كانت مسدودة بماء دامٍ ولحم بشري وأنقاض.

كانت المعركة من أجل جنجو معركة هائلة. فالهجوم الأخير دام ٣١ ساعة. وكان، من نواح عديدة، نقطة انعطاف الحرب الأهلية. قتل ٢٠ ألف جندي من جنود الكومنتانغ وأسر أكثر من ٨٠ ألفاً. أُخذ ثمانية عشر جنرالاً على الأقل أسرى، بينهم القائد الأعلى لقوات الكومنتانغ في جنجو، الجنرال فان هان ـ جي الذي حاول الهرب متنكّراً بزي مدني. وإذ غصّت الشوارع بأسرى الحرب في طريقهم إلى معسكرات مؤقتة، رأت أمي صديقة لها مع زوجها الضابط في الكومنتانغ، كلاهما يتلفع ببطانيات لاتّقاء برد الصباح.

كانت سياسة الشيوعيين أن لا يعدموا من ألقوا سلاحهم، وأن يحسنوا معاملة كل الأسرى. فإن من شأن هذا أن يساعد على كسب ودّ الجنود البسطاء الذين كانت أغلبيتهم من عوائل فلاحية فقيرة. لم يكن لدى الشيوعيين معسكرات اعتقال. لم يُبقوا في الأسر إلا الضباط ذوي الرتب المتوسطة والعالية، وصرفوا الباقين في الحال تقريباً. وكانوا يعقدون اجتماعات «مرّ الكلام» للجنود، كان الجنود يُشَجَّعون فيها على الحديث عن حياتهم الشاقة كفلاحين معدمين. قال الشيوعيون، إن الثورة قامت أصلاً لإعطائهم الأرض. وخيّر الجنود بين العودة إلى أهلهم، وفي هذه الحالة سيُعطَوْن أُجرتهم، أو البقاء مع الشيوعيين للمساعدة على سحق الكومنتانغ، بحيث لا يسلبهم أحد أرضهم مرة أخرى أبداً. اختارت أغلبيتهم البقاء والانضمام إلى جيش الشيوعيين طواعية. بعضهم، بالطبع، ما كانوا يستطيعون الوصول إلى أهلهم عملياً، وهناك حرب تدور رحاها. لقد تعلم ماو من الحروب الصينية القديمة، أن أشدّ الطرائق فاعلية للاستحواذ على الناس، هي غزو قلوبهم وعقولهم. ونجحت السياسة التي اتُبِعَت مع الأسرى نجاحاً منقطع النظير. وبعد معركة جنجو بصفة خاصة، كان جنود أكثر فأكثر من الكومنتانغ يُوقعون أنفسهم في الأسر بكل بساطة، واستسلم أكثر من ١,٧٥ مليون جندي من جنود الكومنتانغ، وانتقلوا إلى جانب الشيوعيين إبان الحرب الأهلية. وفي العام الأخير من الحرب الأهلية، كانت الخسائر في القتال تشكل أقل من ٢٠ في المئة من مجموع كل الجنود الذين خسرهم الكومنتانغ.

أحد القادة العسكريين الكبار الذين وقعوا في الأسر، كانت معه ابنته. كانت في مرحلة متقدمة من الحمل. سأل الضابط الشيوعي المسؤول إن كان يستطيع البقاء في جنجو معها. قال الضابط الشيوعي إنه ليس من المناسب أن يساعد الأب ابنته على الوضع، وإنه سيرسل «رفيقة» لمساعدتها. ظنّ ضابط الكومنتانغ أنه يقول ذلك لحمله على المسير فقط. فيما بعد، علم أن ابنته عوملت معاملة حسنة جداً، وأن «الرفيقة» كانت زوجة الضابط الشيوعي. كانت السياسة المتّبعة إزاء الأسرى، تجمع بشكل متداخل بين الحساب السياسي والاعتبار الإنساني، وكان هذا أحد العوامل الحاسمة في انتصار الشيوعيين. لم يكن هدفهم سحق جيش العدو فحسب، بل دفعه إلى التفكّك إن أمكن ذلك. ولقد هُزم الكومنتانغ بانهيار المعنويات بقدر ما هزموا بالقوة النارية.

كانت الأولوية العليا بعد المعركة، التنظيف، الذي أنجز القسم الأعظم منه جنود شيوعيون. وكان الأهالي أيضاً راغبين في المساعدة، لأنهم كانوا يريدون التخلّص من الجثث والأنقاض حول بيوتهم بأسرع وقت ممكن. وعلى امتداد أيام، كان في الإمكان رؤية قوافل طويلة من العربات المحمّلة بالجثث، وطوابير من الناس يحملون السلال على أكتافهم وهي تشقّ طريقها خارج المدينة. وحين أصبح من الممكن التنقّل من جديد، اكتشفت أمي أن كثيراً ممن كانت تعرفهم قتلوا. بعضهم نتيجة إصابات مباشرة، والبعض الآخر دفنوا تحت الأنقاض إثر انهيار مساكنهم.

في صباح اليوم التالي، بعد انتهاء الحصار، وضع الشيوعيون إعلانات تطلب من أهل المدينة أن يستأنفوا حياتهم الطبيعية بأسرع وقت ممكن. وعلق الدكتور شيا لافتته المزينة زينة بهيجة، ليبين أن متجر أدويته مفتوح ـ وقالت له الإدارة الشيوعية، فيما بعد، إنه كان أول طبيب في المدينة يفعل ذلك. وأعيد فتح أغلبية المتاجر في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر، رغم أن الشوارع لم تكن قد نظّفت بعد من الجثث. وبعد يومين، أُعيد فتح المدارس، وبدأت المكاتب تعمل بدوام عادي.

المشكلة الأشد إلحاحاً كانت الغذاء. وقد حضّت الحكومة الجديدة الفلاحين على المجيء وبيع المواد الغذائية في المدينة، وشجّعتهم على ذلك بتحديد أسعار تزيد مرتين على أسعار الريف. فانخفض سعر السرغوم انخفاضاً متسارعاً من ١٠٠ مليون دولار كومنتانغي للرطل الواحد إلى ٢٢٠٠ دولار. وسرعان ما كان في مقدور

العامل البسيط أن يبتاع أربعة أرطال من السرغوم بما كان يستطيع أن يكسبه في يوم واحد. وتلاشى الخوف من المجاعة. وقام الشيوعيون بتوزيع الحبوب والملح والفحم لإغاثة المعوزين. لم يفعل الكومنتانغ شيئاً من هذا قط، وهو ما ترك أثراً بالغاً في نفوس الأهالي.

الشيء الآخر الذي حاز رضا الأهالي كان انضباط الجنود الشيوعيين. ففضلاً عن عدم وقوع حوادث نهب أو اغتصاب، حرص كثيرون على إبداء سلوك نموذجي. وكان هذا يتعارض تعارضاً حادّاً مع سلوك جنود الكومنتانغ.

ظلّت المدينة في حالة تأهّب عالٍ. إذ كانت الطائرات الأميركية تحلّق مهدّدة. وفي ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر، حاولت قوات كبيرة من الكومنتانغ، دون نجاح، أن تسترد جنجو بعملية كماشة من هولوداو والشمال الشرقي. وبخسارة جنجو، استسلمت الجيوش الجرارة حول موكدِن وتشانغ تشون بسرعة. وفي ٢ تشرين الثاني/نوفمبر، كانت منشوريا كلها بأيدي الشيوعيين.

أثبت الشيوعيون كفاءة عالية في إعادة النظام وتحريك عجلة الاقتصاد من جديد. وأُعيد فتح البنوك في ٣ كانون الأول/ديسمبر، واستؤنف الإمداد بالتيار الكهربائي في اليوم التالي. وفي ٢٩ كانون الأول/ديسمبر، صدر بيان يعلن استحداث نظام إداري جديد للحارات، تحل فيه لجان السكان محل لجان الأحياء القديمة. وقدر لهذه أن تكون مؤسسة حاسمة في نظام الإدارة والمراقبة الشيوعي. وفي اليوم التالي، استؤنف الإمداد بالماء، وفي الحادي والثلاثين منه أُعيد فتح السكة الحديد.

تمكن الشيوعيون حتى من إنهاء التضخّم محددين سعر صرف مناسباً لتحويل نقود الكومنتانغ التي لا قيمة لها إلى عملة «السور العظيم» الشيوعية.

منذ اللحظة التي وصلت فيها القوات الشيوعية، كانت أمي تواقة إلى الانخراط في العمل من أجل الثورة. شعرت أنها جزء من القضية الشيوعية إلى حدّ بعيد. وبعد أيام من الانتظار على أحرّ من الجمر، فاتحها ممثل عن الحزب حدّد لها موعداً لرؤية المسؤول عن عمل الشبيبة في جنجو، الرفيق وانغ يو.

٦ ـ «الكلام عن الحب» ـ زواج ثوري (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩)

انطلقت أمي لرؤية الرفيق وانغ ذات صباح، في يوم خريفي لطيف، والخريف أجمل فصول السنة في جنجو. فقد انتهت حرارة الصيف، وبدأ الهواء يبرد، ولكن الجو كان لا يزال دافئاً بما يسمح بارتداء ملابس صيفية. وكان الريح والغبار اللذان تبتلى بهما المدينة شطراً كبيراً من العام، غائبين بصورة لذيذة.

كانت تلبس رداء أبيض فضفاضاً تقليدياً ووشاحاً حريرياً أبيض، وشعرها قصّ قصيراً لتوّه تماشياً مع الموضة الثورية الجديدة. وعندما دخلت فناء مقر الحكومة الإقليمية الجديدة، رأت رجلاً يقف تحت شجرة وظهره إليها، ينظف أسنانه على حافة مُسْتنبت للأزهار. انتظرته حتى انتهى من تنظيف أسنانه، وعندما رفع رأسه، رأت أنه في أواخر العشرينات من العمر، ذو وجه أدكن وعينين واسعتين، حزينتين. وتحت بزته الفضفاضة، كانت تستطيع أن ترى أنه نحيف، وقدرت أنه يبدو أقصر منها قليلاً. كان هناك شيء حالم فيه. فكرت أمي أنه شاعر. قالت: «رفيق وانغ، أنا شيا دي ـ هونغ من اتحاد الطلاب. وأنا هنا لتقديم تقرير عن عملنا».

كان «وانغ» الاسم الحركي للرجل الذي سيصبح أبي. دخل جنجو مع القوات الشيوعية قبل أيام. ومنذ أواخر ١٩٤٥، كان قائداً للمقاومين في المنطقة. وهو الآن مسؤول السكرتارية وعضو لجنة الحزب الشيوعي، التي تحكم جنجو، وقريباً سيعين مدير قسم الشؤون العامة في المدينة، المسؤول عن التعليم وحملة محو الأمية

والصحافة والتسلية والرياضة والشباب واستطلاع الرأي العام. لقد كان منصباً هاماً.

ولد عام ١٩٢١ في يي بين في الإقليم الجنوبي الغربي من سيشوان، على بُعد حوالي ١٢٠٠ ميل من جنجو. وتقع يي بِين التي كان عدد سكانها حينذاك زهاء ٣٠ ألفاً، في البقعة التي يلتقي فيها نهر «من» مع نهر «الرمل الذهبي»، ليشكلا نهر يانغ تزي، أطول نهر في الصين. والمنطقة المحيطة بيي بِين من أجزاء سيشوان الخصبة جداً، تُعرف باسم «هُري السماء»، والمناخ الدافىء، الضبابي في يي بِين، يجعلها مكاناً مثالياً لزراعة الشاي. والكثير من الشاي الأسود، الذي يستهلك في بريطانيا اليوم، يأتي من هناك.

كان أبي السابع بين تسعة أطفال. كان أبوه يعمل متمرناً لدى أحد صناع النسيج منذ سن الثانية عشرة. وعندما بلغ سن الرشد، قرّر مع شقيقه الذي كان يشتغل في المعمل نفسه، أن يفتحا مشروعاً خاصاً بهما. وفي غضون سنوات قليلة، أخذ عملهما يزدهر، وتمكنا من شراء بيت كبير.

ولكن معلمهما السابق كان غيوراً من نجاحهما، ورفع دعوى قضائية عليهما بتهمة سرقة المال منه لفتح مشروعهما. دامت القضية سبع سنوات واضطر الشقيقان إلى إنفاق كل أرصدتهما لتبرئة ساحتهما. وكان كل من له صلة بالمحكمة يبتز منهما المال، وكان جشع الموظفين لا يرتوي. وُضع جدي في السجن وكانت الطريقة الوحيدة لكي يتمكن شقيقه من إخراجه هي إقناع المعلم السابق بإسقاط الدعوى. ومن أجل ذلك، كان عليه أن يدفع ١٠٠٠ قطعة فضية. تسبب هذا بخرابهما، ومات عم أبي بعد ذلك بفترة وجيزة في سن الرابعة والثلاثين، من الكمد والإجهاد.

وجد جدي نفسه مسؤولاً عن أسرتين مكوّنتين من خمسة عشر نفساً. بدأ مشروعه من جديد، وفي أواخر العشرينات، أخذ يعمل بنجاح. ولكنه كان زمن اقتتال واسع النطاق بين أسياد الحرب، الذين كانوا كلهم يفرضون ضرائب باهظة. وأدى ذلك، مقترناً بآثار «الكساد العظيم»، إلى جعل إدارة معمل نسيج أمراً بالغ الصعوبة. وفي عام ١٩٣٣، مات جدي، من الإجهاد في العمل والتوتر، في سن الخامسة والأربعين. وبيع المعمل لتسديد الديون، وانفرط عقد العائلة، فأصبح البعض جنوداً، الأمر الذي كان يعد ملاذاً أخيراً إلى حد بعيد. وبالنظر إلى كل ما كان

يجري من قتال، كان من السهل أن يلاقي الجندي حتفه. وعثر الأشقاء وأبناء العم الآخرون على أعمال شتى، وتزوجت الفتيات على أحسن وجه ممكن. وكان على واحدة من بنات عم أبي، في الخامسة عشرة، وكان أبي شديد التعلّق بها، أن تتزوج مدمناً على الأفيون، يكبرها عقوداً من السنوات. وعندما جاءت المحفة لأخذها، ركض أبي وراءها لا يعرف إن كان سيراها ثانية ذات يوم.

كان أبي يعشق الكتب، وبدأ يتعلم قراءة النثر الكلاسيكي في الثالثة من العمر، الأمر الذي كان استثنائياً تماماً. وكان عليه أن يترك المدرسة في السنة التي مات فيها جدي. لم يكن إلاً في الثالثة عشرة، وكره اضطراره إلى قطع دراسته. كان عليه أن يجد عملاً، فغادر يي بِين في العام التالي، ١٩٣٥، وانحدر مع نهر يانغ تزي إلى تشونغ كِنغ، وهي مدينة كبيرة. وجد عملاً كمتمرن في محل بقالة، كان يعمل فيه اثنتي عشرة ساعة في اليوم. وكانت إحدى مهماته أن يحمل غليون معلمه المائي الضخم، لدى تنقله في أنحاء المدينة، مستلقياً على كرسي من الخيزران، يحمله رجلان على أكتافهما. كان الغرض الوحيد من ذلك أن يستعرض معلمه حقيقة أنه قادر على تشغيل خادم يحمل غليونه المائي، الذي كان من السهل وضعه على الكرسي. لم يكن أبي يحصل على أجر، بل مجرد سرير ووجبتين فقيرتين في اليوم. ولم يكن يحصل على وجبة عشاء، فكان يأوي إلى الفراش كل مساء ممغوصاً لخواء المعدة. لقد كان مسكوناً بالجوع.

كانت أخته الكبرى أيضاً تعيش في تشونغ كِنغ. تزوجت معلماً وجاءت أمهما للعيش معهما بعد موت زوجها. ذات يوم، كان أبي جائعاً حتى إنه من شدة الجوع دخل مطبخهما وأكل حبة بطاطس حلوة باردة. وحين اكتشفت أخته ذلك التفتت إليه وصاحت: «يكفيني ما أكابده في إعالة أمنا. لا أستطيع أن أطعم أخاً أيضاً». جُرح أبي بحيث إنه غادر البيت مسرعاً، ولم يعد قط.

طلب من معلمه أن يعطيه وجبة عشاء. لم يرفض معلمه ذلك فحسب، بل اخذ يشتمه. غادر أبي غاضباً، وعاد إلى يي بِين وعاش يمارس أعمالاً مختلفة، كمتمرن في متجر بعد آخر. كان يواجه المعاناة لا في حياته فحسب، بل في كل ما حوله. وكل يوم، في طريقه إلى العمل مشياً، كان يمر بشيخ يبيع خبزاً. كان الرجل العجوز الذي يجر قدميه بصعوبة بالغة، مقوس الظهر وضريراً. ولكي يلفت انتباه المارة، كان

يغني لحناً يقطع نياط القلب. وفي كل مرة يسمع أبي الأغنية، كان يقول في نفسه إن المجتمع يجب أن يتغير.

بدأ يبحث عن مخرج ما. وقد تذكر دائماً المرة الأولى التي سمع فيها كلمة «شيوعية»: كان في السابعة من العمر، في عام ١٩٢٨. كان يلعب قرب بيته عندما رأى أن حشداً كبيراً تجمع على مفترق طرق في الجوار. شقّ طريقه إلى المقدمة: رأى شاباً يجلس متربعاً على الأرض. كانت يداه موثوقتين وراء ظهره ويقف فوقه رجل قوي يحمل سيفاً عريضاً ضخماً. الغريب أنه سمح للشاب أن يتحدث بعض الوقت عن مُثُله، وعن شيء يسمى «الشيوعية». ثم أنزل الجلاد سيفه على مؤخرة عنقه. صرخ أبي وغطى عينيه. اضطرب حتى النخاع، ولكنه كان أيضاً شديد الإعجاب بشجاعة الرجل وهدوئه في مواجهة الموت.

في النصف الثاني من الثلاثينات، حتى في يي بِين النائية، المنقطعة، بدأ الشيوعيون ينظمون حركة سرية كبيرة. وكانت مهمتهم الرئيسية مقاومة اليابانيين. أما شيان كاي ـ شيك، فقد اعتمد سياسة لا مقاومة في مواجهة استيلاء اليابانيين على منشوريا وتجاوزاتهم المتزايدة على الأراضي الصينية نفسها، وركّز على محاولة إبادة الشيوعيين. رفع الشيوعيون شعار «الصيني يجب أن لا يقاتل الصيني»، وضغطوا على شيان كاي ـ شيك للتركيز على محاربة اليابانيين. وفي كانون الأول/ ديسمبر اختطف شيان على يد جنرالين من جنرالاته، أحدهما «المارشال الشاب» تشانغ هسويه ـ ليانغ، من منشوريا. وقد ساهم الشيوعيون بقسط في إنقاذه وساعدوا على إطلاق سراحه مقابل موافقته على تشكيل جبهة موحدة ضد اليابان. واضطر شيان كاي ـ شيك إلى القبول، وإن على مضض، لأنه كان يعرف أن هذا سيتيح للشيوعيين إمكان البقاء والتطور. فقد كان يقول: «إن اليابانيين مرض في الجلد. أما الشيوعيون فهم مرض في القلب». ورغم أنه كان يجب على الشيوعيين والكومنتانغ أن يكونوا حلفاء، فقد ظلّ على الشيوعيين أن يعملوا تحت الأرض في أغلبية المناطق.

في تموز/ يوليو ١٩٣٧، بدأ اليابانيون اجتياحهم للصين نفسها. وشعر أبي، مثل كثير غيره، بالسخط واليأس إزاء ما كان يحدث لوطنه. وفي ذلك الوقت تقريباً، بدأ يعمل في مكتبة تبيع مطبوعات يسارية. كان يلتهم الكتاب تلو الآخر ليلاً في المكتبة، حيث كان يعمل بمثابة حارس ليلي.

كان يستكمل ما يكسبه من المكتبة بعمل مسائي كـ «شارح» في إحدى دور العرض. كان الكثير من الأفلام أفلاماً أميركية صامتة. وكانت مهمته أن يقف إلى جنب الشاشة ويشرح ما يجري، لأن الأفلام لم تكن مدبلجة ولا مترجمة. كما انضم إلى فرقة مسرحية معادية لليابان، ولأنه كان شاباً نحيفاً بقسمات رقيقة، فقد كان يقوم بأدوار نسائية.

كان أبي يعشق الفرقة المسرحية. ومن خلال الصداقات التي عقدها هناك، اتصل أول مرة بالتنظيم الشيوعي السري. وكان موقف الشيوعيين من مقاتلة اليابانيين وبناء مجتمع عادل قد ألهب خياله، فانضم إلى الحزب في عام ١٩٣٨، عندما كان في السابعة عشرة. في ذلك الوقت، كان الكومنتانغ شديدي اليقظة إزاء أنشطة الشيوعيين في سيشوان. كانت نانجنغ، العاصمة، قد سقطت بأيدي اليابانيين في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٧، وعلى أثر ذلك، نقل شيان كاي ـ شيك حكومته إلى تشونغ كِنغ.

أطلقت هذه الخطوة موجة من النشاط البوليسي في سيشوان، وأُكرهت فرقة أبي المسرحية على حلّ نفسها. اعتُقِل البعض من أصدقائه، واضطر البعض الآخر إلى الفرار. شعر أبي بالإحباط إزاء عدم تمكنه من عمل شيء لوطنه.

قبل سنوات قليلة من ذلك، كان الشيوعيون قد مروا عبر أجزاء نائية من سيشوان في «مسيرتهم الكبرى»، مسافة ٦٠٠٠ ميل، التي قادتهم أخيراً إلى مدينة يَنان الصغيرة في الشمال الغربي. وكان أشخاص في الفرقة المسرحية يتحدثون كثيراً عن ينان بوصفها مكان علاقات رفاقية، لا يعرف الفساد ويعمل بكفاءة ـ حلم أبي. وفي بداية ١٩٤٠، انطلق في مسيرته الكبرى إلى ينان. توجّه أولاً إلى تشونغ كِنغ، حيث كتب نسيب له كان ضابطاً في جيش شيان كاي ـ شيك، رسالة لمساعدته على عبور المناطق التي يحتلها الكومنتانغ، واختراق الحصار الذي ضربه شيان كاي ـ شيك على ينان. استغرقت رحلته أربعة أشهر تقريباً. وكان وصوله في نيسان/ أبريل ١٩٤٠.

كانت ينان تقع في «سهل الأرض الصفراء»، في جزء ناءٍ وقاحل من شمال غرب الصين. وإذ كان أبرز ما فيها باغودا (معبد) من تسع طبقات، فإن قسماً كبيراً من المدينة كان يتألف من صفوف من الكهوف المحفورة في السفوح الصفراء. وقد اتخذ أبي من هذه الكهوف بيته لأكثر من خمس سنوات. وصل ماو تسي تونغ وقواته

المستنزَفَة بشدة إلى هناك في أوقات مختلفة خلال الفترة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦، في نهاية «المسيرة الكبرى»، وجعلها فيما بعد عاصمة جمهوريتهم. كانت ينان محاطة بأرض معادية. وكانت فضيلها الرئيسية نأيها الذي جعل من الصعب مهاجمتها.

بعد قضاء فترة قصيرة في مدرسة حزبية، طلب أبي الالتحاق بواحدة من أرقى مؤسسات الحزب سمعة، وهي «أكاديمية الدراسات الماركسية ـ اللينينية». كان امتحان القبول عسيراً بحق، ولكنه حل أولاً نتيجة قراءته حتى ساعات متأخرة من الليل في المكتبة في يي بِين. أصيب زملاؤه المرشحون بالذهول. فأغلبيتهم كانوا من المدن الكبيرة مثل شنغهاي، وكانوا ينظرون إليه باستهانة بوصفه جلفاً بعض الشيء. أصبح أبي أصغر زميل أبحاث في الأكاديمية.

كان أبي يعشق ينان. وجد الناس هناك مفعمين حماسة وتفاؤلاً، وهدفاً. وكان القادة الحزبيون يعيشون حياة بسيطة، مثل الآخرين، على نقيض صارخ مع مسؤولي الكومنتانغ. لم تكن ينان ديموقراطية ولكنها، بالمقابلة بالمكان الذي جاء منه، بدت جنة من العدل.

في عام ١٩٤٢، بدأ ماو حملة دعا فيها إلى انتقاد طريقة تصريف الأمور في ينان. وقامت مجموعة من الباحثين الشباب من الأكاديمية، يقودها وانغ شي ـ وي، وتضم أبي، بتعليق ملصقات ينتقدون فيها قادتهم، ويطالبون بقدر أكبر من الحرية وحق التعبير الفردي على نطاق أوسع. وقد أثار عملهم زوبعة في ينان، وجاء ماو نفسه لقراءة الملصقات.

لم يرق لماو ما رآه، وحوَّل الحملة إلى حملة لمطاردة الساحرات. اتهم وانغ شي ـ وي بأنه تروتسكيّ وجاسوس. وقال أي سي ـ كي، كبير شراح الماركسية في الصين وأحد قادة الأكاديمية، إن أبي، بوصفه الأصغر سناً في الأكاديمية، «ارتكب خطأً ساذجاً جداً». في وقت سابق، غالباً ما كان أي سي ـ كي يمتدح أبي بوصفه «عقلاً لامعاً وثاقباً». أُخضِع أبي وأصدقاؤه لانتقادات لاهوادة فيها، وأجبروا على ممارسة النقد الذاتي في اجتماعات مكثفة طيلة أشهر. قيل لهم إنهم سببوا فوضى في ينان، وأضعفوا وحدة الحزب والانضباط الحزبي، الأمر الذي يمكن أن ينال من القضية الكبرى المتمثلة في إنقاذ الصين من اليابانيين ـ ومن الفقر والظلم. وكان القادة

الحزبيون يغرسون فيهم مراراً وتكراراً الضرورة المطلقة للخضوع للحزب خضوعاً تاماً، من أجل مصلحة القضية.

أُغلقت الأكاديمية، وأُرسل أبي لتدريس التاريخ الصيني القديم لفلاحين نصف أميين، تحوّلوا إلى مسؤولين في «المدرسة الحزبية المركزية». ولكن المحنة حولته إلى مؤمن. ومثل كثير من الشباب الآخرين، وظّف حياته وإيمانه في ينان. لم يستطع أن يسمح لنفسه أن تصاب بالخيبة بسهولة. اعتبر معاملته معاملة قاسية، ليس مبررة فحسب، بل هي تجربة نبيلة ـ تطهير النفس لمهمة إنقاذ الصين. وكان يؤمن بأن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تحقيق ذلك، هي من خلال إجراءات انضباطية وربما جذرية، تشمل التضحية الشخصية الجسيمة وإخضاع الذات بالكامل.

كانت هناك أنشطة أقل تطلباً كذلك. فقد كان يطوف بالمناطق المحيطة، يجمع الشعر الشعبي، وتعلم أن يكون راقصاً رشيقاً ورائعاً في رقص القاعات على الطريقة الغربية، الذي كان شعبياً جداً في ينان ـ كان العديد من القادة الشيوعيين، بمن فيهم رئيس الوزراء اللاحق شو إن لاي، يستمتعون به. تحت التلال الترابية الجافة، كان يجري نهر اليان المتلوي، الأصفر صفرة دكناء، المليء بالطمي، وهو واحد من عشرات الأنهر التي تلتقي النهر الأصفر المهيب، وكان أبي يذهب للسباحة في أحيان كثيرة. كان يعشق العوم على ظهره، وهو يرنو إلى الباغودا الصلد البسيط.

كانت الحياة في ينان قاسية، ولكنها ممتعة. وفي عام ١٩٤٢، شدّد شيان كاي ـ شيك حصاره. وأصبحت إمدادات الغذاء والملبس والضروريات الأخرى قليلة بصورة حادة. ودعا ماو الجميع إلى حمل المعاول واستخدام دواليب الغزل وإنتاج السلع الضرورية بأنفسهم، أصبح أبي غزّالاً ممتازاً.

بقي أبي في ينان طوال فترة الحرب. ورغم الحصار، عزّز الشيوعيون سيطرتهم على مناطق واسعة، وخاصة في شمال الصين، وراء الخطوط اليابانية. وأحسن ماو الحساب: نال الشيوعيون متنفساً حيوياً. وبانتهاء الحرب، كانوا يدّعون نوعاً من السيطرة على ٩٥ مليون إنسان، يشكلون حوالي ٢٠ في المئة من السكان، في ثماني عشرة «منطقة قاعدية». وبالقدر نفسه من الأهمية، اكتسبوا خبرة في إدارة حكومة واقتصاد في ظروف شاقة. وقد خدمهم ذلك: كانت قدرتهم التنظيمية ونظامهم في السيطرة استثنائيين على الدوام.

في ٩ آب/أغسطس ١٩٤٥، اجتاحت القوات السوفياتية شمال شرق الصين. وبعد يومين، اقترح الشيوعيون الصينيون عليها التعاون العسكري ضد اليابانيين، ولكنهم قوبلوا بالرفض: كان ستالين يدعم شيان كاي ـ شيك. وفي ذلك اليوم نفسه، بدأ الشيوعيون الصينيون يأمرون الوحدات المسلحة والمستشارين السياسيين بدخول منشوريا، التي أدرك الجميع أنها ستكون ذات أهمية حاسمة.

بعد شهر من استسلام اليابانيين، صدرت إلى أبي أوامر بمغادرة ينان والتوجّه إلى مكان يسمى تشاويانغ، في جنوب غرب منشوريا، على بعدحوالي ٧٠٠ ميل إلى الشرق، قرب الحدود مع «منغوليا الداخلية».

في تشرين الثاني/نوفمبر، بعد السير على الأقدام شهرين، وصل أبي ومجموعته الصغيرة إلى تشاويانغ. كانت الأرض في غالبيتها تلالاً وجبالاً جرداء، تكاد تكون فقيرة فقر ينان. وكانت المنطقة، قبل ثلاثة أشهر، جزءاً من مانشوكوو. أعلنت مجموعة صغيرة من الشيوعيين «حكومة» خاصة بها. ثم فعل التنظيم السري للكومنتانغ الشيء نفسه. فجاءت القوات الشيوعية مسرعة من جنجو، على بُعد حوالي خمسين ميلاً، واعتقلت الحاكم الكومنتانغي، وأعدمته ـ بتهمة «التآمر لإسقاط الحكومة الشيوعية».

تسلمت مجموعة أبي مقاليد السلطة، بتفويض من ينان. وفي غضون شهر، بدأت إدارة حقيقية تعمل في منطقة تشاويانغ كلها، التي كان عدد سكانها يبلغ زهاء ١٠٠ ألف نسمة. وأصبح أبي نائب رئيسها. وكان من أول أعمال الحكومة الجديدة تعليق ملصقات تعلن سياساتها: الإفراج عن كل السجناء، غلق كل محلات الرهن ـ يمكن استرداد البضائع المرهونة مجاناً ـ وإغلاق المواخير ومنح العاهرات مخصصات معيشة لستة أشهر من أصحابها، وفتح كل مخازن الحبوب وتوزيع الحبوب على الأكثر عوزاً، ومصادرة كل ممتلكات اليابانيين والمتعاونين معهم، وحماية الصناعة والتجارة اللتين يملكهما صينيون.

كانت هذه السياسات سياسات شعبية للغاية. فقد كانت لمصلحة الفقراء الذين يكوّنون الأكثرية العظمى من السكان. ولم تكن تشاويانغ عرفت حتى حكومة جيدة على نحو معتدل. فقد استباحتها جيوش مختلفة في حقبة أسياد الحرب، واحتلها اليابانيون واستنزفوها طيلة عقد من الزمان.

بعد أسابيع قليلة من بدء أبي عمله الجديد، أصدر ماو أمراً إلى قواته بالانسحاب من كل المدن وطرق المواصلات الرئيسية المكشوفة، والتراجع إلى الريف ـ «إخلاء الطريق السريع واحتلال الأرض على جانبيه» و «تطويق المدن من الريف».

انسحبت وحدة أبي من تشاويانغ إلى الجبال. كانت منطقة خالية تقريباً من الزرع، باستثناء الأعشاب البرية وشجر بندق هنا وهناك وفاكهة برية. كانت درجات الحرارة تنخفض في الليل إلى حوالي ناقص ٣٠ درجة فهرنهايت مع عواصف ثلجية. ومَنْ يصادف خروجه في الليل دون دثار، يتجمد حتى الموت. لم يكن هناك غذاء من الناحية العملية. وبعد الفرحة برؤية اندحار اليابان وتمدد الشيوعيين أنفسهم إلى مساحات شاسعة من الشمال الشرقي، بدا أن انتصار الشيوعيين الظاهر أخذ يتحول إلى رماد في غضون أسابيع. وإذ قبع أبي ورجاله في كهوف وفي أكواخ فلاحين فقراء، كانوا في مزاج عكر.

كان الشيوعيون والكومنتانغ، على السواء، يناورون من أجل المواقع الأفضل استعداداً لاستئناف الحرب الأهلية على نطاق شامل. فأعاد شيان كاي ـ شيك عاصمته إلى نانجنغ، وبمساعدة الأميركيين، نقل أعداداً كبيرة من الجنود إلى شمال الصين، موجهاً إليهم أوامر سرية باحتلال كل المواقع الإستراتيجية في أسرع وقت ممكن. وأرسل الأميركيون جنرالاً كبيراً، هو جورج مارشال، إلى الصين، ليحاول إقناع شيان بتشكيل حكومة ائتلافية مع الشيوعيين، يكونون فيها شركاء صغاراً. وقد وقعت هدنة في ١٠ كانون الثاني/يناير ١٩٤٦، على أن تدخل حيّز التنفيذ في ١٣ كانون الثاني/يناير. وفي الرابع عشر منه، دخل الكومنتانغ تشاويانغ وبدأوا، في الحال، يكوّنون قوة بوليسية كبيرة وشبكة أمنية وفرقاً مسلّحة من ملاك الأرض المحليين. وإجمالاً، كوّنوا قوة يزيد قوامها على ٤٠٠٠ رجل لإبادة الشيوعيين في المنطقة. وبحلول شباط/فبراير، لاذ أبي ووحدته بالفرار متراجعين أعمق فأعمق إلى تضاريس أكثر وعورة. وفي القسم الأعظم من الوقت، كان عليهم أن يختفوا لدى أشد الفلاحين فقراً. وفي نيسان/أبريل، لم يبق مكان يهربون إليه، وكان عليهم الانقسام إلى مجموعات أصغر. كانت حرب العصابات الطريقة الوحيدة للبقاء. وفي نهاية المطاف، أقام أبي قاعدته في مكان يسمى «قرية العوائل الست»، في منطقة ريفية كثيرة التلال، حيث يبدأ نهر شياولنغ، على بعد حوالي ٦٥ ميلاً غرب جنجو.

كان لدى المقاتلين القليل جداً من السلاح. وكان عليهم أن يحصلوا على أغلبية أسلحتهم من الشرطة المحلية أو «يستعيروها» من قوات الملاّك. وكان المصدر الرئيسي الآخر عسكريين سابقين من أفراد جيش مانشوكوو وشرطتها، الذين حرص الشيوعيون على استمالتهم بصفة خاصة، لأسلحتهم وخبرتهم القتالية. كان المحور الرئيسي لسياسة الشيوعيين في منطقة أبي، تخفيض الإيجارات وأسعار الفائدة على قروض الفلاحين من الملاك. كما صادروا الحبوب والملابس من الملاك، ووزعوها على فقراء الفلاحين.

في البداية، كان التقدم بطيئاً، ولكن بحلول تموز/يوليو، عندما اكتمل نمو السرغوم، وحان موعد حصاده، وكان عالياً بما فيه الكفاية لإخفائهم، استطاعت الوحدات المختلفة من المقاتلين أن تلتقي لعقد اجتماع في «قرية العوائل الست»، تحت شجرة ضخمة كانت تحرس المعبد. وقد افتتح أبي الاجتماع بالإشارة إلى قصة روبن هود الصينية، «الهامش المائي»: «هذا «بهو العدل» عندنا. إننا هنا لكي نبحث كيف نخلص الشعب من الشر، وندافع عن العدالة باسم السماء».

كان رجال أبي يقاتلون بالدرجة الرئيسية في اتجاه الغرب، وكانت المناطق التي استولوا عليها تضم قرى عديدة مأهولة بالمنغول. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٦، مع اقتراب الشتاء، صعَّد الكومنتانغ هجماتهم. وذات يوم، كاد أبي يقع في الأسر بكمين. إلا أنه تمكَّن، بعد معركة حامية بالأسلحة النارية، من الإفلات. كانت ملابسه مقطعة إلى مِزَق، وكان قضيبه يتدلى خارج سرواله، مما أضحك رفاقه.

نادراً ما كانوا ينامون في مكان واحد ليلتين متتاليتين، وغالباً ما كان عليهم أن يتنقلوا عدة مرات في ليلة واحدة. لم يتمكنوا قط من نزع ملابسهم للمنام، وكانت حياتهم سلسلة متصلة من الكمائن وعمليات التطويق والإفلات منها. كان هناك عدد من النساء في الوحدة، وقرّر أبي نقلهنّ مع الجرحى وغير اللائقين إلى مكان أكثر أماناً ناحية الجنوب، قرب «السور العظيم». كان ذلك يقتضي القيام برحلة طويلة عبر مناطق يسيطر عليها الكومنتانغ. وأي صوت يمكن أن يعني الهلاك. لذا، أمر أبي بأن يُترك كل الرضع مع فلاحين محليين. إحدى النساء لم تتمكن من حمل نفسها على التخلي عن طفلها، وفي النهاية، قال لها أبي إن عليها أن تختار بين ترك الطفل أو المثول أمام محكمة عسكرية. فتركت الطفل.

في الأشهر التالية، تحركت وحدة أبي شرقاً، في اتجاه جنجو وخط السكة الحديد ذي الأهمية البالغة من منشوريا إلى الصين نفسها. قاتلوا في التلال غرب جنجو، قبل وصول الجيش الشيوعي النظامي. وشنّ الكومنتانغ عدداً من «حملات الإبادة» الفاشلة ضدهم. بدأت أعمال الوحدة تفعل مفعولها. كان أبي، وهو حينذاك في الخامسة والعشرين من العمر، معروفاً، حتى إن جائزة وضعت لمن يقبض عليه، وعلقت في منطقة جنجو كلها ملصقات تقول إنه «مطلوب». رأت أمي هذه الملصقات وبدأت تسمع الكثير عنه وعن رجاله من أقاربها في مخابرات الكومنتانغ.

عندما أُجبرت وحدة أبي على الانسحاب، عادت قوات الكومنتانغ واستردّت من الفلاحين الأغذية والملابس التي صادرها الشيوعيون من ملّاك الأرض. وفي حالات كثيرة، تعرض الفلاحون للتعذيب وقُتل البعض منهم، خاصة أولئك الذين أكلوا الغذاء ـ وقد أكلوه لأنهم كانوا يتضورون جوعاً ـ ولم يتمكنوا من إعادته.

في قرية «العوائل الست»، كان مالك أكبر الأراضي، واسمه جن تنغ ـ كوان، رئيس الشرطة أيضاً، واغتصب بوحشية العديد من النساء المحليات. هرب مع الكومنتانغ وقادت وحدة أبي الاجتماع الذي فتح بيته ومخزن حبوبه. وعندما عاد جن مع الكومنتانغ، أجبر الفلاحين على الزحف من أمامه وإعادة كل البضائع التي أعطاهم إياها الشيوعيون. ومن أكلوا الغذاء عُذبوا ودُمرت منازلهم. وأُحرق ببطء حتى الموت رجل رفض أن يسجد أو يعيد الغذاء.

في ربيع ١٩٤٧، بدأ ميزان القوى يتغير. وفي آذار/مارس، تمكنت مجموعة أبي من استعادة مدينة تشاويانغ. وسرعان ما كانت المنطقة المحيطة كلها بأيديهم. وللاحتفال بانتصارهم، أقيمت وليمة أعقبتها حفلة ترفيهية. كان أبي بارعاً في اختراع أحجيات من أسماء الناس، وجعله هذا موضع إعجاب كبير بين رفاقه.

أجرى الشيوعيون إصلاحاً زراعياً، حيث صادروا الأرض التي كان يملكها حتى ذلك الوقت عدد صغير من الملاك، وأعادوا توزيعها بالتساوي على الفلاحين. وفي قرية «العوائل الست»، رفض الفلاحون، في البداية، أن يأخذوا أرض جن تنغ ـ كوان، رغم أنه كان عندئذ رهن الاعتقال. ومع أنه كان تحت الحراسة، فقد كانوا ينحنون ويتذللون أمامه. زار أبي الكثير من العوائل الفلاحية، وعرف بالتدريج حقيقته

المروعة. حكمت حكومة تشاويانغ على جن بالإعدام رمياً بالرصاص، ولكن عائلة الرجل الذي أُحرق حتى الموت، بتأييد من عوائل ضحايا آخرين، عقدت العزم على قتله بالطريقة نفسها. وحين بدأت ألسنة اللهب تلسع جسمه، صرَّ جن أسنانه، ولم يسمع له أنين حتى مات. لم يمنع المسؤولون الشيوعيون الذين أُرسلوا لتنفيذ حكم الإعدام القرويين من تنفيس غضبهم. فعلى الرغم من أن الشيوعيين كانوا ضد التعذيب، نظرياً ومبدئياً، فقد قيل للمسؤولين أن لا يتدخلوا إذا أراد الفلاحون أن ينفِّسوا عن غضبهم بأعمال انتقامية جامحة.

إن أناساً مثل جن لم يكونوا مجرد ملاك أثرياء، بل كانت لديهم سلطة مطلقة واعتباطية، يمارسونها كما يحلو لهم على حياة السكان المحليين. لقد كانوا يُسمون، «إي ـ با» (مستبدين غاشمين).

في بعض المناطق، طال القتل ملاكاً عاديين كانوا يسمون «أحجاراً» ـ عقبات في طريق الثورة. وكانت السياسة المتبعة إزاء «الأحجار»: «عند الشك، أقتل». كان أبي يعتقد إن هذا خطأ، وكان يقول لمرؤوسيه، وللناس في الاجتماعات العامة، إن الذين أيديهم ملطخة بالدم على نحو لا يقبل الشك، هم وحدهم الذين ينبغي الحكم عليهم بالإعدام. وفي تقاريره إلى رؤسائه، كان يقول إن الحزب ينبغي أن يكون حريصاً على حياة البشر، وإن التمادي في الإعدامات ليس من شأنه إلاَّ الإساءة للثورة. وقد دفعت معارضة كثير من أمثال أبي القيادة الشيوعية إلى إصدار تعليمات عاجلة بوقف التجاوزات العنيفة في شباط/ فبراير ١٩٤٨.

كانت القوات الرئيسية لجيش الشيوعيين تقترب باستمرار من تشاويانغ. وفي أوائل ١٩٤٨، التحق مقاتلو أبي بالجيش النظامي. وأنيطت به مسؤولية جهاز لجمع المعلومات، يغطي منطقة جنجو ـ هولوداو. كانت مهمته أن يتابع انتشار قوات الكومنتانغ، وأن يراقب وضعها الغذائي. وكان كثير من معلوماته يأتي من عملاء داخل الكومنتانغ، بمن فيهم يو ـ وو. ومن هذه التقارير سمع بأمي للمرة الأولى.

إن الرجل النحيف، ذا النظرة الحالمة، الذي رأته أمي ينظف أسنانه في الفناء ذلك الصباح من تشرين الأول/ أكتوبر، كان معروفاً بين رفاقه المقاتلين بحرصه على النظافة. كان ينظف أسنانه بالفرشاة كل يوم، الأمر الذي كان بدعة، في نظر المقاتلين

الآخرين، والفلاحين في القرى التي قاتل فيها. وبخلاف جميع الآخرين، الذين كانوا يتمخطون ببساطة على الأرض، كان يستخدم منديلاً يغسله كلما أمكنه ذلك. ولم يكن يغمس قط منشفة وجهه في حوض الغسيل العام، كالجنود الآخرين، لأن أمراض العيون كانت منتشرة. كما كان معروفاً بحبه للفكر والكتاب، وكان دائماً يحمل معه مجموعات من الشعر الكلاسيكي، حتى في المعركة.

عندما رأت أمي ملصقات «المطلوب» أول مرة، وسمعت عن «قاطع الطرق» الرهيب هذا من أقاربها، كانت تستطيع أن تلاحظ إعجابهم به، فضلاً عن خوفهم. والآن، لم يخب ظنها في أن المحارب الأسطوري لم يبدُ شبيهاً بالمحاربين على الإطلاق.

كان أبي أيضاً يعرف بشجاعة أمي، والأشد غرابة من كل شيء، حقيقة أنها، وهي ابنة السابعة عشرة، كانت تصدر الأوامر إلى الرجال. فكر أنها امرأة تستحق الإعجاب ومتحررة، رغم أنه تخيلها تنيناً رهيباً كذلك. وسرَّه أن يجدها حلوة وذات أنوثة، بل مغناجاً. كانت عذبة اللسان ومقنعة على السواء، وكانت أيضاً دقيقة، وهذا شيء نادر في الصين. كانت هذه صفة بالغة الأهمية عنده، لأنه كان يكره الطريقة التقليدية المزوَّقة، اللامسؤولة، والمبهمة في الكلام.

لاحظت أنه يضحك كثيراً، وأن لديه أسناناً بيضاء لماعة، بخلاف أغلب المقاتلين الآخرين، الذين كانت أسنانهم غالباً بنّية ومتآكلة. كما استهواها حديثه. وقد وجدته متعلماً ومطلعاً ـ بالتأكيد ليس من النوع الذي يخلط بين فلوبير وموباسان.

عندما أخبرته أمي أنها حضرت لتقديم تقرير عن عمل اتحاد الطلاب، سألها أي كتب يقرأ الطلاب، أعطته أمي قائمة، وطلبت منه أن يأتي ويلقي عليهم بعض المحاضرات في الفلسفة الماركسية والتاريخ. وافق وسألها كم عدد الذين في مدرستها، فأعطته رقماً دقيقاً على الفور. ثم سألها عن نسبة الذين يؤيدون الشيوعيين بينهم، ومرة أخرى، أعطته في الحال تقديراً محسوباً بعناية.

بعد أيام قليلة، جاء ليبدأ دورة محاضراته. كما استعرض للطلبة أعمال ماو، وشرح البعض من نظريات ماو الأساسية، كان خطيباً ممتازاً، وكانت الفتيات، بمن فيهن أمي، مأخوذات به.

ذات يوم، أخبر الطلاب أن الحزب ينظم رحلة إلى هاربِين، عاصمة الشيوعيين

الموقتة، شمال منشوريا. كان الروس قد بنوا هاربين بمعظمها، وكانت معروفة بوصفها «باريس الشرق»، لشوارعها الواسعة ومبانيها المنمقة، ومتاجرها الأنيقة، ومقاهيها ذات النمط الأوروبي. صُورت الرحلة على أنها جولة سياحية، ولكن السبب الحقيقي وراءها، كان قلق الحزب من إقدام الكومنتانغ على محاولة استرداد جنجو، وأراد إجلاء المعلمين والطلاب المؤيدين للشيوعيين، فضلاً عن النخبة المهنية كالأطباء، من المدينة في حالة عودتها تحت الاحتلال ـ ولكنهم لم يكونوا يريدون إطلاق نواقيس الإنذار بقول ذلك. وكانت أمي وعدد من أصدقائها بين ١٧٠ شخصاً وقع عليهم الاختيار.

في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، توجهت أمي شمالاً بالقطار في حالة من التشوق العارم. وفي هاربين المكسوة بالثلج، بمبانيها الرومنسية القديمة، ومزاجها الروسي من الاكتئاب المتواصل والشعر، وقع أبي وأمي في الغرام. وكتب أبي بعض القصائد الجميلة لأمي هناك. لم تكن القصائد مكتوبة بأسلوب كلاسيكي أنيق جداً فحسب، الأمر الذي كان إنجازاً كبيراً، بل اكتشفت أمي أيضاً أنه خطاط جيد، فزاد ذلك من احترامها له.

في ليلة «السنة الجديدة»، دعا أبي أمي وصديقة لها إلى مقرّه. كان يعيش في فندق روسي قديم، كأنه خارج من إحدى حكايات الجن، بسطح ذي ألوان براقة وجملونات مزخرفة وأشكال دقيقة بالجص حول الشبابيك وعلى الشرفة. عندما دخلت أمي رأت قنينة موضوعة على مائدة. وكانت عليها كتابة بحروف أجنبية ـ شمبانيا. في الحقيقة لم يكن أبي قد تذوّق قط طعم الشمبانيا من قبل. قرأ عنها في الكتب الأجنبية ليس إلا.

حينذاك، عرف على نطاق واسع بين زملاء أمي من الطلاب، أن الاثنين عاشقان. وكانت أمي، بوصفها القائدة الطالبية، تذهب في أحيان كثيرة لتقديم تقارير مطولة إلى أبي، ولوحظ أنها لم تكن تعود إلاّ في ساعة متأخرة. كان لأبي عدة معجبات أخريات، بمن فيهن الصديقة التي كانت مع أمي تلك الليلة، ولكنها استطاعت أن ترى من طريقة نظرته إلى أمي، ودعاباته، وكيف كان يغتنم كل فرصة ليكونا قريبين جسدياً أحدهما من الآخر، أنه مُدلَّه بحبها. وعندما غادرت الصديقة نحو منتصف الليل، كانت تعرف أن أمي ستبقى هناك. وجد أبي ملاحظة تحت قنينة

الشمبانيا الفارغة: «واحسرتاه! لن يكون لدي سبب بعد الآن لشرب الشمبانيا. أرجو أن تكون قنينة الشمبانيا مملوءة لك دائماً».

في تلك الليلة، سأل أبي أمي إن كانت مرتبطة بأحد آخر. حدثته عن علاقاتها السابقة، وقالت إن الرجل الوحيد الذي أحبته حقاً كان ابن عمها «هو» ولكن الكومنتانغ أعدموه. وعملاً بقواعد الأخلاق الشيوعية الجديدة، التي تقضي، في قطيعة جذرية مع الماضي، بمساواة الرجل والمرأة، حدثها عن علاقاته السابقة. قال إنه أحب امرأة في يي بِين، ولكن العلاقة انتهت عندما غادر إلى ينان. كان لديه بضع صديقات في ينان، أيام كان مقاتلاً، ولكن الحرب جعلت من المتعذر حتى التوقف عندة فكرة الزواج. وكانت إحدى صديقاته السابقات ستتزوج من تشين بودا، رئيس قسم الأكاديمية، حيث عمل أبي في ينان، والذي ارتقى لاحقاً إلى مركز بالغ القوة بوصفه سكرتير ماو.

بعد الاستماع إلى أحاديث كل منهما الصريحة عن حياتهما السابقة، قال أبي إنه سيكتب إلى اللجنة الحزبية لمدينة جنجو، يطلب الإذن بـ «الكلام عن الحب» (تان ـ نيان ـ أي) مع أمي، لغرض الزواج. كانت تلك هي الطريقة المتبعة إلزامياً. وافترضت أمي أنها أشبه بطلب الإذن من رب العائلة، وفي الحقيقة، لقد كانت كذلك على وجه التحديد: الحزب الشيوعي كان البطريرك الجديد. تلك الليلة، بعد حديثهما، تلقت أمي هديتها الأولى من أبي، رواية روسية رومنسية، عنوانها «إنه الحب فحسب».

في اليوم التالي، كتبت أمي إلى أهلها تقول إنها التقت برجل تستلطفه كثيراً. لم تكن ردة الفعل الآنية من أمها والدكتور شيا تحمساً، وإنما توجّس، لأن أبي كان مسؤولاً، وسمعة المسؤولين كانت دائماً سيئة بين الصينيين البسطاء. فإلى جانب مفاسدهم الأخرى، كانت سلطتهم الاعتباطية تعني الاعتقاد بأن من المستبعد أن يعاملوا المرأة معاملة لائقة. وكان افتراض جدتي الآني أن أبي متزوج، ويريد أمي جارية له. فلقد تخطى سن الزواج بالنسبة إلى الرجال في منشوريا.

بعد حوالي شهر، قُدّر أنه يمكن أن تعود مجموعة هازبين إلى جنجو. وأبلغ الحزب أبي أن لديه الإذن بـ «الكلام عن الحب» مع أمي. تقدم رجلان آخران أيضاً بطلب الإذن، ولكن طلبيهما وصلا متأخرين. كان أحدهما ليانغ الذي كان مسؤولها

في التنظيم السري. وإذ خابت آماله طلب نقله بعيداً عن جنجو. ولم يتفوه هو ولا الرجل الآخر بكلمة واحدة عن نياتهما.

عاد أبي ليُبلَّغ أنه عُيّن رئيس قسم الشؤون العامة في جنجو. وبعد أيام، أخذته أمي إلى البيت لتقديمه إلى العائلة. وفي اللحظة التي دخل فيها، أدارت جدتي ظهرها له، وعندما حاول أن يحييها، رفضت أن ترد عليه. كان أبي أسمر وشديد النحافة ـ نتيجة المحن التي كابدها أيام كان مقاتلاً ـ وكانت جدتي مقتنعة بأنه تجاوز الأربعين، ولا بد أنه كان متزوجاً من قبل. وقد عامله الدكتور شيا بأدب، وإن كانت معاملته رسمية.

لم يمكث أبي طويلاً. وعندما غادر، انهمرت دموع جدتي مدراراً. ناحت قائلة، ما من مسؤول يمكن أن يكون طيباً بأي حال. ولكن الدكتور شيا أدرك، من خلال اللقاء مع أبي، ومن شروح أمي، أن الشيوعيين يمارسون رقابة محكمة على محازبيهم، بحيث إن مسؤولاً مثل أبي، لن يكون قادراً على الغش. لم تطمئن جدتي إلاً جزئياً: «ولكنه من سيشوان. كيف يعرفه الشيوعيون وهو من مكان بعيد كهذا؟».

واصلت هجومها بالظنون والانتقادات، ولكن بقية العائلة استلطفت أبي. وكان الدكتور شيا على علاقة طيبة به، وكان الحديث يطول ساعات بينهما. وأحبه كثيراً يو ـ لن وزوجته أيضاً. كانت زوجة يو ـ لن من عائلة فقيرة جداً. وأُكرِهت أمها على زواج تعيس، بعد أن راهن جدّها بها في لعبة ورق وخسر الرهان. واعتقل أخوها في حملة شنّها اليابانيون، وكان عليه أن يمضي ثلاث سنوات في عمل السخرة التي حطمت جسده.

منذ اليوم الذي تزوجت فيه يو ـ لن، كان عليها أن تنهض في الساعة الثالثة من صباح كل يوم، للبدء بتحضير وجبات الأكل المختلفة، من شتى الأصناف التي يتطلبها التقليد المانشوي المعقد. كانت جدتي تدير البيت، ورغم أنهما كانتا نظرياً بنتي جيل واحد، فإن زوجة يو ـ لن كانت تشعر بالدونية، لأنها وزوجها كانا يعتمدان على عائلة شيا. وكان أبي أول شخص حرص على معاملتها كند، فكان ذلك ابتعاداً كبيراً عن الماضي، وأعطى الزوجين عدة مرات تذاكر للسينما، كانت عندهما بمثابة احتفاء كبير. كان أبي أول مسؤول يلتقيانه لم يتظاهر بالأبهة، وكانت زوجة يو ـ لن بكل تأكيد تشعر أن الشيوعيين أحدثوا تحسناً كبيراً في الوضع.

بعد أقل من شهرين من العودة من هازبين، قدمت أمي وأبي طلب زواجهما.

كان الزواج، تقليدياً، عقداً يبرم بين عوائل، ولم يكن هناك قط تسجيل مدني أو شهادة زواج. الآن، صار الحزب رب العائلة لأولئك الذين «انضموا إلى الثورة». وكانت معاييره «٢٨ ـ ٧ ـ كتيبة ـ ١» ـ التي تعني ألا يقلّ عمر الرجل عن ٢٨ عاماً، وأن يكون عضواً في الحزب منذ سبع سنوات على الأقل، وبرتبة تعادل رتبة آمر كتيبة. وكان الـ «١» يشير إلى الشرط الوحيد الذي على المرأة أن تستوفيه، وهو أن تكون عملت للحزب فترة لا تقل عن العام. كان أبي في الثامنة والعشرين بحسب الطريقة الصينية في احتساب العمر (يكون العمر سنةً عند الولادة)، وكان عضواً في الحزب منذ ما يربو على عشر سنوات، وكان في منصب يعادل منصب نائب قائد فرقة. ورغم أن أمي لم تكن عضواً في الحزب، فإن عملها للتنظيم السري قُبل على أنه يستوفي المعيار «١»، ومنذ أن عادت من هازبين عملت متفرغة لمنظمة اسمها «اتحاد النساء»، كانت تُعنى بشؤون المرأة: كانت تشرف على تحرير الجواري، وإغلاق المواخير وتعبىء النساء لصناعة أحذية للجيش، وتنظم تعليمهن وتشغيلهن، وتطلعهن على حقوقهن، وتساعد على التوثق من عدم زواج المرأة ضد رغبتها.

كان «اتحاد النساء» حينذاك «وحدة عمل» أمي (دان ـ وي)، وهي مؤسسة خاضعة تماماً لسيطرة الحزب، وكان على كل واحد في المناطق الريفية أن ينتمي إليها، كانت تنظِّم عملياً كل ناحية من نواحي حياة الشغيل، كما في الجيش. وكان يجب على أمي أن تعيش في مقر الاتحاد، وكان عليها أن تحصل على إذن بالزواج، وقد ترك الاتحاد أمر ذلك لوحدة عمل أبي، لأنه كان مسؤولاً أعلى.

أصدرت اللجنة الحزبية لمدينة جنجو موافقتها المكتوبة على جناح السرعة، ولكن بسبب مركز أبي، كان يتعين أن تأتي الموافقة أيضاً من اللجنة الحزبية لإقليم غرب لياوننغ. وإذ افترض والداي عدم وجود مشكلة، حددا يوم العرس في ٤ أيار/ مايو، عيد ميلاد أمي الثامن عشر.

في ذلك اليوم، حزمت أمي فراشها وملابسها، وتهيأت للانتقال إلى مقر أبي. لبست رداءها الأبيض المفضل، ووشاحاً حريرياً أبيض. كانت جدتي ساخطة. إذ لم يُسمع بعروس تمشي إلى بيت العريس، بل على العريس أن يأتي بمحفة تحملها إليه. وأن تمشي المرأة إنما هو دليل على أنها بلا قيمة، وأن الرجل لا يريدها في الحقيقة.

«من يكترث لكل هذا الآن؟». قالت أمي وهي تربط فراشها. ولكن جدتي كانت أشد جزعاً إزاء فكرة أن ابنتها لن تُزف في عرس تقليدي رائع. فمنذ اللحظة التي تولد فيها البنت، تبدأ أمها في حفظ أشياء لجهازها. وحسب العادة المتبعة، كان جهاز عرس أمي يحوي دزينة من اللحف المغطاة بالساتان، والوسادات المطرزة ببط الماندارن، فضلاً عن ستائر وفرشة مزينة لسرير ذي أربع قوائم. ولكن أمي اعتبرت حفلة الزفاف التقليدية موضة عتيقة وزائدة على الحاجة. وكانت وأبي على السواء يريدان التخلص من طقوس كهذه، شعرا أنها لا تمت بصلة إلى أحاسيسهما. كان الحب الشيء الوحيد المهم عند هذين الثوريين.

سارت أمي وهي تحمل فراشها، إلى مسكن أبي. وكان، شأن كل المسؤولين، يعيش في المبنى الذي يعمل فيه، اللجنة الحزبية للمدينة، وقد أُسكن العاملون في صفوف من بيوت من طبقة واحدة ذات أبواب منزلقة، حول فناء كبير. عندما حل الغسق، وكانا على وشك الخلود إلى النوم، كانت أمي تنحني لخلع حذاء أبي عندما طُرق الباب. كان يقف هناك رجل، وسلم أبي رسالة من اللجنة الحزبية الإقليمية. كانت الرسالة تقول إنهما لا يستطيعان الزواج بعد. زمّت أمي شفتيها تعبيراً عن مدى تعاستها. أحنت رأسها، لامّةً فراشها بصمت، وغادرت بالعبارة البسيطة: «أراك فيما بعد». لم تكن هناك دموع، ولا ضجة، ولا حتى أي غضب مرئي. حُفرت تلك اللحظة في ذهن أبي على نحو لا يمحى. وعندما كنت طفلة كان يقول: «كانت أمك فاضلة جداً!». ثم، مازحاً، «كم تغيرت الأيام! أنتِ لا تشبهين أمك! لن تفعلي شيئاً كهذا ـ أن تنحني لنزع حذاء الرجل!».

كان سببُ التأخير أن اللجنة الإقليمية تشك في أمي بسبب علاقات عائلتها. استجوبوها بتفصيل مستفيض حول طريقة ارتباط عائلتها بأمن الكومنتانغ. قالوا لها إنها يجب أن تكون صادقة تماماً. كان الأمر مثل الإدلاء بإفادة في المحكمة.

كما كان عليها أن تفسر كيف طلب يدها كل ضابط من ضباط الكومنتانغ، ولماذا كانت علاقاتها ودية بهذا العدد الكبير من أعضاء «رابطة الشبيبة» الكومنتانغية. أشارت إلى أن أصدقاءها كانوا الأشد عداء لليابانيين، والأعلى وعياً اجتماعياً، وأنه عندما جاء الكومنتانغ إلى جنجو، في عام ١٩٤٥، اعتبَروا حكومة الصين. وأنها هي نفسها كان من الممكن أن تنضم إليهم، ولكنها كانت صغيرة جداً في الرابعة عشرة. وفي

الواقع أن معظم أصدقائها ما لبثوا أن انتقلوا إلى جانب الشيوعيين.

كان الحزب منقسماً: كان رأي لجنة المدينة أن أصدقاء أمي تصرفوا بدوافع وطنية، ولكن بعض القادة الإقليميين عاملوهم بريبة غير محددة الأجل. وطُلب من أمي أن «ترسم خطاً فاصلاً» بينها وبين أصدقائها. كان «رسم خط» بين الناس آلية أساسية ابتدعها الشيوعيون لتوسيع الفجوة بين مَنْ هم «منّا» ومن هم «خارجنا». لا شيء، ولا حتى العلاقات الشخصية كانت متروكة للمصادفة، أو يسمح لها بأن تكون مائعة. إذا كانت تريد الزواج، فعليها أن تكف عن رؤية أصدقائها.

ولكن الأشد إيلاماً لأمي، كان ما يجري مع هوي ـ غي، عقيد الكومنتانغ الشاب. ففي اللحظة التي رفع فيها الحصار، بعد النشوة الأولى بانتصار الشيوعيين، كانت رغبتها الأقوى أن تعرف إن كان بخير. ركضت كل الطريق عبر الشوارع المغسولة بالدم إلى قصر عائلة جي. لم يكن هناك شيء ـ لا شارع ولا بيوت، فقط كومة عملاقة من الأنقاض. لقد اختفى هوي ـ غي.

في الربيع، عندما كانت تستعد للزواج، اكتشفت أنه على قيد الحياة، سجين ـ وفي جنجو. ففي زمن الحصار، تمكن من الهرب جنوباً، وانتهى به المطاف في تيانجين. وعندما استولى الشيوعيون على تيانجين في كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، أُسر وتمت إعادته إلى جنجو.

لم يعتبر هوي ـ غي أسير حرب عادياً. وبسبب نفوذ عائلته في جنجو، أُدرِج ضمن فئة «الأفاعي في جحورها القديمة»، أي شخصيات محلية قوية راسخة المواقع. وكان هؤلاء مخطرين بصفة خاصة على الشيوعيين، لأنهم كانوا يتمتعون بولاء السكان المحليين، وكانت ميولهم المعادية للشيوعية تشكل تهديداً للنظام الجديد.

وثقت أمي بأن هوي ـ غي سيعامل معاملة منصفة، بعد معرفة ما فعله. وشرعت في الحال تتوسط له متشفعة. وكما كانت الطريقة المتبعة، فقد كان عليها أن تتكلم أولاً مع مسؤولها المباشر في وحدتها، «اتحاد النساء» الذي يرفع المناشدة إلى سلطة أعلى. لم تكن أمي تعرف من له الكلمة النهائية. ذهبت إلى يو ـ وو الذي كان يعرف صلتها بهوي ـ غي، بل كان يوجهها، وطلبت منه أن يزكي العقيد. كتب يو ـ وو تقريراً يصف فيه ما فعله، ولكنه أضاف أنه ربما كان مدفوعاً بحبه لأمي، وأنه ربما لم

يكن يعرف أنه يساعد الشيوعيين، لأن الحب أعماه.

ذهبت أمي إلى قيادي آخر في التنظيم السري، كان يعرف ما فعله العقيد. وقد رفض هو أيضاً أن يقول إن هوي ـ غي كان يساعد الشيوعيين. في الواقع، إنه لم يكن مستعداً لذكر دور العقيد في إيصال المعلومات إلى الشيوعيين بتاتاً، ليستأثر بالفضل كله لنفسه. قالت أمي إنها والعقيد لم يكونا عاشقين، ولكنها لم تتمكن من تقديم أي دليل على ذلك. ذكرت الطلبات والوعود المبطنة التي مرّت بينهما، ولكن هذه اعتبرت مجرد دليل على أن العقيد كان يحاول أن يشتري «ضمانة» تؤمنه، الأمر الذي كان الحزب ينظر إليه في ارتياب على نحو خاص.

كل هذا كان يجري في وقت كانت أمي وأبي يستعدان فيه للزواج، وقد ألقى ظلاً كثيفاً على علاقتهما. ولكن أبي تعاطف مع مأزق أمي، ورأى أن هوي ـ غي ينبغي أن يعامل بإنصاف. ولم يؤثر في حكمه أن جدتي كانت تفضل العقيد صهراً لها.

بعد أسبوعين، وصلت أخيراً الموافقة على المضي في الزواج. كانت أمي في اجتماع لاتحاد النساء، عندما دخل أحدهم ودسّ ورقة في يدها. كانت الورقة من المسؤول الحزبي للمدينة، لِن شياو ـ شيا، الذي كان ابن عم الجنرال الكبير، الذي قاد القوات الشيوعية في منشوريا، لِن بياو. كانت الملاحظة منظومة شعرياً وقالت ببساطة: «أصدرت السلطات الإقليمية موافقتها. ولا شك في أنك لا تريدين البقاء عالقة في اجتماع. تعالي بسرعة وتزوجي!».

حاولت أمي أن تبدو هادئة، عندما تقدمت وأعطت الملاحظة إلى رئيسة الاجتماع، التي هزّت رأسها بالموافقة على مغادرتها. ركضت كل الطريق إلى مسكن أبي، وهي لا تزال ترتدي «بدلة لينين» الزرقاء، وهي زي لموظفي الحكومة بسترة مزدوجة الصدر، مثنية إلى الداخل عند الخصر، وتُلبس على سروال فضفاض. عندما فتحت الباب، رأت لن شياو ـ شيا والقادة الحزبيين الآخرين وحراسهم، الذين وصلوا لتوهم. قال أبي إن عربة أُرسلت للدكتور شيا. وسأل لِن: «وماذا عن حماتك؟». لم يقل أبي شيئاً. «ليس هذا صحيحاً»، قال لن وأمر بإرسال عربة لها. شعرت أمي أنها جُرحت في الصميم، ولكنها عزت تصرف أبي إلى مقته لعلاقات جدتي بمخابرات الكومنتانغ. فكرت، مع ذلك هل الذنب ذنب أمها؟ لم يخطر ببالها أن تصرف أبي

ربما كان ردة فعل لطريقة معاملة أمها له.

لم يكن هناك حفلة زفاف من أي نوع، مجرد لقاء صغير. تقدم الدكتور شيا لتهنئة الزوجين. وجلس الجميع بعض الوقت يأكلون سرطانات طازجة هيأتها لجنة المدينة الحزبية، في استضافة خاصة منها. كان الشيوعيون يحاولون إشاعة نظرة متقشفة إلى الأعراس، التي كانت تقليدياً مناسبة للإنفاق الباذخ، يفوق بكثير ما يستطيع الناس تحمله. ولم يكن خارجاً عن المألوف أن تحكم عوائل على نفسها بالإفلاس لإقامة عرس باذخ. تناول أبي وأمي التمر والفول السوداني اللذين كانا يقدمان في الأعراس في ينان، وفاكهة مجففة اسمها «لونغان»، ترمز تقليدياً إلى الرفاء والبنين. بعد وقت قصير، غادر الدكتور شيا وأغلبية الضيوف. وحضرت مجموعة من اتحاد النساء في وقت لاحق، بعد انتهاء اجتماعهن.

لم تكن لدى الدكتور شيا وجدتي فكرة عن الزواج، ولا سائق العربة الأولى أخبرهما. كل ما سمعته جدتي أن ابنتها على وشك الزواج، عندما وصلت العربة الثانية. وحين أسرعت عبر الممر، ولاح منظرها من خلال النافذة، بدأت النسوة من اتحاد النساء يتهامسن ثم أسرعن بالمغادرة من الباب الخلفي. أبي أيضاً غادر. وكانت أمي على وشك البكاء. كانت تعرف أن نساء المجموعة يحتقرن جدتي، لا بسبب علاقاتها بالكومنتانغ فحسب، بل لأنها كانت جارية أيضاً. فكثير من الشيوعيات من أصول فلاحية غير متعلمة، لم يكنَّ قد تحرّرن من هذه القضايا، وكن أسيرات أساليبهن التقليدية. وعندهن ما من فتاة طيبة تصبح جارية ـ رغم أن الشيوعيين قضوا بأن للجارية وضع الزوجة، وتستطيع فسخ «الزواج» من جانب واحد. وهؤلاء النساء من الاتحاد كان أولى بهن، على وجه التحديد، أن ينفذن سياسة الحزب في التحرر.

تسترت أمي على الأمر قائلة لأمها إن عريسها كان مضطراً إلى العودة إلى العمل: «ليس من عادة الشيوعيين منح الناس إجازة للزواج. في الواقع، أنا نفسي عائدة إلى العمل». رأت جدتي أن الخفة التي يعامل بها الشيوعيون حدثاً كبيراً مثل الزواج أمر غريب تماماً، ولكنهم خرقوا قواعد كثيرة تتعلق بالقيم التقليدية، ولعل هذه مجرد قاعدة أخرى يخرقونها.

في ذلك الحين، كانت إحدى مهمات أمي تعليم القراءة والكتابة للنساء في معمل النسيج، حيث عملت في ظل اليابانيين، وإطلاعهن على مساواة المرأة بالرجل. كان

المعمل لا يزال ملكية خاصة، وكان أحد مراقبي العاملات ما زال يضرب العاملات كلما شاء. وقامت أمي بدور كبير في طرده، وساعدت العاملات على انتخاب مراقبهن. ولكن أي فضل قد يسجل لها على تحقيق ذلك، كان يطمسه استياء «الاتحاد» لأمر آخر.

كان من المهمات الرئيسية لاتحاد النساء صنع أحذية قطنية للجيش. ولم تكن أمي تعرف صنع الأحذية، فانبرت أمها وخالاتها يفعلن ذلك. فقد تربين صانعات أحذية مطرزة بدقة، وقدمت أمي باعتزاز لاتحاد النساء عدداً كبيراً من الأحذية جميلة الصنع، تزيد على الحصة بكثير. ومما أثار دهشتها أنها وُبِّخت كما يوبَّخ الطفل بدلاً من الثناء عليها لإبداعها. فالنساء الفلاحات في الاتحاد، لم يستطعن أن يتصورن وجود امرأة على وجه الأرض لا تعرف صنع الأحذية. كان ذلك كالقول إن أحداً ما لا يعرف كيف يأكل. وانتُقِدت في اجتماعات الاتحاد لـ «انحطاطها البورجوازي».

لم تنسجم أمي مع بعض مسؤولاتها في اتحاد النساء. فقد كنّ أكبر سناً، محافظات، ومعاديات لبنات المدينة الحلوات المتعلمات، مثل أمي التي اجتذبت الرجال الشيوعيين في الحال. طلبت أمي الانضمام إلى الحزب، ولكنهن قلن إنها غير جديرة.

كلما كانت أمي تذهب إلى أهلها، تجد نفسها موضع انتقاد. وكانت تُتهم بكونها «شديدة التعلق بعائلتها»، الأمر الذي كان مداناً بوصفه «عادة بورجوازية»، وكان عليها أن تقلل أكثر فأكثر من رؤية أمها.

كانت هناك قاعدة غير مكتوبة تقول إن ما من ثوري يستطيع أن يمضي الليلة بعيداً عن مكتبه أو مكتبها إلاَّ أيام السبت. وكان المكان المخصّص لنوم أمي يوجد في «اتحاد النساء»، الذي يفصله سور طيني واطىء عن مسكن أبي. وفي الليل كانت تتسلق السور وتعبر حديقة صغيرة إلى غرفة أبي، وتعود إلى حجرتها قبل الفجر. وسرعان ما اكتُشف أمرها، وانتُقِدت مع أبي في الاجتماعات الحزبية. شرع الشيوعيون في إعادة تنظيم جذرية، لا للمؤسسات فحسب، بل لحياة الناس أيضاً، لا سيما حياة من «انضموا إلى الثورة». كانت الفكرة أن كل شيء شخصي هو سياسي. في الحقيقة، لا شيء، بعد الآن، كان يعتبر «شخصياً» أو خاصاً. وأُضفيت على

التفاهة شرعية بإلصاق لافتة «السياسي» عليها، وأصبحت الاجتماعات المنبر الذي كان الشيوعيون يمررون عبره كل صنوف الأحقاد الشخصية.

كان على أبي أن ينتقد نفسه شفهياً، وأمي كتابة. قيل إنها «وضعت الحب أولاً»، في حين أن الأولوية ينبغي أن تكون للثورة. شعرت بحيف شديد. أي ضرر يمكن أن يلحق بالثورة إذا أمضت الليلة مع زوجها؟ كانت تستطيع أن تفهم مبرر مثل هذه القاعدة أيام حرب العصابات، ولكن ليس الآن. لم تكن تريد أن تكتب نقداً ذاتياً، وأخبرت أبي بذلك. وراعها أنه عنَّفها قائلاً: «إن الثورة لم تنتصر، فالحرب ما زالت مستمرة، ونحن خرقنا القواعد، وينبغي أن نعترف بالأخطاء. والثورة تحتاج إلى انضباط حديدي. وعليك أن تطيعي الحزب، حتى إذا كنت لا تفهمينه، أو لا تتفقين معه».

بعد ذلك بفترة قصيرة، نزلت الكارثة من سماء صافية. فقد حاول الانتحار شاعر اسمه «بيان»، كان ضمن الوفد إلى هاربين، وأصبح صديقاً حميماً لأمي. كان«بيان» من أتباع مدرسة «القمر الجديد» في الشعر، التي كان من كبار دعاتها هو شي الذي أصبح سفير الكومنتانغ إلى الولايات المتحدة. وكانت تركز على الجماليات والشكل، متأثرة على الأخص بالشاعر «كيتس». انضم «بيان» إلى الشيوعيين خلال الحرب، ولكنه وجد أن شعره اعتبر غير متناغم مع الثورة، التي تريد دعاية، لا تعبيراً عن الذات. قَبِل ذلك على مضض، ولكنه كان أيضاً شديد التمزق والاكتئاب. بدأ يشعر أنه لن يتمكن أبداً من الكتابة ثانية، ولكنه، كما قال، لا يستطيع أن يحيا من دون شعره.

هزّت محاولته الانتحار الحزب. فقد كان ضاراً بسمعته أن يفكر الناس أن أحداً يمكن أن يخيب أمله بـ «التحرير» بحيث يحاول قتل نفسه. كان «بيان» يعمل في جنجو معلماً في مدرسة للمسؤولين الحزبيين، الذين كان العديد منهم أميين. وأجرت المنظمة الحزبية في المدرسة تحقيقاً، وخرجت بنتيجة تقول إن «بيان» حاول الانتحار بسبب حب لم يكن متبادلاً ـ مع أمي. وأوحى اتحاد النساء في اجتماعاته النقدية، بأن أمي أغوت بيان، ثم صدَّت عنه من أجل جائزة أكبر، هي أبي.

استشاطت أمي غضباً، وطالبت برؤية القرائن التي تثبت الاتهام. بالطبع، لم تقدم أية قرائن.

في هذه القضية، وقف أبي إلى جانب أمي. كان يعرف أنه خلال الرحلة إلى

هازبين، حين كان يقدر أن أمي كانت تلتقي في مواعيدها مع بيان، كانت مغرمة به وليس بالشاعر. ورأى بيان يقرأ قصائده لأمي، وكان يعرف أن أمي معجبة به، ولم يعتقد أن في هذا ما يضير. ولكن لا هو، ولا أمي تمكنا من وقف سيل الأقاويل. وكانت النساء في الاتحاد خبيثات بصفة خاصة.

في ذروة حملة الهمس هذه، سمعت أمي أن مناشدتها في التوسط من أجل هوي ـ غي قد رفضت. كانت لا تعرف ما تفعل بسبب العذاب. إذ إنها وعدت هوي ـ غي، وشعرت الآن أنها ضللته بطريقة ما. كانت تزوره بانتظام في السجن، حاملة إليه أنباء جهودها لإعادة النظر بقضيته، ورأت أن من غير المعقول أن لا يحفظ الشيوعيون حياته. كانت متفائلة بصدق، وحاولت التهوين عليه. ولكن هذه المرة، عندما رأى وجهها، أحمر العينين ومشوهاً من الإجهاد لإخفاء يأسها، عرف أنه لم يكن هناك أمل. بكيا معاً جالسين على مرأى من الحراس، تفصل بينهما طاولة، كان عليهما أن يضعا أيديهما عليها. أخذ هوي ـ غي يدي أمي في يديه، وهي لم تسحبهما.

كان أبي مطلعاً على زيارات أمي إلى السجن. وفي البداية، لم يقل شيئاً. كان متعاطفاً مع حيرتها. ولكنه بالتدريج أصبح حانقاً. كانت الفضيحة الناجمة عن محاولة «بيان» الانتحار في ذروتها، والآن زُعم أن زوجته على علاقة بعقيد في الكومنتانغ ـ وكانا لا يزالان، في شهر العسل! استبدّ به الغضب، ولكن مشاعره الشخصية لم تكن العامل الحاسم في قبوله بموقف الحزب من العقيد. قال لأمي إنه إذا عاد الكومنتانغ سيكون أمثال هوي ـ غي أول من يستخدمون هيبتهم للمساعدة على عودتهم إلى السلطة. وقال إن الشيوعيين لا يستطيعون أن يخاطروا بذلك: «ثورتنا قضية حياة أو موت». عندما حاولت أمي أن تخبره كيف ساعد هوي ـ غي الشيوعيين، ردّ أن زياراتها الى السجن لم تعد على هوي ـ غي بأي نفع، وخاصة تشابك الأيادي بينهما. فمنذ زمن كونفوشيوس، كان على الرجال والنساء أن يكونوا متزوجين، أو على الأقل عشاقاً، لكي يتلامسوا في الأماكن العامة، حتى في هذه الأحوال، كان ذلك نادراً للغاية. وقد اعتبر أن تشابك أيدي أمي وهوي ـ غي دليلاً على أنهما كانا عاشقين، وأن خدمة هوي ـ غي للشيوعيين لم تكن مدفوعة بأسباب «صحيحة». وجدت أمي صعوبة في الاختلاف معه، ولكن ذلك لم يخفف من شعورها بالتعاسة.

اشتد إحساسها بالوقوع في مآزق مستحيلة، بسبب ما كان يحدث للعديد من

ذويها والكثير من القريبين إليها. عندما وصل الشيوعيون أعلنوا أن على كل من عمل لمخابرات الكومنتانغ أن يراجعهم على الفور. وخالها يو ـ لن لم يعمل قط في المخابرات، ولكن كانت لديه بطاقة من المخابرات، وشعر بأن عليه إبلاغ السلطات الجديدة. حاولت زوجته وجدتي أن تثنياه، ولكنه رأى أن من الأسلم قول الحقيقة. كان في موقف صعب. فإذا لم يسلم نفسه واكتشف الشيوعيون حقيقته، وكان ذلك محتملاً جداً، نظراً إلى تنظيمهم المحكم، فإن من شأن ذلك أن يوقعه في متاعب مضنية. ولكن بحضوره أمامهم، كان يعطيهم مسوغات للاشتباه فيه.

كان حكم الشيوعيين: «لديه لطخة سياسية في ماضيه. لن يعاقب، ولكن لا يمكن تشغيله إلاً تحت المراقبة». هذا الحكم، شأنه شأن كل الأحكام الأخرى تقريباً، لم يصدر عن محكمة، وإنما عن هيئة حزبية. ولم يكن هناك تحديد واضح لما يعنيه، ولكن نتيجة له، اعتمدت حياة يو ـ لن لثلاثة عقود من الزمان على المناخ السياسي وعلى رؤسائه الحزبيين. وفي تلك الأيام، كانت في جنجو لجنة حزبية للمدينة متساهلة نسبياً، وسمح له بالاستمرار في مساعدة الدكتور شيا في المتجر.

نُفي زوج أخت جدتي «ولاء» بي ـ أو إلى الريف لممارسة العمل اليدوي. ولأن يده لم تكن ملطخة بالدماء، صدر عليه حكم يسمى «تحت المراقبة». وبدلاً من سجنه، كان هذا يعني حراسته (بالقدر نفسه من الفاعلية) في المجتمع. واختارت عائلته الذهاب إلى الريف معه، ولكن قبل أن يتمكنوا من الرحيل، تعين على «ولاء» دخول المستشفى. فقد كان أصيب بمرض زهري. وكان الشيوعيون شنّوا حملة واسعة للقضاء على الأمراض الزهرية. وكان لزاماً على كل مصاب بها أن يخضع للعلاج.

دام عمله «تحت المراقبة» ثلاث سنوات. وكان أقرب إلى تكليف السجين بعمل، مقابل تعهده بعدم الهروب. كان الواقعون تحت المراقبة يتمتعون بقدر من الحرية، ولكن عليهم التسجيل لدى الشرطة بين فترات منتظمة، مع تقرير مفصل عن كل ما فعلوه أو حتى ما فكروا فيه منذ حضورهم آخر مرة، وكانت الشرطة تراقبهم علانية.

وحين ينهون مدتهم تحت المراقبة الرسمية، ينضمون إلى آخرين مثل يو ـ لن ضمن فئة أكثر تراخياً، هي فئة المراقبة «الهادئة». وكان أحد الأشكال الشائعة لذلك،

«السندويش» ـ أن يكون تحت المراقبة الشديدة التي يمارسها جاران كُلفا تحديداً بهذه المهمة، يسميان في أحيان كثيرة «أحمرين بينهما أسود». وبالطبع كان الجيران الآخرون أيضاً يحق لهم ـ ويجري تشجيعهم ـ من خلال لجان السكان، أن يبلغوا عن «الأسود» غير الموثوق ويشوا به. لقد كانت «عدالة الشعب» عدالة محكمة، وأداة مركزية من أدوات الحكم، لأنها كانت تشرك الكثير من المواطنين في تواطؤ فعال مع الدولة.

حكم على جو ـ غي، ضابط المخابرات الذي تزوج الآنسة تاناكا، معلمة أمي اليابانية، بالأشغال الشاقة مدى الحياة، ونُفي إلى منطقة حدودية نائية (أفرج عنه في عفو صدر عام ١٩٥٩ مع الكثير من مسؤولي الكومنتانغ السابقين). وأعيدت زوجته إلى اليابان. وكما في الاتحاد السوفياتي، فإن كل المحكوم عليهم بالحبس تقريباً، لم يكونوا يذهبون إلى السجن، وإنما إلى معسكرات عمل، حيث غالباً ما يؤدون أعمالاً مخطرة أو يعملون في مناطق شديدة التلوث.

أفلت من العقاب بعض شخصيات الكومنتانغ، بمن فيهم رجال في المخابرات. فالمشرف الأكاديمي في مدرسة أمي كان سكرتير الكومنتانغ في المنطقة، ولكن كانت هناك أدلة على أنه ساعد على إنقاذ حياة الكثير من الشيوعيين ومؤازريهم، بمن فيهم أمي، فتم الإفراج عنه.

تمكنت المديرة ومعلمان، كانوا يعملون لحساب المخابرات، من الاختباء ثم الهرب في النهاية إلى تايوان. وهكذا فعل ياو ـ هان، المشرف السياسي، الذي كان مسؤولاً عن اعتقال أمي.

كما عفا الشيوعيون عن رؤوس كبيرة مثل «الأمبراطور الأخير» بو يي، وجنرالات كبار ـ لأنهم كانوا «مفيدين». إذ كانت سياسة ماو المعلنة: «أننا نقتل شيان كاي ـ شيكات صغاراً، لا نقتل شيان كاي ـ شيكات كباراً». وكان تعليله يذهب إلى أن الإبقاء على أمثال بو يي «سيكون له صدى إيجابي في الخارج». ولم يتمكن أحد من الاحتجاج على هذه السياسة علناً، ولكنها كانت سبباً لقدر كبير من الاستياء في المجالس الخاصة.

كان زمناً حافلاً بالكثير من التوجّس بالنسبة إلى عائلة أمي. فإن خالها يو ـ لن

وخالتها لان، التي ارتبط مصيرها ارتباطاً لا فكاك منه بمصير زوجها «ولاء»، كانا في حالة من الشك الحاد في شأن مستقبليهما، وكانا يعانيان العزل. ولكن الاتحاد النسائي كان يأمر أمي بأن تكتب النقد الذاتي تلو الآخر، لأن حزنها كان يشير إلى أن «لديها نقطة ضعف إزاء الكومنتانغ».

كما كانت أمي موضع استهجان لزيارتها سجيناً، هو هوي ـ غي، دون أن تطلب إذناً من الاتحاد أولاً. لم يخبرها أحد أنه يجب عليها أن تفعل ذلك. وقالوا في الاتحاد إنهم لم يمنعوها قبل ذلك مراعاة منهم لشخص «جديد على الثورة»، وإنهم كانوا ينتظرون ليروا كم تحتاج من الوقت لبلوغ إحساسها بالانضباط وطلب تعليمات من الحزب. تساءَلَتْ: «ولكن ما هي الأشياء التي احتاج إلى طلب تعليمات من أجلها؟». وكان الجواب: «أي شيء». وكان من شأن ضرورة الحصول على تفويض للقيام بـ «أي شيء» غير محدد، أن تصبح عنصراً أساسياً في الحكم الشيوعي الصيني. كما أنها كانت تعني أن الناس تعلموا أن لا يُقْدموا على أي عمل بمبادرة منهم.

أصبحت أمي معزولة داخل الاتحاد، الذي كان عالمها كله. وكان هناك همس بأن هوي ـ غي استخدمها لمساعدته على التحضير لعودته. وتعجبت النساء «أي ورطة أوقعت نفسها فيها، وكل ذلك لأنها «متراخية». أنظروا إلى كل هذه العلاقات مع الرجال. وأي نوع من الرجال؟». شعرت أمي أنها محاطة بأصابع الاتهام، وأن من ينبغي أن يكونوا رفاقها في حركة جديدة وتحررية مجيدة، كانوا يشككون في شخصيتها والتزامها، الذي خاطرت بحياتها من أجله. وتعرضت للنقد حتى بسبب مغادرتها اجتماع الاتحاد النسائي من أجل أن تتزوج ـ خطيئة تسمى «وضع الحب أولاً». قالت أمي إن مسؤول المدينة طلب منها أن تذهب. فردّت الرئيسة على ذلك: «ولكن كان لكِ أن تبيني موقفك الحقيقي في الاجتماع أولاً».

كانت أمي في الثامنة عشرة فقط، حديثة العهد بالزواج، وكلها أمل في حياة جديدة، فشعرت أنها مشوشة ومعزولة. لقد كانت دائماً واثقة بإحساسها القوي بالصواب والخطأ، ولكن هذا بدا الآن في صدام مع آراء «قضيتها»، وفي أحيان كثيرة مع تقدير زوجها الذي تحبه. وبدأت تشك في نفسها، للمرة الأولى.

لم تلقِ باللائمة على الحزب، أو الثورة. ولا كان في إمكانها إلقاء اللوم على

نساء الاتحاد، لأنهن كن رفيقاتها وبدا أنهن صوت الحزب. تحول سخطها ضد أبي. شعرت أن إخلاصه لم يكن لها في المقام الأول، ويبدو دائماً أنه يتخذ جانب رفاقه ضدها. كانت تفهم أنه ربما كان يصعب عليه أن يعبر عن تأييده في العلن، ولكنها كانت تريده في حياتهما الخاصة ـ ولم تحصل عليه. منذ بداية زواجهما، كان هناك اختلاف أساسي بين والديَّ. فقد كان تفاني أبي في سبيل الشيوعية مطلقاً: كان يشعر أن عليه أن يتكلم في المجالس الخاصة، حتى مع زوجته، اللغة نفسها التي يتكلم بها في المجالس العامة. وكانت أمي أكثر مرونة. إذ إنها كانت تعطي مجالاً للخاص. أما أبي فلم يفعل ذلك.

أخذت أمي تجد جنجو مدينة لا تطاق. وقالت لأبي إنها تريد الرحيل، في الحال، وقد وافق رغم أنه كان على وشك الحصول على ترقية. تقدم إلى لجنة المدينة الحزبية بطلب نقله معللاً طلبه بالرغبة في العودة إلى مدينته يي بِين. وقد استغربت اللجنة ذلك، لأنه قال لهم لتوّه إن ذلك على وجه التحديد ما لا يريد أن يفعله. طيلة التاريخ الصيني، كانت القاعدة المتبعة أن يُعَيَّن المسؤولون بعيداً عن مدنهم، لتفادي مشاكل المحسوبية.

في صيف ١٩٤٩، كان الشيوعيون يتقدمون جنوباً بزخم لا يوقفه شيء: استولوا على عاصمة شيان كاي ـ شيك، نانجنغ، وبدا من المؤكد أن يصلوا قريباً إلى سيشوان. وقد بينت لهم خبرتهم في منشوريا، أنهم في حاجة ماسة إلى إداريين محليين ـ ومخلِصين.

وافق الحزب على نقل أبي. فبعد شهرين من زواجهما ـ وأقل من عام بعد التحرير ـ أُخرجا من مدينة أمي بسبب الأقاويل والأحقاد. وتحولت فرحة أمي بالتحرير إلى غم متوجس. في ظل الكومنتانغ كانت قادرة على تصريف توترها في العمل ـ وكان من السهل أن تشعر أنها تفعل الشيء الصحيح، الأمر الذي منحها الشجاعة. والآن، أخذت تشعر أنها كانت مخطئة. وعندما حاولت أن تتحدث عن ذلك مع أبي، كان يقول لها إن تحول المرء إلى شيوعي عملية معذِّبة، وهكذا يجب أن تكون.

٧ ـ «عبور الممرات الجبلية الخمسة» ـ مسيرة أمي الكبرى (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠)

قبيل أن يغادر والداي جنجو، مُنحت أمي عضوية مؤقتة في الحزب، بفضل نائب العمدة المشرف على الاتحاد النسائي، الذي رأى أنها في حاجة إليها، لأنها ذاهبة إلى مكان جديد. وكان القرار يعني أنها تستطيع أن تصبح عضواً كاملاً في غضون عام واحد، إذا اعتُبرت أنها أثبتت جدارتها.

كان من المزمع أن ينضم والداي إلى مجموعة مؤلفة من أكثر من مئة شخص، مسافرين إلى الجنوب الغربي، أغلبيتهم إلى سيشوان. وقد نُظِّموا للرحلة في وحدات ومنحوا بزات عسكرية خضراء. فالحرب الأهلية كانت لا تزال مستعرة في طريقهم.

في ٢٧ تموز/يوليو ١٩٤٩، جاءت جدتي والدكتور شيا وأقرب أصدقاء أمي، الذين كانت أغلبيتهم موضع شبهة من جانب الشيوعيين، إلى المحطة لتوديعهما. وعندما وقفوا على الرصيف مودعين، شعرت أمي أن أحاسيس متضاربة تمزقها. ففي جزء من قلبها، شعرت كأنها طير سينطلق الآن من قفصه ويحلق إلى السماء. وفي الجزء الآخر، تساءلت متى سترى هؤلاء الأحبة ثانية، وخاصة أمها ـ أو ما إذا كانت ستراهم مرة أخرى. كانت الرحلة محفوفة بالخطر، وكانت سيشوان لا تزال بيد الكومنتانغ. كانت أيضاً تبعد ١٠٠٠ ميل، بعيدة بعداً لا يمكن تصوره، ولم تكن لدى أمي فكرة إن كانت ستتمكن، ذات يوم، من العودة إلى جنجو. شعرت برغبة عارمة

في البكاء، ولكنها حبست دموعها، لأنها لم تكن تريد أن تجعل أمها أكثر حزناً مما هي عليه. وعندما ابتعد الرصيف عن الأنظار، حاول أبي أن يواسيها. قال لها إنها يجب أن تكون قوية، وإنها بوصفها طالبة شابة «تنضم إلى الثورة»، تحتاج إلى «عبور الممرات الجبلية الخمسة» ـ كان ذلك يعني اتخاذ موقف جديد تماماً من العائلة والمهنة والحب ونمط الحياة والعمل اليدوي، من خلال احتضان المكابدة والأذى. كانت نظرية الحزب تذهب إلى ضرورة أن يكف المتعلمون من أمثالها عن كونهم «بورجوازيين»، وأن يصبحوا أقرب إلى الفلاحين الذين يكوّنون ما يربو على ٨٠ في المئة من السكان. كانت أمي قد سمعت هذه النظريات مئة مرة، وأقرّت بضرورة إصلاح نفسها من أجل صين جديدة. وفي الحقيقة، إنها كتبت لتوها قصيدة عن مواجهة تحدي «العاصفة الرملية» في مستقبلها. ولكنها كانت تريد أيضاً مزيداً من الحنان والتفهم الشخصي، وغاظتها حقيقة أنها لم تكن تحصل عليهما من أبي.

عندما وصل القطار إلى تيانجين، حوالي ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي، كان عليهما التوقف بسبب انتهاء الخط. قال أبي إنه يود أن يأخذها في جولة حول المدينة. كانت تيانجين ميناء هائلاً حيث كان للولايات المتحدة واليابان وعدد من الدول الأوروبية، حتى الأمس القريب، «امتيازات»، جيوب لا تشملها القوانين الصينية (الجنرال شو مات في منطقة الامتياز الفرنسي في تيانجين، على الرغم من أن أمي لم تكن تعرف ذلك). وكانت هناك أحياء كاملة مشيدة على طرز مختلفة، بعمارات مهيبة: قصور فرنسية أنيقة من نهاية القرن، قصور إيطالية رشيقة، بيوت مدينية نمساوية ـ مجرية منتفخة من الطراز الروكوكي المتأخر. كان ذلك تكثيفاً استثنائياً لعروض ثماني دول مختلفة، كلها تحاول إثارة إعجاب بعضها بعضاً وإعجاب الصينيين. وما عدا البنوك اليابانية الرمادية، الدكناء، المألوفة، والبنوك الروسية ذات السطوح الخضراء، بجدرانها الرقيقة المدهونة بالوردي والأصفر، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي رأت فيها أمي بنايات كهذه. كان أبي قد قرأ الكثير من الأدب الأجنبي، وفتنته على الدوام أوصاف المباني الأوروبية. وكانت هذه أول مرة يراها بأم عينه. واستطاعت أمي أن تلاحظ العناء الكبير، الذي يتجشمه لإلهاب حماستها، ولكنها كانت لا تزال مكتئبة وهما يذرعان الشوارع التي تحفها أشجار صينية فواحة بعبقها. كانت تفتقد أمها، ولم تستطع أن تخلص نفسها من غضبها على أبي لعدم

قوله أي شيء يروِّح عنها، ولجفافه، رغم أنها كانت تعرف أنه يحاول، بطريقة خرقاء، أن يساعدها على التخلص من مزاجها العكر.

لم يكن خط القطار المنقطع سوى البداية. وتعين عليهما أن يواصلا رحلتهما مشياً على الأقدام، والطريق محفوف بقوى أسياد الحرب المحليين وقطاع الطرق وجنود من الكومنتانغ، تخلفوا عندما تقدم الشيوعيون. كانت هناك ثلاث بنادق فقط لدى المجموعة كلها، إحداها مع أبي، ولكن في كل مرحلة من مراحل الطريق، كانت السلطات المحلية ترسل مفرزة من الجنود للحراسة، ومعها عادة زوج من المدافع الرشاشة.

كان عليهم السير مسافات طويلة كل يوم، عبر ممرات وعرة في الغالب، حاملين فرشهم الملفوفة وأمتعتهم الأخرى على ظهورهم. من كانوا مقاتلين في حرب العصابات، كانوا معتادين على ذلك. ولكن بعد يوم واحد، غطت القروح باطن قدم أمي. ولم يكن وارداً أن تتوقف للراحة. نصحها زملاؤها بنقع قدميها في ماء ساخن في نهاية اليوم، وإخراج السائل بثقب القروح بإبرة. وكان هذا يمنحها راحة فورية، ولكنه كان شديد الألم في اليوم التالي، عندما كان عليها أن تبدأ المسير من جديد. وفي كل صباح، كانت تَصرُّ أسنانها وتواصل الكفاح.

على امتداد شطركبير من مسار الرحلة، لم تكن هناك طرق. وكانت الظروف مزرية، لا سيما عندما تمطر السماء: كانت الأرض تتحول إلى كتلة من الوحل اللزج حيث سقطت أمي مرات لا تحصى. وفي نهاية اليوم، كانت تترقط بالوحل. وحين كانوا يبلغون مقصدهم لقضاء الليلة، كانت تنهار على الأرض وتتمدد هناك عاجزة عن الحركة.

ذات يوم، تعين عليهم أن يسيروا أكثر من ثلاثين ميلاً، تحت مطر غزير. كانت درجة الحرارة تزيد كثيراً على ٩٠° فهرنهايت، وكانت أمي مبللة حتى العظام بالمطر والعرق. كان عليهم أن يتسلّقوا جبلاً، ليس جبلاً شاهقاً، وإنما يرتفع زهاء ٣٠٠٠ قدم فقط، ولكن أمي كانت منهوكة تماماً. وشعرت بثقل فراشها الملفوف على كاهلها، وكأنه صخرة هائلة. كانت عيناها مسدودتين بالعرق المتصبب من جبينها. وعندما كانت تفتح فاها لاستنشاق الهواء، تشعر أنها لا تستطيع أن تعب منه ما يكفي

للتنفس. كانت آلاف النجوم تتراقص أمام عينيها، وهي بالكاد قادرة على جر قدم إثر الأخرى. وعندما وصلت القمة، ظنت أن عذابها قد انتهى، ولكن النزول كان تقريباً بالقدر نفسه من الصعوبة. وبدا أن عضلات ساقها قد استرخت. كان ريفاً وعراً، والممر الضيق شديد الانحدار، يسير بمحاذاة جرف عمقه ١٠٠ قدم. كانت ساقاها ترتجفان، وأيقنت أنها ستسقط في الهوة. وكان عليها أن تتشبث بالأشجار مرات عديدة كي لا تقع في المنحدر.

بعد أن عبروا الجبل، اعترضت طريقهم عدة أنهار عميقة، سريعة الجريان. وكان مستوى الماء يصل إلى خصرها، ووجدت من المتعذر تقريباً إبقاء قدميها في القاع. وفي وسط أحد الأنهار، كَبَتْ وشعرتْ أنها على وشك أن تُجرف، عندما انحنى فوقها رجل وأمسك بها. كادت تنهار وأخذت تنتحب، لا سيما أنها في هذه اللحظة بالذات، لمحت صديقة من صديقاتها، كان زوجها يحملها عبر النهر. ورغم أن الزوج كان مسؤولاً كبيراً، وكان من حقه أن يستخدم سيارة إلا أنه تنازل عن امتيازه لكي يمشي مع زوجته.

أبي لم يكن يحمل أمي. كان يسافر بسيارة جيب، مع حارسه. إذ كانت رتبته تمنحه حق استخدام واسطة نقل ـ إما سيارة جيب أو حصان، الميسور منهما. وغالباً ما كانت أمي تأمل في أن ينقلها معه مسافة من الطريق، أو في الأقل أن يحمل عنها لفة فراشها في سيارة الجيب، ولكنه لم يعرض عليها ذلك. مساء اليوم الذي كادت تغرق فيه في مياه النهر، قررت أن تصارحه. فقد كان يوماً عصيباً عليها. والأنكى من ذلك أنها كانت تتقيأ طول الوقت. ألم يكن في مقدوره أن يسمح لها بالسفر في سيارته الجيب بعض الأحيان؟ قال إنه لا يستطيع، لأن ذلك سيُعَد محسوبية، ما دام لا يحق لها استخدام السيارة. شعر أن عليه أن يكافح ضد التقليد الصيني العريق في محاباة الأقارب. والأكثر من ذلك كان لا بد لأُمي أن تختبر المكابدة. وعندما ذكرت أن زوج صديقتها كان يحملها، رد أبي قائلاً إن الأمر يختلف تماماً: كانت هذه الصديقة شيوعية مخضرمة. ففي الثلاثينات قادت وحدة من المقاتلين بالاشتراك مع كيم إيل سونغ، الذي أصبح فيما بعد رئيس كوريا الشمالية، مقاتلة اليابانيين في ظروف بائسة في الشمال الشرقي. وتتضمن القائمة الطويلة من عذاباتها في حياتها الثورية خسارة زوجها الأول، الذي أعدم بناء على أوامر ستالين. وقال أبي إن أمي لا

تستطيع أن تقابل نفسها بهذه المرأة. فهي لم تكن سوى طالبة شابة. وإذا ظنّ الآخرون أنها مدللة، فستقع في متاعب. وأضاف «أن ذلك لمصلحتك» مذكراً إياها أن طلبها العضوية الكاملة في الحزب قيد الدرس. «أمامكِ خيار: تستطيعين إما دخول السيارة أو دخول الحزب، ولكن ليس الاثنين معاً».

كانت لديه أسباب وجيهة. فالثورة أساساً ثورة فلاحية، والفلاحون عاشوا حياة قاسية بلا هوادة. وكانوا حساسين بصفة خاصة إزاء الآخرين، الذين يتمتعون بالراحة أو يسعون إليها. وكل من شارك في الثورة يجب عليه أن يخشوشن إلى الحد الذي يصبح معه ربيب المكابدة. وهذا ما فعله أبي في ينان بوصفه مقاتلاً.

فهمت أمي النظرية، ولكن هذا لم يمنعها من التفكير في أن أبي لم يحطها بمشاعر العطف والرعاية، عندما كانت مريضة ومنهوكة كل الوقت، جارَّة قدميها، وحاملة فراشها، ومتعرقة ومتقيئة، وساقاها ثقيلتان كالرصاص.

ذات ليلة، نفد صبرها وانفجرت باكية للمرة الأولى. كانت المجموعة تبيت الليالي عادة في أماكن مثل المخازن أو صفوف المدارس الفارغة. وفي تلك الليلة، كان الجميع نياماً في معبد، متراصين على الأرض. كان أبي مضطجعاً إلى جنبها. وعندما بدأت البكاء أول الأمر، أشاحت بوجهها عنه، ودفنته في كمها، محاولة أن تكتم نشيجها. استيقظ أبي على الفور، وسارع إلى وضع يده على فمها. ومن خلال دموعها سمعته يهمس في أذنها: «لا تبكي بصوت عالٍ! إذا سمعوك ستتعرضين للنقد». كان التعرض للنقد أمراً مخطراً. فهو يعني أن رفاقها سيقولون إنها ليست جديرة بأن «تكون في الثورة»، بل هي جبانة. شعرت به يدس على عجل منديلاً في يدها لتتمكن من خنق نشيجها.

في اليوم التالي، انتحى بها جانباً مسؤول وحدتها، الرجل الذي أنقذها من السقوط في النهر، وقال لها إنه تسلم شكاوى عن بكائها. وإنهم يقولون إنها تصرفت كأنها «سيدة راقية من الطبقات المستغِلة». لم يكن غير متعاطف، ولكن كان عليه أن يعكس ما يقوله الآخرون. وقال إنه لمن المخزي أن تبكي بعد المشي بضع خطوات. وإنها لم تكن تتصرف كثوري حقيقي. ومن حينها، لم تبك أمي قط، رغم أنها شعرت في أحيان كثيرة بالرغبة في البكاء.

تابعت تشق طريقها بصعوبة. وكان أخطر المناطق التي تعين المرور عبرها، إقليم شاندونغ الذي سقط بأيدي الشيوعيين قبل شهرين لا أكثر. وذات مرة، كانوا يسيرون عبر واد عميق، عندما بدأ الرصاص ينهال عليهم من فوق. احتمت أمي بصخرة. استمر إطلاق النار حوالي عشر دقائق، وعندما توقف اكتشفوا أن أحد أفراد المجموعة قُتل وهو يحاول الالتفاف خلف المهاجمين، الذين اتضح أنهم قطاع طرق. وأصيب آخرون بجروح. دفنوا القتيل على جانب الطريق. وتنازل أبي والمسؤولون الآخرون عن خيولهم للجرحى.

بعد أربعين يوماً من المسير ومزيد من المناوشات، وصلوا إلى مدينة نانجنغ التي كانت عاصمة حكومة الكومنتانغ، على بُعد زهاء ٧٠٠ ميل جنوب جنجو. وهي معروفة باسم «فرن الصين»، وفي منتصف أيلول/سبتمبر كانت لا تزال كالفرن. أُسكنت المجموعة في ثكنة. وكان على فراش الحصير على سرير أمي شكل بشري أدكن، طبعه عرق من ناموا هناك قبلها. وكان على المجموعة ممارسة التدريب العسكري في الحرارة الحارقة، يتعلمون كيف يحزمون لفة الفراش ويربطون لفافة الساق ويشدون حقيبة الظهر على جناح السرعة، ويتمرنون على المشي السريع وهم يحملون عدتهم. وبوصفهم جزءاً من الجيش، كان عليهم الالتزام بانضباط صارم. كانوا يرتدون بزات كاكية وقمصاناً قطنية خشنة وملابس داخلية. وكان يتعين أن يزرروا بدلاتهم حتى الرقبة، ولم يسمح لهم قط بفتح زر الياقة. وجدت أمي صعوبة في التنفس، وكانت بقعة من العرق دكناء كبيرة تغطي ظهرها مثل كل الآخرين. كما كانوا يعتمرون قبعة قطنية ذات سُمكٍ مضاعف، يتعين أن تكون مشدودة بإحكام حول الرأس، بحيث لا يظهر منها أي شعرة. تسبب هذا بتعرق أمي بغزارة، وكانت حافة قبعتها مبللة بالعرق على الدوام.

في بعض الأحيان، كان يُسمح لهم بالخروج، وكان أول ما فعلته أمي، أنها التهمت عدة قطع من المصاصات المثلّجة. العديد من أفراد المجموعة لم يدخلوا قط مدينة كبيرة، باستثناء توقفهم لفترة وجيزة في تيانجين. وكانت فرحتهم عظيمة بالمصاصات المثلّجة، وابتاعوا بعضاً منها، لأخذها معهم إلى رفاقهم في الثكنة، فلفُّوها بعناية بمناشف أيديهم البيضاء ووضعوها في حقائبهم. وقد تعجبوا حين عادوا ليكتشفوا أن كل ما تبقى منها هو الماء.

في نانجنغ كان عليهم أن يحضروا محاضرات سياسية قدم بعضها دينغ شياوبنغ، زعيم الصين لاحقاً، والجنرال تشن يي، وزير الخارجية لاحقاً. كانت أمي وزملاؤها يجلسون على العشب في الجامعة المركزية، في الظل، فيما كان المحاضرون يقفون في الشمس الحارقة ساعتين أو ثلاث ساعات متواصلة كل مرة. ورغم الحرارة كان المحاضرون يسحرون جمهورهم.

ذات يوم، كان على أمي ووحدتها أن يركضوا عدة أميال مهرولين بكامل عدتهم إلى ضريح أبي الجمهورية المؤسس صن يات ـ صن. ولدى عودتهم شعرت أمي بألم في الجزء السفلي من بطنها. كان هناك عرض تلك الليلة، تحييه أوبرا بكين في ناحية أخرى من المدينة، من بطولة فنان من أشهر نجوم الصين. كانت أمي قد ورثت حماسة أمها لأوبرا بكين، وكانت تتطلع إلى العرض بشوق.

في ذلك المساء، سارت مع رفاقها في طابور إلى الأوبرا التي كانت تبعد حوالي خمسة أميال. وذهب أبي بسيارته. وفي الطريق، شعرت أمي بازدياد الألم في بطنها، وفكرت في العودة، ولكنها قررت عكس ذلك. وفي منتصف العرض، أصبح الألم لا يُحتمل. ذهبت إلى حيث كان يجلس أبي وطلبت منه أن يأخذها إلى البيت بسيارته. لم تخبره عن الألم. نظر حوله إلى المكان الذي يجلس فيه سائقه ورآه مسمراً إلى مقعده فاغراً فاه. فالتفت إلى أمي وقال: «كيف يحق لي أن أقطع عليه متعته لمجرد أن زوجتي تريد المغادرة؟». فقدت أمي كل رغبة في أن تشرح له أنها تتعذب، واستدارت مبتعدة بجفاء.

مشت كل طريق العودة إلى الثكنة في ألم ممض. كان كل شيء أمام عينيها يدور. رأت سواداً بنجوم ساطعة، وشعرت كأنها تشق طريقها عبر قطن. لم تتمكن من رؤية الطريق، وأعيتها معرفة الوقت الذي أمضت سائرة. بدا كأنه مدى الحياة. وحين عادت، كانت الثكنة مهجورة. فالجميع ذهبوا إلى الأوبرا، باستثناء الحراس. تمكنت من جرّ نفسها إلى سريرها، وفي ضوء مصباح رأت أن سروالها ملطخ بالدم. أُغمي عليها ما أن وضعت رأسها على السرير. لقد فقدت طفلها الأول، ولم يكن هناك أحد قربها.

بعد وقت قصير، عاد أبي. وإذ كان في سيارة، فقد عاد قبل أغلبية الآخرين. وجد أمي ممددة على السرير. في البداية ظنّ أنها منهوكة فحسب، ثم رأى الدم،

وأدرك أنها فاقدة الوعي. انطلق مسرعاً بحثاً عن طبيب. رجّح الطبيب أنها قد أجهضت. وكونه طبيباً عسكرياً، لم تكن لديه خبرة في ما ينبغي عمله، فاتصل هاتفياً بمستشفى في المدينة، وطلب منهم أن يرسلوا سيارة إسعاف. وافق المستشفى ـ ولكن شريطة أن يُدفع لهم بدولارات فضية عن سيارة الإسعاف والعملية الطارئة. ورغم أن أبي لم تكن لديه نقود، فقد وافق دون تردد. إذ الانخراط «في الثورة» كان يستتبع تأميناً صحياً تلقائياً.

كانت أمي قريبة جداً من الموت. وتعين نقل دم إليها، وكشط رحمها. وعندما فتحت عينيها، بعد العملية، رأت أبي جالساً عند سريرها. وكان أول شيء قالته: «أريد الطلاق». اعتذر أبي بحرارة. لم تكن لديه فكرة أنها كانت حاملاً ـ ولا هي في الحقيقة. عرفت أن دورتها الشهرية فات موعدها ولكنها ظنت أن هذا ربما كان نتيجة تعب المسير بلا هوادة. قال أبي إنه لم يكن يعرف ما هو الإجهاض. ووعد بأن يكون أكثر مراعاة في المستقبل، مردداً أنه يحبها وأنه سوف يكون زوجاً مثالياً.

حين كانت أمي في غيبوبة، غَسَلَ ملابسها الملطخة بالدم، الأمر الذي لم يكن معهوداً بالرجل الصيني. في النهاية، وافقت أمي على أن لا تطلب الطلاق، ولكنها قالت إنها تريد العودة إلى منشوريا لاستئناف دراستها للطب. وقالت لأبي إنها لا يمكن أبداً أن تُرضي الثورة، مهما حاولت. وأن كل ما كانت تلقاه هو النقد. وقالت «خير لي أن أرحل». قال أبي بقلق: «يجب أن لا تفعلي ذلك! فإنه سيفسّر على أنك تخافين المصاعب. وستُعَدّين هاربة، ولن يكون لكِ مستقبل. وحتى إذا قَبلتكِ الكلية لن تتمكني أبداً من الحصول على وظيفة جيدة. وستكونين عرضة للتمييز ما تبقى من حياتك». لم تكن أمي مدركة بعد أن هناك حظراً مطلقاً على الخروج من النظام، لأنه كان، كالعادة، حظراً غير مكتوب. ولكنها التقطت لهجة الإلحاف الشديد في صوته. فمتى كنت «مع الثورة»، لن تتمكن أبداً من المغادرة.

كانت أمي في المستشفى عندما نُبهت ورفاقها في ١ تشرين الأول/أكتوبر إلى أن يتوقعوا إعلاناً خاصاً، سيذاع عبر مكبرات الصوت التي علقت حول المستشفى. فتجمعوا للاستماع إلى ماو يعلن تأسيس الجمهورية الشعبية من أعلى بوابة السلام السماوي في بكين. بكت أمي كما يبكي الطفل. إذ رأت أن الصين التي حلمت بها، وقاتلت من أجلها، وعقدت الآمال على قيامها، قد ولدت أخيراً، البلد الذي تستطيع

أن تكرس له نفسها قلباً وروحاً. وفيما كانت تستمع إلى صوت ماو يعلن «نهوض الشعب الصيني»، وبَّخت نفسها لترددها ذات يوم. فإن معاناتها كانت تافهة بالمقابلة بالقضية الكبرى لإنقاذ الصين. شعرت بفخر شديد وإحساس قومي عارم، وعاهدت نفسها على البقاء مع الثورة إلى الأبد. وعندما انتهى إعلان ماو القصير، انفجرت ورفاقها بالهتاف ورموا قبعاتهم في الهواء ـ حركة تعلمها الشيوعيون الصينيون من الروس. وبعد أن كفكفوا دموعهم أقاموا وليمة صغيرة للاحتفال.

قبل أيام قليلة من حدوث الإجهاض، التُقطت لوالديَّ أول صورة فوتوغرافية رسمية معاً. ويظهران فيها بالزي العسكري، محدقين باكتئاب وشيء من السهوم إلى عدسة الكاميرا. التُقطت الصورة الفوتوغرافية لإحياء ذكرى دخولهما عاصمة الكومنتانغ السابقة. وأرسلت أمي في الحال نسخة منها إلى أمها.

في ٣ تشرين الأول/أكتوبر، تحركت وحدة أبي. كانت القوات الشيوعية تقترب من سيشوان. وكان على أمي أن تبقى في المستشفى شهراً آخر، ثم سمح لها بقضاء بعض الوقت للنقاهة في قصر منيف، كان ملك ممول الكومنتانغ الرئيسي، هـ.هـ.كونغ، نسيب شيان كاي ـ شيك. وذات يوم، قيل لوحدتها إنهم سيكونون مادة ملحقة في فيلم تسجيلي عن تحرير نانجنغ. وُزِّعت عليهم ملابس مدنية وأُلبِسوا كمواطنين مدنيين يرحبون بالشيوعيين. وعُرض هذا المشهد المصنوع، الذي لم يكن تعوزه الأمانة، في سائر أنحاء الصين بوصفه «وثائقياً» ـ وهو ممارسة شائعة.

بقيت أمي في نانجنغ شهرين آخرين تقريباً. وبين الفينة والفينة، كانت تتسلم برقية أو رزمة رسائل من أبي. كان يكتب كل يوم، ويبعث الرسائل كلما عثر على مكتب بريد عامل. وفي كل رسالة، كان يقول لها كم يحبها، ويعدها بإصلاح نفسه، ويصرّ على أن لا تعود إلى جنجو و «تهجر الثورة».

في أواخر كانون الأول/ديسمبر، قيل لأمي إن هناك مكاناً لها على مركب بخاري مع آخرين تُركوا بسبب المرض. وطُلب منهم أن يتجمعوا على رصيف الميناء مع حلول الظلام ـ كان قصف الكومنتانغ يجعل ذلك شديد الخطر في ضوء النهار. كان المرفأ مغلفاً بضباب بارد. وأُطفئَت المصابيح القليلة تحوطاً من الغارات الجوية. وكانت ريح شمالية قارصة، تذرو الثلج عبر النهر. تعين على أمي أن تنتظر ساعات

على الرصيف ضاربة بيأس قدميها المخدَّرتين اللتين لم تكونا تنتعلان إلاً حذاء قطنياً خفيفاً من أحذية التوزيع المعهودة، المعروفة باسم «أحذية التحرير»، التي كان بعضها يحمل شعارات مثل «اهزموا شيان كاي ـ شيك» و «صونوا أرضنا»، مخطوطة على نِعالِها.

حملهم المركب غرباً مع نهر يانغ تزي. وخلال المئتي ميل الأولى تقريباً، حتى مدينة أنكنغ، كان المركب لا يسير إلاً في الليل، راسياً خلال النهار بين القَصَب على الضفة الشمالية من النهر، للاختباء من طائرات الكومنتانغ. كانت السفينة تحمل ثلة من الجنود، الذين نصبوا مدافع رشاشة على السطح، وكمية كبيرة من المعدات العسكرية والعتاد. كانت هناك مناوشات تقع بين حين وآخر مع قوات الكومنتانغ وعصابات ملاك الأرض. وذات مرة، إذ كانوا يشقون طريقهم بين القصب للرسو خلال النهار، تعرضوا لنيران كثيفة، وحاول بعض جنود الكومنتانغ أن يصعدوا إلى متن السفينة. اختبأت أمي والنساء الأخريات تحت السطح، فيما كان الحراس يصدونهم. وكان على السفينة أن تبحر مسافة أبعد لكي ترسو آمنة.

حين وصلوا مداخل نهر يانغ تزي، حيث تبدأ سيشوان، ويضيق النهر بصورة دراماتيكية، تعين عليهم الانتقال إلى مركبين صغيرين جاءا من تشونغ كِنغ. نُقلت الشحنة العسكرية وبعض الحراس إلى أحدهما فيما أقل بقية المجموعة المركب الثاني.

كانت مداخل نهر اليانغ تزي معروفة باسم «بوابات الجحيم». وفي عصر أحد الأيام، اختفت فجأة شمس الشتاء الساطعة. فهرعت أمي إلى السطح لتبين الأمر. كانت على الجانبين منحدرات عمودية هائلة تشمخ فوق النهر، وكأنها على وشك أن تسحقه. كانت المنحدرات مكسوة بنباتات كثيفة، وكانت شاهقة حتى إنها كادت تحجب وجه السماء. وكان كل منحدر يبدو أشد انحداراً من سابقه، وبدا كأن سيفاً جباراً انهال من السماء وشقّ طريقه بينها.

صارع المركب الصغير أياماً ضد التيارات والدوامات والمنحدرات والصخور المغمورة. وأحياناً، كانت قوة التيار تجرفه إلى الوراء ويبدو كأنه سينقلب في أي لحظة. وغالباً ما ظنت أمي أنهم سينقلبون، ولكن الربان كان، كل مرة، يتمكن من الابتعاد في اللحظة الأخيرة.

لم يستول الشيوعيون على القسم الأعظم من سيشوان، إلاً في الشهر الأخير. وكانت لا تزال تعج بجنود الكومنتانغ، الذين بقوا فيها، بعدما تخلى شيان كاي ـ شيك عن مقاومته على البر وهرب إلى تايوان. وقد جاءت أسوأ اللحظات عندما قامت عصبة من جنود الكومنتانغ هؤلاء بقصف المركب الأول، الذي يحمل الذخيرة. أصابته إحدى القذائف إصابة مباشرة. وكانت أمي تقف على السطح عندما انفجر على بُعد زهاء مئة ياردة أمامها. بدا كأن النهر كله انفجر محترقاً. وتطايرت قطع ملتهبة من الخشب صوب مركب أمي، وبدا أن لا مفر من الاصطدام بالحطام المشتعل. ولكن الحطام تجاوزهم مبتعداً عنهم مسافة بوصات. لم تظهر علامات خوف أو نشوة على أحد. بدوا كلهم مخدَّرين حتى الموت. وقتلت أغلبية الحراس على متن المركب الأول.

كانت أمي تدخل عالماً جديداً كاملاً من المناخ والطبيعة. فقد كانت المنحدرات الممتدة على طول المداخل مغطاة بمتسلقات عملاقة من نبات الروطان، جعلت الأجواء الغريبة أكثر غرابة. وكانت القرود تتقافز من فرع إلى فرع بين الأوراق الوارفة. وكانت الجبال الشديدة الانحدار، الرائعة، تغييراً جديداً مذهلاً بعد السهول المنبسطة حول جنجو.

أحياناً، كان المركب يرسو أسفل درج ضيق من السلالم الحجرية السوداء، التي بدا أنها تتسلق سفح جبل تختفي قمته في السُحب. وفي أحيان كثيرة، تكون هناك مدينة صغيرة على قمة الجبل. وبسبب الضباب الكثيف الدائم، كان على السكان أن يشعلوا مصابيح تعمل بزيت اللفت، حتى في النهار. كان الجو بارداً مع ريح رطبة تهب من الجبال والنهر. وبدا الفلاحون المحليون لأمي ذوي بشرة دكناء جداً ونحيفين وصغاراً، قَسَماتهم أكثر حدة وعيونهم أكبر وأكثر استدارة بكثير من الناس الذين اعتادت رؤيتهم. كانوا يرتدون نوعاً من العمامة المصنوعة من قماش أبيض طويل ملفوف حول جباههم. وبما أن الأبيض هو لون الحداد في الصين، فقد ظنت أمي، في البداية، أنهم يرتدون ثياب الحداد.

في منتصف كانون الثاني/يناير، وصلوا إلى شونغ كنغ التي كانت عاصمة الكومنتانغ خلال الحرب ضد اليابان، حيث تعين على أمي أن تنتقل إلى مركب أصغر للمرحلة التالية إلى مدينة لوجو، على بُعد حوالي مئة ميل أعلى النهر. وهناك تسلمت

رسالة من أبي بأن زورقاً من نوع السمبان أُرسل لملاقاتها، وأنها ينبغي أن تأتي إلى يي بِين في الحال. كانت هذه أول مرة عرفت أنه وصل وجهته حياً. وحينذاك، كان سخطها عليه قد تبدد. إذ مرت أربعة أشهر منذ أن رأته آخر مرة، وأخذت تفتقده. تخيلت الإثارة التي لا بد أنه شعر بها على الطريق برؤية كل هذه الأماكن الموصوفة في القصائد القديمة، وشعرت بوهج من الدفء في معرفتها الواثقة بأنه كان سينظم لها قصائد عن الرحلة.

تمكّنت من الرحيل مساء ذلك اليوم نفسه. وفي الصباح التالي، حين استيقظت، أحسّت بدفء الشمس الآتي من خلال الضباب الناعم. كانت التلال على امتداد النهر خضراء وحانية، وتمكنت من الاستلقاء والاسترخاء والاستماع إلى الماء يضرب مقدمة السمبان. وصلت يي بِين عصر ذلك اليوم، في عشية «السنة الجديدة» الصينية. كان منظر المدينة، عندما رأتها أول مرة، كأنها طيف ـ صورة رقيقة لمدينة تسبح في الغيوم. وعندما اقترب الزروق من المرفأ، نظرت حولها باحثة عن أبي. وفي النهاية، من خلال الضباب، استطاعت أن تتبين هيئته العكرة: كان يقف بمعطف عسكري غير مزرر، وحارسه وراءه. كانت ضفة النهر واسعة مكسوة بالرمل والحصى. واستطاعت أن ترى المدينة تتسلق إلى قمة التل. كانت بعض البيوت مبنية على ركائز خشبية، رفيعة، طويلة وبدت تهتز في الريح كأنها ستنهار.

رسا الزورق عند أحد الأرصفة في طرف المدينة. ومدَّ نوتيّ لوحاً خشبياً، عَبَره حارس أبي وأخذ فراش أمي. قفزت هابطة على سلم المركب ومدَّ أبي ذراعيه لمساعدتها على النزول. لم يكن العناق مناسباً في العلن، رغم أن أمي استطاعت أن تلاحظ أنه نشوان مثلها، وشعرت بسعادة كبيرة.

٨ ـ «العودة إلى البيت في حرير مطرز» ـ إلى العائلة وقطاع الطرق (١٩٤٩ ـ ١٩٥١)

طول الطريق، كانت أمي تتساءل كيف ستكون مدينة يي بِين. هل هناك كهرباء؟ هل الجبال شاهقة كالجبال الواقعة على امتداد نهر يانغ تزي؟ هل هناك مسارح؟ وعندما تسلقت الهضبة مع أبي، شعرت بالإثارة إذ رأت أنها جاءت إلى مكان جميل. فمدينة يي بِين تنهض على ربوة تطل على ملتقى نهرين، أحدهما صاف والآخر عكر. واستطاعت أن ترى المصابيح الكهربائية مضيئة في البيوت الريفية. كانت جدرانها مبنية من اللِّبْن والخيزران، وبدا القرميد الرفيع، المقوس على السطوح، في نظرها، رقيقاً كأنه خيوط بالمقابلة بالقرميد الثقيل المطلوب لتحمل رياح منشوريا وثلجها. ومن بعد، من خلال الضباب، استطاعت أن ترى بيوتاً صغيرة من الخيزران والطوب، وسط جبال خضراء دكناء، تكسوها أشجار الكافور والصنوبر، وشجيرات الشاي. شعرت بالتحرر أخيراً مما كان يثقل كاهلها، لأسباب ليس أقلها أن أبي كان يسمح لحارسه بحمل فراشها. وإذ مرت بعشرات المدن والقرى التي دمرتها الحرب، سرَّها ألا ترى هنا أضراراً ناجمة عن الحرب. فحامية الكومنتانغ المؤلفة من ٧٠٠٠ رجل استسلمت دون قتال.

كان أبي يعيش في قصر أنيق، استولت عليه الحكومة الجديدة ليكون مكاتب ومساكن معاً، وانتقلت أمي معه. كانت له حديقة مليئة بنباتات لم ترها قط: نانمو الفيبي (نوع من الغار) والببايا والموز على أرض مغطاة بالأشنات الخضراء. وكانت

أسماك ذهبية تسبح في حوض، حتى السلحفاة كانت هناك. وفي غرفة نوم أبي أريكة سريرية لاثنين، أطرى ما نامت عليه، إذ لم تعرف في السابق إلاَّ «الكانغ» المصنوع من الآجر. حتى في الشتاء، كل ما يحتاج إليه المرء في يي بِين لحاف، إذ لا ريح لاسعة ولا غبار، كما في منشوريا. ولا يتعين على المرء أن يتلفع بوشاح من الشاش لكي يستطيع أن يتنفس. لم يكن هناك غطاء يسد فتحة البئر، كانت تبرز منه عصا من الخيزران مع دلو مربوط بالنهاية الأخرى، لسحب الماء. وكان الناس يغسلون ملابسهم على بلاطات من الحجر اللماع الناعم مسنودة بحيث تميل بزاوية صغيرة، وكانوا يستخدمون فراشي من ألياف النخيل لتنظيفها. وكانت هذه العمليات مستحيلة في منشوريا حيث تتغطى الملابس، في الحال، بالغبار أو تتجمّد بصلابة. وتمكنت أمي أول مرة في حياتها من تناول الرز والخضراوات الطازجة كل يوم.

كانت الأسابيع التالية شهر العسل الحقيقي لوالديَّ. وللمرة الأولى، استطاعت أمي أن تعيش مع أبي دون انتقادها على «وضع الحب أولاً». كان الجو العام منفرجاً، والشيوعيون في نشوة بانتصاراتهم الكاسحة. لم يكن زملاء أبي يصرّون على بقاء الأزواج والزوجات معاً في ليالي السبت فقط.

كانت يي بِين قد سقطت قبل أقل من شهرين، ووصلها أبي بعد ستة أيام، وعُيِّن مسؤول محافظة يي بِين، التي كان عدد سكانها يزيد على مليون نسمة، يعيش حوالي ١٠٠ ألف منهم في مدينة يي بِين. وصل بالمركب مع مجموعة تزيد على مئة طالب، «انضموا إلى الثورة» في نانجنغ. وعندما أبحر المركب إلى أعالي نهر يانغ تزي، توقف أولاً عند محطة يي بِين لتوليد الطاقة على ضفة النهر المقابلة للمدينة، التي كانت معقلاً من معاقل التنظيم السري. وخرج مئات العمال ليحيُّوا مجموعة أبي على رصيف المرفأ، ملوِّحين بأعلام ورقية حمراء صغيرة، عليها خمسة نجوم ـ العلم الجديد للصين الشيوعية ـ وهاتفين بشعارات ترحيبية. كانت نجوم الأعلام في المكان الخطأ ـ الشيوعيون المحليون لم يعرفوا المكان الصحيح لوضعها. نزل أبي على الشاطىء مع ضابط آخر لإلقاء كلمة في العمال، الذين اغتبطوا لسماعه يتكلم بلهجة يي بِين. وبدلاً من القبعة العسكرية العادية التي كان الجميع يعتمرونها، كان يعتمر قبعة ثُمانيَّة الأركان قديمة، من النوع الذي كان الجيش الشيوعي يستخدمه في العشرينات وأوائل الثلاثينات، الشيء الذي اعتبره السكان المحليون غير مألوف وفيه قدر من التأنُّق.

ثم أخذهم المركب عبر النهر إلى المدينة. غاب أبي عنها عشر سنوات. وكان شديد التولع بعائلته، وخاصة بشقيقته الأصغر، التي كتب لها بحماسة من ينان عن حياته الجديدة، وكيف أنه يريدها أن تلتحق به هناك ذات يوم.

توقفت الرسائل عندما أحكم الكومنتانغ حصارهم، وكانت أول مرة سمعت فيها العائلة أخبار أبي بعد سنوات عديدة، حين تسلموا الصورة الفوتوغرافية التي التُقطت له مع أمي في نانجنغ. وخلال السنوات السبع السابقة، لم يكونوا يعرفون حتى إن كان حياً. لقد افتقدوه، وكانوا يبكون لدى التفكير فيه ويصلّون لبوذا من أجل عودته سالماً. كان قد أرسل مع الصورة الفوتوغرافية ملاحظة يقول فيها، إنه سيكون قريباً في يي بِين وإنه غيَّر اسمه. فحين كان في ينان اتخذ لنفسه، مثل كثيرين غيره، اسماً حركياً هو وانغ يو. و «يو» يعني «ناكراً للذات إلى حد اعتباره مغفلاً». عاد أبي فور وصوله إلى اسمه الحقيقي، تشانغ، ولكنه أدخل اسمه الحركي وسمى نفسه تشانغ شو - يو، ويعني ذلك «إبق يو».

قبل عشر سنوات، غادر أبي وهو متمرن فقير، جائع، غر، والآن عاد رجلاً قوياً وهو لم يبلغ الثلاثين بعد. كان هذا حلماً صينياً تقليدياً، دخل اللغة بوصفه «يي - جن - هوان - شيانغ»: «العودة إلى الديار ملفعاً بالحرير المطرز». وكانت عائلته فخورة جداً به، وكانوا مشتاقين إلى رؤية ما آل إليه بعد عشر سنوات، لأنهم سمعوا شتى الأمور الغريبة عن الشيوعيين. وبالطبع، كانت أمه بصفة خاصة تريد أن تتعرف إلى زوجته الجديدة.

كان أبي يتكلم ويضحك بصخب وصدق. كان صورة للاندفاع المنفلت، الذي يكاد يكون صبيانياً. وتبينت أمه، بارتياح وسعادة، أنه لم يتغير على الإطلاق. ومن خلال تحفظهم التقليدي العميق الجذور، عبَّر أفراد العائلة عن فرحتهم في عيونهم المشتاقة، المغرورقة بالدموع. شقيقته الصغرى وحدها كانت الأكثر بهجة. كانت تتحدث بحيوية وهي تلهو بضفائرها الطويلة، التي كانت بين الحين والآخر تعيدها وراء كتفها، عندما تميل برأسها لتأكيد ما تقوله. ابتسم أبي حين عرف الإيماءة السيشوانية التقليدية في لعب البنات. وكان قد نسيها تقريباً خلال سنواته العشر من التقشف في الشمال.

كان هناك الكثير مما ينبغي مواكبته. وكانت أم أبي قطعت شوطاً بعيداً في سرد ما

حدث للعائلة منذ أن غادر، عندما قالت إن شيئاً واحداً يقلقها: ماذا سيحدث لابنتها الكبرى التي كانت تعتني بها في تشونغ كنغ. فقد مات زوج هذه الابنة وترك لها قطعة أرض قامت بتشغيل بضعة عمال فيها. وكانت هناك شائعات كثيرة تُتَناقل عن الإصلاح الزراعي الشيوعي، وكانت العائلة قلقة من أن تُصنَّف الابنة في عداد ملّاك الأرض، وتُصادر أرضها. وانفعلت النساء وأخذت هواجسهن تتحول إلى اتهامات: «ماذا سيحدث لها؟ كيف تعيش؟ كيف يستطيع الشيوعيون أن يفعلوا شيئاً كهذا؟؟».

شعر أبي بالضيق والسخط. وانفجر قائلاً: «كنت أتطلع بشوق إلى هذا اليوم لأشاطركم انتصارنا. إن كل ظلم سيكون شيئاً يَمتّ إلى الماضي، وحان الوقت لننظر إلى الأمور بإيجابية ونبتهج. ولكنكم شديدو الارتياب، وكثيرو الانتقاد، لا تريدون إلاّ تسقُّط الأخطاء...». وهنا انفجر باكياً كأنه ولد صغير. وبكت النساء كلهن أيضاً. كانت دموعهن عنده دموع الخيبة والإحباط. وبالنسبة إليهن لا بدّ أن المشاعر كانت أكثر تعقيداً، فقد كان ينتابهن شك وريبة.

كانت أم أبي تعيش في بيت العائلة القديم، خارج المدينة مباشرة، تركه لها زوجها بعد مماته.

كان بيتاً ريفياً قليل الترف ـ منخفضاً، مصنوعاً من الخشب والآجر، ومسوَّراً من جهة الطريق. في مقدمته حديقة كبيرة، وفي المؤخرة كان هناك حقل من أشجار الخوخ الشتوية، يفوح منها عطر لذيذ، وحقول من الخيزران الكثيف، توحي بأجواء جُنَيْنَة مسحورة. كان البيت نظيفاً نظافة تامة. كل النوافذ لامعة، ولم تكن هناك ذرة غبار واحدة في أي مكان. كان الأثاث مصنوعاً من خشب البادوك البراق، الجميل بحمرته الغامقة، التي كانت أحياناً تضرب إلى السواد. هامت أمي بحب البيت من زيارتها الأولى، في اليوم الذي أعقب وصولها إلى يي بِين.

كانت هذه مناسبة هامة. فالشخص الذي لديه أكبر سلطة على المرأة المتزوجة كان، في التقليد الصيني، دائماً حماتها التي على الزوجة أن تكون مطيعة لها طاعة تامة، وعندما تصبح الزوجة بدورها حماة تضطهد كنّتها بالطريقة نفسها. وكان تحرير الكنَّة سياسة شيوعية هامة، وسَرَتْ شائعات كثيرة بأن الكنَّة الشيوعية تنين متغطرس، مستعدة للتسلط على حماتها. وكان الجميع في ترقب ينتظرون كيف ستتصرف أمي.

كانت عائلة أبي كبيرة ومنتشرة، وكلهم تجمعوا في البيت، ذلك اليوم. وإذ

اقتربت أمي من البوابة الأمامية، سمعت أشخاصاً يتهامسون «ها هي تأتي، ها هي تأتي!». وكان الكبار يُسكتون أطفالهم، الذين كانوا يتقافزون محاولين إلقاء نظرة على الكنّة الشيوعية الغريبة، القادمة من الشمال البعيد.

عندما دخلت أمي غرفة الجلوس مع أبي، كانت حماتها جالسة في نهاية الغرفة على كرسي مربع رسمي محفور من خشب البادوك. وكان يقود إليها على جانبي الغرفة صفان متناظران من كراسي البادوك المحفورة بروعة، إمعاناً في الرسميات. وكانت هناك منضدة صغيرة عليها زهرية أو زينة أخرى بين كل كرسيين. وإذ مشت أمي في الوسط، رأت أن لحماتها وجهاً هادئاً جداً ووجنتين مرتفعتين (ورثهما أبي) وعينين صغيرتين وذقناً حادة وشِفتين رفيعتين منحنيتين انحناء طفيفاً في نهايتهما. كانت صغيرة وبدت عيناها نصف مغلقتين، تبدو كأنها في حالة تأمل. سارت أمي نحوها ببطء مع أبي، وتوقفت أمام كرسيها، ثم ركعت وسجدت ثلاث مرات. وكان هذا عين الصواب بحسب الطقس التقليدي، ولكن الجميع كانوا يتساءلون إن كانت الشيوعية الشابة ستمارسه. وانفجرت الغرفة بتنفس الصعداء، وهمس أبناء عمومة أبي وأخواله وشقيقاته لأمه التي كانت مسرورة بوضوح: «يا لها من كنة رائعة! كل هذه الرقة، كل هذه الحلاوة، وكل هذا الاحترام! أماه، إنك محظوظة حقاً!».

كانت أمي فخورة تماماً بما حققته من فتح. وكانت هي وأبي قد أمضيا بعض الوقت يناقشان ما ينبغي عمله. إذ قال الشيوعيون إنهم سيتخلصون من السجود الذي يعتبرونه إهانة لكرامة الإنسان، ولكن أمي أرادت استثناء، لهذه المرة فقط. فوافق أبي. لم يكن يريد أن يجرح أمه، أو يسيء إلى زوجته ـ لا سيما بعد سقوط طفلها، فضلاً عن أن هذا السجود كان مختلفاً. إذ كان يراد به تسجيل نقطة لمصلحة الشيوعيين. ولكنه هو نفسه لم يسجد رغم أن ذلك كان منتظراً منه.

كانت كل النساء في عائلة أبي بوذيات. وإحدى شقيقاته، وهي جون ـ ينغ، التي لم تكن متزوجة، كانت تقية ورعة. وقد أخذت أمي للسجود أمام أحد تماثيل بوذا، وإلى أضرحة أسلاف العائلة في «السنة الجديدة» الصينية، بل إلى بساتين الخوخ الشتوي والخيزران في الحديقة الخلفية أيضاً. كانت العمة جون ـ ينغ تعتقد أن لكل زهرة ولكل شجرة روحاً. وكانت تطلب من أمي أن تسجد اثنتي عشرة مرة أمام أعواد الخيزران للتوسل إليها أن لا تزهر، لأن الصينيين كانوا يؤمنون بأن ذلك ينذر بوقوع

كارثة. وقد وجدت أمي في ذلك كله متعة كبيرة. فهو كان يذكرها بطفولتها ويمنحها فرصة لإطلاق إحساسها باللعب. لم يستحسن أبي ذلك، ولكنها هدأته بالقول إنه مجرد تمثيل للمساعدة على تحسين صورة الشيوعيين. فقد قال الكومنتانغ إن الشيوعيين سيمحون كل العادات التقليدية، وقالت إن من المهم أن يرى الناس أن هذا لا يحدث.

كانت عائلة أبي بالغة اللطف مع أمي. وكانت جدتي في الحقيقة بسيطة للغاية رغم رسمياتها في البداية. وهي نادراً ما كانت تصدر أحكاماً، ولم توجه انتقادات قط. كان وجه العمة جون ـ ينغ المدور يحمل آثار مرض الجدري، ولكن عينيها كانتا حانيتين، بحيث كان في استطاعة الجميع أن يروا أنها امرأة طيبة، يمكن أن يشعروا معها بالأمان والاسترخاء. لم يكن في وسع أمي سوى مقابلة نسبائها الجدد بأمها. لم يكونوا يشعون طاقتها ومرحها، ولكن بساطتهم ووقارهم جعلا أمي تشعر تماماً أنها في بيتها. كانت العمة جون ـ ينغ تطهو طعاماً سيشوانياً متبلاً لذيذاً، يختلف تماماً عن الطعام الشمالي. وكان لأطباق الأكل أسماء غريبة تعشقها أمي: «النمر يقاتل التنين»، «فرخة الجارية الأمبراطورية»، «بطة مثيرة بالصلصة الحارة»، «فرخ الديك الذهبي يصيح عند الفجر». كانت أمي تذهب إلى البيت في أحيان كثيرة وتأكل مع العائلة، ناظرة إلى بستان الخوخ واللوز والدراق، الذي كان يصنع بحراً من الأزهار الوردية والبيضاء في مطلع الربيع. وقد وجدت أجواء ترحيبية دافئة بين النساء في عائلة تشانغ، وشعرت أنها موضع حب كبير منهن.

سرعان ما عُينت أمي للعمل في قسم الشؤون العامة لحكومة إقليم يي بِين. وكانت تمضي القليل جداً من الوقت في المكتب. كانت الأولوية الأولى إطعام السكان ـ وقد أخذ ذلك يصبح صعباً.

كان الجنوب الغربي آخر معقل لقيادة الكومنتانغ، وكان ربع مليون جندي لا يزالون في سيشوان، عندما هرب شيان كاي ـ شيك من الإقليم إلى تايوان في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩. والأكثر من ذلك أن سيشوان كانت من الأماكن القليلة، التي لم يحتل فيها الشيوعيون مناطق الريف قبل الاستيلاء على المدن. وكانت وحدات من الكومنتانغ مشتتة، ولكنها حسنة التسليح، لا تزال تسيطر على قسم كبير من الريف في جنوب سيشوان، وكان معظم الإمدادات الغذائية بأيدي أسياد حرب موالين

للكومنتانغ، وكان الشيوعيون في حاجة ماسة إلى تأمين إمدادات لإطعام المدن، فضلاً عن إطعام قواتهم وأعداد كبيرة من جنود الكومنتانغ الذين استسلموا.

في البداية، أرسلوا أشخاصاً ليحاولوا شراء الغذاء. وتقليدياً، كان لدى الكثير من أسياد الحرب الكبار جيوشهم الخاصة التي التحقت الآن بعصابات جنود الكومنتانغ. وبعد أيام قليلة من وصول أمي إلى يي بِين، انتفضت هذه القوات في حملة شاملة جنوب سيشوان. وكانت يي بِين مهددة بالجوع.

بدأ الشيوعيون يرسلون فرقاً مسلحة، تتألف من مسؤولين يرافقهم حراس مسلحون لجمع الغذاء. وقد عبىء الجميع تقريباً. وأضحت المكاتب الحكومية فارغة. لم تبق في حكومة إقليم يي بِين كلها إلاّ امرأتان: واحدة كانت تدير مكتب الاستقبال والأخرى وضعت مولوداً جديداً.

شاركت أمي في عدد من هذه المهمات، التي كانت الواحدة منها تدوم عدة أيام. وكان هناك ثلاثة عشر شخصاً في فريقها: سبعة مدنيين وستة جنود. وكانت عدة أمي تتألف من فراش وكيس من الرز ومظلة ثقيلة، مصنوعة من القنب المطلي بزيت التانغ، وكان عليها أن تحمل كل ذلك على ظهرها. كان على الفريق أن يسير أياماً في أرياف وعرة، وعبر ما يسميه الصينيون «ممرات أمعاء الغنم» ـ ممرات جبلية ضيقة غدَّارة، تلتف حول منحدرات وأخاديد سحيقة. وحين كانوا يصلون إلى قرية، يتوجهون إلى أكثر الأكواخ بؤساً ويحاولون التقرُّب من الفلاحين الفقراء جداً، قائلين لهم إن الشيوعيين سيعطون أمثالهم أرضاً تكون ملكهم، وحياة سعيدة، ثم يسألونهم عن المكان الذي يخزن فيه الملاك الرز. وكان معظم الفلاحين قد ورثوا خوفاً وريبة تقليديين إزاء كل المسؤولين. وكان كثير منهم لم يسمع عن الشيوعيين، إلاّ بصورة مبهمة، وكل ما سمعوه كان سيّئاً. ولكن أمي، بعد أن سارعت إلى تعديل لغتها الشمالية وفق اللهجة المحلية، كانت على درجة عالية من الفصاحة والإقناع. واتضح أن شرح السياسة الجديدة هو موهبتها. وإذا نجح الفريق في الحصول على معلومات عن الملاّك، كانوا يذهبون ويحاولون إقناع هؤلاء بالبيع في نقاط تجميع معينة، حيث يُدفع لهم عند التسليم. كان البعض يخافون ويستسلمون دون ضجة كبيرة. وكان البعض الآخر يُبلِّغون عن أماكن وجود الفريق لإحدى العصابات المسلحة. وغالباً ما

أطلقت النار على أمي ورفاقها، وكانوا يقضون كل ليلة في حالة تأهب، مضطرين أحياناً إلى التنقل من مكان إلى آخر لتجنب الهجوم عليهم.

في البداية، كانوا يقيمون مع الفلاحين الفقراء. ولكن إذا اكتشف قطاع الطرق أن أحداً ساعدهم كانوا يقتلون العائلة كلها. وبعد عدد من أعمال القتل، قرر الفريق أنه لا يمكن أن يعرضوا أرواح الأبرياء للخطر. لذا، كانوا ينامون في العراء، أو في معابد مهجورة.

في مهمتها الثالثة، بدأت أمي تتقيأ وتعاني نوبات غثيان. كانت حاملاً من جديد. وعادت إلى يي بِين منهوكة، تواقة إلى الراحة، ولكن كان على فريقها أن ينطلق في مهمة أخرى على الفور. كان هناك إبهام حول ما ينبغي أن تفعله المرأة الحامل، وكانت حائرة بين الذهاب أو عدم الذهاب. كانت تريد أن تذهب، كان مزاج ذلك الزمن مزاج تضحية ذاتية إلى حد بعيد. ويُعد من المخزي التبرم بأي شيء. ولكنها كانت مرعوبة من إجهاضها قبل خمسة أشهر فقط، ومن فكرة حدوث إجهاض آخر، وسط البرية، حيث لا أطباء، ولا وسائط نقل. يضاف إلى ذلك أن هذه المهمات كانت تنطوي على معارك يومية تقريباً مع قطاع الطرق، وكان من المهم أن يكون المرء قادراً على الركض ـ والركض سريعاً. وهي حتى المشي كان يسبب لها الغثيان.

مع ذلك قررتْ أن تذهب. كانت هناك امرأة أخرى، وكانت أيضاً حاملاً. وذات عصر، كان الفريق يتهيأ للغداء في فناء مهجور. افترضوا أن المالك هرب، على الأرجح هرب منهم. كانت الأسوار الطينية التي تلتف بعلو الكتف حول الفناء المغطى بالدغل، متداعية في أماكن متعددة. وكانت البوابة الخشبية مفتوحة وتصرُّ في نسيم الربيع. وكان الطاهي يحضر الرز في المطبخ المهجور، عندما ظهر رجل كهل. كانت له هيئة فلاح: كان يرتدي صندلاً من القش وسروالاً فضفاضاً مع قطعة قماش كبيرة كالمئزر، دُسّت على أحد الجانبين، داخل كَمَر قطني، ويعتمر عمامة بيضاء قذرة. أخبرهم أن عصابة من الرجال تنتمي إلى مجموعة سيئة الصيت من قطاع الطرق تسمى «لواء السيف العريض» في طريقهم إليهم وأنهم يريدون بصفة خاصة أن يأسروا أمي والمرأة الأخرى في الفريق، لأنهم يعرفون أنهما زوجتا مسؤولين شيوعيين كبيرين.

لم يكن هذا الرجل فلاحاً عادياً. فهو، في ظل الكومنتانغ، كان زعيم المنطقة

المحلية، التي تحكم عدداً من القرى، من ضمنها القرية التي كان الفريق فيها. وقد حاول «لواء السيف العريض» أن يكسب تعاونه، مثلما فعل مع كل رجال الكومنتانغ والملاّك السابقين. فانضم إلى اللواء، ولكنه كان يريد أن يُبقي خياراته مفتوحة، وأخذ يمد الشيوعيين بمعلومات لشراء ضمانة لنفسه، وأبلغهم بأحسن طريقة للهرب.

نهضِ الفريق وانطلق على الفور. ولكن أمي والمرأة الحامل الأخرى لم تتمكنا من الحركة بسرعة كبيرة، فاقتادهما الزعيم إلى الخارج، عبر ثغرة في الجدار، وساعدهما على الاختباء في كومة قش قريبة. تخلّف الطاهي في المطبخ، لرزم الرز المطبوخ، وصب ماء بارد على القِدر لتبريدها حتى يستطيع أن يأخذها معه. فالرز والقِدر كانا أثمن من أن يتخلى عنهما، وكان من الصعب الحصول على قِدر حديدية، لا سيما في زمن الحرب. بقي جنديان في المطبخ يساعدانه ويحاولان استعجاله. وأخيراً اختطف الطاهي الرز والقِدر واندفع الثلاثة نحو الباب الخلفي. ولكن قطاع الطرق كانوا مقبلين من الباب الأمامي، ولحقوا بهم بعد ياردات قليلة. انقضوا عليهم وقتلوهم طعناً بالسكاكين. كانت العصابة تنقصها البنادق، ولم يكن لديها عتاد كاف لإطلاق النار على بقية الفريق الذين كانوا يستطيعون رؤيتهم على مسافة غير بعيدة. ولم يكتشفوا أمي والمرأة الأخرى في كومة القش.

بعد فترة غير طويلة أُسرت العصابة ومعها الزعيم. فقد كان زعيم العصابة وإحدى «الأفاعي في جحورها القديمة»، الأمر الذي يضعه تحت طائلة الإعدام. ولكنه قدم معلومات للفريق وأنقذ حياة المرأتين. وقتذاك، كان يتعين أن تنال أحكام الإعدام موافقة «مجلس مراجعة» من ثلاثة أعضاء. واتفق أن رئيس المحكمة كان أبي، والعضو الثاني زوج المرأة الحامل الأخرى، والثالث رئيس الشرطة المحلية.

انقسمت المحكمة إلى اثنين مقابل واحد. فقد صوّت زوج المرأة الأخرى لمصلحة الإبقاء على حياة الزعيم، وصوّت أبي ورئيس الشرطة مع حكم الإعدام. ناشدت أمي المحكمة أن تحفظ على الرجل حياته، ولكن أبي كان مصمماً بعناد. وهذا على وجه التحديد ما كان الرجل يراهن عليه، إذ قال لأمي إنه اختار هذا الفريق بالذات لإبلاغه، لأنه كان يعرف أن الفريق يضم زوجتي مسؤولين هامين. وقال أبي: «إن يده ملطخة بدماء كثيرة». واعترض زوج المرأة الأخرى بشدة. فردّ أبي ضارباً المنضدة بقبضته: «ولكننا لا نستطيع الرأفة لأن الأمر يتعلق بزوجتينا. إذا سمحنا

للمشاعر الشخصية أن تؤثر في حكمنا، ماذا سيكون الفرق بين الصين الجديدة والصين القديمة؟». وأعدم الزعيم.

لم تستطع أمي أن تغفر لأبي ذلك. شعرت أن الرجل ينبغي أن لا يموت، لأنه أنقذ الكثير من الأرواح، وأبي على وجه التحديد «يدين» له بحياة. ومن وجهة نظرها، التي هي وجهة نظر كان سيتخذها معظم الصينيين، كان سلوك أبي يعني أنها ليست عزيزة عليه بخلاف زوج المرأة الأخرى.

ما أن انتهت المحاكمة حتى أُرسِل فريق أمي مرة أخرى إلى الريف. كانت لا تزال مريضة بشدة من حملها، تتقيأ كثيراً، ومنهوكة طول الوقت. وكانت تعاني آلاماً في بطنها منذ الاندفاع بعنف نحو كومة القش. قرر زوج المرأة الحامل الأخرى أنه لن يسمح لزوجته بالذهاب مرة أخرى. وقال: «سأحمي زوجتي الحامل. وسأحمي كل الزوجات الحوامل. ما من امرأة حامل يتعين عليها أن تتعرض لمثل هذه المخاطر». ولكنه واجه معارضة شديدة من مسؤولة أمي السيدة مِي، وهي فلاحة كانت مقاتلة في حرب العصابات. إذ لم يكن وارداً أن تأخذ الفلاحة قسطاً من الراحة إذا كانت حاملاً، بل كان عليها أن تعمل حتى لحظة الوضع، وكانت هناك قصص لا تحصى عن نساء قطعن الحبل السري بمنجل وواصلن العمل. والسيدة مِي ولدت وليدها في ساحة المعركة واضطرت إلى تركه على الفور ـ إذ إن صراخ الرضيع كان من الممكن أن يهدد المجموعة كلها بالخطر. وبعد أن فقدت طفلها، بدا أنها تريد للأخريات أن يعانين مصيراً مماثلاً. فأصرت على إرسال أمي مرة أخرى متذرعة بحجة فعالة للغاية. في ذلك الوقت لم يكن الزواج مسموحاً لأعضاء الحزب، باستثناء المسؤولين المتقدمين نسبياً (أولئك المؤهلون بوصفهم «٢٨ ـ ٧ ـ كتيبة ـ ١»). لذا، فأي امرأة حامل كان من المحتم عملياً أن تكون من النخبة. وإذا لم يذهب هؤلاء، كيف يستطيع الحزب أن يأمل في إقناع الآخرين بالذهاب؟ اتفق أبي معها، وقال لأمي إنها ينبغي أن تذهب.

قبلت أمي بذلك رغم مخاوفها من حدوث إسقاط آخر. كانت مستعدة للموت، ولكنها كانت تعوِّل على وقوف أبي ضد ذهابها ـ وأنه سيقول ذلك، وهكذا ستشعر أنه وضع سلامتها أولاً. واتضح لها أن ولاء أبي الأول كان للثورة، وأصيبت بخيبة مريرة.

أمضت عدة أسابيع متألمة ومنهوكة، هائمة في الروابي والجبال. وكانت الاشتباكات تزداد حدة. كان كل يوم تقريباً يأتي بأنباء عن تعرض أعضاء فرق أخرى للتعذيب والقتل على أيدي قطاع الطرق. وكانوا ساديين بصفة خاصة مع النساء. وذات يوم، ألقيت جثة واحدة من بنات أخي أبي خارج بوابة المدينة مباشرة: تعرضت للاغتصاب والطعن بالسكاكين وكان فرجها كتلة دموية ممزقة. ووقعت امرأة أخرى في أسر «لواء السيف العريض» خلال أحد الاشتباكات. كانوا مطوقين بشيوعيين مسلحين، فربطوا المرأة وطلبوا منها أن تنادي رفاقها ليسمحوا لهم بالهرب. وبدلاً من ذلك صاحت: «تقدموا، لا تقلقوا عليّ!». وفي كل مرة كانت تنادي، كان واحد من قطاع الطرق ينتزع قطعة من لحمها بسكين. ماتت وقد مُثِّل بها تمثيلاً فظيعاً. وبعد عدة حوادث كهذه، تقرر عدم إرسال نساء في مهمات جمع الغذاء.

في هذه الأثناء، كانت جدتي في جنجو قلقة باستمرار على ابنتها. وما أن تسلمت رسالة منها تقول إنها وصلت يي بِين، حتى قررت الذهاب والتوثق من إنها بخير. وفي آذار/مارس ١٩٥٠، انطلقت في مسيرتها الطويلة عبر الصين، بمفردها.

لم تكن تعرف شيئاً عن بقية البلاد الشاسعة، وتخيلت أن سيشوان ليست جبلية ومعزولة فحسب، بل تفتقر إلى ضروريات الحياة اليومية أيضاً. وكانت عازمة على أن تأخذ معها كمية كبيرة من السلع الأساسية، ولكن البلاد كانت لا تزال في حالة غليان، وكان القتال لا يزال مستمراً على طول الطريق التي تعتزم سلوكها. أدركت أنه سيتعين عليها أن تحمل أمتعتها بنفسها، وربما أن تمشي شطراً كبيراً من الطريق، الأمر الذي كان بالغ الصعوبة على قدمين مربوطتين. وفي النهاية، استقر رأيها على رزمة صغيرة واحدة تستطيع أن تحملها بنفسها.

ازداد حجم قدميها منذ أن تزوجت الدكتور شيا، إذ لم يكن المانشو يمارسون ربط الأقدام. لذا، نزعت جدتي القماش الرابط، ونمت قدماها قليلاً بصورة تدريجية. وكانت هذه العملية موجعة تقريباً بقدر عملية الربط الأصلية. فالعظام المكسَّرة لا يمكن أن تعود سيرتها الأولى، ولذا لم تعد القدمان إلى شكلهما السوي، بل ظلتا معاقتين ومنكمشتين. كانت جدتي تريد أن تبدو قدماها طبيعيتين، فكانت تحشو أحذيتها بالقطن.

قبل أن تغادر، أعطاها لِنْ شياو ـ شيا، الرجل الذي جاء بها إلى زواج والديَّ، وثيقة تقول إنها أم امرأة ثورية. ومن شأن ذلك أن تؤمن لها منظمات الحزب على الطريق الطعام والإقامة والنقود. اتبعتْ تقريباً الطريق نفسه الذي سلكه والداي، مستقلة القطار جزءاً من الطريق، وأحياناً مسافرة في شاحنات، وراجلة حين لا تكون هناك واسطة نقل. وذات مرة، كانت على ظهر شاحنة مكشوفة مع بعض النساء والأطفال، الذين كانوا كلهم ينتمون إلى عوائل شيوعيين. توقفت الشاحنة لكي يتبول بعض الأطفال. وفي اللحظة التي توقفت فيها، اخترقت رصاصات الألواح الخشبية على الجانب. انبطحت جدتي في الخلف، فيما كانت الطلقات تئز على مقربة بوصات فوق رأسها. ورد الحراس على النار بالرشاشات، وتمكنوا من إسكات المهاجمين، الذين اتضح أنهم من فلول الكومنتانغ. خرجت جدتي سالمة، ولكن العديد من الأطفال وبعض الحراس لاقوا مصرعهم.

عندما وصلت إلى ووهان، وهي مدينة كبيرة في وسط الصين، كانت قد قطعت حوالي ثلثي الطريق، قيل لها إن القسم التالي، بالمركب أعلى نهر يانغ تزي، ليس مأموناً بسبب قطّاع الطرق. وكان عليها أن تنتظر شهراً حتى تهدأ الأمور ـ مع ذلك هوجمت سفينتها مرات متعددة من الشاطىء.

كان للمركب القديم بعض الشيء، سطح مكشوف منبسط، فأقام الحراس جداراً من أكياس الرمل، يرتفع حوالي أربع أقدام على جانبيه مع فتحات لأسلحتهم. بدا المركب وكأنه حصن عائم. وكلما كانت النار تطلق عليه، كان الربان يقوده بأقصى سرعة محاولاً اختراق وابل الرصاص، فيما كان الحراس يردون بإطلاق نيران أسلحتهم من وراء مرابضهم المحصنة بأكياس الرمل. وكانت جدتي تنزل تحت السطح وتنتظر ريثما ينتهي إطلاق النار.

انتقلت إلى مركب أصغر في يي تشانغ، وعبرت مداخل يانغ تزي، وبحلول شهر أيار/مايو، كانت قريبة من يي بِين جالسة في مركب مغطى بسعف النخيل، ومبحرة بهدوء بين مويجات صافية كالبلور، وكان النسيم عَبِقاً بشذا أزهار البرتقال.

كان اثنا عشر مجذِّفاً يقودون المركب أعلى المجرى. وفيما هم يجذفون، كانوا يغنون ألحاناً أوبرالية سيشوانية تقليدية، وأغاني مرتجلة عن أسماء القرى التي يمرون

بها، وأساطير الروابي وأرواح حقول الخيزران. وكانوا يغنون أغاني قاصدين المسافرات، ويغمزونهن بعيونهم. وجدت جدتي متعة بالغة في أغاني الغزل تلك. لم تتمكن من فهم أغلبية التعابير التي كانوا يستخدمونها، لأنها كانت باللهجة السيشوانية، ولكنها استطاعت أن تستشف أنها تعابير موحية جنسياً، من الطريقة التي كان المسافرون يطلقون بها ضحكات خافتة، تشي بالمسرة والتحرج على السواء. لقد سمعت عن الشخصية السيشوانية، التي كانت تتصورها شخصية لذيذة. كانت جدتي في مزاج رائق، ولم تعرف أن أمي اقتربت من الموت عدة مرات، ولا أمي قالت لها شيئاً عن إجهاضها.

كان الوقت منتصف أيار/مايو عند وصولها. واستغرقت الرحلة أكثر من شهرين. فرحت أمي، التي كانت مريضة وبائسة، فرحاً غامراً برؤية أمها ثانية. ولم يكن أبي مسروراً بالقدر نفسه. ففي يي بِين، كانت المرة الأولى التي اختلى فيها بأمي، وفي وضع شبه مستقر. وكان لتوّه قد ابتعد عن حماته، وها هي الآن ثانية، وهو الذي كان يراهن على وجودها بعيدة ألف ميل. كان يدرك حق الإدراك أنه لن يصل في علاقته بحماته إلى مستوى الأواصر بين الأم وإبنتها.

كانت أمي تغلي سخطاً على أبي، فمنذ أن ازداد خطر قطاع الطرق حدة، أعيد نمط الحياة شبه العسكري. ولأنهما كانا يغيبان كثيراً، فإن أمي نادراً ما كانت تقضي الليل مع أبي. كان يسافر في أنحاء البلاد، معظم الوقت، متفقداً الأحوال في المناطق الريفية، ومستمعاً إلى شكاوى الفلاحين، ومتعاملاً مع شتى صنوف المشاكل، مؤمِّناً على الأخص إمدادات الغذاء. حتى عندما يكون أبي في يي بِين، كان يعمل حتى ساعة متأخرة في المكتب. قلّما كان والداي يلتقيان، فإذا بهما يتباعدان من جديد.

نكأ وصول جدتي جراحاً قديمة. فقد خُصصت لها غرفة في الفناء الذي كان والداي يعيشان فيه. حينذاك، كان جميع المسؤولين يعيشون وفق نظام مخصصات شامل، يسمى غونغ ـ جي ـ جي. لم يكونوا يتسلمون مرتبات، ولكن الدولة كانت تهيئ لهم السكن والمأكل والملبس والضروريات اليومية، فضلاً عن مبلغ ضئيل من مصروف الجيب ـ كما في الجيش. وكان على الجميع أن يأكلوا في مطاعم، حيث الأكل قليل الكمية وعديم المذاق. لم يكن مسموحاً الطبخ في البيت، حتى إذا كانت النقود متاحة من مصدر آخر.

عندما وصلت جدتي، بدأت تبيع بعضاً من جواهرها لشراء الغذاء. وكانت حريصة بصفة خاصة على الطهي لأمي، لأنه كان يُعتقد تقليدياً أنه من الضروري أن تتغذى الحامل تغذية حسنة. ولكن سرعان ما بدأت الشكاوى تتوالى عن طريق السيدة مِي حول كون أمي «بورجوازية» ـ تتلقى معاملة ممتازة، وتستخدم أشياء عزيزة يتعين جمعها من الريف كالغذاء. كما تعرضت للنقد لكونها «مدللة»، فوجود أمها هناك يضير إعادة تثقيفها وتربيتها. مارس أبي النقد الذاتي أمام منظمته الحزبية، وأمر جدتي بالكف عن الطهي في البيت. رفضت أمي ذلك، وكذلك فعلت جدتي. وقالت أمي بمرارة: «ألا تستطيع الدفاع عني ولو مرة واحد؟ الطفل الذي أحمله طفلك بقدر ما هو طفلي، وهو يحتاج إلى تغذية». في النهاية، تنازل أبي قليلاً: تستطيع جدتي الطهي في البيت مرتين في الأسبوع، ولكن لا أكثر. وقال، حتى هذا كان خرقاً للقواعد.

اتضح أن جدتي كانت تخرق قاعدة أكثر أهمية. لم يكن مسموحاً، إلا لمن بلغ رتبة معينة، أن يكون آباؤهم وأمهاتهم معهم، وأمي لم تكن منهم. ولأن المسؤولين لا يتلقون مرتبات، فقد كانت الدولة مسؤولة عن العناية بمن يعيلونهم، وكانت تريد إبقاء أعدادهم منخفضة. ورغم أن أبي كان متقدماً بما فيه الكفاية، فقد ترك العمة جون ـ ينغ تستمر في إعالة أمه نفسها. وأشارت أمي إلى أمها، أن لن تكون عبئاً على الدولة، لأن لديها ما يكفي من الجواهر لإعالة نفسها، وأنها دعيت للسكن مع العمة جون ـ ينغ. وقالت السيدة مِي إنه لا ينبغي أن تكون جدتي هناك، وإنه يتعين عليها أن تعود إلى منشوريا. وقد وافق أبي على ذلك.

جادلته أمي جدالاً حامياً، ولكنه قال إن القاعدة هي القاعدة ـ ولن يكافح من أجل حرفها. في الصين القديمة، كان من المفاسد الكبيرة، أن كل من لديه سطوة يكون فوق القواعد، ومن المكوِّنات الهامة للثورة الشيوعية، أن المسؤولين، شأنهم شأن كل الآخرين، ينبغي أن يخضعوا للقواعد. بكت أمي، وكانت تخشى حدوث إجهاض آخر، لعل أبي يراعي سلامتها، ويسمح ببقاء أمها حتى الولادة. إلا أنه ظل يردد: «لا، الفساد دائماً يبدأ بأشياء صغيرة كهذه. هذا النوع من الأشياء هو الذي سيقوِّض ثورتنا». لم تتمكن أمي من إيجاد حجة لكسبه. فانبرت تردد: « إنه بلا مشاعر. إنه لا يضع مصالحي أولاً. إنه لا يحبني».

كان على جدتي أن ترحل، ولم تغفر أمي لأبي ذلك قط. قضت جدتي مع ابنتها أكثر من شهر بقليل، بعد أن أمضت أكثر من شهرين في السفر عبر الصين، مخاطرة بحياتها. كانت تخاف أن يحدث لأمي إجهاض آخر، ولم تكن تثق بالخدمات الطبية في يي بِين. وقبل أن تغادر، ذهبت لرؤية عمتي جون ـ ينغ، وسجدت لها بمهابة قائلة إنها تترك أمي بعنايتها. كانت عمتي حزينة أيضاً. وشعرت بالقلق على أمي، وكانت تريد أن تكون جدتي حاضرة عند الولادة. ذهبت لتترجّى شقيقها، ولكنه لم يتزحزح عن موقفه.

وبقلب مثقل ودموع حارة، توجهت جدتي نازلة إلى المرفأ مع أمي، لأخذ المركب الصغير، عائدة أسفل نهر يانغ تزي، في بداية رحلة العودة الطويلة والمجهولة إلى منشوريا. وقفت أمي على شاطىء النهر ملوحة، فيما اختفى المركب في الضباب، ومتسائلة إن كانت سترى أمها ثانية ذات يوم.

كان الوقت تموز/ يوليو ١٩٥٠. وكانت عضوية أمي المؤقتة في الحزب لمدة عام تقترب من نهايتها، وكانت خليتها الحزبية تسومها العذاب. لم يكن فيها إلاّ ثلاثة أعضاء: أمي وحارس أبي ورئيسة أمي السيدة مِي. كان أعضاء الحزب قليلين في يي بِين بحيث جُمع هؤلاء الثلاثة معاً دون انسجام. وكان الآخران، اللذان كانا عضوين كاملين، ميالين إلى رفض طلب أمي، ولكنهما لم يقولا لا بصراحة، بل اكتفيا بتعذيبها وإجبارها على ممارسة النقد الذاتي بلا نهاية.

في كل جلسة للنقد الذاتي، كانت تطرح كثير من الانتقادات. أصر رفيقا أمي على أنها تصرفت بطريقة «بورجوازية». قالا إنها لم تشأ الذهاب إلى الريف للمساعدة على جمع الغذاء، وعندما أوضحت أنها ذهبت تماشياً مع رغبات الحزب، قالا: «آه، لكنك لم تكوني تريدين الذهاب حقاً». ثم اتهماها بالتمتع بطعام مميز ـ طعام طهته أمها في البيت ـ وبالاستسلام للمرض أكثر من أي امرأة حامل. كما انتقدتها السيدة مِي، لأن أمها صنعت ملابس جديدة لطفلها. قالت: «من ذا الذي سمع بطفل يلبس ثياباً جديدة؟ إنه هدر بورجوازي! لم لا تلف طفلها بثياب قديمة مثل الآخرين؟». وقد أشير إلى إظهار أمي لحزنها، عندما كان يتعين على جدتي الرحيل، بأنه إثبات حاسم لكونها «تضع العائلة أولاً»، وتلك تهمة تؤدي إلى الخطر.

كان صيف عام ١٩٥٠ الصيف الأكثر حرارة في الذاكرة الحيّة، حيث الرطوبة مرتفعة ودرجات الحرارة تفوق ١٠٠° فهرنهايت. وكانت أمي تغتسل كل يوم، وقد هوجمت لذلك أيضاً. فالفلاحون، لا سيما في الشمال، حيث تنحدر السيدة مِي، نادراً ما يغتسلون بسبب قلة المياه. وفي أثناء حرب العصابات، كان الرجال والنساء يتنافسون على من يملك أكبر عدد من «الحشرات الثورية» (القمل). فالنظافة كانت تعتبر غير بروليتارية. وعندما تحوّل الصيف القائظ إلى خريف بارد، طلع حارس أمي باتهام جديد، أمي «تتصرف مثل زوجة موظف كبير من الكومنتانغ». لأنها استخدمت الماء الساخن المتبقي من وراء استخدام أبي. ففي ذلك الوقت، كانت توجد قاعدة، تقصر استخدام الماء الساخن على من هم فوق رتبة معيّنة، من أجل توفير الوقود. كان أبي يقع ضمن هذه الفئة، فيما لم تكن أمي كذلك. وكانت قد نصحت، من قبل نساء من عائلة أبي، بعدم لمس الماء البارد عندما تقترب من وقت الوضع. وبعد نقد الحارس الشخصي. منع أبي أمي من استخدام مائه. شعرت أمي بالرغبة في الصراخ عليه، لعدم وقوفه إلى جانبها في وجه التدخلات التي لا تنتهي في أعماق حياتها الذاتية.

كان تدخل الحزب في حياة الناس الهدف الرئيسي للعملية التي عرفت باسم «إصلاح الفكر». فماو لم يرد الانضباط الخارجي فحسب، وإنما أيضاً الخضوع التام للأفكار، كبيرها وصغيرها. وكل أسبوع، كان يعقد اجتماع بغية «فحص فكر» أولئك المنتمين «إلى الثورة». وكان على الجميع أن ينتقدوا أنفسهم على الأفكار غير الصحيحة، والخضوع لانتقاد الآخرين. وكانت الاجتماعات تميل إلى الخضوع لسيطرة من يدّعون الصلاح لأنفسهم ولذوي العقول التافهة، الذين يستخدمونها للتنفيس على حسدهم وإحباطهم. وكان ذوو الأصول الفلاحية يستخدمونها لمهاجمة ذوي الخلفية البورجوازية. كان القصد من وراء ذلك إصلاح الناس، ليتشبّهوا بالفلاحين، لأن الثورة الشيوعية كانت ثورة فلاحين في الأساس.

وقد توخت هذه العملية الشعور بالذنب لدى المعلمين، فقد كانوا يحيون حياة أفضل من حياة الفلاحين، وقد ضرب النقد الذاتي على هذا الوتر.

كانت الاجتماعات وسيلة هامة للرقابة الشيوعية. لم تترك للناس وقت فراغ، وأزالت الدائرة الخاصة. وكانت التفاهة المسيطرة عليها، تبرر على أساس أن

التجسس على التفاصيل الخاصة طريقة لضمان التنقية الشاملة للروح. لقد كانت التفاهة في الواقع سمة أساسية للثورة، التي احتفي فيها بالجهل والتطفل، وأدخل الحسد في نظام الرقابة. كانت خلية أمي تلوعها أسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، وتجبرها على القيام بنقد ذاتي لا ينتهي.

كان عليها أن توافق على عملية التعذيب هذه. فليس للحياة معنى لدى الثوري، إذا رفضه الحزب. كان ذلك كالحرم الكنسي بالنسبة إلى الكاثوليكي. يضاف إلى ذلك أنها كانت عملية إجرائية معهودة، مرَّ بها أبي، وقبل بها كجزء من «الانضمام إلى الثورة». وفي الحقيقة، كان لا يزال يمر بها. ولم يخف الحزب قط أنها عملية مؤلمة. وقال أبي لأمي إن عذابها طبيعي.

في نهاية ذلك كله، صوَّت رفيقا أمي ضد عضويتها الكاملة في الحزب. فاغتمَّت غماً عميقاً. كانت متفانية من أجل الثورة، ولم تتمكن من قبول فكرة أن الثورة لا تريدها. وكان مما يدعو إلى الحنق بصفة خاصة التفكير في أنها لا تستطيع الانضمام لأسباب تافهة، وليست ذات صلة على الإطلاق بقرار من شخصين، بدت طريقة تفكيرهما بعيدة سنوات ضوئية عن تصورها لإيديولوجيا الحزب. كان متخلفون يُبقونها خارج منظمة تقدمية، ومع ذلك بدا أن الثورة تقول لها إنها هي المخطئة. وفي قرارة نفسها، كانت هناك نقطة أخرى، عملية أكثر، لم تقلها حتى لنفسها: كان من الضروري دخول الحزب، لأنها إذا أخفقت في ذلك ستكون موضع استنكار وعزل.

وإذ كانت هذه الأفكار تعتمل في رأس أمي، فقد أخذت تشعر أن العالم ضدها. وصارت ترتاع من رؤية الناس، وتمضي أكثر وقت ممكن وحيدة، منتحبة. وحتى هذا كان عليها أن تخفيه، لأنه كان سيُعد مظهراً لعدم الثقة بالثورة. وجدت أنها لا تستطيع أن تلوم الحزب، الذي بدا لها على صواب، فأنحت باللائمة على أبي، أولاً لمسؤوليته عن حملها ثم لعدم وقوفه إلى جانبها عندما تعرضت للهجوم والرفض. وسارت مرات عديدة على طول المرفأ، محدقة إلى مياه نهر يانغ تزي العكرة، وفكرت في الانتحار لمعاقبته، مصورة لنفسها كيف سينهشه الندم عندما يكتشف أنها قتلت نفسها.

كان يتعين أن تنال توصية خليتها موافقة سلطة أعلى، تتألف من ثلاثة مثقفين

واعين. وهؤلاء رأوا أن أمي لاقت معاملة غير عادلة، ولكن القواعد الحزبية تجعل من الصعب عليهم أن يرفضوا التوصية الصادرة عن خليتها. فعمدوا إلى التسويف. وكان هذا سهلاً نسبياً، لأنه نادراً ما كان الثلاثة يلتقون في مكان واحد. فهم على غرار أبي والمسؤولين الآخرين، كانوا عادة بعيدين في أنحاء مختلفة من الريف، يبحثون عن المواد الغذائية، ويقاتلون قطّاع الطرق. وقام جيش كبير، من فلول الكومنتانغ والملاك وقطاع الطرق، بمحاصرة يي بِين لعلمهم أن المدينة تكاد تكون بلا دفاعات، ومدفوعة إلى اليأس لأن كل طرق الهرب ـ سواء إلى تايوان أو عبر يونان إلى الهند الصينية وبورما ـ كانت مقطوعة، ولبعض الوقت، بدت المدينة آيلة إلى السقوط. أسرع أبي بالعودة من الريف فور سماعه بالهجوم.

كانت الحقول تبدأ خارج أسوار المدينة مباشرة، وكان هناك نباتات تقترب إلى حد ياردات قليلة من البوابات. استخدم المهاجمون ذلك غطاء لهم، فتمكنوا من بلوغ الأسوار، وشرعوا يضربون البوابة الشمالية بمدكات ساحقة ضخمة. وكان في الطليعة «لواء السيف العريض»، المؤلف في الأساس من فلاحين عُزَّل، شربوا «ماء مقدساً»، يعتقدون أنه يجعلهم محصنين ضد الرصاص. وكان جنود الكومنتانغ وراءهم. في البداية، حاول قائد الجيش الشيوعي أن يسدد نيرانه إلى الكومنتانغ، وليس إلى الفلاحين، الذين كان يأمل في تخويفهم لينكفئوا متراجعين.

رغم أن أمي كانت في الشهر السابع من الحمل، فقد انضمت إلى النساء الأخريات في نقل الطعام والماء إلى المدافعين على الأسوار، ونقل الجرحى إلى المؤخرة. وبفضل التدريب الذي تلقته في المدرسة، كانت تحسن الإسعافات الأولية. وكانت شجاعة أيضاً. بعد حوالي أسبوع، تخلى المهاجمون عن الحصار، وشن الشيوعيون هجوماً مضاداً ساحقين، عملياً، كل مقاومة مسلحة في المنطقة بصورة نهائية.

بعد ذلك مباشرة، بدأ الإصلاح الزراعي في منطقة يي بِين. فقد أصدر الشيوعيون، في ذلك الصيف، قانوناً للإصلاح الزراعي، كان مفتاح برنامجهم لتحويل الصين. وكان المفهوم الأساسي، الذي سموه «عودة الأرض إلى الوطن»، أن يعاد توزيع كل الأراضي الزراعية، فضلاً عن دواب الجر والبيوت، بحيث يملك كل المزارعين مساحات من الأرض متساوية تقريباً. وتقرر السماح للملاك بأن يحتفظوا

بقطعة أرض، أسوة بالآخرين. كان أبي أحد المسؤولين عن تنفيذ البرنامج. وأعفيت أمي من الذهاب إلى القرى، بسبب حملها الذي بلغ مرحلة متقدمة.

كانت يي بِين منطقة غنية. ويذهب مثل محلي إلى أنه بعمل سنة واحدة، يستطيع الفلاحون أن يعيشوا بهناء سنتين. ولكن عقوداً من الحرب المتواصلة دمرت الأرض، وفوق ذلك، فرضت ضرائب ثقيلة، تدفع بدل القتال إبان الحرب، التي دامت ثماني سنوات ضد اليابان. وتفاقمت أعمال السلب، عندما نقل شيان كاي ـ شيك عاصمته، في زمن الحرب، إلى سيشوان، وتدفق المسؤولون المرتشون والانتهازيون على الإقليم. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير، عندما اتخذ الكومنتانغ من سيشوان معقلهم الأخير، في عام ١٩٤٩، وفرضوا ضرائب باهظة، قبيل وصول الشيوعيين. كل ذلك، إضافة إلى الملاك الجشعين، تضافر لخلق فقر مدقع في الإقليم الغني. لم يكن لدى ثمانين بالمئة من الفلاحين ما يكفي لإطعام عوائلهم. وإذ كان المحصول سيئاً، فقد كان كثيرون يضطرون إلى أكل الأعشاب وأوراق البطاطس الحلوة، التي تُقدم في الأحوال العادية علفاً للخنازير. كانت المجاعة متفشية، ومتوسط الأعمار لا يزيد على زهاء أربعين سنة. كان الفقر في أرض غنية كهذه، أحد الأسباب وراء انجذاب أبي إلى الشيوعية أصلاً.

خلت حملة الإصلاح الزراعي في يي بِين عموماً من أعمال العنف، لأسباب منها، أن ملّاك الأرض العتاة، كانوا ضالعين في أعمال التمرّد، التي قامت خلال الأشهر التسعة الأولى من الحكم الشيوعي، وأنهم قُتلوا في المعارك أو أُعدموا. ولكن كان هناك قدر من العنف، إذ اغتصب عضو حزبي النساء من أفراد عائلة أحد الملاك، ثم مَثَّل بهن بقطع أثدائهن. وقد أمر أبي بإعدام الرجل.

أسرَت عصابة من قطاع الطرق شيوعياً شاباً من خريجي الجامعة، حين كان في الريف يبحث عن مواد غذائية، وأمر زعيم العصابة بشطره نصفين. فيما بعد، وقع الزعيم في الأسر، وضُرب حتى الموت على يد القائد الشيوعي لفريق الإصلاح الزراعي، الذي كان صديق الشيوعي القتيل. ثم قطع قائد الفريق قلب الزعيم، وأكله تعبيراً عن الثأر. أمر أبي بطرد قائد الفريق من عمله، ولكن دون قتله رمياً بالرصاص. وعلّل ذلك بالقول إن الرجل، إذ مارس شكلاً من أشكال الوحشية، فإن ذلك لم يكن ضد شخص بريء وإنما بحق قاتل، وقاتل بشع.

استغرق الإصلاح الزراعي أكثر من عام لإنجازه. وفي أغلبية الحالات كان أسوأ ما أصاب الملاك، هو فقدان القسم الأعظم من أرضهم وبيوتهم. أما من يُسمَّون الملاك ذوي الأذهان الواعية، أولئك الذين لم يشاركوا في التمرد المسلح، أو في الحقيقة ساعدوا التنظيم الشيوعي السري، فقد لاقوا معاملة حسنة. وكان لوالديَّ أصدقاء، عوائلهم من الملاك المحليين، ودُعيا إلى العشاء في بيوتهم القديمة الكبيرة، قبل أن تصادر أراضيهم وتوزع على الفلاحين.

كان أبي غارقاً تماماً في عمله. ولم يكن في المدينة، عندما ولدت أمي طفلها الأول، وكانت بنتاً، في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر. ولأن الدكتور شيا سمَّى أمي «دي ـ هونغ»، الذي يجمع بين رمز «البجعة البرية» (هونغ) واسم الجيل (دي)، فقد أطلق أبي على شقيقتي اسم «شياو ـ هونغ»، الذي يعني «شبيهة» (شياو) أمي. وبعد سبعة أيام من مولد أختي، رتبت العمة جون ـ ينغ نقل أمي من المستشفى إلى دار عائلة تشانغ، على محفة من الخيزران، حملها رجلان. وحين عاد أبي، بعد أسابيع، قال لأمي إنها كشيوعية ما كان ينبغي أن تسمح لنفسها بأن يحملها بشر آخرون. قالت إنها فعلت ذلك لأن النساء، عملاً بالتقليد، لا ينبغي لهن أن يمشين لبعض الوقت بعد الولادة. ورد أبي على ذلك بالقول: «وماذا عن الفلاحات اللواتي عليهن مواصلة العمل في الحقول فور ولادتهن؟».

كانت أمي لا تزال في حالة اكتئاب عميق، وغير متيقنة مما إذا كانت تستطيع البقاء في الحزب أم لا. وإذ كانت عاجزة عن التنفيس بصب جام غضبها على أبي أو الحزب، فقد لامت ابنتها الرضيعة على تعاستها. فبعد أربعة أيام من مغادرتهما المستشفى، أمضت الطفلة الليل باكية. ما أفقد أمي أعصابها، فصرخت بها ولطمتها بقسوة. دخلت العمة جون ـ ينغ، التي كانت نائمة في الغرفة المجاورة، مسرعة وقالت: «إنك منهوكة، دعيني أعتنِ بها». ومنذ ذلك الحين، تولت عمتي العناية بأختي. وعندما عادت أمي إلى بيتها، بعد أسابيع، بقيت أختي مع العمة جون ـ ينغ في بيت العائلة.

وحتى هذا اليوم، تتذكر أمي بأسى وندم الليلة التي ضربت فيها أختي. وحين كانت أمي تذهب لرؤيتها، كانت شياو ـ هونغ تعمد إلى الاختباء، وكانت أمي ـ في

انقلاب مأسوي لما حدث لها، وهي طفلة صغيرة، في قصر الجنرال شو ـ لا تسمح لشياو ـ هونغ بأن تناديها «ماما».

وجدت عمتي مرضعة لأختي. وبموجب نظام المخصصات، كانت الدولة تدفع تكاليف استخدام مرضعة لكل طفل يولد لعائلة مسؤول، وكانت تيسر أيضاً فحوصات بدنية مجانية للمرضعات، اللواتي كن يعاملن كموظفات في الدولة. فهن لم يكنَّ خادمات، ولا يتعين عليهن حتى غسل الحفاضات. وكانت الدولة قادرة على دفع أجورهن، لأنه طبقاً لقواعد الحزب التي تحكم الناس، فإن الوحيدين المسموح لهم بالزواج «في الثورة»، هم المسؤولون الكبار، وكان هؤلاء ينجبون القليل من الأطفال نسبياً.

كانت المرضعة في أواخر العقد الثاني من عمرها، وقد ولدت طفلها ميتاً. كان زوجها من عائلة ملاك، فقدت الآن دخلها من الأرض. ولم تكن تريد أن تعمل فلاحة، بل آثرت البقاء مع زوجها، الذي يمارس مهنة التدريس، ويعيش في مدينة يي بِين. ومن خلال أصدقاء مشتركين، اتصلت بعمتي، وذهبت للعيش في بيت عائلة تشانغ مع زوجها.

بدأت أمي تخرج من كآبتها تدريجياً. وبعد الولادة، كان مسموحاً لها بالتمتع بإجازة قانونية لمدة ثلاثين يوماً، قضتها مع حماتها والعمة جون ـ ينغ. وحين عادت إلى العمل، انتقلت إلى مهمة جديدة في رابطة الشبيبة الشيوعية لمدينة يي بِين، لها علاقة بإعادة تنظيم المنطقة بصورة شاملة. فقد أعيد تقسيم منطقة يي بِين، التي تغطي مساحة تبلغ زهاء ٧٥٠٠ ميل مربع، ويزيد عدد سكانها على مليوني نسمة، إلى تسعة أقاليم ريفية، ومدينة واحدة هي يي بِين. وأصبح أبي عضو اللجنة الرباعية، التي كانت تحكم المنطقة كلها، ورئيس قسم الشؤون العامة للمنطقة.

أسفرت إعادة التنظيم هذه عن نقل السيدة مِي، وتعيين مسؤول جديد عن أمي: رئيس قسم الشؤون العامة لمدينة يي بِين، الذي كان يوجه رابطة الشبيبة. وفي الصين الشيوعية، رغم القواعد الشكلية، فإن شخصية المسؤول المباشر أكثر أهمية مما هي عليه في الغرب. إذ إن موقف المسؤول هو موقف الحزب، ووجود مسؤول لطيف يغير حياة المرء بالكامل.

كان مسؤول أمي الجديد امرأة اسمها جانغ شي ـ تنغ. وقد كانت مع زوجها في وحدة عسكرية، كانت جزءاً من القوة التي كلفت، في عام ١٩٥٠، باحتلال التبت. وسيشوان كانت نقطة الانطلاق إلى التبت، التي يعتبرها صينيو الهان «مؤخرة الوراء». وقد طلب الزوجان تسريحهما، فأُرسلا بدلاً من ذلك إلى يي بِين. كان اسم زوجها ليو جي ـ تنغ. وقد غير اسمه إلى جي ـ تنغ (أي «الارتباط بتنغ»)، ليبين مدى إعجابه بزوجته. وأصبح الزوجان يُعرفان باسم «التنغين».

في الربيع، رقيت أمي إلى رئيسة رابطة الشبيبة، وهو منصب هام لامرأة لم تبلغ العشرين بعد. واستعادت توازنها والكثير من حيويتها القديمة. وفي هذه الأجواء، تكونت نطفتي، في حزيران/يونيو ١٩٥١.

٩ ـ «حين ينال الرجل سطوة، حتى فراخه وكلابه تصعد إلى السماء» ـ العيش مع رجل معصوم من الفساد (١٩٥١ ـ ١٩٥٣)

أصبحت أمي الآن في خلية حزبية جديدة تضمها والسيدة تنغ وامرأة ثالثة، كانت في تنظيم يي بِين السري، وقد انسجمت معهما انسجاماً، توقف معه على الفور التطفل والمطالب، التي لا تنقطع، بممارسة النقد الذاتي، وصوتت خليتها الجديدة بسرعة لمصلحة عضويتها الكاملة في الحزب. وفي تموز/ يوليو مُنحت عضوية الحزب.

لم تكن مسؤولتها الجديدة، السيدة تنغ، من الحسناوات. ولكن قوامها الرشيق، وفمها المثير، ووجهها الأنمش، وعينيها المتألقتين حيوية، وحضور بديهتها الحادة، كانت كلها تشع طاقة، وتبين سحر شخصيتها. وقد استظرفتها أمي على الفور.

بدلاً من تقريع أمي، كما كانت تفعل السيدة مِي، فإن السيدة تنغ كانت تدعها تعمل كل ما تريد، مثل قراءة الروايات. في السابق، كانت قراءة كتاب بلا غلاف ماركسي، تستنزل وابلاً من النقد، لكون من يفعل ذلك مثقفاً بورجوازياً. وكانت السيدة تنغ تسمح لأمي بالذهاب إلى السينما بمفردها، الأمر الذي يعدّ امتيازاً كبيراً، لأنه في ذلك الزمان لم يكن مسموحاً لمن هم «مع الثورة» إلاّ بمشاهدة أفلام سوفياتية ـ وحتى عند ذاك، لا تُشاهد إلاّ في مجموعات منظَّمة ـ في حين أن السينمات

العامة، ذات الملكية الخاصة، كانت لا تزال تعرض أفلاماً أميركية قديمة، مثل أفلام شارلي شابلن. الشيء الآخر الذي عنى الكثير لأمي، أنه بات يمكنها الاستحمام كل يومين.

ذات يوم، ذهبت أمي إلى السوق مع السيدة تنغ، وابتاعت ياردتي قماش قطني، وردي ناعم منقوش بالزهور، من صنع بولندا. كانت قد رأت القماش من قبل، ولكنها لم تجرؤ على شرائه خوفاً من النقد على تهافتها. وبعد فترة وجيزة على وصولها إلى يي بِين، كان عليها أن تسلم بزتها العسكرية، وتعود إلى «بدلة لينين» التي لديها. وتحت هذه البدلة، كانت ترتدي قميصاً قطنياً خشناً، عديم اللون، عديم الشكل. لم تكن هناك قاعدة تقول إن ارتداء هذا الزي إلزامي، ولكن كل من لا يفعل ما يفعله الآخرون، كان عرضة للنقد. وكانت أمي تتوق إلى ارتداء شيء ملوّن. أسرعت والسيدة تنغ إلى بيت عائلة تشانغ، ومعها قطعة القماش، في شوق شديد. وبلمح البصر، كانت أربع بلوزات حلوة جاهزة، اثنتان لكل منهما. وفي اليوم التالي، كانتا ترتديانهما تحت سترتي لينين، قَلَبت أمي ياقتها الوردية إلى الخارج، وأمضت اليوم كله تشعر بإثارة وتوتر رائعين. وكانت السيدة تنغ أكثر جرأة. فهي لم تقلب ياقتها خارج بزتها فحسب، بل شمرت عن ساعديها بحيث ظهر شريط عريض من اللون الوردي على كل منهما.

ذهلت أمي، بل صعقت بهذا التحدي. وكما كان متوقعاً، كان هناك الكثير من نظرات الاستهجان. ولكن السيدة تنغ، شمخت قائلة لأمي: «ومن يبالي؟». شعرت أمي براحة عظيمة. فهي بموافقة مسؤولتها، تستطيع أن تتجاهل أية انتقادات، شفهية أو صامتة.

كان أحد الأسباب وراء عدم خوف السيدة تنغ من الخروج قليلاً عن القواعد، أن زوجها كان صاحب سطوة، لا يتردد في ممارسة سطوته. فالسيد تنغ، وهو رجل ذو أنف حاد، وذقن حادة، وحدبة طفيفة، بعمر أبي، كان رئيس قسم التنظيم في منطقة يي بِين. وكان ذلك مركزاً بالغ الأهمية، لأن هذا القسم كان مسؤولاً عن الترقيات والتنزيلات والعقوبات. كما أنه كان يحتفظ بملفات أعضاء الحزب. يضاف إلى ذلك، أن السيد تنغ كان، على غرار أبي، عضواً في اللجنة الرباعية التي تحكم منطقة يي بِين.

كانت أمي في رابطة الشبيبة تعمل مع أشخاص في سنها. كانوا أحسن تعليماً وأكثر استعداداً لرؤية الجانب المضحك من الأمور، من النساء الكبيرات المتزمتات أخلاقياً، الفلاحات اللواتي تحولن إلى مسؤولات حزبيات، واللواتي عملتْ معهن قبلاً. وكانت زميلاتها الجدد، يحببن الرقص، وكنَّ يذهبن معاً، في نزهات ويجدن متعة في الحديث عن الكتب والأفكار.

كان الاضطلاع بعمل مسؤول، يعني أيضاً معاملة أمي بقدر أكبر من الاحترام، وازداد ذلك عندما أدرك الآخرون أنها على جانب كبير من الاقتدار، فضلاً عن طاقتها المتدفقة. وإذ ازدادت ثقتها بنفسها، وقلَّ اعتمادها على أبي، فقد شعرت بخيبة أقل معه. يضاف إلى ذلك أنها أخذت تألف مواقفه، ولم تعد تنتظر منه أن يضعها أولاً على الدوام، وأمست أقدر على التعامل مع الآخرين.

كان من الميزات الأخرى لترقية أمي، أن ذلك أهَّلها لنقل أمها إلى يي بِين على أساس دائم. وفي نهاية آب/أغسطس ١٩٥١، بعد رحلة مضنية، وصلت جدتي والدكتور شيا إلى يي بين. فقد عادت شبكة النقل إلى العمل على الوجه المطلوب، وكان سفرهما كله بالقطار والمركب المنتظمين. وبوصفهما مُعالين من موظف رسمي، خُصص لهما مسكن على نفقة الدولة، وهو بيت من ثلاث غرف في مجمع من دور الضيافة. وكانا يتسلمان حصة مجانية من السلع الضرورية، مثل الرز والمحروقات، يوصلها إليهما مدير المجمع. كما مُنحا مخصصات صغيرة لشراء مواد غذائية أخرى. وذهبت أختي ومرضعتها للعيش معهما. وكانت أمي تمضي الشطر الأعظم من وقت فراغها القصير هناك، متمتعة بطبخ جدتي اللذيذ.

فرحت أمي بوجود أمها ـ والدكتور شيا الذي كانت تحبه ـ معها. وكانت مسرورة بصفة خاصة لابتعادهما عن جنجو، لأن الحرب اندلعت مؤخراً في كوريا، على أعتاب منشوريا. وما لبث الجنود الأميركيون أن تمركزوا، في أواخر ١٩٥٠، على ضفاف نهر يالو، عند الحدود بين كوريا والصين، وقصفت الطائرات الأميركية وضربت بمدافعها الرشاشة مدناً في منشوريا.

كان من أول الأشياء التي أرادت أمي أن تعرفها، ما حدث للعقيد الشاب هوي ـ غي. وراعها أن تسمع أنه أعدم رمياً بالرصاص، عند منعطف النهر، خارج بوابة جنجو الغربية.

من أفظع الأشياء، التي يمكن أن تحدث، بالنسبة إلى الصينيين، أن لا يُدفن الميت بطريقة لائقة. فهم يعتقدون أن الميت، لن يجد السلام إلاً إذا كانت الجثة مغطاة ومسجاة عميقاً في باطن الأرض. كان ذلك شعوراً دينياً، ولكنه لا يخلو من وجه عملي كذلك: إذا لم تدفن الجثة ستمزقها الكلاب الوحشية إرباً، وتنقرها الطيور حتى العظم. وقديماً كانت جثث مَنْ يعدمون تُعرض تقليدياً ثلاثة أيام لتكون عبرة للسكان. وبعد ذلك فقط، كانت الجثث تُجمع وتدفن بطريقة ما. والآن، أصدر الشيوعيون أمراً بأن تدفن العائلة قريبها المعدوم على الفور، وإذا لم تتمكن من ذلك، يتولى المهمة حفارو قبور، تدفع الحكومة أجورهم.

ذهبت جدتي بنفسها إلى ساحة الإعدام. وكانت جثة هوي قد تركت على الأرض ممزقة بالرصاص، في صف من الجثث، إذ رمي بالرصاص مع خمسة عشر شخصاً آخرين، حيث اصطبغ الثلج بحمرة قانية. لم يكن هناك أحد من عائلته في المدينة، لذا استأجرت جدتي حانوتياً محترفاً لدفنه بشكل لائق. وجاءت هي نفسها بقطعة طويلة من الحرير الأحمر للف جثته بها. وسألت أمي إن كان هناك آخرون تعرفهم. نعم كان هناك آخرون. فقد صادفت جدتي امرأة تعرفها، كانت تجمع جثتي زوجها وأخيها. كان الاثنان من زعماء المناطق في زمن الكومنتانغ.

كما ارتاعت أمي لسماعها أن زوجة أخي جدتي يو ـ لن نفسها، قلبت لجدتي ظهر المجن. وكانت هذه تشعر، منذ زمن بعيد، أن جدتي تستغلها، لأن عليها أن تقوم بأعمال البيت الشاقة، فيما كانت جدتي تديره بوصفها سيدة البيت. وقد حض الشيوعيون الجميع أن يجاهروا بالحديث عن «الاضطهاد والاستغلال». وهكذا وُضِعت أحقاد السيدة يو ـ لن في إطار سياسي. وعندما أخذت جدتي جثة هوي ـ غي، وشت بها السيدة يو ـ لن لتعاطفها مع مجرم. والتقى الحي لعقد «اجتماع نضالي»، هدفه «مساعدة» جدتي على فهم «عيوبها». وكان على جدتي أن تحضر، ولكنها قررت، بتعقل، أن لا تقول شيئاً، وأن تبدو كأنها قبلت النقد عن طيب خاطر. وفي داخلها كانت تستشيط غضباً من زوجة أخيها ومن الشيوعيين.

لم تساعد هذه الواقعة على تحسين العلاقات بين جدتي وأبي. وعندما اكتشف ما فعلته، تملكه الحنق قائلاً إنها تتعاطف مع الكومنتانغ أكثر من تعاطفها مع الشيوعيين. بيد أنه كان واضحاً أنه شعر أيضاً بشيء من الغيرة. ففي حين كانت جدتي نادراً ما

تتكلم مع أبي، كانت شديدة الولع بهوي ـ غي، وتعتبره الرجل المناسب للزواج بأمي.

وكانت أمي في الوسط ـ بين أمها وزوجها، بين مشاعرها الشخصية، حزنها لموت هوي ـ غي، ومشاعرها السياسية، التزامها بالشيوعية.

كان إعدام العقيد جزءاً من حملة «لضرب أعداء الثورة». وكان الهدف هو القضاء على كل مؤيدي الكومنتانغ من ذوي السطوة أو النفوذ، وقد أطلقت تلك الحملة الحرب الكورية، التي بدأت في حزيران/ يونيو ١٩٥٠. وعندما وصلت القوات الأميركية حتى الحدود المنشورية، توجس ماو خيفة من قيام الولايات المتحدة بالهجوم على الصين، أو إطلاق جيش شيان كاي ـ شيك ضد بر الصين، أو الاثنين معاً. فدفع بأكثر من مليون رجل إلى داخل كوريا، للقتال إلى جانب الكوريين الشماليين ضد الأميركيين.

رغم أن جيش شيان كاي ـ شيك لم يبارح تايوان قط، فإن الولايات المتحدة نظمت بالفعل غزواً لجنوب غرب الصين، بقوات الكومنتانغ من بورما. كما كانت الغارات تشن في أحيان كثيرة على المناطق الساحلية، وجرى إنزال الكثير من العملاء، وتصاعدت أعمال التخريب. وكانت أعداد كبيرة من جنود الكومنتانغ وقطاع الطرق لا تزال سائبة، ووقعت أعمال تمرّد واسعة في أجزاء من العمق الصيني. وشعر الشيوعيون بالقلق من أن يحاول أنصار الكومنتانغ إطاحة نظامهم الوليد، ومن أن هؤلاء سيهبّون كطابور خامس، إذا حاول شيان كاي ـ شيك العودة. كما كانوا يريدون أن يبينوا للشعب أنهم جاؤوا ليبقوا، وكان التخلص من خصومهم وسيلة لطبع فكر الاستقرار في أذهان السكان، الذين كانوا، تقليدياً، يصبون إليه. ولكن الآراء كانت منقسمة حول درجة القسوة اللازمة. فقررت الحكومة الجديدة أن لا تكون متسامحة وكما جاء في إحدى الوثائق الرسمية، فإنه «إذا لم نقتلهم، سيعودون ويقتلوننا».

لم تكن أمي مقتنعة بهذه الحجة، ولكنها رأت أن لا جدوى من محاولة التحدث مع أبي عن ذلك. وكانت في الواقع نادراً ما تراه، لأنه كان يمضي الكثير من الوقت بعيداً في الريف، حلالاً للمشاكل. حتى عندما يكون في المدينة، لم تكن تراه كثيراً كان مفروضاً على المسؤولين أن يعملوا من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الحادية عشرة مساء، سبعة أيام في الأسبوع، وكان أحدهما أو الاثنان معاً يأتيان إلى البيت

عادة، في ساعة متأخرة، بحيث إنه نادراً ما كان لديهما متسع من الوقت للتحادث. لم تكن ابنتهما الرضيعة تعيش معهما، وكانا يأكلان في المطعم، فلم يكن هناك تقريباً شيء يمكن أن يسمى حياة بيتية.

ما أن أُنجز الإصلاح الزراعي، حتى غادر أبي، ثانية، ليشرف على شق أول طريق حقيقي يخترق المنطقة. فقد قررت الحكومة بناء طريق إلى الجنوب من إقليم يونان. وفي غضون عام واحد فقط، دون استخدام آلات على الإطلاق، بنوا أكثر من ٨٠ ميلاً، عبر منطقة كثيرة التلال، وفيها كثير من الأنهار. كانت قوة العمل تتألف من فلاحين يعملون مقابل مواد غذائية.

خلال أعمال الحفر، ضرب الفلاحون الهيكل العظمي لديناصور، فأصيب بأضرار طفيفة. ومارس أبي النقد الذاتي، وتوثق من استخراجه بعناية، وشحنه إلى متحف في بكين. كما أرسل جنوداً لحراسة بعض القبور التي يعود تاريخها إلى حوالي عام ٢٠٠ بعد الميلاد، وكان الفلاحون يأخذون لَبِنَات منها لتحسين زرائب خنازيرهم.

وذات يوم، قُتل فلاحان بانهيار الصخور. وسار أبي طوال الليل على ممرات جبلية إلى مكان الحادث. كانت هذه أول مرة في حياة الفلاحين المحليين، تقع فيها أنظارهم على مسؤول برتبة أبي، وقد تأثروا برؤيته مهتماً بأحوالهم. ففي الماضي، كان الافتراض السائد أن كل المسؤولين لا هم لهم سوى ملء جيوبهم. وبعد ما فعله أبي أخذ السكان المحليون يعتقدون أن الشيوعيين أناس رائعون.

في هذه الأثناء، كانت إحدى مهمات أمي الرئيسية تعبئة التأييد للحكومة الجديدة، وخاصة بين عمال المصانع. ومنذ بداية عام ١٩٥١، أخذت تزور المعامل لإلقاء الخطابات، والاستماع إلى الشكاوى، وحل المشاكل. وكانت مهمتها تشتمل على شرح الشيوعية للعمال الشباب، وتشجيعهم على الانضمام إلى رابطة الشبيبة والحزب. وعاشت فترات طويلة في عدد من المعامل: كان يفرض على الشيوعيين «أن يعيشوا ويعملوا بين العمال والفلاحين»، كما كان يفعل أبي، وأن يقفوا على حاجاتهم.

كان أحد المعامل الواقعة خارج المدينة مباشرة، ينتج دوائر عازلة. وكانت ظروف المعيشة هناك، كما في كل المعامل الأخرى، مزرية، حيث عشرات النساء ينمن في كوخ ضخم مبني من القش والخيزران. وكان الغذاء غير كاف: لم يكن

العمال يتناولون اللحم إلاّ حوالي مرتين في الشهر، رغم أنهم يؤدون عملاً مضنياً. وكان على كثير من النساء أن يقفن في ماء بارد ثماني ساعات متواصلة، لغسل العوازل الخزفية. وتفشّى مرض السل بسبب سوء التغذية وانعدام الشروط الصحية. وكانت صحون وعيدان الأكل، لا تُغسل على الوجه الصحيح، وتُخلط كلها بعضها ببعض.

في آذار/مارس، بدأت أمي تبصق قليلاً من الدم. وعرفت في الحال أنها مصابة بمرض السل، ولكنها واصلت العمل. كانت سعيدة لأنه لم يكن هناك من يتطفل على حياتها. وكانت تؤمن بما تفعله، ومنتشية بنتائج عملها: أخذت ظروف المعمل في التحسن، وكان العمال الشباب يحبونها، وتعهد كثيرون بالإخلاص لقضية الشيوعية بتأثير منها. كانت تشعر بصدق أن الثورة تحتاج إلى تفانيها وتضحيتها الذاتية. تعمل بلا توقف، طوال اليوم، سبعة أيام في الأسبوع. ولكن بعد عملها دون استراحة، طيلة أشهر، أصبح من الواضح أنها مريضة جداً. فقد نُخرت رئتاها بأربعة ثقوب. وبحلول الصيف، كانت حاملاً بي.

ذات يوم في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، سقطت أمي على أرض المعمل مغمياً عليها. فنُقلت على جناح السرعة إلى مستشفى صغير في المدينة، فتحته في الأصل بعثات تبشيرية أجنبية. وهناك سهر على العناية بها صينيون كاثوليك. وكان لا يزال هناك كاهن أوروبي وبضع راهبات أوروبيات بعباءات دينية. وشجعت السيدة تنغ جدتي على أخذ طعام إليها، فتناولت أمي كمية ضخمة منه ـ فرخة كاملة وعشر بيضات ورطلاً من اللحم يومياً في بعض الأحيان. نتيجة لذلك كبر حجمي في رحمها ـ وازداد وزنها ثلاثين رطلاً.

كانت لدى المستشفى كمية صغيرة من الدواء الأميركي لمرض السل. اندفعت السيدة تنغ إلى الداخل، وأخذت الكمية كلها إلى أمي. وعندما اكتشف أبي ذلك طلب من السيدة تنغ أن تعيد نصفه على الأقل، ولكنها انفجرت في وجهه قائلة: «أي معنى في ذلك؟ فهذا الموجود كله لا يكفي لشخص واحد. وإذا كنت لا تصدقني تستطيع أن تذهب وتسأل الطبيب. يضاف إلى ذلك أن زوجتك تعمل تحت مسؤوليتي وأنا من يتخذ القرارات في شأنها». شعرت أمي بامتنان بالغ للسيدة تنغ على تصديها لأبي. وهو لم يركب رأسه. من الواضح أنه كان ممزقاً بين الاهتمام بصحة أمي

والحرص على مبادئه، التي وفقاً لها، يجب أن لا تعلو مصلحة زوجته على مصالح الناس البسطاء، وينبغي تيسير بعض الدواء، على الأقل، للآخرين.

بسبب حجمي الضخم، والطريقة التي أخذتُ أنمو بها إلى الأعلى، انضغطت الثقوب في رئتيها وبدأت تنسد. وقال لها الأطباء إن الفضل في هذا يعود إلى طفلها، ولكن أمي رأت أن الفضل ربما يعود إلى الدواء الأميركي، الذي تمكنت من تناوله بجهود السيدة تنغ. رقدت أمي في المستشفى ثلاثة أشهر، حتى شباط/فبراير ١٩٥٢، حين كانت في الشهر الثامن من الحمل. وذات يوم، طُلب منها، فجأة، أن تغادر «من أجل سلامتها»، إذ أخبرها صديق، خلسة، أن بعض الأسلحة عُثر عليها في دار كاهن أجنبي في بكين، وأن كل القساوسة الأجانب والراهبات الأجنبيات، باتوا موضع شبهة عميقة.

لم ترغب في المغادرة. فقد كان المستشفى قائماً في جنينة لطيفة، ذات زنابق مائية جميلة. ووجدت في العناية المحترفة، والبيئة النظيفة اللتين كانتا نادرتين في الصين، حينذاك، بلسماً شافياً. ولكن لم يكن لديها خيار، ونقلت إلى «مستشفى الشعب رقم واحد». لم يسبق لمدير هذا المستشفى أن قام بعملية توليد من قبل. كان طبيباً مع جيش الكومنتانغ إلى أن تمردت وحدته، وانتقلت إلى جانب الشيوعيين. وكان قلقاً من أنه إذا ماتت أمي أثناء الوضع، سيقع في متاعب جمة بسبب خلفيته، وخصوصاً أن أبي مسؤول كبير.

عندما اقترب الموعد، الذي كان من المزمع أن أطل فيه، اقترح المدير على أبي نقل أمي إلى مستشفى في مدينة أكبر، حيث توجد تسهيلات أحسن، وأطباء متخصصون في التوليد. كان يخشى أنه لدى خروجي، يمكن لزوال الضغط بصور مفاجئة أن يسبب انفتاح الثقوب في رئتي أمي من جديد، ويؤدي إلى نزف داخلي. ولكن أبي رفض، وقال إن زوجته يجب أن تُعامل كما يعامل الآخرون، لأن الشيوعيين قطعوا على أنفسهم عهداً بمكافحة الامتيازات. وعندما سمعت أمي ذلك شعرت بمرارة أنه يبدو دائماً كأنه يتصرف ضد مصلحتها، وأنه لا يكترث سواء عاشت أو ماتت.

ولدتُ في ٢٥ آذار/مارس ١٩٥٢. وبسبب تعقد الحالة دُعي جراح ثان من مستشفى آخر. وحضر عدة أطباء آخرين، فضلاً عن كادر معه أكسجين إضافي

ومعدات لنقل الدم، والسيدة تنغ. كان الرجال الصينيون، تقليدياً، لا يحضرون الولادات، ولكن المدير طلب من أبي أن يقف مستعداً خارج غرفة التوليد، لأنها حالة خاصة ـ ولحماية نفسه إذا حدث ما لا تحمد عقباه. كانت ولادة عسيرة جداً. فعندما خرج رأسي عَلِق منكباي اللذان كانا عريضين بصورة غير عادية. وكنت بدينة للغاية. سحبت الممرضات رأسي بأيديهن، وخرجتُ معصورة، زرقاء وأرجوانية، ونصف مخنوقة. وضعني الأطباء، أولاً، في ماء ساخن، ثم في ماء بارد، ورفعوني إلى الأعلى من قدمي ولطموني بشدة. وفي النهاية، بدأت أبكي، وبصوت عال. ضحكوا كلهم بارتياح. كان وزني يزيد قليلاً على عشرة أرطال. ولم تتضرر رئتا أمي.

التقطتني طبيبة وعرضتني على أبي، الذي كانت كلماته الأولى: «يا إلّهي، لهذه الطفلة عينان منتفختان!». انزعجت أمي كثيراً من هذا التعليق. وقالت العمة جون ـ ينغ: «كلا. لديها عينان كبيرتان جميلتان!».

وكما لكل مناسبة وحال في الصين، كان هناك طبق يُعتبر هو المطلوب للمرأة بعد الوضع: بيض مقلي في عصير سكر خام مع رز لزج مخمَّر. وقامت جدتي بتحضير هذه المواد في المستشفى الذي، مثل كل المستشفيات، كانت فيه مطابخ يمكن للمرضى وعوائلهم أن يطهوا طعامهم فيه، وجهَّزتها عندما أصبحت أمي قادرة على الأكل.

حين بلغ الدكتور شيا نبأ مولدي، قال: «آه، بجعة برية أخرى تولد». وأطلق عليَّ الاسم «إير ـ هونغ»، الذي يعني «بجعة برية ثانية».

كان إعطائي اسمي هو آخر عمل، تقريباً، في حياة الدكتور شيا المديدة. فقد مات بعد أربعة أيام من مولدي، وهو في الثانية والثمانين من العمر. كان مستلقياً على السرير، يشرب قدحاً من اللبن. خرجت جدتي من الغرفة برهة، وحين عادت لأخذ القدح، رأت أن اللبن انسكب والقدح سقط على الأرض. مات في اللحظة، وبدون ألم.

كانت الجنازات مناسبات كبيرة الأهمية في الصين. وغالباً ما كان الناس البسطاء يدفعون أنفسهم إلى الإفلاس لإقامة مراسم تشييع فخمة ـ وكانت جدتي تحب الدكتور شيا، وأرادت أن تقيم له ما يدعو إلى الافتخار. كانت هناك ثلاثة أشياء أصرتْ عليها بشكل قاطع: أولاً، تابوت جيد، وثانياً، أن يحمل التابوت مشيعون، لا أن يُسحب

على عربة، وثالثاً، أن يكون هناك كهنة بوذيون، ينشدون الترانيم للميت، وموسيقيون يعزفون السوونا، وهي آلة هوائية زاعقة، تستخدم تقليدياً في الجنازات. وافق أبي على الطلبين الأولين، ولكنه رفض الطلب الثالث. فقد كان الشيوعيون يعتبرون أي مراسيم باذخة تبذيراً وممارسة «إقطاعية». وتقليدياً، كان الحثالة وحدهم الذين يُدفنون بهدوء. فقد كان الضجيج يعتبر هاماً في التشييع لتحويله إلى قضية عامة: كان هذا يحقق «وجاهة»، ويعبر أيضاً عن آيات الاحترام للميت. أصرّ أبي على أن لا تكون هناك سوونا أو رهبان. ودخلت جدتي في مشاجرة حامية معه. فبالنسبة إليها، كانت هناك أساسيات لا بدّ منها. وفي غمرة المشادة، أغمي عليها من الغضب والأسى. وكانت أيضاً مهيضة الجناح، لأنها كانت وحيدة تماماً في أكثر لحظات حياتها حزناً. لم تخبر أمي بما حدث خشية إزعاجها. ولأن أمي كانت في المستشفى، فقد كان على جدتي أن تتعامل مباشرة مع أبي. وبعد التشييع أصيبت بانهيار عصبي، وتعين تطبيبها فترة شهرين تقريباً.

دُفن الدكتور شيا في مقبرة على قمة تل، على أطراف يي بِين، تطل على نهر يانغ تزي. وكان قبره يستظل بأشجار الصنوبر والسرو والكافور. كان الدكتور شيا، خلال إقامته القصيرة في يي بِين، قد اكتسب حب كل من عرفوه واحترامهم. وحين مات، قام مدير دار الضيافة، التي عاش فيها، بترتيب كل شيء لجدتي، وقاد موظفين في موكب التشييع الصامت.

كان الدكتور شيا سعيداً في شيخوخته. فقد أحب يي بِين، وتمتع بكل الزهور الغريبة، التي كانت تتفتح في المناخ شبه المداري، الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن مناخ منشوريا. وبقي حتى النهاية يتمتع بصحة جيدة جدّاً. عاش حياة طيبة في يي بِين، حيث كان بيته وفناؤه مجاناً. وأحيط مع جدتي بعناية جيدة، وكانت إمدادات وفيرة من الغذاء تصل إلى بيتهما. كان حلم كل صيني، في مجتمع بلا أي ضمان اجتماعي، أن يكون موضع رعاية في الشيخوخة. وهذا ما فعله والداي والحكومة الجديدة، وهو لم يكن بالشيء القليل.

كان الدكتور شيا على وئام مع الجميع، بمن فيهم أبي، الذي كان يحترمه احتراماً كبيراً بوصفه رجل مبادىء. وكان الدكتور شيا يعتبر أبي رجلاً واسع العلم. كان يقول إنه رأى الكثير من المسؤولين في الماضي، ولكنه لم ير قط شبيهاً بأبي. وكان

الاعتقاد الشائع يذهب إلى أنه «ليس هناك مسؤول لا يرتشي»، ولكن أبي لم يسىء يوماً استخدام منصبه، وإن بالسهر على مصالح عائلته نفسها.

كان الرجلان يتبادلان أطراف الحديث طيلة ساعات. ويشتركان في العديد من القيم الأخلاقية؛ لكن في حين أن قيم أبي كانت ملفّعة بإهاب الإيديولوجيا، كانت قيم الدكتور شيا تقوم على أساس إنساني. وذات يوم، قال الدكتور شيا لأبي: «أعتقد أن الشيوعيين عملوا الكثير من الأشياء الجيدة. ولكنكم قتلتم الكثير من الناس. أناس ما كان ينبغي أن يقتلوا». «مَنْ على سبيل المثال؟»، سأل أبي. «أولئك المعلمون في «جمعية العقل»»، وهي الطائفة شبه الدينية، التي كان الدكتور شيا ينتمي إليها. فقد أعدم قادتها في إطار الحملة من أجل «ضرب أعداء الثورة».

وكان النظام الجديد قد قمع كل الجمعيات السرية، بسبب الولاءات التي تتمتع بها، ولم يكن الشيوعيون يريدون ولاءات موزعة. قال الدكتور شيا: «إنهم لم يكونوا سيئين، وكان عليكم أن تسمحوا للجمعية بالوجود». ران صمت طويل. وحاول أبي أن يدافع عن الشيوعيين قائلاً، إن الصراع مع الكومنتانغ كان مسألة حياة أو موت. ولاحظ الدكتور شيا أن أبي لم يكن مقتنعاً تماماً بما يقول، ولكنه شعر أن عليه أن يدافع عن الحزب.

حين غادرت جدتي المستشفى، جاءت للعيش مع والديَّ. كما انتقلت إلى هناك أختي ومرضعتها. وكنتُ أشترك في غرفة مع مرضعتي، التي ولدت طفلها قبل اثني عشر يوماً من مولدي، وقبلت بهذا العمل لأنها كانت في حاجة ماسة إلى المال. كان زوجها، وهو عامل يدوي، في السجن بسبب القمار وتعاطي الأفيون، اللذين حظرهما الشيوعيون. وكانت يي بِين مركزاً كبيراً لتجارة الأفيون، حيث يقدر عدد المدمنين بزهاء ٢٥ ألفاً. كان الأفيون متداولاً كنقود، وارتبط تعاطيه ارتباطاً وثيقاً بالعصابات، وكان يساهم بقسم كبير في ميزانية الكومنتانغ. وفي غضون عامين من مجيء الشيوعيين إلى يي بِين، قضوا على تدخين الأفيون.

لم يكن هناك تأمين اجتماعي أو إعانة، في حالة البطالة، لشخص في وضع مرضعتي. ولكن حين جاءت إلينا، كانت الدولة تدفع مرتبها، حيث ترسله إلى حماتها التي تعتني بطفلها. كانت مرضعتي امرأة صغيرة ذات بشرة رقيقة، وعينين

مدوّرتين كبيرتين بصورة غير عادية وشعر غزير طويل، كانت تعقصه على شكل كعكعة. كانت امرأة طيبة جداً وتعاملني كابنتها.

كان المنكبان المربعان غير مستحبين، تقليدياً، عند البنات، لذا رُبط منكباي بإحكام، لجعلهما ينموان بالشكل الانسيابي المطلوب. وكان هذا يحملني على الصراخ بصوت عال، بحيث إن مرضعتي كانت تفك وثاق ذراعيّ ومنكبي سامحة لي بالتلويح لمن كانوا يأتون إلى البيت والتعلق بهم، الأمر الذي كان يروق لي عمله من سن مبكرة. وكانت أمي، دائماً، تعزو شخصيتي الجامحة إلى أنها كانت سعيدة، عندما كانت حاملاً بي.

كنا نعيش في قصر الملأك القديم، حيث كان مكتب أبي. وكان للقصر حديقة كبيرة بأشجار فلفل صيني، وأشجار الموز، والكثير من الزهور ذات الرائحة الزكية والنباتات شبه المدارية، التي كان يعتني بها بستاني عينته الحكومة. وكان أبي يزرع الطماطم والفلفل الحار. كان يستمتع بعمله، كان من مبادئه أن يمارس المسؤول الشيوعي العمل العضلي، الذي كان الموظفون الكبار ينظرون إليه، تقليدياً، باحتقار.

كان أبي يغمرني بحبه، وعندما بدأت أزحف، كان ينبطح على بطنه ليكون «جبلي»، وكنت أتسلّقه صعوداً ونزولاً.

بعد فترة وجيزة من مولدي، رُقي أبي ليصبح حاكم مقاطعة يي بِين، الرجل الثاني في المنطقة، لا يعلو عليه إلاّ السكرتير الأول للحزب. (كان الحزب والحكومة متمايزين شكلياً، ولكنهما كانا، فعلياً، لا ينفصمان).

حين عاد أبي أول مرة إلى يي بِين، توقعت عائلته وأصدقاؤه القدماء كلهم أن يساعدهم. فقد كان الافتراض السائد في الصين، أن كل من له مركز متنفذ يعتني بأقاربه. وكان هناك مثل شائع يقول: «حين ينال الرجل سطوة، حتى فراخه وكلابه تصعد إلى السماء». ولكن أبي كان يشعر أن محاباة الأقارب والمحسوبية، هما المنزلق إلى الفساد، الذي كان أصل كل الشرور في الصين القديمة. كما كان يعرف أن أهل البلد يراقبونه ليروا كيف يتصرف الشيوعيون، وأن ما يفعله سيؤثر في نظرتهم إلى الشيوعية.

تسببت صرامته بغربته عن عائلته. فقد طلب منه أحد أبناء عمومته توصية

للحصول على عمل في شباك التذاكر بإحدى دور السينما المحلية. وقال له أبي أن يمر عبر القنوات الرسمية. مثل هذا السلوك لم يكن معهوداً من قبل، وبعدها لم يطلب أحد منه معروفاً قط. ثم حدث شيء آخر، بعد فترة وجيزة من تعيينه حاكماً. فأحد أشقائه الكبار كان خبيراً بالشاي، ويعمل في مكتب لتسويقه. في أوائل الخمسينات، بدأ الاقتصاد يحرز تقدماً، وكان الإنتاج يتوسع، وأراد مجلس الشاي المحلي ترقيته إلى مدير. كان يتعين على كل الترقيات، التي تعلو على مستوى معين، أن تحظى بموافقة أبي. وعندما وصلت التوصية بأخيه إلى مكتبه، رفضها. كانت عائلته حانقة، وكذلك أمي. وانفجرت قائلة: «ليس أنت الذي يرقيه، بل إدارته! ليس مطلوباً منك أن تساعده، ولكن ليس عليك أن تقف في طريقه أيضاً!». قال أبي إن أخاه ليس مقتدراً بما فيه الكفاية، وما كان ليرشح للترقية، لو لم يكن أخا الحاكم. وأشار إلى أن هناك تقليداً عريقاً في التكهن برغبات المديرين. وقد غضب مجلس إدارة الشاي، لأن تصرف أبي كان يعني أن لتوصيتهم دوافع مغرضة. وانتهى الأمر بأبي جارحاً الجميع، ولم يكلمه أخوه بعدها على الإطلاق.

ولكن أبي لم يشعر بالندم. كان يخوض حربه الخاصة ضد الأساليب القديمة، وأصر على معاملة الجميع بمعايير واحدة. ولكن لم يكن هناك معيار موضوعي للإنصاف، ولذلك كان يعتمد على غرائزه، مُغالياً في الإيثار ليكون منصفاً. لم يكن يستشير زملاءه، لأسباب منها أنه كان يعرف أنه ما من أحد منهم، سيقول له، ذات يوم، إن قريباً له غير أهل لمنصب.

بلغت حربه الأخلاقية الشخصية ذروتها في عام ١٩٥٣، عندما طُبق نظام لمراتب الخدمة المدنية. فقد قُسم جميع المسؤولين والموظفين الحكوميين إلى ٢٦ درجة. وكان راتب الدرجة الأدنى، وهي الدرجة ٢٦، يقل عشرين مرة عن راتب الدرجة الأعلى. ولكن الفارق الحقيقي، كان يكمن في أشكال الدعم والامتيازات. كان النظام يحدد كل شيء تقريباً، من معطف المرء إذا كان مصنوعاً من صوف باهظ الثمن أو من قطن رخيص، إلى مساحة شقته وما إذا كان فيها مرحاض داخلي أم لا.

كما كانت الدرجة تحدد إمكان وصول كل مسؤول إلى المعلومات. فقد كان من العناصر بالغة الأهمية في النظام الشيوعي الصيني، أن المعلومات كلها لا تكون تحت

الرقابة الصارمة فحسب، بل على درجة عالية من التقسيم والتوزيع، ليس فقط على الرأي العام ـ الذي لم يكن يقال له شيء يذكر ـ بل داخل الحزب أيضاً.

ورغم أن الدلالة النهائية لنظام الدرجات لم تكن ظاهرة، فإن موظفي الخدمة المدنية، حتى في حينه، استطاعوا أن يحسوا أن هذا النظام سيكون حاسماً في حياتهم، وكانوا جميعاً متوترين في ترقبهم للدرجة التي سيحصل عليها كل منهم. كان أبي الذي حددت السلطات العليا درجته بأن تكون ١١، مسؤولاً عن فحص الدرجات المقترحة لكل واحد في مقاطعة يي بِين. وكان من بين هؤلاء زوج شقيقته الصغرى، التي كانت المفضّلة لديه. وقد أنزله درجتين. وأوصى القسم الذي تعمل فيه أمي، بأن تكون درجتها ١٤، فأنزلها إلى الدرجة ١٧.

لم يكن نظام الدرجات مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمركز الشخص في الخدمة المدنية. إذ يمكن ترقية الأفراد دون رفع درجتهم بالضرورة. وخلال ما يقرب من أربعة عقود، لم تُرفع درجة أمي إلاً مرتين، في عام ١٩٦٢ وفي عام ١٩٨٢، وفي كل مرة صعدت درجة واحدة فقط، وبحلول عام ١٩٩٠ كانت لا تزال في الدرجة ١٥. وبهذه الدرجة لم يكن يحق لها، في الثمانينات، أن تشتري تذكرة طائرة أو «مقعداً ناعماً» في القطار: هذان لا يمكن أن يشتريهما إلاً مسؤولون من الدرجة ١٤ فما فوق. وهكذا بفضل مواقف أبي في عام ١٩٥٣، كانت أمي بعد حوالي أربعين عاماً، تبعد درجة واحدة عن السفر المريح في بلدها نفسه. ولم يكن في مقدورها أن تقيم في غرفة فندق لها حمامها الخاص، لأن هذه الغرف هي للدرجة ١٣ فما فوق. وعندما تقدمت بطلب لتغيير عدّاد الكهرباء في شقتها، وتركيب عدّاد ذي قدرة أكبر، أخبرتها إدارة العمارة، أن المسؤولين من الدرجة ١٣ فما فوق وحدهم، الذين لهم الحق في عدّاد أكبر.

كانت أعمال أبي التي تثير حنق عائلته، موضع تقدير كبير من السكان المحليين، واحتفظ أبي بسمعته حتى هذا اليوم. ذات يوم في عام ١٩٥٢، ذكر مدير «المدرسة المتوسطة رقم واحد» لأبي، أنه يلاقي صعوبة في إيجاد سكن لمعلميه. قال أبي، على الفور: «في هذه الحالة خذوا بيت عائلتي ـ فهو أكبر مما يلزم ثلاثة أشخاص فقط»، رغم أن الأشخاص الثلاثة هم أمّه وأخته جون ـ ينغ وأخ له معوَّق، وأنهم جميعاً شغوفون بالبيت الجميل وحديقته الساحرة. كانت المدرسة مسرورة، وكانت

عائلته مغتاظة رغم أنه وجد لهم بيتاً صغيراً في وسط المدينة. لم تكن أمه راضية، ولكنها إذ كانت امرأة كريمة ومتفهِّمة، لم تقل شيئاً.

لم يكن المسؤولون كلهم معصومين من الفساد، مثل أبي. وبعد فترة وجيزة من الاستيلاء على السلطة، وجد الشيوعيون أنفسهم يواجهون أزمة. لقد كسبوا تأييد الملايين بالوعد بحكومة نزيهة، ولكن بعض المسؤولين بدأوا يرتشون أو يقدمون الخدمات لعوائلهم وأصدقائهم. وراح آخرون يقيمون حفلات باذخة، وهي نزوة صينية تقليدية، تكاد تكون مرضاً، وطريقة للترفيه والمباهاة على السواء ـ وكل ذلك على حساب الدولة وباسمها، في وقت كانت الحكومة تعاني شحاً حاداً في الموارد المالية، وكانت تحاول إعمار الاقتصاد المدمر، وكذلك خوض حرب كبيرة في كوريا، كانت تلتهم حوالي ٥٠ في المئة من الميزانية.

بدأ بعض المسؤولين يختلسون على نطاق واسع. وكان النظام قلقاً. أحس أن الإرادة الطيبة التي حملته إلى السلطة، والانضباط والتفاني اللذين كفلا نجاحه، كانت تتأكل. وفي أواخر ١٩٥١، قرر شن حملة ضد الفساد والهدر والبيروقراطية. سميت «حملة الأضداد الثلاثة». أعدمت الحكومة بعض المسؤولين الفاسدين، وسجنت عدداً كبيراً منهم، وطردت كثيرين آخرين. وأعدم حتى بعض المحاربين القدامى في الجيش الشيوعي، ممن كانوا ضالعين في عمليات ارتشاء أو اختلاسات كبيرة، ليكونوا عبرة لغيرهم. ومنذ ذلك الحين، كان الفساد يعاقب بقسوة، وأصبح نادراً بين المسؤولين في العقدين التاليين.

كان أبي مسؤول الحملة في مقاطعته. لم يكن هناك مسؤولون كبار مرتشون في منطقته، ولكنه شعر أن من المهم القيام بما يؤكد أن الشيوعيين ينفذون وعدهم بحكم نظيف. وتعين على كل مسؤول أن ينتقد نفسه حول أي تجاوز، مهما كان صغيراً: كاستخدام تلفون المكتب في مكالمة شخصية، أو قصاصة من الورق الرسمي لكتابة رسالة خاصة. وأصبح المسؤولون متعففين إزاء استخدام ممتلكات الدولة، بحيث إن أغلبيتهم أعرضوا حتى عن استخدام الحبر في مكاتبهم لكتابة أي شيء سوى المراسلات الرسمية. وعندما كانوا يتحولون من الأعمال الرسمية إلى شيء شخصي، كانوا يغيرون الأقلام.

كانت هناك حماسة تطهرية في الالتزام بالانضباط الثوري. وشعر أبي أنه من خلال هذه الأشياء الصغيرة، كانوا يشيعون موقفاً جديداً بين الصينيين: الملكية العامة ستكون، للمرة الأولى، منفصلة انفصالاً صارماً عن الملكية الخاصة، ولن يتصرف المسؤولون في أموال الشعب، بعد الآن، وكأنها أموالهم، أو يسيئوا استخدام مناصبهم. واتخذ هذا الموقف أغلبية من كانوا يعملون مع أبي، وكانوا صادقين في إيمانهم بأن جهودهم المضنية، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالقضية النبيلة لبناء صين جديدة.

كانت «حملة الأضداد الثلاثة» موجهة ضد أشخاص في الحزب. ولكن الرشوة صفقة تعقد بين طرفين، وكان الراشون، في أحيان كثيرة، من خارج الحزب، وخاصة «الرأسماليون» من أصحاب المعامل والتجار، الذين لم يُمَسُّوا بعد إلاّ لماماً. كانت العادات القديمة راسخة بعمق. وفي ربيع ١٩٥٢، بعد فترة قصيرة من انطلاق «حملة الأضداد الثلاثة»، بدأت حملة أخرى متداخلة معها. سميت هذه حملة «الأضداد الخمسة»، وكانت موجهة ضد الرأسماليين. كانت الآفات الخمس المستهدفة، هي الرشوة، والتهرب من الضرائب، والاحتيال، وسرقة ممتلكات الدولة، والحصول على معلومات اقتصادية من خلال الفساد. واكتُشف أن أغلبية الرأسماليين ارتكبوا واحدة أو أكثر من هذه الجنح، وكانت العقوبة، عادة، غرامة. وقد استخدم الشيوعيون هذه الحملة لاستمالة الرأسماليين و (في أحيان كثيرة) لتدجينهم، ولكن بطريقة تزيد فائدتهم للاقتصاد قدر الإمكان. ولم يُسجن كثيرون.

هاتان الحملتان المترابطتان، عززتا آليات الرقابة، التي استُحدِثت، بالأصل، في الأيام الأولى من الشيوعية، وكانت فريدة في نوعها بالنسبة إلى الصين. وكانت أهمها «الحملة الجماهيرية» (كيون ـ جونغ يون ـ دونغ)، التي قامت بها هيئات تعرف باسم «فرق العمل» (غونغ ـ زوو ـ زو).

كانت فرق العمل هيئات ذات هدف محدد، مؤلفة، بالدرجة الرئيسية، من موظفي المكاتب الحكومية، ويقودها مسؤولون حزبيون متقدمون. كانت الحكومة المركزية في بكين ترسل فرقاً إلى الأقاليم، للتدقيق في أعمال المسؤولين والموظفين الإقليميين. وكانت هذه، بدورها، تشكل فرقاً تفحص المستوى التالي، حيث تتكرّر العملية، نزولاً إلى القاعدة. ولا يستطيع، عادة، أن يصبح عضواً في فريق عمل من لم يتم فحصه في تلك الحملة المحددة.

كانت الفرق تُرسل إلى كل المنظمات، التي تجري فيها الحملة «لتعبئة الشعب». وكانت هناك اجتماعات إلزامية في معظم الأمسيات، لدراسة التعليمات الصادرة عن السلطات العليا. وكان أعضاء الفرق يتحدثون ويحاضرون ويحاولون إقناع الناس بالنهوض وفضح المشبوهين. وكان يجري تشجيعهم على وضع شكاوى مجهولة الاسم في صناديق متوافرة لهذا الغرض. ويقوم فريق العمل بالتحقيق في كل حالة. وإذا تأكدت التهمة في التحقيق أو اكتشف التحقيق مسوِّغات للشبهة، كان الفريق يصدر حكماً يُرفع إلى المستوى التالي من السلطة للموافقة عليه.

لم يكن ثمة نظام استئناف حقيقي، رغم أن من يقع تحت طائلة الشبهة، يستطيع أن يطلب رؤية الأدلة، ويُسمح له، عادة، بممارسة شكل من أشكال الدفاع. وكان في مقدور فرق العمل أن تفرض طائفة من الأحكام، منها النقد العلني، والطرد من العمل، وأشكال مختلفة من المراقبة. كان أقصى حكم تستطيع إصداره إرسال الشخص إلى الريف، للقيام بعمل يتطلب قوة بدنية. وكانت القضايا الأكثر خطراً وحدها، هي التي تحال إلى القضاء النظامي، الذي يقع تحت رقابة الحزب. وكانت تصدر إلى كل حملة من الحملات مجموعة من التوجيهات، التي تنزل من القمة ذاتها، وعلى فرق العمل أن تلتزم بها التزاماً صارماً. ولكن حين يتعلق الأمر بحالات فردية، فإن حكم فريق العمل المحدد ـ وحتى مزاجه ـ يمكن أن يكون هاماً أيضاً.

في كل حملة، يخضع كل من يندرج ضمن الفئة، التي حددتها بكين بمثابة الهدف، لدرجة من التمحيص، من قبل زملائه في العمل والجيران على الأغلب، وليس من قبل الشرطة. وكان هذا اختراعاً أساسياً من اختراعات ماو ـ لإشراك كل السكان في عملية الرقابة. وطبقاً لمعايير النظام، فإن قلة من المسيئين، يمكن أن يفلتوا من عيون الشعب المتيقظة، وخاصة في مجتمع يمتلك عقلية ناطور موغلة في القدم. ولكن «الكفاءة» اكتُسبت بثمن باهظ: فالحملة كانت تعمل وفق معايير ملتَبسة للغاية، وقد أدين الكثير من الأبرياء، بسبب الثارات الشخصية، وحتى الأقاويل.

كانت العمة جون ـ ينغ تعمل حائكة، للمساعدة على إعالة أمها وأخيها المعوق. وكانت تعمل كل ليلة حتى الفجر. أصيبت عيناها بأذى بالغ من الضوء الخافت. وبحلول عام ١٩٥٢، ادخرت واقترضت ما يكفي من المال لشراء آلتي حياكة أخريين، وكان لديها صديقتان تعملان معها. ورغم أنهن كنَّ يتقاسمن العائد، فإن

عمتي كانت، نظرياً، تدفع لهما لأنها تملك الآلتين. وفي «حملة الأضداد الخمسة»، كان كل من يستخدم آخرين يقع تحت طائلة الشبهة. وحتى مشاريع صغيرة جداً تشكل تعاونيات من الناحية الفعلية، مثل مشروع العمة جون ـ ينغ، كانت تخضع للتحقيق. وقد أرادت أن تطلب من صديقتيها الرحيل، ولكن دون أن تشعرهما بأنها تقوم بطردهما. ولكن الصديقتين قالتا لها إن من الأسلم أن تغادرا. كانتا قلقتين من أنه إذا وشى بها أحد، فقد تظن أنهما من فعل ذلك.

في منتصف ١٩٥٣، انتهت حملتا «الأضداد الثلاثة» و«الأضداد الخمسة». فقد رُوِّض الرأسماليون، واستؤصِلت شأفة الكومنتانغ. وبلغت الاجتماعات الجماهيرية خاتمتها، عندما أدرك المسؤولون أن الكثير من المعلومات التي تظهر فيها، كانت معلومات غير موثوقة. وكانت القضايا تُدرس على أساس فردي.

في أيار/مايو ١٩٥٣، دخلت أمي المستشفى لوضع طفلها الثالث، الذي ولد في ٢٣ أيار/مايو: وَلَد اسمه جن ـ منغ. كان مستشفى البعثة التبشيرية، الذي نزلته عندما كانت حاملاً بي، ولكن المبشرين أُبعدوا الآن، كما حدث في عموم الصين، وكانت أمي قد رقيت لتوها إلى رئيسة قسم الشؤون العامة لمدينة يي بِين، مستمرة في العمل تحت إشراف السيدة تنغ، التي ارتقت إلى سكرتيرة الحزب للمدينة. وحينذاك، كانت جدتي أيضاً في المستشفى مصابة بربو شديد. وكذلك أنا مصابة بالتهاب في السرة. وكانت مرضعتي معي في المستشفى. كنا نُعامَل معاملة طيبة، والطبابة مجانية، لأننا ننتمي إلى عائلة «في الثورة». وكان الأطباء يميلون إلى إعطاء أسرَّة المستشفى القليلة جداً للمسؤولين وعوائلهم. لم تكن هناك خدمة صحية عامة لمعظم السكان: الفلاحون، مثلاً، كان عليهم أن يدفعوا.

كانت أختي وعمتي جون ـ ينغ تقيمان مع أصدقاء في الريف، أبي وحده كان في البيت. وذات يوم، جاءت السيدة تنغ لتقدم تقريراً عن عملها. بعد ذلك، قالت إن عندها صداعاً وتريد الاستلقاء. ساعدها أبي على الاستلقاء على أحد الأسرة، وفي هذه الأثناء جرّته نحوها، وحاولت تقبيله واحتضانه. تراجع أبي على الفور. قال لها: «لا بد أن تكوني متعبة»، وغادر الغرفة في الحال. بعد لحظات عاد في حالة من الانفعال الشديد. كان يحمل قدحاً من الماء وضعه على المنضدة جنب السرير. «يجب أن تعرفي أنني أحب زوجتي»، ثم توجه إلى الباب وأغلقه وراءه، قبل أن تتاح

للسيدة تنغ فرصة لعمل أي شيء. وتحت قدح الماء ترك قصاصة من الورق كتب عليها: «الأخلاق الشيوعية».

بعد أيام قليلة، غادرت أمي المستشفى. وعندما اجتازت مع طفلها عتبة الدار قال أبي: «سنغادر يي بِين نهائياً، ما أن تتمكني». لم تتمكن أمي أن تتخيل ما حلّ به. أخبرها بما حدث، وقال إن عيني السيدة تنغ كانتا عليه منذ بعض الوقت. شعرت أمي بالصدمة أكثر من الغضب. وسألت: «ولكن لماذا تريد أن نرحل بهذه العجالة؟». قال أبي: «إنها امرأة مصممة، وأخشى أن تحاول ثانية. وهي أيضاً امرأة حقود. وأشد ما يقلقني أنها قد تحاول إيذاءكِ. وسيكون ذلك سهلاً، لأنكِ تعملين تحت مسؤوليتها». أجابت أمي: «هل هي سيئة إلى هذا الحد؟». وقالت مبتسمة: «سمعتُ بعض الأقاويل، أنها حين كانت في السجن، أيام الكومنتانغ، أغوت السجان، شيء من هذا القبيل. ولكن البعض يحبون نشر الشائعات. وعلى أية حال، لا أستغرب أنك استهويتها. ولكن هل تعتقد أنها حقاً ستكون لئيمة معي؟ إنها أحسن صديقاتي هنا».

«إنكِ لا تفهمين ـ هناك شيء اسمه «الغضب بدافع الخجل» (ناو ـ شيو ـ تشينغ ـ نو). وأعرف أن هذا هو ما تشعر به. لم أكن على قدر كبير من اللباقة. ولا بد أنني أخزيتها. إني آسف. أخشى أني في حمأة اللحظة تصرفتُ لاإرادياً، إنها امرأة ستنتقم».

كان في مقدور أمي أن تتصور، على وجه الدقة، كيف كان صدود أبي القاطع مع السيدة تنغ. ولكنها لم تتمكن من أن تتخيل أن السيدة تنغ ستكون على تلك الدرجة من اللؤم، ولا أن ترى الكوارث التي يمكن للسيدة تنغ أن تنزلها بهما. فحدَّثها أبي عن سلفه في منصب حاكم يي بِين، السيد شو.

كان السيد شو فلاحاً فقيراً، انضم إلى الجيش الأحمر خلال المسيرة الكبرى. لم يكن يحب السيدة تنغ، وانتقد عليها غنجها. كما اعترض على الطريقة التي كانت تلف بها شعرها في ضفائر صغيرة عديدة، كانت تقرب من الفضيحة بالنسبة إلى ذلك الوقت. وقال لها، عدة مرات، إن عليها أن تقص ضفائرها. وقد رفضت قائلة له إن هذا ليس من شأنه، الأمر الذي لم يسفر إلا عن دفْعِه إلى مضاعفة انتقاداته، ليجعلها حتى أكثر عداء نحوه. وقررت الانتقام منه، بمساعدة زوجها.

كان ثمة امرأة تعمل في مكتب السيد شو، كانت جارية مسؤول في الكومنتانغ هرب إلى تايوان. وقد شوهدت وهي تحاول إغواء السيد شو الذي كان متزوجاً، وترددت أقاويل عن وجود علاقة غرامية بينهما. لقد حملت السيدة تنغ هذا المرأة على توقيع تصريح، تقول فيه إن السيد شو غازلها وأجبرها على ممارسة الجنس معه. فعلى الرغم من أنه كان حاكماً، رأت هذه المرأة أن عائلة تنغ مرهوبة أكثر. واتُّهم السيد شو باستخدام منصبه لإقامة علاقة مع جارية من الكومنتانغ سابقاً، الأمر الذي كان يعد جريمة لا تغتفر، بالنسبة إلى مناضل شيوعي قديم.

كانت إحدى الطرائق المعهودة في الصين لإسقاط شخص، جمع عدة اتهامات مختلفة، لتبدو القضية أكبر. وقد وجد الزوجان تنغ «مخالفة» أخرى لاتهام السيد شو بها. إذ إنه اختلف ذات يوم مع سياسة طرحتها بكين، وكتب إلى كبار قادة الحزب معبراً عن وجهات نظره. وبموجب ميثاق الحزب، فإن هذا من حقه، والأكثر من ذلك أنه بوصفه مناضلاً قديماً من مناضلي المسيرة الكبرى، كان في موقع ممتاز. وكتب في رسالته أنه لن ينفذ هذه السياسة، إلى أن يتلقى إجابة. واستخدم الزوجان تنغ ذلك للادعاء بأنه معاد للحزب.

وإذ ربط السيد تنغ التهمتين معاً، اقترح طرد السيد شو من الحزب، وإعفاءه من وظيفته. نفى السيد شو الاتهامات بشدة. وقال إن التهمة الأولى، هي ببساطة تهمة باطلة. فهو لم يغازل المرأة، وكل ما فعله هو التعامل بكياسة معها. أما التهمة الثانية، فإنه لم يفعل ما يحاسب عليه، وليست لديه نية في معاداة الحزب. كانت اللجنة الحزبية التي تحكم المنطقة مؤلفة من أربعة أشخاص: السيد شو نفسه والسيد تنغ وأبي والسكرتير الأول. والآن كان السيد شو خاضعاً لحكم الثلاثة الآخرين. أبي دافع عنه، وشعر واثقاً بأن السيد شو بريء، واعتبر كتابة الرسالة عملاً مشروعاً.

حين جرى التصويت، كانت النتيجة خسارة أبي، وطرد السيد شو. محض السكرتير الأول للحزب تأييده للسيد تنغ. وكان أحد الأسباب التي دفعته إلى ذلك، أن السيد شو كان في الفزع «الخطأ» من الجيش الأحمر. إذ كان ضابطاً متقدماً في ما كان يسمى جيش «الجبهة الرابعة» في سيشوان، في أوائل الثلاثينات. وقد ضمّ هذا الجيش قواته إلى فرع الجيش الأحمر بقيادة ماو، خلال المسيرة الكبرى في عام

١٩٣٥. وكان قائده، وهو شخصية متألقة اسمه جانغ غوو ـ تاو، قد تحدى ماو في قيادة الجيش الأحمر، وخسر التخدي. وعند ذاك، غادر المسيرة الكبرى مع جنوده. في نهاية المطاف، بعد تكبده خسائر فادحة، اضطر إلى الالتحاق مجدداً بماو. ولكن في عام ١٩٣٨، بعد أن وصل الشيوعيون إلى ينان، انتقل إلى جانب الكومنتانغ. وبسبب ذلك، كان كل من عمل في جيش الجبهة الرابعة موصوماً، واعتبر ولاؤه لماو موضع شك. كانت هذه القضية حساسة، بصفة خاصة، لأن كثيرين في جيش الجبهة الرابعة كانوا من سيشوان.

بعد أن استولى الشيوعيون على السلطة، كان هذا النوع من الوصمة غير المنطوقة، يلصق بأي قسم من الثورة لم يكن تحت سيطرة ماو المباشرة، بما في ذلك التنظيم السري، الذي كان يضم الكثيرين من أشجع الشيوعيين وأكثرهم تفانياً ـ وأحسنهم تعليماً. في يي بِين كان جميع الأعضاء السابقين في التنظيم السري، يشعرون بنوع من الضغط. وكان من بين التعقيدات المضافة، أن كثيرين في التنظيم السري المحلي كانوا من أصول موسرة، وعانت عوائلهم على أيدي الشيوعيين. والأكثر من ذلك، أنهم أصبحوا موضع حسد لأنهم كانوا، عادة، أحسن تعليماً من الذين وصلوا مع الجيش الشيوعي، والذين كانوا أساساً، من أصول فلاحية، وفي أحيان كثيرة من الأميين.

كان أبي، بالسليقة، أقرب كثيراً إلى جماعة التنظيم السري، رغم أنه كان مقاتلاً في حرب العصابات. على أية حال، رفض أبي مسايرة العزل الكريه، وجاهر بدفاعه عن أعضاء التنظيم السري سابقاً. وغالباً ما كان يقول: «إنه لمما يثير السخرية، أن يُقَسِّم الشيوعيون إلى «تحت الأرض» و «فوق الأرض»». وفي الحقيقة أن أغلبية الذين اصطفاهم للعمل معه، كانوا من التنظيم السري، لأنهم كانوا الأكثر اقتداراً.

رأى أبي أن اعتبار من كانوا في جيش الجبهة الرابعة، مثل السيد شو، مشبوهين أمر مرفوض، وكافح من أجل رد اعتباره. أولاً، نصحه بالرحيل عن يي بِين لتفادي مزيد من المتاعب، ففعل متناولاً وجبته الأخيرة مع عائلتي. نُقل إلى تشينغدو، عاصمة إقليم سيشوان، حيث عُيّن كاتباً في مكتب الغابات الإقليمي. ومن هناك، كان يكتب المناشدات إلى اللجنة المركزية في بكين، ذاكراً اسم أبي بوصفه من يزكيه. وقد كتب أبي مؤيداً استئنافه. وبعد مدة طويلة، أسقطت عن السيد شو تهمة «معاداة

الحزب»، ولكن التهمة الأصغر، وهي «علاقات خارج إطار الزوجية»، ظلت قائمة. لم تجرؤ الجارية السابقة، التي وجهت التهمة على التراجع عنها، ولكنها قدمت إفادة ضعيفة ومفككة بشكل صارخ عن المغازلات المزعومة، وذلك بهدف واضح هو الإشارة إلى فريق التحقيق أن التهمة باطلة. عُيّن السيد شو في منصب متقدم بعض الشيء في وزارة الغابات في بكين، ولكنه لم يسترد منصبه السابق.

ما كان أبي يحاول إيصاله إلى أمي، أن الزوجين تنغ لن يتورعا عن شيء لتصفية حسابات قديمة. وأعطى أمثلة أخرى، وكرر أن عليهما أن يرحلا في الحال. وفي اليوم التالي، سافر إلى تشينغدو، وهي رحلة تستغرق مدة يوم إلى الشمال. وهناك توجه مباشرة إلى حاكم الإقليم، الذي كان يعرفه معرفة جيدة، وطلب منه نقله، قائلاً إن من الصعوبة بمكان أن يعمل في مدينته والتعامل مع آمال أقاربه الكثيرين، الذين يعلقونها عليه. واحتفظ بأسبابه الحقيقية لنفسه، لأنه لم تكن لديه أدلة دامغة ضد الزوجين تنغ.

كان الحاكم لي دا ـ جانغ، هو الذي تبنى في الأصل الطلب الذي قدمته زوجة ماو، جيانغ كنغ، للانضمام إلى الحزب. وقد أبدى تعاطفه مع موقف أبي، وقال إنه سيساعده على نقله، ولكنه لا يريد منه الانتقال على الفور: كل المناصب المناسبة في تشينغدو قد شُغلت. وبعد أن حاول الحاكم جاهداً أن يثنيه، استسلم في النهاية، وقال له إنه يستطيع أن يتسلم منصب رئيس مكتب الفنون والتعليم. ولكنه حذره قائلاً: «إن هذا أدنى بكثير من مقدرتك». وقال أبي إنه لا يمانع ما دام هناك عمل يؤديه.

كان أبي قلقاً، حتى إنه لم يعد إلى يي بِين، بل بعث برسالة إلى أمي، يقول لها أن تلتحق به في أسرع وقت ممكن. وقالت النساء في عائلته، إن من غير الوارد على الإطلاق أن تنتقل أمي بعد هذا الوقت القصير من ولادتها. ولكن أبي كان مرعوباً مما يمكن أن تفعله السيدة تنغ، وما أن انتهى الشهر التقليدي من النقاهة بعد الوضع، حتى أرسل حارسه إلى يي بِين لمرافقة أمي.

تقرر أن يبقى أخي جن ـ منغ، لأنه اعتُبر صغيراً جداً، لا يقوى على السفر. وكانت مرضعته ومرضعة أختي على السواء، تريدان البقاء لتكونا قرب عائلتيهما. وكانت مرضعة جن ـ منغ شغفة به، وسألت أمي إن كانت تستطيع إبقاءه معها. فوافقت. كان لديها ثقة تامة بها.

غادرنا، أنا وأمي وجدتي وأختي مع مرضعتي والحارس، يي بِين قبل طلوع الفجر، ذات ليلة في أواخر حزيران/يونيو. انحشرنا جميعاً في سيارة جيب مع أمتعتنا القليلة، التي كانت حقيبتين لا أكثر. في ذلك الوقت، لم يكن لدى مسؤولين، مثل والديَّ، أي ممتلكات على الإطلاق ـ قطع قليلة من الملابس الأساسية فقط. سرنا على طرق ترابية مخرَّمة بالحفر، حتى وصلنا مدينة نيجْيانغ في الصباح. كان يوماً قائظاً، وتعين علينا الانتظار ساعات لمجيء القطار.

لحظة دخول القطار إلى المحطة، قررتُ فجأة أن عليّ أن أقضي حاجتي، فرفعتني مرضعتي، وحملتني إلى حافة الرصيف. كانت أمي خائفة أن يغادر القطار بصورة مفاجئة، وحاولتْ منعها. إلتفتت إليها مرضعتي، التي لم تر قطاراً من قبل، ولم تكن لديها فكرة عن وجود مواعيد، وقالت بأنفة: «ألا تستطيعين أن تطلبي من السائق أن ينتظر؟ إن إير ـ هونغ تحتاج إلى أن تتبول». كانت تظن أن الجميع سيضعون، مثلها، حاجاتي أولاً بصورة تلقائية.

كان علينا أن نتفرق لدى ركوبنا القطار، بسبب مراكزنا المختلفة. كانت أمي في قمرة نوم من الدرجة الثانية مع أختي، ولجدتي مقعد ناعم في عربة أخرى، ومرضعتي وأنا، كنا في ما يسمى «مقصورة الأمهات والأطفال»، حيث كان لها مقعد صلب وسرير لي. وكان الحارس في عربة رابعة، بمقعد صلب.

فيما كان القطار يمضي بطيئاً بهدير خافت، كانت أمي تنظر إلى الخارج، محدقة إلى حقول الرز وقصب السكر. وبدا الفلاحون، الذين كانوا يظهرون من حينٍ إلى آخر سائرين على الأكمة الطينية، نصف نيام تحت قبعاتهم العريضة المصنوعة من القش، وكان الرجال عراة الصدور. كانت شبكة الجداول تتدفق بصورة متقطعة، تعترضها سدود طينية صغيرة، توجه الماء ليصب في حقول الرز الفردية الكثيرة.

كانت أمي في مزاج عكر. فللمرة الثانية في غضون أربعِ سنوات، يتعين عليها وعلى زوجها والعائلة أن يرحلوا عن مكان كانوا شديدي التعلُّق به. أولاً من مدينتها جنجو، والآن من مدينة أبي، يي بِين. بدا أن الثورة لم تأت بحل لمشاكلهما، بل إنها سببت مشاكل جديدة. وللمرة الأولى، شعرت بشكل مبهم أن الثورة إذ صنعها بشر، فهي مثقلة بمثالبهم. ولكن لم يخطر ببالها أن الثورة كانت تفعل القليل جداً

لمعالجة هذه المثالب، بل إنها، في الواقع، تعتمد على بعض رجالها، على الأسوأ منهم في أحيان كثيرة.

عندما اقترب القطار من تشينغدو قبيل العصر، وجدت أمي نفسها تتطلع بصورة متزايدة إلى حياة جديدة هناك. لقد سمعت الكثير عن تشينغدو، التي كانت عاصمة مملكة قديمة، ومعروفة بأنها «مدينة الحرير» نسبة إلى إنتاجها الأوسع شهرة.

كانت تسمى أيضاً «مدينة الخبازي»، الذي قيل إنه كان يدفن المدينة بأوراقه، عقب هبوب عاصفة صيفية. كانت أمي في الثانية والعشرين من العمر. وفي هذا العمر نفسه، قبل زهاء عشرين عاماً، كانت أمها تعيش سجينة من الناحية العملية في منشوريا، في بيت يملكه «زوجها» سيد الحرب الغائب، تحت مراقبة خدامه. كانت ألعوبة الرجال وملكهم. كانت أمي، على الأقل، إنساناً مستقلاً. ومهما بلغت تعاستها، كانت واثقة أن ما تعانيه لا يقابل بمحنة أمها كامرأة في الصين القديمة. قالت لنفسها إن لديها الكثير مما ينبغي أن تشكر الثورة الشيوعية عليه. وحين توقف القطار في محطة تشينغدو، كانت مصممة على أن تهب نفسها من جديد للقضية العظيمة.

١٠ ـ «المكابدة ستجعلك شيوعياً أفضل» ـ أمي تحت طائلة الشبهة (١٩٥٣ ـ ١٩٥٦)

قابَلَنا أبي في المحطة. كان الهواء ساكناً ومقبِضاً، وكانت أمي وجدتي مضنيتين من عناء الرحلة، في الليلة السابقة، والحرارة الحارقة، التي كانت تهب داخل القطار طول الطريق. أُخذنا إلى دار ضيافة تعود إلى حكومة سيشوان الإقليمية، كانت سكننا المؤقت. وتمّ نقل أمي بسرعة حتى إنها لم تُعين في وظيفة، ولم يكن هناك متسع من الوقت لاتخاذ التدابير المناسبة في شأن إيجاد مكان نعيش فيه.

كانت تشينغدو عاصمة سيشوان، أكبر الأقاليم سكاناً في الصين، التي قدّر عدد سكانها بزهاء ٦٥ مليون نسمة وقتذاك. كانت مدينة كبيرة يزيد عدد سكانها على نصف مليون نسمة، وتأسست في القرن الخامس قبل الميلاد. زارها ماركو بولو في القرن الثالث عشر، وأعجب إعجاباً بالغاً بازدهارها. بُنيت على غرار تصميم بكين، بقصور قديمة، وبوابات كبيرة كلها على محور بين الشمال والجنوب يقسم المدينة تقسيماً أنيقاً إلى شطرين، غربي وشرقي. في عام ١٩٥٣، نمت خارج تصميمها الأنيق الأصلي، وقُسمت إلى ثلاث مناطق إدارية ـ الشرقية والغربية والأطراف.

في غضون أسابيع قليلة من وصولنا، عُينت أمي في وظيفة. جرت استشارة أبي في شأنها، ولكن، عملاً بالتقليد العريق في الصين، لم تُستَشر أمي نفسها. قال أبي إن أي شيء سيكون مقبولاً، ما دامت تعمل تحت مسؤوليته مباشرة، فعُينت رئيسة قسم الشؤون العامة للمنطقة الشرقية من المدينة. ولأن وحدة عمل المرء كانت هي

المسؤولة عن سكنه، فقد خصصت لها غرف تعود إلى قسمها، في فناء تقليدي. انتقلنا إلى هذه الغرف، فيما بقي أبي في جناح مكتبه.

كان محل سكنانا في المجمع نفسه، الذي توجد فيه إدارة المنطقة الشرقية. وكانت المكاتب الحكومية، في الغالب، تعمل في قصور كبيرة مصادرة من مسؤولي الكومنتانغ وأثرياء الملاك. وكان جميع الموظفين، حتى المسؤولون الكبار منهم، يعيشون في مكاتبهم. لم يكن مسموحاً لهم الطهي في البيت، وكانوا كلهم يأكلون في مطاعم. ومن المطعم أيضاً كان الجميع يحصلون على الماء المغلى، الذي يُجلب في قوارير حافظة للحرارة.

كان يوم السبت هو اليوم الوحيد الذي يسمح للمتزوجين بقضائه معاً. وبين الموظفين، كان التعبير المؤدب عن ممارسة الجنس هو «قضاء يوم سبت». وتدريجاً، تراخى بعض الشيء نمط الحياة المجيَّش هذا، وصار في مقدور المتزوجين أن يمضوا وقتاً أطول معاً، ولكن الجميع تقريباً ظلوا يعيشون ويمضون معظم أوقاتهم في مجمعاتهم المكتبية.

كان قسم أمي يدير طائفة واسعة جداً من الأنشطة، تضم التعليم الابتدائي والصحة والترفيه واستطلاع الرأي العام. وفي سن الثانية والعشرين، كانت أمي مسؤولة عن كل هذه الأنشطة لحوالي ربع مليون إنسان. كانت غارقة في العمل، بحيث إننا نادراً ما كنا نراها. كانت الحكومة تريد إقامة احتكار (معروف باسم «الشراء والتسويق الموحدين») تجارة السلع الأساسية ـ الحبوب والقطن وزيت الطعام واللحوم. وكانت الغاية من ذلك حمل الفلاحين على بيع هذه المواد للحكومة حصراً، التي توزعها عند ذاك بالحصص على سكان المدن، وعلى مناطق البلاد التي تشح فيها هذه السلع.

حين كان الحزب الشيوعي الصيني يعلن سياسة جديدة، كان يقرنها بحملة دعائية للمساعدة على إشاعة هذه السياسة. وكان جزء من عمل أمي محاولة إقناع الناس أن التغيير هو نحو الأفضل. وكان جوهر الرسالة، هذه المرة، أن لدى الصين عدداً هائلاً من السكان، وأن مشكلة إطعامهم وكسوتهم لطالما عانتها الصين، والآن تريد الحكومة أن تتوثق من توزيع الضروريات الأساسية توزيعاً عادلاً، وأن لا يجوع أحد فيما يكتنز آخرون الحبوب أو ضروريات أخرى. انكبت أمي على عملها بهمة،

منطلقة في جولات على دراجتها الهوائية، متحدثة في اجتماعات لا تنتهي، حتى عندما كانت في الأشهر الأخيرة من الحمل بطفلها الرابع، كانت تستمتع بعملها وتؤمن به.

لم تدخل المستشفى إلاّ في الدقيقة الأخيرة لوضع طفلها، الذي كان صبياً، ولد في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٤. كانت مرة أخرى ولادة يكتنفها الخطر. وكان الطبيب يستعد للذهاب إلى بيته، عندما أوقفته أمي. كانت تنزف بصورة غير عادية، وتعرف أن شيئاً ما ليس على ما يرام. أصرت على بقاء الطبيب والقيام بفحصها. كان جزء من مشيمتها مفقوداً. وإذ رأى الطبيب أن الحالة تقتضي إجراء عملية كبرى، قرّر تخديرها تخديراً عاماً وفحص رحمها ثانية. فوجدوا الجزء المفقود، مما أنقذ حياتها على الأرجح.

كان أبي في الريف، يحاول تعبئة التأييد لبرنامج سيطرة الدولة الاحتكارية. وكان قد رُفع لتوّه إلى الدرجة ١٠، ورقي إلى نائب مدير قسم الشؤون العامة لسيشوان كلها. كانت إحدى وظائف القسم الرئيسية متابعة استطلاع الرأي العام باستمرار: كيف يشعر الناس إزاء سياسة معينة؟ ما هي شكاواهم؟ ولأن الفلاحين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من السكان، فقد كان أبي، في أحيان كثيرة، يطوف الريف مستطلعاً آراءهم ومشاعرهم. وكان، شأنه شأن أمي، يؤمن إيماناً راسخاً بعمله المتمثل في إبقاء الحزب والحكومة على اتصال بالشعب.

في اليوم السابع على ولادة أمي، أرسل أحد زملاء أبي سيارة إلى المستشفى لنقلها إلى بيتها. وكان مقبولاً أن تتولى المنظمة الحزبية، إذا كان الزوج غائباً، مسؤولية العناية بزوجته. قبلت أمي نقلها بامتنان، لأن «البيت» يبعد نصف ساعة مشياً على الأقدام. وحين عاد أبي، بعد أيام، توجّه إلى زميله بالتقريع. فالقواعد تنص على أن أمي لا تستطيع ركوب سيارة رسمية، إلاّ إذا كان أبي فيها. واستخدام السيارة حين لا يكون موجوداً، سيبدو محسوبية، كما قال. وقال زميله إنه سمح بإرسال السيارة، لأن أمي أخضعت لتوها لعملية تركتها ضعيفة للغاية. وردّ عليه أبي بأن القاعدة هي القاعدة. كان من الصعب على أمي تحمل هذه الصرامة التطهرية مرة أخرى. فهذه هي المرة الثانية، التي يتهجم عليها فور خروجها من ولادة عسيرة. وتساءلت لماذا لم يكن موجوداً لأخذها إلى البيت، فلا يضطر إلى خرق القواعد؟

قال إنه كان منهمكاً في عمله، وهو عمل هام. كانت أمي تتفهم تفانيه ـ وهي نفسها متفانية. ولكنها شعرت أيضاً بخيبة مريرة.

بعد يومين على ولادة أخي الجديد، شياو ـ هي، أصيب بمرض الأكزيما. وظنت أمي أن السبب هو أنها لم تتناول أي زيتون أخضر مسلوق خلال الصيف، حين كانت مستغرقة في العمل. فالصينيون يعتقدون أن الزيتون يطرد حرارة الجسم التي، من دونه، تظهر في أورام حرارية. وطيلة أشهر عديدة، تعين ربط يدي شياو ـ هي بسياج سريره، لمنعه من حك جلده. وحين كان في الشهر السادس من عمره، أُرسل إلى مستشفى للأمراض الجلدية. وفي هذا الوقت، كان على جدتي أن تسرع عائدة إلى جنجو بسبب مرض أمها.

كانت مربية شياو ـ هي فتاة ريفية من يي بِين، ذات شعر أسود طويل، وعينين لعوبين. قتلت طفلها بطريق الخطأ ـ كانت ترضعه مضطجعة، ثم غلب عليها النعاس فنامت وخنقته. ذهبت لرؤية عمتي جون ـ ينغ، من خلال صلة عائلية، وتوسلت إليها أن تعطيها توصية إلى عائلتي. كانت تريد أن تذهب إلى مدينة كبيرة، وتقضي وقتاً ممتعاً. أعطتها عمتي تزكية، رغم معارضة بعض النساء المحليات، اللواتي قلن إنها لا تريد سوى الوصول إلى تشينغدو للتخلص من زوجها. كانت جون ـ ينغ، رغم أنها غير متزوجة، بعيدة عن الغيرة من مسرات الأخريات، وخاصة المتعة الجنسية. في الواقع، كانت دائماً مسرورة من أجلهن. متفهمة كل التفهم ومتسامحة مع مواطن الضعف في البشر، ومتعففة تماماً عن إصدار الأحكام.

في غضون أشهر قليلة، زُعم أن للمربية علاقة غرامية بحانوتي في المجمع. كان والداي يعتبران مثل هذه الأشياء أموراً خاصة، وغضا الطرف.

عندما دخل أخي مستشفى الأمراض الجلدية، ذهبت المرضعة معه. كان الشيوعيون قضوا، من حيث الأساس، على الأمراض الزهرية ولكن كان لا يزال هناك بعض المرضى المصابين بها في إحدى الردهات. وذات يوم، شوهدت المرضعة في الفراش مع مريض في تلك الردهة. قام المستشفى بإبلاغ أمي، واقترحوا أنه لن يكون مأموناً أن تواصل المرضعة تغذية شياو ـ هي من صدرها. طلبت أمي منها أن ترحل. وبعد ذلك، تولت العناية بشياو ـ هي مرضعتي والمرضعة التي كانت تعتني بأخي الآخر، جن ـ منغ، الذي التحق بنا من يي بِين.

في نهاية عام ١٩٥٤، كتبت مربية جن ـ منغ إلى أمي تقول إنها تريد المجيء والعيش معنا، لأن لديها متاعب مع زوجها، الذي أصبح يفرط في شرب الكحول، وكان يضربها. لم تكن أمي قد رأت جن ـ منغ منذ ثمانية عشر شهراً، منذ أن كان في الشهر الأول من عمره. ولكن وصوله كان مبعث غمٍّ شديد، إذ لم يدعها تلمسه لزمن طويل، والشخص الوحيد الذي يناديه «ماما» كان مربيته.

وجد أبي أيضاً صعوبة في إقامة علاقة حميمة بجن ـ منغ، ولكنه كان قريباً جداً مني. كان يزحف على الأرض، ويدعني أمتطي ظهره. وكان يضع بعض الزهور في ياقته، لكي أتنشق عبيرها. وإذا نسي، كنت أشير إلى الحديقة، وأطلق أصواتاً آمرة، تشير إلى جلب البعض منها في الحال. غالباً ما كان يقبّل وجنتي. وذات مرة، لم يكن قد حلق ذقنه، أخفيت وجهي، وشكوتُ قائلة: «لحية قديمة، لحية قديمة!» بأعلى صوتي. كنت أسميه «لحية قديمة» (لاو هو ـ زي) طيلة أشهر. وأخذ يقبلني بحذر أكبر بعد ذلك. كنت أعشق أن أدرج بين المكاتب دخولاً وخروجاً، واللعب مع الموظفين. كنت أطاردهم وأطلق عليهم أسماء خاصة اخترعتها لهم، وأقرأ أناشيد الحضانة لهم. وقبل أن أبلغ سن الثالثة، كنت معروفة بلقب «الدبلوماسية الصغيرة».

حين نيف عمري عن ثلاث سنوات، أُرسلنا جميعاً، أنا وأشقائي وشقيقاتي، إلى دور حضانة مختلفة، نأكل وننام فيها. لم أفهم لماذا كانوا يبعدونني عن البيت، وقد رَكَلتُ الأرض ونَزعتُ الشريط من شعري احتجاجاً. وفي الحضانة، كنت أتعمد إثارة المتاعب للمعلمات، وأسكب اللبن على منضدتي كل يوم، وأردف ذلك بما لدي من كبسولات زيت كبد السمك. وكان علينا أن نأخذ قيلولة طويلة بعد الغداء، كنت خلالها أروي قصصاً مرعبة من تلفيقي، للأطفال الآخرين في المهجع الكبير. وسرعان ما اكتشف أمري، وعوقبت بالجلوس على عتبة الباب.

كان سبب وجودناه في دور الحضانة عدم وجود مَنْ يعتني بنا. وذات يوم، في تموز/يوليو ١٩٥٥، أبلغت أمي والـ ٨٠٠ موظف في المنطقة الشرقية، أن عليهم البقاء في المبنى حتى إشعار آخر. فقد بدأت حملة سياسية جديدة ـ هذه المرة لكشف ـ «أعداء الثورة المتخفّين». وكان على الجميع أن يخضعوا لفحص دقيق.

قبلت أمي وزملاؤها الأمر دون سؤال. فقد كانوا يعيشون حياة مجيَّشة في كل الأحوال. كما بدا طبيعياً أن يقوم الحزب بالتدقيق في سلوك أعضائه، ليضمن استقرار المجتمع الجديد. وكانت أُمنية أمي، شأن معظم رفاقها، في تكريس نفسها للقضية، تفوق أية رغبة في التبرم من صرامة الإجراء.

بعد أسبوع، بُرِّئت ساحة أغلبية زملائها، وسمح لهم بالخروج بحرية. وكانت أمي واحدة من الحالات الاستثنائية القليلة. قيل لها إن أشياء معينة في ماضيها لم تنجلِ بعد. وتعين عليها أن تنتقل من غرفة نومها إلى النوم في غرفة تقع في قسم مختلف من مبنى المكتب. وقبل ذلك، سمح لها ببضعة أيام في البيت لترتيب أمور عائلتها لأنها، كما قيل لها، يمكن أن توضع في الحجر لمدة طويلة جدًّا.

كانت الحملة الجديدة قد أطلقتها ردة فعل ماو على سلوك بعض الكتّاب الشيوعيين، وخاصة الكاتب المرموق هو فينغ. فهم لم يكونوا بالضرورة مختلفين مع ماو إيديولوجياً، ولكنهم كانوا يَشون بعنصر من عناصر الاستقلالية وبقدرة على التفكير بأنفسهم، الأمر الذي وجده مرفوضاً. كان يخشى أن يؤدي أي تفكير مستقل إلى الحؤول دون الطاعة التامة له. وأصرّ على أن الصين الجديدة، يجب أن تعمل وتفكر كرجل واحد، وأن المطلوب إجراءات صارمة للحفاظ على وحدة البلاد، وإلاَّ فإنها يمكن أن تتفكك. وأوعز باعتقال عدد من الكتّاب الكبار، ووصمهم بالضلوع في «مؤامرة معادية للثورة»، وهي تهمة مخيفة، لأن النشاط «المعادي للثورة» يقع تحت طائلة أقسى العقوبات، بما في ذلك حكم الإعدام.

كان هذا إيذاناً ببداية نهاية التعبير الفردي في الصين. فقد بسط الحزب سيطرته على كل وسائل الإعلام، عندما جاء الشيوعيون إلى السلطة. ومن الآن فصاعداً، وُضِعت عقول الأمة برمتها تحت رقابة أشد إحكاماً.

زعم ماو أن الذين يفتش عنهم، هم «جواسيس للدول الإمبرايالية والكومنتانغ وتروتسكيون وضباط سابقون في الكومنتانغ وخونة بين الشيوعيين». وادَّعى أنهم يعملون من أجل عودة الكومنتانغ و «الإمبرياليين الأميركيين»، الذين يرفضون الاعتراف ببكين ويضربون حول الصين طوقاً من العداء. وفي حين أن الحملة السابقة ضد أعداء الثورة، التي أعدم فيها صديق أمي هوي ـ غي، كانت موجهة ضد عناصر

الكومنتانغ فعلاً، فإن المستهدفين الآن هم أفراد في الحزب أو يعملون في الحكومة، لديهم في خلفياتهم ارتباطات بالكومنتانغ.

كان إعداد ملفات تفصيلية عن أصول الأفراد، جزءاً حاسماً من نظام الرقابة الشيوعي، حتى قبل مجيء الشيوعيين إلى السلطة. وكان قسم التنظيم في الحزب، يحفظ الملفات الخاصة بأعضاء الحزب. كانت السلطات تجمع ملفات كل من يعملون للدولة، وليسوا من أعضاء الحزب، في وحدات عملهم، حيث تحفظها إدارة الأفراد. وفي كل عام، يُكتب تقرير عن كل موظف من الموظفين، يعده مديره ويوضع هذا التقرير في ملفه. ولم يكن مسموحاً لأحد بقراءة ملفه، ولا يمكن أن يقرأ الملفات، إلاّ أشخاص مخولون تخويلاً خاصاً.

وحتى يكون المرء مستهدفاً في هذه الحملة الجديدة، يكفي أن يكون لديه ارتباط من نوع ما بالكومنتانغ في ماضيه، مهما كان واهياً أو مبهماً. وكانت التحقيقات تجريها فرق عمل، مؤلفة من مسؤولين معروفين بعدم وجود ارتباطات في حياتهم بالكومنتانغ. أصبحت أمي في مقدمة المشتبه فيهم. كما أصبحت مربيتانا أيضاً مستهدفتين بسبب ارتباطاتهما العائلية.

كان هناك فريق عمل مسؤول عن التحري حول الخدم والعاملين لدى الحكومة الإقليمية ـ سائقون، بستانيون، منظفات، طهاة، نظّار. وكان زوج مربيتي في السجن، لمعاقرته الميسر وتهريب الأفيون، فجعلها ذلك شخصاً «غير مرغوب فيه». وكانت مربية جن ـ منغ متزوجة بشخص من عائلة ملاك، وكان زوجها مسؤولاً صغيراً في الكومنتانغ. ولأن المرضعتين لم تكونا في موقع ذي أهمية، فإن الحزب لم يتعمق كثيراً في تحري حالاتهما. وتعين عليهما الكف عن العمل لعائلتنا.

أُعلمت أمي بذلك حين عادت إلى البيت لفترة وجيزة، قبل احتجازها. وعندما نقلت الخبر إلى المربيتين، أصيبتا بالذهول. كانتا تحبان جن ـ منغ وتحبانني. وكانت مربيتي قلقة أيضاً من فقدان دخلها، إذا تعين عليها أن تعود إلى يي بِين. لذا كتبت أمي إلى المحافظ هناك، تطلب منه أن يجد لها عملاً، ففعل. فذهبت للعمل في مزرعة شاي، وتمكنت من أخذ ابنتها الصغيرة للعيش معها.

لم تكن مربية جن ـ منغ تريد العودة إلى زوجها. فقد وجدت صديقاً جديداً،

كان ناظراً في تشينغدو، وأرادت أن تتزوجه. وبدموع منهمرة، استرحمت أمي أن تساعدها على الطلاق من زوجها، لتتمكن من الاقتران به.

كان الطلاق بالغ الصعوبة، ولكنها كانت تعرف أن كلمة من والديَّ، وخاصة من أبي، يمكن أن تكون عوناً كبيراً لها. وإذا تمكنت من الحصول على الطلاق من زوجها، والزواج بالناظر، فإنها ستنتقل تلقائياً من فئة «الملاك» إلى الطبقة العاملة ـ ولن يتعين عليها، حينذاك، أن تترك عائلتي. تكلمت أمي مع أبي، ولكنه كان ضد ذلك: «كيف يمكن لكِ أن ترتبي عملية طلاق؟ سيقول الناس إن الشيوعيين يخربون البيوت». قالت أمي: «ولكن ماذا عن أطفالنا؟ مَنْ سيعتني بهم، إذا تعين على المربيتين معاً أن ترحلا؟». كان لدى أبي إجابة عن ذلك أيضاً: «أرسليهم إلى الحضانة».

عندما قالت أمي لمربية جن ـ منغ إنه سيتعين عليها أن ترحل، كادت تصاب بالانهيار. وأول ما طُبع في ذاكرة جن ـ منغ هو رحيلها. فذات مساء، وقت الغروب، حَمَله أحدهم إلى الباب الأمامي. كانت مربيته تقف هناك بملابس ريفية، معطف قطني بسيط، ذي أزرار فراشية قطنية على جانبه، وتحمل رزمة قطنية. أراد منها أن تأخذه في أحضانها، ولكنها وقفت بعيداً ما يكفي عن متناوله، عندما مدّ ذراعيه نحوها. كانت الدموع تنحدر على وجهها. ثم نزلت درجات السلم، متجهة إلى البوابة في الجانب البعيد من الفناء. كان يوجد شخص لم يعرفه معها. وكانت على وشك أن تجتاز البوابة، عندما توقفت والتفتت مستديرة. صرخ وزعق وركل، ولكنه لم يُحمل قريباً منها. وقفت فترة طويلة تحت قوس بوابة الفناء، ترنو إليه ببصرها. ثم استدارت على عجل واختفت. ولم يرها جن ـ منغ أبداً بعد ذلك.

كانت جدتي لا تزال في منشوريا، وقد ماتت أم جدتي، للتو، بمرض السل. وقبل «الحجر في الثكنة» على أمي، كان عليها أن تنقلنا نحن الأطفال الأربعة إلى دور الحضانة. ولأن العملية كانت مفاجئة، لم تتمكن أية حضانة من حضانات البلدية، أن تأخذ أكثر من واحد منا، فتعين علينا أن نتوزع على أربع مؤسسات مختلفة.

وفيما كانت أمي تغادر إلى مكان الحجر، نصحها أبي قائلاً: «كوني صادقة تماماً مع الحزب، وثقي به ثقة تامة، وسيعطيك الحكم الصحيح». اجتاحتها موجة من النفور. كانت تريد شيئاً أكثر دفئاً وأكثر حميمية. وإذ كانت لا تزال ساخطة على أبي،

فقد قَدَّمت نفسها، ذات يوم صيفي رطب، للجولة الثانية من الحجر ـ هذه المرة، في ظل حزبها نفسه.

لم يكن التحقيق بحد ذاته يحمل وصمة الذنب، بل كان يعني فقط أن هناك أشياء في خلفية المرء، يتعين أن تنجلي. مع ذلك، أحزنها أن تكون موضع مثل هذه التجربة المهينة، بعد كل تضحياتها وإخلاصها الواضح للقضية الشيوعية. ولكنها كانت، من ناحية أخرى زاخرة بالتفاؤل في أن سحابة الشك السوداء التي حامت فوقها حوالي سبعة أعوام، ستتبدد في النهاية إلى الأبد. لم يكن لديها ما تخجل منه، ولم يكن لديها ما تخفيه. كانت شيوعية متفانية، وشعرت واثقة أن الحزب سيدرك ذلك.

شُكِّل فريق خاص من ثلاثة أشخاص للتحقيق معها. رئيسه كان السيد كوانغ، مسؤول الشؤون العامة لمدينة تشينغدو، الأمر الذي يعني أنه أدنى من أبي، وأعلى من أمي مرتبة. كانت عائلته تعرف عائلتي معرفة جيدة. ورغم أنه ظل دمثاً مع أمي، فإن موقفه كان رسمياً ومتحفظاً.

عُين لأمي، شأن المعتقلين الآخرين، «مرافقات» مختلفات، كنَّ يتتبعنها إلى كل مكان، حتى إلى المرافق الصحية، وينمن في فراش واحد معها. قيل لها إن هذا من أجل حمايتها. وفهمت، ضمناً، أنها «تُحمى» من الانتحار، أو من محاولة التواطؤ مع أحد آخر.

كانت عدة نساء يتناوبن على مرافقتها. وقد أعفيت إحداهن من واجباتها، لأنه تعين عليها أن تذهب هي نفسها إلى الحجر للتحقيق معها. وكان على كل مرافقة أن تعد تقريراً عن أمي، كل يوم. كن جميعاً يعرفن أمي، لأنهن عملن في مكاتب المنطقة، وإن لم يكنَّ في قسمها. كن ودودات، وباستثناء غياب الحرية، فقد عوملت أمي معاملة حسنة.

كان المحققون، إضافة إلى مرافقتها، يديرون الجلسات كأحاديث ودية، رغم أن موضوع هذه الأحاديث مزعج للغاية. لم يكن الافتراض المسبق افتراض الذنب على وجه التحديد، ولكنه لم يكن افتراض البراءة أيضاً. ولأنه لم تكن هناك إجراءات قانونية حقيقية، لم تكن هناك فرصة تذكر للدفاع عن النفس، ضد الغمز من قناة الاتهام.

كان ملف أمي يتضمن تقارير مفصلة، عن كل مرحلة من مراحل حياتها ـ كطالبة تعمل للتنظيم السري، وفي اتحاد النساء في جنجو، وفي وظائفها التي مارستها في يي بِين. وقد كتب هذه التقارير رؤساؤها حينذاك. كانت القضية الأولى التي أثيرت، إطلاق سراحها من السجن، في ظل الكومنتانغ، عام ١٩٤٨. كيف تمكنت عائلتها من إخراجها، آخذين في الحسبان أن جُرمَها كان يؤول إلى الخطر؟ لم تتعرض حتى للتعذيب؟ هل كان الاعتقال، في الحقيقة، خدعة هدفها كسب ثقة الشيوعيين بحيث تتمكن من شق طريقها إلى موقع موثوق، كعميلة للكومنتانغ؟

ثم كانت هناك صداقتها مع هوي ـ غي. لقد أصبح واضحاً أن مسؤولاتها في اتحاد النساء في جنجو، وضعن تعليقات ذميمة في ملفها، في هذا الشأن. وزعمن قائلات، بما أن هوي ـ غي حاول، من خلالها، أن يشتري من الشيوعيين ما يؤمن مستقبله، أتراها لم تحاول الحصول على تأمين مماثل من الكومنتانغ، تحسباً لانتصارهم؟

وطرح السؤال نفسه عن خطّابها من رجال الكومنتانغ. ألم تشجعهم من باب التأمين لنفسها؟ ثم عودة إلى الشبهة ذات الخطر نفسها: هل أوعز لها أي منهم، أن تتسلل داخل الحزب الشيوعي، وتعمل لحساب الكومنتانغ؟

لقد وضِعت أمي في موقف صعب، تضطر فيه إلى إثبات براءتها. فكل الذين كانت تُسأل عنهم، إما أعدموا أو كانوا في تايوان، أو لا تعرف مكانهم. وفي كل الأحوال، كانوا من الكومنتانغ ـ وكلمتهم لن تكون موضع ثقة. كيف أستطيع أن أقنعكم؟ كانت أحياناً تفكر باستياء، وهي تعيد الأحداث نفسها، المرة تلو الأخرى.

كما سُئلت عن ارتباطات عمومتها وخؤولتها بالكومنتانغ، وعن علاقتها بكل واحدة من صديقاتها في المدرسة، اللواتي انضممن، في سن المراهقة، إلى رابطة الشبيبة الكومنتانغية، في الفترة التي سبقت استيلاء الشيوعيين على جنجو. كانت توجيهات الحملة تصنف كل من عُيّن مسؤول فرع في رابطة الشبيبة الكومنتانغية، بعد استسلام اليابان، أنه «معاد للثورة». وقد حاولت أمي أن تجادل في أن منشوريا كانت حالة خاصة: اعتُبر الكومنتانغ ممثلين للصين، الوطن الأم، بعد الاحتلال الياباني. وماو نفسه كان، ذات يوم، مسؤولاً كبيراً في الكومنتانغ، إلا أنها لم تذكر ذلك. يضاف إلى ذلك، أن صديقاتها حوّلن ولاءهن إلى الشيوعيين، في غضون عامين.

ولكن قيل لها إن صديقاتها القديمات المذكورات يُعَدْنَ جميعاً الآن من أعداء الثورة. لم تكن أمي تنتمي إلى أية فئة مدانة، ولكن طُرح عليها السؤال المحرج: لماذا كانت لديك كل هذه الارتباطات الكثيرة بعناصر من الكومنتانغ؟

أبُقيت أمي في الحجز ستة أشهر. وخلال هذه الفترة، تعين عليها أن تحضر عدة اجتماعات جماهيرية، جرى فيها استعراض «عملاء للعدو» وإدانتهم، وإصدار الحكم عليهم، وتقييدهم بالأصفاد، واقتيادهم إلى السجن ـ في غمرة هتافات هادرة بالشعارات، ورفع القبضات من قبل عشرات الألوف. وكان هناك أيضاً «أعداء للثورة»، «اعترفوا» فأُنزل بهم «عقاب مخفف» ـ كان يعني عدم إرسالهم إلى السجن. وكان بين هؤلاء صديقة لأمي، انتحرت بعد الاجتماع الحاشد، لأنها قدمت، خلال التحقيق، بدافع اليأس، اعترافاً كاذباً. وبعد سبع سنوات، اعترف الحزب أنها كانت بريئة.

كانت أمي تؤخذ إلى هذه الاجتماعات، لكي «تتلقى درساً». ولكنها كانت تتمتع بشخصية قوية، ولذلك لم يسحقها الخوف، كما سحق الكثيرين غيرها، ولم يؤد منطق المحققين الخداع وتدليسهم إلى إرباكها. احتفظت بذهن صافٍ، وكتبت قصة حياتها بصدق.

قضت ليالي طويلة، لم يغمض لها جفن، عاجزة عن كظم الشعور بالمرارة إزاء معاملتها الظالمة. وفيما كانت تستمع إلى طنين البعوض، خارج الشَبَك الذي يغطي سريرها، في حرارة الصيف الخانقة، ثم إلى مطر الخريف، يضرب النافذة، ثم صمت الشتاء الرطب، كانت تفكر بظلم الشكوك ضدها ـ وخاصة الظنون في شأن اعتقال الكومنتانغ لها. كانت فخورة بموقفها حينذاك، ولم تفكر قط أن ذلك سيصبح السبب في غربتها عن الثورة.

ولكنها بدأت، عند ذاك، تقنع نفسها بأنه ينبغي أن لا تتحامل على الحزب، لمحاولته الحفاظ على نقائه. ففي الصين، كان المرء معتاداً الغبن بقدر معين. وهو الآن غبن من أجل قضية جديرة به على الأقل. كما كررت لنفسها كلمات الحزب، حين طالب أعضاءه بالتضحية: «إنك تمر بامتحان، والمكابدة ستجعل منك شيوعياً أحسن».

فكرت في احتمال تصنيفها ضمن «أعداء الثورة». لو حدث ذلك، سيتلوث

أطفالها أيضاً، وستؤول حياتنا كلها إلى خراب. والطريقة الوحيدة لتجنب ذلك، هي الطلاق من أبي و «إنكار» أمومتها لنا. في الليل، وهي تفكر في هذه الآفاق القاتمة، تعلمت أن لا تذرف الدموع. لم تتمكن حتى من التقلب، لأن «مرافقتها» كانت تنام في السرير معها، ومهما كانت مرافقاتها ودودات، فإن عليهن نقل كل ذرة من المعلومات عن سلوكها. والدموع ستفسَّر على أنها تعني شعورها بالحيف إزاء الحزب، أو فقدان الثقة به. وكلاهما مرفوض، ويمكن أن يكون لهما أثر سلبي في الحكم النهائي.

صرَّت أمي أسنانها، وقالت لنفسها لا بد من الثقة بالحزب. مع ذلك وجدت أنه يصعب عليها كثيراً أن تكون معزولة عزلة تامة عن عائلتها، وافتقدت أطفالها بشدة. لم يكتب لها أبي، ولم يذهب لزيارتها أبداً ـ كانت الرسائل والمقابلات ممنوعة. ما كانت تحتاج إليه أكثر من أي شيء آخر، حينذاك، هو كتف تسند إليها رأسها، أو على الأقل كلمة حنان.

ولكنها كانت تتلقى مكالمات هاتفية، تسمعها نكات وكلمات ثقة، تنشرح لها بدرجة عظيمة. كان الهاتف الوحيد، في القسم كله، على مكتب المرأة المسؤولة عن الوثائق السرية. وحين كانت تأتي مكالمة لأمي، كانت «مرافقاتها» يقفن في الغرفة وهي على الخط، ولكن لأنهن كن يحببنها، ويردن لها أن تستمع إلى ما يواسيها، فقد كنّ يظهرن أنهنّ لا يتنصتن. لم تكن المرأة المسؤولة عن الوثائق السرية عضواً في الفريق الذي يحقق مع أمي، ولذا لم يكن من حقها التنصت عليها أو الإبلاغ عنها. وحرصت مرافقات أمي على أن لا تقع في متاعب بسبب هذه المكالمات الهاتفية. كن ينقلن ببساطة: «اتصل المدير تشانغ، ناقش أموراً عائلية». وشاع كلام يقول عن أبي، يا له من زوج متفهم، كل هذا الاهتمام بأمي، كل هذه المحبة. وقالت إحدى مرافقات أمي الشابات، إنها تريد أن تجد زوجاً لطيفاً مثل أبي.

لم يكن أحد يعرف أن صاحب المكالمات لم يكن أبي، بل كان مسؤولاً كبيراً آخر، انتقل إلى جانب الشيوعيين من الكومنتانغ، خلال الحرب ضد اليابان. ولأنه كان ضابطاً في الكومنتانغ، فقد كان موضع شبهة، وسجنه الشيوعيون في عام ١٩٤٧، رغم تبرئة ساحته في النهاية. ذكر تجربته، لطمأنة أمي، وفي الواقع، ظل صديقاً لها طول العمر. لم يتصل أبي أبداً، خلال الأشهر الستة الطويلة. كان يعرف

من تجربته كشيوعي، أن الحزب يفضل أن لا يكون لمن هو رهن التحقيق اتصال بالعالم الخارجي، ولا حتى بالزوج أو الزوجة. وفي نظره، كانت مؤاساة أمي ستعني نوعاً من انعدام الثقة بالحزب. ولم تتمكن أمي قط من أن تغفر له هجره لها، في وقت كانت تحتاج إلى الحب والمؤازرة أكثر من أي شيء آخر. لقد أثبت مرة أخرى، أنه يضع الحزب أولاً.

ذات صباح، في كانون الثاني/يناير، فيما كانت أمي تحدق إلى أجمات العشب المرتعش، ينهال عليه المطر الكئيب، تحت الياسمين، استُدعيت لمقابلة السيد كوانغ، رئيس فريق التحقيق. قال لها إنه يسمح لها بالعودة إلى العمل ـ وبالخروج. ولكن عليها أن تسجل حضورها كل ليلة. فالحزب لم يتوصل إلى نتيجة نهائية في شأنها.

أدركت أمي أن ما حدث هو تعطل التحقيقات، إذ لم يكن في الإمكان إثبات معظم الشكوك أو دحضها. ورغم أن هذا لم يكن كافياً عندها، فقد أهملت التفكير فيه، في غمرة نشوتها بفكرة التمكّن من رؤية أطفالها للمرة الأولى بعد ستة أشهر.

في حضاناتنا المختلفة، حيث كنا نأكل وننام، نادراً ما كنا نرى أبانا أيضاً. كان غائباً باستمرار في الريف، وفي المناسبات القليلة، التي كان يعود فيها إلى تشينغدو، كان يرسل حارسه لأخذنا، أنا وأختي، إلى البيت، في أيام السبت. لم يطلب قط إحضار الولدين، لأنه كان يشعر أنه لا يستطيع أن يتدبر أمرهما، فقد كانا صغيرين جداً. «البيت» كان مكتبه. وحين نصل إلى هناك، كان عليه دائماً أن يغادر إلى اجتماع ما، وكان حارسه يحبسنا في المكتب، حيث لا شيء نفعله غير التسابق في نفخ فقاعات الصابون. وذات مرة، بلغ بي الضجر حداً شربت معه كمية كبيرة من ماء الصابون، ومرضت طيلة أيام.

حين قيل لأمي إنها تستطيع الخروج، كان أول شيء فعلته أنها قفزت إلى دراجتها الهوائية، وانطلقت إلى حضاناتنا. كانت قلقة بصفة خاصة على جن ـ منغ، الذي كان في منتصف العام الثالث من العمر، ونادراً ما تيسر لها الوقت لمعرفته. ولكن عجلتي دراجتها، بعد ستة أشهر من عدم الاستعمال، كانتا فارغتين من الهواء. وما كادت تخرج من البوابة حتى تعين عليها أن تتوقف لنفخها. لم تشعر أنها اشتاقت

إلى هذا الحد في حياتها، وهي تدور حول المكان، فيما رجل ينفخ عجلتيها، بما بدا لها تكاسلاً قاتلاً.

ذهبت لرؤية جن ـ منغ أولاً. وعندما وصلت، نظرت المعلمة إليها ببرود. قالت المعلمة إن جن ـ منغ كان واحداً من الأطفال القلائل، الذين يُتركون في الحضانة، في نهاية الأسبوع. وقالت المعلمة إن جن ـ منغ، كان يسأل في البداية عن «ماما تشن». وسألت: «هذه ليست أنتِ، أليس كذلك؟». اعترفت أمي بأن «ماما تشن» هي مرضعته. وفيما بعد، كان جن ـ منغ يختبىء في غرفة منزوية، عندما يحين موعد مجيء الآباء والأمهات لأخذ أطفالهم. قالت المعلمة بلهجة اتهام: «لا بدّ أن تكوني زوجة أب». ولم تتمكن أمي من الشرح.

حين جيء بجن ـ منغ، بقي في أقصى الغرفة، لا يريد الاقتراب من أمي. وقف هناك صامتاً، يرفض بسخط أن ينظر إليها. أخرجت أمي بعض الدراقات، وطلبت منه أن يأتي لأكلها، فيما كانت تقشرها. ولكن جن ـ منغ حرن في مكانه. وكان عليها أن تضع الدراقات على منديلها، وتدفعها فوق المنضدة. انتظر لكي تسحب يدها، قبل أن يختطف دراقة ويلتهمها. ثم تناول أخرى، وبسرعة خاطفة، اختفت الدراقات الثلاث. وللمرة الأولى، منذ أن نُقلت أمي إلى المحجر تركت دموعها تتساقط.

أتذكر الأمسية التي جاءت فيها لرؤيتي. كنت في الرابعة تقريباً، وكنت في سريري الخشبي، الذي له قضبان كالقفص. وأُنزل جانب من السياج، لتتمكن من الجلوس ومسك يدي، وأنا أستسلم للنوم. ولكنني كنت أريد أن أروي لها كل مغامراتي. كنت قلقة من أنها، ما أن أخلد إلى النوم، ستختفي ثانية إلى الأبد. وكلما كانت تحسب أني نائمة، وتحاول سحب يدها، كنت أقبض عليها، وأبدأ بالبكاء. بقيتُ حتى منتصف الليل تقريباً. وقد صرختُ عندما همت بالمغادرة، ولكنها انتزعت نفسها. لم أكن أعرف أن وقت «الحرية» المسموح بها قد انتهى.

١١ ـ «بعد الحملة ضد اليمين، لا أحد يفتح فمه» ـ إسكات الصين (١٩٥٦ ـ ١٩٥٨)

لأننا أصبحنا بدون مربيات، وعلى أمي أن تراجع لتسجيل «حضورها» كل مساء، كان علينا نحن الأطفال، أن نبقى في حضاناتنا. على أية حال، ما كان في مقدور أُمنا أن تعتني بنا. فقد كانت منهمكة في «التسابق صوب الاشتراكية» ـ كما تقول إحدى الأغاني الدعائية ـ مع بقية المجتمع الصيني.

فيما كانت أمي في الحجر، صعَّد ماو محاولته لتغيير وجه الصين. وفي تموز/ يوليو ١٩٥٥، دعا إلى تسريع الزراعة الجماعية. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، أعلن بصورة مفاجئة تأميم الصناعة والتجارة، اللتين ظلتا، حتى ذلك الحين، بأيدي القطاع الخاص.

وزُجت أمي في غمرة هذه الحركة. فنظرياً، كان يجب أن تملك الدولة المؤسسات بصورة مشتركة مع أصحابها السابقين، الذين يتسلمون ٥ في المئة من قيمة مشروعهم، على امتداد عشرين عاماً. وبما أنه لم يكن هناك تضخم، رسمياً، فقد كان يُفتَرض أن يمثل ذلك سداد القيمة الكلية كاملة. وكان من المزمع أن يبقى المالكون السابقون مديرين، وأن يُدفع لهم مرتب عال نسبياً، على أن يكون هناك مسؤول حزبي فوقهم.

أنيطت بأمي مسؤولية فريق عمل، يشرف على تأميم أكثر من مئة معمل أغذية ومخبز ومطعم، في منطقتها. رغم أنها كانت لا تزال في مرحلة الإطلاق المشروط،

وعليها تسجيل حضورها كل مساء، ولم تكن تتمكن حتى من النوم في سريرها، فقد كُلفت بهذه المهمة الكبيرة.

ألصق الحزب بها صفة «كونغ ـ جي شي ـ يونغ»، التي تعني «مستخدم، ولكن تحت المراقبة والإشراف». لم يكن هذا مُعلَناً، ولكنه كان معروفاً لها وللمسؤولين عن قضيتها. وكان أعضاء فريقها، يعرفون أنها احتجزت ستة أشهر، ولكنهم لم يعرفوا أنها ما زالت تحت المراقبة.

عندما وُضِعت أمي في الحجز، كتبتْ إلى جدتي تطلب منها البقاء في منشوريا. ولفقت ذريعة، لأنها لم تكن تريد أن تعرف جدتي أنها محجوزة، الأمر الذي كان من شأنه أن يسبب لها قلقاً بالغاً.

كانت جدتي لا تزال في جنجو، حين بدأ برنامج التأميمات، وقد وجدت نفسها في غماره. فبعد أن غادرت جنجو مع الدكتور شيا، في عام ١٩٥١، تولى أخوها يو ـ لن إدارة متجره الطبي. وحين مات الدكتور شيا، في عام ١٩٥٢، آلت ملكية المتجر إليها. والآن، الدولة تخطط لشرائه. وفي كل مؤسسة، كانت تُشكل مجموعة تضم أعضاء فريق العمل وممثلين عن العاملين والإدارة على السواء، وذلك بغية تقييم المؤسسة، لتتمكن الدولة من دفع «سعر عادل» لها. وكانوا في أحيان كثيرة، يقترحون رقماً صغيراً جداً ـ لترضية السلطات. كانت القيمة التي قُدرت لمتجر الدكتور شيا، منخفضة إلى حد يثير السخرية، ولكن في ذلك ميزة لجدتي: كان ذلك يعني أنها مصنفة من فئة «رأسمالي صغير» فقط، الأمر الذي جعل من الأسهل عليها أن تبتعد عن الأضواء. لم تكن سعيدة بتعرضها لنصف مصادرة، ولكنها احتفظت بمشاعرها لنفسها.

نظم الحزب، في إطار حملة التأمين، مواكب بطبول وأقراص الغونغ ـ واجتماعات لا تنتهي، كان بعضها للرأسماليين. ورأت جدتي أنهم جميعاً كانوا يعبرون عن استعدادهم للبيع، وحتى عن امتنانهم. قال كثيرون إن ما يحدث لهم، أفضل بكثير مما كانوا يخشونه. فقد سمعوا أن المؤسسات في الاتحاد السوفياتي، صودرت دون سابق إنذار. أما هنا في الصين، فقد كان أصحابها يُعوَّضون، بل إن الدولة لم تكتف بأمرهم بتسليم مؤسساتهم، إذ حرصت أيضاً على أن يكونوا راغبين فيه. وبالطبع، كان الجميع راغبين في التسليم.

كانت جدتي مشوشة الذهن حول ما ينبغي أن تشعر به ـ أتسخط على القضية التي تخدمها ابنتها أم ترضى بوضعها؟ لقد بُني مشروع المتجر الطبي بكَد الدكتور شيا، وكان مصدر رزقها ورزق ابنتها، ورأته يذهب ببساطة.

قبل أربع سنوات، خلال الحرب الكورية، أخذت الحكومة تشجع الناس على التبرع بمقتنياتهم الثمينة، للمساعدة على شراء طائرات مقاتلة. ولم تكن جدتي تريد التخلي عن جواهرها التي أعطاها لها الجنرال شو والدكتور شيا، وكانت في بعض الأوقات مصدر الدخل الوحيد لها. كما كانت لها قيمة عاطفية عالية. ولكن أمي أضافت صوتها إلى صوت الحكومة. وكانت تشعر أن الجواهر ترتبط بماض قد فات. كانت تشترك مع الحزب في رأيه القائل إن الجواهر ثمرة «استغلال الشعب» ـ ولذا ينبغي أن تعاد إليه. كما أنها استحضرت الجملة المعهودة عن حماية الصين ضد غزو «الإمبرياليين الأميركيين»، الأمر الذي لم يكن يعني الكثير لجدتي. وكانت حجتها الأخيرة: «أماه، لم تريدين الاحتفاظ بهذه الأشياء حتى الآن؟ لا أحد يرتدي هذا النوع من الأشياء، هذه الأيام. ولا يتعين أن تعتمدي عليها للعيش. فالآن، لدينا الحزب الشيوعي، ولن تكون الصين فقيرة بعد الآن. ما الداعي إلى القلق؟ وعلى أية حال، أنا عندك. أنا سأعتني بك. وليس عليك أن تقلقي مرة أخرى أبداً. يجب أن أقنع آخرين بالتبرع. فهذا جزء من عملي. كيف أستطيع أن أطلب منهم ذلك، إذا كانت أمي نفسها لا تفعله؟». استسلمت جدتي. كانت مستعدة لأن تفعل أي شيء من أجل ابنتها. فسلمت كل جواهرها باستثناء عقدين وزوج من الأقراط الذهبية وخاتم ذهبي، كانت هدايا زواجها من الدكتور شيا. واستلمت إيصالاً من الحكومة مع كثير من الثناء على «حماستها الوطنية».

ولكنها لم تكن راضية قط لفقدان جواهرها، إلا أنها أخفت مشاعرها. فعدا التعلّق العاطفي، كان هناك اعتبار عملي. فقد عاشت جدتي في لا أمان دائم. وهل يمكن حقاً الوثوق بأن الحزب الشيوعي سوف يعتني بالجميع إلى الأبد؟

الآن، بعد أربع سنوات، كانت مرة أخرى في موقف يتعين عليها فيه أن تسلِّم إلى الدولة شيئاً تريد الاحتفاظ به، وهو، في الحقيقة، آخر ما تملكه. وهذه المرة لم يكن لديها خيار في الواقع. لكنها كانت متعاونة بشكل إيجابي. لم تكن تريد أن تخيب أمل ابنتها بها، وحرصت على أن لا تُحرج ابنتها أدنى إحراج.

كان تأميم المتجر عملية طويلة. وبقيت جدتي في منشوريا خلال إتمامها البطيء. ولم تكن أمي تريدها أن تعود إلى سيشوان، على أية حال، قبل أن تُعاد لها هي نفسها حرية حركتها كاملة وتستطيع العيش في محل سكناها. لم تسترد أمي حرية الحركة، ولم ترفع قيود «الإفراج المشروط»، حتى صيف ١٩٥٦. ولكن حتى آنذاك، لم يكن هناك قرار نهائي في قضيتها.

أُغلقت قضيتها، أخيراً، في نهاية ذلك العام. وجاء في القرار الذي أصدرته السلطات الحزبية في تشينغدو، أنهم يصدقون روايتها من الناحية العملية، وأنه لم يكن لديها ارتباط بالكومنتانغ.

كان هذا قراراً لا لبس فيه، برأ ساحتها تماماً. وشعرت بارتياح بالغ لأنها كانت تعرف أن قضيتها، كان من الممكن أن تبقى مفتوحة «لعدم وجود أدلة كافية»، شأن العديد من القضايا الأخرى. وكانت وصمة ستُلصق بها مدى الحياة. رأت أن هذه الصفحة أُغلقت الآن. وكانت عظيمة الامتنان لرئيس فريق التحقيق السيد كوانغ. فعادة، كان المسؤولون ميالين إلى الخطأ في اتجاه المغالاة في الحماسة، من أجل حماية أنفسهم. وكان الأمر يتطلب شجاعة من جانب السيد كوانغ، ليقرر قبول ما قالته.

بعد ثمانية عشر شهراً من القلق الشديد، عادت أمي إلى شاطىء السلامة. وقد كانت محظوظة. فنتيجة للحملة، وُصِم أكثر من ١٦٠ ألف رجل وامرأة بكونهم من «أعداء الثورة»، وخُربت حياتهم طيلة ثلاثة عقود. وكان من بين هؤلاء بعض أصدقاء أمي في جنجو، ممن كانوا من كوادر رابطة الشبيبة الكومنتانغية. فقد وصموا جماعياً بكونهم من «أعداء الثورة»، وطردوا من وظائفهم، وأرسلوا لممارسة العمل اليدوي.

أدت هذه الحملة إلى اجتثاث آخر مخلفات ماضي الكومنتانغ، أي دفع الأصول والارتباطات العائلية إلى مركز الصدارة. فعلى امتداد التاريخ الصيني، عندما يدان شخص واحد، كانت العشيرة كلها أحياناً تُعدم معه ـ الرجال والنساء والأطفال وحتى الرضع المولودون حديثاً. ويمكن أن يمتد الإعدام ليشمل الأقرباء من الدرجة التاسعة، (جو ـ ليان جيو ـ زو). ويمكن للمتهم بارتكاب جريمة، أن يهدد بالخطر أرواح حي كامل.

حتى ذلك الوقت، كان الشيوعيون يضمون في صفوفهم أشخاصاً ذوي أصول

«غير مرغوب فيها». وارتقى الكثير من أبناء وبنات أعدائهم إلى مناصب عليا. في الحقيقة، كان معظم القادة الشيوعيين الأوائل أنفسهم من أصول «رديئة». ولكن الأصول العائلية أصبحت ذات أهمية متزايدة، بعد عام ١٩٥٥. وبمرور السنين، وإذ كان ماو يطلق الحملة تلو الأخرى لمطاردة الساحرات، أخذ عدد الضحايا يتعاظم وكان كل ضحية يأخذ معه العديد من الآخرين، بمن فيهم عائلته الأقرب، أولاً وقبل الجميع.

رغم هذه المآسي الشخصية، أو ربما بسبب الرقابة الحديدية، كانت الصين أكثر استقراراً في عام ١٩٥٦ منها في أي وقت من هذا القرن. فالاحتلال الأجنبي، والحرب الأهلية، وانتشار الموت بسبب الجوع، وقطّاع الطرق والتضخم ـ كلها بدت أشياء تمتُّ إلى الماضي. وأدام الاستقرار، حلم الصينيين، معاناة الكثيرين، مثل أمي.

في صيف ١٩٥٦، عادت جدتي إلى تشينغدو. وكان أول شيء عملته، أنها هرعت إلى الحضانات، وأعادتنا إلى محل سكن أمي. كانت جدتي تبغض دور الحضانة. وكانت تقول إنه لا يمكن العناية بشكل جيد بالأطفال في مجموعة. كنت أنا وأختي نبدو على ما يرام، ولكن ما أن لمحناها، حتى رحنا نصرخ ونطالب بالعودة إلى البيت. وكان الولدان قضية أخرى. فقد شكت معلمة جن ـ منغ قائلة إنه شديد الانطواء على نفسه، ولا يدع أحداً من الكبار يلمسه. كان يطلب فقط بهدوء، ولكن بإصرار، مربيته القديمة. وانفجرت جدتي باكية عندما رأت شياو ـ هي. فقد بدا كأنه دمية خشبية، بابتسامة لا معنى لها على وجهه. وحيثما يوضع، جلوساً أو وقوفاً، كان يبقى جامداً. لم يكن يعرف كيف يطلب الذهاب إلى المرحاض، ولم يبدُ قادراً حتى على البكاء. أخذته جدتي في أحضانها، وأصبح الأثير لديها.

في شقة أمي، نفّست جدتي غضبها وعدم فهمها لما يجري. وفيما كانت تبكي، وصفت أبي وأمي بأنهما «والدان بلا قلب». لم تعرف أن أمي لم يكن لديها خيار.

ولأن جدتي لم تكن قادرة على العناية بأربعة أطفال، تعين على الاثنين الأكبر، أنا وأختي، أن نذهب إلى دار الحضانة، خلال أيام الأسبوع. وصباح كل يوم إثنين، كان أبي وحارسه يحملاننا على أكتافهما، ويأخذاننا، فيما كنا نصرخ ونركل وننشد شعرهما.

استمر هذا بعض الوقت. ثم استَحدَثتُ، لاشعورياً، طريقة للاحتجاج. بدأتُ أمرض في الحضانة بحمى شديدة، أثارت قلق الأطباء. وفور عودتي إلى البيت، يتبخر مرضي بأعجوبة. في النهاية، سمح لي ولأختي بالبقاء في البيت.

بالنسبة إلى جدتي، كانت كل الأزهار والشجر، الغيوم والمطر، كائنات حية، لها قلب ودموع وحس أخلاقي. وسنكون بسلام، إذا اتبعنا القاعدة الصينية القديمة للأطفال، تنغ ـ هوا («سماع الكلام»، أن نكون مطيعين)، وإلاّ فإن أشياء من كل الصنوف ستحدث لنا. وحين نأكل البرتقال، كانت جدتي تحذرنا من ابتلاع البذور. «وإذا لم تستمعوا إليّ، سيأتي يوم لن تستطيعوا فيه دخول البيت. فكل بذرة صغيرة هي شجرة برتقال رضيعة، وتريد أن تنمو مثلكم تماماً. وستنمو بهدوء في بطونكم، أعلى فأعلى، وفي يوم من الأيام، آي ـ ياي! ها هي هنا، من أعلى رؤوسكم. وستورق الشجرة وتحمل مزيداً من البرتقال وتصبح أعلى من بابنا. . .».

كنتُ مفتونة بفكرة حمل شجرة برتقال على رأسي، بحيث إني تعمدتُ أن أبتلع يومياً بزرة واحدة لا أكثر. لم أكن أريد بستاناً على رأسي: سيكون ذلك ثقيلاً جداً. وطيلة اليوم، كنت أتحسس بتوجس فروة رأسي، بين دقيقة وأخرى، لأرى إن كانت لا تزال قطعة واحدة. ولطالما هممت أن أسأل جدتي ما إذا كان مسموحاً لي أكل البرتقال من على رأسي، ولكني كنت أكبح نفسي، لكيلا تعرف أنني لم أكن مطيعة. قررتُ التظاهر بأن طارئاً حدث، عندما سترى جدتي الشجرة. وقضيت ليلة مزعجة للغاية. شعرتُ أن شيئاً ما يضغط إلى الأعلى من داخل فروة رأسي.

ولكن، كانت قصص جدتي ترسلني إلى النوم سعيدة في العادة. كان لديها كنز منها، من الأوبرا الصينية الكلاسيكية. وكان لدينا أيضاً الكثير من الكتب عن الحيوانات والطيور والخرافات وقصص الجن. وقصص أطفال أجنبية أيضاً، منها روايات هانز كريستيان أندرسن وإيسوب. وكانت «ليلى والذئب» و «ثليجة البيضاء والأقزام السبعة» و «سندريلا» من أبطال طفولتي.

إلى جانب القصص، كنتُ أحب أناشيد الحضانة، التي كانت أول لقاءاتي مع الشعر. ولأن اللغة الصينية تقوم على النغم، فإن لشعرها موسيقى خاصة. وسُحرت بغناء جدتي أشعاراً كلاسيكية، لم أكن أفهم معناها.

كانت تقرأها بالطريقة الكلاسيكية، مُنَغَّمة، مطلقة أصواتاً ترددية، تصعد وتهبط في إيقاعها. وذات يوم، سَمعتها أمي تقرأ لنا قصائد كُتبت في حوالي عام ٥٠٠ قبل الميلاد. وظنت أمي أنها صعبة جداً علينا، وحاولت منعها. ولكن جدتي أصرت قائلة إنه لا يتعين علينا أن نفهم المعنى، بل مجرد الإحساس بموسيقية الأصوات. وكانت تقول، في أحيان كثيرة، إنها تأسف لفقدان آلة القانون، التي كانت عندها، حين رحلت عن يشيان، قبل عشرين عاماً.

لم يكن أخواي على هذا القدر من الاهتمام بقصص ما قبل النوم، أو بالاستماع إلى ما يُقرأ. ولكن أختي التي كانت تشاركني في الغرفة، كانت مثلي تماماً: كانت تعشق هذه القصص. ولديها ذاكرة استثنائية. لقد أثارت إعجاب الجميع بقراءتها قصيدة بوشكين الطويلة، «الصياد والسمكة الذهبية»، دون زلة واحدة، وهي في الثالثة من العمر.

كانت حياتي العائلية هانئة ومفعمة بالحنان. وأياً كانت مشاعر الاستياء لدى أمي من أبي، فإنهما نادراً ما كانا يتشاجران، إنما ليس أمام الأطفال. وقلما كان حب أبي لنا يتبدى من خلال الاتصال المادي، بعد أن كبرنا. إذ لم يكن معهوداً أن يأخذ الأب أطفاله في أحضانه، أو أن يبدي محبته بتقبيلهم أو معانقتهم. وكان في أحيان كثيرة، يدع الصبيين يركبان على ظهره، ويربت على أكتافهما أو يلمس شعريهما، الأمر الذي نادراً ما كان يفعله معنا نحن البنات. وحين تجاوزنا سن الثالثة، كان يرفعنا بحذر من تحت الإبطين، ملتزماً التزاماً صارماً بالعرف الصيني، الذي يوصي بتجنب الألفة الحميمة مع البنات. وكان لا يدخل الغرفة التي ننام فيها أنا وأختي دون الاستئذان منا.

لم يكن لأُمنا اتصال مادي بنا، بالقدر الذي كانت ترغب فيه. وكان السبب أنها خضعت لطائفة أخرى من القواعد: قواعد نمط حياة الشيوعيين التطهّري. ففي أوائل الخمسينات، كان على الشيوعي أن يهب نفسه بالكامل للثورة والشعب، بحيث إن أي مظهر من مظاهر الحب لأطفاله، كان يُنظر إليه باستهجان على أنه دليل ولاءات موزَّعة. كانت كل ساعة، باستثناء وقت الأكل أو النوم، ملك الثورة، ويجب قضاؤها في العمل. وكل ما كان يُعد أنه لا يمتُّ بصلة إلى الثورة، مثل حمل الأطفال وضمّهم، يتعين التخلص منه بأسرع وقت ممكن.

في البداية، وجدت أمي صعوبة في تعوّد ذلك. وكان «وضع العائلة أولاً» مأخذاً يعيبه عليها باستمرار رفاقها الحزبيون. في النهاية، أصبحت متمرسة بعادة العمل بلا توقف. وحين تعود إلى البيت مساء، نكون قد أخلدنا إلى النوم منذ مدة طويلة. كانت تجلس إلى أسرَّتِنا، تتطلع إلى وجوهنا ونحن نيام، وتستمع إلى تنفسنا الوديع. كانت تلك أسعد لحظة في يومها.

وكلما يتسنى لها الوقت، كانت تضمنا إلى صدرها، وتداعبنا أو تدغدغنا برقة، وخاصة على أكواعنا، الأمر الذي كان لذيذاً إلى حد بعيد. كانت قمة السعادة عندي أن أضع رأسي في حجرها، وأن تدغدغ باطن أذني. كان تخليل الأذن بعود شكلاً تقليدياً من أشكال المتعة للصينيين. وأذكر كطفلة رؤية محترفين يحملون منصباً مع كرسي من الخيزران في إحدى النهايتين، وعشرات من العيدان الزغبية الصغيرة متدلية من النهاية الأخرى.

ابتداء من عام ١٩٥٦، شرع المسؤولون في التمتع بإجازة يوم الأحد. وكان والداي يأخذاننا إلى الحدائق والمتنزهات، حيث نلعب على الأرجوحات ودوامات الخيل، أو نتدحرج على المنحدرات المكسوة بالعشب. وأذكر أنني تدحرجت، بإثارة، من أعلى التل، قاصدة الارتماء في أحضان والديَّ، ولكني ارتطمتُ بدلاً من ذلك بشجرتين من أشجار الخبّازى، الواحدة تلو الأخرى.

ظلت جدتي تستنكر غياب والديَّ في كثير من الأحيان. «أيّ صنف من الآباء والأمهات هذان؟» كانت تتنهد هازة رأسها. وللتعويض عنهما، وهبتنا كل قلبها وطاقتها. ولكنها لم تكن قادرة على تولي أمر أربعة أطفال بمفردها، فدعت أمي العمة جون ـ ينغ إلى العيش معنا. وقد انسجمت مع جدتي خير انسجام، واستمر هذا الوئام بعد أن انضمت إليهما خادمة مقيمة، في أوائل عام ١٩٥٧. تزامن هذا مع انتقالنا إلى مسكن جديد، بيت كاهن أبرشية سابق. وجاء أبي معنا فالتمَّ شمل العائلة، للمرة الأولى، تحت سقف واحد.

كانت الخادمة في الثامنة عشرة من العمر. وحين وصلت، كانت ترتدي ثوباً قطنياً مطبوعاً بالزهور وسروالاً مماثلاً. كان من شأن سكان المدن، الذين يرتدون ألواناً هادئة، التزاماً بالأنَفَة المدينية والتطهّرية الشيوعية على السواء، أن يعتبروهما ملابس فاقعة. كما كانت سيدات المدن يرتدين ملابسهن على طريقة النساء

الروسيات، ولكن خادمتنا كانت ترتدي ملابس فلاحية تقليدية، مزررة على الجانب بأزرار قطنية، بدلاً من الأزرار البلاستيكية الجديدة. وكان كثير من النساء الفلاحات القادمات إلى المدينة، يغيِّرن ملبسهن لكي لا يظهرن ريفيات. ولكنها كانت شاردة الذهن تماماً عن ملابسها، الأمر الذي كان يبين قوة شخصيتها. كان لها يدان كبيرتان، خشنتان، وابتسامة بريئة خجلى على وجهها الأدكن، الملفوع بالشمس، مع نونتين دائمتين على وجنتيها الورديتين. أحبها الجميع في عائلتنا على الفور. كانت تأكل معنا، وتقوم بأعمال البيت مع جدتي وعمتي. وكانت جدتي مسرورة بأن تكون لديها صديقتان حميمتان ومؤتمنتان، لأن أمي لم تكن هناك قط.

كانت خادمتنا من عائلة ملاك، وكانت مستميتة من أجل الابتعاد عن الريف، وعن التمييز المتواصل ضدها هناك. ففي عام ١٩٥٧، أصبح، مرة أخرى، من الممكن تشغيل أشخاص ذوي أصول عائلية «رديئة». لقد انتهت حملة ١٩٥٥ وكانت الأجواء أكثر انفراجاً على العموم.

أقام الشيوعيون نظاماً، يتعين على الجميع أن يسجلوا بموجبه محل إقامتهم (هو ـ كوو). ولم تكن الحصص الغذائية، ببطاقات التموين، إلاً من حق المسجَّلين بوصفهم من سكان المدن. كانت خادمتنا مسجلة في الريف، ولذا لم يكن لديها مصدر غذاء حين كانت معنا، ولكن الحصص المخصصة لعائلتي، كانت تكفي لإطعامها أيضاً. وبعد عام، ساعدتها أمي على نقل سجلها إلى تشينغدو.

كانت عائلتي تدفع أجرها أيضاً. فقد ألغي نظام مخصصات الدولة، في أواخر عام ١٩٥٦، عندما فقد أبي أيضاً حارسه، الذي حلّ محله خادم مشترك يؤدي له أعمالاً في المكتب، مثل تقديم الشاي وإيقاف السيارات. كان والداي يتلقيان الآن مرتبات محددة، بحسب درجات الخدمة المدنية. وكانت أمي من الدرجة ١٧ وأبي من الدرجة ١٠، التي تعني أنه يكسب ضعف ما تكسبه. ولأن المواد الأساسية كانت رخيصة، فضلاً عن انقراض مفهوم المجتمع الاستهلاكي، فإن دخلهما كان أكثر من كاف. كان أبي ينتمي إلى فئة خاصة، معروفة باسم «غاو ـ غان» (مسؤولين كبار)، وهو مصطلح ينطبق على ذوي الدرجة ١٣ فما فوق، الذين كان منهم حوالي ٢٠٠ في سيشوان. وكان هناك أقل من ٢٠ شخصاً من الدرجة ١٠ فما فوق في كل الإقليم، الذي كان عدد سكانه يبلغ آنئذ زهاء ٧٢ مليون نسمة.

في ربيع ١٩٥٦، أعلن ماو سياسة عرفت باسم «الأزهار المئة» المستمد من تعبير «لتتفتح مئة زهرة» (باي ـ هوا كي ـ فانغ)، الذي كان يعني نظرياً حرية أوسع للفنون والآداب والبحث العلمي. كان الحزب يريد كسب تأييد المتعلمين من مواطني الصين، الذين كانت البلاد في حاجة إليهم، وهي تدخل مرحلة التصنيع «ما بعد الشفاء».

كان المستوى التعليمي العام للبلاد متدنياً جداً. وكان عدد السكان هائلاً ـ أكثر من ٦٠٠ مليون حينذاك ـ والأغلبية العظمى لم تتمتع قط بأي شيء يقرب من مستوى المعيشة اللائق. كانت البلاد دائماً تحكم بدكتاتورية، تعمل على إبقاء الرأي العام جاهلاً، وبالتالي مذعناً. وكان هناك أيضاً مشكلة اللغة: الكتابة الصينية بالغة الصعوبة، تقوم على عشرات الألوف من الرموز المنفردة، التي لا ترتبط بأصوات، ولكل منها ضربات معقدة. لقد كان مئات الملايين أميين بشكل مطبق.

كان كل من لديه أي تعليم، مهما يكن، يشار إليه على أنه «مثقف». وفي ظل الشيوعيين، الذين أقاموا سياستهم على أساس مقولات طبقية، أصبح «المثقفون» فئة محددة، وإن كانت مبهمة، تضم الممرضين والطلاب والممثلين، فضلاً عن المهندسين والتقنيين والكتّاب والمعلمين والأطباء والعلماء.

وفي ظل سياسة «الأزهار المئة»، تمتعت البلاد بحوالي عام من الانفراج النسبي. ثم دعا الحزب، في ربيع ١٩٥٧، المثقفين إلى نقد المسؤولين حتى القمة. ظنت أمي أن هذا كان لتشجيع المزيد من الانفتاح. وبعد خطاب ألقاه ماو حول الموضوع، ونُقل تدريجاً من الأعلى إلى مستواها، كانت متأثرة، حتى إنها لم تتمكن من النوم طوال الليل. شعرت أن الصين سيكون لديها حقاً حزب حديث وديموقراطي، حزب يرحب بالنقد لتجديد نفسه. وشعرت بالفخر لكونها شيوعية.

حين أُبلغ مستوى أمي بخطاب ماو، الداعي إلى نقد المسؤولين، لم يُبلّغوا بخطاب آخر ألقاه في شباط/ فبراير ذلك العام، حول استدراج الأفاعي خارج جحورها ـ للكشف عن كل من يجرؤ على معارضته أو معارضة نظام حكمه. وقبل عام من ذلك، كان الزعيم السوفياتي خروشوف شجب ستالين في «خطابه السري»، وقد أثار هذا حفيظة ماو، الذي كان يتماهى بستالين. وتلقى ماو صدمة أخرى بالانتفاضة

المجرية في ذلك الخريف، التي كانت أول محاولة ناجحة ـ ولو قصيرة العمر ـ لإسقاط نظام شيوعي قائم. والأنكى من ذلك، أن ماو كان يعرف أن قسماً كبيراً من حزبه وقيادته، كان مع الاعتدال والانفتاح. وقد أراد أن يحول دون اندلاع «انتفاضة مجرية صينية». وقد أبلغ لاحقاً القادة المجريين أن دعوته إلى النقد، كانت فخاً مدّد فترته بعد أن اقترح رفاقه وضع حد له، ليتوثق من الكشف عن كل معارض محتمل.

لم يكن قلقاً إزاء العمال والفلاحين، لأنه كان واثقاً من امتنانهم للشيوعيين على ما حققوه لهم من بطون مُشبَعة وحياة مستقرة. كما كان ينظر إليهم بازدراء متأصل ـ لم يكن يعتقد أن لديهم القدرة الذهنية على تحدي حكمه. ولكن ماو كان دائماً لا يثق بالمثقفين. لقد اضطلعوا بدور كبير في المجر، وكانوا مرشحين أكثر من سواهم للتفكير في أنفسهم.

مضى المسؤولون والمثقفون على السواء، يدعون إلى النقد ويمارسونه، دون علم بمناورات ماو السرية. فاستناداً إلى ماو، كان عليهم «أن يقولوا كل ما يريدون قوله، وبالكامل». وأخذت أمي تردد ذلك بحماسة في المدارس والمستشفيات، وفي الفرق الفنية الترفيهية التي كانت مسؤولة عنها. وجرى التعبير عن آراء شتى، في ندوات منظمة، وعلى الملصقات الجدارية. وقدمت شخصيات معروفة مثالاً يقتدى بتوجيه النقد في الصحف.

تعرضت أمي، شأنها شأن الجميع تقريباً، لشيء من النقد. وكان النقد الرئيسي الذي وجّه إليها من المدارس أنها تحابي المدارس، «الأساسية» (جونغ ـ ديان). ففي الصين كان هناك عدد من المدارس والجامعات المعينة رسمياً، تركِّز الدولة مواردها المحدودة عليها. وكانت هذه تحصل على معلمين ومرافق أفضل، وتصطفي أذكى الطلاب، مما كان يضمن لهم نسبة عالية من القبول في معاهد التعليم العالي، وخاصة الجامعات «الأساسية». فشكا بعض المعلمين في المدارس العادية قائلين إن أمي أولت المدارس «الأساسية» كثيراً من الاهتمام، على حساب مدارسهم.

كان المعلمون أيضاً درجات. المعلمون الأكفاء يُمنحون درجات فخرية، تعطيهم الحق في مرتبات أعلى ومؤن غذائية خاصة، حين يكون هناك نقص، ومسكن أفضل وتذاكر مجانيّة للمسرح. وبدا أن جل المعلمين المدرجين تحت إشراف أمي، كانو

من أصول عائلية «غير مرغوب فيها»، وشكا بعض المعلمين غير المدرجين، قائلين إن أمي تولي الكفاءة المهنية كثيراً من الاهتمام بدلاً من «الخلفية الطبقية». انتقدت أمي نفسها لعدم اتخاذها موقفاً متوازناً، فيما يتعلق بالمدارس «الأساسية»، ولكنها أصرت على أنها لم تكن مخطئة في استخدام الاستحقاق المهني معياراً للترقية.

كان هناك انتقاد واحد تجاهلته أمي باستياء. إذ إن مديرة إحدى المدارس الابتدائية، انضمت إلى الشيوعيين في عام ١٩٤٥ ـ قبل أمي ـ وكانت مستاءة من تلقي الأوامر منها. فحملت هذه المرأة على أمي، على أساس أنها حصلت على وظيفتها بقوة موقع أبي حصراً.

كانت هناك شكاوى أخرى: كان المديرون يريدون حق اختيار معلميهم، بدلاً من تعيينهم بقرار من سلطة عليا. وكان مديرو المستشفيات يريدون أن يكون في مقدورهم شراء الأعشاب الطبيبة وغيرها من العقاقير الأخرى بأنفسهم، لأن إمدادات الدولة منها لا تلبي حاجاتهم. وكان الجراحون يريدون حصصاً غذائية أكبر: اعتبروا عملهم شديد التطلب كعمل لاعب الكونغ ـ فو في الأوبرا التقليدية، ولكن حصتهم الغذائية تقل عن حصته بمقدار الربع. وعاب مسؤول صغير اختفاء بعض المواد التقليدية المعروفة من أسواق تشينغدو، مثل «مقصات وونغ المهزوم» و «فرش هو أبو ذقن»، التي حلّت محلها بدائل أدنى نوعية، تنتج على نطاق واسع. اتفقت أمي مع الكثير من هذه الآراء، ولكن لم يكن هناك ما تستطيع عمله في شأنها، لأنها تنطوي على سياسات دولة. كان كل ما تستطيعه هو نقلها إلى السلطات العليا.

انطلق سيل الانتقادات، التي كانت في أحيان كثيرة شكاوى شخصية، أو مقترحات عملية غير سياسية لإحداث تحسينات، طيلة شهر تقريباً، في مطلع صيف ١٩٥٧. وفي بداية حزيران/ يونيو، نُقل خطاب ماو عن «استدراج الأفاعي خارج جحورها»، الذي ألقاه في شباط/ فبراير، إلى مستوى أمي، شفاهاً.

قال ماو في هذا الحديث، إن «اليمينيين» عاثوا فساداً، مهاجمين الحزب الشيوعي والنظام الاشتراكي في الصين. وقال إن هؤلاء اليمينيين يشكلون بين ١ و١٠ في المئة من مجموع المثقفين ـ ويجب سحقهم. ولتبسيط الأمور، حدّد الرقم ٥ بالمئة، في منتصف الطريق بين الرقمين اللذين ذكرهما ماو، بوصفه يمثل عدد اليمينيين الذين يتعين اصطيادهم. ولجني هذه الحصيلة، كان يُنتَظَر من أمي أن تعثر

على أكثر من مئة يميني، في المنظمات الخاضعة لمسؤوليتها.

لم تكن أمي راضية على بعض الانتقادات التي وجهت إليها. ولكن قلة منها كان من الممكن أن تُعد، ولو عن بُعد، «معادية للشيوعية» أو «معادية للاشتراكية». وبناء على ما قرأته في الصحف، يبدو أنه كانت هناك بعض التهجمات على استئثار الشيوعيين بالسلطة وعلى النظام الاشتراكي. ولكن في مدارسها ومستشفياتها، لم تكن هناك دعوات كبيرة كهذه. أين، بحق السماء، يمكن أن تعثر على اليمينيين؟

ورأت أنه ليس من العدل، إضافة إلى ذلك، معاقبة أشخاص تكلموا بعد دعوتهم، بل حثّهم على الكلام. والأكثر من ذلك أن ماو ضمن، بصراحة، أنه لن تكون هناك إجراءات انتقامية ضد من يجاهرون بآرائهم. ودعت هي نفسها الناس بحماسة إلى إبداء انتقاداتهم.

كان مأزقها رديفاً للمأزق الذي واجه ملايين المسؤولين في عموم الصين. وفي تشينغدو، كانت بداية «الحملة ضد اليمين» بداية بطيئة وموجعة. قررت السلطات الإقليمية أن تجعل رجلاً واحداً عبرة للآخرين، هو السيد هوا، الذي كان سكرتير الحزب في معهد أبحاث، كوادره علماء كبار من سائر أنحاء سيشوان. كان يُنتَظَر منه أن يصطاد عدداً كبيراً من اليمينيين، ولكنه قدم تقريراً يقول فيه إنه ليس هناك يميني واحد في معهده. قال مسؤوله: «كيف يمكن ذلك؟ فبعض العلماء درسوا في الخارج، في الغرب. ولا بدّ أنهم تلوثوا بالمجتمع الغربي. كيف تتوقع منهم أن يكونوا سعداء في ظل الشيوعية؟ كيف يمكن أن لا يكون هناك يمينيون بينهم؟»، قال السيد هوا إن وجودهم في الصين باختيارهم، يثبت أنهم ليسوا معادين للشيوعيين، وذهب إلى حد تقديم ضمانة شخصية بتزكيتهم. حُذِّر عدة مرات أن يغير أساليبه. وفي النهاية، أُعلِن هوا نفسه يمينياً، وطرد من الحزب، وأعفي من عمله. وخفضت درجته في الخدمة المدنية تخفيضاً جذرياً، الأمر الذي يعني تقليل مرتبه، وعيّن للعمل في كنس أرض المختبرات، في المعهد الذي كان يديره في السابق.

كانت أمي تعرف السيّد هوا، وأعجبت به لثباته على موقفه. وعقدت معه صداقة متينة، ما برحت حتى اليوم. كانت تمضي الكثير من الأمسيات معه، حيث تبوح بهواجسها. ولكنها رأت في مصيره مصيرها، إذا لم تأت بالحصة المقررة لها من اليمينيين.

كل يوم، بعد الاجتماعات المعهودة التي لا تنتهي، كان على أمي أن ترفع تقريراً إلى السلطات الحزبية البلدية، حول نتيجة الحملة. وكان المسؤول عن الحملة في تشينغدو شخص اسمه السيد ينغ، وهو رجل نحيف، طويل، متعجرف بعض الشيء. وكان على أمي أن تقدم إليه أرقاماً تبين عدد اليمينيين الذين تمّ ضبطهم. لم يكن يتعين أن تكون هناك أي أسماء. فالأرقام هي المهمة.

ولكن أين تستطيع العثور على «يمينييها» المعادين للشيوعية والاشتراكية، الذين يربو عددهم على المئة؟ في النهاية أعلن أحد نوابها، وهو السيد كونغ، الذي كان مسؤول التعليم في المنطقة الشرقية، أن مديرتي اثنتين من المدارس تتهمان بعض المعلمين في مدرستيهما. بينهم معلمة في مدرسة ابتدائية، قتل زوجها الذي كان ضابطاً في الكومنتانغ، خلال الحرب الأهلية. وقالت ما معناه، إن الصين اليوم أسوأ حالاً مما كانت عليه في السابق. وذات مرة، تخاصمت مع المديرة، التي انتقدتها بسبب تقصيرها. فانفجرت غاضبة، وضربت المديرة. وحاول بعض المعلمات إيقافها، حيث قالت لها إحداهن أن تنتبه لكون المديرة حاملاً. وقيل إنها صرخت قائلة: أريد «التخلص من ابن الحرام الشيوعي» (قاصدة الطفل في رحم المديرة).

وفي حالة أخرى، قيل إن معلمة هرب زوجها إلى تايوان مع الكومنتانغ، استعرضت أمام المعلمات الشابات الأخريات بعض الجواهر التي أعطاها إياها زوجها، محاولةً إثارة حسدهن لها على حياتها في ظل الكومنتانغ. كما قالت الشابات إنها قالت لهن، إنه لمن المؤسف أن الأميركيين لم يربحوا الحرب في كوريا ويزحفوا على الصين.

قال السيد كونغ إنه قام بتمحيص الحقائق. وليس لأمي أن تحقق في الأمر. كان الحذر سيبدو محاولة لحماية اليمينيين وتشكيكاً في نزاهة زملائها.

لم يسمِّ مديرو المستشفيات، والنائب الذي كان يدير المكتب الصحي، أي يمينيين، ولكن السلطات العليا لبلدية تشينغدو، وصمت عدة أطباء باليمين، للانتقادات التي وجهوها في اجتماعات سابقة نظمتها سلطات المدينة.

كل هؤلاء اليمينيين، في مجموعهم، هم أقل من عشرة، وهو رقم يقل كثيراً عن الحصة المقررة. وحينذاك ضاق السيد ينغ ذرعاً بانعدام الحماسة لدى أمي وزملائها،

وأخبرها أن عدم تمكنها من الكشف عن يمينيين، يشي بأنها هي نفسها من «طينة يمينية». وكانت وصمة اليمين لا تعني أن يكون المرء منبوذاً سياسياً، وأن يفقد عمله فحسب، بل، إن الأطفال والعائلة، وهو الأهم، سيعانون التمييز وأن مستقبلهم سيكون مهدداً. فالأطفال سيكونون معزولين في المدرسة، وفي الحارة حيث يعيشون. ولجنة السكان ستتجسس على العائلة لترى من يزورها. وإذا أُرسل يميني إلى الريف، سيعطي الفلاحون له ولعائلته أصعب الأعمال. ولكن لم يكن أحد يعرف النتيجة على وجه التحديد، وهذا اللايقين كان بحد ذاته سبباً قوياً للخوف.

ذلك هو المأزق الذي واجهته أمي. فإذا وُصِمت باليمينية، سيكون عليها إما أن تتخلى عن أطفالها أو تخرِّب مستقبلهم. ومن المرجح أن يُجبر أبي على طلاقها، وإلاَّ فهو أيضاً سيوضع على القائمة السوداء، وتحت طائلة الشبهة بصورة دائمة. وحتى إذا ضحّت أمي بنفسها وطلَّقته، فإن العائلة كلها ستطالها الشبهة إلى الأبد. ولكن ثمن إنقاذ نفسها وعائلتها كان مصير أكثر من مئة بريء وعوائلهم.

لم تتحدث أمي مع أبي في ذلك. أيُّ حل كان يستطيع أن يتقدم به؟ شعرت بالسخط، لأن مركزه الرفيع يعني أنه لا يتعين عليه أن يتعامل مع قضايا محددة. فإن مسؤولين من المستوى المتدني والمتوسط، مثل السيد ينغ وأمي ونوابها، ومديرات المدارس ومديري المستشفيات، هم من يتعين عليهم اتخاذ هذه القرارات المعذِّبة.

كانت إحدى المؤسسات، «كلية تشينغدو رقم اثنان لتدريب المعلمين»، تقع في منطقة أمي. ويتلقّى طلاب كليات تدريب المعلمين منحاً تغطي رسوم دراستهم وتكاليف معيشتهم، وكان من الطبيعي أن تجتذب هذه المؤسسات أبناء العوائل الفقيرة. وحدث أن أنجز مؤخراً بناء أول خط للسكة الحديد، يربط سيشوان، «هري السماء»، ببقية الصين. ونتيجة لذلك، صار كثير من الغذاء ينقل بصورة مفاجئة من سيشوان إلى مناطق أخرى من الصين، وتضاعفت أسعار الكثير من المواد مرتين أو حتى ثلاث مرات، بين ليلة وضحاها تقريباً. وجد الطلاب في الكلية أن مستوى معيشتهم انخفض بمقدار النصف من الناحية العملية، فخرجوا في تظاهرة داعين إلى زيادة المنحة. قابل السيد ينغ هذا التحرك بأعمال «حلقة بيتوفي»، في الانتفاضة المجرية، عام ١٩٥٦، ووصف الطلاب بأنهم «الأرواح المماثلة للمثقفين المجريين». وأمر بأن يُصنّف يمينياً كل طالب شارك في التظاهرة. كان هناك حوالي ٣٠٠ طالب

في الكلية، منهم ١٣٠ طالباً شاركوا في التظاهرة. وقد وصمهم السيد ينغ كلهم باليمين. ورغم أن الكلية لم تكن تحت مسؤولية أمي، لأنها كانت مسؤولة عن المدارس الابتدائية فقط، غير أنها تقع في منطقتها، فقد احتَسَبَتْ سلطات المدينة هؤلاء الطلبة ضمن حصتها من اليمينيين بصورة اعتباطية.

لم يُغفَر لأمي افتقارها إلى روح المبادرة. وسجل السيد ينغ اسمها لمزيد من التحقيق معها، بوصفها من المشتبه في أنهم يمينيون. ولكن قبل أن يتمكن من عمل أي شيء، أدين هو نفسه بوصفه يمينياً.

في آذار/مارس ١٩٥٧، ذهب ينغ إلى بكين لحضور مؤتمر رؤساء أقسام الشؤون العامة الإقليمية والبلدية، من سائر أنحاء الصين. وفي المناقشات الجماعية، جرى تشجيع المندوبين على إبداء شكاواهم من الطريقة التي تدار بها الأمور في مناطقهم. وأعرب السيد ينغ عن بعض التبرم غير المؤذي من السكرتير الأول للجنة الحزبية في سيشوان، لي جنغ ـ كوان، الذي عُرف دائماً بلقب المفوض لي. وكان أبي رئيس وفد سيشوان إلى المؤتمر، وعلى عاتقه وقعت كتابة التقرير الروتيني لدى عودته. حين بدأت «الحملة ضد اليمين»، قرر المفوض لي أنه لا يستسيغ ما قاله السيد ينغ. فاتصل بنائب رئيس الوفد للتحقق من الأمر، ولكن هذا الرجل غيَّب نفسه ببراعة في المرحاض، عندما بدأ السيد ينغ انتقاداته. وفي المرحلة الأخيرة من الحملة، عمد المفوض لي إلى وصم السيد ينغ باليمينية. وحين سمع أبي بذلك، اغتمّ كثيراً، معذباً نفسه بفكرة أنه يتحمل قسطاً من المسؤولية عن سقوط السيد ينغ. حاولت أمي إقناعه بأن الأمر ليس كذلك: قالت له: «إنه ليس ذنبك!». ولكن عذابه لم يتوقف قط بسببه.

استخدم كثير من المسؤولين الحملة لتسوية حسابات شخصية. واكتشف البعض أن إحدى الطرائق السهلة لجمع حصتهم من اليمينين، هي تقديم أعدائهم. وتصرف البعض الآخر من باب الانتقام الخالص. وفي يي بين، قام الزوجان تنغ بتطهير العديد من الموهوبين، الذين لم ينسجما معهم، أو كانا ينظران إليهم بعين الحسد. فأدين كل مساعدي أبي هناك تقريباً، الذين انتقاهم ورقّاهم، بوصفهم يمينيين. ووُصِم مساعد سابق، كان أبي يحبه كثيراً، بوصفه «يمينياً متطرفاً». وكانت جريمته ملاحظة واحدة، بمعنى أن اعتماد الصين على الاتحاد السوفياتي، ينبغي أن لا يكون «اعتماداً

مطلقاً». حينذاك، كان الحزب يعلن أنه ينبغي أن يكون مطلقاً. حكم عليه بثلاث سنوات في غولاغ (معسكر) من غولاغات الصين، وعمل في بناء طريق في منطقة جبلية موحشة، حيث مات العديد من قرنائه السجناء.

لم يتأثر المجتمع عموماً بالحملة المضادة لليمين. فالفلاحون والعمال واصلوا حياتهم كالمعتاد. وعندما انتهت الحملة، بعد عام، وُصِم باليمينية ٥٥٠ ألف شخص على الأقل ـ طلاب ومعلمون وكتّاب وفنانون وعلماء ومهنيون آخرون. طرد معظمهم من وظائفهم، وأصبحوا عمالاً يدويين في المعامل أو المزارع. وأرسل بعضهم للأعمال الشاقة في غولاغات. وأصبحوا مع عوائلهم مواطنين من الدرجة الثانية. كان الدرس قاسياً وواضحاً: لن يُسكت على النقد بأي شكل. ومنذ ذلك الحين، كفّ الناس عن الشكوى أو الكلام أصلاً. ولخّص قول شعبي مأثور هذه الأجواء: «بعد حملة الأضداد الثلاثة، لم يعد أحد يريد أن يكون بعهدته مال. وبعد الحملة المضادة لليمين، لا أحد يفتح فمه».

ولكن مأساة ١٩٥٧ كانت أكبر من تكميم الأفواه. فإمكان السقوط في الهوة، أصبح الآن إمكاناً لا يمكن التنبؤ به. وكان نظام الحصص مقترناً بالثارات الشخصية، يعني أن أي شخص يمكن أن يتعرض للاضطهاد، دونما سبب.

سجّلت اللغة العامِيَّة هذا المزاج. فبين فئات اليمينيين، كان هناك «يمينيون بسحب القرعة» (تشوو ـ كيان يو ـ باي)، أي أشخاص كانوا يسحبون اليانصيب، ليقرروا بالقرعة من ينبغي تسميتهم يمينيين، وكان هناك «يمينيو التواليت» (سيسوو يو ـ باي)، وهم أشخاص اكتشفوا أنهم رُشِّحوا في غيابهم، بعدما اضطروا إلى الذهاب إلى المرحاض، خلال الاجتماعات المديدة، الطويلة الكثيرة. وكان هناك يمينيون أيضاً قيل إن «لديهم سماً، ولكن لم ينفثوه» (يوو ـ دو بو ـ فانغ). وكان هؤلاء أشخاصاً وسموا باليمينية، دون أن يقولوا أي شيء ضد أحد. فحين كان مسؤول لا يحب أحداً يستطيع أن يقول عنه «إنه لا يبدو على ما يرام» أو «إن الشيوعيين أعدموا أباه، فكيف لا يشعر بالسخط؟ إنه، ببساطة، لا يقول ذلك علناً». وكان رئيس الوحدة الطيب القلب، يفعل أحياناً العكس: «مِمَن أنال؟ لا أستطيع أن أفعل ذلك لأحد. فلنقل أنا». وكان هذا يسمى شعبياً «يميني معترف ذاتياً» (زي ـ رين يوو ـ باي).

كان عام ١٩٥٧ حداً فاصلاً بالنسبة إلى الكثيرين. كانت أمي لا تزال متفانية في سبيل القضية الشيوعية، ولكن شكوكاً أخذت تزحف حول ممارستها. وكانت تتحدث عن هذه الشكوك مع صديقها السيد هاو، مدير معهد الأبحاث، الذي طاله التطهير، ولكنها لم تكشف عنها قط لأبي - ليس لأنه لم تكن لديه شكوك، ولكن لأنه لم يكن يريد أن يناقشها معها. وكانت القواعد الحزبية، شأنها شأن الأوامر العسكرية، تمنع الأعضاء من الحديث عن سياسات الحزب فيما بينهم. وكان ميثاق الحزب ينص على أن كل عضو يجب أن يطيع منظمته الحزبية طاعة غير مشروطة، وأن المسؤول الأدنى مرتبة، يجب أن يطيع المسؤول الأعلى مرتبة. وإذا كان لديك أي اعتراض، فلا تستطيع أن تذكره إلاّ لمسؤول أعلى مرتبة، يعتبر تجسيداً للمنظمة الحزبية. إن هذا الانضباط الحديدي، الذي أصرّ عليه الشيوعيون، منذ أيام ينان وقبلها، كان حاسماً في نجاحهم. وكان أداة مخيفة بيد السلطة، كما هو مطلوب في مجتمع، تعلو العلاقات الشخصية فيه على كل قواعد أخرى.

التزم أبي بهذا الانضباط التزاماً كاملاً. كان يعتقد أنه لا يمكن صيانة الثورة والحفاظ عليها، إذا واجهت تحدياً سافراً. وفي الثورة، عليك أن تناضل من أجل الجانب الذي اتخذته، حتى إن لم يكن كاملاً، ما دُمتَ تؤمن بأنه أفضل من الجانب الآخر. كانت الوحدة هي الضرورة القصوى.

كانت أمي ترى أنها غريبة، فيما يتعلق بعلاقة أبي بالحزب. وذات يوم، عندما غامرت وأبدت بعض التعليقات النقدية حول الوضع، ولم تتلق جواباً منه، قالت بمرارة: «إنك شيوعي جيد ولكنك زوج عفن!». هزّ أبي رأسه. قال إنه يعرف ذلك.

بعد أربعة عشر عاماً، روى أبي لأطفاله ما كاد يحدث له في عام ١٩٥٧. فمنذ أيامه الأولى في ينان، وكان شاباً في العشرين، كان صديقاً حميماً لكاتبة معروفة اسمها دنغ لنغ. وفي آذار/مارس ١٩٥٧، حين كان في بكين يقود وفد سيشوان إلى مؤتمر الشؤون العامة، بعثت إليه برسالة تدعوه لزيارتها في تيانجين، قرب بكين. كان أبي يريد الذهاب، ولكنه قرر عكس ذلك، لأنه كان في عجلة من أمره للعودة إلى البيت. وبعد عدة أشهر، وُصِمت دنغ لنغ بوصفها اليميني رقم واحد في الصين. وقال لنا أبي: «لو ذهبت لرؤيتها، لكانت تلك نهايتي أيضاً».

١٢ ـ «النساء المقتدرات، يستطعن إعداد وجبة بلا طعام» ـ المجـاعـة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٢)

في خريف ١٩٥٨، حين كنتُ في السادسة من العمر، بدأت التعلم في مدرسة ابتدائية، تبعد عن البيت حوالي عشرين دقيقة، مشياً على الأقدام، في الغالب عبر أزقّة خلفية حجرية موحلة. وكل يوم، في طريقي إلى المدرسة والعودة منها، كنتُ أزرّ عينيَّ للبحث في كل شبر من الأرض عن مسامير محطّمة وتروس صدئة وأي أجسام معدنية أخرى، حُشرت في الوحل بين الأحجار. كانت هذه من أجل تغذية الأفران لإنتاج الفولاذ، الذي كان شغلي الشاغل. نعم، في سن السادسة، كنت أشارك في إنتاج الفولاذ، وكان عليّ أن أتبارى مع أترابي في المدرسة على تسليم أكبر كمية من الحديد الخردة. ومن كل الجهات من حولي، كانت موسيقى حماسية تدوي من مكبّرات الصوت، وكانت هناك لافتات وملصقات وشعارات ضخمة، مخطوطة على الجدران، تعلن: «عاشت الطفرة الكبرى إلى الأمام» و «ليصنع الجميع فولاذاً!». رغم أني لم أفهم تماماً لماذا، فقد كنت أعرف أن الرئيس ماو أمر البلاد بصنع الكثير من الفولاذ. في مدرستي حلّت مراجل ضخمة شبيهة بالبوتقة محل البعض من قدورنا المطبخية، ووضعت على المواقد العملاقة في المطبخ. وكانت تُغذّى بكل ما لدينا من حديد خردة، بما في ذلك القدور القديمة التي هُشمت الآن إلى قطع. وكانت المواقد تُبقى مشتعلة على الدوام ـ إلى أن تنصهر. كانت معلّماتنا يتناوبن على تغذيتها بالحطب على مدار الساعة، ويخلطن الحديد الخردة في المراجل

بملعقة ضخمة. لم نكن نتلقّى دروساً كثيرة، لأن المعلّمات كنَّ منهمكات في رعاية المراجل، وكذلك الفتيان، في العقد الثانِي من العمر. ونُظِّم بقيتُنا لتنظيف شقق المعلمات وحضانة الأطفال نيابة عنهنّ.

أذكر زيارة مستشفى ذات مرة مع بعض الأطفال الآخرين، لعيادة معلّمة من معلماتنا، أصيبت بحروق خطيرة عندما تطاير حديد مصهور متساقطاً على ذراعيها. كان أطباء وممرضات بمعاطف بيضاء، يتراكضون بشكل محموم. هناك فرن في ساحة المستشفى، وعليهم تغذيته بقطع الخشب طوال الوقت، حتى وهم يُجْرون عمليات، وفي ساعات الليل.

قبل أن أبدأ الذهاب إلى المدرسة بفترة وجيزة، انتقلت عائلتي من بيت كاهن الأبرشية القديم إلى مجمع خاص، كان مركز حكومة الإقليم. وكان المجمع يضم عدة شوارع مع عمارات من الشقق السكنية والمكاتب، وعدداً من القصور. وكان سور مرتفع يعزله عن العالم الخارجي. وداخل البوابة الرئيسية، كان نادي العسكريين الأميركيين، خلال الحرب العالمية الثانية. وقد أقام أرنست همنغواي هناك، في عام ١٩٤١. كان مبنى النادي من الطراز الصيني التقليدي، أطراف سطحه المرصوف بالقرميد الأصفر معقوفة إلى الأعلى، وله أعمدة حمراء دكناء ثقيلة. وقد تحوَّل إلى مكتب سكرتارية حكومة سيشوان.

أقيم فرن ضخم في ساحة وقوف السيارات، حيث ينتظر السائقون. وفي الليل، كانت السماء تشتعل ضياء، وكان ضجيج المحتشدين حول الفرن، يُسمع على بعد ٣٠٠ ياردة، وأنا في غرفتي. ذهبتْ قدور عائلتي طعاماً للفرن، ومعها كل آنيتنا المطبخية المصنوعة من الحديد. لم نعان بسبب فقدانها، لأننا لم نعد في حاجة إليها. إذ لم يكن الطهي مسموحاً به في البيوت، وعلى الجميع أن يأكلوا في المطعم. كانت الأفران لا تشبع. فصُهِر سرير والديَّ، الذي كان سريراً ناعماً مريحاً بنوابض من حديد. وذُوِّبت أيضاً سياجات الحديد، التي كانت على أرصفة المدينة، وكل شيء مصنوع من الحديد. ونادراً ما كنت أرى والديَّ طيلة أشهر. كانا في أحيان كثيرة لا يأتيان إلى البيت، لأن عليهما التأكّد من عدم انخفاض درجة الحرارة في أفران مكاتبهما.

في ذلك الوقت، أفصح ماو تماماً عن حلمه غير الناضج، بتحويل الصين إلى

قوة حديثة من الدرجة الأولى. فسمى الفولاذ «مارشال» الصناعة، وأمر بمضاعفة إنتاج الفولاذ في غضون عام واحد ـ من ٥,٣٥ ملايين طن في عام ١٩٥٧ إلى ١٠,٧ ملايين طن في عام ١٩٥٨. ولكنه بدلاً من محاولة توسيع صناعة الفولاذ الحقيقية بالعمال الماهرين، قرّر دفع السكان كلهم إلى المشاركة. كانت هناك حصّة من الفولاذ يجب أن تنتجها كل وحدة، وعلى امتداد أشهر، توقف الناس عن ممارسة أعمالهم العادية، لتنفيذ هذا الهدف. لقد اُختُزِلَت تنمية البلاد اقتصادياً إلى مسألة مبسّطة، هي كم طنّاً من الفولاذ يمكن إنتاجه، وزُجّت البلاد كلها في هذا العمل. وقُدّر رسمياً أن حوالي ١٠٠ مليون فلاّح، سُحبوا من العمل الزراعي إلى إنتاج الفولاذ. كانوا يشكّلون الأيدي العاملة التي تنتج كثيراً من غذاء البلاد. وعُرّيت جبال من الأشجار، لاستخدامها وقوداً. ولكن حصيلة هذا الإنتاج الجماهيري، لم تكن إلا ما سمّاه الناس «روث الماشية» (نيو ـ شي ـ غي ـ دا)، بمعنى براز لا نفع فيه.

كان هذا الوضع اللامعقول لا يعكس جهل ماو بالطريقة التي يعمل بها الاقتصاد فقط، بل يعكس كذلك تجاهلاً للواقع يقرب من الغيبيات. ربما كان شائقاً في قصيدة شعر، ولكنه شيء آخر تماماً في زعيم سياسي لديه سلطة مطلقة. وكان من ميزاته الرئيسية ازدراء دفين لحياة الإنسان. قبل ذلك بزمن ليس ببعيد، قال ماو للسفير الفنلندي: «حتى إذا كانت لدى الولايات المتحدة قنابل ذرية أقوى، واستخدمتها ضدّ الصين، أو فتحت ثقباً في الكرة الأرضية، أو فجّرتها هباء منثوراً، فإن ذلك قد يكون عظيم الأهمية للمنظومة الشمسية، لكنه سيبقى مسألة عديمة الأهمية فيما يتعلق بالكون عموماً».

كانت إرادة ماو قد أذكتها التجربة الأخيرة في روسيا. فبعد أن ازدادت خيبة ماو من خروشوف، إثر إدانة ستالين، في عام ١٩٥٦، توجّه إلى موسكو في أواخر ١٩٥٧، لحضور قمة شيوعية عالمية. وعاد مقتنعاً بأن روسيا وحلفاءها، أخذوا يبتعدون عن الاشتراكية، ويتّجهون نحو «التحريفية». ورأى في الصين المُؤمِن الحقيقي الوحيد. وكان عليه أن يرتاد طريقاً جديداً. لقد كان جنون العظمة والإرادة يتشابكان بسهولة في عقل ماو.

مرّ هاجس ماو بالفولاذ دون تساؤل من حيث الأساس، شأنه شأن نزواته المهووسة الأخرى. أخذ يمقت العصافير، لأنها تلتهم الحبوب. فعُبىء كل بيت.

وكنّا نجلس في الخارج طارقين بعنف كل جسم معدني، من الصنوج إلى الأواني المنزلية، لتخويف العصافير وفرارها بعيداً عن الأشجار، فتسقط في النهاية ميتة من الإعياء. وحتى يومنا هذا، ما زلتُ أسمع بوضوح الجَلَبة التي كنتُ وإخوتي نثيرها، فضلاً عن المسؤولين الرسميين، جالسين تحت شجرة بيلسان عملاقة في فنائنا.

كانت هناك أيضاً أهداف اقتصادية لا تُصدّق. فقد زعم ماو أن إنتاج الصين الصناعي، يمكن أن يتخطى إنتاج الولايات المتحدة وبريطانيا، في غضون خمسة عشر عاماً. وفي نظر الصينيين، كان هذان البلدان يمثّلان العالم الرأسمالي. وسيبدو تخطّيهما انتصاراً. وقد دغدغ ذلك مشاعر الفخر عند الناس، وألهب حماستهم بقدر عظيم. وكانوا شعروا بالمهانة من جرّاء رفض الولايات المتحدة وأغلبية الدول الغربية الكبرى الاعتراف الدبلوماسي بالبلاد، وكانوا متشوقين لكي يبينوا للعالم أنهم قادرون على النجاح بمفردهم، حتى توصّلوا إلى الإيمان بالمعجزات. وكان ماو مصدر الإلهام. كانت طاقة السكان تمور بحثاً عن متَنَفّس. وها هو قد تهيأ. وطغت روح التهوّر على الحذر، مثلما انتصر الجهل على العقل.

في أوائل عام ١٩٥٨، بعد فترة وجيزة من عودة ماو من موسكو، قام بزيارة إلى تشينغدو، دامت حوالي شهر. وكان مدفوعاً بوهج الفكرة القائلة إن الصين قادرة على كل شيء، وخاصة انتزاع قيادة الاشتراكية من الروس. وفي تشينغدو، طرح الخطوط العامة لطفرته، «الطفرة الكبرى إلى الأمام». نظّمت المدينة مسيرة كبرى له، ولكن المشاركين فيها لم تكن لديهم فكرة عن وجود ماو. فقد انزوى بعيداً عن الأنظار. وفي هذه المسيرة، رُفِع شعار يقول: «النساء المقتدرات، يستطعن إعداد وجبة بلا طعام»، وهو قَلْب لمثل صيني براغماتي قديم يقول: «إن المرأة مهما كانت مقتدرة، لا تستطيع إعداد وجبة بلا طعام». لقد أصبحت الخطابية الرنانة مطلباً راسخاً. وكان على الأوهام المستحيلة أن تصبح واقعاً.

كان الربيع رائعاً ذلك العام. وذات يوم، ذهب ماو في نزهة إلى حديقة تسمى «قصر المركيز جوغي ليانغ»، يعود تاريخها إلى القرن الثالث. وكان مكتب أمي، مكتب المنطقة الشرقية، مسؤولاً عن الأمن في أحد أقسام الحديقة. كانت هي وزملاؤها يحرسونه، متظاهرين بأنهم سيّاح. كان ماو نادراً ما يلتزم بميعاد أو يدع الآخرين يعرفون تحرّكاته على وجه الدقّة. لذا، جلست أمي ساعات بعد ساعات

تحتسي الشاي في المقهى، محاولة البقاء متأهبة. وفي النهاية، ضاقت ذرعاً، وأخبرت زملاءها أنها ذاهبة لتتمشى. وقد ضلّت طريقها داخلة القسم الأمني للمنطقة الغربية، التي لم يكن العاملون فيها يعرفونها، فتمّ تعقّبها على الفور. وحين تلقى السكرتير الحزبي للمنطقة الغربية تقارير عن وجود «امرأة مشبوهة»، وجاء للاطلاع بنفسه، ضحك قائلاً: «أوه، إنها الرفيقة القديمة شيا من المنطقة الشرقية!». بعد ذلك، تعرّضت أمي للنقد من مسؤولها، رئيس المنطقة غوو، بسبب «تسكّعها بلا انضباط».

وزار ماو أيضاً عدداً من المزارع في سهل تشينغدو. وحتى ذلك الحين، كانت التعاونيات الفلاحية صغيرة. لذا، أمرهم ماو جميعاً بالاندماج في مؤسسات أكبر، سمّيت فيما بعد «كوميونات شعبية».

في ذلك العام، نُظِّمت الصين كلها في هذه الوحدات الجديدة، التي كانت كل وحدة منها ما تضمّ ما بين ٢٠٠٠ و ٢٠ ألف عائلة. وكان بين المناطق السبّاقة في هذه الحملة، منطقة تسمى شوسهوي، في إقليم هيبي شمال الصين، لاقت هوى في نفس ماو. وفي غمرة شوق المسؤول المحلي إلى أن يثبت أنهم يستحقّون اهتمام ماو، زعم أنهم سيزيدون إنتاج الحبوب عشر مرات عن ذي قبل. ابتسم ماو ابتسامة عريضة، وردّ قائلاً: «ماذا ستفعلون بكل هذا الغذاء؟ ولكن من الناحية الأخرى، ليس الأمر السيّىء حقاً أن تكون هناك وفرة في الغذاء. فالدولة لا تريده. ولدى كل الآخرين الكثير منه. ولكن الفلاحين هنا يستطيعون أن يأكلوا ويأكلوا. إنهم يستطيعون أن يأكلوا خمس وجبات في اليوم!». لقد كان ماو ثملاً بالحلم الأبدي للفلاح الصيني ـ فائض من الغذاء. بعد هذه الملاحظات، أمعن القرويون في تأجيج رغبات قائدهم العظيم، مدّعين أنهم ينتجون غلة تزيد على مليون رطل من البطاطا في المُو الواحد (المُو يساوي سدس فدان) وأكثر من ١٣٠ ألف رطل من القمح في المُو الواحد، وملفوفاً تزن الواحدة منه ٥٠٠ رطل.

كان زمن يُمارس فيه حديث الأوهام مع النفس ومع الآخرين، والإيمان بها، لدرجة لا تصدق. كان الفلاحون ينقلون المحاصيل من عدة قطع من الأرض إلى قطعة واحدة، ليُروا المسؤولين الحزبيين أنهم أنتجوا محصولاً عجائبياً. وكانت «حقول بوتمكين» مماثلة، تُستعرض أمام السذّج ـ أو الذين اختاروا أن يعموا أنفسهم ـ من العلماء الزراعيين والصحفيين والزوّار القادمين من مناطق أخرى، والأجانب.

ورغم أن هذه المزروعات، كانت تموت في غضون أيام قليلة، بسبب الاستزراع في غير أوانه والكثافة المضرّة، فإن الزوار لم يكونوا يعرفون ذلك، أو لم يريدوا أن يعرفوا. وانجرف قسم كبير من السكان في هذا العالم المجنون والمشوَّش. «خداع النفس مع خداع الآخرين» (زي ـ كي ـ كي ـ رين) أطبق على البلاد. وقال كثيرون ـ بمن فيهم علماء زراعيون وقياديون حزبيون كبار ـ إنهم رأوا المعجزات بأنفسهم. ومَنْ كانوا يتخلّفون عن مضاهاة ادّعاءات الآخرين الخيالية، بدأوا يشكون في أنفسهم ويلومونها. وفي ظل دكتاتورية مثل دكتاتورية ماو، حيث كانت المعلومات تُحجب وتُختَلق، كان من الصعوبة بمكان على البسطاء أن يثقوا بخبرتهم ومعارفهم الذاتية، ناهيكم بأنهم كانوا يواجهون موجة عارمة من الاندفاع على الصعيد القومي، تنذر باجتياح أي تفكير فردي رصين. كان من السهل أن يبدأ المرء بتجاهل الواقع، وأن يضع بكل بساطة ثقته في ماو. وكان الانسياق مع الجنون المسار الأكثر سهولة. فالتوقّف والتفكير والتأنّي، كانت تعني الوقوع في متاعب.

صَوَّر رسم كاريكاتوري عالِماً شبيهاً بالفأر، ينوح قائلاً: «إن موقداً مثل موقدك، لا يستطيع إلا أن يغلي الماء لتحضير الشاي». وإلى جانبه وقف عامل عملاق، يرفع بوابة سد ضخمة، يتدفق منها سيل من الفولاذ المصهور، وقد ردّ عليه قائلاً: «كم تستطيع أن تشرب!». إن جل من رأوا اضطراب الوضع، كانوا أشدّ خوفاً من أن يفصحوا عن أفكارهم، وخاصة بعد الحملة المضادّة لليمين، في عام ١٩٥٧. وكان الذين يبدون شكوكهم يسكتون في الحال، أو يطردون، الأمر الذي يعني التمييز ضدّ عوائلهم، ومستقبلاً قاتماً لأطفالهم.

في أماكن كثيرة كان الذين يرفضون التباهي بزيادات ضخمة في الإنتاج، يُضْرَبون حتى يُذعنوا. وفي يي بِين عُلِّق البعض من قادة وحدات الإنتاج في ميدان القرية، وأياديهم موثوقة وراء ظهورهم، فيما كانت الأسئلة تنهال عليهم:

ـ «كم من القمح تستطيع أن تنتج من الـمو الواحد؟

ـ «٤٠٠ جن» (حوالي ٤٥٠ رطلاً، وهو كمية واقعية).

ثم وهو يُضرب: «كم من القمح تستطيع أن تنتج من الـ «مو» الواحد؟»».

ـ «٨٠٠ جن».

حتى هذا الرقم المستحيل لم يكن كافياً. وكان صاحب الحظ المنكود، يُضرب أو يبقى ببساطة معلّقاً إلى أن يقول في النهاية: «عشرة آلاف جن». وأحياناً كان يموت معلّقاً هناك، لأنه رفض زيادة الرقم، أو يموت ببساطة قبل أن يتمكّن من رفع الرقم عالياً بما فيه الكفاية.

لم يكن كثير من المسؤولين عن القاعدة والفلاحين المشاركين في مشاهد كهذه، يصدّقون المباهاة التي تثير السخرية، ولكن الخوف من اتّهامهم هم أنفسهم، كان يدفعهم إلى الاستمرار. كانوا ينفّذون أوامر الحزب، ويبقون في مأمن ما داموا يسيرون وراء ماو. فالنظام الشمولي الذي غرقوا فيه، أضعف شعورهم بالمسؤولية وشوّهه. حتى الأطباء كانوا يتباهون بالمعالجة الإعجازية لأمراض لا شفاء لها.

كانت الشاحنات تظهر في مجمّعنا حاملة فلاحين ضاحكين، جاؤوا للإبلاغ عن إنجاز ما عجيب، حطّم أرقاماً قياسية. فيوماً، خيارة عملاقة بنصف طول الشاحنة. ويوماً آخر، حبّة طماطم حملها طفلان بصعوبة. وفي مناسبة أخرى خنزير عملاق، عُصر لإدخاله في الشاحنة. زعم الفلاحون أنهم ربوا خنزيراً حقيقياً بهذا الحجم. كان الخنزير مصنوعاً من عجينة الورق، ولكني كطفلة تخيّلته حقيقياً. لعلي كنتُ مشوّشة الذهن بمن حولي من الكبار، الذين كانوا يتصرّفون وكأن هذا كله حقيقي. تعلَّم الناس أن يتجاهلوا العقل، ويعيشوا مع التمثيل.

انزلقت البلاد كلها إلى كلام مزدوج. أصبحت الكلمات منفصلة عن الواقع والمسؤولية وأفكار الناس الحقيقية. وكانت الأكاذيب تقال بسهولة، لأن الكلمات فقدت معانيها ـ وكفّ الآخرون عن أخذها على محمل الجدّ.

وتكرَّس هذا في مزيد من تجييش المجتمع. حين أقام ماو الكوميونات، في البداية قال إن ميزتها الرئيسية هي «أن التحكّم فيها سهل»، لأن الفلاحين سيكونون في إطار منظّم، بدلاً من تركهم، إلى حدٍّ ما، لحالهم. وكانت تصدر لهم أوامر تفصيلية من القمّة ذاتها، تقول لهم كيف يحرثون أرضهم. فقد لخّص ماو الزراعة كلها في ثماني خصائص: «التربة والسماد والماء والبذور والزراعة المكثّفة والحماية والعناية والتكنولوجيا». وأخذت اللجنة المركزية للحزب في بكين، توزّع تعليمات في صفحتين، تشرح كيف ينبغي أن يحسّن الفلاحون في عموم الصين حقولهم، وصفحة

أخرى تشرح طريقة استخدام الأسمدة، وصفحة ثالثة حول الزراعة المكثّفة. وكان يتعيّن الالتزام التزاماً صارماً بالتعليمات المبسّطة إلى حدٍّ لا يصدق: كانت الأوامر تصدر إلى الفلاحين بزراعة محاصيلهم من جديد زراعة أكثف، في حملة تلو الأخرى من الحملات الصغرى.

كانت وسيلة أخرى من وسائل التجييش، وهي فتح المطاعم في الكوميونات، هاجساً سكن ماو حينذاك. فهو بطريقته الغريبة، عرَّف الشيوعية بأنها «مطاعم عامة تقدم وجبات مجانية». لم يكن يعنيه أن المطاعم نفسها لا تنتج الغذاء. وفي عام ١٩٥٨، مَنَع نظام الحكم الأكل في البيت. وتعيّن على كل فلاح أن يأكل في مطعم الكوميونة. وكانت أدوات مطبخية مثل القدور ـ وفي بعض الأماكن النقود ـ ممنوعة. فالكوميونة والدولة، تتوليان العناية بالجميع. وكان الفلاحون يدخلون المطاعم في طوابير، كل يوم، بعد العمل، ويأكلون حتى الشبع، الأمر الذي لم يتمكّنوا من عمله قطّ قبل ذلك، ولا حتى في أحسن السنوات، وفي أكثر المناطق خصوبة. لقد استهلكوا كل الاحتياطي الغذائي في الريف وأفرّطوا فيه. كانوا يدخلون الحقول أيضاً في طوابير، ولكن كم من العمل يُنْجَز، لم يكن هو المهم، لأن المنتج الآن ملك الدولة، ولا يمتّ بصلة على الإطلاق إلى حياة الفلاحين. رفع ماو الشعار القائل إن الصين تبلغ الآن مجتمع الشيوعية التي تعني بالصينية «تَشارُك السلع المادية»؛ واعتبر الفلاحون أن هذا يعني أنهم سينالون نصيبهم، في كل الأحوال، بصرف النظر عن كمية العمل التي ينجزونها. وبدون حافز على العمل، كانوا يذهبون إلى الحقول ويتمتّعون بإغفاءة طويلة.

أُهملت الزراعة أيضاً بسبب الأولوية التي أُعطيت للفولاذ. فقد كان الكثير من الفلاحين منهمكين في قضاء ساعات طويلة، في البحث عن الوقود وحديد الخردة وخامات الحديد، وإبقاء الأفران عاملة. وفي أحيان كثيرة، كانت الحقول تترك للنساء والأطفال الذين عليهم أن يعملوا كل شيء باليد، لأن الحيوانات كانت مسخرة في مجال إنتاج الفولاذ. وحين جاء وقت الحصاد، في خريف ١٩٥٨ كان هناك قلّة من الأيدي في الحقول.

قرع الفشل في جني الحصاد، عام ١٩٥٨، ناقوس الخطر، محذّراً من أن شحاً في الغذاء قادم على الطريق، رغم أن الإحصائيات الرسمية أظهرت زيادة ذات رقمين

عشريين في الإنتاج الزراعي. وأُعلن رسمياً أن إنتاج الصين من القمح، في عام ١٩٥٨، تخطّى إنتاج الولايات المتحدة. وبدأت صحيفة الحزب، «الشعب اليومية»، نقاشاً حول موضوع «كيف نعالج مشكلة إنتاج الكثير من الغذاء؟».

كان قسم أبي مسؤولاً عن الصحافة في سيشوان، التي كانت تنشر ادّعاءات مُغالية، شأن كل مطبوعة أخرى في الصين. والصحافة صوت الحزب، وحين يتعلّق الأمر بسياسات الحزب، لم تكن لأبي، ولا لأي أحد آخر في الإعلام، كلمة. إذ كانوا جزءاً من حزام ناقل ضخم. وكان أبي يتابع الأحداث بقلق. وخياره الوحيد أن يناشد القياديين الكبار ليس إلا.

في نهاية ١٩٥٨، بعث برسالة إلى اللجنة المركزية في بكين، يقول فيها إن إنتاج الفولاذ على هذا النحو، لا معنى له، وإنه هدر في الموارد، وإن الفلاحين منهوكون ويجري تبديد عملهم سدى، وإن هناك نقصاً في الغذاء. دعا إلى التحرّك بسرعة، وأعطى الرسالة إلى المحافظ لنقلها. كان المحافظ لي دا ـ جانغ الرجل الثالث في الإقليم، وهو الذي عيَّنَ أبي في وظيفته الأولى، عندما جاء إلى تشينغدو من يي بِين، وعامله كصديق.

قال المحافظ لي لأبي، إنه سيقوم بإيصال الرسالة. وقال إن لا شيء جديداً فيها. «فالحزب يعرف كل شيء. ثق به». قال ماو إن معنويات الشعب يجب أن لا تهبط بأي حال من الأحوال. وقال إن «الطفرة الكبرى إلى الأمام»، غيَّرت موقف الصينيين النفسي، من السلبية إلى روح وثّابة مقدامة، يجب أن لا يعيقها عائق يهدّدها.

كما قال المحافظ لي لأبي إن لقب «المعارض»، ذا الخطر، قد أطلق عليه بين القادة الإقليميين، وإنه أعرب عن عدم اتّفاقه معهم في ذلك. ولم يبق أبي سالماً إلا بسبب صفاته الأخرى، إخلاصه المطلق للحزب، وإحساسه الصارم بالانضباط. وقال المحافظ: «إن الأمر الجيد، هو أنك لم تعرب عن شكوك إلا للحزب، وليس للرأي العام». وحذّر أبي من الوقوع في متاعب ذات خطر، إذا أصرّ على إثارة هذه القضايا، وكذلك وقوع عائلته و«آخرين» فيها، قاصداً نفسه بوضوح. لم يصرّ أبي. كان نصف مقتنع بالحجّة، وكان الرهان كبيراً. لقد بلغ مرحلة لم يكن فيها عصياً على تقبّل الحلول الوسط.

ولكن أبي والعاملين في أقسام الشؤون العامة، كانوا يجمعون عدداً كبيراً من الشكاوى، في إطار عملهم، ويحيلونها إلى بكين. كان هناك تذمّر عام بين الناس والمسؤولين على السواء. وفي الحقيقة، إن «الطفرة الكبرى إلى الأمام» فجّرت أسوأ انقسام في القيادة، منذ استيلاء الشيوعيين على السلطة، قبل عقد من الزمان. وكان على ماو أن يتنحّى عن المنصب الأقلّ أهمية من منصبيه الرئيسيين، وهو منصب رئيس الدولة، لمصلحة ليو شاوتشي. وأصبح ليو الرجل الثاني في الصين، ولكن سمعته لم تكن إلا جزءاً ضئيلاً من سمعة ماو، الذي احتفظ بمنصبه الأساسي رئيساً للحزب.

ازدادت أصوات المعارضة قوة، بحيث اضطر الحزب إلى الدعوة إلى مؤتمر خاص، عقد في نهاية حزيران/يونيو ١٩٥٩، في منتجع لوشان الجبلي، في وسط الصين. وفي المؤتمر، كتب وزير الدفاع المارشال بينغ دهواي رسالة إلى ماو، ينتقد فيها ما حدث في «الطفرة الكبرى إلى الأمام»، ويوصي باعتماد مقاربة واقعية للاقتصاد. كانت الرسالة، في الحقيقة، منضبطة وانتهت بلازمة التفاؤل، التي لا بدّ منها (في هذه الحالة، اللحاق ببريطانيا في غضون أربع سنوات). ولكن على الرغم من أن بينغ كان من أقدم رفاق ماو، ومن أقرب المقرّبين إليه، فإن ماو لم يكن يطيق أي نقد، وخاصة أنه في موقف دفاعي، لأنه كان يعرف أنه على خطأ. وإذ استخدم ماو لغة الحزن، التي كان متيّماً بها، فقد وصف الرسالة بأنها «قصف يراد به محو لوشان». تمترس ماو في موقعه وأطال عمل المؤتمر أكثر من شهر، مهاجماً المارشال بينغ بضراوة. وُصِم بينغ والقلة التي أيّدته علناً بكونهم «انتهازيين يمينيين». وأُعفي بينغ من منصبه كوزير للدفاع، ووضع تحت الإقامة الجبرية، ثم أحيل على التقاعد في سن مبكّرة، ليقيم في سيشوان، حيث عُيّن في منصب متدنٍ.

كان على ماو أن يجاهد في الكيد للحفاظ على سلطته. وقد كان في ذلك أستاذاً كبيراً. كانت مادة قراءته المفضّلة، التي أوصى بها لقادة الحزب الآخرين، مجموعة كلاسيكية من ثلاثين جزءاً عن دسائس البلاط الصيني. وقد كان حكم ماو يُفهَم على أحسن وجه بمعايير بلاط في القرون الوسطى، حيث كان يمارس سلطة ساحرة على حاشيته ورعيّته. كما كان مايسترو في تطبيق قاعدة «فرّق تسد»، واستغلال نزوع البشر إلى رمي الآخرين للذئاب. في النهاية، وقفت قلّة من المسؤولين الكبار إلى جانب المارشال بينغ، رغم تبرّمهم في المجالس الخاصة بسياسات ماو. الوحيد الذي تجنّب

الاضطرار إلى كشف أوراقه، كان السكرتير العام للحزب دينغ شياوبنغ، الذي كسر ساقه. كانت زوجة أبي دينغ تتذمّر في البيت، قائلة: «كنتُ فلاحة كل حياتي، ولم أسمع قطّ بمثل هذه الطريقة السخيفة في الزراعة!». وعندما سمع ماو كيف كسر دينغ ساقه ـ وهو يلعب البليارد ـ علّق قائلاً: «يا لها من صدفة حسنة!».

عاد المفوض لي، السكرتير الأول في سيشوان، إلى تشينغدو من المؤتمر، ومعه وثيقة تتضمن الملاحظات التي أبداها بينغ في لوشان. وقد وُزّعت هذه على المسؤولين من الدرجة ١٧ فما فوق. وسئلوا إن كانوا يتّفقون معها. حينذاك، كان الناس اكتسبوا عادة أن يقولوا «نعم» لكل شيء، ولكن أغلبيّتهم ارتابوا في الأمر هذه المرّة. عادة، حين تصدر وثيقة هامة، كانت تحمل علامة ماو عليها، مع تعليق مثل «قرئت»، ولكن هذه المرة، لم يكن هناك شيء، الأمر الذي دفع الكثير من المسؤولين إلى التزام جانب الحيطة.

سمع أبي شيئاً عن نزاع لوشان، من محافظ سيشوان. وأبدى أبي في اجتماعه «الامتحاني» بعض الملاحظات المبهمة، حول رسالة بينغ. ثم فعل شيئاً لم يفعله قطّ من قبل: حذّر أمي من أنها فخ. وقد تأثرت أمي بذلك تأثراً بالغاً. فهذه أول مرة، يضع فيها مصالحها فوق قواعد الحزب.

دُهِشَتْ أمي عندما رأت أن كثيرين غيرها، بدوا على علم بذلك أيضاً. وفي «امتحانها» الجماعي، أعرب نصف زملائها عن غضبهم الشديد على رسالة بينغ، وزعموا أن الانتقادات التي تضمّنتها «غير صحيحة». وبدا الآخرون كأنهم فقدوا القدرة على النطق، وغمغموا بشيء مراوغ. رجل واحد تمكن من الجلوس على جانبي السياج، قائلاً: «لست في وضع يمكنني من الاتّفاق أو الاختلاف، لأني لا أعرف إن كانت الأدلّة التي يسوقها المارشال بينغ تستند إلى الحقائق أم لا. إذا كانت تستند إليها فإني سأقف معه. وبالطبع، لن أكون معه إذا كانت غير حقيقية».

كان مدير مكتب الحبوب في تشينغدو، ومدير مكتب البريد فيها، محاربين قديمين في الجيش الأحمر، قاتلا تحت قيادة المارشال بينغ. وقال الاثنان إنهما يتفقان مع ما قاله قائدهما السابق، والذي يحظى باحترام كبير، مضيفين خبراتهما الخاصة في الريف لإسناد ملاحظات بينغ. وتساءلت أمي إن كان هذان الجنديان

القديمان يعرفان بالفخ. إذا كانا يعرفان، فإن الطريقة التي أفصحا بها عن أفكارهما، كانت طريقة بطولية. وتمنّت أن تكون لديها شجاعتهما. ولكنها فكّرت في أطفالها ـ ماذا سيحدث لهم؟ لم تعد لديها الروح الطليقة التي كانت تتحلى بها وهي طالبة. وعندما جاء دورها، قالت: «إن الآراء الواردة في الرسالة، لا تتفق مع سياسات الحزب خلال العامين الأخيرين».

قال لها مسؤولها السيد غوو، إن ملاحظاتها كانت قاصرة مقتضبة جداً، لأنها لم تطرح موقفها. وطيلة أيام، عاشت في حالة من التوجّس الحاد. فإن محاربَي الجيش الأحمر القديمَيْن، اللذين أيّدا بينغ، شُجبا بوصفهما من «الانتهازيين اليمينيين» وطُردا وأُرسلا لممارسة العمل اليدوي. ودُعيت أمي إلى اجتماع لنقد «ميولها اليمينية». وفي الاجتماع، أشار السيد غوو إلى خطأ آخر من «أخطائها الفادحة». ففي عام ١٩٥٩، ظهر نوع من السوق السوداء في تشينغدو، تبيع الفراخ والبيض. ولأن الكوميونات استولت على الفراخ من الفلاحين، ولم تكن قادرة على تربيتها، فقد اختفت الفراخ والبيض من المتاجر التي تملكها الدولة. وتمكّن بعض الفلاحين، بطريقة ما، من الاحتفاظ بفرخة أو فرختين في البيت تحت أسرّتهم، وأخذوا الآن يبيعونها وبيضها خلسة في الأزقّة الخلفية، بسعر يزيد حوالي عشرين مرة على سعرها السابق. وكان مسؤولون يُرْسَلون كل يوم ليحاولوا ضبط هؤلاء الفلاحين. وذات مرة، حين طلب السيد غوو من أمي أن تذهب في إحدى عمليات الدهم، قالت: «أي ضَيْر في توفير أشياء يحتاج إليها الناس؟ إذا كان هناك طلب فينبغي أن يكون هناك عرض». وبسبب هذه الملاحظة، وُجِّه إلى أمي تحذير حول «ميولها اليمينية».

اهتزّ الحزب مرّة أخرى بتطهير «الانتهازيين اليمينيين»، لأن كثيراً من المسؤولين اتّفقوا مع بينغ. وكانت العبرة أن لماو سلطة مطلقة ـ رغم أنه كان مخطئاً بشكل واضح. ورأى المسؤولون أنه مهما كان منصبُكَ رفيعاً ـ كان بينغ وزير الدفاع ـ ومهما كانت مكانتُك ـ كان الشائع أن بينغ هو المفضل لدى ماو ـ سيكون مغضوباً عليك إذا اختلفتَ مع ماو. كما كانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون أن يقولوا رأيهم ثم يستقيلوا، أو أن يستقيلوا دون معارضة: كانت الاستقالة تُعدّ احتجاجاً مرفوضاً. لم يكن هناك خيار بالانسحاب. كانت أفواه الحزب، فضلاً عن أفواه الشعب، مغلقة بإحكام. وبعد ذلك، دخلت «الطفرة الكبرى إلى الأمام» في مزيد من التجاوزات الأكثر جنوناً.

وفرض المزيد من الأهداف الاقتصادية المستحيلة. وعُبّيء المزيد من الفلاحين لصنع الفولاذ. وانهال المزيد من الأوامر الاعتباطية، مشيعة الفوضى في الريف.

في نهاية عام ١٩٥٨، حين كانت «الطفرة الكبرى إلى الأمام» في أوجها، بدأ مشروع إنشائي ضخم: عشر عمارات شاهقة في العاصمة بكين، يراد إنجازها في غضون عشرة أشهر، احتفاء بالذكرى العاشرة، في ١ تشرين الأول/أكتوبر، لتأسيس الجمهورية الشعبية.

كانت إحدى العمارات العشر «قاعة الشعب الكبرى»، وهي بناء ذو أعمدة من الطراز السوفياتي، يقع على الجانب الغربي من ميدان تيانانمين. وكانت واجهته المكسوّة بالرخام بطول ربع ميل، وقاعة الاحتفالات الكبرى فيه تتّسع لآلاف الأشخاص. وفي هذا المبنى، ستعقد الاجتماعات الهامة، ويستَقبل القادة زوارهم الأجانب. وسُمّيت الغرف، التي كانت كلها على قدر كبير من الفخامة، بأسماء أقاليم الصين. كُلّف أبي مسؤولية تزيين غرفة سيشوان، وعندما أُنجز العمل، دعا قادة الحزب، الذين كانت لهم علاقة بسيشوان، إلى الاطّلاع عليها. جاء دينغ شياوبنغ، الذي كان من سيشوان، وكذلك المارشال هُو لونغ، وهو شخصية روبن هودية شهيرة، من مؤسسي الجيش الأحمر، وصديق مقرَّب من أصدقاء دينغ.

بعد مرور بعض الوقت، دُعي أبي خارج الغرفة، تاركاً هذين الاثنين وزميلاً قديماً آخر من زملائهما، يتبادلون أطراف الحديث. وحين عاد إلى الغرفة، سمع المارشال «هو» يقول لزميله، وهو يشير إلى دينغ: «في الحقيقة، ينبغي أن يكون هو الجالس على العرش». في تلك اللحظة، لمحوا أبي، وتوقفوا فوراً عن الحديث.

كان أبي في حالة من التوجّس الشديد، بعد ذلك. كان يعرف أنه سمع بطريقة الصدفة تلميحات إلى وجود خلافات في قمة النظام. وأي عمل، أو لا عمل، يمكن تصوّره، قد يوقعه في تهلكة. لم يحدث في الواقع له شيء، ولكن عندما أخبرني بالحادث، بعد حوالي عشر سنوات، قال إنه عاش مع الخوف من الكارثة منذ ذلك الحين. وقال: «مجرد سماع ذلك هو بمثابة خيانة»، مستخدماً تعبيراً يعني «جريمة عاقِبَتُها قطع الرقبة».

ما سمعه عَرَضاً، لم يكن سوى إشارة إلى بعض الاستياء من ماو. وكان يشترك في هذا الشعور العديد من القادة الكبار، ليس آخرهم الرئيس الجديد ليو شاوتشي.

في خريف ١٩٥٩، جاء ليو إلى تشينغدو لتفقّد كوميونة، اسمها «البريق الأحمر». في السنة السابقة، كان ماو متحمّساً بحرارة للزيادة الفلكية في إنتاج الرز هناك. وقبل وصول ليو، عمد المسؤولون المحلّيون إلى اعتقال كل مَنْ يعتقدون أنهم يمكن أن يفضحوهم، وحبسوهم في معبد. ولكن ليو، كان لديه خُلد مدسوس، يعمل في الظلام، وفيما كان يسير ماراً بالمعبد، توقف وطلب أن يلقي نظرة على الداخل. قدَّم المسؤولون ذرائع مختلفة، حتى إنهم ادَّعوا أن المعبد على وشك الانهيار، ولكن ليو أصرّ على الدخول. في النهاية، كُسر القفل الصدىء الكبير، وخرجت مجموعة من الفلاحين بملابس رثة، متعثّرين في ضوء النهار. حاول المسؤولون المحليون المُحْرَجون أن يشرحوا لليو أن هؤلاء «مشاغبون»، حُبسوا لأنهم يمكن أن يُلحقوا أذى بالزائر الكبير. الفلاحون أنفسهم كانوا صامتين. فمسؤولي الكوميونات، رغم عجزهم التام، فيما يتعلق بالسياسات، كانوا أصحاب سطوة مخيفة على حياة الناس. وإذا أرادوا معاقبة أحد، يستطيعون أن ينيطوا به أحقر الأعمال، ويعطوه أقلّ كمية من الغذاء، ويخترعوا ذريعة لتعريضه للمضايقة والإدانة، بل الاعتقال.

طرح الرئيس ليو بعض الأسئلة، ولكن الفلاحين ابتسموا وغمغموا فقط. من وجهة نظرهم، كان إزعاج الرئيس خيراً من إغضاب المسؤولين المحليين. فالرئيس سيغادر إلى بكين في غضون دقائق، ولكن قادة الكوميونة، سيكونون معهم ما تبقى من حياتهم.

بعد فترة وجيزة على ذلك، جاء قيادي كبير آخر أيضاً إلى تشينغدو ـ المارشال جو دي ـ يرافقه أحد سكرتيري ماو الخاصّين. كان جو دي من سيشوان، وكان قائد الجيش الأحمر، والمهندس العسكري لانتصار الشيوعيين. وقد انزوى، منذ عام ١٩٤٩، بعيداً عن الأضواء. زار عدة كوميونات قرب تشينغدو. وبعد ذلك، فيما كان يمشي على ضفاف «نهر الحرير»، ينظر إلى الخيم الكبيرة وحقول الخيزران والمقاهي، التي تحتضنها أشجار الصفصاف، جاشت به العاطفة فقال: «إن سيشوان حقاً مكان سماوي. . .». نطق الكلمات بأسلوب مَنْ يلقي شطر بيت من الشعر. وأضاف سكرتير ماو عجْزَ البيت بالطريقة الشعرية التقليدية: «واأسفاه على تدميره بعواصف الكذب والشيوعية الزائفة!». كانت أمي معهما، وقالت في نفسها: إني أوافق من كل قلبي.

تمسّك ماو بعناد بسياساته الاقتصادية المجنونة، لأنه كان يرتاب في رفاقه، ولا يزال غاضباً لمهاجمته في لوشان. ورغم أنه لم يكن غافلاً عن الكوارث التي تسبّب بها، وكان يسمح، في الخفاء، بإعادة النظر في بعض السياسات غير العملية منها، فإن الحفاظ على «ماء وجهه»، لم يسمح له بأن يقلع عنها تماماً. في هذه الأثناء، مع بداية عقد الستينات، تفشّت مجاعة كبرى في عموم الصين.

في تشينغدو، خُفّضت الحصة الشهرية من المواد الغذائية لكل راشد إلى ١٩ رطلاً من الرز، وثلث أونصة من زيت الطهي و ٣,٥ أونصات من اللحم، حين يتيسر منه شيء. وكل شيء آخر نادراً ما كان موجوداً، ولا حتى الكرنب. وأصيب كثيرون بالاستسقاء، وهي حالة يتجمع فيها سائل تحت الجلد، بسبب سوء التغذية. وكان المريض يصفرّ ويتورّم. كان العلاج الأكثر شعبية، تناول طحالب الكلوريلا، التي يُفترض أنها غنية بالبروتين. كانت هذه الطحالب تتغذى ببول الإنسان، فكفّ الناس عن الذهاب إلى المرحاض، وأخذوا يتبوّلون بدلاً من ذلك في أوانٍ، ثم يلقون بذور الطحلب فيها، فتنمو إلى ما يشبه بيوض السمك الخضراء، في غضون يومين، ثم تُغتَرف من البول، وتُغسل وتُطبخ مع الرز. كان أكلها مقززاً بحق، ولكنها كانت تخفف الورم.

أبي، شأنه شأن كل الآخرين، لم يكن يحق له إلا حصة محدودة من الغذاء. ولكنه كان يتمتع ببعض الامتيازات، بوصفه مسؤولاً كبيراً. وكان في مجمّعنا مطعمان، مطعم صغير لمديري الأقسام وزوجاتهم وأطفالهم، ومطعم كبير لكل الآخرين، ومنهم جدتي وعمّتي جون ـ ينغ والخادمة. وفي أغلب الأوقات، كنّا نستلم أكلنا من المطعم، ونأخذه إلى البيت لتناوله هناك. كان الغذاء متوافراً في المطاعم أكثر منه في الشوارع. وكان لدى الحكومة الإقليمية مزرعتها، بالإضافة إلى «هدايا» من الحكومات الإقليمية. وكانت تُقسّم هذه المؤن الثمينة بين المطاعم، وينال المطعم الصغير معاملة تفضيلية.

كان لدى والديَّ قسائم غذائية خاصة أيضاً، بوصفهما مسؤولين حزبيين. وكنت أذهب مع جدتي إلى مخزن خاص، خارج المجمع، لشراء مواد غذائية بهذه القسائم. كانت قسائم أمي زرقاء. يحق لها خمس بيضات وحوالي أونصة من فول الصويا، والكمية نفسها من السكر، كل شهر. وكانت قسائم أبي صفراء. يحق له ضعف ما

يحق لأمي، ، بسبب مرتبته الأعلى. كانت عائلتي تجمع الغذاء من المطاعم والمصادر الأخرى ونأكل معاً. وكان الكبار دائماً يعطون الأطفال كمية أكثر، فلم أجع. ولكن الكبار كلّهم، كانوا يعانون نقص التغذية، أصيبت جدتي بحالة خفيفة من الاستسقاء. كانت تزرع طحالب الكلوريلا في البيت، وكنت أعرف أن الكبار يأكلونها، رغم أنهم لم يكونوا يقولون لي السبب في أكلها. ذات مرة، جرَّبتُ قليلاً منها، وبصقته فوراً، لأن مذاقه كان كريهاً. لم أتناولها ثانية قط.

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن مجاعة تتفشى من حولي. ذات يوم، وأنا في طريقي إلى المدرسة، كنت أقضم رغيفاً صغيراً، عندما اندفع أحدهم نحوي، واختطفه من يديَّ. وفيما كنت أفيق من الصدمة، لمحتُ قفاً أدكن نحيلاً، بسروال قصير وقدمين عاريتين، يركض في الزقاق الموحل ويده على فمه ملتهماً الرغيف. حين أخبرت والديَّ بما حدث، كانت عينا أبي حزينتين حزناً عميقاً. ربت رأسي وقال: «إنك محظوظة. الأطفال الآخرون من أمثالك جياع».

كان عليّ، في أحيان كثيرة، أن أراجع المستشفى بسبب أسناني، حينذاك. وكلما أذهب إلى هناك، كانت تنتابني نوبة من الغثيان إزاء المشهد المريع لعشرات الأشخاص بأطراف برّاقة، تكاد تكون شفافة، متورّمة بحجم البراميل. كان المرضى ينقلون على عربات مسطحة إلى المستشفى، وكان هناك الكثير جداً منهم. حين سألت طبيبة أسناني عن علّتهم، قالت متنهدة: «استسقاء». سألتها ماذا يعني ذلك، غمغمت بشيء ربَطَتُه على نحو مبهم بالغذاء.

كان المصابون بمرض الاستسقاء من الفلاحين في الغالب. فالجوع كان أسوأ بكثير في الريف منه في المدينة، لأنه لم تكن هناك حصص غذائية مضمونة. كانت سياسة الحكومة تهيئة الغذاء للنُخَب أولاً، وكان على مسؤولي الكوميونات، أن يصادروا الحبوب من الفلاحين بالإكراه. وفي مناطق كثيرة، كان الفلاحون، الذين يحاولون إخفاء الغذاء يتعرّضون للاعتقال أو الضرب والتعذيب. وكان مسؤولو الكوميونات، الذين يحجمون عن أخذ الغذاء من الفلاحين الجياع، يتعرضون للطرد، وبعضهم تُساء معاملتهم جسدياً. نتيجة لذلك، مات الفلاحون، الذين كانوا في الواقع مصدر الغذاء، بالملايين في سائر أنحاء الصين.

علمتُ، فيما بعد، أن العديد من أقاربي، من سيشوان إلى منشوريا، ماتوا في

هذه المجاعة. وكان بينهم أخو أبي المعوق. كانت أمه قد توفيت في عام ١٩٥٨، وعندما حلّت المجاعة، لم يتمكّن من تحمّلها. كانت الحصص توزّع شهرياً، وهو كان يأكل حصته في أيام، دون أن يترك شيئاً لبقية الشهر. وما لبث أن مات جوعاً. وماتت أيضاً شقيقة جدتي، لان، وزوجها «ولاء» بي ـ أو اللذان أرسلا إلى الريف اللامضياف، في أقصى شمال منشوريا، بسبب علاقته القديمة بمخابرات الكومنتانغ. فعندما بدأ الغذاء يشحّ، أخذت سلطات القرية توزع المؤن حسب أولوياتها غير المكتوبة. وكان وضع بي ـ أو المنبوذ، يعني أنه وزوجته من أوائل الذين يحرمون من الغذاء. وقد عاش أطفالهما، لأن والديهم كانا يعطيانهم غذاءهما. كما مات والد زوجة يو ـ لن، الذي اضطرّ إلى أن يأكل حشو وسادته، وجدائل نبات الثوم.

ذات ليلة، حين كنتُ في حوالي الثامنة، دخلتْ بيتنا امرأة نحيلة طاعنة في السن، وجهها كتلة من التجاعيد. ظهرت نحيلة وضعيفة، حتى بدا أن نفحة ريح كافية لطرحها أرضاً. خرّت على الأرض أمام أمي، وضربت الأرض بجبينها منادية إياها: «منقذة ابنتي». كانت أم خادمتنا. قالت: «لولاك لما عاشت ابنتي. . .». لم أستوعب معنى ذلك كاملاً، إلا بعد شهر، عندما وصلت رسالة لخادمتنا. ذكرت الرسالة أن أمها ماتت بعد فترة وجيزة من زيارتها لبيتنا، وأن زوجها وابنها الأصغر قد ماتا. لن أنسى أبداً نشيج خادمتنا، الذي يقطع نياط القلب، عندما وقفت على الشرفة متّكئة على عمود خشبي، خانقة تأوّهاتها بمنديلها. جلست جدتي متربّعة على سريرها تنتحب أيضاً. اختبأتُ في زاوية، خارج شبكة جدتي لاتّقاء البعوض. وكنت أستطيع أن أسمع جدتي تقول لنفسها: «الشيوعيون أخيار، ولكن كل هؤلاء البشر أموات. . .». بعد سنوات سمعت أن شقيق خادمتنا الآخر وزوجته ماتا بعد فترة قصيرة من ذلك. كانت عوائل الملاّك في أسفل قائمة الغذاء وفي كوميونة جائعة.

في عام ١٩٨٩، أخبرني مسؤول كان يعمل في الإغاثة من المجاعة، أنه يعتقد أن إجمالي عدد الذين ماتوا في سيشوان، كان سبعة ملايين. ويشكل هذا ١٠ في المئة من مجموع سكان إقليم غني. والتقدير المقبول لعدد من ماتوا في عموم البلاد، يبلغ حوالي ثلاثين مليوناً.

ذات يوم من عام ١٩٦٠، فُقِدت ابنة جارة عمتي جون ـ ينغ، ذات السنوات الثلاث، في يي بِين. وبعد أسابيع، رأت هذه الجارة فتاة صغيرة تلهو في الشارع،

في فستان بدا فستان ابنتها. تقدّمت نحوها وفحصته: كانت عليه علامة تقول إنه فستان ابنتها. فقامت بإبلاغ الشرطة، واتّضح أن والدَي الفتاة الصغيرة كانا يبيعان لحماً مجفّفاً بالهواء. لقد اختطفا عدداً من الأطفال، وقتلاهم وباعاهم كلحوم أرانب بأسعار باهظة. أُعدم الزوجان، وتم التستّر على القضية، ولكن كان معروفاً على نطاق واسع، أن قتل الأطفال استمرّ في ذلك الوقت.

بعد سنوات، التقيتُ بزميل قديم من زملاء أبي، رجل طيّب ومقتدر للغاية، لا يميل إلى المبالغة. حدّثني بانفعال شديد عمّا رآه خلال المجاعة في إحدى الكوميونات. مات ٣٥ في المئة من الفلاحين، في منطقة كان الحصاد وفيراً فيها ـ رغم جني القليل منه، لأن الرجال سخروا لإنتاج الفولاذ، وأهدر مطعم الكوميونة قسماً كبيراً منه. وذات يوم، اندفع فلاح داخل غرفته، ورمى نفسه على الأرض صارخاً إنه ارتكب جريمة فظيعة، ومتوسّلاً أن يعاقب عليها. في النهاية، اتّضح أنه قتل طفله الرضيع وأكله. كان الجوع مثل قوة قاهرة تدفعه إلى التقاط السكين. وبدموع منهمرة أمر المسؤول بإلقاء القبض عليه. فيما بعد، أعدم رمياً بالرصاص تحذيراً لقتلة الأطفال.

كان أحد التفسيرات الرسمية للمجاعة، أن خروشوف أجبر الصين، فجأة، على تسديد دين كبير، تراكم عليها خلال الحرب الكورية، من أجل أن تهبّ لنجدة كوريا الشمالية. واستثمر النظام خبرة قسم كبير من السكان، كانوا فلاحين معدمين، ويتذكرون ملاحقة الدائنين اللئام لهم، كي يدفعوا الإيجار أو يسدّدوا ما عليهم من قروض. لقد أوجد ماو أيضاً، بموقفه من الاتحاد السوفياتي، عدواً خارجياً لتحميله المسؤولية وتعبئة السكان.

كان من الأسباب الأخرى التي ذُكِرَتْ وقوع «كوارث طبيعية، لا سابق لها». فالصين بلاد مترامية الأطراف. وسوء الأحوال الجوية يسبّب نقصاً في الغذاء في مكان ما، كل عام. ولم يكن في مقدور أحد أن يطّلع على معلومات عن حالة الطقس في عموم البلاد، باستثناء كبار القادة. ونظراً إلى قلّة تحرّك السكان، فإن قلّة هم الذين يعرفون ما يحدث في المنطقة التالية أو حتى ما وراء الجبل التالي. واعتقد كثيرون، حينذاك، وما زالوا يعتقدون، اليوم، أن المجاعة سبّبتها كوارث طبيعية. ليست لدي صورة كاملة، ولكن من بين كل الذين تحدّثت إليهم، من أنحاء مختلفة من الصين،

كان قلّة يعرفون بوقوع كوارث طبيعية في مناطقهم. وليس لديهم، إلا قصص يروونها عن الموت جوعاً.

في مؤتمر عقد لسبعة آلاف مسؤول كبير، في بداية ١٩٦٢، قال ماو إن سبب المجاعة ٧٠ في المئة كوارث طبيعية، و ٣٠ في المئة أخطاء بشرية. وتدخل الرئيس ليو شاوتشي، مدفوعاً على ما يبدو بحرارة اللحظة، ليقول إن سببها ٣٠ في المئة كوارث طبيعية و ٧٠ في المئة أخطاء بشرية. كان أبي حاضراً في المؤتمر، وحين عاد قال لأمي: «أخشى أن يقع الرفيق شاوتشي في متاعب».

حين نُقلت الخطابات إلى مسؤولين أقل مرتبة، مثل أمي، كان تقييم الرئيس ليو مجتَزأً. ولم يُطلع السكان عموماً على أرقام ماو. وقد ساعد هذا التعتيم الإعلامي على إبقاء الناس ساكتين، ولم تكن هناك شكاوى مسموعة ضدّ الحزب الشيوعي. وعدا حقيقة أن أغلبية المعارضين قُتلوا أو قُمعوا في السنوات القليلة الماضية، فإن مسؤولية الحزب الشيوعي غير واضحة للسكان بصفة عامة. لم يكن هناك فساد بمعنى قيام مسؤولين باكتناز الحبوب. فالمسؤولون الحزبيون، لم يكونوا أحسن حالاً من المواطنين العاديين، إلا هامشياً. وهم في الحقيقة أول من جاعوا ـ وأول من ماتوا، في بعض القرى. كانت المجاعة أسوأ من أي شيء حدث في ظل الكومنتانغ، ولكنها بدت مختلفة: في أيام الكومنتانغ كان الجوع يحدث إلى جانب بذخ مستهتر، فاضح.

قبل المجاعة نَقَل مسؤولون شيوعيون كثيرون، من عوائل ملاك، آباءهم للإقامة معهم في المدن. وعندما حلّت المجاعة، أصدر الحزب أوامره بإعادة هؤلاء الشيوخ والعجائز إلى قراهم، ليشاطروا الفلاحين المحليين الحياة الشاقة ـ أي الجوع ـ. وكان المراد أن المسؤولين الشيوعيين، ينبغي أن لا يبدوا وكأنهم يستخدمون امتيازاتهم لمصلحة آبائهم «الأعداء الطبقيين». وكان على أجداد أصدقاء لي أن يغادروا تشينغدو ويموتوا في المجاعة.

كان معظم الفلاحين يعيشون في عالم لا ينظرون فيه أبعد كثيراً من حدود القرية، وألقوا مسؤولية المجاعة على عاتق رؤسائهم المباشرين، لإعطائهم جميعاً أوامر كارثية. وكان هناك أغانٍ شعبية، تفيد أن قيادة الحزب جيدة، وأن المسؤولين القاعديين وحدهم العفنون.

هزّت «الطفرة الكبرى إلى الأمام» والمجاعة الفظيعة والديّ من الأعماق. ورغم

أنه لم تكن لديهما صورة كاملة، فإنهما لم يصدّقا أن «الكوارث الطبيعية» هي السبب. ولكن شعورهما الطاغي، كان شعوراً بالذنب. فهما إذ يعملان في مجال الدعاية، كانا في مركز آلة التضليل الإعلامي. وتطوّع أبي للمساعدة على الإغاثة من المجاعة في الكوميونات، ليريح ضميره، وليتجنّب الروتين اليومي غير النزيه. وكان هذا يعني البقاء ـ والجوع ـ مع الفلاحين. وبعمله هذا، كان «يشارك الجماهير أفراحها وأتراحها»، بحسب تعليمات ماو، ولكن كوادره نظروا إلى ذلك باستياء. إذ كان عليهم أن يتناوبوا على الذهاب معه، الشيء الذي كانوا يكرهونه، لأنه يعني أن يجوعوا.

من أواخر ١٩٥٩ إلى ١٩٦١، في أسوأ فترات المجاعة، نادراً ما كنتُ أرى أبي. في الريف، كان يأكل أوراق البطاطس الحلوة والأعشاب ولحاء الأشجار، كالفلاحين. وذات يوم، كان يمشي على ضفة نهر، بين حقول الرز، عندما رأى فلاحاً من جلد وعظم، يتحرّك ببطء شديد، وبصعوبة بيّنة، على مبعدة. ثم اختفى الرجل فجأة. حين هرع أبي إليه، كان ممدّداً في الحقل، ميتاً من الجوع.

كل يوم، كان أبي يُدمَّر بما يراه، رغم أنه لم يرَ الأسوأ، إلا ما ندر، لأن المسؤولين المحليين كانوا يحيطون به على الطريقة المعهودة، أينما ذهب. ولكنه كان يعاني تضخّم الكبد والاستسقاء الحادّين ـ والكآبة الشديدة. وفي مرات عديدة حين يعود من رحلاته، كان يتوجّه مباشرة إلى المستشفى. وفي صيف ١٩٦١، مكث هناك عدة أشهر. لقد تغيّر. ليس هو، اليوم، تطهُّري الأمس الواثق. فيما بعد، عندما اجتاحت البلاد نوبة سياسية أكثر جنوناً، تعرّض سلوكه في تلك الفترة للهجوم، بسبب «ضمور إرادته الثورية»، الذي كان في الحقيقة وصفاً دقيقاً.

أخذ أبي ينحو إلى قضاء كثير من الوقت في صيد الأسماك. كان يوجد مقابل المستشفى نهر بديع، اسمه «جدول اليَشْب»، تميل أشجار الصفصاف لتلامس سطحه بأغصانها المنحنية، وكانت الغيوم تذوب وتتصلّب في انعكاساتها الكثيرة. كنت أجلس على ضفّته المنحدرة أحدّق إلى الغيوم، وأراقب أبي في صيده. كانت الرائحة رائحة براز بشري. وفي أعلى الضفة ساحة المستشفى، التي كانت في السابق أحواضاً مزروعة بالزهور، ولكنها تحوّلت الآن إلى حقول خضرة لإمداد العاملين والمرضى بغذاء إضافي. حين أغمض عيني الآن، أستطيع أن أرى يرقات الفراشات تقضم أوراق الكرنب. كان إخوتي يصطادونها ليستعملها أبي طُعماً. كان مشهد الحقول

بائساً. فالأطباء والممرضات ليسوا خبراء في الزراعة.

على امتداد التاريخ، كان المفكّرون وكبار الموظفين في الصين، يلجأون تقليدياً إلى صيد الأسماك، لدى خيبتهم مما يفعله الأمبراطور. كان الصيد يوحي بالعودة إلى الطبيعة، بالهرب من سياسة اليوم. كان يرمز إلى حدٍّ ما إلى التذمّر ورفض التعاون.

نادراً ما كان أبي يصطاد أي سمكة. وذات مرة، نظم قصيدة يقول في أحد مقاطعها: «لا من أجل السمك أصيد السمك». ولكن رفيقه في صيد الأسماك، وهو نائب مدير آخر في قسمه، كان دائماً يعطيه شيئاً من صيده. ومرد ذلك أن أمي في عام ١٩٦١، في غمرة المجاعة، كانت مرة أخرى حاملاً، والصينيون يعتبرون السمك ضرورياً لنموّ شعر الطفل. لم تكن تريد طفلاً آخر. لأسباب عدّة، منها أنها كانت وأبي يعملان بمرتبات، الأمر الذي يعني أن الدولة لن تهيء مرضعات أو حاضنات. وبوجود أربعة أطفال، وجدتي، وقسم من عائلة أبي، لم يكن لديهما ما يفيض من المال. وكان جزء كبير من مرتب أبي يذهب لشراء الكتب، وخاصة مجلدات ضخمة من الأعمال الكلاسيكية، التي يمكن أن تكلف المجموعة الواحدة منها مرتب شهرين. كانت أمي، بعض الأحيان، تتذمّر قليلاً: آخرون بمركزه أطلقوا تلميحات في اتجاه دور النشر، وحصلوا على نسخهم مجاناً «لأغراض العمل». كان أبي يصرّ على أن يدفع مقابل كل شيء.

كان التعقيم والإجهاض، وحتى موانع الحمل أموراً صعبة. بدأ الشيوعيون يشجعون تخطيط الأسرة في عام ١٩٥٤، وكانت أمي مسؤولة عن البرنامج في منطقتها. كانت حينذاك في مرحلة متقدمة من الحمل بشياو ـ هي، وكانت في أحيان كثيرة تبدأ اجتماعاتها بنقد ذاتي طريف. ولكن ماو انقلب على تحديد النسل. كان يريد صيناً قوية، كبيرة تنهض على عدد كبير من السكان. وقال إذا ألقى الأميركيون قنابل ذرية على الصين، فإن الصينيين «سيواصلون التكاثر»، ويعيدون تشكيل أعدادهم بسرعة خاطفة. كما كان يشاطر الفلاحين موقفهم الصيني التقليدي من الأطفال: كلما ازداد عدد الأيدي، كان ذلك أفضل. وفي عام ١٩٥٧، وصف ماو شخصياً أستاذاً معروفاً في جامعة بكين، دعا إلى تحديد النسل، بأنه يميني. بعد ذلك، نادراً ما كان يرد ذكر لتخطيط العائلة.

حملت أمي في عام ١٩٥٩، وكتبت إلى الحزب تطلب السماح لها بالإجهاض.

كانت هذه هي الطريقة الإجرائية المعهودة. وأحد الأسباب التي تدعو إلى طلب موافقة الحزب، أن العملية كانت ذات خطر وقتذاك. قالت أمي إنها منهمكة في العمل من أجل الثورة، وإنها تستطيع أن تخدم الشعب على نحو أفضل، إذا لم يولد لها طفل آخر. سُمح لها بالإجهاض الذي كان مؤلماً جداً، لأن طريقته كانت بدائية. وعندما حملت من جديد في عام ١٩٦١، كان الإجهاض غير وارد في رأي الأطباء، ومن جانب أمي نفسها، والحزب الذي كان يشترط فترة لا تقل عن ثلاث سنوات بين إجهاضين.

كانت خادمتنا أيضاً حاملاً. تزوّجت خادم أبي السابق، الذي يعمل الآن في أحد المصانع. وكانت جدتي تطهو للاثنتين البيض وفول الصويا، اللذين يمكن الحصول عليهما بقسائم والديَّ، فضلاً عن الأسماك التي يصطادها أبي وزميله.

ولدت خادمتنا صبياً في نهاية ١٩٦١، وغادرت لبناء عشّها مع زوجها. حين كانت لا تزال معنا، كانت تذهب إلى المطاعم لإحضار طعامنا. وذات يوم، شاهدها أبي تمشي في ممر حديقة، وهي تحشو بعض اللحم في فمها وتلوك بنهم. استدار ومشى مبتعداً، كيلا تراه فتكون مُحرَجَة. لم يخبر أبي أحداً إلا بعد سنوات، عندما كان يستعيد كيف اختلف مآل الأشياء عن أحلام شبابه، التي كان الحلم الرئيسي بينها القضاء على الجوع.

عندما رحلت الخادمة، لم يكن في مقدور عائلتي تشغيل أخرى، بسبب الوضع الغذائي. ولم يكن يحق لمن كنّ يردن العمل ـ نساء من الريف ـ نيل حصة من الغذاء. لذا كان على جدتي وعمتي العناية بنا.

ولد أخي الأصغر شياو ـ فانغ في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٦٢. كان الوحيد بيننا الذي أرضعته أمي من ثديها. قبل أن يولد، كانت أمي تريد التخلي عنه، لكنها بعد وصوله، أصبحت شديدة التعلق به، وأصبح الطفل الأثير لديها. كنا جميعاً نلعب معه كأنه صبي كبير. ترعرع محاطاً بجموع المحبين، الأمر الذي يفسر، في اعتقاد أمي، استرخاءه وثقته. كان أبي يقضي كثيراً من الوقت معه، الشيء الذي لم يفعله قطّ مع أطفاله الآخرين. وحين كان شياو ـ فانغ كبيراً بما فيه الكفاية للهو باللُّعَب، كان أبي يحمله كل سبت إلى المخزن الكائن في أعلى الشارع، ويشتري له لعبة جديدة. وفي

اللحظة التي يبدأ فيها شياو ـ فانغ بالبكاء، لأي سبب، كان أبي يلقي ما بيديه ويهرع إليه ليهدهده.

في بداية عام ١٩٦١، أقنع عشرات ملايين الموتى ماو أخيراً، بأن سياساته الاقتصادية لا تعمل بنجاح. وعلى مضض، سمح للرئيس البراغماتي ليو ولدينغ شياوبنغ، السكرتير العام للحزب، بقدر أكبر من السيطرة على البلاد. وأجبر ماو على ممارسة النقد الذاتي، ولكن نقده كله كان مليئاً بالتأسّي، وكان دائماً يصوغه بحيث يبدو كأنه يحمل الخشبة، تكفيراً عن ذنوب مسؤولين غير أكفاء في عموم الصين. وبرحابة صدر، أوعز للحزب أن «يستخلص الدروس» من التجربة الكارثة. أما «ماذا كانت الدروس» فتُرك لتقدير المسؤولين الصغار: قال لهم ماو إنهم أصبحوا معزولين عن الشعب، وإنهم يتخذون قرارات لا تعكس مشاعر الناس البسطاء. وبدءاً بماو، كانت الانتقادات الذاتية اللامتناهية، تغطي على المسؤولية الحقيقية التي لم يلاحقها أحد.

مع ذلك، بدأت الأمور تتحسّن. مرّر البراغماتيون سلسلة من الإصلاحات الكبيرة. وفي هذا السياق، أبدى دينغ شياوبنغ ملاحظته: «لا يهم إذا كانت القطة بيضاء أو سوداء، ما دامت تقتنص الفئران». وتقرّر أن لا يكون، بعد الآن، إنتاج جماهيري للفولاذ. ووُضِع حد للأهداف الاقتصادية المجنونة. وطُبّقت سياسات واقعية. أُلغيت المطاعم العامة، ورُبط دخل الفلاحين بعملهم. وأُعيدت إليهم ممتلكاتهم المنزلية، التي صادرتها الكوميونات، بما في ذلك الأدوات الزراعية والحيوانات البيتية. كما سمح لهم بقطع صغيرة من الأرض يزرعونها لحسابهم. وفي بعض المناطق، أُجِّرت الأرض عملياً لعوائل فلاحية. وفي الصناعة والتجارة، أُقرّت رسمياً عناصر من اقتصاد السوق. وفي غضون عامين، عاد الاقتصاد إلى الازدهار.

وجنباً إلى جنب مع ازدهار الاقتصاد، كان هناك انفتاح سياسي أيضاً. رُفعت وصمة «العدو الطبقي» عن الكثير من الملاك. و «رُدَّ اعتبار» عدد كبير من الذين تعرّضوا للتطهير في الحملات السياسية المختلفة. وكان بين هؤلاء «معادون للثورة» من عام ١٩٥٥، و «يمينيون» من عام ١٩٥٧، و «انتهازيون يمينيون» من عام ١٩٥٩. ولأن أمي تلقت تحذيراً بسبب «ميولها اليمينية» في عام ١٩٥٩، فقد رُفِّعت، في عام ١٩٦٢، من الدرجة ١٧ إلى الدرجة ١٦ في مرتبتها بالخدمة المدنية، تعويضاً لها.

وكانت هناك حرية أدبية وفنية أوسع. وسادت أجواء عامة أكثر انفراجاً. وفي نظر أبي وأمي، شأن الكثيرين غيرهم، بدا أن النظام يستطيع تصويب أخطائه والتعلّم منها، وأنه قادر على العمل ـ وأعاد هذا ثقتهما به.

فيما كان هذا كله يجري، كنتُ أعيش في شرنقة وراء الأسوار العالية للمجمع الحكومي. لم تكن لي صلة مباشرة بالمأساة. ومع هذه «الأصوات البعيدة»، دخلتُ مراهقتي.

١٣ ـ «العزيزة الصغيرة الذهبية» ـ في شرنقة ممتازة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٥)

حين أخذتني أمي للتسجيل في المدرسة الابتدائية عام ١٩٥٨، كنت أرتدي سترة قيطانية وردية جديدة، وسروال فلانيل أخضر، مع شريط وردي ضخم في شعري. توجّهنا مباشرة إلى مكتب المديرة، التي كانت تنتظرنا مع المشرفة الأكاديمية وإحدى المعلّمات. كنّ كلهن يبتسمن، وكنّ يخاطبن أمي باحترام بوصفها «المديرة شيا»، وعاملنها معاملة الشخصية الهامة جداً. فيما بعد، علمتُ أن المدرسة تابعة للقسم الذي تعمل فيه أمي.

أُجريت معي هذه المقابلة الخاصة، لأني كنت في السادسة. وعادة، لا يقبل الأطفال إلا من السابعة، وكان هناك نقص في المدارس. ولكن حتى أبي لم يعترض على خرق القواعد هذه المرة، لأنه وأمي على السواء، كانا يريدان أن أبدأ المدرسة في سنّ مبكرة. وأقنعت قراءتي أشعاراً كلاسيكية بطلاقة وخطي الأنيق، المدرسة بأنني متقدمة بما فيه الكفاية. وبعد أن أقنعتُ المديرة وزملاءها في امتحان القبول المتعارف عليه قُبلت كحالة خاصة. وكان افتخار والديَّ بي عظيماً، خاصة أن هذه المدرسة رفضت أطفال العديد من زملائهما.

كان الجميع يريدون إدخال أطفالهم إلى هذه المدرسة، لأنها كانت الأحسن في تشينغدو، والمدرسة «الأساسية» الأولى في كل الإقليم. كان دخول المدارس والجامعات الأساسية بالغ الصعوبة. فالقبول كان على أساس المؤهلات وحدها، ولم يكن أطفال عوائل المسؤولين يُمنحون أولوية.

كلما كنتُ أُقدَّم إلى معلمة جديدة، أقدم لها دائماً بوصفي «ابنة المدير تشانغ والمديرة شيا». وفي أحيان كثيرة، كانت أمي تأتي إلى المدرسة على دراجتها الهوائية، في إطار عملها لتفقّد إدارة المدرسة. وذات يوم، انقلب الجو بارداً بصورة مفاجئة فحملت لي سترة قيطانية خضراء دافئة، بأزهار مطرّزة في مقدمتها. جاءت المديرة نفسها إلى الصف لتعطيني إياها، وكنت مُحرَجة بشدّة أمام زملاء صفي، الذين كانوا يحدّقون إليّ. كنتُ، شأن أغلبية الأطفال، لا أريد إلا أن أكون مثل الباقين وأن أُقبل جزءاً من مجموعة أترابي.

كانت تُجرى لنا اختبارات كل أسبوع، وتعلّق النتائج على لوحة الإعلانات. وكنتُ دائماً الأولى في الصف، الأمر الذي كان يثير إلى حدٍّ ما سخط مَنْ يأتون بعدي. كانوا أحياناً يصبُّون مرارتهم عليّ، بتسميتي «العزيزة الصغيرة الذهبية» (تشيانغ ـ جن شياو ـ جي)، وبتدبير مقالب مثل وضع ضفدعة في دُرج منضدتي، وربط أطراف جدائلي بمؤخرة الكرسي الذي أجلس عليه. كانوا يقولون إنني لا أملك «روحاً جماعية» وإنني أنظر إلى الآخرين باحتقار. ولكني كنت أعرف أنني ببساطة أُحبّ أن أختلي بنفسي.

كان المنهج الدراسي شبيهاً بالمنهج في مدرسة غربية باستثناء الفترة التي تعين علينا خلالها إنتاج الفولاذ. لم يكن هناك تثقيف سياسي، ولكن كان علينا أن نمارس الكثير من الرياضة: الركض والقفز العالي والقفز العريض، فضلاً عن ألعاب الجمباز والسباحة الإلزامية. كانت لكل منّا رياضة بعد المدرسة: تمّ اختياري للعبة التنس. في البداية، كان أبي ضدّ تحوّلي إلى رياضية، الغرض المنشود من التدريب، ولكن مدربة التنس، التي كانت شابة حلوة جداً، جاءت لرؤيتي مرتدية سروالها الرياضي القصير. وكان أبي مسؤولاً، بين مهماته الأخرى، عن الرياضة في الإقليم. رمته المدربة بأكثر ابتساماتها سحراً، وقالت له بما أن التنس، وهو أرقى الألعاب الرياضية، لم يكن يمارس كثيراً في الصين حينذاك، سيكون شيئاً جيداً أن تصبح ابنته قدوة ـ «للأمة» على حدّ تعبيرها. فلم يكن أمام أبي سوى الاستسلام.

كنت أحب معلّميّ الذين كانوا معلمين رائعين، ولديهم موهبة في جعل مواضيعهم آسرة ومثيرة. أذكر معلم العلوم، السيد دا ـ لي، الذي علّمنا النظرية الكامنة وراء وضع قمر صناعي في المدار (كان الروس قد أطلقوا لتوهم سبوتنيك

الأول) وإمكان ارتياد الكواكب الأخرى. حتى أكثر الأولاد مشاكسة، كانوا يتسمرون في مقاعدهم خلال دروسه. سمعتُ بعض التلاميذ يقولون إنه كان يمينياً، ولكن لم يكن أحد يعرف ما يعني ذلك، ولم نأبه بأي حال.

قالت لي أمي، بعد سنوات، أن السيد دا ـ لي كان يكتب روايات الخيال العلمي للأطفال. وُسِمَ يمينياً في عام ١٩٥٧، لأنه كتب مقالة حول الفئران التي تسرق الغذاء وتسمّن نفسها، الشيء الذي زُعم أنه هجوم مبطن على المسؤولين الحزبيين. فمُنِع من الكتابة، وكان على وشك أن يُرسل إلى الريف، حين تمكّنت أمي من تدبير إعادة تعيينه في مدرستي. كان قلّة من المسؤولين يتحلّون بما يكفي من الشجاعة لإعادة توظيف يميني.

كانت لدى أمي هذه الشجاعة، ولهذا السبب بالذات كانت مسؤولة عن مدرستي. فالمدرسة، بحسب موقعها، كان ينبغي أن تتبع للمنطقة الغربية من تشينغدو. ولكن سلطات المدينة أحالتها إلى منطقة أمي في الشرق، لأن السلطات كانت تريد خيرة المعلمين، حتى وإن كانوا من أصول «غير مرغوب فيها»، وما كان مدير قسم الشؤون العامة للمنطقة الغربية ليجرؤ على توظيف مثل هؤلاء الأشخاص. كانت المشرفة الأكاديمية في مدرستي زوجة ضابط سابق في الكومنتانغ، يخدم في أحد معسكرات العمل. ولم يكن في العادة، في مقدور أشخاص عندهم هذه الخلفية أن يشغلوا وظيفة كهذه، ولكن أمي رفضت نقلهم، بل منحتهم درجات فخرية. وافق رؤساؤها، ولكنهم أرادوا منها أن تتحمّل مسؤولية هذا السلوك اللاقويم. فلم تمانع. وبالحماية الإضافية الضمنية، المترتبة على مركز أبي، كانت تشعر بالأمان أكثر من زملائها.

في عام ١٩٦٢، دعي أبي لإرسال أطفاله إلى مدرسة جديدة، فتحت لتوها بجوار المجمّع الذي نعيش فيه. كان اسم المدرسة «شجرة الدُلْب»، على اسم الأشجار التي تغطي الطريق في أرض المجمع. كانت المنطقة الغربية قد افتتحت المدرسة بغرض صريح، هو جعلها مدرسة «أساسية» ضمن صلاحيات هذه المنطقة. ونقل معلّمون أكفاء إلى مدرسة «شجرة الدُلْب» من مدارس أخرى. وما لبثت المدرسة أن اكتسبت سمعة، بوصفها «المدرسة الأرستقراطية» لأطفال الشخصيات الهامة جداً في الحكومة الإقليمية.

قبل فتح مدرسة «شجرة الدُلْب»، كانت هناك مدرسة داخلية واحدة في تشينغدو

لأطفال ضباط الجيش الكبار. كما كانت قلة من كبار المسؤولين المدنيين يرسلون أطفالهم إليها. كان مستواها الأكاديمي متدنياً، ونالت صيتاً بتعاليها، لأن الأطفال يتبارون فيما بينهم في التباهي بآبائهم. وكانوا في أحيان كثيرة يُسْمَعون وهم يقولون أشياء من قبيل: «إن أبي قائد فرقة. وما أبوك إلا عميد!». وفي نهاية الأسبوع، كانت تصطفّ خارج المدرسة طوابير طويلة من السيارات مع مربيات وحراس وسائقين، ينتظرون لأخذ الأطفال إلى بيوتهم. ورأى كثيرون أن هذا الجوّ يسمّم الأطفال، ونظر والداي دائماً باشمئزاز مطلق إلى هذه المدرسة.

لم تُفتح مدرسة «شجرة الدُّلْب» بوصفها مدرسة خاصة، وبعد مقابلة المدير وبعض المعلمين، شعر والداي أنها ملتزمة بالمعايير الأخلاقية العالية والانضباط. لم يكن هناك إلا حوالي ٢٥ تلميذاً في كل صف. وحتى في مدرستي السابقة، كان هناك ٥٠ تلميذاً في صفي. وبالطبع، كانت ميزات مدرسة «شجرة الدُّلْب» مخصصة في جزء منها لمصلحة كبار المسؤولين، الذين يعيشون في الجوار، ولكن أبي الذي خفّف تزمّته حديثاً، تجاهل هذه الحقيقة.

كان معظم زملائي في الصف أطفال مسؤولين في الحكومة الإقليمية. وبعضهم يعيشون في المجمّع معي. وباستثناء المدرسة، كان في المجمّع حدائق مترعة بالزهور والنباتات المترفة. بالإضافة إلى أشجار النخيل وأشجار السيزال والدفلى والمغنولْية والكاميلية والورود والخبازى. كان هناك شجرتان من أشجار الحور الصيني الرجراج، نمتا متقاربتين وتشابكت أذرعهما كالعشاق. كانتا حساستين جداً كذلك. فإذا خَمَشْنا أحد الجذعين، ترتجفان، ولو بخفر، وتبدأ أوراقهما بالارتعاش. وخلال ساعات الغداء في الصيف، كنت أجلس على كرسي حجري، له شكل طبل، تحت عريشة من الوستارية، وأسند مرفقيّ إلى منضدة حجرية، أقرأ كتاباً أو ألعب الشطرنج. وحولي كانت الألوان البرّاقة لأرض الساحة، وعلى مسافة ليست بعيدة، شجرة جوز الهند نادرة، تطعن بشموخ وجه السماء. ولكن الشجرة المفضلة عندي كانت ياسمينة عبقة، تتسلّق أيضاً عريشة كبيرة. وعندما تتفتّح أزهارها، تتضمّخ غرفتي بشذاها. كنت أعشق الجلوس عند الشباك محدّقة إليها نشوى بالعبير اللذيذ.

حين انتقلنا، في البداية، إلى المجمّع، عشنا في بيت منفصل بديع ذي طابق واحد قائم في فنائه الخاص. كان مبنياً وفق الطراز الصيني التقليدي، بلا مرافق

حديثة: بلا ماء جارٍ في الداخل، ولا مرحاض مع سيفون، ولا حمام من الخزف. في عام ١٩٦٢، شُيّد بعض الشقق الحديثة وفق النمط الغربي بكل هذه الخدمات، في ركن من أركان المجمّع، وخصّصت شقة منها لعائلتي. وقبل أن ننتقل، زرتُ بلاد العجائب هذه، وتفحصت كل الحنفيات الجديدة والسحرية والمراحيض والخزانات ذات المرايا في الحيطان. مرّرت يدي على البلاط الأبيض اللمّاع على جدران الحمامات. كان بارداً ولطيف الملمس.

كان هناك ثلاث عشرة عمارة سكنية في المجمّع، أربع عمارات لمديري الأقسام والبقية لرؤساء المكاتب. كانت شقتنا تحتلّ طابقاً كاملاً، في حين اشترك كل اثنين من رؤساء المكاتب في طابق. كانت غرفنا أرحب. مخصصة بستائر ضد البعوض على النوافذ الداخلية، لم تكن موجودة في شقق رؤساء المكاتب، وكان لدينا حمامان، فيما كان لديهم حمام واحد فقط. كان لدينا ماء ساخن، ثلاثة أيام في الأسبوع، في حين لم يكن لديهم أي ماء ساخن. كان لدينا تلفون، الشيء الذي كان نادراً للغاية في الصين، وهم لم يكن لديهم تلفون. كان المسؤولون الأقل مستوى، يشغلون عمارات في مجمّع أصغر، على الجانب الآخر من الشارع، وكانت الخدمات متدنية. كان لدى نصف الدزينة من سكرتاري الحزب، الذين يشكّلون نواة القيادة الإقليمية، مجمّعهم الداخلي الخاص بهم، في إطار مجمعنا. وكان هذا الحرم يقع وراء بوابتين محروستين، على مدار الساعة، بحراس عسكريين مسلحين، ولم يكن مسموحاً بعبورهما إلا لمن لديهم تخويل خاص. وراء هاتين البوابتين، توجد بيوت مستقلة ذات طابقين، بيت لكل سكرتير حزبي. وعلى عتبة بيت السكرتير الأول لي جنغ - تشوان، كان يقف حارس مسلح آخر. لقد نشأتُ معتبرة التراتبية والامتياز من المسلمات.

كان على جميع الكبار، الذين يعملون في المجمع الرئيسي، أن يُبرزوا بطاقات مرورهم، حين يدخلون عبر البوابة الرئيسية. نحن الأطفال لم تكن لدينا بطاقات مرور، ولكن الحراس كانوا يتعرّفون بنا. كانت الأمور تتعقّد إذا جاءنا زوّار، إذ كان عليهم أن يملأوا استمارات، ثم ترن غرفة البواب جرس شقتنا، فيكون على أحد ما أن يمشي الطريق كله إلى البوابة الشرقية لاستلامهم. لم يكن العاملون يرحبون بالأطفال الآخرين، وكانوا يقولون إنهم لا يريدون أن تُخرَّب ساحات المجمع. كان

هذا يمنعنا من اصطحاب أصدقاء إلى البيت، وخلال سنواتي الأربع كلها في المدرسة الأساسية الأرقى، لم أدعُ صديقاتي إلى البيت، إلا مرات قليلة.

نادراً ما كنتُ أذهب خارج المجمع، إلا للتوجّه إلى المدرسة. ذهبت مرات قليلة إلى مخزن كبير مع جدتي، ولكنني لم أشعر قطّ بالحاجة إلى شراء أي شيء. كان التسوّق مفهوماً غريباً عليَّ، وكان والداي لا يعطيانني مصروف جيب، إلا في مناسبات خاصة. كان مطعمنا أشبه بالمطعم الحقيقي، ويقدم طعاماً ممتازاً. وباستثناء فترة المجاعة، كان هناك دائماً سبعة أو ثمانية أطباق على الأقل، يمكن الاختيار منها. كان الطهاة مختارين بعناية، وهم إما من «الدرجة الأولى»، أو من «درجة خاصة». كان كبار الطهاة يُمنحون درجات، كالمعلمين. وفي البيت، كان هناك دائماً حلويات وفاكهة. لم يكن هناك شيء أريد أكله سوى البوظة. ذات مرة، في «يوم الطفل» في ١ حزيران/يونيو، حين أُعطيتُ مصروف جيب، أكلت ٢٦ قطعة مرة واحدة.

كانت الحياة في المجمع مكتفية ذاتياً. للمجمع متاجره وحلاّقوه وسينماته ومراقصه، فضلاً عن سبّاكيه ومهندسيه. كان الرقص واسع الشعبية. وفي عطلة نهاية الأسبوع، تُقام حفلات رقص مختلفة، للمستويات المختلفة من العاملين في الحكومة الإقليمية. الحفلة التي تقام في مرقص العسكريين الأميركيين سابقاً، كانت للعوائل من مستوى رئيس مكتب فما فوق. تصحبها دائماً أوركسترا وفنانون وفنانات من فرقة الغناء والرقص الإقليمية، لجعلها حفلة أكثر رونقاً وبهاء. وكان بعض الفنانات يأتين إلى شقتنا، لتجاذب أطراف الحديث مع والديَّ، ثم كنّ يأخذنني في جولة حول المجمع. كنت فخورة جداً بأن أُرى في صحبتهن، لأن الفنانين والفنانات كانوا ينعمون ببريق خلاّب في الصين. يتمتعون بتسامح خاص. وكان يجوز لهم ارتداء ملابس أكثر أناقة من الآخرين، وحتى إقامة علاقات غرامية. ولأن الفرقة تقع تحت إشراف أبي، فقد كان هو مسؤولها. ولكنهم لم يكونوا يتملّقونه كما يتملّقه الآخرون. كانوا يداعبونه ويسمّونه «الراقص الأول»، وأبي يكتفي بالابتسام، ويبدو عليه الخجل. كان الرقص نوعاً من رقص القاعات غير المتكلّف، وكان الأزواج ينسابون على الأرض المصقولة بعناية، في شيء من الوقار. كان أبي راقصاً جيداً بحق، ومن الواضح أنه يجد متعة في الرقص. أمي لم تكن تتقنه ـ لم تتمكن من ضبط الإيقاع، فلم تكن تحب ذلك. خلال فترات الاستراحة، كان يُسمح للأطفال بالنزول إلى حلبة

الرقص، وكنّا نجرّ بعضنا بعضاً من الأيدي، ونمارس نوعاً من التزحلق على الأرض. كانت الأجواء والحرارة والعطر، والسيدات ببدلاتهن الفتانة، والسادة الطافحون بشراً، يشكّلون عالماً سحرياً حالماً بالنسبة إليّ.

كانت هناك أفلام تعرض مساء كل سبت. وفي عام ١٩٦٢، مع انفراج الأجواء، راحت تصل بعض الأفلام من هونغ كونغ، جلها قصص غرامية. وهي تعطي لمحة عن العالم الخارجي، وكانت شعبية جداً. إضافة إلى عروض أفلام ثورية حماسية. كانت العروض تقدم في مكانين مختلفين، حسب المركز. العرض المخصّص للنخبة، يقدم في قاعة فسيحة بمقاعد مريحة كبيرة. والعرض الآخر، يقدم في قاعة كبيرة في مجمع آخر، وتغصّ بالمشاهدين. ذهبت إلى هناك مرة، لأنها كانت تعرض فيلماً أردتُ مشاهدته. كانت المقاعد كلها مشغولة، قبل فترة طويلة من بدء العرض. وكان على مَنْ يأتون متأخّرين، أن يجلبوا معهم مقاعدهم. كانوا يتفرّجون واقفين. وإذا حُشر المرء في المؤخرة، فعليه أن يقف على كرسي لكي يرى أي شيء. لم تكن لدي فكرة أن الأمر سيكون على هذا النحو، ولم أجلب معي كرسياً. كنت محصورة في زحمة المؤخرة، غير قادرة على رؤية شيء. لمحتُ طاهياً أعرفه، يقف على مقعد قصير، يتّسع لشخصين. حين رآني أشق طريقي بصعوبة، طلب مني الوقوف معه. كان المقعد ضيّقاً جداً، وشعرت بعدم التوازن. لم يتوقف الناس عن المرور متدافعين، وسرعان ما أوقعني أحدهم. سقطتُ بقوة، وجرحت حاجبي على حافة المقعد. ولا تزال الندبة ظاهرة حتى اليوم.

في قاعتنا النخبوية، كانت هناك أفلام خاصة جداً، لم تكن تعرض لأي أحد آخر، ولا حتى للعاملين في الصالة الكبيرة. كانت تسمى «أفلاماً مرجعية»، وهي في الغالب مصنوعة من لقطات مقتطعة من أفلام قادمة من الغرب. كانت تلك أول مرة أرى فيها تنورة قصيرة (ميني) ـ أو فرقة البيتلز. أذكر فيلماً ظهر فيه شخص على شاطىء البحر، يختلس النظر إلى النساء، فقمن بإفراغ دلو من الماء عليه. وعَرَض مقتطف آخر من فيلم وثائقي، رسامين تجريديين يستخدمان شمبانزي لتلطيخ لوحة من الورق بالحبر، ورجلاً يعزف البيانو بعجيزته.

أحسب أن هذه اللقطات قد اختيرت لتبيّن مدى انحطاط الغرب. وهي لم تكن إلا

لكبار المسؤولين الحزبيين، وحتى هؤلاء كانوا محرومين من معظم المعلومات عن الغرب. أحياناً، كان يعرض فيلم من الغرب في غرفة عرض صغيرة، حيث لا يسمح بدخول الأطفال. كنت في غاية الفضول، وتوسّلت إلى والديَّ أن يأخذاني. وافقا مرتين. كان أبي قد أصبح حينذاك ليناً تماماً معنا. كان هناك حارس على الباب، ولكنه لم يعترض لأني كنت مع والديَّ. كانت الفلمان عصيين تماماً على فهمي. كان أحدهما عن طيار أميركي أصيب بالجنون، بعد إلقاء قنبلة ذرية على اليابان. وكان الآخر فيلماً روائياً بالأسود والأبيض. وفي أحد المشاهد، انهال اثنان من الأشرار لكماً على قائد نقابي في سيارة: كان الدم يسيل من زاوية فمه. كنت مرعوبة تماماً. فهذه كانت أول مرة في حياتي، أشاهد فيها عملاً من أعمال العنف، تُسفك فيه دماء (ألغى الشيوعيون القصاص الجسدي في المدارس). كانت الأفلام الصينية في تلك الأيام رقيقة وعاطفية، وتستنهض الهمم. وإذا كان هناك ما يوحي بالعنف، فإنه يُنمَّط تمثيلياً، كما في الأوبرا الصينية.

كنتُ مذهولة بطريقة العمال الغربيين في الملبس ـ بدلات أنيقة، وهو تناقض صارخ مع فكرتي حول ما ينبغي أن تلبسه الجماهير المضطَّهَدَة في بلد رأسمالي. بعد انتهاء العرض سألتُ أمي عن ذلك، فقالت شيئاً حول «مستويات المعيشة النسبية»، ولم أفهم ما كانت تعنيه، وبقي السؤال معي.

كطفلة، كانت فكرتي عن الغرب أنه مستنقع من الفقر والبؤس، على غرار «فتاة الثقاب الصغيرة» المشرّدة، في حكاية هانز كريستيان أندرسن. وحين كنت أرفض في دار الحضانة الداخلية أن أنهي طعامي، كانت المعلمة تقول: «فكرّي في الأطفال الجياع في العالم الرأسمالي». وفي المدرسة، كان المعلمون يقولون، عندما يحاولون دفعنا إلى العمل بمثابرة أكبر: «إنكم محظوظون أن لديكم مدرسة تتعلمون فيها، وكتباً تقرأونها. ففي البلدان الرأسمالية، يتعيّن على الأطفال أن يعملوا من أجل إعالة أسرهم الجائعة». وفي أحيان كثيرة، عندما كان الكبار يريدون أن نقبل شيئاً، كانوا يقولون إن الناس في الغرب يريدونه، ولكنهم لا يستطيعون الحصول عليه، فينبغي أن نقدّر حسن حظنا. أصبحتُ أفكّر بهذه الطريقة تلقائياً. حين كنت أرى فتاة في صفي، ترتدي معطفاً مطرياً شفافاً وردياً من نوع لم أره قط، كنت أتخيل كم سيكون لطيفاً، أن أستبدل واحداً من هذه المعاطف بمظلتي القديمة المبتذلة، المصنوعة من الورق

المشمّع! ولكني كنتُ أوبّخ نفسي في الحال على هذه النزعة «البورجوازية»، وأكتب في مفكرتي: «فكّري بكل الأطفال في العالم الرأسمالي ـ إنهم لا يستطيعون حتى التفكير في امتلاك مظلة».

كان الأجانب، في ذهني، مخيفين. فكل الصينيين لهم شعر أسود وعيون بنية. كانوا يعتبرون الشعر والعيون ذات الألوان المختلفة أمراً غريباً. كانت صورة الأجنبي لدي، أنه رجل ذو شعر أشعث أحمر وعينين غريبتي اللون، وأنف طويل، يترنّح مخموراً، يصبّ الكوكاكولا في فمه من القنينة، وساقاه ممددتان بأشد الطرائق جلافةً. والأجانب يقولون «هالو» بتنغيم غريب. لم أكن أعرف ما تعنيه كلمة «هالو». كنت أعتقد أنها كلمة بذيئة. وحين يلعب الأولاد لعبة «حرب العصابات»، التي كانت نسختهم من لعبة رعاة البقر والهنود الحمر، كان الأعداء ذوي أنوف أُلصقت عليها أشواك، ويقولون «هالو» طول الوقت.

خلال سنتي الثالثة في المدرسة الابتدائية، حين كنت في التاسعة من العمر، قرّرنا، أنا وزملائي في الصف، أن نزيِّن صفنا بالنباتات. واقترحت إحدى الفتيات أنها تستطيع الحصول على نباتات غريبة، من حديقة يعتني بها أبوها في كنيسة كاثوليكية، تقع في «شارع الجسر الأمين». وكان هناك، في السابق، دار أيتام ملحقة بالكنيسة، ولكنها أُغلقت. كانت الكنيسة لا تزال تعمل تحت رقابة الحكومة، التي أجبرت الكاثوليك على القطيعة مع الفاتيكان، على الانضمام إلى منظمة «وطنية». كانت فكرة وجود كنيسة غامضة ومخيفة، بسبب الدعاية حول الدين. وأوّل مرة سمعتُ فيها بعملية اغتصاب، كانت من خلال القراءة عنه منسوباً إلى راهب أجنبي، في إحدى الروايات. كما كان الرهبان يبدون، على الدوام، جواسيس إمبرياليين وأشراراً، يستخدمون أطفالاً من دور الأيتام، لإجراء تجارب طبية عليهم.

كل يوم، في طريقي إلى المدرسة وأوبتي منها، كنت أمر بأعلى «شارع الجسر الأمين»، الذي تحفّ به الأشجار، وأرى معالم بوابة الكنيسة. بدت لعينيَّ الصينيتين، أن لها أغرب الأعمدة منظراً: كانت مصنوعة من المرمر الأبيض، ومخدَّدة على الطراز الإغريقي، في حين أن الأعمدة الصينية، تُصنع دائماً من الخشب الملوّن. كنت أتحرّق شوقاً إلى النظر في الداخل، وطلبتُ من الفتاة، التي يرعى أبوها حديقة الكنيسة، أن تسمح لي بزيارة بيتها، ولكنها قالت إنّ أباها لا يريدها أن تأتي بأي

زوّار. مما أدّى إلى ازدياد اللغز غموضاً. وعندما عرضت الفتاة أن تجمع بعض النباتات من حديقتها، تطوعتُ باندفاع للذهاب معها.

عند اقترابنا من بوابة الكنيسة، توترت أعصابي، وكاد قلبي يتوقف. بدت لي أكثر البوابات مهابة. وقفتْ صديقتي على أطراف أصابعها، ومدّت يدها لدقّ حلقة معدنية على البوابة. انفتح باب صغير في البوابة بصرير، كاشفاً عن شيخ متجعد الوجه، مقوّس الظهر في انحناءة مزدوجة تقريباً. بدا لي كأنه ساحرة في أحد الرسوم، في حكاية عن الجنّ. ورغم أني لم أتمكّن من رؤية وجهه بوضوح، فقد تخيّلت أن لديه أنفاً معقوفاً طويلاً، وقبّعة مدبّبة، وعلى وشك التحليق في السماء على مكنسة. لم يكن يعنيني أنه من جنس يختلف عن جنس الساحرة. وأسرعتُ، عبر الباب، متجنبة النظر إليه. وأمامي مباشرة، امتدت حديقة في فناء صغير أنيق. كنت متوتّرة، حتى إني لم أتمكن من رؤية ما فيها. لم تتمكّن عيناي إلا من تسجيل فيض من الألوان والأشكال، ونافورة صغيرة تخر وسط جنينة حجرية. أخذت صديقتي يدي، وقادتني عبر الرواق المقنطر حول الفناء. وعلى الجانب البعيد، فتحتْ باباً، وقالت لي هنا يقدم القس مواعظه. مواعظ! مرّت علي هذه الكلمة في كتاب، استخدم فيه القس «موعظته» لنقل أسرار الدولة إلى جاسوس إمبريالي آخر. وازداد توتري حين اجتزتُ العتبة إلى غرفة مظلمة كبيرة، بدا أنها قاعة. لم أتمكّن، لبرهة، من رؤية شيء. ثم رأيت تمثالاً في نهاية القاعة. كان هذا أول لقاء لي بمسيح مصلوب. وإذ اقتربت أكثر، بدا الشكل المحمول على الصليب يحوم حولي، هائلاً وساحقاً. الدم، والهيئة وملامح الوجه، تضافرت لتوليد إحساس مخيف تماماً. استدرتُ واندفعتُ خارجة من الكنيسة. وفي الخارج، كدت أرتطم برجل في رداء أسود. مدّ يده لتثبيتي. ظننتُ أنه يحاول خطفي، فلطأتُ وعدوتُ مبتعدة. وفي مكان ما ورائي، صرَّ باب ثقيل. اللحظة التالية كانت أيضاً مخيفة، باستثناء خرير النافورة. فتحتُ الباب الصغير في البوابة الأمامية، وركضتُ طول الطريق إلى نهاية الشارع، دون توقف. كان قلبي يخفق بشدة، ورأسي يدور.

بخلافي أنا، كان شقيقي جن ـ منغ، الذي ولد بعد عام على مولدي، مستقل التفكير من الصغر. كان يحب العلم، ويقرأ الكثير من المجلات العلمية الشعبية. ورغم أن هذه، شأن كل المطبوعات الأخرى، كانت تنشر الدعاية المحتومة، فإنها

كانت تنقل منجزات العلم والتكنولوجيا في الغرب، وقد تركت أثراً بالغاً في نفس جن ـ منغ. كان يُفتَن، بصور الليزر وحوامات الهوفركرافت والمروحيات والإلكترونيات والسيارات، فضلاً عن اللمحات التي كان يلتقطها عن الغرب في «الأفلام المرجعية». بدأ يشعر أن المدرسة ووسائل الإعلام والكبار عموماً، لا يمكن الوثوق بهم حين يقولون إن العالم الرأسمالي جحيم، والصين جنة.

استحوزت الولايات المتحدة، بصفة خاصة، على خيال جن ـ منغ، بوصفها بلد التكنولوجيا الأكثر تطوّراً. ذات يوم، وكنا إلى مائدة العشاء، وكان في الحادية عشرة، انبرى يصف بإعجاب التطوّرات الجديدة بأشعّة الليزر في أميركا، وقال لأبي إنه يعشق أميركا. كان أبي حائراً كيف يرد، وبدا شديد القلق. في النهاية ربَّت رأس جن ـ منغ، وقال لأمي: «ما العمل؟ هذا الطفل سوف يصبح يمينياً!».

قبل أن يبلغ جن ـ منغ الثانية عشرة، ابتكر عدداً من «الاختراعات» التي ترتكز على رسوم إيضاحية في كتب الأطفال العلمية، ومنها مجهر، استخدم في صنعه زجاجة مصباح، وتلسكوب، حاول أن يراقب به المذنب هالي. وذات يوم، حاول تحسين «مسدس» تكراري، ذي شريط مطاطي، يطلق الأحجار الصغيرة وجوز الطقسوس. ولخلق المؤثر الصوتي المطلوب، طلب من زميل له في الصف، كان أبوه ضابطاً عسكرياً، أن يجد له بعض ظروف الخرطوش الفارغة. عثر صديقه على بعض الطلقات، ونزع رصاصها، وأفرغ منها البارود، وأعطاها إلى جن ـ منغ، دون أن يعلم أن الصواعق لا تزال في الداخل. صنع جن ـ منغ قذيفة من علبة معجون أسنان، وأمسك بها فوق الموقد الفحمي في المطبخ بملقط لشيِّها. كان هناك إبريق على شبكة فوق الفحم، وكان جن ـ منغ يمسك الملقط تحته، حين سُمعت فجأة فرقعة هائلة، وظهر ثقب كبير في قعر الإبريق. هرع الجميع ليتبيّنوا ما حدث. كان جن ـ منغ مرعوباً، لا بسبب الانفجار، ولكن بسبب أبي الذي كان شخصية مخيفة.

ولكن أبي لم يضرب جن ـ منغ، بل لم يقرّعه. اكتفى بالنظر إليه نظرة حادّة لبعض الوقت، ثم قال إنه خائف أصلاً بما فيه الكفاية، وينبغي أن يخرج ويتمشى. تنفّس جن ـ منغ الصعداء، حتى إنه بالكاد منع زفيره من أن يقفز في الهواء. لم يعتقد قطّ أنه يستطيع الإفلات بهذه السهولة. وبعد أن عاد، قال أبي إنه لن يقوم بأي

تجارب أخرى، دون إشراف أحد الكبار عليه. ولكنه لم يفرض هذا الأمر طويلاً، وما لبث جن ـ منغ أن عاد إلى تجاربه، كما في السابق.

ساعدْتُه أنا في بعض المشاريع. وذات مرة، صنع نموذج مِسْحَقَة، تعمل بماء الحنفية، قادرة على تحويل الطباشير إلى مسحوق. كان جن ـ منغ صاحب العقل والمهارة، بطبيعة الحال. أما أنا، فلم يدم اهتمامي طويلاً.

كان جن ـ منغ يذهب إلى نفس المدرسة الابتدائية الأساسية، التي أذهب إليها. وقد درَّسه أيضاً السيد دا ـ لي، معلم العلوم، الذي أُدين بوصفه يمينياً، وقام بدور حاسم في فتح عالم العلوم أمامه. وبقي جن ـ منغ يشعر بامتنان عميق له طول حياته.

شقيقي الثاني، شياو ـ هي، الذي ولد في عام ١٩٥٤، كان الأثير لدى جدتي، ولكنه لم يكن يلقى اهتماماً كبيراً من أبي وأمي، لاعتقادهما بأنه ينال ما يكفي من مشاعر الحب والحنان من جدتي. وإذ أَحسَّ شياو ـ هي بأنه ليس من أصحاب الحظوة، أصبح يتّخذ موقفاً دفاعياً إزاء والديَّ. وكان هذا يضايقهما، لا سيما أبي، الذي لا يطيق أي شيء يعتبره ملتوياً.

أحياناً كان يغضب من شياو ـ هي، حتى إنه كان يضربه. ولكنه لا يلبث أن يندم، وفي أول فرصة، يربّت على رأس شياو ـ هي، ويقول له إنه آسف لفقدانه السيطرة على أعصابه. وكانت جدتي تشاجر أبي باكية، وكان يتّهمها بإفساد شياو ـ هي، بتدليلها إياه. كان هذا مصدر توتر دائم بينهما. وكان محتوماً أن تصبح جدتي أشدّ تعلّقاً بشياو ـ هي، بل أن تمعن في إفساده.

كان والداي يعتقدان أن الأولاد الذكور وحدهم، يجب أن يُعنَّفوا ويضربوا، وليس البنات. مرة من مرتين، فقط ضُربت فيهما أختي شياو ـ هونغ، حين كانت في الخامسة من العمر. أصرّت على أن تأكل حلوى قبل إحدى الوجبات، وحين جاء الطعام، شكَتْ قائلة إنها لا تستطيع أن تتذوق شيئاً، بسبب مذاق الحلوى في فمها. قال أبي إنها لم تنل إلا ما أرادت. غاظها ذلك، وبدأت تصرخ، ورمت أرضاً العيدان التي تأكل بها. صفعها أبي، فأخذت ممسحة من الريش لتضربه بها. انتزع الممسحة منها، فأمسكت بمكنسة. وبعد صراع، حبسها أبي في غرفة نومنا، وراح يكرّر: «مُفسَدة! مفسدة!». وفات الطعام أختي.

كانت شياو ـ هونغ عنيدة تماماً. ولسبب ما، كانت ترفض رفضاً مطلقاً مشاهدة

الأفلام أو المسرحيات، أو السفر. وكان هناك أشياء كثيرة تكره أكلها: كانت تصرخ بأعلى صوتها، عند إطعامها لبناً أو لحم بقر أو ضأن. وحين كنتُ طفلة، كنتُ أقتدي بها، ففاتتني أفلام عديدة والكثير من الطعام اللذيذ.

كانت شخصيتي تختلف اختلافاً كبيراً، وكانوا يقولون إني كنتُ عاقلة ومرهفة (دونغ ـ شي)، قبل مراهقتي بزمن طويل. لم يمسّني والداي قط، ولم يقولا لي كلمة قاسية. حتى انتقاداتهما النادرة، كانت توجه برقّة شديدة، كأني كبيرة. منحاني الكثير من الحب، وخاصة أبي الذي كان دائماً يماشيني بعد العشاء، وفي أحيان كثيرة، يأخذني معه لدى زيارة أصحابه. كان معظم أصدقائه، الأقرب، ثوريين قدامى، أذكياء ومقتدرين. وبدا أنهم جميعاً عندهم «عيب» في ماضيهم، في نظر الحزب، فلم يعينوا إلا في مناصب متدنية. كان أحدهم في فرع الجيش الأحمر، الذي قاده غريم ماو، جانغ غوو ـ تاو. وكان دون جوان ـ زوجته، وهي مسؤولة حزبية، كان أبي يحاول دائماً تجنّبها، كانت عبوساً بشكل لا يطاق. كنت أستمتع بهذه اللقاءات بين الكبار، ولكن أحَب شيء إليّ، كانت خلوتي مع كتبي، التي كنت أنكبّ على قراءتها طول اليوم، خلال عطلتي المدرسية، وأنا ألوك أطراف شعري. إلى جانب الأدب، بما في ذلك بعض الأشعار الكلاسيكية البسيطة على نحو معقول، كنت أحب روايات الخيال العلمي وقصص المغامرات. أذكر كتاباً عن رجل يمضي ما بدا له بضعة أيام على كوكب آخر، ويعود إلى الكرة الأرضية في القرن الحادي والعشرين، ليجد كل شيء قد تغيّر. فالناس يأكلون الطعام في كبسولات، ويسافرون في حوّامات، ولديهم تلفونات بشاشات فيديو. كنت تواقة إلى العيش في القرن الحادي والعشرين، مع كل هذه المبتكرات الساحرة.

أمضيت طفولتي أركض نحو المستقبل، أتعجّل البلوغ، وأحلم دائماً بما سأفعله حين أكبر. ومنذ تعلّمي القراءة والكتابة، كنتُ أفضل الكتب التي تحوي كميات كبيرة من الكلمات، على الكتب المصوّرة. كنت أيضاً عجولاً من كل النواحي الأخرى: حين تكون لدي قطعة حلوى، لا أمصها على الإطلاق، بل أقضمها وألوكها في الحال. وألوك حتى حبوب السعال.

كنت وأشقائي منسجمين على نحو غير مألوف: تقليدياً، الصبيان والبنات نادراً ما يلعبون معاً، ولكننا كنا أصدقاء حميمين ونهتم ببعضنا بعضاً. لم تكن هناك غيرة

أو مزاحمة تذكر، ونادراً ما كنّا نتشاجر. وكلما كانت أختي تراني باكية، كانت هي أيضاً تنفجر بالبكاء. لم يضرها سماع الآخرين يطرونني. كانت العلاقة الطيّبة بيننا مبعث تعليقات كثيرة، وكان آباء وأمهات الأطفال الآخرين، يسألون والديَّ باستمرار كيف توصّلا إلى ذلك.

كان والداي وجدتي يشيعون، فيما بينهم، أجواء عائلية مفعمة بالحب. لم نرَ إلا المحبة بين والديَّ. أما مشاجراتهما، فلم نرها قط. ولم تُظهر أمي قطّ تبرّمها بأبي. وبعد المجاعة فقد والداي، شأنهما في ذلك شأن أغلبية المسؤولين، حماستهما لعملهما، كما كانا في الخمسينات. احتلّت الحياة العائلية موقعاً أبرز. رقَّ طبع أبي، الذي تعدّى الأربعين الآن، وأصبح أقرب إلى أمي. وأخذ والداي يمضيان وقتاً أكثر معاً. ومع نموِّي، كنت في أحيان كثيرة، أرى دلائل حبّهما المتبادل.

ذات يوم، سمعتُ أبي يحدث أمي عن المديح الذي كاله لها زميل له، كانت زوجته ذائعة الصيت بجمالها. قال لأبي: «نحن الاثنين محظوظان بمثل هاتين الزوجتين المرموقتين. انظر حولك: إنهما تتميّزان عن الجميع». كان أبي يبتسم، وهو يستذكر المشهد بسرور منضبط. قال: «ابتسمتُ، بأدب طبعاً. ولكني أجبته: «كيف تستطيع أن تقارن زوجتك بزوجتي؟ إن زوجتي فريدة في نوعها!» ».

ذات مرة، ذهب أبي في جولة تفقّدية، مدتها ثلاثة أسابيع لمديري أقسام الشؤون العامة في كل إقليم من أقاليم الصين، قادتهم إلى سائر أنحاء البلاد. كانت الجولة الوحيدة في نوعها، التي نُظّمت طول حياة أبي في العمل. وكانت تعتبر امتيازاً خاصاً. فقد نالت المجموعة معاملة الأشخاص الهامين جداً طول الطريق، وسافر معهم مصوّر فوتوغرافي يسجّل تقدّمهم. ولكن أبي كان مضطرباً. في بداية الأسبوع الثالث، عندما بلغت الجولة شنغهاي، استشعر حنيناً جارفاً إلى البيت، حتى إنه ادعى التوعك وطار عائداً إلى تشينغدو. ومن حينها، ظلّت أمي تسميه «هذا المخلوق العجوز السخيف». «بيتُك ما كان سيطير. وأنا ما كنت سأختفي. يا لها من فرصة فاتتك للاستمتاع!». وكان دائماً ينتابني إحساس عندما تقول ذلك، إنها في الحقيقة مغتبطة بـ «شوق أبي السخيف إلى البيت».

بدا أن شيئين، في المقام الأول، يهمّان والديَّ في علاقتهما مع أطفالهما. أحدهما تعليمنا الأكاديمي. إذ مهما يكن انشغالهما في أعمالهما، كانا دائماً يراجعان

واجباتنا المدرسية معنا. وكانا على اتّصال دائم مع معلّمينا، ورسّخا بثبات في أذهاننا، أن هدفنا في الحياة هو التفوّق الأكاديمي. وازدادت علاقتهما بدراستنا، بعد المجاعة، حين أتيح لهما مزيد من الوقت. وكانا في غالبية الأماسي، يتناوبان على إعطائنا دروساً إضافية.

كانت أمي معلمتنا في الرياضيات، وكان أبي معلّمنا في اللغة والأدب الصينيين. وكانت هذه الأماسي مناسبات نادرة عندنا، حين يُسمح لنا بقراءة كتب أبي في مكتبته، المرصوفة من الأرض إلى السقف، بأعمال كلاسيكية صينية سميكة، مجلدة تجليداً فنياً. كان علينا أن نغسل أيدينا قبل أن نقلّب صفحات كتبه. كنّا نقرأ لو شون، الكاتب الصيني الكبير الحديث، وقصائد من العصور الذهبية للشعر الصيني، كانت تعتبر صعبة حتى على الكبار.

لم يكن يضاهي اهتمام والديَّ بدراستنا إلا حرصهما على تربيتنا الأخلاقية. كان أبي يريدنا أن ننشأ مواطنين شرفاء ومبدئيين، الشيء الذي كان يعتقد أنه غاية الثورة الشيوعية. وعملاً بالتقليد الصيني المتّبع، أعطى لكل من أشقّائي اسماً يعبّر عن مُثُله: جي، الذي يعني «شريفاً»، أطلقه على جن ـ منغ، وبو، الذي يعني «غير مدَّعٍ»، أطلقه على شياو ـ هي، وفانغ «معصوم من الفساد»، كان جزءاً من اسم شياو ـ فانغ. كان أبي يعتقد أن هذه هي الصفات التي كانت مفقودة في الصين القديمة، والتي سيعيدها الشيوعيون. فالفساد على الأخصّ أضعف الصين القديمة. وذات مرة، عنَّف جن ـ منغ لصنعه طائرة ورقية من ورقة رسمية مصدرة باسم قسمه. وإذا أردنا استخدام التلفون في البيت، كان علينا أن نستأذنه. ولأن عمله يشمل الإعلام، فقد كان يُمَدّ بالكثير من الصحف والدوريات. وكان يشجعنا على قراءتها، ولكن لم يكن في الإمكان أخذها خارج مكتبته. وفي نهاية الشهر، يعيدها إلى دائرته، لأن الصحف كان يعاد بيعها لإعادة تصنيعها ورقاً. كنت أمضي الكثير من أيام الأحد المملّة في مساعدته على التوثّق من عدم فقدان واحدة منها.

كان أبي دائماً شديد الصرامة معنا، الأمر الذي كان مصدراً دائماً للتوتّر بينه وبين جدتي، وبينه وبيننا. في عام ١٩٦٥، زارت تشينغدو إحدى بنات الأمير سيهانوك، أمير كمبوديا، لإحياء حفلة باليه. شكّل ذلك حدثاً كبيراً في مجتمع معزول عزلة تامة تقريباً. كنت أتحرّق شوقاً إلى رؤية الباليه. وكان أبي، بسبب عمله، يُعطى تذاكر

مجانية، وفي أحيان كثيرة كان يصطحبني معه. هذه المرة، لم يتمكّن من الذهاب لسبب ما. فأعطاني تذكرة، ولكنه قال إن عليَّ أن أستبدل بها مع أحد ما مقعداً في المؤخرة، كيلا أكون في أحسن المقاعد.

تلكم الأمسية، وقفت بباب المسرح ماسكة التذكرة بيدي، فيما كان الجمهور يحتشد داخلاً ـ كلهم، في الحقيقة، بتذاكر مجانية، موزعة بحسب مراتبهم. مرّ ربع ساعة، وأنا لم أزل عند الباب. كنت محرجة من سؤال أحد التبادل معه. وفي النهاية، تضاءل عدد الداخلين وكانت الحفلة على وشك أن تبدأ. كدتُ أبكي متمنية أن يكون لي أب آخر. في تلك اللحظة، رأيت مسؤولاً صغيراً من قسم أبي. استجمعت شجاعتي، وسحبت طرف سترته من الخلف. ابتسم، ووافق في الحال على إعطائي مقعده الذي كان في المؤخرة تماماً. لم يستغرب ما فعلته. فصرامة أبي مع أطفاله كانت أسطورية في مجمّعنا.

بمناسبة «السنة الجديدة» الصينية، ١٩٦٥، نُظِّمت حفلة خاصة لمعلمي المدارس. وهذه المرة، ذهب أبي إلى الحفلة في صحبتي، ولكن بدلاً من أن يتركني أجلس معه، استبدل بتذكرتي تذكرة في المؤخرة تماماً. قال إني ليس من اللائق أن أجلس أمام المعلمين. بالكاد كنت أرى المسرح، وشعرت بالتعاسة. فيما بعد، سمعت من المعلمين كم كان تقديرهم كبيراً لسلوكه. وكانوا قد امتعضوا من رؤية أطفال المسؤولين الكبار الآخرين، متكئين على المقاعد الأمامية، بشكل اعتبروه وقاحة.

على امتداد تاريخ الصين، كان هناك تقليد في كون أبناء المسؤولين متعجرفين، ويسيئون استخدام امتيازاتهم. وكان هذا مبعث سخط واسع. ذات مرة، لم يعرف حارس جديد في المجمّع فتاة مراهقة، تعيش هناك، ورفض السماح لها بالدخول. فصرخت به وضربته بحقيبتها. وكان بعض الأطفال يتحدّثون مع الطهاة والسائقين وغيرهم من العاملين، بفظاظة واستعلاء. كانوا ينادونهم بأسمائهم، الشيء الذي ينبغي أن لا يفعله أبداً الشخص الأصغر في الصين ـ فهو قلّة أدب بالغة. ولن أنسى أبداً النظرة المعذَّبة في عيني طاهٍ في مطعمنا، عندما أعاد ابن أحد زملاء أبي بعض الطعام، وقال إنه رديء، وناداه عالياً باسمه. جُرح الطاهي في الصميم، ولكنه لم يقل شيئاً. لم يكن يريد أن يُغضِب والد الصبي. وكان بعض الآباء لا يفعلون شيئاً إزاء سلوك كهذا من أطفالهم، ولكن أبي كان حانقاً. وكثيراً ما كان يقول: «إن هؤلاء المسؤولين ليسوا شيوعيين».

كان والداي يوليان تربية أطفالهما أهمية بالغة، ليكونوا دمثين ومؤدبين مع الجميع. وكنا ننادي العاملين في الخدمات «يا عم» فلان، و «يا عمة» فلانة، وهي الصيغة المؤدبة التقليدية لطفل يخاطب أحد الكبار. وبعد أن نفرغ من تناول وجبتنا، كنا دائماً نعيد السلطانيات وعيدان الأكل المتسخة إلى المطبخ. وكان أبي يقول لنا إن علينا أن نفعل ذلك احتراماً للطهاة، لأنه بدون ذلك، سيتعيّن عليهم تنظيف الموائد بأنفسهم. وكانت هذه الأشياء الصغيرة، تكسبنا محبة عظيمة من العاملين في المجمّع. فالطهاة كانوا يحفظون الطعام ساخناً لنا، إذا جئنا متأخرين. وكان البستانيون يعطونني زهوراً أو فاكهة. وكان السائق يغيِّر طريقه بسرور، لإيصالي إلى البيت ـ ودائماً من وراء ظهر أبي، لأنه ما كان ليسمح لنا أبداً باستخدام السيارة دون وجوده.

كانت شقتنا الحديثة في الطابق الثالث، تطل شرفتنا على زقاق ضيّق من الوحل والحجارة، خارج سور المجمع. وكان أحد جانبي الزقاق سور المجمع المبني بالآجر، وكان الجانب الآخر صفاً من بيوت خشبية ضيقة، ذات طابق واحد وشرفة، كما هو معهود بمساكن الفقراء في تشينغدو. كانت أرض هذه البيوت من الطين وليس فيها مرافق صحية أو ماء جارية. واجهاتها مصنوعة من ألواح عمودية، اثنان منها يقومان مقام الباب. وكانت الغرفة الأمامية، تؤدي مباشرة إلى غرفة أخرى، تؤدي بدورها إلى أخرى، وصف من عدة غرف كهذه يكوِّن البيت. والغرفة الخلفية تنفتح على شارع آخر. ولأن حيطان البيت الجانبية مشتركة مع الجيران، فلم تكن هناك نوافذ في هذه البيوت. كان على الساكنين أن يتركوا البابين في نهايتي البيت مفتوحين لدخول الضوء أو الهواء. وفي أحيان كثيرة، لا سيما في ليالي الصيف الحارّة، كانوا يجلسون على الرصيف الضيّق، يقرأون أو يخيطون أو يتجاذبون أطراف الحديث. ومن الرصيف، يستطيعون النظر مباشرة إلى الشرفات الرحبة لشققنا، بنوافذها الزجاجية البرّاقة. كان أبي يقول إننا يجب أن لا نجرح مشاعر من يعيشون في الزقاق، فمنَعَنا من اللعب في الشرفة.

في ليالي الصيف، كان صبيان من أكواخ الزقاق، يجوبون الشوارع، يبيعون البخور الطارد للبعوض. وكانوا يغنون لحناً خاصاً، ليلفتوا الانتباه إلى بضاعتهم. كان هذا اللحن الحزين، المتواصل، يتخلّل قراءتي المسائية. ومن خلال تذكير أبي لي، بلا انقطاع، كنتُ أعرف أن إمكان الدراسة بلا منغّصات في غرفة فسيحة باردة، ذات

أرضية مفروشة بالباركيه، ونوافذ مفتوحة، ذات شبك يمنع البعوض، إنما هي امتياز عظيم. وكان يقول: «يجب أن لا تفكروا أنكم أرقى منهم. فإنكم مجرّد محظوظين بأن تكونوا هنا. أوَ لا تعرفون لماذا نحتاج إلى الشيوعية؟ لكي يستطيع الجميع أن يعيشوا في بيت جيد مثل بيتنا، وفي بيوت أفضل بكثير».

كان أبي يقول أشياء كهذه بكثرة، حتى إني نشأتُ وأنا أشعر بالخجل من هذه الامتيازات. أحياناً، كان صبيان من المجمع، يقفون في شرفاتهم، ويقلّدون اللحن الذي يغنيه الباعة الصغار. وكنتُ أشعر بالخجل حين يفعلون ذلك. وعندما أذهب مع أبي في سيارته، كنت دائماً أُحرَج عندما تشقّ السيارة طريقها مزمّرة في الزحام. وإذا حدق أشخاص إلى السيارة كنت أغوص في مقعدي، وأحاول اجتناب نظراتهم.

في أوائل العقد الثاني من عمري، كنت فتاة جدية للغاية. كنت أحب الاختلاء بنفسي أفكر، وفي أحيان كثيرة، أفكر في قضايا أخلاقية تبلبلني. فَتُر اهتمامي بالألعاب والملاهي والعبث مع الأطفال الآخرين، ونادراً ما كنت أتباذل القيل والقال مع الفتيات الأخريات. ورغم أني كنت اجتماعية وشعبية، فقد كان يبدو دائماً أن هناك مسافة معينة بيني وبين الآخرين. في الصين، يتآلف الناس بسهولة، وخاصّة النساء. ولكن منذ طفولتي، كنت دائماً أريد الاختلاء بنفسي.

لاحظ أبي هذا الجانب من شخصيّتي، وكان يعلّق عليه باستحسان. وفي حين كان معلموي يقولون باستمرار إنه ينبغي أن تكون عندي «روح جماعية» أكبر، كان هو يقول لي إن الألفة والتصاق البعض بالبعض الآخر، يمكن أن يكون شيئاً مدمّراً. وبهذا التشجيع، احتفظتُ بحياتي الخاصة وفضائي الخاص. لا توجد كلمات دقيقة لهذين المفهومين باللغة الصينية، ولكن كثيرين كانوا يصْبُون إليهما بالسليقة، بينهم بالتأكيد أشقائي. فقد أصر جن ـ منغ، مثلاً، بعناد على السماح له بأن يعيش حياته الخاصة، حتى إن مَنْ لم يعرفوه، كانوا يعتقدون أحياناً أنه لااجتماعي. وفي الحقيقة، لقد كان يحب حياة الجماعة، وشعبياً للغاية بين أترابه.

كان أبي يقول لنا، في أحيان كثيرة: «أعتقد إنه لأمر رائع، أن تكون لدى أُمكم هذه السياسة في «ترككم تسرحون بحرية في المرعى» ». كان والدانا يتركاننا وشأننا، ويحترمان حاجتنا إلى الاحتفاظ بعوالمنا المستقلة.

١٤ ـ «الأب قريب، والأم قريبة، لكن لا الأب، ولا الأم، قريبان قرب الرئيس ماو» ـ عبادة ماو (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)

بدأ «الرئيس ماو»، كما كنّا نسميه دائماً، يهيمن على حياتي مباشرة في عام ١٩٦٤، حين كنت في الثانية عشرة. فبعد أن تراجع لبعض الوقت، في أعقاب المجاعة، بادر في آذار/مارس من العام السابق، إلى توجيه دعوة إلى البلاد كلها، وخاصة الشباب، «للتعلم من لي فينغ».

كان لي فينغ جندياً، قيل لنا إنه مات، عام ١٩٦٢، في الثانية والعشرين. فعل الكثير جداً من الأعمال الخيّرة ـ مضحياً من أجل مساعدة المسنين والمرضى والمحتاجين. تبرّع بمدخراته لصناديق الغوث من الكوارث، وتنازل عن حصّته الغذائية لرفاق في المستشفى.

ما لبث لي فينغ أن بدأ يهيمن على حياتي. فعصر كل يوم، كنّا نغادر المدرسة «للقيام بأعمال خيّرة، مثل لي فينغ». كنا نذهب إلى محطة القطارات، لكي نحاول مساعدة السيدات المسنات على حمل أمتعتهن، كما كان يفعل لي فينغ. وكان علينا، أحياناً، أن نخطف منهن صررهن بالقوة، لأن بعض النساء الريفيات كنَّ يعتقدن أننا لصوص. وفي الأيام الممطرة، كنت أقف في الشارع، ومعي مظلّة، آملةً أن تمرّ سيدة مسنة، وتمنحني فرصة مرافقتها إلى بيتها، كما كان يفعل لي فينغ. وإذا رأيتُ أحداً يحمل دلاء الماء بعصا على كتفيه ـ البيوت القديمة، لم يكن لديها بعد ماء

جارية ـ كنت أحاول، بلا نجاح، استجماع شجاعتي لعرض مساعدتي، رغم أنه لم تكن لدي فكرة عن ثقل حمولة الماء.

في أثناء عام ١٩٦٤، بدأ التشديد يتحوّل، تدريجاً، من أعمال الخير على طريقة فتيان الكشفية، إلى عبادة ماو. كان المعلمون يقولون لنا، إن جوهر لي فينغ كان «حبه وتفانيه اللامحدودين للرئيس ماو». وإنَّ لي فينغ، قبل أن يُقدم على أي عمل، كان دائماً يفكر في بعض كلمات ماو. نُشِرَتْ يومياته، وأصبحت كتابنا المدرسي في الأخلاق. وعلى كل صفحة منها تقريباً، كان هناك عهد من قبيل: «يجب أن أدرس أعمال الرئيس ماو، وأسمع كلمات الرئيس ماو، وأتبع تعليمات الرئيس ماو، وأكون جندياً جيداً من جنود الرئيس ماو». وقطعنا عهداً على أنفسنا باتباع لي فينغ، وأن نكون مستعدين «لصعود جبال من السكاكين وعبور بحار من اللهب»، و «أن تُسحق أجسادنا، وتُطحن عظامنا» و «أن نُخضع أنفسنا، دون سؤال، لسيطرة القائد العظيم» ـ ماو. كانت عبادة ماو وعبادة لي فينغ وجهين لعملة واحدة: أحدهما عبادة الشخصية، والآخر، قرينه الملازم، عبادة اللاشخصية.

قرأت أول مقال بقلم ماو في عام ١٩٦٤، في وقت كان يهيمن على حياتنا شعاران من شعارات ماو: «اخدموا الشعب» و «لا تنسوا الصراع الطبقي أبداً». وتجلّى جوهر هذين الشعارين المتكاملين، في قصيدة لي فينغ: «الفصول الأربعة»، التي استظهرناها كلنا:

كالربيع، أعامل رفاقي بدفء

كالصيف، كلي حماسة لعملي الثوري

ألغي فرديتي، كما تكنس ريح خريفية الأوراق الساقطة

وإني مع العدو الطبقي قاسٍ وضارٍ، كالشتاء القارص.

انسجاماً مع ذلك، قال لنا معلمنا إن علينا أن نتوثق بدقّة من الذين نساعدهم في مهماتنا للقيام بأعمال خيّرة. إذ يجب أن لا نساعد «الأعداء الطبقيين». ولكني لم أفهم مَنْ يكون هؤلاء، وعندما استوضحت، لا معلموي ولا والداي، كانوا متحمسين للتوضيح. كانت إحدى الإجابات الشائعة: «مثل الأشرار في الأفلام السينمائية». ولكني لم أتمكن من رؤية أحد حولي يبدو شبيهاً بشخصيات العدو، المنمطة بدرجة

عالية في الأفلام. وقد أثار ذلك مشكلة كبيرة. ولا سيما حين اختطاف الحقائب من السيدات المسنات. إذ لم يكن في مقدوري، قطعاً، أن أسأل: «هل أنتِ عدو طبقي؟».

كنّا نذهب، أحياناً، لتنظيف البيوت في زقاق بجوار مدرستنا. وفي أحد البيوت، كان شاب متبطّل يجلس على كرسي خيزران، وهو يتابعنا بابتسامة خبيثة، فيما نحن نكدح في تنظيف نوافذه. وهو لم يكتف بالامتناع عن مساعدتنا، بل كان يُخرِج دراجته الهوائية من تحت السقيفة، ويقترح أن ننظفها أيضاً. وقال، ذات مرة: «للأسف لستم لي فينغ الحقيقي. وليس هناك مصوّرون حاضرون يلتقطون صوركم للصحف» (أعمال لي فينغ الخيّرة، سجلها بأعجوبة مصوّر فوتوغرافي رسمي). كنّا جميعاً نكره المتبطل، صاحب الدراجة القذرة. هل يمكن أن يكون عدواً طبقياً؟ ولكننا نعرف أنه يعمل في مصنع آلات، والعمال، كما قيل لنا مراراً، هم الأحسن، هم الطبقة القائدة في ثورتنا. كنتُ مشوشة الذهن.

من الأشياء التي كنت أقوم بها، المساعدة على دفع العربات في الشوارع. وكانت العربات، في أحيان كثيرة، محمِلة بأكوام من كتل الإسمنت أو قطع الحجارة الرملية. كانت ثقيلة جدّاً، وكل خطوة كانت مجهوداً هائلاً للرجال الذين يسحبونها. وحتى في الشتاء البارد، كان البعض يعملون بصدور عارية، وكانت وجوههم وظهورهم تتصبّب حبات ملتمعة من العرق. وإذ كان الطريق مرتفعاً بزاوية طفيفة، فقد كان يصعب على البعض المتابعة. وكلما رأيتهم، كانت تغمرني موجة من الحزن. منذ بدأت حملة التعلّم من لي فينغ، كنت أقف عند منحدر بانتظار مرور العربات. وكنت أشعر بالإعياء، بعد المساعدة على دفع واحدة منها فقط. وحين أغادر، كان الرجل الذي يجرُّها يرميني بابتسامة جانبية، تكاد تكون غير محسوسة، محاولاً أن لا يقطع خطواته ويفقد زخمه.

ذات يوم، قالت لي زميلة في الصف، بلهجة جادة للغاية، إن جل الذين يجرّون العربات، هم أعداء طبقيون، نيطت بهم أعمال شاقة. وقالت لي إن من الخطأ، لهذا السبب، أن أساعدهم. سألتُ معلّمتي لأني، بحسب التقليد الصيني المتبّع، كنتُ دائماً أتّخذ من المعلمين مرجعاً. ولكن بدلاً من مظهرها الواثق عادةً، بدت مضطربة، وقالت إنها لا تعرف الجواب، الأمر الذي حيّرني. في الواقع، كان صحيحاً بالفعل

أن من يجرون العربات نيطت بهم هذه المهمة، في أحيان كثيرة، لأنه كانت لديهم ارتباطات مع الكومنتانغ، أو لأنهم كانوا من ضحايا إحدى حملات التطهير السياسية. ومن الواضح، أن معلمتي لم تكن تريد أن تقول لي ذلك، ولكنها طلبت مني أن أتوقف عن المساعدة على دفع العربات. ومنذ ذلك الحين، كنت كلما صادفت عربة في الشارع، أشيح بنظري بعيداً، وأبتعد مسرعة.

لكي نشحن بالكراهية للأعداء الطبقيين، بدأت المدارس تعقد جلسات منتظمة، حول «استذكار المرارة والتفكير في السعادة»، كان أشخاص أكبر سناً، يحدثوننا خلالها عن بؤس الصين، قبل الشيوعية. وأن جيلنا ولد «تحت الراية الحمراء» في الصين الجديدة، وليس لدينا فكرة عما كانت الحياة، تحت الكومنتانغ. وكنّا نُلقَّن أن لي فينغ، كانت لديه هذه الفكرة، ولهذا السبب، كان يستطيع أن يكره العدو الطبقي كل هذا الكره، ويحبّ الرئيس ماو من صميم قلبه. وحين كان في السابعة شنقت أمه نفسها، بعد أن اغتصبها أحد الملاك.

كان عمال وفلاحون يأتون ليقدموا أحاديث في مدرستنا: سمعنا عن طفولات معمدة بالجوع، وشتاءات قارسة بلا أحذية، ووفيات مؤلمة قبل الأوان. حدَّثونا عن امتنانهم اللامحدود للرئيس ماو لإنقاذ حياتهم ومنحهم المأكل والملبس. كان أحد المتكلمين ينتمي إلى جماعة إثنية، تسمّى جماعة الـ «يي»، بقي نظام الرق عندها حتى أواخر الخمسينات. وقد كان هو عبداً، وأرانا آثار الضرب الوحشي في عهد أسياده السابقين. وكلما كان المتحدثون يصفون ما قاسوه من معاناة، كانت القاعة المكتظّة تهتزّ بنشيج البكاء. وكنتُ أخرج من هذه الجلسات مدمَّرَة بما فعله الكومنتانغ، ومشبعة بعاطفة متّقدة نحو ماو.

ولكي نرى ما ستكون عليه الحياة بدون ماو، كان مطعم المدرسة يطبخ لنا، بين حين وآخر، شيئاً يسمى «وجبة المرارة»، زعم أن الفقراء كانوا يأكلونها في ظلّ الكومنتانغ. كانت الوجبة تتألّف من أعشاب غريبة، وكنت أتساءل، في السر، ما إذا كان الطهاة يدبّرون مقلباً لنا ـ كان الكلام يعجز حقاً عن وصفها. وقد تقيأتُها في المرة الأولى والمرة الثانية.

ذات يوم، أُخِذنا إلى معرض «للتربية الطبقية» حول التِّبت: عُرضت فيه صور فوتوغرافية لأقبية تعجّ بالعقارب وأدوات تعذيب رهيبة، بينها أداة لقلع العيون،

وسكاكين لتقطيع أوتار الكاحل. وقال لنا رجل على كرسي متحرّك، جاء إلى مدرستنا للحديث، إنه قِنّ سابق من التِّبت، قُطِّعت أوتار كاحليه بسبب مخالفة بسيطة.

منذ عام ١٩٦٤، فُتحت أيضاً بيوت كبيرة، بوصفها «متاحف تربية طبقية»، تبيّن كيف كان الأعداء الطبقيون، مثل الملاّك، يعيشون في رفاه على حساب عرق الفلاحين ودمائهم، قبل مجيء ماو. وخلال عطلة «السنة الجديدة» الصينية، في عام ١٩٦٥، أخذنا أبي إلى قصر شهير، يبعد ساعتين ونصف الساعة عن البيت. وتحت غطاء التبرير السياسي، كانت الرحلة في الحقيقة ذريعة للخروج إلى الريف، في مطلع الربيع، بحسب التقليد الصيني، القاضي بـ «المشي على الخضرة الغضة» (تا ـ كنغ) لاستقبال الموسم. كانت تلك إحدى المناسبات القليلة، التي تقوم عائلتي فيها برحلة إلى الريف.

فيما كانت السيارة تعبر سهل تشينغدو، على طريق معبد، تحفّ به أشجار الأوكالبتوس، كنت أنظر بتركيز من النافذة إلى حقول الخيزران البديعة، تحتضن البيوت الريفية، والدخان الملتوي معلقاً فوق الأكواخ المسقوفة بالقشّ، يطلّ خلسة من بين أوراق الخيزران. وفي بعض الأحيان، كانت أغصان من أزهار الخوخ المبكرة تنعكس في الجداول، التي تلتف حول كل أجمة تقريباً. طلب أبي منا جميعاً أن نكتب موضوعاً إنشائياً، بعد الرحلة، نصف فيه المناظر، فكنت ألاحظ كل شيء بدقّة بالغة. كان هناك مشهد حيّرني: كانت الأشجار القليلة، المتناثرة حول الحقول، منزوعة الأغصان والأوراق، باستثناء القمة، وبدت كأنها سواري أعلام عارية تعتمر قلنسوة من الخضرة. أوضح أبي أن الحطب شحيح في سهل تشينغدو المزروع بكثافة، وأن الفلاحين قطعوا كل ما يستطيعون الوصول إليه من أغصان. ما لم يقله لي أنه كان هناك أشجار كثيرة، حتى سنوات قليلة، ولكن أغلبيتها قُطعت لتغذية الأفران المنتجة للفولاذ، خلال «الطفرة الكبرى إلى الأمام».

بدا الريف مزدهراً إلى أقصى الحدود. وكانت المدينة، التي توقفنا فيها لتناول الغداء مزدحمة بالفلاحين، الذين يرتدون ملابس جديدة برّاقة. كان الأكبر سناً بينهم يعتمرون عمائم بيضاء ناصعة، ويلتفعون بمآزر زرقاء دكناء نظيفة. البط المحمر يتوهج في واجهات المطاعم المكتظة بالزبائن. وغيومٌ ذات رائحة ذكية، تنبعث من أغطية مباخر خيزرانية ضخمة، في الأكشاك، في الشوارع المزدحمة. شقّت سيارتنا طريقها، عبر السوق، إلى مكاتب الحكومة المحلية، التي كانت في قصر يربض

خارج بوابته أسدان حجريان. عاش أبي في هذا الإقليم خلال المجاعة، في عام ١٩٦١. والآن، بعد أربعة أعوام، أراد المسؤولون المحليون أن يطلعوه على حجم ما حدث من تغيير. أخذونا إلى مطعم، حُجزت فيه لنا غرفة خاصة. وعندما شققنا طريقنا، عبر المطعم المزدحم، كان الفلاحون يحدقون إلينا، حيث كان واضحاً أننا غرباء، يقودهم المسؤولون المحليون باحترام إلى أماكنهم. رأيت أن الموائد عامرة بأطباق غريبة يسيل لها اللعاب. نادراً ما كنت آكل شيئاً، باستثناء ما يقدم لنا في مطعمنا. الطعام في هذه المدينة زاخرٌ بالمفاجآت السارة. وله أسماء جديدة أيضاً: «كرات اللؤلؤ»، «الطلقات الثلاث»، «رؤوس الأسود». بعد أن انتهينا، قام مدير المطعم بتوديعنا على الرصيف، فيما كان الفلاحون المحليون ينظرون ببلاهة إلى بطانتنا.

في الطريق إلى المتحف، تجاوزت سيارتنا شاحنة مكشوفة، فيها بعض البنين والبنات من مدرستي. كان واضحاً أنهم ذاهبون أيضاً إلى قصر «التربية الطبقية». وكانت إحدى معلماتي تقف في المؤخرة. ابتسمتْ لي، وانكمشتُ أنا في مقعدي، محرَجة من الفارق بين سيارتنا ذات السائق والشاحنة المكشوفة، على الطريق الوعر، في هواء أول الربيع البارد. كان أبي يجلس في المقدمة، وأخي الأصغر في حجره. عرف المعلّمة، وردّ على ابتسامتها بمثلها. وعندما التفت لينبهني، رأى أني اختفيت تماماً. انفرجت أساريره غبطة. قال إن حَرَجي يكشف عن شمائلي. وإنه لأمر جيد أن أشعر بالخجل من الامتيازات بدلاً من استعراضها.

كان المتحف يبعث على الصدمة على نحو لا يصدق. كانت هناك تماثيل فلاحين معدمين، عليهم أن يدفعوا إيجارات باهظة. أحد التماثيل يبين كيف كان المَلاَّك يستخدم مكيالين: مكيال كبير لجمع الحبوب ومكيال صغير لإقراضها ـ وبنسبة فائدة تقصم الظهر أيضاً. كان هناك غرفة تعذيب أيضاً وقبو فيه قفص قائم في ماء قذر. كان القفص أصغر من أن يستطيع رجل الوقوف معتدلاً فيه، وأضيق من أن يجلس فيه. قيل لنا إن الملاَّك كان يستخدمه لمعاقبة الفلاحين، الذين لا يستطيعون دفع إيجاراتهم. وقيل إن إحدى الغرف، كانت لثلاث مرضعات يوفرن له لبناً بشرياً، كان يعتقد أنه مغذّ أكثر من كل أنواع اللبن الأخرى. وقيل إن جاريته رقم ٥، كانت تأكل ثلاثين بطة في اليوم ـ ليس اللحم بل القوائم فقط، التي كانت تعتبر شهية للغاية.

قيل لنا إن شقيق هذا الملاك اللاإنساني المزعوم، هو الآن وزير في الحكومة في بكين، حيث مُنح هذا المنصب مكافأة له على تسليم تشينغدو للشيوعيين، في عام ١٩٤٩. وطول الوقت، فيما يجري تثقيفنا حول «أيام أكل البشر في ظل الكومنتانغ»، كان يجري تذكيرنا بالامتنان لماو.

كانت عبادة ماو تُمارس متساوقة مع استغلال ذكريات الشعب السوداء عن ماضيه. وكان الأعداء الطبقيون يُصوَّرون على أنهم أشرار عتاة، يريدون إعادة الصين إلى أيام الكومنتانغ، الشيء الذي يعني أننا ـ نحن الأطفال، سنفقد مدارسنا وأحذيتنا الشتوية وطعامنا. ولهذا السبب، يجب أن نسحق هؤلاء الأعداء. وقيل إن شيان كاي ـ شيك شنّ هجمات على البرّ، وحاول العودة في عام ١٩٦٢، خلال «الفترة العصيبة» ـ وهو تعبير النظام الملطف عن المجاعة.

رغم كل هذا الكلام والنشاط، ظلّ الأعداء الطبقيون بالنسبة إلي وإلى كثيرين من أبناء جيلي، أشباحاً خيالية مجرّدة. كانوا شيئاً يمتُّ إلى الماضي البعيد جداً. فقد عجز ماو عن إضفاء شكل مادي يومي عليهم. والمفارقة أن أحد أسباب ذلك، هو أنه قضى على الماضي قضاء مبرماً. ولكن غرس فينا أن نتوقع ظهور شكل للعدو.

في الوقت نفسه، كان ماو يزرع بذور تأليهه، وكنتُ وأبناء جيلي منغمرين بهذا التلقين الفظ، ولكن الفعّال. كان فعالاً لأسباب، منها أن ماو احتلّ بذكاء موقع الصدارة على المستوى الأخلاقي: مثلما كانت القسوة مع الأعداء الطبقيين، تُصوَّر على أنها إخلاص للشعب، كان الخضوع التام له مبرقعاً بدعوة خادعة إلى نكران الذات. كان من الصعب جداً إدراك ما يختفي وراء الخطابية، ولا سيما أنه لم تكن هناك وجهة نظر بديلة لدى الكبار من السكان. وقد تواطأ الكبار بشكل إيجابي مع تكريس عبادة ماو.

على امتداد ألفي سنة، كانت لدى الصين شخصية أمبراطور، تجتمع فيه سلطة الدولة والمرجعية الروحية. فالمشاعر الدينية، التي يكنها الناس في مناطق العالم الأخرى تجاه الله، كانت في الصين موجهة دائماً نحو الأمبراطور. وكان والداي، شأنهما شأن مئات ملايين الصينيين، متأثرَيْن بهذا التقليد.

وجعل ماو نفسه أقرب إلى الإله، بالغموض الذي لفّ به نفسه. كان يبدو دائماً

نائياً، بعيداً عن متناول الإنسان. كان يتجنب الراديو، ولم يكن هناك تلفزيون. قلّة من الأشخاص هم الذين يتصلون به، باستثناء حاشيته. حتى زملاؤه في القمة نفسها، كانوا لا يلتقونه إلا في نوع من المقابلات الرسمية. وبعد ينان، لم تقع أنظار أبي عليه إلا بضع مرات، وفي اجتماعات حاشدة فقط. أمي لم تره إلا مرة واحدة، حين جاء إلى تشينغدو، في عام ١٩٥٨، واستدعى كل المسؤولين الذين تزيد درجاتهم على الدرجة ١٨ إلى التقاط صورة جماعية معه. وبعد الفشل الذريع، الذي منيت به «الطفرة الكبرى إلى الأمام»، اختفى بشكل تام تقريباً.

كان ماو، الأمبراطور، ينسجم مع نمط واحد من أنماط التاريخ الصيني: قائد انتفاضة فلاحية، على نطاق الأمة، كنس سلالة عفنة، وأصبح أمبراطوراً جديداً حكيماً، يمارس سلطة مطلقة. وبمعنى ما، يمكن القول إن ماو كسب منزلة الإلّه ـ الأمبراطور التي تبوّأها، بعرق جبينه. فقد كان هو المسؤول عن إنهاء الحرب الأهلية، وإحلال السلام والاستقرار، اللذين طالما تاق الصينيون إليهما ـ حتى إنهم قالوا: «أن يكون المرء كلباً في زمن السلم، خير من أن يكون آدمياً في الحرب». وفي عهد ماو، أصبحت الصين قوة يحسب لها حساب في العالم، وكفّ كثير من الصينيين عن الشعور بالخجل والمهانة من كونهم صينيين، وكان هذا يعني الشيء العظيم لهم. وفي الواقع، أعاد ماو الصين إلى أيام «المملكة الوسطى»، وبمساعدة الولايات المتحدة، أعادها إلى العزلة عن العالم. لقد مكّن الصينيين من الشعور بأنهم عظماء ومتفوّقون مرة أخرى، بتعميتهم عن رؤية العالم الخارجي. مع ذلك، كانت العزّة القومية مهمة للصينيين، حتى إن قسماً كبيراً من السكان، كانوا ممتنين بصدق لماو، ولم يجدوا عبادة شخصيته مهينة، ليس في البداية بكل تأكيد. وكان انعدام إمكان الحصول على المعلومات بشكل مطلق تقريباً، والتضليل الإعلامي المنتظم، يعنيان أن جل الصينيين لم تكن لديهم وسيلة للتمييز بين نجاحات ماو وإخفاقاته، أو معرفة الدور النسبي الذي قام به ماو والقادة الآخرون في إنجازات الشيوعيين.

لم يكن الخوف غائباً قطّ في بناء عبادة ماو. وقد أحيل كثيرون إلى وضع لم يجرؤوا فيه حتى على التفكير، خشية أن تفلت أفكارهم منهم بصورة لا إرادية. وحتى إذا كانت لديهم أفكار لا أرثوذكسية، فإن قلّة كانوا يذكرونها لأطفالهم، لأنهم قد يتلفّظون بشيء مع رفقائهم الأطفال الآخرين، يمكن أن يستنزل كارثة عليهم وعلى

آبائهم. وفي سنوات «التعلم من لي ـ فينغ»، أُدخل في روع الأطفال أن ولاءنا الأول والأوحد، ينبغي أن يكون لماو. وكانت إحدى الأغاني الشعبية تقول: «الأب قريب والأم قريبة، لكن لا الأب، ولا الأم، قريبان قرب الرئيس ماو». وكنا نُدرَّب على التفكير في أن مَنْ ليسوا مع ماو، هم أعداؤنا، حتى إذا كانوا آباءنا. وكان كثير من الآباء يشجّعون أطفالهم على أن ينشأوا ممتثلين، لأن هذا أسلم لمستقبلهم.

كانت الرقابة الذاتية تشمل حتى المعلومات الأساسية. فأنا لم أسمع قطّ عن يو ـ لن، أو عن أقارب جدتي الآخرين. ولا قيل لي عن احتجاز أمي في عام ١٩٥٥، أو عن المجاعة ـ أو أي شيء يمكن أن يزرع فيَّ بذرة شك في النظام، أو في ماو. ووالداي، شأن كل الآباء عملياً في الصين، لم يقولا قط أي شيء لا أرثوذكسي لأطفالهما.

في عام ١٩٦٥، كان القرار الذي اتّخذته بمناسبة السنة الجديدة: «أن أطيع جدتي» ـ وهي طريقة صينية تقليدية للتعهّد بحسن السلوك، فهزّ أبي رأسه: «ينبغي أن لا تقولي ذلك. ينبغي أن لا تقولي سوى «أن أطيع الرئيس ماو»». وفي عيد ميلادي الثالث عشر، في آذار/مارس ذلك العام، لم تكن هدية أبي روايات الخيال العلمي المعتادة، وإنما مجلّد يحوي أعمال ماو الفلسفية الأربعة.

كان شخص واحد فقط من الكبار، يقول لي أشياء تتعارض مع الدعاية الرسمية، وهذا الشخص هو زوجة أبي دينغ شياوبنغ، التي عاشت بعض الوقت في العمارة المجاورة لعمارتنا، مع ابنتها التي تعمل في الحكومة الإقليمية. كانت تحب الأطفال، وكنت أتردّد إلى شقّتها باستمرار. وحين كنت وأصدقائي نسرق المخلّل من المطعم، أو نقطف أزهار الشمام والأعشاب من حديقة المجمع، لم نكن نجرؤ على أخذها إلى البيت خوفاً من التقريع، فكنّا نذهب إلى شقتها، حيث كانت تغسلها وتقليها لنا. وكان ذلك أشدّ إثارة، لأننا كنا نأكل شيئاً محرماً. كانت حينذاك تناهز السبعين، ولكنها تبدو أصغر من سنها. قدماها صغيرتان ووجهها رقيق ناعم، لكنه قوي. كانت دائماً ترتدي سترة قطنية رمادية وتنتعل حذاء قطنياً أسود، من صنع يديها. كانت تسترسل على سجيّتها، وتعاملنا كأنداد. كنت أحب الجلوس في مطبخها ومحادثتها. وفي إحدى المناسبات، وأنا في حوالي الثالثة عشرة، ذهبتُ لزيارتها، مباشرة بعد جلسة انفعالية من جلسات «مُرُّ الكلام». كنت أتفجر شفقة على كل من كان عليه أن

يعيش تحت الكومنتانغ، وقلت: «أيتها الجدة دينغ، لا بد أنكِ عانيت الأمرّين تحت الكومنتانغ الأشرار! لا بدّ أن الجنود نهبوكِ! والملاّك مصّاصو الدماء! ماذا فعلوا بكِ؟». أجابت: «حسناً، إنهم لم يكونوا ينهبون دائماً. . . ولم يكونوا شرّيرين دائماً. . .». نزلت عليّ كلماتها كالصاعقة. وكنت مصدومة، حتى إني لم أقل لأحد قطّ ما قالته.

حينذاك، لم تكن لدى أي منا أية فكرة عن أن عبادة ماو، والتشديد على الصراع الطبقي، كانا جزءاً من مخطّطات ماو، للدخول في مجابهة مع الرئيس ليو شاوتشي ودينغ شياوبنغ، السكرتير العام للحزب. لم يكن ماو مرتاحاً لما يفعله ليو ودينغ. فمنذ المجاعة، أخذا يفتحان الاقتصاد والمجتمع على السواء. كانت هذه المعالجة، بالنسبة إلى ماو، أقرب إلى الرأسمالية منها إلى الاشتراكية. وراعه بصفة خاصة أن ما سمّاه «الطريق الرأسمالي»، كان يثبت نجاحه، في حين اتّضح أن طريقه المختار، الطريق «الصحيح»، كان كارثة. وقد أدرك ماو ذلك بوصفه رجلاً عملياً، واضطرّ إلى السماح لهما بالسير في طريقهما. ولكنه كان يخطّط لفرض أفكاره مجدّداً، حالما تصبح البلاد في وضع جيّد بما فيه الكفاية لتحمّل التجربة، وحالما يتمكّن من توليد ما يكفي من الزخم لإقصاء أعدائه الأقوياء في الحزب.

وجد ماو فكرة التقدّم السلمي فكرة خانقة. وإذ كان قائداً عسكرياً لا يهدأ له بال، ومحارباً ـ شاعراً، فإنه كان في حاجة إلى فعل ـ فعل عنيف ـ وكان يعتبر الصراع البشري الدائم ضرورياً للتطوّر الاجتماعي. أصبح شيوعيّوه أنفسهم أكثر تسامحاً وليونة من أن يروق له ذلك، ساعين إلى إشاعة الوئام بدلاً من النزاع. ولم تكن هناك، منذ عام ١٩٥٩، حملات سياسية، يتصارع فيها الناس!

كان ماو مغتاظاً. شعر أن خصومه أذلّوه بإظهاره غير كفؤ. كان عليه أن ينتقم، كان يحتاج إلى زيادة سلطته بقدر هائل، لأنه يدرك أن خصومه يتمتعون بتأييد واسع، ولكي يحقق ذلك، كان في حاجة إلى أن يؤَلَّه.

انتظر ماو استرداد الاقتصاد لعافيته. ولكن مع تحسّن الاقتصاد، وخاصة بعد عام ١٩٦٤، بدأ يعدّ العدة للافتتاح العظيم للمجابهة. وبدأ يتلاشى الانفتاح النسبي، الذي شهدته أوائل الستينات.

توقّفت حفلات الرقص الأسبوعية في المجمّع، في عام ١٩٦٤، وكذلك الأفلام

القادمة من هونغ كونغ. اختفت عقصات أمي الخفيفة، وظَهَر الشعر المسرَّح القصير. وعادت بلوزاتها وستراتها غير زاهية الألوان ولا لصيقة بالجسم. كانت مصنوعة من ألوان هادئة وبسيطة، وتبدو كأنها أنابيب. شعرتُ بالأسى خاصة على ذهاب تنوراتها. وتذكرتُ كيف كنت أراقبها، حتى الأمس القريب، وهي تترجل عن دراجتها، حاسرة برشاقة تنورتها، المخطّطة بالأزرق والأبيض، عن ركبتها. كنت متكئة على الجذع المرقَّش لشجرة دلْب، تشكل جزءاً من الفُرجة التي تغطي الشارع الكائن خارج المجمع. كانت تنورتها تهفهف، كأنها مروحة، وهي تتوجه نحوي. في أماسي الصيف، كنتُ في أحيان كثيرة أدفع شياو ـ فانغ إلى هناك، في عربته المصنوعة من الخيزران، وأنتظر عودتها إلى البيت.

جدتي، التي كانت حينذاك في منتصف الخمسينات، احتفظت بأمارات أنوثتها، أكثر من أمي. فرغم أن ستراتها ـ كانت لا تزال من الطراز التقليدي ـ أصبحت كلها من لون واحد، هو الرمادي الشاحب، إلا أنها كانت تعتني عناية خاصة بشعرها الأسود، الكثيف الطويل. وبحسب التقليد الصيني، الذي ورثه الشيوعيون، فإن الشعر ينبغي أن يعلو مسافة فوق الكتف لمتوسطات العمر، أي اللواتي تجاوزن الثلاثين. وكانت جدتي تربط شعرها في كعكة أنيقة بمؤخرة رأسها، ولكنها كانت تزينه بالأزهار، أحياناً زهرتين من المغنولية بلون العاج، وأحياناً أخرى، ياسمينة «كيب» بيضاء، تضمّها ورقتان خضراوان غامقتان، زينة في شعرها اللمّاع. لم تستخدم قطّ شامبو من المتاجر. كانت تعتقد أنه سيجعل شعرها شاحباً وجافّاً، ولكنها كانت تغلي ثمر خرنوب العسل الصيني، وتستخدم السائل منه. وكانت تدعك الثمرة لإنتاج رغوة عطرة، وتترك كتلة شعرها الفاحم تسقط ببطء في السائل الزلق، الأبيض، البرّاق. وتنقع أمشاطها الخشبية في عصير بذور الكريب فروت، بحيث ينساب المشط بنعومة في شعرها، ويمنحه شذا خفيفاً. وكانت تضيف لمسة أخيرة بوضع قليل من ماء زهور الأوزمنتوس، تصنعه بنفسها، لأن العطور بدأت تختفي من المتاجر. أذكرُ مراقبتها وهي تمشط شعرها. كان ذلك الشيء الوحيد، الذي تفعله على مهل. وأي شيء آخر، كانت تقوم به بسرعة كبيرة. كانت أيضاً تصبغ حاجبيها قليلاً بقلم من الفحم الأسود، وتضع شيئاً من المسحوق على أنفها. وعندما أرى عينيها تبتسمان في المرآة، بنوع خاص من التركيز الحادّ، أحسب أن هذه اللحظة، لا بدّ أنها كانت من أكثر لحظاتها متعة.

كانت مراقبتها، وهي تعتني بوجهها، أمراً غريباً، رغم أني راقبتها منذ كنت طفلة. فنساء الكتب والأفلام، اللواتي يضعن الماكياج، هنَّ الآن شخصيات شريرة بلا استثناء، كالجواري. وكنت أعرف، بصورة ضبابية، شيئاً يفيد بأن جدتي كانت جارية، ولكني كنت أتعلم العيش مع أفكار وحقائق متناقضة، وأعتادُ تقسيمها إلى فئات خاصة. وحين أخذت أخرج للتسوق مع جدتي، بدأتُ أدرك أنها تختلف عن الآخرين بمكياجها، مهما كان خفيفاً، وبالزهور في شعرها. كان الناس يلاحظون ذلك فيها. وكانت تمشي باعتداد، جسمها معتدل، مع قدر منضبط من وعي الذات.

كانت تستطيع أن تفعل ذلك، وتفلت من العاقبة، لأنها تعيش في المجمع. ولو كانت تعيش خارجه، لوقعت تحت لجنة من لجان السكان، التي تشرف على حياة كل راشد ليس لديه عمل، وبالتالي لا ينتمي إلى وحدة عمل. وكانت اللجان تضمّ، عادة، رجالاً متقاعدين وربات بيوت مسنّات، وأصبح البعض منهم سيّئي الصيت، لتطفّلهم على الآخرين، ودسّ أنوفهم في ما لا يعنيهم. لو وقعت جدتي في يد واحدة من هؤلاء لتلقّت تلميحات استهجان أو انتقادات سافرة. ولكن المجمع كان بلا لجنة. كان عليها أن تذهب، مرة في الأسبوع، للاجتماع مع حموات وخادمات وحاضنات أخريات من المجمّع، حيث تنقل إليهنّ سياسات الحزب، ولكنها في الغالب تُركتْ وشأنها. في الحقيقة، كانت تستمتع بالاجتماعات. وتحظى بفرصة لتبادل أطراف الحديث مع النساء الأخريات، وكانت دائماً تأتي إلى البيت متهللة لسماع آخر القيل والقال.

غَزَتْ السياسة حياتي أكثر فأكثر، بعد أن انتقلتُ إلى المدرسة المتوسطة، في خريف ١٩٦٤. ففي يومنا الأول، قيل إنه ينبغي أن نشكر الرئيس ماو على وجودنا هنا، لأن «نهجه الطبقي» طُبّق على تسجيلنا تلك السنة. وكان ماو اتّهم المدارس والجامعات بوقوعها تحت «احتلال البورجوازية»، وأوعز بأنها ينبغي أن تعاد الآن إلى الطبقة العاملة، وتُعطى الأولوية للأبناء والبنات ذوي «الأصول الطيبة» (تشو ـ شَن هاو). ما يعني أن يكون الوالدان، وخاصة الأب، من العمال أو الفلاحين أو الجنود أو المسؤولين الحزبيين. وكان تطبيق هذا المعيار «الطبقي» على المجتمع بأسره، يعني أن مصير المرء يتقرّر، أكثر من أي وقت مضى، من خلال عائلته ومصادفة مولده.

ولكن موقع العائلة كان، في أحيان كثيرة، موقعاً مبهماً: العامل ربما كان مُسْتَخدماً في مكتب من مكاتب الكومنتانغ. والكاتب لا ينتمي إلى أيّ فئة، والمثقف «غير مرغوب فيه». ولكن ماذا لو كان عضواً في الحزب؟ كيف ينبغي تصنيف أطفال آباء كهؤلاء؟ قرّر الكثير من موظفي التسجيل، أن يختاروا الطريق الأسلم، الذي يعني إعطاء الأولوية للأطفال، الذين آباؤهم مسؤولون حزبيون. وكان هؤلاء يشكّلون نصف التلاميذ في صفي.

كانت مدرستي الجديدة، «المدرسة المتوسطة رقم ٤»، المدرسة الأساسية الأولى في كل الإقليم، تقبل الطلاب الذين لديهم أعلى العلامات في امتحانات القبول لعموم سيشوان. في السنوات السابقة، كان القبول يتقرّر حصراً على أساس نتائج الامتحانات. وفي سنتي، كانت علامات الامتحان والأصول العائلية، على قدر واحد من الأهمية.

حصلتُ في وَرَقَتي الامتحان على علامة ١٠٠ في المئة في الرياضيات، و ١٠٠ في المئة «امتياز» في اللغة الصينية. فقد كان أبي لا يني يغرس في ذهني، أن لا أعتمد على اسم والديَّ، ولم أحبّ أن يقال إن «النهج الطبقي» ساعدني على دخول المدرسة. ولكني ما لبثت أن توقفت عن التفكير في الأمر. فإذا كان هذا ما يقوله الرئيس ماو، لا بدّ أن يكون جيّداً.

في تلكم الفترة، أصبح أطفال «المسؤولين الكبار» (غاو ـ غان زي ـ دي) شريحة قائمة بذاتها تقريباً. واعتمدوا سلوكاً، كان يعلن هويّتهم على نحو لا يقبل اللبس، بوصفهم أفراد فئة نخبوية، ينضحون وعياً بما لديهم من دعم قوي وحصانة. وأصبح الكثير من أطفال المسؤولين الكبار، الآن، أكثر عجرفة واستعلاء من أي وقت مضى، ومن ماو فنازلاً، كان يجري التعبير باستمرار عن الاهتمام بسلوكهم. وغدا ذلك موضوعة متكرّرة في الصحافة. وكل هذا لم يؤدِّ إلا إلى تكريس الفكرة القائلة إنهم فئة خاصة.

كان أبي كثيراً ما يحذّرنا من هذا السلوك، ومن تشكيل زمر مع أطفال كبار المسؤولين الآخرين. وكانت النتيجة قلّة ما لدي من أصدقاء، لأني نادراً ما كنت ألتقي بأطفال من أي أصول أخرى. وحين كنتُ أحتكّ بهم، كنت أجد أننا مكيفون جداً لأهمية الأصل العائلي وانعدام الخبرة المشتركة، بحيث كان يبدو أن هناك القليل مما هو مشترك بيننا.

حين دخلت المدرسة الجديدة، جاء معلّمان لمقابلة والديَّ، لكي يعرفا أي لغة أجنبية أريد أن أتعلّم. فاختارا الانكليزية بدلاً من الروسية، التي كانت الخيار الآخر الوحيد. كما أراد المعلمان أن يعرفا، إن كنت سآخذ الفيزياء أو الكيمياء في سنتي الأولى. قال والداي إنهما يتركان ذلك للمدرسة.

أحببتُ المدرسة مذ دخلتها. كان لها بوابة مهيبة، بسطح عريض من البلاط الأزرق والأفاريز المقوّسة. تؤدي إليها عدة درجات حجرية، وكان الرواق المقنطر مسنوداً بستة أعمدة من الخشب الأحمر. وتسورها صفوف متناظرة من أشجار السرو الدكناء الخضرة، تزيد جوّ المهابة، وصولاً إلى الداخل.

تأسّست المدرسة في سنة ١٤١ قبل الميلاد. وكانت أول مدرسة فتحتها حكومة محلية في الصين. في مركزها معبد رائع، كان مكرّساً في السابق لكونفوشيوس. وقد تمّ الحفاظ عليه في حالة جيّدة، ولكنه أمسى لا يعمل كمعبد. وفي الداخل، كان نصف دزينة من طاولات البنغ بونغ، تفصل بينها الأعمدة الضخمة. وأمام الأبواب المحفورة، تحت سلسلة طويلة من الدرجات، كانت تمتدّ ساحة واسعة، كطريق مهيب إلى المعبد. شُيّد مبنى تعليمي من طابقين، يعزل الساحة عن جدول عليه ثلاث قناطر صغيرة تزينها تماثيل أسود مصغّرة وحيوانات أخرى، تجلس على حافّاتها الحجرية. وراء القناطر، كانت حديقة جميلة تحيط بها أشجار الدراق والدُّلْب. وأقيمت مبخرتان نحاسيتان عملاقتان، أسفل الدرجات، أمام المعبد، إلا أنه لا يتصاعد منهما دخان أزرق ثم يبقى عالقاً في الهواء فوقهما. وقد حُوِّلت الساحات، على جوانب المعبد، إلى ملاعب لكرة السلة والكرة الطائرة. وعلى مبعدة منها، يوجد مَرْجان، كنّا نجلس أو نستلقي فيهما في الربيع، ونستمتع بالشمس خلال فترة الغداء. وراء المعبد، كان مَرْج آخر، ينداح بعده بستان كبير، تحت ربوة صغيرة مكسوّة بالأشجار والكروم والأعشاب.

كانت تتناثر هنا وهناك مختبرات، ندرس فيها البيولوجيا والكيمياء، ونتعلّم استخدام المجهر، ونُشَرِّح حيوانات ميتة. وفي قاعات المحاضرات، كنا نشاهد أفلاماً تعليمية. وفي الأنشطة ما بعد المدرسية، كنت أستمتع مع مجموعة البيولوجيا التي تطوف حول الربوة والحديقة الخلفية مع المعلم، متعلمة أسماء النباتات المختلفة وخصائصها. وكانت هناك صناديق استيلاد، متحكّم في درجة حرارتها، لكي نراقب

فيها كيف تخرج فراخ الضفدع والبطّ من بيوضها. في الربيع، تصبح المدرسة بحراً من اللون الوردي، بسبب أشجار الدراق. ولكن ما كنت أحبه أكثر من أي شيء آخر، هو المكتبة ذات الطابقين، المبنية على الطراز الصيني التقليدي. كان المبنى مطوّقاً بأروقة مقنطرة، وكان خارج هذه الأروقة مغلفاً بصف من المقاعد المطلية طلاء جميلاً، كانت على شكل أجنحة. كان لدي زاوية أثيرة من هذه «المقاعد الأجنحة» (في - لي - يي)، حيث كنت أجلس ساعات، مستغرقة في القراءة، أمدّ ذراعي أحياناً لملامسة الأوراق المروحية لشجرة جنكة نادرة. كان هناك شجرتان منها خارج البوابة الأمامية للمكتبة، شامختان وأنيقتان. كانتا المنظر الوحيد، الذي يستطيع أن يلهيني عن كتبي.

ذكرياتي الأكثر وضوحاً هي عن معلمِيَّ. كانوا الأحسن في مجال اختصاصهم. كان العديد منهم من الدرجة الأولى، أو من الدرجة الخاصة. وكانت دروسهم متعة خالصة، لم أشبع منها قطّ.

ولكن التلقين السياسي، أخذ يزحف أكثر فأكثر على الحياة المدرسية. وبالتدريج، أصبح الاجتماع الصباحي مكرّساً لتعاليم ماو، كانت تُعقد جلسات خاصة، نقرأ فيها وثائق الحزب. وصار كتابنا المدرسي باللغة الصينية، يحتوي دعاية أكثر وأدباً كلاسيكياً أقلّ، وأصبحت السياسة، التي تتألف بالدرجة الرئيسية من أعمال ماو، جزءاً من المنهج.

أصبح كل نشاط تقريباً نشاطاً مسيّساً. وذات يوم، في الاجتماع الصباحي، قال لنا المدير إننا سنمارس تمارين للعين. قال إن الرئيس ماو، لاحظ أن الكثير من تلاميذ المدارس يضعون نظارات، وتلكم علامة على أذى عيونهم بالانكباب على العمل المُجدّ. وقد أمر بعمل شيء ما لمعالجة ذلك. كنا جميعاً شديدي التأثر باهتمامه. وبعضنا بكى امتناناً. بدأنا نمارس تمارين للعين، لمدة خمس عشرة دقيقة، كل صباح. واستحدث الأطباء مجموعة من الحركات تؤدّى على الموسيقى. وبعد دعك نقاط مختلفة حول عيوننا، كنا جميعاً نحدق بتركيز إلى صفوف أشجار الحور والصفصاف، خارج النافذة، إذ إن الأخضر لون مريح. ولأني كنت أستمتع بالراحة التي تسفر عنها التمارين، فقد فكرتُ في ماو، وقطعت عهداً بالولاء له.

كانت إحدى الموضوعات المتكرّرة، أننا يجب أن لا نسمح للصين بـ «تغيير

اللون»، أي التحوّل من الشيوعية إلى الرأسمالية. وكان الخلاف بين الصين والاتحاد السوفياتي، الذي أُبقي سرّاً في البداية، قد انفجر إلى العلن في أوائل عام ١٩٦٣. وقيل لنا إنه منذ أن جاء خروشوف إلى السلطة، بعد موت ستالين في عام ١٩٥٣، استسلم الاتحاد السوفياتي للرأسمالية العالمية، وإن الأطفال الروس أعيدوا مجدّداً إلى المعاناة والتعاسة، تماماً كالأطفال الصينيين في عهد الكومنتانغ. وذات يوم، بعد تحذيرنا، عدداً لا يحصى من المرات، من الطريق الذي سارت فيه روسيا، قال لنا معلمنا في درس السياسة: «إذا لم تحترسوا، فإن بلادنا ستغير اللون تدريجاً، في البداية من الأحمر البرّاق إلى الأحمر الشاحب، ثم إلى الرمادي، ثم إلى الأسود». واتّفق أن تعبير «أحمر شاحب» السيشواني له لفظ اسمي تماماً (إير ـ هونغ). كر زملاء صفي، وكنت أستطيع أن أراهم يسترقون النظرات نحوي. شعرت أنني يجب أن أتخلّص من اسمي على الفور. ومساء ذلك اليوم، توسلت إلى أبي أن يمنحني اسماً آخر. اقترح «جانغ»، الذي يعني «نثراً» و «النبوغ المبكر»، تعبيراً عن رغبته في أن أصبح كاتبة جيدة في سنّ مبكرة. ولكني كنت لا أريد هذا الاسم. وقلت لأبي إني أريد «شيئاً له رنين عسكري». الكثير من أصدقائي غيّروا أسماءهم ليدمجوا فيها رموزاً تعني «جيشاً» أو «جندياً». وكان خيار أبي يعكس علمه الكلاسيكي. واسمي الجديد «يونغ» كلمة قديمة جداً ومبهمة لعبارة «شؤون مادية»، كانت لا تظهر إلا في الشعر الكلاسيكي وبعض التعابير العتيقة. وكان يستحضر صورة معارك ماضية، بين فرسان يرتدون دروعاً برّاقة، برماح تزيّنها الشرابات، على خيول صاهلة. حين ظهرتُ في المدرسة باسمي الجديد، لم يتمكن حتى بعض المعلمين من التعرف بالرمز.

في هذا الوقت دعا ماو البلاد إلى الانتقال من التعلّم من لي فينغ إلى التعلم من الجيش. وبقيادة لن بياو، الذي خلف المارشال بينغ دهواي، في عام ١٩٥٩، أصبح الجيش رائد عبادة ماو. وكان ماو يريد أيضاً تجييش الأمة أكثر. وكان قد كتب لتوه قصيدة، أُشيعت على نطاق واسع، تدعو المرأة إلى «نزع الأنوثة، وارتداء الزي العسكري». وقيل لنا إن الأميركيين يتحيّنون الفرصة للقيام بغزو وإعادة الكومنتانغ، ولدحر غزوهم كان لي فينغ يتدرّب ليل نهار، من أجل التغلّب على بنيته الضعيفة، ويصبح رامي قنابل يدوية بطلاً. وفجأة، اكتسب التدريب البدني أهمية حيوية. كان هناك ركض وسباحة وقفز عالٍ وتمارين على المتوازيين ورمي قنابل يدوية خشبية،

كلها إلزامية. وبالإضافة إلى ساعتين من الرياضة، أسبوعياً، أصبحت الرياضة لمدة ٤٥ دقيقة، بعد المدرسة، إلزامية ايضاً.

كنتُ دائماً متخلّفة بلا رجاء في الألعاب الرياضية، وكنت أكرهها، باستثناء التنس. في السابق، لم تكن لذلك أهمية، ولكنه الآن ارتدى دلالة سياسية بشعارات من قبيل: «ابنوا جسماً قوياً للدفاع عن وطننا الأم». ولسوء الحظ، أن نفوري من الرياضة ازداد تحت هذا الضغط. وعندما كنت أحاول السباحة، وكانت ترتسم في ذهني دائماً صورة الأميركيين الغزاة، وهم يلاحقونني إلى ضفة نهر هائج. ولأنني لم أكن أتقن العوم، فإن خياري الوحيد كان الغرق، أو الوقوع في أسر الأميركيين والتعذيب على أيديهم. سبّب لي الخوف، في أحيان كثيرة، تشنّجات في الماء، وذات مرة، اعتقدتُ أني غارقة في حوض السباحة. ورغم السباحة الإجبارية كل أسبوع، خلال الصيف، فإني لم أتمكّن قط من تعلّم العوم، طول الوقت الذي عشته في الصين.

رمي القنابل اليدوية كان أيضاً يعتبر بالغ الأهمية، لأسباب واضحة. وكنتُ دائماً الأخيرة فيه. لم أتمكن من رمي القنابل اليدوية الخشبية، التي نتمرّن بها، إلا ياردات قليلة. وشعرتُ أن زملاء صفي يشكّكون في عزيمتي على مقاتلة الإمبرياليين الأميركيين. وذات يوم، في اجتماعنا السياسي الأسبوعي، علّق أحدهم على فشلي المستمر في رمي القنبلة اليدوية. وكنت أحسّ بعيون تلاميذ الصف تنهشني كالإبر، كأنها تقول: «إنك أمَّعة للأميركيين!». في صباح اليوم التالي، ذهبتُ إلى الميدان الرياضي، ووقفت في إحدى زواياه، ذراعاي ممدودتان أمامي، وفي كل يد كتلتان من الآجر. في يوميات لي فينغ، التي استظهرتها، قرأتُ أن هذه هي الطريقة التي شدَّ بها عضلاته لرمي القنابل اليدوية. بعد أيام قليلة، عندما احمر عضداي وتورما، استسلمتُ، وكلما قدِّمت لي الكرة الخشبية، كنت أشعر بتوتّر، حتى إن يديَّ كانتا ترتجفان دون أن أتمكّن من السيطرة عليهما.

ذات يوم من عام ١٩٦٥، قيل لنا، فجأة، أن نخرج ونبدأ بإزالة كل العشب من المروج. فقد أفتى ماو بأن العشب والزهور والاحتفاظ بحيوانات أليفة، هي عادات بورجوازية، ينبغي القضاء عليها. العشب في مروج مدرستنا، كان من نوع لم أرَه في أي مكان خارج الصين. واسمه يعني بالصينية «المربوط بالأرض». فهو يزحف مغطياً

سطح الأرض الصلب، ويمدّ آلاف الجذور، التي تشقّ التربة كأنها مخالب من فولاذ. وتحت الأرض، تتفتح وتعطي مزيداً من الجذور، التي تتشعّب في كل اتجاه. وبسرعة خاطفة، تكون هناك شبكتان، شبكة فوق الأرض، وشبكة تحتها، تتعانقان وتتشبثان بالأرض، كأنهما أسلاك معدنية معقّدة مُسمَّرة في الأرض. وكثيراً ما كانت الضحية الوحيدة أصابعي، التي تخرج دائماً مثخنة بجروح طويلة غائرة. وكان بعض الجذور عصية، لا تزول إلا عند مهاجمتها بالمساحي. ولكن أية بقية منها تُترك كانت تعود ظافرة، بعد ارتفاع طفيف في درجة الحرارة، أو مطر ثلجي خفيف، وكان علينا أن نخوض المعركة من جديد.

كان التعامل مع الزهور أسهل، ولكنها كانت تزال بصعوبة أكثر، لأن ما من أحد كان يريد اقتلاعها. كان ماو قد هاجم الزهور والعشب عدة مرات من قبل، قائلاً إن الكرنب والقطن، ينبغي أن يحلاّ محلّها. ولكنه لم يتمكّن، إلا الآن، من توليد ما يكفي من الضغط للتحقّق من تنفيذ أمره ـ ولكن إلى حدٍّ معين فقط. فقد كان الناس يحبّون ما زرعوه من نبات، وصمدت بعض جنينات الزهور أمام حملة ماو.

شعرتُ بحزن عميق على زوال النبتات البديعة. ولكني لم أحقد على ماو، بل على العكس، كرهتُ نفسي لشعوري بالتعاسة. حينذاك، كنت قد تمرّستُ بعادة «النقد الذاتي»، وكنت ألوم نفسي، تلقائياً، على أي نوازع تتعارض مع توجيهات ماو. كانت مثل هذه المشاعر، في الحقيقة، تخيفني. ولم يكن وارداً أن أناقشها مع أحد. بدلاً من ذلك، حاولتُ كبتها، والتحلّي بطريقة التفكير السليمة، وعشت في حالة من الاتهام الذاتي الدائم.

كان مثل هذه المعاينة الذاتية والنقد الذاتي، سمة من سمات صين ماو. كان يقال لنا إنكم تستطيعون أن تصبحوا شخصاً جديداً وأفضل. ولكن كل هذه المراجعة الداخلية، لم يكن الهدف منها خدمة أي غرض، إلا خلق شعب بلا أفكار خاصة به.

ما كان الجانب الديني من عبادة ماو ليكون ممكناً في مجتمع علماني، تقليدياً، مثل الصين، لو لم تكن هناك منجزات اقتصادية تثير الإعجاب. فقد كان إنقاذ البلاد من المجاعة مذهلاً، وكان مستوى المعيشة يتحسّن بصورة دراماتيكية. وفي تشينغدو، رغم الاستمرار في توزيع الرزّ بنظام الحصص، فقد كان هناك وفرة من اللحوم والدواجن والخضار. وكان الشمام الشتوي واللّفت والباذنجان، مكدّسة على الأرصفة

خارج الدكاكين، لأنه لم يكن هناك مكان لخزنها. تُترك في الخارج، أثناء الليل، ولم يكن أحد يأخذها تقريباً. كانت الدكاكين تبيعها بأسعار بخسة. والبيض الذي كان عزيزاً في السابق، صار متوافراً، يتعفّن في سلال كبيرة ـ هناك أكثر مما ينبغي منه. وقبل سنوات قليلة فقط، كان من الصعب العثور على درّاقة واحدة ـ والآن يجري التشجيع على أكل الدراق بوصفه عملاً «وطنياً»، وكان المسؤولون يدورون على بيوت الناس، ويحاولون إقناعهم بأخذ الدراق مقابل لا شيء تقريباً.

كان هناك عدد من قصص النجاح، التي زادت البلاد عزّة وافتخاراً. ففي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٤، فجّرت الصين قنبلتها الذرية الأولى. وقد أُحيط ذلك بدعاية ضخمة، وقُدّم على أنه إثبات لما حقّقته البلاد من إنجاز علمي وصناعي، وخاصة بالارتباط مع «التصدي للعتاة الإمبرياليين». وتزامن تفجير القنبلة الذرية مع إقصاء خروشوف، الذي صُوِّر على أنه دليل يؤكّد أن ماو كان، مرة أخرى، على صواب. وفي عام ١٩٦٤، اعترفت فرنسا بالصين على مستوى السفارات، فكانت أول دولة غربية كبرى تفعل ذلك. واستُقبل ذلك بنشوة داخل الصين، بوصفه انتصاراً كبيراً على الولايات المتحدة، التي كانت ترفض الاعتراف بمكانة الصين في العالم.

يضاف إلى ذلك، أنه لم يكن هناك اضطهاد سياسي عام، وكان الناس راضين نسبياً. وجُيِّر كل الفضل لمصلحة ماو. رغم أن القادة الكبار في القمّة، كانوا يعرفون مساهمة ماو الحقيقية، فقد أُبقي الشعب في الظلام تماماً. وعلى مرّ السنين، كنت أُدبِّج المدائح المتّقدة عاطفة، أشكر فيها ماو لمنجزاته، وأعاهده على الولاء إلى الأبد.

كنت في الثالثة عشرة، في عام ١٩٦٥. وفي عشية الأول من تشرين الأول/أكتوبر من ذلك العام، يوم الذكرى السنوية السادسة عشرة لتأسيس الجمهورية الشعبية، كان هناك عرض كبير للألعاب النارية، فوق الميدان في مركز تشينغدو. وإلى الشمال من الميدان، كانت البوابة المؤدّية إلى قصر أمبراطوري قديم، أعيد مؤخراً إلى روعته التي كان عليها في القرن الثالث، عندما كانت تشينغدو عاصمة مملكة، ومدينة مسورة مزدهرة. كانت البوابة كبيرة الشبه، باستثناء لونها، ببوابة السلام السماوي في بكين، التي تشكل الآن مدخل المدينة المحرّمة: لها سطوح ذات بلاط أخضر وأسوار رمادية. وتحت السطح المزجّج للمقصورة، تنتصب أعمدة هائلة ذات لون أحمر

غامق. ودرابزيناتها مصنوعة من المرمر الأبيض. كنت أقف وراءها مع عائلتي ووجهاء سيشوان، على منصّة استعراضات، مستمتعة بالأجواء المهرجانية، ومنتظرة بدء الألعاب النارية. وتحت، في الميدان، كان ٥٠ ألف شخص يغنّون ويرقصون. بوم! بوم! لقد انطلقت الإشارات إيذاناً بالألعاب النارية، على بعد ياردات قليلة من المكان الذي أقف فيه. وفي لحظة، كانت السماء حديقة من الأشكال والألوان الرائعة، بحراً من الألق، في موجة إثر أخرى. الموسيقى والأصوات تتصاعد من تحت البوابة الأمبراطورية، لتنضمّ إلى العرض الفخم. وبعد قليل، كانت السماء صافية لبضع دقائق. ثم تفتَّحَ انفجار مفاجىء عن زهرة رائعة، أعقبها نشر لافتة حريرية واسعة طويلة، امتدّت في وسط السماء مترجحة برقّة في نسيم الخريف. وفي الضوء المسلّط فوق الميدان، كانت الرموز المكتوبة على اللافتة تتلألأ: «عاش قائدنا العظيم، الرئيس ماو!». قفزت الدموع من عينيَّ. وأخذت أردّد في نفسي: «يا لي من محظوظة! يا لي من محظوظة بقدر لا يصدّق، أن أعيش في عهد ماو العظيم! كيف يستطيع الأطفال في العالم الرأسمالي أن يستمرّوا في العيش دون أن يكونوا قريبين من الرئيس ماو وبلا أمل في رؤيته شخصياً ذات يوم؟». كنت أريد أن أفعل شيئاً من أجلهم، أن أنقذهم من محنتهم. وقطعت عهداً على نفسي، لحظتئذٍ، وبلا تردّد، أن أعمل جاهدة على بناء صين أقوى من أجل دعم الثورة العالمية. كنت في حاجة إلى العمل المثابر ليحق لي أن أرى الرئيس ماو أيضاً. كان ذلك هو غاية حياتي.

١٥ ـ «دمروا أولاً، والبناء سيتكفل بنفسه» ـ بدء الثورة الثقافية (١٩٦٥ ـ ١٩٦٦)

في بداية الستينات، ورغم كل الكوارث التي سبّبها ماو، كان لا يزال قائد الصين الأعلى، الذي يعبده السكان. ولكن لأن البراغماتيين كانوا، في الواقع، يديرون البلاد، فقد كان هناك حرية أدبية وفنية نسبية. وظهرت، بعد سبات طويل، طائفة من المسرحيات والأوبرات والأفلام والروايات. لم يكن أيّ منها يهاجم الحزب هجوماً سافراً، وكانت الموضوعات العصرية نادرة. في هذا الوقت، كان ماو في موقف دفاعي، وأخذ يلجأ أكثر فأكثر إلى زوجته، جيانغ تشنغ، التي كانت ممثلة في الثلاثينات. وقد قرّرا أن موضوعات تاريخية تستخدم للغمز من قناة النظام، بل من قناة ماو نفسه.

كان هناك في الصين تقليد قوي في استخدام التلميح التاريخي، للتعبير عن المعارضة. وحتى الإيحاءات الباطنية، كانت تُفهم على نطاق واسع بوصفها إشارات مشفَّرة إلى الحاضر. وفي نيسان/إبريل ١٩٦٣، منع ماو كل «الأعمال الدرامية الشبحية»، وهي ضرب من الفن، غني بالحكايات القديمة عن انتقام أرواح الضحايا القتلى من الذين اضطهدوهم. فعنده، أن هؤلاء المنتقمين الأشباح قريبون، على نحو غير مريح، من الأعداء الطبقيين، الذين هلكوا تحت حكمه.

كما وجّه الزوجان اهتمامهما نحو نوع آخر، هو «مسرحيات ماندارن المنغ» التي كان بطلها هاي روِي، وهو موظف كبير (ماندارن) من سلالة المنغ (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤). وإذ كان «ماندارن المنغ» تجسيداً مشهوراً للعدل والشجاعة، فقد كان يحتجّ

لدى الأمبراطور باسم معاناة الناس البسطاء، مخاطراً بحياته نفسها، وقد تعرّض للطرد والنفي. وارتاب الزوجان من أن «ماندارن المنغ» يُستخدم لتمثيل المارشال بينغ دهواي، وزير الدفاع السابق، الذي جاهر، في عام ١٩٥٩، بوقوفه ضدّ سياسات ماو الكارثة، المسؤولة عن المجاعة. وبعيد طرد بينغ، كان هناك انبعاث ملحوظ لنوع من «ماندارن المنغ». حاولت السيدة تشنغ أن تحصل على إدانة للمسرحيات، ولكنها عندما فاتحت الكتّاب والوزراء المسؤولين عن الفنون، لم تلقَ منهم آذاناً صاغية.

في عام ١٩٦٤، أعدّ ماو قائمة بتسعة وثلاثين فناناً وكاتباً وعالماً لإدانتهم. وقد وصمهم بكونهم «مراجع بورجوازية رجعية»، وهي فئة جديدة من الأعداء الطبقيين. كان من الأسماء اللامعة على القائمة، أشهر كاتب مسرحي لنوع «ماندارن المنغ»، وهو وو هان، والبروفسور ما ين ـ تشو، الذي كان أول اقتصادي كبير يدعو إلى تحديد النسل. وكان، بسبب ذلك، قد سمي يمينياً، في عام ١٩٥٧. ثم أدرك ماو، فيما بعد، أن تحديد النسل ضروري، ولكنه حقد على البروفسور ما ين، لأنه كَشَفه وفضح خطأه.

لم يعلن ماو القائمة. ولم يتعرض الأشخاص التسعة والثلاثون للتطهير من قبل منظماتهم الحزبية. فقد وزّع القائمة على المسؤولين، حتى مستوى أمي، مع تعليمات باصطياد «مراجع بورجوازية رجعية» أخرى. وفي شتاء ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥، أُرْسِلت أمي، على رأس فريق عمل، إلى مدرسة اسمها «سوق الثيران». وقيل لها أن تبحث عن مشبوهين بين المعلمين المرموقين، ومن ألَّفوا كتباً، أو كتبوا مقالات.

ارتاعت أمي، لا سيما أن التطهير كان يهدّد الأشخاص أنفسهم، الذين كانوا الأكثر استثاراً بإعجابها. يضاف إلى ذلك أنها كانت ترى بوضوح أنها حتى لو بحثت عن «أعداء»، فلن تعثر على أحد منهم. إذ إن قلّة هم الذين كانوا يجرؤون، بعد حملات الملاحقة الأخيرة، على فتح أفواههم. نقلت أمي مشاعرها إلى مسؤولها السيد باو، الذي كان مسؤولاً عن الحملة في تشينغدو.

مرّ عام ١٩٦٥، ولم تفعل أمي شيئاً. ولم يمارس السيد باو أيّ ضغط عليها. وكان تقاعسهما يعكس المزاج العام بين المسؤولين الحزبيين. فمعظمهم ضاقوا ذرعاً بحملات الاضطهاد، وكانوا يريدون المضيّ في تحسين مستوى المعيشة وبناء حياة طبيعية. ولكنهم لم يعارضوا ماو علناً، بل استمروا في ترويج عبادة شخصه. وكان

القلّة، الذين يراقبون تأليه ماو بتوجّس، يعرفون أنه ليس في وسعهم القيام بشيء لإيقافه. فلدى ماو من السلطة والسمعة، ما يجعل عبادته لا تُقاوَم. وكان أقصى ما يستطيعون فعله ممارسة نوع من المقاومة السلبية.

فسَّر ماو ردّة فعل المسؤولين الحزبيين على دعوته إلى مطاردة الساحرات، بأنها مؤشر إلى أن ولاءهم له أخذ يفتر، وأن قلوبهم مع السياسات التي ينتهجها الرئيس ليو ودينغ. وتأكّدت شكوكه، عندما رفضت صحف الحزب أن تنشر مقالة تشجب وو هان ومسرحيته، حول «ماندارن المنغ». وكان غرض ماو من دفع المقالة إلى النشر، إشراك السكان في مطاردة الساحرات. وهو، الآن، يشعر أنه معزول عن رعيّته بالمنظومة الحزبية التي كانت الوسيط بينه وبين الشعب. لقد فقد، من الناحية العملية، زمام السيطرة. فقد وقفت اللجنة الحزبية لمدينة بكين، حيث وو هان نائب العمدة، والقسم المركزي للشؤون العامة، الذي كان مسؤولاً عن الإعلام والفنون، في وجه ماو، رافضين إدانة وو هان أو طرده.

شعر ماو أنه مهدّد. رأى في نفسه شخص ستالين، يوشك أن يدينه خروشوف، وهو لا يزال على قيد الحياة. فأراد أن يوجّه ضربة وقائية، ويدمّر الرجل الذي يعتبره «خروشوف الصين»، ليو شاوتشي، ورفيقه دينغ، فضلاً عن أتباعهما في الحزب. وسمى ذلك، مخاتلة، «الثورة الثقافية». كان يعرف أنه سيخوض معركته وحيداً، ولكن هذا منحه ارتياحاً مهيباً من الشعور بأنه يتحدى العالم كلّه، ولا شيء أقل من ذلك، وأنه يناور على نطاق عظيم. واتسم بمسحة من الشفقة على الذات، عندما صوَّر نفسه بطلاً تراجيدياً، ينازل عدواً جباراً ـ مكنة الحزب الضخمة.

في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٥، بعد أن فشل ماو مراراً في نشر المقالة التي تدين مسرحية وو هان في بكين، تمكّن أخيراً من دفعها إلى النشر في شنغهاي، حيث كان أتباعه في موقع المسؤولية. وفي هذه المقالة، ظهر مصطلح «الثورة الثقافية»، للمرة الأولى. ورفضت صحيفة الحزب، صحيفة «الشعب» اليومية، إعادة نشرها، وكذلك فعلت صحيفة «بكين» اليومية، صوت منظمة الحزب في العاصمة. في الأقاليم، نشر بعض الصحف المقالة. وحينذاك كان أبي يشرف على صحيفة الحزب الإقليمية، صحيفة «سيشوان» اليومية، وكان ضدّ إعادة نشر المقالة، التي أحسّ أنها هجوم على المارشال بينغ، ودعوة إلى شنّ حملة لمطاردة الساحرات. ذهب لمقابلة

مسؤول الشؤون الثقافية في الإقليم، الذي اقترح الاتصال هاتفياً بدينغ شياوبنغ. لم يكن دينغ في مكتبه، وتسلّم المكالمة المارشال هو لونغ، صديق دينغ الحميم، وعضو المكتب السياسي. وكان هو الذي سمعه أبي يقول، في عام ١٩٥٩: «في الحقيقة ينبغي أن يكون هو (دينغ) الجالس على العرش». وقال هُو بعدم نشر المقالة.

كانت سيشوان من آخر الأقاليم التي نشرت المقالة، حيث لم تفعل ذلك إلاّ في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر، بعد فترة من إقدام صحيفة «الشعب» اليومية على نشرها في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر. لم تظهر المقالة في صحيفة «الشعب» اليومية، إلا بعد أن أضاف شو إن لاي، رئيس الوزراء، الذي برز بوصفه قوة حفظ السلام في الصراع على السلطة، ملاحظة إليها، باسم «المحرّر»، تقول إن «الثورة الثقافية» ينبغي أن تكون نقاشاً «أكاديمياً»، أي أنها ينبغي أن لا تكون سياسية، وأن لا تفضي إلى إدانات سياسية.

خلال الأشهر الثلاثة التالية، كانت هناك مناورات محمومة، حاول فيها خصوم ماو، وكذلك شو، تفادي حملة ماو، على غرار مطاردة الساحرات. وفي شباط/ فبراير ١٩٦٦، حين كان ماو خارج بكين، اتّخذ المكتب السياسي قراراً بأن «النقاشات الأكاديمية»، يجب أن لا تنحطّ إلى ملاحقات. وقد اعترض ماو على هذا القرار، ولكنه قوبل بالتجاهل.

في نيسان/ أبريل، طُلِبَ من أبي أن يعدّ وثيقة بروح قرار المكتب السياسي في شباط/ فبراير، لتوجيه «الثورة الثقافية» في سيشوان. وما كتبه أصبح معروفاً باسم «وثيقة نيسان/ أبريل». وجاء فيها: «إن المناظرات يجب أن تكون أكاديمية حصراً. وينبغي عدم السماح بأي اتّهامات هوجاء. فالجميع متساوون أمام الحقيقة. والحزب يجب أن لا يستعمل القوة لقمع المثقفين».

وفيما أوشكت الوثيقة أن تُنشر في أيار/ مايو، أُوقف نشرها، على نحو مفاجئ. فقد كان هناك قرار جديد، صادر عن المكتب السياسي. هذه المرة، كان ماو حاضراً، وكانت له الغلبة، بتواطؤ شو إن لاي. مزّق ماو قرار شباط/ فبراير، وأعلن أنه يجب «القضاء» على كل المفكّرين المنشقّين وأفكارهم. وشدّد على أن مسؤولين في الحزب الشيوعي، يحمون المفكرين المنشقين وغيرهم من الأعداء الطبقيين. ووصف هؤلاء المسؤولين بأنهم «أولئك الذين في السلطة، يسيرون على الطريق

الرأسمالي»، وأعلن الحرب عليهم. وأصبحوا معروفين باسم «أنصار الطريق الرأسمالي». لقد أُطلقت «الثورة الثقافية» المموئية رسمياً.

مَنْ كان، على وجه التحديد، «أنصار الطريق الرأسمالي» هؤلاء؟ إن ماو نفسه لم يعرف من هم. كان يعرف أنه يريد استبدال لجنة بكين الحزبية كلها، وقد استبدلها. كان يعرف أيضاً أنه يريد التخلّص من ليو شاوتشي ودينغ شياوبنغ و «المقر البورجوازي في الحزب». ولكنه لم يكن يعرف مَنْ في المنظومة الحزبية الواسعة، كانوا موالين له، ومَنْ كانوا أتباع ليو ودينغ. حَسِب أنه لا يسيطر إلاّ على ثلث الحزب. ولكي لا يفلت عدوّ واحد من أعدائه، قرّر أن يطيح بالحزب الشيوعي كلّه. والمخلصون له سيبقون بعد الانفجار. وبكلماته نفسها: «دمّروا أولاً، والبناء سيتكفل بنفسه». لم يكن ماو قلقاً من إمكان تدمير الحزب: كان ماو الأمبراطور يتغلّب دائماً على ماو الشيوعي. كما لم يكن ماو ضعيفاً إزاء إيذاء أي أحد عن غير وجه حقّ، ولا حتى الأشد إخلاصاً له. وكان أحد أبطاله العظام، وهو الجنرال تساو تساو، من القرن الأول، قد نطق جملة، كان ماو لا يخفي إعجابه بها: «أُفضِّل أن أُخطىء في حق كل من تحت السماء، على أن يُخطىء واحد في حقي». أعلن الجنرال ذلك، عندما اكتشف أنه قتل زوجين عجوزين بطريق الخطأ ـ الشيخ والعجوز اللذان اشتبه بخيانتهما له، كانا في الواقع أنقذا حياته.

أشاعت صرخات الحرب المبهمة، التي أطلقها ماو، بلبلة عميقة بين السكان ومعظم المسؤولين الحزبيين. وكان قلّة يعرفون ما يرمي إليه، أو مَنْ على وجه التحديد هم الأعداء، هذه المرة. وكان في مقدور أبي وأمي، شأن حزبيين كبار آخرين، أن يريا أن ماو قرّر معاقبة هؤلاء. يمكن أن يكونا هما أنفسهما. وقد استبدّت بهما الهواجس والحيرة.

في هذه الأثناء، قام ماو بأهمّ حركاته التنظيمية: شكَّل سلسلة قيادة شخصية خاصة به، تعمل خارج جهاز الحزب، رغم أنه ـ بالادّعاء شكلياً أنها تحت إشراف المكتب السياسي واللجنة المركزية ـ استطاع أن يتظاهر بالعمل وفق أوامر حزبية.

أولاً، اختار نائباً له المارشال لن بياو، الذي خلف بينغ دهواي، وزيراً للدفاع، في عام ١٩٥٩، وكرَّس عبادة شخصية ماو على نطاق واسع في القوات المسلّحة. كما أنه استحدث هيئة جديدة، هي «سلطة الثورة الثقافية»، برئاسة سكرتيره السابق

تشين بودا، مع اضطلاع رئيس مخابراته كانغ شينغ والسيدة تشنغ بقيادتها الفعلية. وأصبحت هذه الهيئة نواة قيادة «الثورة الثقافية».

بعد ذلك، انقضَّ ماو على وسائل الإعلام، وفي مقدمتها صحيفة «الشعب» التي كانت صاحبة الثقل الأكبر، لأنها جريدة الحزب الرسمية، ولأن السكان اعتادوا كونها صوت النظام. فقد عيَّن تشين بودا لاستلام الجريدة في ٣١ أيار/مايو، مؤمِّناً بذلك قناة يستطيع، من خلالها، أن يتحدّث مباشرة إلى مئات الملايين من الصينيين.

وابتداء من حزيران/يونيو ١٩٦٦، أخذت صحيفة «الشعب» تقصف البلاد بالافتتاحية الطنانة تلو الأخرى، داعية إلى «إقامة سلطة الرئيس ماو المطلقة» و «كنس كل الشياطين الثيران والأبالسة الأفاعي» (الأعداء الطبقيين)، وحاضَّةً الشعب على السير وراء ماو، والمشاركة في المشروع العظيم الذي لم يعهد له نظير، بتفجير «ثورة ثقافية».

في مدرستي، توقف التدريس تماماً من بداية حزيران/يونيو، رغم أنه كان علينا الاستمرار في الحضور. وكانت مكبّرات الصوت تذيع افتتاحيات صحيفة «الشعب»، وكثيراً ما كانت الصفحة الأولى للجريدة، التي علينا دراستها كل يوم، تحتلّها صورة لماو، بحجم صفحة كاملة. وكان هناك عمود يومي، يتضمن اقتباسات من أقوال ماو. ما زلت أتذكّر الشعارات المكتوبة بالخط العريض، التي حُفرت في أعمق ثنايا عقلي، من خلال قراءتها في الصف المرّة تلو الأخرى: «الرئيس ماو هو الشمس الحمراء في قلوبنا»، «فكر ماو تسي تونغ هو خطّ حياتنا»، «سنسحق كل من يعارض الرئيس ماو»، «الناس في سائر أنحاء العالم، يحبون قائدنا العظيم، الرئيس ماو». وكان هناك صفحات من التعليقات المتعبّدة، بأقلام أجانب، وصور حشود أوروبية، تحاول أن تختطف أعمال ماو من الأيدي. لقد كانت العزّة القومية الصينية تُعبَّأ لتكريس عبادته.

ما لبثت قراءة الصحف اليومية أن أخلت مكانها لترديد واستظهار «أقوال الرئيس ماو»، التي جُمعت في كتاب جيب، ذي غلاف بلاستيكي أحمر، عرف باسم «الكتاب الأحمر الصغير». وقد أعطي كل تلميذ نسخة منه، وقيل له أن يحافظ عليه «كحدقة العين». وفي كل يوم، كنا نهتف مقاطع منه في تناغم. وما زلت أذكر العديد من الأقوال بالحرف الواحد.

ذات يوم، قرأنا في صحيفة «الشعب» أن فلاحاً عجوزاً، ألصق ٣٢ صورة من صور ماو على جدران غرفة نومه، «ليتمكن من رؤية وجه الرئيس ماو لدى فتح عينيه، أياً كان الاتجاه الذي ينظر فيه». فقمنا بتغطية جدران صفنا بصور لوجه ماو، ترتسم عليه أكثر ابتساماته براءة. ولكن بعد فترة وجيزة، تعيّن علينا إنزالها، وبسرعة أيضاً. فقد أشيع أن الفلاح، في الحقيقة، استخدم الصور كورق جدران، لأن صور ماو كانت تطبع على أحسن أنواع الورق، وتوزّع مجاناً. وقيل إن الصحفي الذي كتب المادة، اتّضح أنه عدوٌ طبقي، بسبب دعوته إلى «إساءة استعمال الرئيس ماو». وللمرة الأولى، دخل الخوف من الرئيس ماو عقلي الباطن.

كان لدى مدرستي، شأن مدرسة «سوق الثيران» فريق عمل يرابط فيها. وقد وصم الفريق، دون تحمّس، عدداً من خيرة معلمي المدرسة بكونهم «مراجع بورجوازية رجعية»، ولكنه لم يحذر التلاميذ من ذلك. ولكن في حزيران/ يونيو ١٩٦٦، عندما تملك فريق العمل الهلع من مد «الثورة الثقافية»، وشعر بالحاجة إلى إيجاد بعض الضحايا، أعلن بصورة مفاجئة أسماء المتهمين أمام كل المدرسة.

وعمد فريق العمل إلى تنظيم التلاميذ والمعلمين، الذين لم تطلهم الاتهامات، لكتابة ملصقات وشعارات تنديدية، سرعان ما غطّت المبنى. وأصبح المعلمون نشطاء لأسباب متعدّدة: الامتثال والالتزام بأوامر الحزب، وحسد معلمين آخرين على سمعتهم وامتيازاتهم، والخوف.

كان بين الضحايا معلمي في اللغة والأدب الصينيين، السيد تشي، الذي كنت أحبه حبّاً جمّاً. فطبقاً لأحد الملصقات الجدارية، قال المعلم، في أوائل الستينات: «إن الهتاف «عاشت الطفرة الكبرى إلى الأمام»، لن يملأ بطوننا. أليس كذلك؟». وإذ لم تكن لديَّ فكرة أن الطفرة الكبرى سبّبت المجاعة، فإني لم أفهم تعليقه، رغم أني كنت قادرة على تلمّس لهجة الاستهجان فيه.

كان هناك شيء ما لدى السيد تشي، يميّزه عن الآخرين. في حينه، لم أتمكّن من وضع إصبعي عليه، ولكني أعتقد، الآن، أن شيئاً من التهكّم، نم عليه سلوكه. كانت لديه طريقة في إطلاق أصوات جافّة، مقتضبة، هي نصف سعال، ونصف ضحك، توحي بأنه احتفظ بشيء لم يقله. وذات مرة، أطلق هذه الأصوات ردّاً على

سؤال سألتُه. كان أحد الدروس في كتابنا المقرَّر، مقتطفاً من مذكرات لو دينغ يي، مدير الشؤون العامة المركزية، حينذاك، عن تجربته في «المسيرة الكبرى». لفت السيد تشي انتباهنا إلى وصف حي للجنود، وهم يسيرون على ممرّ جبلي متعرّج، وكان الموكب كله مضاء بمشاعل الصنوبر، يحملها السائرون، ولهيبها يتوهج في سماء سوداء، غاب عنها القمر. وحين وصلوا وجهتهم لقضاء الليلة، كلهم «اندفعوا لاختطاف سلطانية مملوءة بالطعام، يصبونه في بطونهم». أوقعني هذا في حيرة عميقة، لأن جنود الجيش الأحمر، كانوا دائماً يوصفون بتقديم لقمتهم الأخيرة لرفاقهم، وتحمل الجوع. وكان من المستحيل أن أتخيّلهم «يختطفون». ذهبتُ إلى السيد تشي بحثاً عن إجابة. سَعَلَ ـ ضَحكَ، وقال إني لا أعرف معنى الجوع، وسارع إلى تغيير الموضوع. لم أكن مقتنعة.

رغم ذلك، كنت أكنُّ أعظم مشاعر الاحترام للسيد تشي. وتفطَّر قلبي لرؤيته ومعلمين آخرين أعجب بهم، يدانون إدانة هوجاء، ويسمّون أسماء قبيحة. وساءني طلب فريق العمل من الجميع في المدرسة، أن يكتبوا ملصقات جدارية «تفضحهم وتدينهم».

كنتُ في الرابعة عشرة، حينذاك، أنفر بالفطرة من كل الأنشطة المتطرّفة. كنت أخاف من حبر الملصقات الجدارية الأسود، الطاغي على صفحات بيضاء عملاقة من الورق، وأرتعب من اللغة الغريبة والعنيفة، مثل «اسحقوا رأس فلان بن فلان، رأس الكلب»، و «أبيدوا فلان بن فلان، إذا لم يستسلم». بدأت أتظاهر بالتهرّب من الواجبات المدرسية، وأبقى في البيت. وبسبب ذلك، كنتُ أتعرّض لنقد متواصل، لأنني «أضع العائلة أولاً» في الاجتماعات اللانهائية، التي كانت الآن تشكّل كل حياتنا المدرسية تقريباً. كنت أرتعب من هذه الاجتماعات، ويلاحقني إحساس بوجود خطر داهم.

ذات يوم، اتُّهم نائب مديرنا، السيد كان، وهو رجل طيّب، نشيط، بكونه من «أنصار الطريق الرأسمالي»، وبحماية المعلمين المدانين. وقيل إن كل ما عمله في المدرسة، على مرّ السنين، كان «رأسمالياً»، حتى دراسة أعمال ماو ـ لأن الساعات التي خصّصت لذلك، أقلّ من ساعات الدراسات الأكاديمية.

صُدمت بالقدر نفسه لرؤية سكرتير رابطة الشبيبة الشيوعية، المرح، في

المدرسة، السيد شان، متهماً بكونه «معادياً للرئيس ماو». كان شاباً متألّقاً، وكنت تواقة إلى إثارة انتباهه، لأنه يمكن أن يساعدني على الانضمام إلى رابطة الشبيبة، حين أبلغ السن الدنيا للقبول، الخامسة عشرة.

كان يدرِّس مقرراً في الفلسفة الماركسية، لمن هم بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من العمر، وأعطاهم بعض الواجبات لكتابة مواضيع إنشائية. وشدّد على أقسام من المقالات، اعتَقَد أنها مكتوبة كتابة جيدة. وقام تلاميذ بربط هذه الأقسام، التي لا يمتّ بعضها إلى بعض بصلة، ليصنعوا منها مقطعاً لا معنى له، زعمت الملصقات الجدارية أنه ضدّ ماو. علمتُ، بعد سنوات، أن هذا الأسلوب في تلفيق تهمة، من خلال الربط الاعتباطي بين جمل لا رابط بينها، بدأ منذ عام ١٩٥٥، العام الذي تعرّضت فيه أمي لأول اعتقال في ظل الشيوعيين، وذلك حين استخدمه بعض الكتاب، لمهاجمة قرناء لهم من الكتّاب الآخرين.

قال لي السيد شان، بعد سنوات، أن السبب الحقيقي وراء اختياره مع نائب المدير، ليكونا ضحيتين، هو أنهما لم يكونا حاضرين، وقتذاك ـ كانا غائبين بوصفهما عضوين في فريق عمل آخر ـ الشيء الذي جعلهم كبش محرقة. وحقيقة أنهما لم يكونا منسجمين مع المدير، الذي لم يغادر، جعلت الأمور أسوأ. وقال لي السيد شان بندم: «لو كنا نحن هناك، وكان هو غائباً، لما كان ابن السلحفاة هذا، ليقدر على رفع سرواله إلى أعلى، من كثرة الخراء على عجيزته».

كان نائب المدير، السيد كان، متفانياً في سبيل الحزب، لذا شعر بحيف فظيع. وذات مساء، كتب ملاحظة، ثم انتحر بشفرة. وهرعت به إلى المستشفى زوجته، التي عادت إلى البيت باكراً على غير المعتاد. تستر فريق العمل على عملية الانتحار. فانتحار عضو حزبي مثل السيد كان، يُعدُّ خيانة. وكان ينظر إليه على أنه فقدان ثقة بالحزب ومحاولة للابتزاز. لذا، لا يستحق هذا المنكود أية رحمة. ولكن فريق العمل كان متوتّر الأعصاب. فهم يعرفون حق المعرفة، أنهم يخترعون ضحايا بلا أدنى مبرّر.

حين قيل لأمي ما حدث للسيد كان، أجهشت بالبكاء. كانت تحبه كثيراً، وتعرف أنه على قدر عظيم من التفاؤل، لا بدّ أنه وقع تحت ضغط لاإنساني، ليفعل ما فعله.

. أمي، في مدرستها، رفضت الانجرار إلى أية ملاحقة بدافع الهلع. ولكن المراهقين في المدرسة، إذ هيّجتهم المقالات المنشورة في صحيفة «الشعب»، بدأوا يتحرّكون ضد معلّميهم. وكانت هذه الصحيفة قد دعت إلى «تحطيم» نظام الامتحانات، الذي «يعامل التلاميذ كأعداء» (من أقوال ماو)، ويشكل جزءاً من المخطّطات اللئيمة، التي يحوكها «المثقفون البورجوازيون»، أي معظم المعلمين (مرة أخرى من أقوال ماو). كما أدانت الصحيفة «المثقفين البورجوازيين» لتسميمهم عقول الشباب بهراء رأسمالي، تمهيداً لعودة الكومنتانغ. إذ قال ماو: «إننا لا نستطيع أن نسمح للمثقفين البورجوازيين بالهيمنة على مدارسنا بعد الآن».

ذات يوم توجّهت أمي، على دراجتها، إلى المدرسة، لتجد أن التلاميذ احتجزوا المدير والمشرف الأكاديمي وأصحاب الدرجات من المعلمين، الذين فهموا من الصحافة الرسمية أنهم «مراجع بورجوازية رجعية»، وأي معلمين آخرين كانوا لا يحبونهم. حبسوهم في أحد الصفوف، وعلّقوا على الباب لافتة تقول: «صفّ الأبالسة». وقد سمح المعلّمون لهم بذلك، لأن «الثورة الثقافية» وضعتهم في حيرة. لقد بدا، الآن، أن لدى التلاميذ تفويضاً من نوع ما، غير محدّد، ولكنه حقيقي مع ذلك. كان المبنى مغطى بشعارات ضخمة، أغلبيتها بعناوين بارزة من صحيفة «الشعب».

وحين أُخذت أمي إلى الصف، الذي تحول إلى «سجن»، مرّت مخترقة حشداً من التلاميذ. بعضهم كان يبدو شرساً، وبعضهم خجولاً، وبعضهم قلقاً، والبعض الآخر غير مبالٍ. وازداد عدد التلاميذ الذين تبعوها منذ وصولها. فهي بوصفها قائدة فريق العمل، كانت تتمتع بسلطة عليا، وكانت تُماهى مع الحزب. وكان التلاميذ ينتظرون الأوامر منها. فبعد أن أوجدوا «السجن»، لم تكن لديهم فكرة عمّا يفعلونه بعد ذلك.

أعلنت أمي بحزم عن صرف «صف الأبالسة». كان هناك تململ بين التلاميذ، ولكن أحداً لم يتحدَّ أمرها. لم يرق ذلك لبعض الصبيان، ولكنهم التزموا جانب الصمت، حين طلبت أمي منهم أن يتكلّموا. ومضت قائلة لهم إن اعتقال أي شخص بلا تفويض، عمل غير قانوني، وإنهم ينبغي أن لا يسيئوا معاملة معلّميهم، الذين يستحقون العرفان والاحترام. فُتح باب الصف، وأطلق «السجناء».

كانت أمي شجاعة جداً بسباحتها ضدّ التيار. فالكثير من فرق العمل الأخرى، مارست الاضطهاد في حق أناس أبرياء تماماً للنجاة بنفسها. في الواقع، كان لديها سبب للقلق أكثر من معظم الآخرين، فالسلطات الإقليمية عاقبت العديد من أكباش المحرقة. وكان لدى أبي شعور قوي بدنو دوره. وقال له عدد من زملائه، همساً، إنه يشاع في بعض المنظمات الواقعة تحت إشرافه، أنها ينبغي أن تحول شكوكها نحوه.

لم يقل والداي شيئاً قط لي أو لإخوتي. فالضوابط التي أبقتهما صامتين حول السياسة من قبل، ما زالت تمنعهما من فتح قلبيهما لنا. بل تدنى إمكان الكلام بالنسبة إليهما الآن. كان الوضع معقّداً ومركباً، بحيث إنهما نفسيهما لم يفهماه. فماذا يمكن أن يقولا لنا لإفهامنا؟ وما جدوى ذلك على أيّة حال؟ لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله أحد. والأنكى من ذلك، أن المعرفة نفسها كانت خطراً. نتيجة لذلك، كنت وإخوتي غير مستعدين على الإطلاق للثورة الثقافية، رغم أنه كان لدينا إحساس غامض بالكارثة المحدقة.

في هذه الأجواء، حل شهر آب/أغسطس. وعلى حين غرّة، كعاصفة تجتاح الصين، ظهر ملايين من «الحرس الأحمر».

١٦ ــ «اصعدوا إلى السماء، وشقوا الأرض» ــ حرس ماو الأحمر (حزيران/يونيو ــ آب/أغسطس ١٩٦٦)

في ظلّ ماو، نشأ جيل من المراهقين، وهم يتوقعون مقاتلة أعداء طبقيين. وقد أجّجت الدعوات المبهمة في الصحافة إلى تفجير «ثورة ثقافية»، الشعور بأن «حرباً» توشك أن تشتعل. أحسَّ بعض الشبان، المرهفين سياسياً، أن لمعبودهم، ماو، دوراً مباشراً فيها، ولم يمنحهم تلقينهم بديلاً سوى الوقوف إلى جانبه. وفي بداية حزيران/يونيو، اجتمع بعض النشطاء من مدرسة متوسّطة، تابعة لجامعة من أشهر جامعات الصين، وهي جامعة تشينغهوا في بكين، مرات متعددة من أجل مناقشة استراتيجياتهم للمعركة القادمة، وقرّروا أن يسمّوا أنفسهم «الحرس الأحمر للرئيس ماو». واعتمدوا قولاً من أقوال ماو، ظهر في صحيفة «الشعب» اليومية، وهو «أن التمرد مبرر»، شعاراً لهم.

كان هؤلاء الحراس الحمر الأوائل أبناء مسؤولين كبار. فهم وحدهم الذين يستطيعون أن يشعروا بما يكفي من الأمان، للانخراط في أنشطة من هذا النوع. يضاف إلى ذلك، أنهم تربوا في بيئة سياسية، وكانوا أكثر اهتماماً بالدسائس السياسية من أغلبية الصينيين. وقد لاحَظَتهم السيدة تشنغ، واستَقبَلَتهم في تموز/يوليو. وفي ١ آب/أغسطس، صدرت عن ماو إيماءة غير معهودة، بكتابته رسالة مفتوحة إليهم، يعرض فيها دعمه «الحار والمتقد». وفي الرسالة، حوَّر بمكر قوله السابق إلى «أن التمرد ضد الرجعيين مبرّر». كان هذا، بالنسبة إلى المراهقين المتعصبين، كما لو أن

الله يخاطبهم. وبعد ذلك، انبثقت مجموعات من «الحرس الأحمر» في سائر أنحاء بكين، ثم في عموم الصين.

كان ماو يريد أن يكون «الحرس الأحمر» قوّاته الخاصة. كان يعلم أن الشعب لا يستجيب لدعواته المتكرّرة لمهاجمة «أنصار الطريق الرأسمالي». وكانت لدى الحزب الشيوعي جماهير واسعة، والأكثر من ذلك، أن درس ١٩٥٧ لما يزل بعد ماثلاً في أذهان الناس. ففي ذلك الوقت أيضاً، دعا ماو السكان إلى نقد المسؤولين الحزبيين، ولكن مَنْ استجابوا لدعوته، انتهى بهم المطاف موصومين باليمينية، ونزلت عليهم اللعنة. وارتاب معظم الناس من أن التكتيك نفسه يُمارس من جديد ـ «استدراج الأفعى من جحرها لقطع رأسها».

إذا كان ماو يريد تحريك السكان، فسيتعين عليه إبعاد السلطة عن الحزب، وإقامة ولاء وطاعة مطلقين له وحده. ولتحقيق ذلك، كان يحتاج إلى إرهاب ـ إرهاب غاشم يسدّ الطريق في وجه كل الاعتبارات الأخرى، ويمحق كل المخاوف الأخرى. ورأى في فتيان وفتيات، في العقد الثاني وأوائل العشرينات من العمر، وكلاءه المثاليين. فلقد تربّوا على عبادة شخصية ماو عبادة متعصّبة، وعلى المبدأ النضالي لـ «الصراع الطبقي». وكانوا يتمتعون بصفات الشباب ـ كانوا متمردين، جسورين، متشوّقين إلى الكفاح من أجل «قضية عادلة»، ومتعطشين إلى المغامرة والفعل. وكانوا أيضاً لا مسؤولين وجهلة وأغراراً، وقابلين للنزوع إلى العنف. إنهم وحدهم الذين يستطيعون أن يمدّوا ماو بالقوة الهائلة، التي يحتاج إليها لإرهاب المجتمع كله، وإشاعة فوضى تهزّ أساس الحزب، ثم تقوّضه. كان هناك شعار واحد، يلخّص مهمة الحرس الأحمر: «نتعهد بشن حرب دموية، ضدّ كل من يجرؤ على مقاومة الثورة الثقافية، ضدّ كل من يجرؤ على معارضة ماو».

كانت كل السياسات والأوامر تُنقل، حتى ذلك الحين، عبر منظومة تخضع لسيطرة محكمة، كانت كلّها بيد الحزب. وقد تخلّى ماو عن هذه القناة، وتوجّه مباشرة إلى جماهير الشباب. وتم له ذلك بالجمع بين أسلوبين مختلفين تماماً: خطابية نارية مبهمة، تُنشر علناً في الصحافة، وتحريك تآمري وتحريض تمارسهما «سلطة الثورة الثقافية»، وخاصة زوجته. فهما اللذان كانا يملآن المعنى الحقيقي للخطابية. فجُمل مثل «التمرد على السلطة»، و«ثورة في التعليم»، و«تدمير العالم القديم، من

أجل أن يولد عالم جديد»، و «خلق إنسان جديد» ـ عبارات اجتذبت كثيرين في الغرب إبان الستينات ـ فُسّرت على أنها دعوات للعمل العنفي. كان ماو يفهم العنف الكامن في الشباب، ورأى أنهم يتغذّون تغذية جيّدة، ودروسهم متوقفة، ففي الإمكان تحريكهم بسهولة، واستخدام طاقتهم اللامحدودة، للانطلاق وزرع الخراب.

وبغية تهييج الشباب إلى عنف جماهيري غير منفلت، كان لا بد من ضحايا. وكان أبرز الأهداف في أية مدرسة، هم المعلمون، الذين تعرّض بعضهم للملاحقة على أيدي فرق العمل والسلطات المدرسية، في الأشهر القليلة الماضية. والآن، انقضّ عليهم الأطفال المتمرّدون. كان المعلّمون أهدافاً أفضل من الآباء، الذين لم يكن في الإمكان مهاجمتهم، إلاّ بصورة مشتّتة ومعزولة. كما كان المعلّمون رموزاً للسلطة أهمّ من الآباء، في الثقافة الصينية. وفي كل مدرسة في الصين، تعرّض المعلمون للمهانة والضرب، أحياناً على نحو مهلك. وأقام بعض التلاميذ سجوناً، كان يجري تعذيب المعلمين فيها.

ولكن ذلك لم يكن كافياً وحده، لتوليد نوع الإرهاب الذي يريده ماو. وفي ١٨ آب/أغسطس، عُقد اجتماع مموثي، في ميدان تيانانمين، في مركز بكين، بمشاركة أكثر من مليون شاب. وظهر لن بياو علناً، للمرة الأولى، بوصفه نائب ماو، والمتحدث باسمه. وألقى خطاباً دعا فيه الحرس الأحمر إلى الانطلاق من مدارسهم، و «سحق القديمات الأربع» ـ معرَّفة بكونها «الأفكار القديمة، والثقافة القديمة، والأعراف القديمة، والعادات القديمة».

في أعقاب هذه الدعوة الضبابية، نزل الحرس الأحمر، في سائر أنحاء الصين، إلى الشوارع، منفّسين تماماً عن نزعتهم التخريبية وجهلهم وتعصّبهم. دهموا بيوت الناس، وحطّموا تحفهم، ومزّقوا اللوحات الفنية. وأُشعلت النيران لحرق الكتب. وسرعان ما دُمّرت تقريباً كل الكنوز الفنية، التي كانت ضمن مجموعات يملكها أفراد. وانتحر العديد من الكتاب والفنانين، بعد ضربهم بقسوة، وإهانتهم وإجبارهم على رؤية أعمالهم تُحال إلى رماد. ودُهمت المتاحف، والقصور، والمعابد، والأضرحة القديمة، ودور العبادة، وأسوار المدينة ـ كل ما هو «قديم» تعرّض للنهب. والأشياء القليلة التي نجت، مثل «المدينة المحرمة»، لم تنجُ إلا لأن رئيس الوزراء شو إن لاي، أرسل الجيش لحراستها، وأصدر أوامر بحمايتها. لم يكن أفراد

الحرس الأحمر يتمادون، إلا بتشجيع.

حيّا ماو أعمال الحرس الأحمر، بوصفها «جيدة جداً بحق!» وأمر البلاد بتأييدهم.

شجّع ماو الحرس الأحمر على ملاحقة طائفة أوسع من الضحايا، إمعاناً في الإرهاب. فإن كتاباً وفنانين وعلماء بارزين وأغلبية المهنيين الآخرين الكبار، ممّن كانوا يتمتّعون بامتيازات في ظلّ النظام الشيوعي، أدينوا الآن إدانة قاطعة، بوصفهم «مراجع بورجوازية رجعية». وبمساعدة البعض من زملاء هؤلاء الأشخاص، الذين كانوا يكرهونهم لأسباب مختلفة، تمتدّ من التعصّب إلى الحسد، بدأ الحرّاس الحمر يهينونهم. ثم كان هناك «الأعداء الطبقيّون» القدماء: الملاك والرأسماليون السابقون، أشخاص لديهم ارتباطات بالكومنتانغ، أولئك الذين أدينوا في حملات سياسية سابقة مثل «اليمينيين» - وأطفالهم.

لم يعدم كثير من «الأعداء الطبقيين»، أو يُرسلوا إلى معسكرات العمل، بل تمّ إبقاؤهم «تحت المراقبة». وقبل الثورة الثقافية، لم يكن مسموحاً للشرطة بإعطاء معلومات عنهم، إلا للمخوّلين. وقد تغيّرت الآن هذه السياسة، وأمر رئيس الشرطة شي فوجي، وهو من الموالين ولاء مطلقاً لماو، رجاله بتسليم «الأعداء الطبقيين» إلى الحرس الأحمر، واطلاع الحرس الأحمر على جرائمهم، مثل «نيتهم في قلب نظام الحكم الشيوعي».

كان التعذيب، حتى بداية الثورة الثقافية، بوصفه شكلاً متميّزاً من أشكال التنكيل، محرماً. والآن، أمر شي أفراد الشرطة بأن «لا يكونوا ملزمين بالقواعد القديمة، حتى لو كانت قد وضعتها سلطات الشرطة أو الدولة». وبعد أن قال: «إني لستُ مع الضرب حتى الموت»، مضى قائلاً: «ولكن إذا كان بعض (أفراد الحرس الأحمر) يكرهون الأعداء الطبقيين، بحيث إنهم يريدون قتلهم، فلا يتعيّن إجبارهم على الامتناع عن ذلك».

اجتاحت البلاد موجة من الضرب والتعذيب، وخاصة أثناء دهم البيوت. وفي كل الحالات تقريباً، كانت العوائل تُؤمر بالركوع على الأرض، والسجود للحرس الأحمر، ثم كان أفراد العائلة يُضربون بالإبزيمات النحاسية لأحزمة الحرس. وكانوا يُركلون، ويُحلق جانب من رؤوسهم، وهي تسريحة مهينة، تسمى «رأس ين ويانغ»، لأنها تشبه الرمز الصيني الكلاسيكي للجانب المظلم (ين) والجانب المضيء (يانغ).

وكانت أغلبية ممتلكاتهم تُحطَّم أو تُصادر.

كان الأسوأ يجري في بكين، حيث «سلطة الثورة الثقافية» حاضرة لتحريض الشباب. وفي مركز المدينة، تحوّل بعض المسارح والسينمات إلى غرف تعذيب. وكان الضحايا يُجرّون إليها من كل أنحاء بكين. وكان الراجلون يتحاشون هذه الأماكن، لأن صرخات الضحايا كانت تتردّد في الشوارع المحيطة.

كانت أولى مجموعات الحرس الأحمر مؤلّفة من أبناء مسؤولين كبار. وبعد فترة وجيزة، عندما انضمّ آخرون من أصول مختلفة، استطاع بعض أبناء المسؤولين الكبار أن يشكّلوا مجموعات خاصة بهم، مثل «خطوط الحراسة». واتّخذ ماو وبطانته عدداً من الخطوات المحسوبة لزيادة إحساسهم بالسطوة. وفي الاجتماع الحاشد الثاني للحرس الأحمر، وضع لن بياو الشريط الذي يضعونه على أذرعهم، ليبيّن أنه واحد منهم. وجعلتهم السيدة تشنغ حرس الشرف أمام بوابة السلام السماوي في ميدان تيانانمين، في العيد الوطني، في ١ تشرين الأول/أكتوبر. نتيجة لذلك، ابتدع بعضهم نظرية فاضحة هي «نظرية النَّسَب»، التي تلخصها كلمات الأغنية القائلة: «ابن البطل دائماً رجل عظيم، والأب الرجعي لا ينجب إلا ابن حرام». وقام بعض أبناء المسؤولين بإرهاب بل تعذيب أطفال من كانوا من أصول «غير مرغوب فيها»، مسلّحين بهذه النظرية.

سمح ماو بهذا كلّه لإشاعة الإرهاب والفوضى اللذين يريدهما. ولم يكن يشعر بتبكيت إزاء مَنْ تعرّض للضرب، أو مَنْ كانوا أدوات العنف. فهؤلاء الضحايا الأوائل لم يكونوا أهدافه الحقيقية، ولم يكن ماو يحبّ أو يثق بحرّاسه الحمر الشباب. إنما كان يستخدمهم فقط. والمخرّبون والمعذِّبون لم يكونوا، من جانبهم، متفانين دائماً من أجل ماو. كانوا مجرّد عابثين جامحين، بعد أن أُجيز لهم إشباع أسوأ غرائزهم.

لقد كان جزء صغير فقط من الحرس الأحمر متورطاً، في الواقع، في القسوة أو العنف. وتمكّن كثيرون من تجنّب المشاركة في ذلك، لأن الحرس الأحمر كان منظمة فضفاضة، لا تدفع أعضاءها إلى أعمال الشر بالإكراه الجسدي. وفي واقع الأمر، إن ماو نفسه لم يأمر الحرس الأحمر قطّ بالقتل، وكانت تعليماته، فيما يتعلق بالعنف، متناقضة. إذ يمكن للمرء أن يشعر بالتفاني في سبيل ماو، دون ارتكاب

عنف أو شر. ومَنْ اختاروا ارتكابهما، لا يستطيعون أن ينحوا باللائمة على ماو.

ولكن تشجيع ماو للفظائع بمكر، أمر لا ينكر. ففي ١٨ آب/أغسطس، في الاجتماع الأول من الاجتماعات العملاقة الثمانية، التي حضرها إجمالاً ثلاثة عشر مليون شخص، سأل ماو فتاة من الحرس الأحمر عن اسمها. وحين أجابت: «بن ـ بن»، الذي يعني «رقيقة»، قال لها بعدم استحسان: «كوني عنيفة» (ياو ـ وو ـ ما). كان ماو نادراً ما يتكلّم في العلن، وهذا التعليق، الذي طُبِّل له بدعاية واسعة، كان من الطبيعي أن يُتَّبع، كالإنجيل. وفي الاجتماع الضخم الثالث، في ١٥ أيلول/سبتمبر، عندما كانت فظائع الحرس الأحمر تبلغ ذروتها، أعلن المتحدّث المعترف به باسم ماو، لن بياو، وماو يقف إلى جانبه: «يا مقاتلي الحرس الأحمر، إن اتجاه معارككم كان قويماً على الدوام. لقد حطّمتم بشكل صحيح وصميمي السائرين في الطريق الرأسمالي، والمراجع البورجوازية الرجعية، ومصّاصي الدماء الطفيليين. وفعلتم ما هو حق. وكان أداؤكم رائعاً!». وهنا استحوذت الهتافات الهستيرية والصرخات التي تصمّ الآذان: «عاش الرئيس ماو» والدموع التي انهمرت لا إرادياً والعهود الزاعقة بالولاء، على الحشود التي غصّ بها ميدان تيانانمين الهائل. لوّح ماو، بأبوية، مولداً المزيد من السعار.

احتفظ ماو، من خلال «سلطة الثورة الثقافية» التي أوجدها، بالسيطرة على الحرس الأحمر، في بكين. ثم أرسلهم إلى الأقاليم، ليقولوا لشبابها ما ينبغي عمله. وفي جنجو، في منشوريا، تعرّض شقيق جدتي لِن ـ يو وزوجته للضرب، ونُفيا مع طفليهما إلى منطقة قاحلة من البلاد. كانت الشبهات حامت حول لن ـ يو، منذ بداية وصول الشيوعيين، لأنه كان يحمل بطاقة من مخابرات الكومنتانغ، ولكن شيئاً لم يحدث له أو لعائلته، حتى ذلك الوقت. لم تكن عائلتي تعرف بذلك وقتذاك. كان الناس يتجنّبون تبادل الأخبار، فإزاء تلفيق الاتهامات بهذه الخسّة، والعواقب بهذه البشاعة، لم يكن أحد يعرف قطّ أية كارثة يمكن أن يسبّب لمن يراسلهم، أو أي كارثة يمكن أن يسبّبوها له.

لم تكن لدى الناس في سيشوان، فكرة تذكر عن سعة الإرهاب في بكين. كانت هناك فظائع أقلّ في سيشوان، لأسباب منها أن الحرس الأحمر هناك، لم يكن يُحرَّض تحريضاً مباشراً من «سلطة الثورة الثقافية». يضاف إلى ذلك، أن الشرطة في

سيشوان، لم تعر آذاناً صاغية لوزيرها في بكين، السيد شي، ورفضت تسليم «الأعداء الطبقيين»، الذين في عهدتها، إلى الحرس الأحمر. ولكن الحرس الأحمر في سيشوان، كما في أقاليم أخرى، كان يكرر أعمال الحرس الأحمر في بكين. وكان هناك النوع نفسه من الفوضى، كما في الأماكن الأخرى من الصين ـ فوضى غير منفلتة. لعلّ الحرس الأحمر نهب البيوت، التي كان مخوّلاً دهمها، ولكنه نادراً ما كان يسرق من المتاجر. وكانت أغلبية القطاعات، بما فيها التجارة والخدمات البريدية والنقل، تعمل بصورة طبيعية.

في مدرستي، شكّلت منظمة للحرس الأحمر، في ١٦ آب/ أغسطس، بمساعدة بعض الحراس الحمر من بكين. وكنتُ معتكفة في البيت، متمارضة، للتهرّب من الاجتماعات السياسية والشعارات المخيفة، ولم أعلم بتشكيل المنظمة، إلا بعد يومين، عندما استدعتني مكالمة هاتفية «للمشاركة في الثورة الثقافية البروليتارية العظمى». حين وصلتُ إلى المدرسة، لاحظت أن الكثير من التلاميذ، يضعون على أذرعهم باعتزاز، عصائب برموز ذهبية، تقول: «الحرس الأحمر».

في تلك الأيام، كان للحراس الحمر حديثي الانتماء سمعة هائلة، بوصفهم «أطفال ماو المدلّلين». وغني عن القول أنه تعيّن عليّ أن أنضمّ إليهم. وفي الحال، قدمتُ طلبي إلى قائد الحرس الأحمر في صفي ـ صبي في الخامسة عشرة، اسمه غينغ، كان يسعى باستمرار إلى صحبتي، ولكنه كان يخجل ويتلعثم حينما يكون معي.

لم يسعني سوى التساؤل، كيف أصبح غينغ حرساً أحمر، وكان هو غامضاً في أنشطته. ولكن كان واضحاً جداً أن الحراس الحمر هم، في الغالب، أبناء مسؤولين كبار. فزعيم الحرس الأحمر في المدرسة، كان أحد أبناء المفوض لي، السكرتير الأول للحزب في سيشوان. وكان ينبغي أن أكون أنا عضواً طبيعياً، لا شك في عضويّته. فقلّة من التلاميذ، كان آباؤهم بمراكز أعلى من مركز أبي. ولكن غينغ أخبرني، في مجلس خاص، أني أعتبر ناعمة و «خاملة جداً»، ويجب أن أخشوشن قبل أن يفكّروا في قبولي.

منذ حزيران/ يونيو، كان هناك قاعدة غير مكتوبة، أن يبقى الجميع في المدرسة على مدار الساعة، لتكريس أنفسهم بالكامل للثورة الثقافية. وكنت أنا من القلائل الذين لم يتقيدوا بتلك القاعدة. ولكن فكرة التظاهر بالمرض أعطتني، على نحو ما،

إحساساً بالخطر، وشعرتُ أني ملزمة بالبقاء. كان الفتيان ينامون في الصفوف، حتى نستطيع نحن الفتيات أن نشغل الأقسام الداخلية. وكان غير المنتمين إلى الحرس الأحمر، يُلحقون بمجموعات الحرس الأحمر، ويشتركون معها في أنشطتها المختلفة.

في اليوم التالي لعودتي إلى المدرسة، أُخذتُ مع عشرات من الأطفال الآخرين، لتغيير أسماء الشوارع، وجعلها أكثر «ثورية». الشارع الذي كنت أعيش فيه، كان اسمه «شارع التجارة». ناقشنا ما ينبغي أن يكون اسمه الجديد. فاقترح البعض «شارع المنار»، إشارة إلى دور قادتنا الحزبيين الإقليميين. وقال آخرون «شارع الخَدَم العموميين»، لأن هذا ما ينبغي أن يكون عليه المسؤولون، بحسب أحد أقوال ماو. في النهاية، غادرنا دون أن نستقر على اسم، لأن مشكلة أولية لم يكن من الممكن حلّها: كانت لوحة الاسم أعلى من أن يصل إليها أحد على الحائط. وعلى حدّ علمي، فإنه لم يعد إليها أحد قطّ.

في بكين، كان الحراس الحمر أكثر حماسة بكثير، وقد سمعنا بنجاحاتهم: البعثة البريطانية تقع، الآن، في «شارع معاداة الإمبريالية»، والسفارة الروسية في «شارع معاداة التحريفية».

في تشينغدو، نزعت أسماء الشوارع القديمة مثل «خمسة أجيال تحت سقف واحد» (فضيلة كونفوشية) و «الحور والصفصاف الأخضر» (الأخضر لم يكن لوناً ثورياً) و «تنين اليَشْب» (رمز لسلطة الإقطاع). أصبحت هذه الشوارع «شارع تدمير القديم» و «شارع الشرق الأحمر» وشارع «الثورة». وحُطِّمت إلى قطع متناثرة لافتة مطعم شهير، اسمه «شذا الريح العذبة». وأعيدت تسميته «نفحة البارود».

كانت حركة المرور مرتبكة لعدة أيام. فأن يعني الضوء الأحمر «توقف»، كان يعد مضاداً للثورة على نحو لا يغتفر. ينبغي، بالطبع، أن يعني «سر». والسير ينبغي أن لا يكون على اليمين، كما كانت العادة، بل ينبغي أن يكون على اليسار. ولبضعة أيام، أمرْنا شرطة المرور بالتنحّي جانباً، وأخذنا تنظيم المرور على عاتقنا. كنت أنا أرابط في ركن شارع، أقول لسائقي الدراجات الهوائية أن يسيروا على اليسار. وفي تشينغدو، لم تكن هناك سيارات أو إشارات مرور ضوئية كثيرة، ولكن على المفترقات الكبيرة كانت هناك فوضى. وفي النهاية، فرضت الأنظمة القديمة نفسها من جديد، بفضل شو إن لاي، الذي تمكّن من إقناع قادة الحرس الأحمر في بكين بها.

ولكن الشباب وجدوا تبريرات لذلك: قالت لي حارسة حمراء في مدرستي، إن حركة السير في بريطانيا تتخذ جانب اليسار، فعلى حركة سيرنا أن تتخذ جانب اليمين، للتعبير عن روحنا المعادية للإمبريالية. ولم تذكر أميركا.

كطفلة، كنت دائماً أبتعد عن النشاط الجماعي. والآن، في الرابعة عشرة من العمر، شعرتُ أنني أكثر نفوراً. حين كنت لا أتناغم مع ماو، وكنتُ أكبت هذا التقزز بسبب الشعور الدائم بالإثم الذي أخذت أحسّ به، من خلال تربيتي. دأبت على القول لنفسي إنني يجب أن أطوّع أفكاري حسب النظريات والممارسات الثورية الجديدة. وإذا كان هناك شيء لا أفهمه، فيجب عليَّ إصلاح نفسي وتكييفها. ولكني وجدت نفسي أحاول جاهدة أن أتفادى من الأعمال المتطرّفة، مثل إيقاف المارة، وقصّ شعرهم الطويل أو سراويلهم، أو التنورات الضيّقة، أو تكسير الكعوب شبه العالية. فهذه الأمور أصبحت الآن أمارات انحطاط بورجوازي، بحسب الحرس الأحمر في بكين.

شعري أنا نفسي لفت الانتباه النقدي لزملاء صفي. وكان عليّ قصّه بمستوى شحمة الأذن. وفي السرّ، رغم خجلي من نفسي لكوني «بورجوازية صغيرة» إلى هذا الحد، ذرفت الدموع على فقدان جدائلي الطويلة. فعندما كنت طفلة صغيرة، كان لدى مربيتي طريقة في عقص شعري، بحيث تجعله يقف على قمة رأسي، كأنه غصن صفصاف. كنت أسمّي ذلك «ألعاباً نارية تتصاعد إلى السماء». وحتى أوائل الستينات، كنت أصفّف شعري في لفتين، مع حلقات من الزهور الحريرية الصغيرة تحيط بهما. في الصباح، وأنا أسرع بالتهام فطوري، كانت جدتي، أو خادمتنا تصفّف شعري بيدين حانيتين. ومن بين كل ألوان الزهور الحريرية، كان الوردي هو لوني المفضّل.

بعد عام ١٩٦٤، على أثر دعوات ماو إلى نمط حياة زاهد، أكثر انسجاماً مع أجواء الصراع الطبقي، كنت أضع رقعاً على سراويلي، محاولة أن أبدو «بروليتارية»، وكنت أصفّف شعري بطريقة الضفيرتين المنتظمة دون ألوان، إذ إن الشعر الطويل لم يكن قد أدين بعد. وإثر إدانته، قصّت جدتي شعري مغمغمة طول الوقت. وقد صمد شعرها، لأنها لم تخرج قط في تلك الأيام.

هوجمت أيضاً المقاهي الشهيرة في تشينغدو، بوصفها «منحطة». لم أفهم لماذا،

ولكنني لم أسأل. ففي صيف ١٩٦٦، تعلّمت أن أكبت إحساسي. وكان معظم الصينيين يفعلون ذلك، منذ زمن طويل.

المقهى في سيشوان مكان فريد. فهو، عادة، يقع في أحضان جنينة من الخيزران، أو تحت ظلال شجرة وارفة. وحول الطاولات الخشبية، المربّعة الخفيضة، توجد كراسٍ من الخيزران، ينبعث منها عطر خفيف، حتى بعد سنوات على الاستعمال. ولتحضير الشاي، يُلقى بعض أوراق الشاي في قدح، ويصبّ عليها ماء مغلى. ثم يوضع غطاء على قمة القدح، بلا إحكام، سامحاً للبخار بالتسرّب من الفتحة، وبذلك يفوح شذا الياسمين أو غيره من الزهور الأخرى. ويوجد في سيشوان أنواع كثيرة من الشاي. للياسمين وحده خمسة صنوف.

المقاهي هامّة لأهل سيشوان، بقدر أهمية الحانات العامة للبريطانيين. وكبار السن بصفة خاصة، يقضون كثيراً من الوقت فيها، مدخّنين غلايينهم، ذات السيقان الطويلة إلى جانب قدح من الشاي، وصحن من المكسّرات وبزر الشمام. ويتنقل النادل بين المقاعد، ومعه إبريق من الماء الساخن، يصبّه من على بعد قدمين بدقّة بالغة. والنادل الماهر يجعل مستوى الماء أعلى من حافّة القدح دون أن يسكبه. وكطفلة، كنت دائماً أقف مذهولة وأنا أراقب الماء ينسكب من الإبريق. ولكن كنت نادراً ما أؤخَذ إلى المقهى. فلقد كان له جوّ من التبطُّل لا يستسيغه والداي.

المقهى السيشواني، شأنه شأن المقاهي الأوروبية، يوفر الصحف على أُطر من الخيزران. وبعض الزبائن يذهبون إليه للقراءة. ولكنه، في المقام الأول، مكان للقاء وتجاذب أطراف الحديث، وتبادل الأخبار والقيل والقال. وكثيراً ما تكون هناك تسلية ـ رواية القصص.

تعين غلق المقاهي، ربما لأنه كانت ترمز إلى الاستجمام، فالناس الذين يجلسون في مقهى، ليسوا خارجين لصنع ثورة. ذهبتُ مع مجموعة من التلاميذ بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة من العمر، معظمهم حراس حمر، إلى مقهى صغير على ضفة «نهر الحرير». كانت الكراسي والموائد موزعة في الخارج، تحت شجرة ضخمة. كانت نسمة المساء الصيفية، تنشر أريجاً قوياً من عناقيد الزهور البيضاء. رفع الزبائن، ومعظمهم من الرجال، رؤوسهم عن لوحات الشطرنج، عندما اقتربنا من الأحجار غير

المستوية على الضفة. توقفنا تحت الشجرة، وبدأت أصوات قليلة من مجموعتنا تنادي: «انصرفوا! انصرفوا! لا تتسكّعوا في هذا المكان البورجوازي!». واختطف صبي من صفي طرفاً من لوحة الشطرنج الورقية على أقرب طاولة ورمى بها بعيداً. وتناثرت القطع الخشبية على الأرض.

كان لاعبا الشطرنج رجلين في عنفوان الشباب. واندفع أحدهما إلى الأمام بقبضتين مشدودتين، ولكن صديقه سارع إلى جذبه من ذيل سترته. وبصمت، شرعا يلتقطان قطع الشطرنج. صرخ الصبي الذي رمى لوحتهما بعيداً: «لا شطرنج بعد الآن! ألا تعرفان أنها عادة بورجوازرية؟». وانحنى ليلتقط حفنة من القطع ويرميها صوب النهر.

ربيتُ على التهذيب والاحترام لكل من يكبرني سناً، ولكن الثورية، الآن، تعني العدوانية والتطرّف. والرقّة تُعدّ «بورجوازية». وقد تعرّضت مراراً للنقد بسببها، وكانت أحد الأسباب التي قُدِّمت لعدم قبولي في الحرس الأحمر. وخلال سنوات الثورة الثقافية، شهدتُ أشخاصاً يُهاجَمون لقولهم «شكراً»، في أحيان كثيرة، الأمر الذي كان يوصم بكونه «نفاقاً بورجوازياً». لقد كانت الكياسة على حافّة الانقراض.

ولكن الآن، خارج المقهى، كنت أستطيع أن أرى أن معظمنا، بمن فينا الحرس الأحمر، لم نكن مرتاحين إلى الطريقة الجديدة في الكلام وإملائها على الآخرين. لم يفتح كثيرون منّا أفواههم. وبهدوء، بدأ قلة يلصقون شعارات مستطيلة على جدران المقهى وجذع الشجرة الوارفة.

انصرف الزبائن مبتعدين بصمت على طريق الضفة. وإذ كنت أراقب أشكالهم المتلاشية، تملّكني إحساس بالضياع. ربما كان هؤلاء الكبار سيقولون لنا، قبل شهرين من الزمان، أن نغرب عن أنظارهم، ولكنهم يعرفون، الآن، أن دعم ماو منح الحرس الأحمر سلطة. وإذ أفكر عائدة إلى الوراء، أستطيع أن أرى الإثارة، التي لا بدّ أن بعض الأطفال شعروا بها عند استعراض سلطتهم على الكبار. وكان أحد الشعارات الشعبية للحرس الأحمر، يقول: «نستطيع أن نصعد إلى السماء، ونشقّ الأرض، لأن قائدنا العظيم الرئيس ماو هو قائدنا الأعلى». وكما يوحي هذا الإعلان، فإن الحراس الحمر، لم يكونوا يتمتعون بحرية تعبير حقيقية عن ذواتهم. فهم، من البداية، لم يكونوا سوى أداة بيد طاغية.

ولكنني إذ وقفت على ضفة النهر في آب/أغسطس ١٩٦٦، لم أشعر إلا بالارتباك. دخلتُ المقهى مع زملائي التلاميذ. وطلب البعض من المدير أن يغلقه. وشرع البعض الآخر يلصق الشعارات على الجدران. وكان العديد من الزبائن ينهضون مغادرين. ولكن في زاوية بعيدة، كان شيخ لا يزال جالساً إلى منضدته، يحتسي شايه بهدوء. وقفت إلى جانبه مُحْرَجَةً، لأنه كان يفترض بي أن أتكلم بصوت آمر. نظر إليَّ واستأنف رشفاته الضاجّة. كان له وجه ذو خطوط غائرة، يكاد يكون قالباً للوجه «العمالي»، كما تعرضه الصور الدعائية. وكانت يداه تذكرانني بقصة من قصص كتابي المدرسي، تصف يدي فلاح شيخ: إنهما قادرتان على حزم الحطب الشوكي، دون الشعور بأي ألم.

ربما كان هذا الشيخ واثقاً بأصله الذي لا يتطرّق إليه الشك، أو بسنّه المتقدمة، التي ما برحت موضع احترام، أو لعله لم يعتقد، ببساطة، أنني على قدر كبير من التأثير. على أيّة حال، بقي في مقعده، لا يعيرني اهتماماً. استجمعتُ شجاعتي، وناشدته بصوت خافت: «أرجوك، هل يمكن أن تغادر؟». ودون أن ينظر إليَّ قال: «إلى أين؟». أجبت: «إلى البيت، طبعاً».

استدار لمواجهتي. كان هناك انفعال في صوته، رغم أنه تكلم بهدوء: «إلى البيت؟ أي بيت؟ إني أشارك حفيديَّ غرفة صغيرة. لديَّ زاوية محاطة بستارة من الخيزران. للسرير فقط. لا شيء أكثر. وحين يكون الأولاد في البيت، آتي هنا لبعض الراحة والهدوء. لماذا يجب أن تحرميني من ذلك؟».

كلماته غمرتني بشعور من الصدمة والخجل. كانت هذه أول مرة، أسمع فيها تقريراً مباشراً عن ظروف معيشة بائسة كهذه. استدرتُ، ومشيت مبتعدة.

أُغلق هذا المقهى، مثل كل المقاهي الأخرى في سيشوان، خمسة عشر عاماً ـ حتى عام ١٩٨١، حين قضت إصلاحات دينغ شياوبنغ بأنه من الممكن فتحه مجدداً. وفي عام ١٩٨٥، عدتُ إلى هناك مع صديق بريطاني. جلسنا تحت الشجرة نفسها. جاءت نادلة عجوز لملء قدحينا من إبريق على بعد قدمين. وحولنا كان الناس يلعبون الشطرنج. كانت هذه من أسعد اللحظات في رحلة العودة تلك.

حين دعا لن بياو إلى تدمير كل ما يمثل الثقافة القديمة، بدأ بعض التلاميذ في

مدرستي يحطمون الأشياء. وإذ كان عمر المدرسة يزيد على ٢٠٠٠ سنة، فقد كان فيها الكثير من الآثار، وبالتالي كانت هدفاً رئيسياً للتحرك. وكان لبوابة المدرسة سطح قديم من القرميد بإفريز محفور. وقد هُشّمت هذه إلى نثار. وحدث الشيء نفسه للسطح الفسيح، المزجّج بالأزرق، على المعبد الكبير، الذي كان يستخدم قاعة للعبة البنغ بونغ. وطوّح بالمبخرتين البرونزيتين العملاقتين أمام المعبد، وتبوّل بعض الصبيان عليهما. وفي الحديقة الخلفية، سار تلاميذ مسلّحون بمطارق كبيرة وقضبان حديدية، على القناطر الحجرية الرملية، محطّمين التماثيل الصغيرة كيفما اتّفق. وعلى جانب من الساحة الرياضية، كان لوحان مستطيلان شامخان من الحجر الرملي الأحمر، ارتفاع الواحد منها عشرون قدماً. وقد نقش عليهما سطور عن كونفوشيوس بخط جميل. ربط حبل ضخم حولهما، وقامت بالسحب مجموعتان. احتاجوا إلى يومين، لأن الأسس كانت عميقة. وكان عليهم استقدام عمال من الخارج، لفتح حفرة حول اللوحين. وعندما انهدّ النصبان، في النهاية، وسط الهتافات، أسقطا جزءاً من الممرّ الذي يمتدّ وراءهما.

كل الأشياء التي أحببتها، كانت في طريقها إلى الزوال. وكان أشدّ ما أحزنني العَبَث بالمكتبة: السطح ذو القرميد الذهبي والنوافذ المنحوتة بدقة والكراسي الملوّنة بالأزرق... قُلبت رفوف الكتب عاليها سافلها، وبعض التلاميذ مزّقوا الكتب، لا لشيء إلا لإشباع نزواتهم. بعد ذلك، أُلصقت أشرطة ورقية بيضاء متصالبة برموز سوداء، على ما تبقى من الأبواب والنوافذ، إشارة إلى ختم المبنى.

كانت الكتب هدفاً رئيسياً لأمر ماو بالتدمير، ولأنها لم تكتب في الأشهر القليلة الماضية، وبالتالي لم تستشهد بماو في كل صفحة، فإن بعض الحراس الحمر، أعلنوا أن هذه الكتب كلها «أعشاب سامة». وباستثناء الكلاسيكيات الماركسية، وأعمال ستالين وماو والراحل لو شون، الذي كانت زوجة ماو تستخدم اسمه في ثاراتها الشخصية، فقد كانت الكتب تحرق في سائر أنحاء الصين. وفقدت البلاد جل تراثها المكتوب. والكثير من الكتب التي بقيت، انتهى بها المطاف، فيما بعد، وقوداً للمدافىء.

ولكن لم تكن هناك نار في مدرستي. فزعيم الحرس الأحمر فيها، كان طالباً ذا ضمير حيّ. وكان هذا الشاب ابن السبعة عشر عاماً، الأنثوي المظهر، قد عُيّن زعيماً

للحرس الأحمر، لأن أباه كان المسؤول الحزبي للإقليم، وليس بسبب طموحه الذاتي. وفي حين أنه لم يتمكّن من منع التخريب العام، فقد تمكّن من الحيلولة دون حرق الكتب.

كان ينبغي أن أشارك في «الأعمال الثورية»، مثل كل الآخرين. ولكني، مثل معظم التلاميذ، تمكّنت من تجنّبها، لأن التدمير لم يكن منظماً، ولم يتوثق أحد من مشاركتنا. وكنت أستطيع أن أرى أن الكثير من التلاميذ يكرهون الأمر كلّه، ولكن أحداً لم يحاول وقفه. ولعلّ كثيراً من الفتيان والفتيات كانوا، مثلي، يقولون لأنفسهم إنهم مخطئون، من خلال الشعور بالأسف على التدمير، وإنهم يحتاجون إلى إصلاح أنفسهم. ولكننا جميعاً، كنّا نعرف، في عقلنا الباطن، أننا سنُسحَق في الحال، لو أبدينا أي اعتراض.

حينذاك، أخذت «اجتماعات الإدانة» تصبح سمة بارزة من سمات الثورة الثقافية. وكانت تعقد بمشاركة جمع هستيري، ونادراً ما كانت تعقد بلا وحشية جسدية. واحتلّت جامعة بكين موقع الصدارة، بإشراف شخصي من ماو. ففي اجتماعها التنديدي، الذي عقد في ١٨ حزيران/يونيو، تعرّض أكثر من ستّين أستاذاً ورئيس قسم، منهم رئيس الجامعة، للضرب والركل، وأجبروا على الركوع ساعات. وأُلبسوا، كرهاً، طراطير المغفلين، بشعارات مهينة. وأُريق الحبر على وجوههم، لجعلها سوداء، بلون الشر، وأُلصقت شعارات على كل أجسامهم. وكان طالبان يقبضان على ذراعي كل ضحية، ويلويانهما وراء ظهره، ويدفعانهما إلى الأعلى بشدّة، إلى حد خلعهما تقريباً. وكان هذا الوضع يسمى «الطائرة النفاثة»، وما لبث أن أصبح سمة تتّسم بها أغلبية اجتماعات الإدانة، في سائر أنحاء البلاد.

ذات مرة، دعاني الحرس الأحمر لحضور اجتماع كهذا. الرعب جعلني أشعر بالقشعريرة في الصيف الحار، حين رأيتُ مجموعة من المعلّمين يقفون على منصّة، في وضع «الطائرة النفاثة». ثم رُكِل بعضهم على مؤخرة رُكَبِهم، وأُجبروا على الركوع، فيما أُجبر البعض الآخر على الوقوف على مقاعد ضيّقة طويلة، بمن فيهم معلّمي في درس اللغة الانكليزية، وهو شيخ له دماثة الجنتلمان الكلاسيكي. وجد من الصعب الحفاظ على توازنه، فترنح وسقط جارحاً جبهته على زاوية المقعد الحادّة. انحنى عفوياً حارس أحمر يقف إلى جانبه، ومدّ له يديه لمساعدته، ولكنه استدرك

على الفور، واتّخذ موقفاً قاسياً على نحو مبالغ فيه، شاداً قبضتيه وصارخاً: «عد إلى المقعد». لم يكن يريد أن يُنظر إليه على أنه متساهل مع «عدو طبقي». انزلقت قطرات الدم على جبين المعلم، وتخثّرت على جانب من وجهه.

كان شأنه، شأن المعلمين الآخرين، متّهماً بصنوف شتّى من الجرائم الغريبة. ولكنهم كانوا هناك، في الحقيقة، لأنهم أصحاب درجات، وبالتالي الأحسن، أو لأن بعض التلاميذ كانوا متحاملين عليهم.

علمتُ في سنوات لاحقة، أن التلاميذ في مدرستي تصرفوا باعتدال نسبياً، لأنهم إذ كانوا في أرقى المدارس سمعة، فقد كانوا ناجحين ولهم اهتمامات أكاديمية. وفي المدارس التي قبلت صبياناً أكثر جموحاً، كان هناك معلّمون ضُربوا حتى الموت. أنا لم أشهد إلا عملية ضرب واحدة في مدرستي. فمعلمتي في درس الفلسفة، كانت تنظر بشيء من الازدراء إلى من لم يحققوا نتائج جيّدة في دروسها، وكان بعضهم يكرهونها، وبدأوا الآن يتّهمونها بـ «الانحطاط». وكانت «الأدلّة»، التي تعكس نزعة «الثورة الثقافية» المحافظة المتطرّفة، أن المعلمة التقت بزوجها على متن حافلة. وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث، ثم تحابّا. وكان الحب النابع عن لقاء بالمصادفة يعدّ دليلاً على اللاأخلاقية. أخذها الشبان إلى مكتب، و «اتّخذوا إجراءات ثورية في حقّها» ـ وهو التعبير الملطّف عن ضرب أحدهم. وقبل أن يبدأوا، دعوني أنا بصفة خاصة، وحملوني على الحضور. «ماذا ستفكر عندما تراكِ، تلميذتها المدلّلة، هناك؟».

كنتُ أعتبر المفضّلة لديها، لأنها غالباً ما كانت تثني على عملي. ولكن قيل لي أن أحضر أيضاً، لأني كنت ناعمة جداً، وفي حاجة إلى «درس في الثورة».

حين بدأ الضرب، انكمشتُ وراء حلقة التلاميذ، الذين احتشدوا في المكتب الصغير. دفعني اثنان من زملاء الصف لكي أذهب إلى المقدمة، وأشارك في الضرب. تجاهلتهما. وفي مركز الحلقة، كانت معلّمتي تُركل متلوية على الأرض من شدّة العذاب، وشعرها منفوش. وعندما صرخت متوسلة إليهم أن يكفّوا، قال الشبان الذين انقضّوا عليها بأصوات باردة: «الآن تتوسّلين! ألم تكوني شرسة؟ الآن توسلي على الوجه المطلوب». وركلوها ثانية، وأمروها أن تسجد لهم، وتقول: «أرجوكم أن

تحفظوا حياتي أيها الأسياد». لقد كان إجبار أحد على السجود والتوسّل إذلالاً شديداً. جلستُ وحدقتُ بنظرات جوفاء أمامها: التقت عيناي عينيها، من خلال شعرها المنفوش. وفيهما رأيت عذاباً ويأساً وخواء. كانت تلهث لالتقاط أنفاسها، وكان وجهها بلون الرماد. تسلّلتُ خارجة من الغرفة، وتبعني عدة تلاميذ. ومن ورائي، كنت أسمع أشخاصاً يهتفون الشعارات، ولكن أصواتهم كانت متردّدة وغير واثقة. لا بدّ أن كثيرين من الطلبة كانوا خائفين. مشيتُ مبتعدة بخطى سريعة، وقلبي يخفق. كنتُ أخشى أن أُمسك وأتعرّض أنا نفسي للضرب. ولكن أحداً لم يأتِ في أعقابي، ولم أتعرّض للإدانة لاحقاً.

لم أقع في متاعب، تلك الأيام، رغم افتقاري، بشكل واضح، إلى الحماسة. فإلى جانب حقيقة أن الحراس الحمر كانوا منظمين تنظيماً غير متشدد، فقد ولدتُ أنا حمراء قانية، بحسب «نظرية النَسَب»، لأن أبي مسؤول كبير. ورغم النظر إليَّ بعدم استحسان، لم يفعل أحد أيّ شيء ضدي، باستثناء توجيه النقد إليَّ.

في ذلك الوقت، قسّم «الحرس الأحمر» التلاميذ إلى ثلاث فئات: «حمر» و «سود» و «رماديون». «الحمر» كانوا من عوائل «عمال وفلاحين ومسؤولين ثوريين وضباط ثوريين وشهداء ثوريين». و «السود» كانوا من آباء مصنّفين في عداد «الملّاك والفلاحين الأغنياء وأعداء الثورة والعناصر السيّئة واليمينيين». وكان «الرماديون» من عوائل غامضة مثل الباعة والكَتَبة. وفي صفي لا بد أن التلاميذ كانوا من «الحمر»، بسبب عملية الفحص قبيل التسجيل. ولكن ضغط «الثورة الثقافية»، كان يعني أن من الضروري وجود بعض الأشرار. ونتيجة لذلك، أصبح بعضهم «رماديين»، أو «سوداً».

كانت هناك فتاة اسمها أي ـ لنغ في صفي. كنّا صديقتين قديمتين، وكثيراً ما زرت بيتها، وكنت أعرف عائلتها معرفة جيدة. كان جدّها اقتصادياً مرموقاً، وعائلتها تتمتّع بحياة كثيرة الامتيازات، في ظل الشيوعيين. كان بيتهم كبيراً وأنيقاً ومترفاً، بحديقة غنّاء ـ أفضل كثيراً من شقّة عائلتي. واستهوتني بصفة خاصة مجموعة التحف التي لديهم، لا سيما قوارير السعوط، التي جلبها جد أي ـ لنغ من إنكلترا، حيث درس في أكسفورد، إبان العشرينات.

الآن، أصبحت أي ـ لنغ، فجأة، «سوداء». وسمعتُ أن تلاميذ من صفها،

دهموا بيتها وحطّموا التحف كلها، بما في ذلك قوارير السعوط، وضربوا والديها وجدّها بإبزيمات أحزمتهم النحاسية. في اليوم التالي، عندما رأيتها، كانت ترتدي وشاحاً. فزملاء صفها أعطوها «رأس ين ويانغ». وكان عليها أن تحلق شعرها كله. كانت تنتحب. وشعرتُ أنني شديدة التقصير، لأني لم أتمكن من إيجاد أي كلمات لمؤاساتها.

نظّم الحرس الأحمر في صفي اجتماعاً، كان علينا جميعاً أن نقدم فيه أصولنا العائلية، ليمكن تقسيمنا إلى فئات. وقد أَعلنتُ: «مسؤول ثوري»، بارتياح بالغ. قال ثلاثة أو أربعة تلاميذ: «موظف مكتب». وبلغة تلك الأيام، كان هذا يختلف عن «المسؤول»، الذي يتبوّأ منصباً متقدماً أكثر. لم يكن التقسيم واضحاً، لأنه لم يكن هناك تعريف لما يعنيه «متقدم». مع ذلك، كان يتعيّن استخدام هذه العناوين المبهمة في استمارات مختلفة، كلّها تتضمن حقلاً اسمه «الأصل العائلي». وسوية مع فتاة، كان أبوها بائعاً في متجر، وُسم أبناء «موظفي المكاتب» بكونهم «رماديين». وأُعلن عن وضعهم تحت المراقبة، وأن عليهم أن يقوموا بكنس مبنى المدرسة، وتنظيف المرافق الصحية، وطأطأة رؤوسهم طول الوقت، وأن يكونوا مستعدين للاستماع إلى محاضرة من أي حارس أحمر يعنُّ له أن يخاطبهم. وكان عليهم أيضاً أن يقدّموا، كل يوم، تقريراً عن أفكارهم وسلوكهم.

فجأة، بدا هؤلاء التلاميذ خامدين ومنكمشين. فقد هجرهم عنفوانهم وحماستهم اللذان كانوا يتمتعون بهما، حتى ذلك الوقت. وطأطأت الفتاة رأسها، وانحدرت الدموع على وجنتيها. كنّا صديقتين. وبعد الاجتماع، ذهبت إليها لأقول شيئاً يهوّن عليها، ولكن عندما رفعت رأسها رأيت سخطاً، بل كراهية تقريباً في عينيها. مشيتُ مبتعدة دون كلام، وتجوّلتُ شاردة حول المبنى. كانت نهاية آب/ أغسطس. وكانت شجيرات ياسمين الكيب تنشر عبيرها الفوّاح. وبدا لي غريباً أن يكون هناك أي شذاً.

في وقت الغروب، كنتُ عائدة إلى القسم الداخلي، حين رأيت شيئاً يومض من نافذة في الطابق الثاني لأحد المباني المدرسية، على بعد حوالي أربعين ياردة. كان هناك دوي في أسفل المبنى. الأغصان الكثيفة لبعض أشجار البرتقال، تمنعني من رؤية ما يجري، ولكن الناس بدأوا يتراكضون في اتّجاه الصوت. ومن كلمات التعجّب المكبوتة والمشوّشة، فهمت الرسالة: «لقد قفز أحدهم من النافذة!».

رفعتُ يديَّ تلقائياً لتغطية عينيَّ، وركضت إلى غرفتي، كنت خائفة خوفاً مريعاً. تسمّرت أحاسيسي. وبسرعة، أغلقتُ النوافذ، ولكن ضجيج الناس، وهم يتحدّثون بعصبية عما حدث، كان يخترق الزجاج الرقيق.

فتاة في السابعة عشرة حاولت الانتحار. قبل الثورة الثقافية، كانت أحد قادة رابطة الشبيبة الشيوعية، وكانت مثالاً يقتدى في دراسة أعمال الرئيس ماو، والتعلّم من لي فينغ. قامت بأعمال خيّرة كثيرة، مثل غسل ملابس رفاقها، وتنظيف المرافق الصحية، وكثيراً ما كانت تقدّم أحاديث للمدرسة، حول مدى الإخلاص الذي اتبعتْ به تعاليم ماو. وكانت، في أحيان كثيرة، تُشاهَد وهي مستغرقة في الحديث مع زميل لها من التلاميذ، بنظرة صادقة وهادفة على وجهها، منفذة واجبات «من القلب إلى القلب» مع أحدهم، يريد الانضمام إلى رابطة الشبيبة. ولكنها صُنّفت، فجأة، «سوداء». كان أبوها «موظف مكتب»، يعمل للحكومة البلدية، وكان عضواً في الحزب. ولكن بعض زملائها في الصف، ممن وجدوها «مزعجة»، وكان آباؤهم في مناصب أعلى، قرّروا أنها ينبغي أن تكون «سوداء». وفي اليومين السابقين، وُضِعت تحت الحراسة مع آخرين من «السود» و «الرماديين»، وأجبرت على قلع العشب من ساحة الرياضة. ولإذلالها، حلق زملاء صفها شعرها الأسود الجميل، تاركين رأسها أقرع ببشاعة. وفي ذلك المساء، ألقى «الحمر» ممن في صفها محاضرة مهينة، طالتها والضحايا الآخرين. ردّت قائلة إنها أكثر ولاء منهم للرئيس ماو. صفعها «الحمر»، وقالوا لها إنها ليست مؤهلة للكلام عن الولاء لماو، لأنها عدوّ طبقي. فركضت إلى النافذة، ورمت نفسها.

وإذ تملك الحراس الحمر الذهول والخوف، هرعوا بها إلى المستشفى. لم تمتْ، ولكنها أُقعدت مدى الحياة. وعندما رأيتها في الشارع، بعد أشهر عديدة، كانت تنحني على عكازين، بعينين خاويتين.

في الليلة التي حاولتْ فيها الانتحار، لم أتمكّن من النوم. فعندما أغمض عينيَّ، كان يطلّ عليَّ شكل غير واضح، ملطّخ بالدماء. كنتُ مرعوبة وفرائصي ترتجف. في اليوم التالي، طلبت إجازة مرضية، مُنحت لي. فالبيت بدا لي الملاذ الوحيد من الرعب في المدرسة. وتمنّيتُ باستماتة أن لا يتعيّن عليّ المبارحة مرة أخرى أبداً.

١٧ ـ «هل تريد أن يصبح أطفالنا «سوداً»؟» ـ مأزق والديَّ (آب/أغسطس ـ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٦)

البيت لم يكن مغيثاً هذه المرة. بدا والداي شاردين، وبالكاد يلاحظان وجودي. حين كان أبي لا يذرع الشقة جيئة وذهاباً، كان يحبس نفسه في مكتبته. وكانت أمي ترمي السلة تلو الأخرى من كرات الورق المجعد في موقد المطبخ. جدتي أيضاً بدت كأنها تنتظر كارثة. كانت عيناها الحادّتان مثبتتين على والديَّ، تشعان توجّساً. وبتهيّب، كنت أراقب مزاجيهما، ويشتدُّ بي الخوف من أن أسألهما ما الخطب.

لم يخبرني والداي عن حديث دار بينهما قبل ليالٍ. كانا يجلسان عند نافذة مفتوحة، خارجها مكبّر صوت مربوط بعمود الشارع، يبثّ أقوالاً لماو لا تنتهي، لا سيما قوله إن كل الثورات عنيفة بالتعريف: «الاضطراب الهمجي لطبقة تطيح بأخرى». وكانت الأقوال تتردّد، المرة تلو الأخرى في هتافات زاعقة، تبعث على الخوف، وبالنسبة إلى البعض، تسبّب الإثارة. وبين حين وآخر، كان هناك بيانات عن «انتصارات» حقّقها الحرس الأحمر: دهموا مزيداً من بيوت «الأعداء الطبقيين» و «سحقوا رؤوسهم، رؤوس الكلاب».

كان أبي ينظر إلى الغروب المشتعل. التفت إلى أمي، وقال ببطء: «إني لا أفهم الثورة الثقافية. ولكني واثق أن ما يحدث خطأ فادح. هذه الثورة لا يمكن أن تُبَرّر بأيّة مبادىء ماركسية أو شيوعية. فالناس فقدوا حقوقهم الأساسية، وفقدوا الحماية. وهذا شيء لا يطاق. إني شيوعي ومن واجبي أن أمنع وقوع كارثة أسوأ. يجب أن أكتب إلى قيادة الحزب، إلى الرئيس ماو».

في الصين، لم تكن هناك، عملياً، قناة يمكن للناس أن يعبّروا من خلالها عن مظلمة، أو يؤثروا في سياسة، باستثناء مناشدة القادة. وفي هذه الحالة على وجه التحديد، كان ماو وحده الذي يستطيع تغيير الوضع. وأياً كان ما يفكّر فيه أبي، أو يخمّنه عن دور ماو، فإن الشيء الوحيد، الذي كان يستطيعه، هو رفع مذكرة إليه.

كانت خبرة أمي تقول لها إن الشكوى بالغة الخطر، وإن من شكوا، وعوائلهم، عانوا قصاصاً شديداً. كانت صامتة فترة طويلة، تحدّق إلى السماء المشتعلة البعيدة، محاولة السيطرة على قلقها وغضبها وإحباطها. وقالت أخيراً: «لماذا تريد أن تكون فراشة ترمي نفسها في النار؟».

أجاب أبي: «إن هذه ليست ناراً عادية. إنها تتعلّق بحياة وموت الكثير من الناس. ويجب أن أفعل شيئاً هذه المرّة».

قالت أمي متضايقة: «حسناً، إنك لا تبالي بنفسك. إنك لا تهتم بحياتك. وأنا أقبل بذلك. ولكن ماذا عن أطفالنا؟ أنت تعرف ما سيحدث لهم، ما أن تقع في متاعب. هل تريد أن يصبح أطفالنا «سوداً»»؟.

قال أبي، مفكّراً كأنه يحاول إقناع نفسه: «كل رجل يحبّ أطفاله. وتعرفين أن النمر، قبل أن يثب ويقتل، ينظر دائماً إلى الوراء، ويتأكّد أن صغيره بخير. حتى الوحش المفترس يشعر هذا الشعور، ناهيك من الإنسان. ولكن على الشيوعي أن يكون أكثر من ذلك. عليه أن يفكّر في الأطفال الآخرين. ماذا عن أطفال الضحايا؟».

نهضتْ أمي ومشتْ مبتعدة. لم تكن هناك فائدة. وما أن اختلت بنفسها حتى أخذت تنتحب بمرارة.

بدأ أبي يكتب رسالته، ممزّقاً المسودة تلو الأخرى. كان كمالياً على الدوام، ورسالة تكتب للرئيس ماو، ليست بالأمر الهيّن. لم يكن عليه صوغ ما يريد أن يقوله بدقّة فحسب، بل أن يحاول تخفيف وطأة العواقب، قدر الإمكان، وخاصة على عائلته. بعبارة أخرى، إنّ كلامه يجب أن يُنْظَر إليه على أنه نقد. لم يكن في وسعه أن يجرح ماو.

بدأ أبي يفكّر في رسالته، في حزيران/ يونيو. فموجات من تقديم أكباش محرقة، طالت العديد من زملائه، وكان يريد أن يتكلم دفاعاً عنهم. ولكن الأحداث ظلّت

تتجاوز مشاريعه. ومن بين أشياء أخرى، كان هناك دلائل تشير، أكثر فأكثر، إلى أنه يوشك أن يصبح هو نفسه ضحية. وذات يوم، رأت أمي ملصقاً جدارياً بارزاً في مركز تشينغدو، يهاجمه بالاسم، واصفاً إياه «عدو الثورة الثقافية رقم واحد في سيشوان». وكان هذا يستند إلى تهمتين: في الصيف الماضي، قاوم نشر المقالة التي تدين «مسرحيات ماندارن المنغ»، والتي كانت سبب دعوة ماو إلى «الثورة الثقافية»، وأنه صاغ «وثيقة نيسان/أبريل»، التي وقفت ضدّ الملاحقة، وحاولت قصر «الثورة الثقافية» على المناظرة اللاسياسية.

حين أخبرتْ أمي أبي عن الملصق، قال على الفور إنه من صنع القادة الحزبيين الإقليميين. فالشيئان اللذان يتهمه الملصق بهما، ليسا معروفين إلا لدائرة صغيرة في القمة. وكان أبي مقتنعاً بأنهم عقدوا عزمهم، الآن، على تقديمه كبش محرقة، وكان يعرف لماذا. فطلاب الجامعات في تشينغدو، بدأوا يوجِّهون حملتهم نحو القادة الإقليميين. وكانت «سلطة الثورة الثقافية» تعهد إلى الطلاب الجامعيين بمعلومات أكثر مما تعهد به إلى طلاب المدارس المتوسّطة، وقيل لهم إن نية ماو الحقيقية، هي تدمير «أنصار الطريق الرأسمالي» ـ أي تدمير مسؤولين شيوعيين. ومعظم الطلاب لم يكونوا أبناء مسؤولين كبار، لأن أغلبية المسؤولين الكبار، لم يتزوّجوا إلا بعد تأسيس الجمهورية الشعبية، في عام ١٩٤٩، وبالتالي لم يكن لديهم أولاد في سنّ طلاب الجامعة. وإذ لم تكن لدى الطلاب مصلحة خاصة في الوضع القائم، فقد كانوا سعداء بالانقضاض على المسؤولين.

كان العنف الذي ارتكبه تلاميذ المدارس المتوسّطة، إهانة لسلطات سيشوان، لكن الطلاّب الجامعيين روَّعوها حقاً. لقد شعرتْ أن عليها أن تجد كبش محرقة مرموقاً لتهدئة الطلاب. وكان أبي أحد المسؤولين الكبار في حقل «الثقافة»، التي كانت هدفاً رئيسياً للثورة الثقافية. وهو معروف بإصراره على مبادئه. وفي وقت كانت السلطات تحتاج إلى الإجماع والطاعة، فقد شعرت أنها تستطيع الاستغناء عنه.

سرعان ما تأكّدت محنة أبي. ففي ٢٦ آب/أغسطس، طُلب منه حضور اجتماع في جامعة سيشوان، أرقى الجامعات سمعة في الإقليم. وكان الطلاب هناك يهاجمون رئيس الجامعة وكبار أعضاء الهيئة التدريسية، وأخذوا، الآن، يوجّهون أنظارهم نحو المسؤولين الحزبيين الإقليميين. كان غرض الاجتماع، أن يستمع القادة الإقليميون

إلى شكاوى الطلاب. وقد جلس المفوض «لي» إلى المنصة، ومعه درع المسؤولين الحزبيين الكبار بكامل عدّته. كانت القاعة تغصّ بالحضور.

جاء الطلاب إلى الاجتماع متأبّطين شراً، وسرعان ما عمّ الهرج في القاعة، وبدأ الطلاب، مردّدين الشعارات وملوّحين بالأعلام، يقفزون على المسرح، محاولين خطف الميكروفون. ورغم أن أبي لم يكن رئيس الاجتماع، فقد كان هو الذي طُلب منه أن يتولى السيطرة على الموقف. وفيما كان يواجه الطلاب، انسحب المسؤولون الحزبيون الآخرون مغادرين.

صاح أبي: «هل أنتم طلاب أذكياء أم مشاغبون؟ هلّا حكمتم العقل». عموماً، يحتفظ المسؤولون في الصين بسلوك وقور انسجاماً مع مركزهم، ولكن أبي كان يصرخ كأنه واحد من الطلاب. لسوء الحظ أن صدْقَه لم يؤثر فيهم، وقد غادر مشيعاً بزعيق الشعارات. بعد ذلك مباشرة، ظهرت ملصقات جدارية ضخمة، تسميه «أشدّ أنصار الطريق الرأسمالي عناداً، المتعنّت الذي يعادي الثورة الثقافية».

أصبح هذا الاجتماع علامة بارزة. ومنه اكتسبت مجموعة الحرس الأحمر في جامعة سيشوان اسمها ـ «٢٦ آب/ أغسطس». كان من شأن هذه المنظمة أن تصبح نواة كتلة، على صعيد الإقليم، تضمّ ملايين الأشخاص، والقوة الرئيسية للثورة الثقافية في سيشوان.

بعد الاجتماع، أمرت السلطات الإقليمية أبي بأن لا يبرح شقّتنا، بأي حال من الأحوال ـ من أجل «حمايته». وكان أبي يستطيع أن يرى أنه، أولاً، كُشف، عن عمد، هدفاً للطلبة، ثم وضع عملياً تحت الإقامة الجبرية. وقد أضاف اضطهاده المنتَظر إلى رسالته الموجهة إلى ماو. وذات ليلة، طلب من أمي، وعيناه تترقرقان بالدموع، أن تأخذ الرسالة إلى بكين، بعد أن فقد حريّته.

أمي لم تكن تريد منه قط أن يكتب الرسالة، ولكنها الآن، عدلت عن رأيها. وما رجّح كفة الميزان لمصلحة هذا التغير، أنه كان يجري تحويله إلى ضحية. وكان هذا يعني أن أطفاله سيصبحون من «السود» ـ وكانت تعرف ما يعنيه ذلك. كان الذهاب إلى بكين، ومناشدة القادة الكبار، أملها الوحيد، مهما كان بعيداً، في إنقاذ زوجها وأطفالها. وقد وعدت بأخذ الرسالة.

في اليوم الأخير من آب/أغسطس، صحوْتُ من نوم قلق، على ضوضاء من مهجع والديَّ. مشيت على أطراف أصابعي إلى الباب المقابل لمكتبة أبي. كان أبي يقف في وسط الغرفة، ومن حوله تجمَّع عدة أشخاص. وقد عرفتهم: كانوا من قِسمه. وكلهم بدوا متجهمين، فارقتهم ابتسامات تزلّفهم المعهودة. كان أبي يقول: «هلا شكرتم، رجاء، السلطات الإقليمية بالنيابة عني؟ إني بالغ الامتنان لاهتمامهم. ولكني أفضل أن لا ألجأ إلى الاختفاء. فالشيوعي ينبغي أن لا يخاف من طلاب».

كان صوته هادئاً، ولكنه كان يحمل أثر انفعال، جعلني خائفة. ثم سمعتُ صوت رجل، يبدو مهماً، يقول بلهجة تهديد: «ولكن أيها المدير تشانغ، لا ريب أن الحزب سيد العارفين. فطلاب الجامعة يهاجمونك، ويمكن أن يكونوا عنيفين. والحزب يعتقد أنك ينبغي أن توضع تحت الحماية. هذا هو قرار الحزب. ويجب أن تعرف أن على الشيوعي أن يطيع قرارات الحزب طاعة غير مشروطة».

بعد صمت، قال أبي بهدوء: «إني أطيع قرار الحزب. وسأذهب معكم». وسمعتُ أمي تسأل: «ولكن إلى أين؟». ثم سمع صوت رجل مهم: «تعليمات الحزب تقول: لا أحد ينبغي أن يعرف». وحين خرج أبي من المكتبة، رآني فأخذ يدي. وقال: «بابا سيغيب بعض الوقت. كوني فتاة طيّبة مع أمك».

مشيتُ وأمي معه إلى بوابة المجمع الجانبية. وكان الممرّ الطويل محفوفاً بالعاملين في قسمه. كان قلبي يخفق، وبدت ساقاي مصنوعتين من خيوط. بدا أبي متوتراً للغاية. كانت يده ترتجف في يدي. وكنت ألامسها بيدي الأخرى.

كانت هناك سيارة متوقفة خارج البوابة. باب السيارة مفتوح، وفي السيارة رجلان، رجل في المقدمة، والآخر في المقعد الخلفي. كان وجه أمي مشدوداً، ولكنها كانت هادئة. نظرتْ في عيني أبي، وقالت: «لا تقلق. سأفعلها». ورحل أبي دون أن يضمّني أو يضمّ أمي إليه. فالصينيون لا يبدون عواطفهم، حتى في الأوقات الاستثنائية.

لم أدرك أن أبي كان يُوضع رهن التوقيف، لأن هذا العمل كان مبرقعاً بلبوس «الحماية». وإذ كنت في الرابعة عشرة، فلم أتعلّم فكّ رموز الأسلوب المرائي لنظام الحكم. كانت المخاتلة واضحة، لأن السلطات لم تحزم أمرها حول ما ينبغي أن

تفعله بأبي. وكما في معظم الحالات المماثلة، لم يكن للشرطة دور. فالأشخاص الذين جاؤوا لأخذ أبي، كانوا عاملين في قسمه، لديهم تخويل شفهي من لجنة الحزب الإقليمية.

فور رحيل أبي، رمت أمي بعض الملابس في حقيبة، وقالت لنا إنها ذاهبة إلى بكين. رسالة أبي كانت لم تزل مسودة، فيها تشطيبات وتعديلات. وفي اللحظة التي رأى فيها الشلة مقبلة، دسّها في يدها.

ضمّت جدتي أخي، ابن السنوات الأربع، شياو - فانغ، إلى صدرها، وأخذت تنتحب. قلت أريدُ أن أذهب مع أمي إلى المحطة. لم يكن هناك وقت لانتظار حافلة، فقفزنا في دراجة تاكسي هوائية.

كنت خائفة ومرتبكة. لم توضح أمي ما يجري. بدت مُجهدة ومشغولة، مستغرقة في أفكارها. حين سألتها ماذا يحدث، أجابتْ باقتضاب أنني سأعرف في الوقت المناسب، وتركتُ الأمر عند هذا الحد. افترضتُ أنها تعتقد أن الأمر أكثر تعقيداً من أن يُشرح، وكنت معتادة على أن يقال لي إني صغيرة على معرفة أشياء معينة. ولاحظتُ أيضاً أن أمي منهمكة في تقويم الوضع وتخطيط خطواتها التالية، ولم أكن أريد إلهاءها. ما لم أعرفه، أنها هي نفسها كانت تكافح لفهم الوضع المبلبل.

جلسنا في دراجة التاكسي الهوائية، صامتتين ومتوترتين، يدي في يدها. وظلّت أمي تنظر وراءها: كانت تعرف أن السلطات لا تريدها أن تذهب إلى بكين، ولم تسمح لي بمرافقتها، إلا لأكون شاهدة في حالة حدوث شيء ما. في المحطة، ابتاعت تذكرة «منام على مقعد صلب» في القطار التالي إلى بكين. لم يكن موعده قبل الفجر، فجلسنا على مقعد في غرفة الانتظار، وهي سقيفة بلا جدران.

تململتُ ملتصقة بها، في انتظار مرور الساعات الطويلة. وبصمت، حدقنا إلى الظلام المنسدل على أرض الميدان الإسمنتية أمام المحطة. كان بعض المصابيح، العارية الخافتة على أعمدة خشبية، تلقي ضوءاً شاحباً، ينعكس في برك الماء المتبقيّة من زوبعة رعدية غزيرة المطر، هبّت ذلك الصباح. شعرتُ بالبرد، وأنا في بلوزتي الصيفية. لفّت أمي معطفها حول جسمي. وإذ كانت ساعات الليل تمر بطيئة، قالت لي أن أخلد إلى النوم. فغفوت متعبة ورأسي في حجرها.

أيقظتني حركة ركبتيها. رفعتُ رأسي، فرأيت شخصين، كل منهما في معطف بقلنسوة، يقفان أمامنا. كانا يتجادلان حول شيء ما بأصوات خافتة. وفي حالتي المشوشة، لم أتمكّن من تبيّن ما يقولانه. لم أتمكن حتى من التمييز إن كانا رجلين أم امرأتين. سمعتُ أمي، بصورة مبهمة، تقول بصوت هادىء: «سأنادي الحرس الأحمر». ران الصمت على المعطفين المقلنسين. تهامسا، ثم مشيا مبتعدين، وكان واضحاً أنهما لا يريدان لفت الانتباه.

في الفجر ركبت أمي القطار إلى بكين.

بعد سنوات، قالت لي إن الشخصين كانا امرأتين تعرفهما، موظفتين صغيرتين، من قسم أبي. قالتا لها إن السلطات قرّرت أن ذهابها إلى بكين، عمل «معاد للحزب». وقد استشهدت أمي بميثاق الحزب، الذي يقول إن من حق أي عضو في الحزب مناشدة القادة. وعندما أشارت المبعوثتان إلى أن رجالاً ينتظرونهما في سيارة، يستطيعون القبض عليها بالقوة، قالت أمي إنها، إذا فعلوا ذلك، ستصرخ طالبة النجدة من الحرس الأحمر، حول المحطة، وتقول لهم إن هؤلاء الرجال يحاولون منعها من الذهاب إلى بكين لمقابلة الرئيس ماو. سألتُها كيف كانت تستطيع الوثوق بأن الحرس الأحمر، سيساعدها هي، وليس من كانوا يتعقّبونها: «ماذا لو أنهم حرّضوا عليك الحرس الأحمر، بوصفك عدواً طبقياً يحاول الهرب؟». ابتسمتْ أمي وقالتْ: «حسبتُ أنهم لن يقدموا على هذه المجازفة. كنت مستعدة للمقامرة بكل شيء. لم يكن لدي بديل».

في بكين، أخذت أمي رسالة أبي إلى «مكتب التظلمات». فالحكام الصينيون، على امتداد التاريخ، إذ لم يجيزوا قط قيام نظام قضائي مستقل، فقد كانوا يفتحون مكاتب، يستطيع الناس البسطاء أن يقدموا فيها تظلّمات ضد رؤسائهم، وقد ورث الشيوعيون هذا التقليد. وحين بدا من خلال الثورة الثقافية، كأن المسؤولين الشيوعيين أخذوا يفقدون سلطتهم، توافد الكثيرون من الذين اضطهدهم الشيوعيون في السابق، إلى بكين، لتقديم تظلّماتهم. ولكن ما لبثت «سلطة الثورة الثقافية» أن رأت أن «الأعداء الطبقيين» غير مسموح لهم بالشكوى، حتى ضد «أنصار الطريق الرأسمالي». وإذا حاولوا، فسيكون عقابهم مضاعفاً.

كان القليل من الحالات التي تتعلق بمسؤولين كبار، مثل أبي، تُقدَّم إلى مكتب التظلّمات. لذا، نالت أمي اهتماماً خاصاً. كما أنها كانت واحدة بين القليل جداً من زوجات وأزواج ضحايا، لديهم الشجاعة للذهاب، وتقديم استئناف في بكين، لأنهم كانوا واقعين تحت الضغط «لرسم حدّ فاصل» بينهم وبين المتهمين، بدلاً من جرّ المتاعب على أنفسهم بالدفاع عن الضحايا. استقبل أمي، في الحال تقريباً، نائب رئيس الوزراء تاو جوو، الذي كان رئيس القسم المركزي للشؤون العامة، وأحد قادة الثورة الثقافية، في ذلك الوقت. سلَّمته رسالة أبي، وناشدته أن يأمر سلطات سيشوان بالإفراج عنه.

بعد أسبوعين، قابلها تاو جوو ثانية. أعطاها رسالة تقول إن أبي تصرّف بطريقة دستورية تماماً، وبالتنسيق مع قيادة الحزب في سيشوان، وينبغي إطلاقه على الفور. لم يحقّق تاو في القضية. اكتفى بكلمة أمي، لأن ما حدث لأبي، كان حالة شائعة: كان المسؤولون الحزبيون، في سائر أنحاء الصين، يختارون في ذعرهم أكباش محرقة للنجاة بجلدهم. وقد أعطاها تاو الرسالة مباشرة، بدلاً من إرسالها عبر القنوات الحزبية، لعلمه أنها في حالة من الفوضى.

أظهر تاو جوو تفهمه، واتفق مع الهموم الأخرى في رسالة أبي: الوباء المتمثل في تقديم أكباش محرقة، وتفشّي العنف العشوائي. وكانت أمي تستطيع أن ترى أنه يريد السيطرة على الوضع. وبسبب ذلك، سرعان ما أُدين بوصفه «ثالث أكبر مناصري الطريق الرأسمالي»، بعد ليو شاوتشي ودينغ شياوبنغ.

في هذه الأثناء، نَسختْ أمي رسالة تاو جوو، وأرسلت النسخة بالبريد إلى جدتي، وطلبت منها أن تُريها لقسم أبي، وتقول لهم إنها لن تعود إلا بعد أن يفرجوا عنه. كانت أمي قلقة من أنها إذا عادت إلى سيشوان، يمكن أن تعتقلها السلطات، وتصادر الرسالة ـ ولا تطلق أبي. وشعرت أن رهانها الأفضل، هو البقاء في بكين، حيث تستطيع الاستمرار في ممارسة الضغط.

نقلت جدتي نصّ رسالة تاو جوو المنسوخ بيد أمي. ولكن السلطات الإقليمية قالت إن الأمر كله سوء فهم، وإنها لا تفعل سوى حماية أبي. وأصرّت على عودة أمي، والكفّ عن تدخّلها الفردي.

جاء مسؤولون إلى شقتنا مرات عديدة، لإقناع جدتي بالذهاب إلى بكين، وإعادة أمي. وقال لها أحدهم: «إني، في الحقيقة، أفكّر في ابنتك. لماذا التمادي في إساءة فهم الحزب؟ كل ما في الأمر، أن الحزب يحاول أن يحمي صهرك. ابنتك لم تستمع إلى الحزب، وذهبت إلى بكين. إني قلق عليها، لأنها إذا لم تعد، ستعتبر معادية للحزب. وأنت تعرفين خطورة ذلك. ولأنكِ أمها، يجب أن تفعلي ما هو خير لها. لقد وعد الحزب بأن يغفر لها، إذا عادت وانتقدت نفسها».

التفكير في أن ابنتها في مشكلة، دفع جدتي إلى حافّة الانهيار. وبعد عدّة جلسات كهذه أخذت تتردّد، حتى حُسم لها ذات يوم قرارها: قيل لها إن أبي أصيب بانهيار عصبي، ولن يرسلوه إلى المستشفى، إلا حين تعود أمي إلى البيت.

أعطى الحزب لجدتي تذكرتين، واحدة لها والأخرى لشياو ـ فانغ، وانطلقا إلى بكين، على بعد ٣٦ ساعة بالقطار. ما أن سمعت أمي بالنبأ، حتى أرسلتْ برقية تقول لقسم أبي إنها قادمة، وبدأت ترتيبات العودة إلى البيت. وصلت عائدة مع جدتي وشياو ـ فانغ، في الأسبوع الثاني من تشرين الأول/أكتوبر.

خلال غيابها، شهر أيلول/سبتمبر كلّه، بقيتُ في البيت لمؤانسة جدتي. كنت أرى أن القلق ينهشها، ولكني لم أعرف ماذا يجري. أين أبي؟ هل هو رهن الاعتقال أم تحت الحماية؟ هل عائلتي في مأزق أم لا؟ لم أعرف ـ ولم يقل أحد شيئاً.

كنت أستطيع البقاء في البيت، لأن الحرس الأحمر لم يمارس قطّ الرقابة المحكمة التي يمارسها الحزب. يضاف إلى ذلك، أنه كان لديَّ «راع» في الحرس الأحمر، هو غينغ، مسؤولي الأخرق ابن الخمسة عشر عاماً، الذي لم يبذل جهداً لاستدعائي إلى المدرسة. ولكنه في نهاية أيلول/سبتمبر، اتّصل بي هاتفياً ليحضّني على العودة قبل ١ تشرين الأول/أكتوبر، يوم العيد الوطني، وإلا فإنني لن أتمكن أبداً من الانضمام إلى الحرس الأحمر.

لم أكن مجبرة على الانضمام إلى الحرس الأحمر. غير أني كنت راغبة فيه. فرغم ما يحدث من حولي، لم يكن لنفوري وخوفي هدف واضح، ولم يخطر ببالي قط، أن أشكّك صراحة في «الثورة الثقافية» أو «الحرس الأحمر». لقد كانا من مخلوقات ماو، وكان ماو فوق أي اعتبار.

مثل كثير من الصينيين، كنتُ عاجزة، في تلك الأيام، عن التفكير العقلاني. كنا مُطَوَّعين ومشوّهين بالخوف والتلقين، بحيث لا يمكن تصوّر الخروج عن الطريق الذي رسمه ماو. يضاف إلى ذلك، أننا كنّا مغمورين بالخطابية الخادعة والتضليل الإعلامي والنفاق، الأمر الذي جعل من المحال، عملياً، أن نرى حقيقة الوضع، وأن نكوّن حكماً ذكياً.

سمعت في المدرسة، أن هناك شكاوى كثيرة من «الحمر»، تطالب بمعرفة سبب عدم قبولهم في الحرس الأحمر. ولذلك، كان الحضور مهمّاً في اليوم الوطني، لأنه ستكون هناك حملة تسجيل واسعة، تضمّ كل المتبقين من «الحمر». وهكذا أصبحتُ من الحرس الأحمر، في الوقت الذي استنزلت الثورة الثقافية كارثة على عائلتي.

كنت مأخوذة بالعصابة الحمراء على ذراعي ورموزها الذهبية. وكان زي الحراس الحمر بزّات عسكرية قديمة، بأحزمة جلدية، كالحزام الذي شوهد ماو به في بداية الثورة الثقافية. وكنت راغبة في ذلك الزي، فما أن تمّ تسجيلي، حتى هرعتُ إلى البيت، ومن قعر صندوق قديم، نبشتُ سترة لينينية رمادية شاحبة، كانت بدلة أمي في أوائل الخمسينات. كانت فضفاضة، فطلبت من جدتي أن تضيّقها. وبحزام جلدي من أحد سراويل أبي، أصبحت في زيّ كامل. ولكنني كنت أشعر، في الشارع، بضيق شديد، إذ وجدتُ صورتي عدوانية للغاية. ومع ذلك، واصلت ارتداء البزّة.

بعد ذلك بقليل، ذهبت جدتي إلى بكين. وكان عليَّ البقاء في المدرسة، بعد انضمامي تواً إلى الحرس الأحمر. وبسبب ما حدث في البيت كانت المدرسة تخيفني وتروعني، طول الوقت. وحين كنت أرى «السود» و «الرماديين» ينظفون المرافق الصحية والأبنية، مطأطئين الرؤوس، كان يستحوذ عليّ رعب زاحف، كأنني واحدة منهم. وحين كان الحرّاس الحمر ينطلقون ليلاً لدهم البيوت، كانت ساقاي تتخاذلان، كأنهما تتّجهان صوب عائلتي. وحين كنت ألاحظ التلاميذ يتهامسون قربي، كان قلبي يزداد خفقانه، في وجيب محموم: هل يقولون إنني أصبحتُ من «السود»، أو إن أبي قد اعتقل؟

ولكني وجدت ملاذاً: مكتب الاستقبال، التابع للحرس الأحمر.

كان هناك زوّار كثيرون لمدرستنا. فمنذ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦، ازداد عدد الشباب الجوّالين بوتيرة أكبر، مسافرين في طول البلاد وعرضها. ولتشجيعهم على التجوال، وتحريك الأوضاع، كان النقل والطعام والسكن يُوفّر لهم مجاناً.

كان مكتب الاستقبال قاعة محاضرات في السابق. وكانت أقداح الشاي تقدم للزوار الجوّالين ـ بلا هدف في أحيان كثيرة ـ وتُفتح معهم أحاديث. وإذا زعموا أن لديهم عملاً جدياً، كان المكتب يحدّد لهم موعداً لمقابلة أحد قادة الحرس الأحمر في المدرسة. وقد وقع اختياري على هذا المكتب، لأن مَنْ فيه لا يتعين عليهم أن يشاركوا في أعمال مثل حراسة «السود» و «الرماديين»، أو دهم البيوت. كما أني أحببته بسبب البنات الخمس، العاملات فيه، حيث ساد فيها جوّ من الدفء وغياب روح التعصّب، ما جعلني أشعر بالارتياح في اللحظة التي التقيتهن. فيها

كان كثيرون يأتون إلى المكتب، وعديدون يبقون لتجاذب أطراف الحديث معنا. وفي أحيان كثيرة، كانوا يصطفون أمام الباب، والبعض منهم يقفل عائداً، المرة تلو الأخرى. وإذ أستعيد ذلك الآن، فإني أتبيّن أن هدف الشبان، كان صحبة البنات. و لم يكونوا منهمكين كل ذلك الانهماك في الثورة. ولكني أتذكّر، كوني جدية إلى أقصى حدود الجد، أني لم أتجنّب نظراتهم قط أو أردّ غمزاتهم، وكنت أسجّل بأمانة ملاحظات بكل هرائهم.

ذات ليلة حارّة، ظهرت في مكتب الاستقبال، الذي كان ضاجّاً كالمعتاد، امرأتان في متوسط العمر، خشنتان بعض الخشونة. قدمتا نفسيهما بوصفهما مديرة ونائبة مديرة لجنة سكانية، قرب المدرسة. كانتا تتحدثان بطريقة غامضة، وجادّة، كأنهما في مهمة ذات خطر. كنتُ دائماً أمقت هذا النوع من التصنّع، فأدرت ظهري. لهما ولكني سرعان ما استطعت أن أستشفّ أن معلومة مهمة قد قُدِّمت. والأشخاص الذين كانوا يتبطلون في المكان، بدأوا يصيحون: «جيئوا بشاحنة! جيئوا بشاحنة! لنذهب كلنا إلى هناك!». وقبل أن أعرف ما يجري، جرفني الحشد خارج الغرفة، وإلى متن شاحنة. وبما أن ماو أمر العمّال بدعم الحرس الأحمر، فقد كان هناك شاحنات وسائقون في خدمتنا، بصورة دائمة. في الشاحنة، حُشرت إلى جانب إحدى المرأتين، التي كانت تعيد سرد حكايتها، وعيناها تنمان بالتزلف. قالت إن امرأة في

حيّها هي زوجة ضابط في الكومنتانغ هرب إلى تايوان، وإنها تخفي صورة لشيان كاي ـ شيك في شقّتها.

لم أحبّ المرأة، خاصّة ابتسامتها المتملّقة. وحقدتُ عليها، لدفعي إلى الذهاب في أول دهم أشارك فيه. ما لبثت الشاحنة أن توقفت أمام زقاق ضيّق. ترجّلنا جميعاً، وتبعنا المرأتين عبر الممرّ الحجري. كان الظلام دامساً، وبقية ضوء تتسرب من الشقوق بين ألواح الخشب، التي تشكّل جدران البيوت. تعثّرتُ وانزلقتُ محاولة التلكؤ. كانت شقّة المرأة المتّهَمة تتكون من غرفتين، بحيث إنها لم تتّسع لعددنا، الذي استوعبته شاحنة. فكان من دواعي سروري البالغ، أن أبقى في الخارج. ولكن قبل أن يمضي وقت طويل، صاح أحدهم أن مجالاً أُفسح لمن هم في الخارج، كي يدخلوا و «يتلقوا درساً في الصراع الطبقي».

ما أن حُشِرت داخل الغرفة، حتى ملأتْ خياشيمي رائحة الغائط والبول والأشياء القذرة. وكانت الغرفة مقلوبة رأساً على عقب. ثم رأيت المرأة المتهمة. ربما كانت في الأربعينات، راكعة في وسط الغرفة، شبه عارية. كانت الغرفة مضاءة بمصباح عارٍ، قوته خمسة عشر واط. وفي ظلاله، بدا الشكل الراكع مخيفاً. كان شعرها منفوشاً، وبدا أن جزءاً منه مضمخاً بالدم. كانت عيناها منتفختين في استغاثة، عندما صرخت: «أيها الأسياد الحراس الحمر! ليس لدي صورة لشيان كاي ـ شيك! أقسم ليس لدي!». كانت تضرب رأسها على الأرض بقوّة، فتتعالى أصوات مدوية، والدم يسيل من جبينها. كان لحم ظهرها مغطّى بالجروح وبقع الدم. وحين رفعت عجيزتها، ساجدة، بانت لطخات دكناء، وملأت الجو رائحة البراز. كنتُ خائفة، حتى إني أشحت بنظري على وجه السرعة. ثم رأيت معذِّبها، وهو صبي في السابعة عشرة، اسمه تشيان، كنت أحبه إلى حد ما، حتى ذلك الوقت. كان يستلقي على كرسي، وبيده حزام جلدي، يداعب إبزيمه النحاسي. قال متكاسلاً: «قولي الحقيقة، وإلا ضربتُك ثانية».

كان أبو تشيان ضابطاً عسكرياً في التبت. وقد ترك معظم الضباط، الذين أُرسلوا إلى التبت، عوائلهم في تشينغدو، أقرب مدينة كبيرة إليه، لأن التبت كان يعدّ مكاناً متخلفاً، لا يصلح للعيش. في السابق، كنتُ معجبة إلى حد ما بسلوك تشيان

الهادئ، الذي يوحي بالدعة. والآن، بادرته، محاولة السيطرة على ارتجاف صوتي، بالقول: «ألم يعلّمنا الرئيس ماو أن نستخدم النضال الشفهي (وين ـ داو)، لا النضال العنيف (وو ـ داو)؟ ربما ينبغي علينا. . .».

رددتُ احتجاجي الواهن عدة أصوات في الغرفة. ولكن تشيان رمقنا بنظرة اشمئزاز، وقال بلهجة قاطعة: «ارسموا خطاً فاصلاً بينكم وبين العدو الطبقي. يقول الرئيس ماو: «الرحمة مع العدو قسوة مع الشعب!» إذا كنتم تخافون الدم، لا تكونوا حراساً حمراً!». كان وجهه مشوّهاً ببشاعة التعصّب. ران الصمت علينا. ورغم أنه كان من المستحيل الشعور بأي شيء سوى التقزز مما يفعله، فإننا لم نستطع مجادلته. تعلّمنا أن نكون قساة مع الأعداء الطبقيين. والتواني في ذلك، يجعلنا نحن أنفسنا أعداء طبقيين. استدرتُ ومشيتُ مسرعة إلى الحديقة، في الخلف. كانت مكتظّة بحراس حمر، يحملون المجارف. ومن داخل البيت، انبعث صوت الجلد ثانية، ترافقه صرخات اقشعرّ لها بدني. لا بدّ أن الصراخ كان لا يطاق بالنسبة إلى الآخرين أيضاً، لأن كثيرين اعتدلوا بسرعة متوقفين عن الحفر: «لا شيء هنا. لنذهب! لنذهب!». وعندما مررنا مخترقين الغرفة، لمحتُ تشيان يقف بلا تكلّف فوق ضحيته. وخارج الباب، رأيتُ المخبرة ذات العينين المتملّقتين. كان هناك، الآن، نظرة تذلّل وخوف. فتحت فمها، كأنها تريد أن تقول شيئاً، ولكن لم تخرج منه كلمات. وإذ نظرتُ إلى وجهها، أدركتُ أنه ليس هناك صورة لشيان كاي ـ شيك. وأنها لفّقت التهمة ضد المرأة المسكينة بدافع الانتقام. لقد كان الحرس الأحمر يُستخدم لتصفية حسابات قديمة. عدت إلى الشاحنة، يملؤني التقزز والغضب.

١٨ ـ «أكثر من أخبار رائعة عملاقة» ـ
الحج إلى بكين
(تشرين الأول/أكتوبر ـ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦)

وجدتُ ذريعة للخروج من المدرسة. وكنتُ في البيت، ثانية، صباح اليوم التالي. كانت الشقة خالية. أبي رهن الاعتقال، وأمي وجدتي وشياو ـ فانغ في بكين. وكان شقيقاي وشقيقتي المراهقون يعيشون وحدهم، حيوات منفصلة في أماكن أخرى.

جن ـ منغ رفض الثورة الثقافية، من البداية. كان في مدرستي نفسها، وكان في سنته الأولى. أراد أن يصبح عالماً، ولكن الثورة الثقافية شجبت ذلك، بوصفه «بورجوازياً»، شكّل وبعض الصبيان في مرحلته عصابة، قبل «الثورة الثقافية». كانوا يحبون المغامرة والألغاز، وسمَّوا أنفسهم «إخوان الحديد المفولَذ». وكان جن ـ منغ الأخ رقم واحد بينهم. كان طويلاً ولامعاً في دراسته. كان يقدم لتلاميذ مرحلته عروضاً سحرية أسبوعية، مستخدماً معارفه في الكيمياء. وكان يهمل على المكشوف الدروس التي لا رغبة له فيها، أو التي تخطاها أصلاً. كما كان منصفاً وكريماً مع الأولاد الآخرين.

حين شُكلت منظمة الحرس الأحمر في المدرسة، في ١٦ آب/أغسطس، اندمج بها «إخوان» جن ـ منغ. وأنيطت به وبعصابته مهمة طبع المنشورات، وتوزيعها في الشوارع. كانت المنشورات يكتبها «حراس حمر» أكبر سناً، في منتصف العقد الثاني من العمر، وكانت عناوينها من النوع المعهود، مثل «البيان التأسيسي للواء الأول، للفرقة العسكرية الأولى، للحرس الأحمر، للمدرسة رقم أربعة» (كل منظمات

الحرس الأحمر، كان لها أسماء عظيمة) و«بيان مهيب» (أعلن أحد التلاميذ عن تغيير اسمه إلى «هوانغ»، حارس الرئيس ماو) ولديها «أكثر من أخبار رائعة عملاقة» (استقبل أحد أعضاء سلطة الثورة الثقافية، لتوه، بعض الحراس الحمر) وقادرة على تسقط «آخر التعليمات الأسمى» (سُرِّبت، للتو، كلمة أو كلمتان من ماو).

سرعان ما سئم جن ـ منغ هذا اللغو، بحيث أمسى لا يطيقه. وبدأ يغيِّب نفسه عن مهماته، وأصبح راغباً في فتاة بعمره، في الثالثة عشرة. بدت له السيدة الكاملة ـ جميلة، رقيقة ومنطوية قليلاً، مع لمسة خجل. لم يفاتحها، وكان قانعاً بالإعجاب بها من بعيد.

ذات يوم، استُدعي تلاميذ صفه لدهم أحد البيوت. قال «الحراس الحمر»، الأكبر سناً، شيئاً عن وجود «مثقفين بورجوازيين». وأُعلِن كل أفراد هذه العائلة سجناء، وصدرت إليهم أوامر بالتجمع في غرفة واحدة، فيما يفتش الحرس الأحمر بقية البيت. كُلف جن ـ منغ بمراقبة العائلة. وكان من دواعي سروره، أن الفتاة كانت «السجان» الآخر.

كان هناك ثلاثة «سجناء»: رجل كهل وابنه وزوجة ابنه. وكان واضحاً أنهم كانوا يتوقعون الغارة، فجلسوا وتعابير الاستسلام على وجوههم، يحدقون إلى عيني جن ـ منغ، كأنهم ينظرون إلى فراغ. شعر جن ـ منغ بضيق شديد تحت نظراتهم، وكان متوتراً، كذلك بسبب وجود الفتاة، التي بدت ضَجِرة، لا تني تنظر نحو الباب. وعندما رأت عدة صبيان يحملون صندوقاً خشبياً ضخماً مليئاً بالخزف، قالت لجن ـ منغ أنها ستذهب لإلقاء نظرة، وغادرت الغرفة.

شعر جن ـ منغ بضيقه يتفاقم، في مواجهة أَسراه وحيداً. ثم نهضت السجينة، وقالت إنها تريد أن تذهب لإرضاع طفلها في الغرفة المجاورة، فوافق جن ـ منغ، بلا تردد.

وما أن غادرت الغرفة، حتى اندفعت إلى الداخل مَنْ هيَّم جن ـ منغ حبها. سأَلَته عابسة، لماذا كان أحد السجناء طليقاً. وعندما قال جن ـ منغ إنه أعطى الإذن بذلك، صرخت به لكونه «متساهلاً مع الأعداء الطبقيين». كانت تضع حزاماً جلدياً على ما كان جن ـ منغ يعتبره «غصن الصفصاف»، خصرها، نزعته وصوَّبته نحو أنفه ـ حركة

مسرحية منمطة، اعتمدها الحرس الأحمر ـ وهي تصرخ به. كان جن ـ منغ مصعوقاً، إذ بدت الفتاة شخصاً آخر تماماً. وفجأةً، بعدت عن كونها رقيقة، أو خجولاً أو رائعة. كانت كلها بشاعة هستيرية. وهكذا انطفأ حب جن ـ منغ الأول.

لكنه رد على صراخها بالمثل. غادرت الفتاة الغرفة، وعادت مع حارس أحمر، أكبر سناً، هو قائد المجموعة. بدأ يصرخ حتى إن رذاذ لعابه كان يصل إلى جن ـ منغ، وصوَّب، هو أيضاً، حزامه الملفوف نحوه. ثم توقف مدركاً أنه ينبغي أن لا ينشر غسيل الشيوعيين القذر أمام الأعداء الطبقيين. وأمر جن ـ منغ بالعودة إلى المدرسة «لانتظار الحكم».

في ذلك المساء، عقد الحراس الحمر في صف جن ـ منغ اجتماعاً بدونه. وحين عاد الشباب إلى القسم الداخلي، كانت عيونهم تتحاشاه. تصرفوا بصدود مدة يومين، ثم قالوا لجن ـ منغ، إنهم كانوا يتجادلون مع الفتاة المناضلة. وهي التي أبلَغت عن «استسلام» جن ـ منغ «للأعداء الطبقيين»، وأصرت على إنزال عقوبة قاسية به. ولكن عصابة «إخوان الحديد المفوْلَذ» دافعوا عنه. وبعضهم استنكر عدوانية الفتاة، التي كانت فظة مع الفتيان والفتيات الآخرين.

مع ذلك، عوقب جن ـ منغ: صدرت إليه أوامر بقلع العشب، مع «السود» و«الرماديين». فقد أدت تعليمات ماو بالقضاء على العشب، إلى حاجة متواصلة إلى الأيدي العاملة، بسبب طبيعة العشب العنيدة. ولحسن الحظ، أن هذا أوجد شكلاً من أشكال العقاب لـ «الأعداء الطبقيين» المخلوقين حديثاً.

قلع جن ـ منغ العشب، لبضعة أيام فقط. فإن عصابته «إخوان الحديد المفوْلذ» لم تتحمل رؤيته وهو يعاني. ولكنه صُنف «متعاطفاً مع الأعداء الطبقيين»، ولم يُرسل قط في عمليات دهم أخرى، الأمر الذي كان يسعى إليه. وما لبث أن انطلق في رحلة مع «إخوانيته» للسياحة في سائر أنحاء البلاد، إلى أنهار الصين وجبالها. ولكن جن ـ منغ، بخلاف معظم الحراس الحمر، لم يؤد قط فريضة الحج إلى بكين، لرؤية ماو. لم يعد إلى البيت حتى نهاية ١٩٦٦.

شقيقتي شياو ـ هونغ كانت، في الخامسة عشرة، عضواً مؤسساً، في منظمة الحرس الأحمر في مدرستها. ولكنها كانت تكره أجواء التطرف والعنف وتخافها، حتى إنها سرعان ما كانت على حافة الانهيار العصبي. جاءت إلى البيت لتطلب

المساعدة من والديَّ، في بداية أيلول/سبتمبر، فاكتشفت أنهما غائبان: أبي معتقل، وأمي غادرت إلى بكين. أخافها قلق جدتي أكثر، فعادت إلى مدرستها. تطوعت للمساعدة على «حراسة» مكتبة المدرسة، التي نُهبت وأقفلت، كما حدث لمكتبة مدرستي. كانت تقضي أيامها ولياليها في القراءة، ملتهمة كل ما تستطيع التهامه من ثمار محرمة. وكان هذا ما حافظ على تماسكها. وفي منتصف أيلول/سبتمبر، انطلقت مع أصدقائها في جولة طويلة داخل البلاد، على غرار جن ـ منغ، ولم تعد إلى البيت حتى نهاية العام.

أخي شياو ـ هي، كان في الثانية عشرة تقريباً، وكان في المدرسة الابتدائية الأساسية نفسها، التي تعلمتُ فيها. وحين شُكِّل الحرس الأحمر في المدارس المتوسطة، كان شياو ـ وأصدقاؤه تواقين إلى الانضمام. فقد عنى الحرس الأحمر بالنسبة إليهم حرية العيش، بعيداً عن البيت، والسهر طول الليل وامتلاك سلطة على الكبار. توجهوا إلى مدرستي، وتوسلوا للسماح لهم بالانضمام إلى الحرس الأحمر. وبغية التخلص منهم، قال حارس أحمر، بارتجال: «تستطيعون أن تشكلوا الفرقة العسكرية الأولى للوحدة ٤٩٦٩». وهكذا أصبح شياو ـ هي كان رئيس قسم الدعاية، لفرقة من عشرين صبياً، فيما كان جميع الآخرين بين «قائد» و«رئيس أركان» وما إلى ذلك. لم يكن هناك جنود أنفار.

شارك شياو ـ هي في ضرب المعلمين مرتين. إحدى الضحيتين، كان معلم رياضة، أدين بوصفه «عنصراً سيئاً». واتهمت بعض الفتيات من عمر شياو ـ هي المعلم بملامسة صدورهن وأفخاذهن، خلال دروس الرياضة. فانقض عليه الفتيان لأسباب ليس أقلها إثارة إعجاب البنات. الضحية الأخرى، كانت المشرفة الأخلاقية. وبما أن العقاب الجسدي كان ممنوعاً في المدارس، فقد كانت تشكو التلاميذ لدى الآباء، وكان هؤلاء يضربون أبناءهم.

ذات يوم خرج الفتيان لدهم أحد البيوت، وقد كُلفوا بالتوجه إلى بيت، أشيع أنه بيت عائلة كومنتانغية سابقة. لم يعرفوا على وجه التحديد ما سيفعلونه هناك. فقد حُشيت رؤوسهم بأفكار مبهمة، عن العثور على شيء من قبيل يوميات تتحدث عن توق العائلة إلى عودة شيان كاي ـ شيك، وكرهها للحزب الشيوعي.

كان لدى العائلة خمسة أبناء، كلهم أقوياء البنية، وقساة الشكل. وقفوا في الباب متَخصِّرين، يرمقون الصبيان بأكثر نظراتهم تخويفاً. ولدٌ واحدٌ فقط، حاول الدخول على أطراف أصابعه. فرفعه أحد الأبناء من قفاه، بيد واحدة، ورماه خارجاً. وضع هذا حداً لأي «أعمال ثورية» أخرى كهذه، من جانب «فرقة» شياو ـ هي.

وهكذا فإنه في الأسبوع الثاني من تشرين الأول/أكتوبر، فيما كان شياو ـ هي يعيش في مدرسته، ويستمتع بحريته، وكان جن ـ منغ وأختي غائبين في السفر، وكانت أمي وجدتي في بكين، كنتُ أنا وحدي في البيت، عندما ظهر أبي على عتبة الدار، ذات يوم، دون سابق إنذار.

كانت عودة هادئة، على نحو غريب. وكان أبي شخصاً آخر. كان شارد الذهن، غارقاً في التفكير، ولم يقل أين كان، أو ماذا كان يحدث له. كنت أسمعه يذرع غرفته في ليالي السهر، وأنا نفسي أشد خوفاً وقلقاً من أن يغمض لي جفن. بعد يومين، عادت أمي من بكين مع جدتي وشياو ـ فانغ، فكان ذلك مبعث ارتياح بالغ لي.

توجهت أمي، على الفور، إلى قسم أبي، وسلمت رسالة تاو جوو إلى أحد نواب المدير. وفي الحال، أُرسل أبي إلى مصح. وسمح لأمي بالذهاب معه.

ذهبت إلى هناك لرؤيتهما. كان المصح مكاناً رائعاً في البلد، يحاذيه، على الجانبين، جدول أخضر جميل. كان لدى أبي جناح ذو غرفة جلوس، فيها صف من رفوف الكتب الفارغة، وغرفة نوم بسرير كبير لاثنين، وحمام ببلاط أبيض لماع. وخارج شرفته، كانت عدة أشجار من الأوسمنثُوس، تنشر عبيراً آسراً. وحين يهب النسيم، تتساقط أزهار ذهبية صغيرة على الأرض العارية من العشب.

بدا والداي هانئين. قالت لي أمي إنهما يذهبان لصيد الأسماك في الجدول، كل يوم. شعرتُ أنهما في أمان، فقلت لهما إنني أخطط للرحيل إلى بكين، لرؤية الرئيس ماو. كنت في شوق إلى هذه الرحلة، مثل كل الآخرين تقريباً. ولكني لم أذهب، لأني شعرت أن عليَّ أن أكون موجودة لمؤازرة والديَّ.

كان الحج إلى بكين يحظى بتشجيع كبير ـ وكان المأكل والمسكن والنقل، كلها مجاناً. ولكنه لم يكن منظماً. غادرتُ تشينغدو، بعد يومين، مع خمس فتيات أخريات من مكتب الاستقبال. وعندما انطلقت صفارة القطار في رحلته إلى الشمال،

كانت مشاعري خليطاً من الإثارة والقلق الملحاح على أبي. خارج النافذة، في «سهل تشينغدو»، كانت بعض حقول الرز محصودة، ومربعات من التربة السوداء تلتمع بين الحقول الذهبية، مشكلة سجادة غنية. لم يتأثر الريف، إلا هامشياً، بالغليان، رغم التحريضات المتكررة من «سلطة الثورة الثقافية»، بقيادة زوجة ماو. كان ماو يريد إطعام السكان، ليتمكنوا من «الثورة»، فلم يمحض زوجته دعمه الكامل. وكان الفلاحون يعرفون أنهم إذا توقفوا عن إنتاج الغذاء، فسيكونون أول من يجوع، كما تعلموا من المجاعة، قبل سنوات قليلة فقط. بدت الأكواخ، بين بساتين الخيزران الخضراء، آمنة ورعوية، أكثر من أي وقت مضى. وكانت الريح تهز برقة الدخان العالق، متوِّجاً أطراف الخيزران الرشيقة والمداخن المخفيِّة. مر أقل من خمسة أشهر على بداية «الثورة الثقافية»، ولكن عالمي تغيَّر برمته. تطلعتُ إلى جمال السهل الهادىء، واستسلمت لمزاج حزين. لحسن الحظ، لم أقلق من تعرضي لـ «النقد» على «الحنين» الذي يعد بورجوازياً، إذ لم يكن لدى أي من الفتيات الأخريات نزعة اتهام. كنت أشعر معهن أن في إمكاني الاسترخاء.

ما لبث سهل تشينغدو المزدهر أن أخلى المكان لرواب منخفضة. وكانت جبال غرب سيشوان، المكسوة بالثلج، تتلألأ من بعيد. وقبل أن يمضي وقت طويل، كنا نسافر داخل الأنفاق وخارجها، عبر جبال تشين الشمَّاء، تلك الهضبة البرية، التي تعزل سيشوان عن شمال الصين. وبوجود التبت إلى الغرب، ومداخل نهر يانغ تزي ذات الخطر إلى الشرق، والنظر إلى الجيران الجنوبيين على أنهم برابرة، كانت سيشوان دائماً قائمة بذاتها، وأهلها معروفون بروحهم المستقلة. وقد شعر ماو بالقلق، إزاء ميلهم الأسطوري إلى نيل قدر من الاستقلال، وحرص دائماً على أن يكون الإقليم في قبضة بكين بثبات.

بعد جبال تشين، أصبح المنظر مختلفاً بصورة دراماتيكية. فالخضرة الغضة، انحسرت أمام أرض صفراء قاسية، وأكواخ سهل تشينغدو، المسقوفة بالسعف، حلت محلها صفوف من الأكواخ الكهفية، الطينية الجافة. وفي كهوف كهذه، أمضى أبي خمس سنوات من شبابه. كنا نبعد مئة ميل فقط عن ينان، حيث أقام ماو مقره، بعد المسيرة الكبرى. وهناك، حلم أبي أحلام الشباب، وأصبح شيوعياً متفانياً. وإذ فكّرتُ فيه، طفرت الدموع من عيني.

استغرقت الرحلة يومين وليلة. وكان الخدم يأتون إلينا للحديث معنا، في أحيان كثيرة، ويقولون لنا إنهم يحسدوننا، لأننا سنرى قريباً الرئيس ماو.

في محطة بكين، استقبلتنا شعارات ضخمة بوصفنا «ضيوف الرئيس ماو». كان الوقت بعد منتصف الليل، ولكن الميدان، الكائن أمام المحطة، كان مضاء كالنهار، وكانت الأنوار الكشافة تمر على آلاف مؤلفة من الشباب، كلهم يرتدون عصائب حمراء على أذرعهم، ويتكلمون، في أحيان كثيرة، لغات محلية، غير مفهومة. كانوا يتكلمون ويهتفون ويقهقهون ويتشاجرون، على خلفية كتلة عملاقة من العمارة الصلدة على الطراز السوفياتي ـ المحطة نفسها. وكانت السمات الصينية الوحيدة، هي السطوح المختلطة، الأشبه بالسرادق على برجي الساعة في كل طرف.

وإذ دخلتُ ناعسة في ضوء الأنوار الكشافة، تأثرت كثيراً بالمبنى، بعظمته الظاهرة، وحداثته المرمرية المتألقة. كنت معتادة الأعمدة الخشبية الدكناء التقليدية، وجدران الآجر الخشنة. نظرت إلى الوراء، وبفيض من الانفعال، رأيتُ صورة ضخمة لماو، معلقة في المركز تحت ثلاثة رموز ذهبية، «محطة بكين»، بخطه.

كانت مكبرات الصوت توجِّهنا إلى غرف الاستقبال، في ركن من أركان المحطة. في بكين، كما في كل مدينة أخرى في الصين، كان هناك إداريون معيّنون لترتيب المأكل والمسكن للشباب المسافرين. أقسام داخلية في الجامعات، ومدارس وفنادق، وحتى مكاتب، دُفعت دفعاً إلى الخدمة. وبعد الانتظار ساعات في الصف، كنا من نصيب جامعة تشينغهوا، وهي من أرقى الجامعات سمعة في البلاد. نُقلنا إلى هناك في حافلة، وقيل لنا إن الطعام سيكون متوافراً في المطعم. وكان تشغيل المكنة العملاقة للملايين من الشباب المسافرين، يجري تحت إشراف شو إن لاي، الذي يضطلع بتصريف الأعمال اليومية، التي لا يمكن إزعاج ماو بها. ولولا شو، أو أمثاله، لانهارت البلاد، ومعها «الثورة الثقافية». وقد حرص ماو على أن يكون معروفاً أن شو لن يُهاجم.

كنا مجموعة جادة جداً، كل ما نريده هو رؤية الرئيس ماو. لسوء الحظ، فاتنا، للتو، ظهوره الخامس لتحية الحراس الحمر، الذين استعرضوا أمامه في ميدان تيانانمين. ماذا نعمل؟ كانت الأنشطة الترفيهية، والجولات السياحية، غير واردة ـ لا علاقة لها بالثورة. فأمضينا كل وقتنا في الحرم الجامعي، ننسخ الملصقات. قال ماو

إن أحد أغراض السفر، هو «تبادل المعلومات عن الثورة الثقافية». وهذا ما سنفعله: أن نعود بشعارات الحرس الأحمر من بكين إلى تشينغدو.

في الواقع، كان هناك سبب آخر لعدم الخروج: كانت وسائل النقل مزدحمة بشكل لا يصدق، وكانت الجامعة في الأطراف، على بعد حوالي عشرة أميال من مركز المدينة. مع ذلك، كان علينا أن نقول لأنفسنا إن عزوفنا عن الحركة، مشفوع بدوافع صحيحة.

كان البقاء في الحرم الجامعي غير مريح على الإطلاق. وما زلتُ حتى اليوم أشم رائحة المرافق الصحية في نهاية الممر، من غرفتنا، كانت المجاري مسدودة. وكان الماء، المتدفق من المغاسل، والبول والغائط، المتسربان من المراحيض، تغمر الأرض المرصوفة بالبلاط. ولحسن الحظ، أن مدخل المرافق الصحية، كان له عتبة، تمنع الفيضان النتن من غزو الممر. كانت إدارة الجامعة مشلولة، وليس هناك من يتدبر أمر التصليحات، ولكن الأطفال القادمين من الريف، كانوا، مع ذلك، يستخدمون المراحيض: كان الفلاحون لا يعتبرون البراز شيئاً مقززاً، وحين يخرجون تترك أحذيتهم بقعاً ذات رائحة كريهة على طول الممر، وفي الغرف.

مرَّ أسبوع دون ورود أنباء بعد عن عقد اجتماع حاشد آخر، نستطيع أن نرى ماو فيه. وإذ كنا تواقات إلى الخروج من ورطتنا، فقد،قررنا الذهاب إلى شنغهاي، لزيارة المكان الذي تأسس فيه الحزب الشيوعي في عام ١٩٢١، ثم نواصل رحلتنا إلى مسقط رأس ماو، في هونان، في جنوب وسط الصين.

اتضح أن هذه الزيارات كانت جحيماً: القطارات مزدحمة بشكل لا يصدق. كانت هيمنة أطفال المسؤولين الكبار على الحرس الأحمر، تقترب من نهايتها، لأن آباءهم بدأوا يتعرضون للهجوم بوصفهم من أنصار السير في الطريق الرأسمالي. وشرع «السود» و«الرماديون» المضطهَدون، ينظمون مجموعاتهم الخاصة من الحرس الأحمر، ويسافرون. وبدأت الرموز اللونية تفقد معناها. أذكر لقاء في أحد القطارات، مع فتاة رشيقة، جميلة جداً، في حوالي الثامنة عشرة، لها عينان سوداوان مخمليتان، كبيرتان بصورة غير عادية، ورموش كثيفة طويلة. وكما هي العادة، بدأنا بسؤال إحدانا الأخرى عن «الأصل العائلي» الذي تنتمي إليه. وقد ذهلتُ للطريقة التي

أجابت بها هذه الفتاة الرائعة، إذ قالت إنها «سوداء» دون أي حرج. وبدا أنها تنتظر منا، واثقة، أن نكون نحن الفتيات «الحمراوات» ودودات معها.

كنا، نحن البنات الست جميعاً، بعيدات جداً عن النضالية في سلوكنا، ومجالسنا دائماً مركز أحاديث صاخبة. كانت أكبرنا سناً في المجموعة، تبلغ الثامنة عشرة من العمر، وذات شعبية. الجميع كانوا يسمونها «دبدوبة»، لأنها مكتنزة الجسم. كانت تضحك كثيراً بصوت أوبرالي. وكانت تغني كثيراً كذلك، ولكن أقوال ماو المغناة فقط، فقط بطبيعة الحال. كل الأغاني، باستثناء هذه وقلة في مديح ماو، كانت ممنوعة، شأنها شأن كل أشكال التسلية الأخرى، وظلت ممنوعة طول سنوات «الثورة الثقافية» العشر.

تلك كانت أسعد أيامي، منذ بداية الثورة الثقافية، رغم القلق المستمر على أبي وعذاب السفر. فكل شبر في القطارات كان مشغولاً، حتى رفوف الأمتعة. وكان المرحاض علبة سردين: لا يتمكن أحد من دخوله. تصميمنا على رؤية الأماكن المقدسة في الصين، وحده، الذي كان يحفزنا.

ذات مرة، كنت في حاجة ملحة إلى استخدام المرافق الصحية. كنت جالسة قرب الشباك، مع خمسة أشخاص كانوا محشورين على مقعد ضيق، مخصص لثلاثة أشخاص. وبعد صراع لا يصدق، وصلتُ إلى المرحاض ـ ولكن عندما دخلته وجدتُ أن من المستحيل استخدامه. فحتى إذا كان الولد، الجالس على غطاء خزان الماء وقدماه على غطاء مقعد المرحاض، قادراً على رفع ساقيه للحظة، وحتى إذا كانت الفتاة، الجالسة بين قدميه، قادرة بطريقة ما، على النهوض لفترة وجيزة بمساعدة الآخرين، الذين يملأون كل حيز يمكن استخدامه حولها، ما كان في وسعي أن أفعلها أمام كل هؤلاء الفتيان والفتيات. عدتُ إلى مقعدي، وأنا على حافة البكاء. وزاد الذعر إحساسي بالانفجار، وكانت ساقاي ترتجفان. قررتُ استخدام المرحاض في المحطة القادمة. وبعد وقت بدا دهراً، توقف القطار في محطة صغيرة، يلفها الغسق. فتحتُ النافذة، وهبطت منها إلى الخارج، ولكن حين عدت، اكتشفت أني لا أستطيع الصعود.

ربما كنت الأقل رياضية، بيننا نحن البنات الست. في السابق، كلما تعين عليّ

ركوب القطار من النافذة، كان أحد الأصدقاء يرفعني من على الرصيف، فيما يسحبني الآخرون من الداخل. هذه المرة، رغم أن حوالي أربعة أشخاص كانوا يساعدونني من الداخل، فإني لم أتمكن من رفع جسمي عالياً بما فيه الكفاية لإدخال رأسي ومرفقيّ. كنت أتعرق كالمجنونة، رغم أن الجو كان بارداً إلى حد التجمّد. وعند ذاك، بدأ القطار يتحرك مغادراً. وإذ شعرتُ بالهلع، تطلعتُ حولي ـ باحثة إن كان هناك أحد يستطيع أن يساعدني. وقعت عيناي على الوجه النحيف، الأدكن، لفتى يقف إلى جانبي. ولكن نيته لم تكن مساعدتي.

كانت محفظتي في جيب من جيوب سترتي، وبسبب وضعي المتسلق كانت محفظتي ظاهرة تماماً. وبإصبعين نشلها الفتى. اختار، على ما أعتقد، لحظة المغادرة لنشلها. انفجرتُ باكية. توقف الفتى. نظر إليَّ، وبعد تردد، أعاد المحفظة. ثم أمسك بساقي اليمنى، ورفعني إلى أعلى. هبطتُ على المائدة، عندما بدأ القطار يزداد سرعة.

بسبب هذا الحادث، صارت عندي نقطة ضعف إزاء النشالين اليافعين. في السنوات التالية من الثورة الثقافية، حين كان الاقتصاد في حالة يرثى لها، كانت السرقات متفشية. وذات مرة، فقدتُ قسائم الغذاء لعام كامل. ولكن كلما سمعت أن الشرطة أو غيرها من حراس «القانون والنظام»، ضربوا نشالاً، كنت دائماً أشعر بتبكيت، إذ إن الفتى على ذلك الرصيف الشتائي، أبدى إنسانية أكثر من أعمدة المجتمع المرائية.

سافرنا إجمالاً حوالي ٢٠٠٠ ميل، خلال هذه الرحلة، في حالة من الإعياء، لم أعرفها قط في حياتي. زرنا بيت ماو القديم، الذي تم تحويله إلى متحف، ثم أصبح من العتبات المقدسة. كان منيفاً بعض الشيء ـ يختلف تماماً عن مسكن فلاحين مستَغَلين، كما كنت أتوقع. وكان يوجد عبارة، تحت صورة ضخمة لأم ماو، تقول إنها كانت شخصاً طيباً جداً، ولأن عائلتها كانت موسرة نسبياً، فقد كانت، في أحيان كثيرة، تُطعم الفقراء. إذاً، كان والدا قائدنا العظيم من الفلاحين الأغنياء! ولكن الفلاحين الأغنياء أعداء طبقيون! فلماذا كان والدا الرئيس ماو من الأبطال، في حين أن الأعداء الطبقيين الآخرين كانوا هدفاً للكره؟ أخافني السؤال كثيراً، حتى إني قمعته على الفور.

حين عدنا إلى بكين في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر، كانت العاصمة متجمّدة. مكاتب الاستقبال أمست خارج المحطة، لأن المنطقة صغيرة جداً إزاء الأعداد الهائلة من الشباب المتوافدين إلى العاصمة. نقلتنا شاحنة إلى متنزه، أمضينا فيه الليل كله، بانتظار توزيع أماكن السكن. لم نتمكن من الجلوس، لأن الأرض مغطاة بالجليد، وباردة إلى حد لا يطاق. غفوت ثانية أو ثانيتين، وأنا واقفة. لم أكن معتادة شتاء بكين القاسي، وإذ غادرتُ البيت في الخريف، فلم أحمل معي ملابس شتويّة. كانت الريح تخترق عظامي، وبدا الليل بلا نهاية، وكذلك صف الوافدين، كان يلتف ويلتف حول البحيرة المغطاة بالجليد في وسط المتنزه.

بزغ الفجر ونحن ما زلنا في الصف متعبين تماماً. لم نصل أماكن سكنانا، إلا مع مغيب الشمس: مدرسة المسرح المركزية. كانت غرفتنا تُستخدم لدروس الغناء. والآن، فيها صفان من أفرشة القش على الأرض، بلا ملاءات، ولا وسادات. استقبلنا ضباط في القوة الجوية، قالوا إن الرئيس ماو أرسلهم للعناية بنا وتدريبنا عسكرياً. تأثرنا كلنا تأثراً بالغاً بالاهتمام الذي يبديه ماو نحونا.

كان التدريب العسكري للحرس الأحمر تطوراً جديداً. فقد قرر ماو أن يكبح التدمير العشوائي الذي أطلقه. نُظم المئات من الحراس الحمر، الذين كانوا يسكنون في مدرسة المسرح، على شكل «كتيبة»، أوجدها ضباط القوة الجوية. أقمنا علاقة طيبة بهم، وكنا نحب ضابطين بصفة خاصة، عرفنا أصولهما العائلية على الفور، كما هي العادة. كان قائد الكتيبة فلاحاً من الشمال، في حين أن المفوض السياسي من عائلة مثقف، من مدينة سوجو المشهورة بجنائنها. ذات يوم اقترحا أن يأخذانا إلى حديقة الحيوانات، ولكنهما طلبا منا أن لا نخبر الآخرين، لأن سيارتهما الجيب، لا تتسع للمزيد. وأوحيا بأنه إلى جانب ذلك، ينبغي عليهما أن لا يلهيانا بأنشطة لا صلة لها بالثورة الثقافية. وإذ كنا لا نريد أن نسبب لهما متاعب، فقد رفضنا قائلات إننا نريد «الالتزام بصنع الثورة». حمل الضابطان إلينا أكياساً من التفاح الناضج الكبير، الذي نادراً ما كان يُرى في تشينغدو، وحفنات من كستناء الماء المغطاة بالطوفي، الذي كنا نعرف جميعاً أن بكين تنفرد به. ورداً على كرمهما، كنا نتسلل إلى غرفة نومهما، ونجمع ملابسهما القذرة، ثم نغسلها بحماسة عظيمة. أذكر صراعي مع بدلات الكاكي الكبيرة، التي كانت ثقيلة جداً وصلدة في الماء المثلَّج. قال ماو للشعب أن يتعلم من

القوات المسلحة، لأنه أراد تجييش الجميع، وتلقينهم الولاء له وحده، كما الجيش. وكان التعلم من العسكريين، يجري متساوقاً مع الترويج لحبهم، وكانت كتب ومقالات وأغانٍ ورقصات، لا حصر لها، تصور فتيات يساعدن الجنود على غسل ملابسهم.

غسلتُ حتى ملابسهم الداخلية، ولكن بدون أي خلفيات جنسية في ذهني. إذ إن الكثير من الصينيات، في تلكم الأيام، كنَّ أكثر انغماراً في الغليان السياسي الساحق، من أن تظهر عندهن مشاعر المراهقة الجنسية. ولكن ليس الجميع. فغياب رقابة الأبوين، كان يعني للبعض الإباحية. وحين عدتُ إلى البيت، سمعت عن زميلة سابقة من زملاء صفي، وهي فتاة حلوة، في الخامسة عشرة، غادرت المدينة مسافرة مع بعض الحراس الحمر من بكين. وفي الطريق، أقامت علاقة جنسية، وعادت حاملاً. تعرضت للضرب من أبيها، ولاحقتها أنظار الجيران بالاتهام، والأقاويل التي راحت رفيقاتها يرددنها بكل حماسة. شنقت الفتاة نفسها، تاركة رسالة تقول فيها إنها لا تستطيع الحياة مع «هذا الشعور بالعار». لم يطعن أحد في هذا المفهوم القروسطي للعار، الذي كان من الممكن أن يشكل هدفاً لثورة ثقافية حقيقية. ولكنه لم يكن أبداً من اهتمامات ماو، ولم يكن بين «القديمات»، التي كان يجري تشجيع الحرس الأحمر على تدميرها.

أنجبت «الثورة الثقافية» أيضاً عدداً كبيراً من التطهريين المتزمتين، بين الشابات في الغالب. فقد تلقت فتاة أخرى في صفي رسالة غرامية من صبي في السادسة عشرة. فكتبت له جواباً تسميه فيه «خائناً للثورة»: «كيف تجرؤ على التفكير في هذه الأشياء المخزية، والأعداء الطبقيون ما زالوا يعربدون، والشعوب في العالم الرأسمالي، ما زالت تعيش في وهدة البؤس!». كثير من الفتيات اللواتي عرفتهن، اتبعن مثل هذا النمط من السلوك. لقد دعا ماو إلى أن تكون الفتيات مناضلات، ولذلك كانت الأنوثة مدانة. وحاولت فتيات كثيرات أن يمشين ويتكلمن ويتصرّفن كأنهن رجال أجلاف، عداونيون، ويَسْخرون من اللواتي لا يفعلن ذلك. لم يكن هناك إمكان للتعبير عن الأنوثة. فبادىء ذي بدء، لم يكن مسموحاً لنا أن نرتدي أي شيء سوى السراويل والسترات الزرقاء أو الرمادية أو الخضراء، التي لا شكل لها.

كان ضباطنا الجويون يُدربوننا في ملاعب كرة السلة في مدرسة المسرح، كل يوم. وبجوار الملاعب، يوجد المطعم. كانت عيناي ترنوان إليه خلسة، حالما

نصطف في تشكيلنا، حتى لو كنت فرغت، لتوي، من الإفطار. كنت مهووسة بالأكل، رغم أنني لم أكن متأكدة إن كان ذلك بسبب شح اللحوم أو بسبب البرد أو الضجر من التدريب. كنت أحلم بتنوّع المطبخ السيشواني، بالبط المحمَّر والسمك الحامض والحلو و«الفرخة الثملة»، ودزينات من الأكلات اللذيذة الدسمة.

لم تكن أي منا نحن الفتيات الست معتادة حمل النقود. كنا أيضاً نعتقد أن الشراء «رأسمالي» بعض الشيء. لذا، رغم هوسي بالأكل، لم أشتر إلا حفنة من كستناء الماء المكسوة بالطوفي، بعد أن أثار شهوتها في نفسي حبات الكستناء، التي أعطانا إياها الضابطان. قررت أن أدلل نفسي هذا الدلال، بعد الكثير من العذاب والمشاورات مع البنات الأخريات. حين عدتُ إلى البيت، بعد الرحلة، التهمتُ، في الحال، بعض البسكويت العتيق، وأنا أعيد لجدتي ما أعطتني من نقود، لم ألمسها تقريباً. احتضنتني وهي تردد: «يا لكِ من فتاة سخيفة!».

عدتُ إلى البيت مصابة بالروماتزم. كانت بكين باردة الى درجة أن الماء يتجمد في الحنفيات. مع ذلك، كنت أتدرب في العراء، بلا معطف. لم يكن هناك ماء ساخن لتدفئة أقدامنا المتجمدة. حين وصلنا أعطيت كل واحدة منا بطانية. وبعد أيام، وصلت فتيات أخريات، ولكن لم تكن هناك بطانيات أخرى. قررنا إعطاءهن ثلاثاً، واكتفينا نحن الست بالثلاث الأخرى. علَّمتنا تربيتنا أن نساعد الرفاق وقت الضيق. أُبلغنا أن بطانياتنا جاءت من مخازن محفوظة لزمن الحرب. وأمر الرئيس ماو بإخراجها لراحة حراسه الحمر. عبَّرنا عن امتناننا لماو. والآن، بعدما انتهى بنا المطاف إلى الاقتصار على ثلاث بطانيات، طلب منا أن نكون أكثر امتناناً لماو، لأنه أعطانا كل ما تملكه الصين.

كانت البطانيات صغيرة، ولا يمكن أيّاً منها أن تغطي شخصين، إلاَّ إذا ناما متلاصقين. وكانت الكوابيس الغامضة، التي اعترتني بعد أن رأيت محاولة الانتحار، قد ازدادت سوءاً، إثر اعتقال أبي ومغادرة أمي إلى بكين. ولأن نومي كان مضطرباً، فقد كنت، في أحيان كثيرة، أتقلب خارجة من تحت البطانية. كانت الغرفة رديئة التدفئة، وحالما أخلد إلى النوم، كان يغزوني برد زمهرير. وعندما غادرنا بكين، كان مفصلا ركبتيَّ ملتهبين، وبالكاد أستطيع أن أحنيهما.

لم تتوقف منغصاتي عند هذا الحد. إذ كان بعض الأطفال من الريف موبوئين بالبراغيث والقمل. وذات يوم، دخلتُ غرفتنا فرأيتُ إحدى صديقاتي تبكي. كانت قد اكتشفت، لتوها، بقعة من البيوض الصغيرة البيضاء، في حاشية إبط لباسها التحتي ـ كانت بيوض قمل. أثار هذا هلعي، لأن القمل يسبب حكَّة لا تطاق، ويرتبط بالقذارة. ومنذئذٍ، كنت أشعر بحكة طول الوقت، فأفحص ملابسي الداخلية عدة مرات في اليوم. كم كنتُ أصبو إلى أن يرانا الرئيس ماو قريباً، حتى أستطيع الذهاب إلى البيت!

في عصر يوم ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر، كنت في واحدة من جلساتنا العادية، لدراسة أقوال ماو، في إحدى غرف الأولاد (كان الضباط والفتيان لا يدخلون غرف البنات، تواضعاً). دخل قائد كتيبتنا اللطيف بمشية خفيفة، على غير العادة، واقترح أن يقودنا، موسيقياً، في أشهر أغاني الثورة الثقافية: «حين نرتاد البحار، نحتاج إلى ربان». لم يفعل ذلك قط من قبل، لذا فوجئنا جميعاً بمبادرته. هز ذراعيه حاسباً الوقت، بعينين متألقتين ووجنتين متوردتين. عندما انتهى، أعلن بفرحة مكبوتة أن لديه بعض الأخبار الطيبة، عرفنا في الحال ما هي.

صاح قائلاً: «سنرى الرئيس ماو غداً». وغرقت بقية كلماته في هتافاتنا. وبعد الزعيق الأول بدون كلمات، ارتدى هياجنا شكل هتافات صاخبة: «عاش الرئيس ماو!»، «سنتبع الرئيس ماو إلى الأبد!».

أبلغنا قائد الكتيبة أنه لا يستطيع أحد أن يغادر الحرم الجامعي، وينبغي أن يراقب بعضنا بعضاً للتوثق من ذلك. أن يُطلَب منا مراقبة بعضنا بعضاً، كان أمراً طبيعياً تماماً. يضاف إلى ذلك، أن هذه إجراءات احترازية للرئيس ماو، كنا مسرورين بتطبيقها. بعد العشاء، اقترب الضابط منا، نحن البنات الست، وقال بصوت مكتوم ومهيب: «هل تودُنَّ أن تفعلن شيئاً لضمان سلامة ماو؟». «طبعاً!». أشار بأن نلتزم جانب الهدوء، واستمر بهمس: «هلا اقترحتن، قبل أن نغادر صباح غد، أن يفتش أحدنا الآخر، للتأكد من أن أحداً لا يحمل ما ينبغي أن لا يحمله! تعرفن، إن الشباب يمكن أن ينسوا القواعد. . .». وهو كان قد أعلن تلك القواعد في وقت سابق ـ أن لا نحمل أي شيء معدني، ولا حتى مفاتيح، معنا إلى الاجتماع الحاشد.

لم يتمكن معظمنا من النوم، وأمضينا الليل في الكلام على لقاء الرئيس. في

الرابعة صباحاً، نهضنا وتجمعنا في صفوف منضبطة، لمسيرة الساعة ونصف الساعة إلى ميدان تيانانمين. وقبل أن تنطلق «كتيبتنا»، وبغمزة عين من الضابط، وقفتْ «دبدوبة» واقترحتْ أن نقوم بعملية تفتيش. حسب البعض أنها تضيِّع وقتنا، ولكن قائد كتيبتنا، أثنى على الاقتراح بحبور. واقترح أن نفتشه أولاً. ودُعي صبي لتفتيشه، فوجد لديه حفنة مفاتيح كبيرة. تظاهر قائدنا بأنه كان غافلاً عنها بحق، وأطلق في اتجاه «دبدوبة» ابتسامة ظافرة. ثم انبرينا يفتّش بعضنا بعضاً. كانت هذه الطريقة في العمل ممارسة ماوية: يتعين أن تبدو الأمور كما لو أنها رغبة الشعب، وليست أوامر من فوق. لقد كان النفاق والتمثيل من المسلَّمات.

كانت الشوارع، في الصباح الباكر، تضج بالنشاط. كان الحراس الحمر يسيرون نحو ميدان تيانانمين من سائر أنحاء العاصمة. وتتصاعد شعارات، تصم الآذان، كالموجات الهادرة. ومع الهتاف، كنا نرفع أيادينا، وكانت «كتبنا الحمراء الصغيرة»، تشكل خطاً أحمر دراماتيكياً على خلفية الظلام. وصلنا الميدان في الفجر. حُدِّد مكاني في الصف السابع من المقدمة، على الرصيف الشمالي العريض لجادة «السلام الأبدي»، في الناحية الشرقية من ميدان تيانانمين. كان ورائي الكثير من الصفوف الأخرى. وبعد اصطفافنا بانتظام، أمَرَنا ضباطنا بالجلوس متربعين على الأرض الصلبة. كان ذلك عذاباً، نظراً إلى التهاب مفاصلي، وسرعان ما أخذتُ أشعر بدبابيس وإبر، تخز مؤخرتي. كنتُ أشعر بالبرد والنعاس على نحو قاتل ـ وبالإعياء، لأني لم أتمكن من النوم. كان الضباط يقودون الغناء بلا توقف، حاضِّين مجموعات مختلفة على تحدي بعضها بعضاً، لإبقاء معنوياتنا عالية.

قبيل الظهيرة، دوَّت من الشرق موجات هستيرية من «عاش الرئيس ماو!». كنت أذوي من الوهن، وسهوت عن أن ماو يوشك أن يمر في سيارة مكشوفة. وفجأة، انفجر هتاف هادر من حولي: «عاش الرئيس ماو! عاش الرئيس ماو!». نهض الجالسون أمامي بحركة سريعة، وأخذوا يتقافزون في هياج هذياني، أياديهم المرفوعة تلوح بكتبهم الحمراء الصغيرة بشكل محموم. «اجلسوا! اجلسوا»، صحتُ، بلا جدوى. فقد قال قائد كتيبتنا إن علينا جميعاً أن نبقى قعوداً طول الوقت. ولكن بدا أن قلة يلتزمون بالقواعد، حيث استحوذت عليهم الرغبة في إلقاء نظرة على ماو.

بعد الجلوس ساعات طويلة، كانت ساقاي خدرتين. ولثوانٍ، كان كل ما أراه

بحراً يغلي من مؤخرات الرؤوس. وحين تمكنتُ أخيراً من الوقوف مترنحة على قدمي، لم أحظ إلا برؤية نهاية الموكب. وكان وجه ليو شاوتشي، الرئيس، ملتفتاً في اتجاهي.

كانت الملصقات الجدارية، قد بدأت تهاجم ليو، بوصفه «خروشوف الصين»، وخصم ماو الأول. ورغم أنه لم يُشجَب رسمياً، الا أنه كان واضحاً أن سقوطه وشيك. ففي التقارير الصحفية عن الاجتماعات الحاشدة للحرس الأحمر، كان دائماً يُعطى مكاناً ثانوياً. وفي هذا الموكب، بدلاً من الوقوف إلى جانب ماو، كما ينبغي أن يفعل الرجل الثاني، فإنه كان في المؤخرة، على نحو قاطع، في واحدة من آخر السيارات.

بدا ليو خامداً ومُتعَباً. ولكن لم تكن لدي أية مشاعر نحوه. ورغم أنه كان الرئيس، فهو لم يكن يعني أي شيء لجيلي. لقد نشأنا مشبعين بعبادة ماو وحده، وإذ كان ليو ضد ماو، فقد كان يبدو لنا طبيعياً أن يرحل.

في تلك اللحظة، فيما كان بحر الشباب يزعق بولائه لماو، لا بد أن ليو قد شعر بأن موقفه ميؤوس منه بشكل مطلق. والمفارقة أنه هو نفسه، كان عاملاً بالغ الأهمية في تسويق تأليه ماو، الذي أدى إلى هذا الانفجار من التعصب لدى شباب أمة غير متدينة من حيث الأساس. لعل ليو وزملاءه ساعدوا على تأليه ماو لإرضائه، معتقدين أنه سيكون قانعاً بالمجد المجرد، ويتركهم يؤدون العمل الدنيوي. ولكن ماو كان يريد السلطة المطلقة، على الأرض وفي السماء معاً. وربما لم يكن هناك شيء يستطيعونه: لعل عبادة ماو كانت محتومة، لا يحول دونها شيء.

هذه الأفكار، لم تخطر ببالي في صبيحة ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦. كل ما كان يهمني، حينذاك، هو أن ألقي نظرة على الرئيس ماو. حوَّلتُ أنظاري بسرعة، بعيداً عن ليو، إلى مقدمة الموكب. لمحتُ قفا ماو القوي البنيان، وساعده الأيمن يلوح بثبات.

وبعد برهة، اختفى. ذاب قلبي. هل كان هذا كل ما سأراه من الرئيس ماو؟ لمحة عابرة فقط إلى ظهره؟ بدا أن الشمس تحولت فجأة إلى رمادية. ومن حولي، كان الحراس الحمر يثيرون ضجيجاً هائلاً. كانت الفتاة الواقفة إلى جانبي، قد وخزت، لتوها، سبابة يدها اليمنى، وأخذت تعصر الدم، لتكتب شيئاً على منديل

مطوي بأناقة. كنتُ أعرف، على وجه الدقة، الكلمات التي ستستخدمها. إذ طالما فعل ذلك الحراس الحمر، وجرى التزمير به إلى حد الغثيان: «إني أسعد إنسان في العالم اليوم. لقد رأيت قائدنا العظيم الرئيس ماو!». تعاظم يأسي وأنا أُراقبها. بدت الحياة بلا معنى. وخطرت بذهني فكرة: ربما عليّ أن أنتحر!

تبددت هذه الفكرة لحظة خطورها. وإذ أنظر إلى الوراء، أحسبُ أنها كانت محاولة لا شعورية، لقياس مقدار تحطّمي، إزاء انسحاق حلمي، وخاصة بعد كل المشاق التي عانيتها في رحلتي. القطارات الهادرة، الركبتان الملتهبتان، الجوع والبرد، الحكة، والمراحيض المسدودة والإرهاق ـ كلها، في النهاية، بلا مقابل.

انتهى حجنا، وبعد أيام قليلة، قفلنا عائدين. ذقتُ من الرحلة ما يكفي، وكنت في شوق إلى الدفء والراحة، وإلى حمام ساخن. ولكن فكرة البيت، كان يشوبها بعض التوجّس. فمهما كانت الرحلة غير مريحة، إلا أنها لم تكن قط مخيفة، كما كانت حياتي قبلها مباشرة. وإذ عشت عن كثب مع آلاف مؤلفة من الحراس الحمر، لأكثر من شهر، لم أر أو أشعر قط بأي عنف أو رعب. فالجموع المحتشدة، وإن كانت هستيرية، كانت حسنة الانضباط ومسالمة. ومَنْ التقيتهم كانوا ودودين.

قبيل أن أغادر بكين، وصلت رسالة من أمي. جاء فيها أن أبي تماثل من مرضه تماماً، وأن الجميع في تشينغدو بخير. ولكنها أضافت، في النهاية، أنها وأبي يتعرضان للنقد بوصفهما من أنصار الطريق الرأسمالي. ضاق صدري. فقد أصبح واضحاً لي أن أنصار الطريق الرأسمالي ـ مسؤولين شيوعيين ـ كانوا الأهداف الرئيسية للثورة الثقافية. وسرعان ما رأيت ما يعنيه ذلك لي ولعائلتي.

١٩ ـ «حيثما تتوافر الإرادة للإدانة، تتوافر الأدلة» ـ عذاب الوالدين (كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧)

كان يعد مناصراً للطريق الرأسمالي من يكون مسؤولاً قوياً، ينتهج سياسات رأسمالية. ولكن، لم يكن لدى المسؤولين في الواقع، أي خيار حول السياسات التي ينتهجونها. أوامر ماو وأوامر خصومه كانت كلها تُقدَّم على أنها صادرة عن الحزب، وعلى المسؤولين إطاعتها كلها ـ رغم أنهم كانوا يضطرون، في ذلك، إلى الانعطاف في كثير من التعرجات، بل إلى الاستدارات الكاملة. وإذا كانوا حقاً يبغضون أمراً ما، فإنَّ أقصى ما يستطيعونه هو ممارسة مقاومة سلبية، عليهم أن يحاولوا جاهدين تمويهها. لذا، كان من المحال تحديد ما إذا كان المسؤولون مناصرين للطريق الرأسمالي أم لا.

كان للكثير من المسؤولين وجهات نظرهم، ولكن القاعدة الحزبية، تنص على أنهم يجب أن لا يفصحوا عنها للرأي العام. ولا هم كانوا يجرؤون. ولذلك، أياً تكن ميول المسؤولين، فإنها كانت مجهولة لدى الرأي العام.

ولكن العامة هم القوة نفسها التي يأمرها ماو، الآن، بالهجوم على أنصار الطريق الرأسمالي ـ دون الاستناد، بالطبع، إلى سلاح المعلومات، أو الحق في إصدار أي حكم مستقل. وعليه، فإن ما حدث هو أن المسؤولين كانوا يُهاجَمون بوصفهم من أنصار الطريق الرأسمالي بسبب المراكز التي يتبوأونها. لم تكن الدرجة المتقدمة وحدها، هي المعيار. العامل الحاسم هو ما إذا كان الشخص قائد وحدة قائمة بذاتها

نسبياً أم لا. فالسكان كلهم كانوا منظمين في وحدات، ومن يمثلون السلطة، عند الناس البسطاء، هم مسؤولوهم المباشرون ـ قادة الوحدات. وبتحديد هؤلاء هدفاً للهجوم، كان ماو يستثمر المصدر الأوضح لأسباب التحامل، بالطريقة نفسها التي حرض بها التلاميذ على المعلمين. كما كان قادة الوحدات هم الحلقات الأساسية في سلسلة هيكل السلطة الشيوعية، التي أراد ماو أن يتخلص منها.

ولأن والديَّ كانا من رؤساء الأقسام، فقد أُدينا بوصفهما من أنصار الطريق الرأسمالي. وعلى رأي المثل الصيني «حيثما تتوافر الإرادة للإدانة تتوافر الأدلة». وعلى هذا الأساس، أُدين جميع قادة الوحدات في عموم الصين، كبيرهم وصغيرهم، من قبل من هم أدنى منهم، بوصفهم أنصار الطريق الرأسمالي، لتنفيذهم سياسات يزعم أنها «رأسمالية» و«معادية للرئيس ماو»، مثل: السماح بالأسواق الحرة في الريف، والدعوة إلى تحسين المهارات المهنية للعمال، وإطلاق حرية نسبية للأدب والفن، وتشجيع روح المنافسة في الرياضة ـ التي أمست توصف، الآن، بأنها «هوس بورجوازي بالكؤوس والميداليات». حتى ذلك الحين، لم تكن لدى أغلبية المسؤولين فكرة عن أن ماو يمقت هذه السياسات ـ فالتوجيهات كانت كلها تأتي من الحزب الذي يقوده. والآن، يقال لهم، على حين غرة، إن كل هذه السياسات جاءت من «الأوساط البورجوازية»، داخل الحزب.

في كل وحدة، كان هناك أشخاص أصبحوا نشطاء. وكانوا يُسمَّون «الحراس الحمر المتمردين» أو «المتمردين» فقط، اختصاراً. كانوا يكتبون ملصقات جدارية، وشعارات تدعو إلى سقوط «أنصار الطريق الرأسمالي»، ويعقدون اجتمعات تنديدية ضد مسؤوليهم. وغالباً ما كانت الإدانات تبدو واهية، لأن المتهمين يقولون، ببساطة، إنهم كانوا ينفذون أوامر الحزب ـ ماو كان دائماً يحضّهم على أن يطيعوا أوامر الحزب طاعة غير مشروطة، ولم يخبرهم قط بوجود «الأوساط البورجوازية». فأنّى لهم أن يعرفوا؟ وكيف كان في وسعهم أن يتصرفوا خلاف ذلك؟ كان لدى المسؤولين الكثير من المؤيدين، وبعضهم انبروا للدفاع عنهم. كان هؤلاء يُسمَّون «الموالين». وكانت تنشب معارك كلامية وجسدية، بينهم وبين «المتمردين». ولأن ماو لم يقل صراحة قط إن كل المسؤولين الحزبيين ينبغي أن يدانوا، فقد أصبح بعض المناضلين مترددين: ماذا لو اتضح أن المسؤولين، الذين يهاجمونهم، ليسوا من أنصار الطريق الرأسمالي؟ ولم يكن

الناس العاديون يعرفون ما يُنتظر منهم، بعد الملصقات والشعارات والاجتماعات التنديدية.

لذا، حين عدتُ إلى تشينغدو في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦، لمستُ في أجوائها تشككاً واضحاً.

كان والداي يعيشان في البيت. فالمصح الذي كان فيه أبي، طلب منهما أن يغادرا في تشرين الثاني/ نوفمبر، لأنه ينبغي لأنصار الطريق الرأسمالي أن يعودوا إلى وحداتهم، لكي يدانوا هناك. وأُغلق المطعم الصغير في المجمَّع، وكان علينا جميعاً أن نحصل على طعامنا من المطعم الكبير، الذي واصل العمل بصورة عادية. واستمر والداي في تسلم مرتبيهما كل شهر، رغم أن المنظومة الحزبية كانت مشلولة ورغم أنهما لم يكونا يذهبان إلى العمل. وبما أن قسميهما يتعاملان مع الثقافة، ومسؤوليهم في بكين، كانوا مكروهين بصفة خاصة من ماو، وتم تطهيرهم في بداية الثورة الثقافية، فإن والديَّ كانا على خط النار مباشرة. وقد هوجما في المصلقات الجدارية بالشتائم المعهودة، مثل: «اقصفوا تشانغ شو ـ يو» و«أحرقوا شيا دي ـ هونغ». وكانت الاتهامات الموجهة ضدهما، هي نفسها تقريباً الموجهة ضد كل مدير قسم للشؤون العامة، في طول البلاد وعرضها.

كانت الاجتماعات تُعقد في قسم أبي لشجبه. ارتفعت أصوات في وجهه. وكما في معظم الصراعات السياسية في الصين، فإن الزخم الحقيقي كان يأتي مدفوعاً بأحقاد شخصية. وكان أكبر متهمي أبي امرأة اسمها السيدة شاو، وهي نائبة رئيس شعبة، متزمتة وشديدة الاعتداد بنفسها، كانت تطمح، منذ زمن طويل، إلى التخلص من كلمة «نائبة» الملحقة برتبتها الوظيفية، وترى أن أبي هو الذي حال دون ترقيتها، وعقدت العزم على الانتقام. ذات مرة، بصقت في وجهه وصفعته. ولكن الغضب على أبي، كان محدوداً. إذ الكثير من العاملين، كانوا يحبونه ويحترمونه، ولم يكونوا شرسين معه. وخارج قسمه، عقدت بعض المنظمات، التي كان مسؤولاً عنها، مثل صحيفة سيشوان اليومية، اجتماعات للتنديد به أيضاً. ولكن العاملين فيها لم تكن لديهم أحقاد شخصية ضده، وكانت الاجتماعات شكلية.

لم تكن هناك اجتماعات تنديد بأمي أبداً. فهي بوصفها مسؤولة قاعدية، كانت

تشرف على وحدات منفردة: مدارس، مستشفيات وفرق ترفيهية. وفي الأحوال العادية، كان مَنْ في موقعها يدينه أشخاص من هذه الوحدات. ولكنهم جميعاً تركوها وشأنها. إذ إنها كانت مسؤولة عن حل مشاكلهم الشخصية، مثل السكن والتنقلات والمعاشات التقاعدية. وهي قامت بعملها، دون أن تتوانى عن تقديم العون، وبكفاءة عالية. حاولت كل ما في وسعها، خلال الحملات السابقة، أن لا تضطهد أحداً، وتمكنت، في الواقع، من حماية الكثيرين. وكان الآخرون يعرفون الأخطار، التي أقدمت عليها، فردوا دينهم لها برفضهم الانقلاب عليها.

في أول أمسية لي، بعد عودتي إلى البيت، أعدتْ جدتي عجائن «بلع الغيوم»، ورزاً مسلوقاً بالبخار، في أوراق دراق محشوة بـ «ثمانية كنوز». وقدمت لي أمي تقريراً مرحاً عما جرى لها ولأبي. قالت إنهما اتفقا على أنهما لا يريدان أن يكونا مسؤولين، بعد الثورة الثقافية. وأنهما سيطلبان أن يكونا مواطنين عاديين، يتمتعان بحياة عائلية طبيعية. وكما أدركتُ لاحقاً، فإن هذا لم يكن أكثر من وهم لخداع النفس، لأن الحزب الشيوعي، لم يكن يسمح باختيار الخروج من صفوفه، ولكنهما كانا، في ذلك الوقت، في حاجة إلى شيء يتشبثان به.

قال أبي أيضاً: «حتى الرئيس الرأسمالي، يستطيع أن يصبح مواطناً عادياً بين ليلة وضحاها. وإنه لأمر جيد أن لا تُعطى سلطة دائمة، وإلا فإن المسؤولين سينزعون إلى إساءة استخدام سلطتهم». ثم اعتذر إلي، لأنه كان دكتاتوراً مع العائلة. وقال: «إنكم مثل حشرات الزيز، التي يسكت غناءها الماء البارد. وإنه لأمر جيد أن تتمردوا، أنتم الشباب، ضدنا، نحن الجيل الأقدم». ثم قال موجهاً نصف حديثه إليّ ونصفه إلى نفسه: «أعتقد أنه لا ضير في أن يخضع مسؤولون مثلي للنقد، بل لشيء من المعاناة وفقدان ماء الوجه».

كانت هذه محاولة مرتبكة أخرى من والديَّ، للتعامل مع الثورة الثقافية. فهما لم يرفضا احتمال أن يفقدا موقعيهما الممتازين ـ في الحقيقة أنهما كانا يحاولان أن ينظرا إلى ذلك، على أنه شيء إيجابي.

جاء عام ١٩٦٧. وفجأة انتقلت «الثورة الثقافية» إلى وتيرة أعلى. في مرحلتها الأولى، أشيع، بحركة «الحرس الأحمر»، جو من الإرهاب. والآن، التفت ماو إلى

هدفه الرئيسي: أن يستعيض عن «الأوساط البورجوازية» والتراتبية الحزبية القائمة، بنظام سلطته الشخصية. فأدين ليو شاوتشي ودينغ شياو بنغ رسمياً، وأصبحا رهن الاعتقال، وكذلك تاو جوو.

في ٩ كانون الثاني/يناير، أعلنت صحيفة «الشعب» اليومية والإذاعة، أن «عاصفة كانونية» هبت من شنغهاي، حيث سيطر المتمردون. ودعا ماو أبناء الشعب بأسره إلى الاقتداء بهم، وانتزاع السلطة من أنصار الطريق الرأسمالي.

«استولوا على السلطة!» (دوو ـ كوان). تلكم كانت العبارة السحرية في الصين. السلطة لم تكن تعني التأثير في السياسات، بل هي عنت ترخيصاً بالتسلط على الشعب. إذ إضافة إلى المال، كانت تحمل معها الامتياز والرهبة والتزلف وفرصة الانتقام.

وفي الصين، لم تكن هناك، عملياً، أية صمامات أمان للناس العاديين. البلد كله كان مثل مرجل، تغلي فيه كتلة هائلة من البخار المحبوس. لم تكن هناك مباريات كروية، أو جماعات ضغط، أو دعاوى قانونية أو حتى أفلام عنف. وكان يتعذر إبداء أي شكل من أشكال الاحتجاج على النظام وجوره، والتظاهر غير وارد بتاتاً. حتى الحديث في السياسة ـ وهو شكل هام لتنفيس الضغط، في جل المجتمعات ـ كان محرماً. المرؤوسون لم تكن لديهم فرصة تذكر، لرفع الغبن، الذي يلحقه بهم رؤساؤهم. ولكن إذا كنتَ أنت رئيساً من نوع ما، تكون لديك فرصة للتنفيس عن إحباطك. لذا، حين أطلق ماو دعوته إلى «أخذ السلطة»، وجد جمهرة واسعة من الذين يريدون الانتقام من أحد ما. ورغم أن السلطة خطر، فقد كانت مرغوبة أكثر من العجز، وخاصة لمن لم يتمتعوا بسلطة قط من قبل. والآن، بدا للرأي العام كأن ماو يقول، إن السلطة موجودة لمن يضع يده عليها.

ارتفعت معنويات «المتمردين» بشكل هائل، في كل وحدة في الصين. وكذلك أعدادهم. أناس من كل صنف ـ عمال ومعلمون وباعة وحتى موظفو المكاتب الحكومية ـ بدأوا يسمون أنفسهم «متمردين». واقتداء بمثال شنغهاي، ضربوا «الموالين»، الذين اختلطت عليهم الاتجاهات الآن، ضرباً جسدياً، حتى الاستسلام. وأخذت مجموعات الحرس السابقة تتفكك، مثل المجموعة التي شكلت في

مدرستي، لأنها كانت منظمة من أبناء المسؤولين الكبار، الذين يتعرضون للهجوم. واعتُقل بعض الحراس الحمر الأوائل، الذين عارضوا المرحلة الجديدة من الثورة الثقافية. وضُرب أحد أبناء المفوض لي حتى الموت، على أيدي «متمردين»، اتهموه بزلة لسان ضد زوجة ماو.

الأشخاص في قسم أبي، الذين كانوا ضمن الثلة التي اقتادته إلى الاعتقال، أصبحوا الآن «متمردين». والسيدة شاو كانت رئيسة مجموعة من «المتمردين» لكل المكاتب الحكومية في سيشوان، إضافة إلى كونها قائدة فرع المجموعة في قسم أبي.

ما أن تكوّن «المتمردون»، حتى انقسموا إلى أجنحة، وأخذوا يتصارعون على السلطة في كل وحدة عمل تقريباً. وكانت كل الأطراف تتهم خصومها بـ «معاداة الثورة الثقافية»، أو الولاء للنظام الحزبي القديم. وفي تشينغدو، ما لبثت المجموعات الكثيرة أن ائتلَفتْ في كتلتين متعادِيتين، تقودهما مجموعتان من «متمردي» الجامعات: مجموعة «٢٦ آب/ أغسطس»، الأكثر تشدّداً، في جامعة سيشوان، ومجموعة «تشينغدو الحمراء»، المعتدلة نسبياً، في جامعة تشينغدو. وكانت كل مجموعة تسيطر على ملايين الأتباع في الإقليم. وفي قسم أبي، كانت مجموعة السيدة شاو تنتمي إلى «٢٦ آب/أغسطس»، والمجموعة المضادة لها ـ وتضم بالدرجة الرئيسية أشخاصاً أكثر اعتدالاً، كان أبي يحبهم، وقام بترقيتهم، وكانوا هم يحبونه ـ تنتمي إلى «تشينغدو الحمراء».

خارج شقتنا، وراء أسوار المجمع، علّق كل من «٢٦ آب/أغسطس» و«تشينغدو الحمراء» مكبرات صوت على الأشجار وأعمدة الكهرباء، كانت تزعق بالشتائم إحداها ضد الأخرى، ليل نهار.

ذات ليلة، سمعتُ أن مجموعة «٢٦ آب/أغسطس»، حشدت مئات الأنصار، وهاجمت معملاً، كان أحد معاقل «تشينغدو الحمراء». اعتقلوا العمال وعذبوهم، مستخدمين أساليب وحشيّة، منها «النوافير الغنائية» (شق جماجمهم حتى ينبثق الدم رشاشاً) و«رسم المناظر الطبيعية» (تشريط وجوههم في أشكال مخططة). وقالت إذاعة «تشينغدو الحمراء»، إن العديد من العمال استشهدوا بالقفز من على سطح المبنى. وفهمت أنهم انتحروا، لأنهم لم يتمكنوا من تحمل التعذيب.

كان من أهداف «المتمردين» الرئيسية، نخبة المهنيين في كل وحدة، ليس كبار الأطباء والفنانين والكتاب والعلماء فحسب، بل كبار المهندسين وأصحاب الدرجات من العمال أيضاً، فضلاً عن النموذجيين من جامعي التربة الليلية (الذين يجمعون الفضلات البشرية، التي كانت ذات قيمة عالية للفلاحين). فقد اتُّهموا بأن أنصار الطريق الرأسمالي، هم الذين كانوا وراء ترقيتهم. ولكنهم كانوا، في الحقيقة، موضع حسد من زملائهم.

أطلقت «العاصفة الكانونية» أعمال عنف وحشية، ضد أنصار الطريق الرأسمالي. فقد أخذت السلطة تُنتَزع من المسؤولين الحزبيين، وكان الآخرون يُدفعون إلى الاعتداء عليهم. فاغتنم الفرصة من كانوا يكرهون مسؤوليهم الحزبيين، للانتقام منهم، رغم أن ضحايا حملات الاضطهاد السابقة، لم يسمح لهم بالتحرك. وكان لا بد من مرور وقت مديد، قبل أن يقرر ماو إجراء تعيينات جديدة، لأنه لم يكن يعرف مَنْ يعين في تلك المرحلة. لذا، كان الوصوليون في توق إلى إبداء نضاليتهم، بأمل أن يؤدي ذلك إلى اختيارهم ليكونوا أصحاب السلطة الجدد. وقد تواطأ الكثير من السكان، في ذلك، مدفوعين بالتخويف، أو الامتثال، أو التفاني في سبيل ماو، أو الرغبة في تصفية حسابات شخصية، أو لمجرد التنفيس عن مشاعر الإحباط.

وأخيراً، طال الاعتداء الجسدي أمي. لم يقع على أيدي أشخاص يعملون تحت مسؤوليتها، بل من قبل مجرمين سابقين، يعملون في ورش في الشوارع، ضمن دائرة منطقتها الشرقية ـ لصوص ومغتصبون ومهربو مخدرات وقوادون. بخلاف «المجرمين السياسيين»، الذين كانوا ضحايا «الثورة الثقافية»، جرى تشجيع هؤلاء المجرمين العاديين على الاعتداء على ضحايا معينين. لم يكن لديهم شيء ضد أمي شخصياً، ولكنها كانت أحد القياديين الكبار في منطقتها، وكان ذلك كافياً.

في الاجتماعات التي عقدت لإدانتها، كان هؤلاء المجرمون السابقون نشطاء. وذات يوم، عادت إلى البيت، وعلى وجهها تعابير الألم. أُمِرت بالركوع على زجاج مكسر. وأمضت جدتي ذلك المساء في التقاط شظايا الزجاج من ركبتيها، بملقط وإبرة. وفي اليوم التالي، صَنَعتْ لأمي لبادتين ثخينتين للركبتين. كما صنعت لها لبادة تحمي الخصر لأن منطقة الخصر الرخوة، هي التي وجه المهاجون لكماتهم إليها.

جرى استعراض أمي في الشوارع، مرات عديدة، وعلى رأسها طرطور

المغفلين، ومن رقبتها تتدلى لافتة ثقيلة، كتب عليها اسمها، وعليه خطان كبيران متصالبان لإظهار مهانتها وسقوطها. وبعد كل بضع خطوات، كانت هي وزملاؤها، يُجبرون على الركوع والسجود للجموع. وكان الآخرون يطلقون عليهم صرخات الاستهجان. والبعض يصيحون أن وقع سجودهم لم يكن مسموعاً بما فيه الكفاية، ويطالبون بتكراره. ثم كان على أمي وزملائها، أن يضربوا جباههم بصوت عال على الرصيف الحجري.

ذات يوم، كان هناك اجتماع تنديدي، في إحدى ورش الشارع. قبل الاجتماع، فيما كان المشاركون يتناولون الغداء في المطعم، أُمرت أمي وزملاؤها بالركوع ساعة ونصف، على أرض مغطاة بحبيبات رملية خشنة، في العراء. كانت السماء تمطر، وكانت أمي مبللة حتى الجلد. وكانت الريح اللاذعة، ترسل قشعريرة ثلجية، عبر ملابسها المبللة إلى عظامها. عندما بدأ الاجتماع، كان عليها أن تنحني انحناءة مزدوجة على المنصة، وهي تحاول أن تسيطر على ارتجافها. وإذ استمر الزعيق الخاوي، الجامح، فقد أصبح خصرها ورقبتها يؤلمانها ألماً لا يطاق. التَوَت التواءة طفيفة، وحاولت أن ترفع رأسها قليلاً لتخفيف الألم. وفجأة، شعرت بضربة ثقيلة على مؤخرة رأسها، طرحتها أرضاً.

لم تعرف ما حدث، إلا بعد مرور بعض الوقت. فإن امرأة تجلس في الصف الأمامي، صاحبة ماخور، سُجنت عندما شن الشيوعيون حملة ضد البغاء، ثبتت أنظارها على أمي، ربما لأنها كانت المرأة، الوحيدة على المنصة. وفي اللحظة التي رفعت أمي رأسها، قفزت هذه المرأة ودفعت مخرزاً نحو عينها اليسرى تماماً. الحارس «المتمرد»، الذي كان يقف وراء أمي شاهد المخرز قادماً، فطرحها أرضاً. ولولاه لفقدت أمي عينها.

أمي لم تخبرنا بهذا الحادث في حينه. ونادراً ما كانت تشير إلى ما حدث لها أصلاً. وحين تضطر إلى ذكر شيء، مثل الزجاج المكسر، كانت تقوله بشكل عابر، محاولة أن تجعله يبدو شيئاً غير ذي بال، قدر الإمكان. لم تُظهر قط الرضوض على جسمها، وكانت دائماً رصينة، بل مرحة. لم تكن تريدنا أن نقلق عليها. ولكن جدتي كانت تستطيع أن تقدر حجم معاناتها، فتتابع أمي بنظرات قلقة، محاولة هي نفسها أن تخفي ألمها.

ذات يوم، جاءت خادمتنا السابقة لزيارتنا. كانت وزوجها من القلائل، الذين لم يقطعوا علاقاتهم قط بعائلتنا، طيلة الثورة الثقافية. شعرتُ بامتنان بالغ للدفء الذي حملاه إلينا، لا سيما أنهما كانا يجازفان بالتعرض لتهمة «التعاطف مع أنصار الطريق الرأسمالي». وقد ذكرت لجدتي، بطريقة خرقاء، أنها رأت، لتوها، أمي تُستَعرَض في الشارع. ألحتْ جدتي عليها أن تقول المزيد، ثم انهارت فجأة فاصطدمت مؤخرة رأسها بالأرض، محدثة صوتاً عالياً. وأُغمي عليها. وبالتدريج، استردت، وعيها. قالت بدموع منهمرة: «ماذا فعلت ابنتي لتستحق ذلك؟».

أصيبت أمي بنزيف في رحمها، وظلت تنزف، معظم الأيام، خلال السنوات الست التالية، حتى تمّ استئصال رحمها بعملية، في ١٩٧٣. كان الأطباء يصفون لها هورمونات للسيطرة على النزيف، وكنتُ وأختي نحقنها بالإبر. كانت أمي تعرف أن الاعتماد على الهورمونات فيه خطر، ولكن لم يكن هناك بديل آخر. كان ذلك الطريقة الوحيدة للصمود في الاجتماعات التنديدية.

في هذه الأثناء، صعَّد «المتمردون» في قسم أبي هجماتهم عليه. ولأن القسم من أهم الأقسام في الحكومة الإقليمية، فقد نال أكثر من قسطه من الانتهازيين. وكثير من الأدوات الطيّعة للنظام الحزبي السابق، أصبحوا الآن «متمردين»، مناضلين أشداء، تقودهم السيدة شاو، تحت راية «٢٦ آب/أغسطس».

ذات يوم، اندفعت مجموعة منهم، إلى داخل شقتنا واتجهوا إلى مكتبة أبي. نظروا إلى رفوف الكتب، وأعلنوه من «العتاة» حقاً، لأنه ما زال يحتفظ بـ «كتبه الرجعية». في وقت أسبق، عشية حرق الكتب على أيدي الحراس الحمر المراهقين، عمد كثيرون إلى إضرام النار في مجموعاتهم. ولكن لم يكن أبي أحدهم. والآن، قام بمحاولة يائسة لحماية كتبه، بالإشارة إلى مجموعات المؤلفات الماركسية المجلدة، صرخت السيدة شاو: «لا تحاول أن تستغفلنا، نحن الحرس الأحمر! لديك الكثير من الأعشاب السامة!». والتقطت بعض الكلاسيكيات الصينية، المطبوعة على ورق الأرز الرقيق.

رد أبي قائلاً: «ماذا تعنين «نحن الحرس الأحمر» إنك كبيرة بما فيه الكفاية لأن تكوني أمهم ـ وينبغي أن تكوني أعقل كذلك».

صفعت السيدة شاو أبي بقوة. وصرخ به الجمع بغضب، رغم أن قلة منهم،

حاولوا إخفاء قهقهاتهم. ثم سحبوا كتبه، ورموها في أكياس ضخمة من القنب، جاؤوا بها معهم. وحين ملئت كل الأكياس، نزلوا بها السلم قائلين لأبي، إنهم سيحرقونها على أرض الشقة، في اليوم التالي، بعد الاجتماع التنديدي به، حيث أمروه بمراقبة النار «ليتلقن درساً». وقالوا إنه، في هذه الأثناء، يجب أن يحرق المتبقي من مجموعته.

حين جئتُ إلى البيت، ذلك العصر، وجدت أبي في المطبخ. أشعل ناراً في الحوض الأسمنتي الكبير، وكان يُطعم اللهب كتبه.

كانت هذه أول مرة في حياتي أراه باكياً. كان نحيباً معذَّباً، متقطعاً، وجامحاً، بكاء رجل لم يكن معتاداً ذرف الدموع. وبين حين وآخر، في نوبات من النشيج العنيف، كان يخبط الأرض بقدميه، ويضرب الحائط برأسه.

كنت خائفة، حتى إني لم أجرؤ، لبعض الوقت، على عمل شيء لمؤاساته. في النهاية، أحطته بذراعيَّ وحضنته من الخلف، ولكني لم أعرف ما أقوله. وهو لم ينطق بكلمة واحدة. لقد أنفق أبي كل قرش أمكنه جمعه على الكتب. كانت الكتب حياته. وبعد النار، كنت أستطيع أن أرى، أن شيئاً قد حدث لعقله.

كان عليه أن يذهب إلى العديد من الاجتماعات التنديدية. وكانت السيدة شاو ومجموعتها تستقدمان، عادة، عدداً كبيراً من «المتمردين» من الخارج، لزيادة حجم الحشد والمساعدة على العنف. وكان أحد الاستهلالات المعهودة، الهتاف: «عشرة آلاف سنة، وعشرة آلاف سنة أخرى، وبعد عشرة آلاف سنة لمعلمنا العظيم، وقائدنا العظيم، وزعيمنا العظيم والربان العظيم الرئيس ماو!». وفي كل مرة تتردد الثلاث «عشرة آلاف» والأربعة «عظيم»، كان الجميع يرفعون كتبهم الحمراء الصغيرة في توافق. كان أبي لا يفعل ذلك. وكان يقول إن الـ «عشرة آلاف سنة» هي الطريقة التي يخاطب بها الأباطرة، وإنها لا تليق بالرئيس ماو، الشيوعي.

كان هذا يستنزل عليه سيلاً من الصرخات الهستيرية والصفعات. وفي أحد الاجتماعات، أُمر كل المستهدفين بالركوع والسجود لصورة ضخمة من صور ماو، في مؤخرة المنصة. وإذ فعل الآخرون كما قيل لهم، فإن أبي رفض، وقال إن الركوع والسجود ممارسات إقطاعية مهينة، التزم الشيوعيون بالقضاء عليها. صرخ «المتمردون»، ركلوه على ركبتيه، وضربوه على رأسه، ولكنه ظل يصارع للوقوف

معتدلاً. وقال بغضب: «لن أركع! لن أسجد!». فبادره الحشد الهائج: «أحنِ رأسك، واعترفْ بجرائمك!». ورد: «لم أرتكب جريمة. ولن أطأطىء رأسي!».

وثب عليه عدة شبان ضخام لإجباره على الركوع، ولكن ما أن يرفعوا أيديهم عنه، كان ينهض معتدلاً، ويرفع رأسه، وينظر إلى الجمهور نظرة تحدٍ. جذب مهاجموه شعره، وسحبوه من رقبته. كان أبي يصارع بضراوة. وفيما كان الحشد الهستيري يزعق أنه «معادٍ للثورة الثقافية»، كان أبي يصيح بغضب: «أي ثورة ثقافية هذه؟ لا شيء فيها «ثقافي»! ليس هناك إلا وحشية».

صرخ من كانوا يضربونه: «إن الثورة الثقافية يقودها الرئيس ماو! كيف تجرؤ على معارضتها؟». رفع أبي صوته ما وسعه: «نعم أعارضها، حتى إذا كانت بقيادة الرئيس ماو!».

كان هناك صمت مطبق. «معارضة الرئيس ماو» جريمة يعاقب عليها بالموت. وقد مات كثيرون لمجرد اتهامهم بها، دون أي دليل. وقد أصيب «المتمردون» بالذهول، حين رأوا أن أبي لا يبدو خائفاً. وبعد أن فاقوا من صدمتهم، بدأوا يضربونه من جديد، داعين إياه أن يسحب كلمات الكفر التي قالها. رفض. وإذ استبد بهم الغضب، فقد أوثقوه وجروه إلى الشرطة المحلية مطالبين باعتقاله. ولكن أفراد الشرطة رفضوا أن يأخذوه. كانوا يحبون القانون والنظام والمسؤولين الحزبيين، ويكرهون «المتمردين». وقالوا إنهم يحتاجون إلى ترخيص لاعتقال مسؤول كبير بمرتبة أبي، وإن أحداً لم يعط مثل هذا الأمر.

تعرض أبي للضرب مرات متكررة. ولكنه ظل ثابتاً على موقفه. كان الشخص الوحيد في المجمّع، الذي تصرف على هذا النحو، بل الوحيد على الإطلاق، بحسب علمي. وكان كثيرون، بمن فيهم «متمردون»، معجبين به في السر. وفيما بعد، عندما كان يمر بنا شخص غريب تماماً في الشارع، كان يهمس خلسة بمدى إعجابه بأبي. وقال بعض الصبيان لإخوتي، إنهم يريدون أن تكون لديهم عظام قوية، كعظام أبي.

كان والداي، بعد انتهاء يومهما من العذاب، يعودان إلى يد جدتي الشافية في البيت. وكانت، آنذاك، قد نحّت تبرمها بأبي جانباً، وهو أيضاً رقَّ سلوكه معها. كانت تداوي جروحه بمرهم، وتضع كمادات خاصة للتخفيف من ألم رضوضه،

وتحمله على تناول عقاقير مصنوعة بمسحوق أبيض، يسمى «باي ـ ياو» للمساعدة على معالجة إصاباته الداخلية.

كانت لدى والديَّ أوامر دائمة بالبقاء في البيت، والانتظار حتى استدعائهما إلى الاجتماع التالي. لم يكن الاختفاء وارداً. فالصين كلها كانت مثل سجن، كل بيت، وكل شارع يراقبه الأهالي أنفسهم. وفي هذه الأرض الشاسعة، لم يكن هناك مكان يستطيع أحد أن يختبىء فيه.

كان والداي لا يستطيعان الخروج، حتى طلباً للاستجمام. «فالاستجمام» أصبح مفهوماً بالياً: الكتب، واللوحات الفنية، والأدوات الموسيقية، والألعاب الرياضية، وورق اللعب، والشطرنج، والمقاهي والحانات ـ كلها اختفت. المتنزهات كانت مهجورة، أرضاً يباساً خَرِبَة، اقتلعت أزهارها وعشبها، وقتلت طيورها الأليفة وأسماكها الذهبية. الأفلام والمسرحيات والحفلات الموسيقية كلها مُنعت: زوجة ماو أفرغت المسارح والشاشات لـ «الأوبرات الثورية» الثماني، التي كان لها ضلع في إنتاجها، والتي كانت كل ما يُسمح بعرضه. وفي الأقاليم، لم يجرؤ الآخرون حتى على تقديم هذه الأعمال نفسها. فأحد المديرين أدين لأن المكياج، الذي وضعه للبطل المعذَّب، في إحدى هذه الأوبرات، كان، في نظر سيدة الصين، أكثر مما ينبغي. أُلقي به في السجن، بسبب «المبالغة في مصاعب النضال الثوري». نادراً ما كنا نفكر حتى في الخروج للمشي. كانت الأجواء في الخارج مروعة بالاجتماعات التنديدية العنيفة على قارعة الطريق، وبالملصقات الجدارية والشعارات المسعورة. كان الناس يسيرون كأنهم مخدَّرون، بتعابير القسوة أو الخنوع على وجوههم. والأهم من ذلك، أن وجهي والديَّ الرضيضين، كانا يعلنانهما من المدانين، وإذا خرجا، فإنهما يخاطران بالتعرض لاعتداء عليهما.

من علامات الإرهاب في تلك الأيام، أن أحداً لم يكن يجرؤ على حرق أي صحف أو رميها. فكل الصفحات الأولى تحمل صورة ماو، وكل فقرة تتضمن أقوال ماو. وكان يتعين الاعتزاز بهذه الصحف، وستحل كارثة، إذا رآك أحد تتخلص منها. وكان الاحتفاظ بها أيضاً مشكلة: الفئران يمكن أن تقرض صورة ماو، أو يمكن أن تتفسخ الصحف ببساطة ـ وفي الحالتين، سيُفَسَّر ذلك بأنه جريمة ضد ماو. بل إن أول معركة فئوية كبيرة في تشينغدو، أشعلها حراس حمر، كانوا يجلسون بطريق

الخطأ على صحف قديمة، فيها وجه ماو. ولوحقت صديقة لأمي من المدرسة، إلى أن انتحرت، لأنها كتبت: «نحب الرئيس ماو من صميم القلب»، على ملصق جداري بضربة فرشاة أقصر، سهواً، فجعلت الرمز، الذي يمثل «من صميم القلب»، يبدو شبيهاً بالرمز، الذي يعني «من قلب حزين».

ذات يوم، في شباط/فبراير ١٩٦٧، في غمرة هذا الإرهاب الكاسح، كان لوالديَّ حديث طويل، كنتُ الوحيدة التي علمت به، بعد سنوات. كانت أمي تجلس على حافة سريرهما، وكان أبي يجلس على كرسي من الخيزران، قبالتها. قال لها إنه يعرف الآن المغزى الحقيقي للثورة الثقافية، وإن هذا الاكتشاف حطم عالمه كله. لقد استطاع أن يرى بوضوح، أنها لا تمت بصلة إلى إشاعة الديموقراطية، أو إعطاء الناس البسطاء دواءً أكبر. فهي عملية تطهير دموية، لتعزيز سلطة ماو الشخصية.

كان أبي يتحدث ببطء، قاصداً ما يقول، ومنتقياً كلماته بدقة. قالت أمي: «ولكن الرئيس ماو، كان سمحاً على الدوام. وإنه أبقى حتى على بو يي. فلماذا لا يستطيع التسامح مع رفاقه في السلاح، الذين ناضلوا من أجل صين جديدة معه؟ كيف يستطيع أن يكون بهذه القسوة معهم؟».

قال أبي بلهجة هادئة ولكنها حادة: «ماذا كان بو يي؟ كان مجرم حرب، لا يتمتع بتأييد من الشعب. لم يكن قادراً على شيء. ولكن...». وأمسك عن الكلام، في صمت له معناه. وقد فهمته أمي: ماو لن يطيق أي تحد محتمل. ثم سألت: «ولكن لماذا نحن جميعاً، الذين لا نفعل سوى تنفيذ الأوامر؟ ولماذا تجريم كل هؤلاء الأبرياء؟ وكل هذا التدمير والمعاناة؟».

أجاب أبي: «لعل الرئيس ماو يشعر أنه لا يستطيع أن يحقق هدفه، دون أن يقلب المكان رأساً على عقب. لقد كان جندياً على الدوام - ولم يكن ضعيفاً إزاء الخسائر».

وبعد وتوقف مشحون، مضى أبي قائلاً: «إن هذه لا يمكن أن تكون ثورة بأي معنى للكلمة. وتأمين السلطة الشخصية، بمثل هذا الثمن، على البلاد والشعب، لا بد أن يكون خطأ. في الواقع أعتقد أنه جريمة».

شمَّت أمي رائحة الكارثة. فبعد تعليل كهذا، يتعين على زوجها أن يتحرك. وكما توقعتْ، قال: «سأكتب رسالة إلى الرئيس ماو».

وضعتْ أمي رأسها بين يديها، وانفجرت قائلة: «ما جدوى ذلك؟ كيف يمكن أن تتخيل أن الرئيس ماو سيستمع إليك؟ لماذا تريد أن تدمر نفسك ـ ومن أجل لا شيء؟ لا تعول عليَّ لأخذها إلى بكين، هذه المرة!».

مال أبي نحوها وقبلها: «لم أكن أفكر في تسليمكِ إياها. سأرسلها بالبريد». ثم رفع رأسها، ونظر إلى عينيها. وبلهجة يائسة قال: «ماذا عساي أن أفعل غير ذلك؟ أي بدائل عندي؟ يجب أن أتكلم. قد يساعد هذا. ويجب أن أفعل، حتى لو من أجل ضميري فقط».

قالت أمي: «لماذا ضميرك على هذا القدر من الأهمية؟ أهم من أطفالك؟ هل تريدهم أن يصبحوا «سوداً؟»».

بعد توقف طويل، قال أبي بتردد: «ارى أنكِ يجب أن تطلقيني، وتربي الأطفال على طريقتك». ساد الصمت بينهما من جديد، جاعلاً إياها تظن أنه ربما لم يحزم أمره في شأن كتابة الرسالة، لأنه يدرك العواقب. إنها ستكون كارثة بكل تأكيد.

مرت أيام. وفي أواخر شباط/فبراير، حلقت طائرة على ارتفاع منخفض، فوق تشينغدو ناثرة آلاف الأوراق المتلألئة، التي هبطت من السماء الرصاصية. وعليها طبعت نسخة من رسالة مؤرخة في ١٧ شباط/فبراير، مذيلة بتوقيع اللجنة العسكرية المركزية، وهي الهيئة العليا لكبار العسكريين. تقول الرسالة لـ «المتمردين» أن يكفوا عن أعمالهم العنيفة. ورغم أنها لم تتعرض للثورة الثقافية بإدانة مباشرة، فقد كان واضحاً أنها تريد وقفها. زميل أرى المنشور لأمي. انتعش الأمل في والديَّ. لعل مارشالات الصين الكبار، الذين يحظون باحترام كبير، سيعمدون إلى التدخل. كانت هناك تظاهرة كبيرة، اخترقت شوارع مركز تشينغدو، تأييداً لدعوة المارشالات.

كانت المناشير نتيجة غليان وراء الأبواب المغلقة، في بكين. ففي أواخر كانون الثاني/يناير، دعا ماو، للمرة الأولى، الجيش إلى دعم «المتمردين». وقد استشاط معظم القادة العسكريين الكبار غضباً، باستثناء وزير الدفاع، لن بياو. وفي ١٤ و١٦ شباط/فبراير، عقدوا اجتماعين مطولين مع القادة السياسيين. ماو نفسه تغيب عنهما، كما تغيب لن بياو، نائبه. ترأس الاجتماعات شو إن لاي. وضم المارشلات قواهم إلى أعضاء المكتب السياسي، الذين لم يطلهم التطهير. كان هؤلاء المارشلات قادة الجيش الشيوعي، والمحاربين القدماء في «المسيرة الكبرى»، وأبطال الثورة. وقد

أدانوا «الثورة الثقافية»، لاضطهادها الأبرياء، وتقويض استقرار البلاد. وانفجر أحد نواب رئيس الوزراء، وهو تان جينلين، قائلاً بغضب: «لقد سرتُ وراء الرئيس ماو كل حياتي. أما الآن، فلن أتبعه أبداً!». وبعد هذين الاجتماعين مباشرة بدأ المارشالات يتخذون خطوات، محاولين إيقاف العنف. ولأنه كان متفاقماً، بصفة خاصة في سيشوان، فقد أصدروا رسالة ١٧ شباط/ فبراير للإقليم على وجه الخصوص.

امتنع شو إن لاي عن رمي ثقله مع الأكثرية، وبقي إلى جانب ماو. إن عبادة الفرد، وهبت ماو قوة شيطانية. والاقتصاص من المعارضة، جاء سريعاً. كان ماو يقوم بإخراج اعتداءات ترتكبها الجماهير، ضد أعضاء المكتب السياسي والقادة العسكريين المعارضين، الذين دُهمت بيوتهم، وعقدت اجتماعات للتنديد بهم. وحين أعطى ماو أمره بمعاقبة المارشالات، لم يتحرك الجيش لنصرتهم.

وُصِفت هذه المحاولة المائعة، الوحيدة لمواجهة ماو وثورته الثقافية بـ «تيار شباط/ فبراير السلبي». وأصدر النظام تقريراً انتقائياً عنه، لتوليد أعمال عنف أشد ضد أنصار الطريق الرأسمالي.

كانت اجتماعات شباط/ فبراير نقطة انعطاف، بالنسبة إلى ماو. فقد رأى أن الجميع، عملياً، يعارضون سياساته. وأدى ذلك إلى التخلي الكلي عن الحزب ـ في كل شيء، إلا الاسم. واستعيض عن المكتب السياسي، من الناحية الفعلية، بسلطة الثورة الثقافية. وما لبث لن بياو أن شرع في تطهير القادة الموالين للمارشالات، واستولى على دور اللجنة العسكرية المركزية مكتبه الشخصي، الذي كان يديره من خلال زوجته. بدت بطانة ماو، الآن، كأنها في بلاط قروسطي مبني حول زوجات وأبناء عمومة وخؤولة وأفراد حاشية متزلفين. أرسل ماو مندوبين إلى الأقاليم، لتنظيم «لجان ثورية»، شاء لها أن تكون الأدوات الجديدة لسلطته الشخصية، فأخذت تحل محل المنظومة الحزبية على طول الخط، نزولاً إلى القواعد.

في سيشوان، اتضح أن مبعوثي ماو كانا معروفين من والديَّ، وهما الزوجان تنغ. فبعد أن غادرت عائلتي يي بِين، بسط الزوجان تنغ، عملياً، سيطرتهما على المنطقة. فأصبح السيد تنغ سكرتير الحزب فيها، وكانت السيدة تنغ المسؤولة الحزبية لمدينة يي بِين، العاصمة.

استغل الزوجان تنغ مركزيهما، للدخول في عمليات ملاحقة وثارات شخصية، لا نهاية لها. وطالت إحداها رجلاً، كان حارس السيدة، في أوائل الخمسينات. وقد حاولتْ إغواءه عدة مرات، وذات يوم، شكتْ مغصاً في معدتها، واستدرجت الشاب إلى تدليك بطنها. ثم قادت يده إلى عورتها. سحب الحارس يده على الفور، ومشى مبتعداً. اتهمته السيدة تنغ بمحاولة اغتصابها، ودبرت الحكم عليه ثلاث سنوات في أحد معسكرات العمل.

وصلت رسالة من مجهول، تفضح القضية كلها، إلى لجنة الحزب في سيشوان، التي أمرت بفتح تحقيق. ولأن الزوجين تنغ هما المتهمان فيها، فقد اقتضى أن لا يطَّلعا على الرسالة، ولكن أحد أزلامهما عرضها عليهما. وقد حملا كل عضو في حكومة يي بِين، على كتابة تقرير عن هذه القضية أو تلك، لفحص خطوطهم. لم يتمكنا قط من التعرف بصاحب الرسالة، ولكن التحقيق لم يسفر عن نتيجة.

في يي بِين، كان المسؤولون والناس العاديون، على السواء، يرتعبون من الزوجين تنغ. فالحملات السياسية المتكررة، ونظام الحصص، كانا يهيئان لهما فرصاً مثالية لممارسة الاضطهاد بحق الآخرين.

في عام ١٩٥٩، تخلص الزوجان تنغ من محافظ يي بِين، الرجل الذي خلف أبي في عام ١٩٥٣. كان مخضرماً، وله شعبية واسعة، الأمر الذي أثار حسد الزوجين تنغ. كان يلقب «لي صندل القش» لأنه دائماً ينتعل الصندل، الذي يستخدمه الفلاحون ـ إشارة إلى أنه يريد البقاء قريباً إلى جذوره. والحق أنه خلال «الطفرة الكبرى إلى الأمام»، لم يبد حماسة كبيرة لإجبار الفلاحين على إنتاج الفولاذ، وفي عام ١٩٥٩، جاهر بالكلام عن المجاعة. شجبه الزوجان تنغ، بوصفه «انتهازياً يمينياً»، ودبرا أمر تنزيله إلى وكيل مشتريات لمطعم معمل يصنع البيرة. مات في المجاعة، رغم أن عمله كان ينبغي أن يعني فرصة أكبر لإشباع بطنه. لقد بقي إنساناً شريفاً حتى الموت.

وثمة حالة أخرى، أيضاً في عام ١٩٥٩، تتعلق بطبيب أدانه الزوجان تنغ، بوصفه عدواً طبقياً، لأنه كان يقدم تشخيصات صادقة عن ضحايا المجاعة ـ المجاعة، رسمياً كان يحرّم ذكرها.

كان هناك عشرات الحالات كهذه، حتى إن أشخاصاً، خاطروا بحياتهم من أجل

أن يكتبوا إلى السلطات الإقليمية، شاجبين الزوجين تنغ. وفي عام ١٩٦٢، حين كانت الغلبة للمعتدلين في الحكومة المركزية، فتح هؤلاء تحقيقاً، على المستوى القومي، في الحملات السابقة، وردوا الاعتبار إلى الكثير من الضحايا. وشكلت حكومة سيشوان فريقاً للتحقيق مع الزوجين تنغ، اللذين أدينا بإساءتهما استخدام السلطة بشكل صارخ. فسُرِّحا من عملهما، واعتقلا. وفي عام ١٩٦٥، وقع السكرتير العام دينغ شياوبنغ أمراً بطردهما من الحزب.

حين بدأت الثورة الثقافية، هرب الزوجان تنغ بطريقة من الطرائق، ووصلا إلى بكين، حيث قدما استئنافاً إلى «سلطة الثورة الثقافية». صورا نفسيهما بطلين، يرفعان عالياً راية «الصراع الطبقي»، التي زعما أن السلطات الحزبية القديمة اضطهدتهما بسببها. أمي، في الحقيقة، التقت بهما، مرة، في مكتب التظلمات. وطلبا منها بحرارة عنوانها في بكين. وقد امتنعت عن إعطائه لهما.

أحيط الزوجان تنغ برعاية تشين بودا، أحد قادة «سلطات الثورة الثقافية» ومسؤول أبي القديم في ينان. ومن خلاله، استقبلتهما زوجة ماو، وتعرفت بهما فوراً، بوصفهما من طينتها. كان دافع سيدة الصين إلى «الثورة الثقافية» لا علاقة له بالسياسة، وإنما كانت علاقته بتسوية حسابات شخصية ـ من أتفه الأنواع. إذ كان لها ضلع في اضطهاد السيدة شاوتشي، لأنها، كما قالت هي نفسها للحرس الأحمر، حانقة على سفرات السيدة شاوتشي خارج البلاد مع زوجها، الرئيس. ماو لم يغادر البلاد إلا مرتين، وفي المرتين إلى روسيا، وفي المرتين من دون السيدة تشينغ.

والأنكى من ذلك، أن السيدة شاوتشي شوهدت ترتدي، في سفراتها، ملابس وجواهر أنيقة، لا أحد يستطيع ارتداءها في صين ماو المتقشفة. اتُّهمت السيدة شاوتشي بكونها عميلة لوكالة المخابرات المركزية، وألقي بها في السجن حيث كادت تموت.

في الثلاثينات، كانت السيدة تشينغ، قبل أن تلتقي بماو، ممثلة ثانوية في شنغهاي، وشعرت بازدرائها، وسط المثقفين الأدباء. كان بعضهم قادة في التنظيم السري الشيوعي، وأصبحوا، بعد عام ١٩٤٩، شخصيات قيادية في القسم المركزي للشؤون العامة. ولأسباب منها الانتقام لإذلالها الحقيقي أو المتخيَّل، في شنغهاي،

قبل ثلاثين عاماً، ذهبت زوجة ماو إلى أقصى الحدود، لإيجاد عناصر «معادية للرئيس ماو وللاشتراكية» في أعمالهم. وحين انزوى ماو متراجعاً، خلال المجاعة، تمكنت من أن تزداد قرباً منه، وأن تهمس في أذنه الكثير من الكلام المسموم، الذي يقال في مخدع الزوجية. وبغية إسقاط خصومها، أدانت كل المنظومة التابعة لهم، الأمر الذي يعني دوائر الشؤون العامة في سائر أنحاء البلاد.

كما أنها انتقمت من الممثلين والممثلات، الذين أثاروا حسدها في فترة شنغهاي. فثمة ممثلة اسمها وانغ ينغ، قامت بدور كانت السيدة شينغ تطمع به. وبعد ثلاثين عاماً، في ١٩٦٦، دبرت السيدة شينغ سجنها وسجن زوجها مدى الحياة. انتحرت وانغ ينغ في السجن، في عام ١٩٧٤.

ممثلة معروفة أخرى، هي صن وي - شي، ظهرت قبل عقود، مع السيدة شينغ، في مسرحية عرضت في ينان، أمام ماو. ويبدو أن أداء صن كان أبرع من أداء السيدة شينغ، وأصبحت ذات شعبية واسعة بين القادة الكبار، بمن فيهم ماو. وإذ كانت صن ابنة شو إن لاي بالتبني، فإنها لم تشعر بالحاجة إلى تملق السيدة شينغ. في عام ١٩٦٨، دبرت زوجة ماو اعتقال صن وشقيقها وتعذيبهما حتى الموت. ولم تتمكن حتى سلطة شو إن لاي من حمايتها.

أصبحت ثارات سيدة الصين معروفة للرأي العام، من خلال تناقلها شفاهاً. كما أن شخصيتها اتضحت، في خطاباتها التي كان يعاد نشرها في الملصقات الجدارية. أصبحت مكروهة من الجميع تقريباً، ولكن شرورها، كانت لا تزال غير معروفة على نطاق واسع، في بداية ١٩٦٧.

كانت السيدة شينغ والزوجان تنغ، ينتمون إلى صنف واحد، اسمه في صين ماو جينغ - رين، «مضطهِدو المسؤولين». وكانت المثابرة، بلا كلل، والتصميم اللذان مارسوا بهما الاضطهاد، والأساليب الدموية التي استخدموها، مروِّعة بحق. في آذار/ مارس، أعلنت وثيقة، بتوقيع ماو، عن رد الاعتبار للزوجين تنغ، وتفويضهما بتنظيم اللجنة الثورية في سيشوان.

شكِّلت سلطة انتقالية، اسمها «اللجنة الثورية التحضيرية في سيشوان». وكانت تضم جنرالين - كبير المفوضين السياسيين، وقائد منطقة تشينغدو العسكرية (إحدى

مناطق الصين العسكرية الثماني) ـ والزوجين تنغ. وقرر ماو أن تقوم كل لجنة ثورية عن ثلاث أثافي، هي الجيش المحلي وممثلو «المتمردين» ومسؤولون «ثوريون». ويتم اختيار الأخيرين من بين مسؤولين سابقين، وكان هذا الاختيار بحسب اجتهاد الزوجين تنغ، اللذين كانا، عملياً، يديران اللجنة.

في أواخر آذار/ مارس ١٩٦٧، جاء الزوجان تنغ لزيارة أبي. أرادا ضمه إلى لجنتهما. فقد كان أبي يتمتع بسمعة عالية بين زملائه، لكونه نزيهاً وعادلاً. حتى الزوجان تنغ، كانا يقدران شمائله، لا سيما أنهما يعرفان أن أبي، حين كان مغضوباً عليهما، لم يضف، مثل البعض، إدانته الشخصية إلى ما أدينا به. يضاف إلى ذلك، أنهما كانا في حاجة إلى رجل يتمتع بقدراته.

حيَّاهما أبي، كما تقتضي الأصول، ولكن جدتي استقبلتهما بحرارة. لم تسمع الكثير عن ثاراتهما، وكانت تعرف أن السيدة تنغ، هي التي أصدرت التخويل بإعطاء الدواء الأميركي الثمين، الذي عالج أمي من مرض السل، عندما كانت حاملاً بي.

حين دخل الزوجان تنغ غرفة أبي، سارعت جدتي إلى تحضير بعض الفطائر، وما لبث نغم التقطيع الإيقاعي العالي أن ملأ المطبخ. فرمت شيئاً من لحم الخنزير وقطّعت بعض الثوم، وأضافت تشكيلة من التوابل، وصبت زيت اللفت الساخن على مسحوق حار المذاق، لإعداد صلصة الوجبة التكريمية التقليدية من العجائن.

في مكتبة أبي، حدَّثه الزوجان تنغ عن رد اعتبارهما وعن مركزهما الجديد. قالا إنهما زارا قسمه، وإن «المتمردين» هناك، قدموا لهما إيجازاً عن المتاعب التي أوقع نفسه فيها. وقالا، إنهما لطالما أعجبا به في تلك الأعوام الأولى، في يي بِين، وإنهما لا يزالان يكنان له احتراماً كبيراً، ويريدان العمل معه من جديد. ووعدا بأن كل الأشياء التجريمية، التي قالها وفعلها، يمكن أن تُنسى إذا تعاون. ليس هذا فحسب، بل إنه يستطيع الارتقاء من جديد في هيكل السلطة الجديد، مضطلعاً بمسؤولية كل الشؤون الثقافية في سيشوان، على سبيل المثال. وأوحيا بأن هذا عرض لا يستطيع مَنْ في وضعه أن يرفضه.

سمع أبي بتعيين الزوجين تنغ من أمي، التي قرأته على الملصقات الجدارية. وقال لها في حينه: «يجب أن لا تصدقي الشائعات. فإن ذلك مستحيل!». كان أمراً

لا يصدق أن يرى ماو يعين هذين الزوجين في مراكز حساسة. والآن، ها هو يحاول السيطرة على شعوره بالتقزز، وقال: «إني آسف، لا أستطيع القبول بعرضكما».

رد السيد تنغ بنزق: «إننا نسدي إليك معروفاً كبيراً. آخرون كانوا سيتوسلون من أجل هذا راكعين. هل تدرك أي مأزق أنت فيه! ومَنْ نحن الآن؟».

تصاعد غضب أبي. وقال: «أياً كان ما قُلتُه وفعلتُه، فأنا مسؤول عنه. لا أريد التورط معكما». وفي الجدالات الحامية، التي أعقبت ذلك، مضى أبي إلى القول إنه لا يعتقد أن عقابهما كان عادلاً، وما كان ينبغي قط أن تناط بهما مهام كبيرة. وإذ أذهلهما ذلك فقد نبهاه إلى عاقبة ما يقوله: إن الرئيس ماو هو نفسه، الذي رد اعتبارهما وسماهما «مسؤولين جيدين».

حنق أبي دفعه إلى الاستمرار: «لكن الرئيس ماو، ما كان له أن يعرف كل الحقائق عنكما. أي نوع من «المسؤولين الجيدين» أنتما؟ لقد ارتكبتما أخطاء لا تغتفر». ويلاحظ أنه كبح نفسه، ولم يقل «جرائم».

صاحت السيدة تنغ: «كيف تجرؤ على تحدي كلمات الرئيس ماو! إن نائب القائد، لن بياو، قال: «كل كلمة من الرئيس ماو، هي حقيقة كونية مطلقة، وكل كلمة تعادل عشرة آلاف كلمة!» ».

قال أبي «إذا كانت الكلمة تعني كلمة واحدة، فهذا إنجاز سامٍ يحققه الإنسان. وليس من الممكن، بشرياً، أن تعني كلمة واحدة عشرة آلاف. ما قاله نائب القائد، لن بياو، كان خطابياً، وينبغي أن لا يفهم حرفياً».

لم يصدق الزوجان تنغ آذانهما، حسبما رويا، فيما بعد. وحذرا أبي من طريقته في التفكير والكلام والتصرف ضد الثورة الثقافية، التي يقودها الرئيس ماو. وقال أبي رداً على ذلك، إنه يود لو تتاح له الفرصة لمناقشة الأمر كله مع الرئيس ماو. كانت هذه الكلمات انتحارية، حتى إن الزوجين تنغ، فقدا القدرة على النطق. وبعد صمت، نهضا ليغادرا.

سمعت جدتي وقع خطوات غاضبة، واندفعت خارج المطبخ، يداها معفرتان بطحين القمح، الذي كانت تغمس العجائن فيه. ارتطمت بالسيدة تنغ، وطلبت من

الزوجين البقاء على الغداء. تجاهلتها السيدة تنغ ،واندفعت خارج الشقة، وبدأت تخبط درجات السلم. ثم توقفت والتفتت قائلة بغضب لأبي الذي خرج معهما: «هل أنت مجنون؟ أسألك للمرة الأخيرة: هل ما زلت ترفض معونتي؟ أنت تعرف أني أستطيع أن أفعل أي شيء بك الآن».

قال أبي: «لا أريد أية علاقة بكما. أنتما وأنا من طينتين مختلفتين».

دخل أبي مكتبته، تاركاً جدتي المصعوقة والخائفة في أعلى السلم. خرج في الحال تقريباً، وحمل حجراً حبرياً إلى الحمام. رش بضع قطرات من الماء على الحجر، وعاد إلى مكتبته غارقاً في أفكاره. ثم جلس إلى منضدته، وبدأ يسحق قطعة من الحبر على الحجر، ليصنع سائلاً أسود كثيفاً. بسط صفحة بيضاء من الورق أمامه. وبسرعة خاطفة، انتهى من كتابة رسالته الثانية إلى ماو. بدأ بالقول: «الرئيس ماو، أناشدك، مناشدة شيوعي لشيوعي، أن توقف الثورة الثقافية». ومضى يصف الكوارث التي أوقعت الصين فيها، وانتهت الرسالة بالكلمات التالية: «إني أخاف من الأسوأ على حزبنا وبلدنا، إذا مُنح أمثال ليوجي تنغ وجانغ شي ـ تنغ سلطة على أرواح عشرات الملايين».

عَنْوَن أبي المظروف: إلى «الرئيس ماو، بكين»، وأخذه إلى مكتب البريد، في أعلى الشارع. وأرسله بالبريد الجوي المسجل. الموظف الجالس وراء المكتب، أخذ المظروف، وألقى نظرة عليه، ووجهه ينم بالخواء التام. ثم مشى أبي إلى البيت ـ لينتظر.

٢٠ ـ «لن أبيع روحي» ـ
اعتقال أبي
(١٩٦٧ ـ ١٩٦٨)

عصر اليوم الثالث، بعد إرسال أبي رسالته بالبريد إلى ماو، سمعت أمي طرقة على باب شقتنا. دخل ثلاثة رجال يرتدون الملابس الزرقاء الفضفاضة، الشبيهة بالبزة نفسها التي يرتديها كل رجل في الصين. كان أبي يعرف أحدهم: كان ناظراً في قسمه و«متمرداً» مناضلاً. أحد الآخَرين، وهو رجل طويل، وجهه النحيف مملوء بالبثور، أعلن أنهم «متمردون» من الشرطة، وأنهم جاؤوا لاعتقاله، لأنه «معادٍ للثورة في العمل، يهاجم الرئيس ماو والثورة الثقافية». ثم قبض هو والرجل الثالث، الذي كان أقصر وأقوى بنية، على ذراعي أبي وأومأ بالذهاب.

لم يبرزوا أية بطاقات تعرف بهوياتهم، فضلاً عن إبراز الأمر بإلقاء القبض. ولكن لم يكن هناك شك في أنهم شرطة «متمردون» بملابس مدنية. كانت سلطتهم مؤكدة، دون ريب، لأنهم جاؤوا مع «متمرد» من قسم أبي.

رغم أنهم لم يذكروا رسالة أبي إلى ماو، فقد كان يعرف أنها لا بد أن اعترُضتْ، كما هو محتوم تقريباً. وكان يرجح أنه سيعتقل، ليس لأنه وضع كفره على الورق فحسب، بل لأن هناك الآن سلطة ـ الزوجين تنغ ـ للموافقة على اعتقاله. مع ذلك أراد أن يراهن على الأمل الوحيد القائم، مهما كان ضئيلاً. كان صامتاً ومتوتراً، ولكنه لم يحتج. وإذ همَّ بمغادرة الشقة، توقف وقال لأمي بصوت خافت: «لا تحقدي على حزبنا. ثقي أنه سيصحح أخطاءه، مهما كانت فادحة. طلقيني، وانقلي حبي إلى أبنائنا. لا تثيري هلعهم».

حين عدتُ إلى البيت، في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، كان والداي غائبين. أخبرتني جدتي أن أمي ذهبت إلى بكين، لرفع مناشدة من أجل أبي، الذي أخذه «متمردون» من قسمه. لم تقل «الشرطة»، لأن هذا من شأنه أن يكون مخيفاً جداً، وأوخم نتائج من الاعتقال على أيدي «المتمردين».

هرعتُ إلى قسم أبي، لأسأل أين هو، لم أتلق جواباً سوى صراخ متنوع، قادته السيدة شاو، بأنه «يجب أن ترسمي خطاً فاصلاً عن أبيك العفن، المناصر للطريق الرأسمالي»، و«أينما يكن فإنه يستحق ذلك». حبستُ دموعي الغاضبة. كنتُ مليئة بالكراهية لهؤلاء الكبار الأذكياء، على ما يفترض. ما كان عليهم أن يكونوا بلا رحمة إلى هذا الحد، قساة بهذا القدر.

ومنذ ذلك الحين، أوجدتُ طريقتي في الحكم على الصينيين، بتقسيمهم صنفين: صنف إنساني، وصنف لا إنساني. وتطلب الأمر غلياناً مثل «الثورة الثقافية»، للكشف عن هذه الخصائص في الناس، سواء كانوا حراساً حمراً من المراهقين أو متمردين كباراً أو أنصاراً للطريق الرأسمالي.

في هذه الأثناء، كانت أمي في المحطة تنتظر القطار، الذي سيأخذها إلى بكين ثانية. استشعرت اليأس الآن، أكثر مما كانت عليه قبل ستة أشهر. حينذاك، كان لا يزال هناك أمل في العدالة، ولكن الأمل، الآن، معدوم عملياً. لم تستسلم أمي لليأس، وكانت مصممة على الكفاح.

قررت أن الشخص الذي يجب أن تقابله هو رئيس الوزراء شو إن لاي، ولا أحد غيره. فإذا قابلت أحداً غيره لن يؤدي ذلك إلا إلى التعجيل بنهاية زوجها ونهايتها، ومعهما عائلتهما. كانت تعرف أن شو أكثر اعتدالاً من زوجة ماو «ومن سلطة الثورة الثقافية» ـ وأنه يمارس سلطة كبيرة على «المتمردين»، الذين كان يصدر إليهم الأوامر، كل يوم تقريباً.

ولكن الوصول إليه، كان كمحاولة دخول البيت الأبيض أو مقابلة البابا. وحتى إذا وصلت بكين، دون القبض عليها، وبلغت مكتب التظلمات المطلوب، فإنها لا تستطيع أن تحدد مَنْ تريد أن ترى، لأن هذا سيُعَد إهانة، بل اعتداء على القادة الآخرين. تعاظم قلقها، ولم تعرف ما إذا اكتشف «المتمردون» غيابها عن البيت. إذ

كان يراد منها أن تنتظر لاستدعائها إلى اجتماع إدانتها القادم، ولكن كان هناك ثغرة محتملة. فقد تعتقد مجموعة «متمردين»، أنها بأيدي مجموعة أخرى.

رأت، وهي تنتظر، لافتة ضخمة، كتب عليها: «وفد مذكرة تشينغدو الحمراء إلى بكين». وكان يتحلق حول اللافتة جمع من زهاء ٢٠٠ شخص في أوائل العشرينات من أعمارهم. لافتاتهم الأخرى، أظهرت أنهم طلاب جامعيون، ذاهبون إلى بكين للاحتجاج على الزوجين تنغ. والأكثر من ذلك، أن اللافتات كانت تعلن أنهم ضمنوا لقاء مع رئيس الوزراء شو.

كانت مجموعة «تشينغدو الحمراء» معتدلة نسبياً، بالمقابلة بمجموعة «المتمردين» المنافسة لها، «٢٦ آب/ أغسطس». وقد ألقى الزوجان تنغ بثقلهما وراء المجموعة الأخيرة، لكن مجموعة «تشينغدو الحمراء» لم تستسلم. ولم تكن سلطة الزوجين تنغ سلطة مطلقة قط، رغم أنهما كانا مدعومين من ماو، ومن «سلطة الثورة الثقافية».

حينذاك، كانت «الثورة الثقافية» محكومة بصراعات فئوية، محتدمة بين مجموعات «المتمردين». وكانت هذه بدأت، تقريباً، مع إطلاق ماو الإشارة لانتزاع السلطة من أنصار الطريق الرأسمالي. والآن، بعد ثلاثة أشهر، أخذ معظم القادة «المتمردين» يظهرون بوصفهم شيئاً يختلف اختلافاً كبيراً عن المسؤولين الشيوعيين المخلوعين: كانوا انتهازيين غير منضبطين، ولم يكونوا حتى ماويين متعصبين. فقد أوعز إليهم ماو بالتوحد وتقاسم السلطة، ولكنهم لم ينفذوا هذا الأمر، إلا في الكلام. وكانوا، من الناحية العملية، يهاجمون بعضهم بعضاً بأقوال ماو، مستغلين بخبث غموض تعاليمه ـ كان من السهل اختيار أحد أقوال ماو، ليناسب أي وضع، أو حتى يناسب الطرفين في جدال واحد. كان ماو يعرف أن «فلسفته» الفجة، أخذت ترتد إلى نحره، ولكنه لا يستطيع أن يتدخل تدخلاً صريحاً، دون أن يفقد احتجابه الغامض.

بغية تدمير مجموعة «٢٦ آب/ أغسطس»، كانت مجموعة «تشينغدو الحمراء» تعرف أن عليها إسقاط الزوجين تنغ. كانوا يعرفون صيت الزوجين تنغ في الانتقام وشهوتهما للسلطة، اللذين كانا موضع نقاش واسع، بأصوات خافتة من جانب البعض، وبشكل سافر من جانب البعض الآخر. ولم تكن تزكية ماو للزوجين كافية لتطويع مجموعة «تشينغدو الحمراء». وعلى هذه الخلفية، أرسلت «تشينغدو الحمراء»

طلابها إلى بكين. وقد وعد شو إن لاي باستقبالهم، لأن «تشينغدو الحمراء» بوصفها أحد معسكري «المتمردين» في سيشوان، كان لديها ملايين الأنصار.

تبعتْ أمي الحشد الممثل لمجموعة «تشينغدو الحمراء»، عندما كان يشار إليهم بالمرور، عبر حاجز التذاكر، إلى الرصيف، حيث قطار بكين السريع ينفث دخانه متقطعاً. كانت تحاول تسلق إحدى العربات معهم، حين أوقفها أحد الطلاب. وصرخ: «من أنتِ؟». لم تكن أمي تبدو طالبة وهي في الخامسة والثلاثين من العمر. وأردف: «إنكِ لستِ منا. انزلي!».

تشبثت أمي بمقبض الباب بقوة. وصاحت: «أنا أيضاً ذاهبة إلى بكين للاستئناف ضد الزوجين تنغ! إني أعرفهما سابقاً». نظر الشاب إليها غير مصدق. ولكن من خلفه جاء صوتان، صوت رجل وصوت امرأة: «دعها تدخل! ولنسمع ما لديها!».

حُشرت أمي في المقصورة المكتظة، وأُجلست بين الرجل والمرأة. قدما نفسيهما بوصفهما من كوادر «تشينغدو الحمراء». كان اسم الرجل يونغ، واسم المرأة يان. وكان الاثنان طالبين في جامعة تشينغدو.

تبينت أمي، مما قالاه، أن الطلاب لا يعرفون الكثير عن الزوجين تنغ. أخبرتهم بما استطاعت أن تتذكره عن بعض من حالات الاضطهاد الكثيرة، في يي بِين، قبل «الثورة الثقافية»، وعن محاولة السيدة تنغ إغواء أبي، في عام ١٩٥٣، وعن زيارة الزوجين الأخيرة لأبي، ورفضه التعاون معهما. قالت إن الزوجين تنغ دبرا اعتقال أبي، لأنه كتب إلى الرئيس ماو معارضاً تعيينهما قائدي سيشوان الجديدين.

وعد يان ويونغ بأخذها إلى لقائهم مع شو إن لاي. وطول الليل، جلست أمي صاحية تماماً، تخطط ما ينبغي أن تقوله له، وكيف.

عندما وصل الوفد محطة بكين، كان ممثل لرئيس الوزراء في انتظارهم. نُقلوا إلى دار ضيافة حكومية، وقيل لهم إن شو سيقابلهم مساء اليوم التالي.

في اليوم التالي، حين كان الطلاب في الخارج، أعدت أمي نداء مكتوباً إلى شو. فربما لا تحظى بفرصة الحديث معه، وفي كل الأحوال، كان من الأفضل مخاطبته كتابة. وفي الساعة التاسعة مساء، ذهبت مع الطلاب إلى «قاعة الشعب

الكبرى»، في الجانب الغربي من ميدان تيانانمين. كان اللقاء في «غرفة سيشوان»، التي ساعد أبي على تزيينها، عام ١٩٥٩. جلس الطلاب على شكل قوس، في مواجهة رئيس الوزراء. لم تكن هناك مقاعد كافية، فافترش البعض الأرض، المغطاة بالسجاد. كانت أمي جالسة في الصف الخلفي.

كانت تعرف أن كلمتها يجب أن تكون مختصرة وفعالة، وقد تمرنت عليها ثانية، في ذهنها، حين بدأ اللقاء. كانت أكثر انشغالاً من أن تسمع ما كان الطلاب يقولونه. لاحظت فقط كيف كانت ردّة فعل رئيس الوزراء. كان يهزّ رأسه، بين حين وآخر، متلقياً. لم يشر قط إلى موافقته أو اعتراضه. كان يستمع فقط، وفي بعض الأحيان، كان يطلق تعليقات عامة عن «السير وراء الرئيس ماو» و«ضرورة الوحدة». وكان أحد المساعدين يسجل ملاحظاته.

فجأة، سمعتْ رئيس الوزراء يقول، كأنها الخاتمة: «أي شيء آخر؟». قفزت من مقعدها: «يا رئيس الوزراء، لدي شيء أقوله».

رفع شو عينيه. كان واضحاً أن أمي ليست طالبة. سأل: «مَنْ أنتِ؟». أعطت أمي اسمها ومركزها، وأردفت على الفور: «زوجي اعتقل بوصفه «معادياً للثورة في العمل». وأنا هنا للسعي إلى إنصافه». ثم أعطت اسم أبي ومركزه.

توقدت عينا شو. فقد كان أبي في مركز هام. قال: «يستطيع الطلاب أن يذهبوا. سأتكلم معك على انفراد».

كانت أمي تتوق إلى التحدث مع شو على انفراد، ولكنها قررت أن تضحي بهذه الفرصة من أجل هدف أهم. فبادرت إلى القول: «يا رئيس الوزراء، بودي أن يبقى الطلاب، ليكونوا شهودي». وإذ قالت ذلك، سلمت عريضتها إلى الطالب الجالس أمامها، الذي مررها إلى شو.

ردّ رئيس الوزراء: «حسناً. هات ما عندك».

بسرعة، ولكن بوضوح، قالت أمي إن أبي اعتقل لما كتبه في رسالة إلى الرئيس ماو. وإن أبي اعترض على تعيين الزوجين تنغ قائدين جديدين لسيشوان، بسبب سجلهما في إساءة استخدام السلطة، كما شهده في يي بِين. إلى جانب ذلك، قالت باختصار: «إن رسالة زوجي تضمنت، أيضاً، أخطاء جسيمة، إبان الثورة الثقافية».

فكرت بدقة في الطريقة التي تصوغ بها ذلك. كان عليها أن تقدم تقريراً صادقاً إلى شو، ولكنها لم تكن قادرة على تكرار كلمات أبي حرفياً، خوفاً من «المتمردين». كان عليها أن تكون دقيقة قدر الإمكان: «كانت لدى زوجي بعض الآراء الخاطئة، المؤدية إلى الخطر. ولكنه لم ينشر آراءه في العلن. كان ملتزماً بميثاق الحزب الشيوعي، وينقل أفكاره إلى الرئيس ماو. وبموجب الميثاق، فإن هذا حق مشروع للعضو الحزبي، وينبغي أن لا يستخدم ذريعة لاعتقاله. وأنا هنا للمناشدة من أجل إنصافه».

حين التقت عينا أمي بعيني شو إن لاي، رأت أنه فهم تماماً المضمون الحقيقي لرسالة أبي، ومأزقها في عدم المقدرة على إعلانه. نظر إلى عريضة أمي، ثم التفت إلى مساعد يجلس وراءه، وهمس شيئاً. كانت القاعة هادئة هدوءاً قاتلاً. وكانت كل الأنظار مسلطة على رئيس الوزراء.

سلَّم المساعد إلى شو أوراقاً موسومة بعنوان مجلس الدولة (الحكومة). بدأ شو يكتب بطريقته المتعثرة قليلاً ـ كُسرت ذراعه اليمنى قبل سنوات، عندما سقط عن حصانه في ينان. حين انتهى، أعطى الورقة إلى المساعد الذي تلاها.

«أولاً: إن تشانغ شو ـ يو، بوصفه عضواً في الحزب الشيوعي، من حقه أن يكتب إلى قيادة الحزب. وأياً كانت الأخطاء الفادحة التي تتضمنها الرسالة، فلا يجوز استخدامها لاتهامه بمعاداة الثورة. ثانياً: إن تشانغ شو ـ يو، بوصفه نائب مدير قسم الشؤون العامة لإقليم سيشوان، عليه أن يخضع نفسه لتحقيق الشعب ونقده. ثالثاً: أي حكم نهائي على تشانغ شو ـ يو، يجب أن ينتظر حتى انتهاء «الثورة الثقافية». شو إن لاي».

فقدت أمي القدرة على النطق، من فرط الارتياح. لم تكن الملاحظة موجهة إلى القادة الجدد في سيشوان، كما هو الأمر في الأحوال العادية، وبالتالي لم تكن ملزمة بتسليمها إليهم، أو إلى أي أحد. كان غرض شو، أن تحتفظ بها، وتعرضها حيث ترى عرضها نافعاً.

كانت يان ويونغ يجلسان إلى يسار أمي. وحين التفتتْ إليهما، رأتهما يبتسمان بفرح.

في القطار، عادت أمي إلى تشينغدو، بعد يومين، ملازمة يان ويونغ، طول

الوقت، لأنها كانت قلقة أن يعرف الزوجان تنغ بأمر الورقة، فيرسلان أعوانهما لخطف الورقة وحاملتها. يان ويونغ أيضاً كانا يعتقدان أن من الضروري أن تبقى معهما: «تحوطاً من أن تختطفك مجموعة «٢٦ آب/أغسطس» ». وأصرا على مرافقتها إلى شقتنا من المحطة. حيث قدمت إليهما جدتي فطائر من لحم الخنزير والثوم، التهماها بلمح البصر.

استلطفتُ يان ويونغ على الفور. «متمردان»، لكنهما أبديا الطيبة والود والدفء مع عائلتي! كان ذلك أمراً لا يصدق. واستطعتُ أن أرى، في الحال، أنهما عاشقان: الطريقة التي كانا يتبادلان بها النظرات، الطريقة التي كانا يتداعبان ويتلامسان بها، كانت غريبة جداً، إزاء وجودهما مع آخرين. وسمعتُ جدتي تقول لأمي، إنه سيكون لطيفاً أن تقدم إليهما هدايا عند زواجهما. قالت أمي إن هذا سيكون مستحيلاً وسيسبب لهما متاعب، إذا أصبح معروفاً. فقبول «رشاوى» من مناصر للطريق الرأسمالي، جريمة ليست بالهينة.

كانت يان في الرابعة والعشرين، وفي السنة الثالثة من دراسة المحاسبة، في جامعة تشينغدو. كان يطغى على وجهها الحيوي زوج من النظارات السميكة الإطار. كانت تضحك، في أحيان كثيرة، دافعة رأسها إلى الوراء، ضحكة دافئة جداً. في الصين، تلك الأيام، كانت الجاكيتات والسراويل بالأزرق الأدكن أو الرمادي، هي الزي المعتاد للرجال والنساء والأطفال. لم يكن مسموحاً بأي تصاميم في الأزياء. ورغم هذا التماثل، كان بعض النساء يتمكن من ارتداء ملابسهن في طريقة تنم على العناية والحرص المدروسين. ولكن ليست يان منهن، إذ كانت دائماً تدخل أزرارها في غير عراها، وكان شعرها مربوطاً إلى الوراء، كيفما اتفق. وبدا أنه حتى الحب، لم يتمكن من حملها على الاهتمام بمظهرها.

كان يونغ يبدو أكثر وعياً للأزياء. ينتعل صندلاً من القش، يكشف عنه سرواله الملفوف إلى الأعلى. وصنادل القش كانت مرغوبة بين الطلاب، لارتباطها بالفلاحين. كان يونغ يبدو شديد الذكاء والحساسية. وكنتُ مفتونة به.

بعد وجبة هانئة، استأذن يونغ ويان بالانصراف. رافقتهما أمي، نازلة معهما السلم، وقد همسا لها، أنها يجب أن تحتفظ بورقة شو إن لاي في مكان أمين. لم تقل أمي شيئاً لي أو لإخوتي، عن لقائها مع شو.

في ذلك المساء، ذهبت أمي لرؤية زميل قديم، وأرته ورقة شو. كان تشين مو يعمل مع والديَّ، في يي بِين، في أوائل الخمسينات، وكان منسجماً معهما. كما تمكن من إقامة علاقة طيبة بالزوجين تنغ، وحين رُدَّ إليهما اعتبارهما، وضع رهانه عليهما. طلبت أمي منه، بعينين باكيتين، أن يساعد على الإفراج عن أبي، وفاء لعلاقاتهما في الأيام الخوالي، وقد وعد بأن يتكلم في ذلك مع الزوجين تنغ.

مر الوقت، ثم في نيسان/أبريل، ظهر أبي فجأة من جديد. شعرتُ بارتياح وسعادة بالغين لرؤيته، ولكن فرحتي تحولت، في الحال تقريباً، إلى رعب. كان هناك شيء غريب في عينيه. لم يقل أين كان، وحين كان يتكلم كنتُ بالكاد أفهم كلماته. لم يذق طعم النوم أياماً وليالي متتالية، يذرع الشقة جيئة وذهاباً، ويتحدث مع نفسه. وذات يوم، أجبر العائلة كلها على الخروج والوقوف تحت المطر المنهمر، قائلاً لنا إن هذا من أجل «معرفة العاصفة الثورية». وفي يوم آخر، بعد استلام مرتبه، رماه في موقد المطبخ، قائلاً إن هذا من أجل «القطيعة مع الملكية الخاصة». ثم أدركنا الحقيقة المرعبة: لقد جن أبي.

أمي أصبحت محور جنونه. كان يثور غاضباً عليها، يسميها «مخزية» و«جبانة» ويتهمها بـ «بيع روحها». ثم، دون سابق إنذار، كان يهيم بها أمامنا هياماً محرجاً ـ يردد المرة تلو الآخرى كم يحبها، وكيف أنه كان زوجاً غير جدير بها، ويتوسل إليها: «سامحيني وعودي إليَّ».

في اليوم الأول على عودته، نظر إلى أمي بارتياب، وسألها ماذا فعلت أثناء غيابه. أخبرته أنها ذهبت إلى بكين، لتقديم مناشدة من أجل الإفراج عنه. هز رأسه غير مصدق، وطلب منها أن تقدم دليلاً. قررت أن لا تخبره عن رسالة شو إن لاي. كانت تستطيع أن ترى أنه لم يكن سوياً، وخشيت أن يسلم الرسالة، حتى إلى الزوجين تنغ، إذا أمره «الحزب» بذلك. لم تتمكن من استشهاد يان ويونغ على ما تقول، إذ كان أبي يعتقد أن من الخطأ الارتباط بأحد أجنحة الحرس الأحمر.

دأب أبي على العودة إلى تشكيكه بشكل مهووس. كل يوم كان يستجوب أمي، وكانت تناقضات بيِّنة تظهر في قصتها. تعاظم شك أبي وتشوشه. وبدأ غضبه على أمي يقرب من العنف. أردنا، أنا وإخوتي، أن نساعد أمي، وحاولنا أن نجعل

قصتها، التي لم نكن نحن أنفسنا نعرفها بوضوح، تبدو أكثر إقناعاً. وبالطبع، حين بدأ أبي يستجوبنا، أصبحت القصة مشوشة أكثر.

ما حدث أنه حين كان أبي في السجن، دأب المحققون على إخباره أن زوجته وعائلته ستهجرانه، إذا لم يكتب «اعترافه». كان الإصرار على كتابة اعترافات ممارسة مألوفة. فإكراه الضحايا على الإقرار بـ «ذنوبهم»، كان بالغ الأهمية في تحطيم معنوياتهم. ولكن أبي قال إنه ليس هناك ما يعترف به، ولن يكتب أي شيء.

ثم بدأ المحققون معه يخبرانه أن أمي أنكرته. وعندما طلب السماح لها بزيارته، قيل له إنه أذن لها ولكنها رفضت، لكي تبين أنها «ترسم خطاً» فاصلاً بينها وبينه. وحين أدرك المحققون أن أبي بدأ يسمع أصواتاً، وهو دليل على الإصابة بانفصام الشخصية، لفتوا انتباهه إلى غمغمة خافتة لحديث من الغرفة المجاورة، قائلين إن أمي موجودة هناك، ولكنها لا تريد أن تراه، إلا إذا كتب اعترافه. وكان تمثيل المحققين بارعاً، بحيث إن أبي ظن أنه سمع صوت أمي حقاً. بدأ يفقد عقله، ولكنه مع ذلك رفض كتابة الاعتراف.

ولدى الإفراج عنه، قال له أحد المحققين إنهم سمحوا له بالعودة إلى البيت، ليكون تحت أنظار زوجته، «التي كلفها الحزب بمراقبتك». وقيل له إن البيت سيكون سجنه الجديد. لم يعرف سبب الإفراج عنه بصورة مفاجئة، وفي بلبلته، تشبث بهذا التفسير.

لم تعرف أمي شيئاً عما حدث له في السجن. وحين سألها أبي لماذا أفرج عنه، لم تتمكن من إعطائه جواباً مقنعاً. لم تكن عاجزة عن إخباره برسالة شو إن لاي فحسب، بل لم تتمكن أيضاً من ذكر زيارتها لتشين مو، الذي كان الساعد الأيمن للزوجين تنغ. ما كان أبي ليطيق أن «تستجدي» زوجته «معروفاً» من الزوجين تنغ. وفي هذه الحلقة الجهنمية، تفاقم مأزق أمي وجنون أبي، وكانا يتغذيان أحدهما بالآخر.

حاولت أمي تهيئة علاج طبي له. ذهبت إلى المستشفى الملحق بالحكومة الإقليمية القديمة. حاولت لدى المصحات العقلية. ولكن العاملين في مكاتب التسجيل، كانوا يهزون رؤوسهم ما أن يسمعوا اسم أبي. لم يكونوا قادرين على إدخاله، دون موافقة من السلطات، ولم يكونوا مستعدين لطلبها بأنفسهم.

ذهبت أمي إلى مجموعة «المتمردين»، المهيمنة في قسم أبي، وطلبت منهم التخويل بمعالجته. كانت هذه هي المجموعة التي تقودها السيدة شاو، وهي بأيدي الزوجين تنغ دون منازع. زمجرت السيدة شاو في وجه أمي، قائلة إن أبي يتظاهر بالمرض العقلي للإفلات من عقابه، وإن أمي تساعده مستخدمة أصولها الطبية (كان زوج أمها الدكتور شيا طبيباً). وقال أحد «المتمردين»، إن أبي «كلب سقط في الماء، ويجب أن يجلد ويضرب، دون شفقة على الإطلاق»، مستشهداً بشعار رائج يبيح قسوة «الثورة الثقافية» بلا رحمة.

وبتعليمات من الزوجين تنغ، لاحق «المتمردون» أبي بحملة من الملصقات الجدارية. يبدو أن الزوجين تنغ، نقلا إلى زوجة ماو «الكلمات الإجرامية»، التي استخدمها أبي في الاجتماعات التنديدية، وفي حديثه معهما، وفي رسالته إلى ماو. واستناداً إلى الملصقات، فإن زوجة ماو، نهضت واقفة من شدة الغضب وقالت: «إن السجن، بل حكم الإعدام قليل في حق الرجل الذي يجرؤ على التهجم على القائد العظيم، على هذا النحو الصارخ! ويجب أن يعاقب عقاباً شديداً، قبل أن ننتهي منه!».

كان الرعب، الذي تثيره مثل هذه الملصقات الجدارية في نفسي، هائلاً. لقد أدانت السيدة شينغ أبي! وهذه بالتأكيد نهايته. ولكن المفارقة أن إحدى الصفات الشريرة للسيدة شينغ ساعدتنا، في الحقيقة: كانت زوجة ماو مهتمة بثاراتها الشخصية، أكثر من اهتمامها بقضايا حقيقية، ولأنها لم تكن تعرف أبي، ولم تكن لديها أحقاد شخصية ضده، فإنها لم تلاحقه. لم يكن لنا أن نعرف ذلك، وحاولتُ أن أجد العزاء في الفكرة القائلة، إن تعليقها المنقول، ربما كان مجرد شائعة. نظرياً، كانت الملصقات الجدارية غير رسمية، لأنها تكتب بيد «الجماهير»، وليست جزءاً من الإعلام الرسمي. ولكني في قرارة نفسي، كنت أعرف أن ما تقوله الملصقات صحيح.

وبسموم الزوجين تنغ، والإدانة التي عبرت عنها زوجة ماو، أصبحت اجتماعات «المتمردين» التنديدية أكثر بشاعة، رغم أنه كان لا يزال مسموحاً لأبي بالعيش في البيت. ذات يوم، عاد وقد أصيبت إحدى عينيه بأذى بالغ. وفي يوم آخر، أوقف على متن شاحنة تسير ببطء، حيث كان يجري استعراضه في الشوارع. وكانت لافتة ضخمة معلقة بسلك رفيع، يغور في عنقه، وذراعاه ملويتان بعنف، وراء ظهره. كان يصارع لإبقاء رأسه مرفوعاً، فيما كان بعض «المتمردين» يدفعونه بقوة. أشد ما

أحزنني أنه بدا غير مكترث لألمه الجسدي. ففي جنونه، بدا عقله منفصلاً عن جسمه.

مزق كل الصور الفوتوغرافية، التي يظهر فيها الزوجان تنغ، في ألبوم العائلة. وأحرق أغطيته وملاءاته والكثير من ملابس العائلة. وحطم قوائم الكراسي والمناضد، وأحرقها أيضاً.

ذات عصر، كانت أمي تستريح على سريرهما، وكان أبي يستلقي على كرسيه الخيزراني المفضل، في مكتبته، حين وثب، فجأة، واندفع إلى غرفة النوم. سمعنا أصوات ضرب، فاندفعنا وراءه، ووجدناه ماسكاً بخناق أمي. صرخنا وحاولنا أن نسحبه بعيداً عنها. بدا أن أمي ستختنق. ولكنه رفع يديه عنها متنخُعاً، ومشى خارجاً من الغرفة.

نهضت أمي جالسة ببطء، وكان وجهها رمادياً. غطت أذنها اليسرى بيدها. لقد أيقظها أبي بضربة على جانب الرأس. كان صوتها ضعيفاً، ولكنها كانت هادئة. قالت لجدتي الناشجة: «لا تقلقي، إني بخير». ثم التفتت إلينا، وقالت: «اطمئنوا إلى أبيكم، ثم اذهبوا إلى غرفكم». اتكأت على المرآة البيضوية، المؤطرة بخشب الكافور، والتي كانت تشكل اللوح الرأسي للسرير. في المرآة، رأيتُ يدها اليمنى تقبض على الوسادة. جلستْ جدتي عند باب والديَّ، طول الليل. أنا أيضاً لم أتمكن من النوم. ماذا سيحدث، لو هجم أبي على أمي، وبابهما مغلق؟

أصيبت أذن أمي اليسرى بتلف دائم، وأصبحت أذناً طرشاء بالكامل تقريباً. قررتْ أن البقاء في البيت خطر عليها، وفي اليوم التالي، ذهبتْ إلى قسمها لإيجاد مكان تنتقل إليه. كان «المتمردون» هناك متعاطفين للغاية. أعطوها غرفة في كوخ البستاني، في ركن الحديقة. كانت غرفة صغيرة للغاية، مساحتها حوالي ٨ × ١٠ أقدام. تتسع لسرير ومنضدة فقط، دون أن يبقى مكان حتى للمشي بينهما.

تلك الليلة، نمتُ هناك مع أمي وجدتي وشياو ـ فانغ، نمنا محشورين معاً على السرير. لم نتمكن من مد سيقاننا، أو من التقلب. ازداد النزيف من رحم أمي سوءاً. كنا خائفين جداً، لأننا إذ انتقلنا حديثاً إلى هذا المكان الجديد، فإنه لم يكن لدينا موقد، ولم نتمكن من تعقيم الحقنة والإبرة، وبالتالي لم نستطع حقنها بها. في النهاية، كنتُ متعبة حتى إني نمتُ نوماً متقطعاً. ولكني كنت أعرف أن جدتي وأمي، لم يغمض لهما جفن.

خلال الأيام القليلة التالية، فيما استمر جن ـ منغ في العيش مع أبي، بقيتُ أنا في مكان أمي الجديد مساعدة على العناية بها. كان يعيش في الغرفة المجاورة قيادي «متمرد» شاب، من منطقة أمي. امتنعتُ عن تحيته، لأنني لم أكن متأكدة إن كان يريد أن يكلمه أحد من عائلة مناصر للطريق الرأسمالي، ولكن ما أدهشني أنه كان يحيينا بشكل عادي عندما نلتقي، ويعامل أمي بأدب، رغم أنه كان جامداً بعض الشيء. كان ذلك مبعث ارتياح بالغ، بعد البرود الصارخ، الذي أبداه «المتمردون» في قسم أبي.

ذات صباح، بعد يومين على انتقالنا، كانت أمي تغسل وجهها، تحت طرف السطح البارز، لأنه لم يكن هناك مكان في الداخل، حين ناداها هذا الرجل، وسألها إن كانت ترغب في تبادل الغرف. كانت مساحة غرفته مثلي مساحة غرفتنا. وانتقلنا عصر ذلك اليوم. كما ساعدنا على الحصول على سرير آخر، لكي نستطيع أن ننام براحة نسبية. تأثرنا بذلك تأثراً بالغاً.

كان لدى هذا الشاب حَوَل حاد في عينيه، وله صديقة حلوة جداً، كانت تقضي الليل معه، الأمر الذي كان غير مسموع به تقريباً في تلك الأيام. لم يكن يبدو عليهما أنهما يباليان، إن عرفنا ذلك. بالطبع، لم يكن أنصار الطريق الرأسمالي في وضع يتيح لهم إطلاق الأقاويل. حين كنتُ ألتقي بهما، صباحاً، كانا دائماً يبتسمان لي ابتسامة رقيقة جداً، تقول لي إنهما في منتهى السعادة. أدركتُ، حينذاك، أنه حين يكون الناس سعداء، فإنهم يصبحون طيبين.

حين تحسنت صحة أمي، عدتُ إلى أبي. كانت الشقة في حالة مرعبة: كانت النوافذ محطمة وكان هناك قطع من الأثاث المحروق والملابس المحروقة، في كل مكان على الأرض. بدا أبي غير مكترث، سواء كنت هناك أم لا. كان يدور ويدور، بلا توقف. في الليل، كنت أقفل باب غرفة نومي بالمزلاج، لأنه لا يستطيع النوم ويصر على الحديث معي، دون انقطاع، ودون أن يكون مفهوماً. ولكن كان هناك نافذة صغيرة، فوق الباب، لا يمكن إغلاقها. وذات ليلة، استيقظتُ فرأيته ينزلق عبر الفتحة الصغيرة، ويقفز برشاقة إلى الأرض. ولكنه لم يعرني انتباهاً. كان يلتقط دون تعيين قطعاً مختلفة من الأثاث الماهوغاني الثقيل، ويتركها تسقط دون عناء، على ما يبدو. في جنونه، أصبح خفيف الحركة، وقوياً فوق طاقة البشر. كان البقاء معه كابوساً. ومرات عديدة، حاولتُ الهرب إلى أمي، ولكني لم أتمكن من حمل نفسي على تركه.

صفعني عدة مرات، الأمر الذي لم يفعله قط من قبل، وكنت أذهب واختبىء في الحديقة الخلفية، تحت شرفة الشقة. وفي برد ليالي الربيع، كنت أصغي بيأس إلى الصمت في الشقة، الذي كان يعني خلوده إلى النوم.

ذات يوم، افتقدتُ حضوره. تملكني إحساس بالشؤم، واندفعت خارجة من الباب. كان جار، يسكن في الطابق العلوي، على السلم. كنا قد توقفنا عن تحية أحدنا للآخر، منذ زمن، لتجنب الوقوع في متاعب، ولكنه هذه المرة قال: «رأيتُ أباك يصعد إلى السطح».

كانت عمارتنا تتألف من خمسة طوابق. أسرعتُ إلى الطابق العلوي. وعلى مُنبسط السلم، إلى اليسار، كانت نافذة صغيرة تطل على السطح المنبسط، المكسو بالألواح الخشبية، للعمارة المجاورة، ذات الطوابق الأربعة. كان للسطح سياج حديدي حول الحافة. وفيما كنتُ أحاول التسلق عبر النافذة، رأيت أبي على حافة السطح. تهيأ لي أنه يرفع ساقه اليسرى فوق السياج.

«بابا»، ناديت بصوت مرتجف، رغم أنني كنت أحاول أن أجعله يبدو طبيعياً. غريزتي قضت بأن لا أُخيفه.

توقف أبي والتفت نحوي: «ماذا تفعلين هنا؟».

ـ «أرجوك، تعال ساعدني على العبور من النافذة».

بطريقة ما، استدرجته بعيداً عن حافة السطح. اختطفتُ يده وقدته إلى بسطة السلم. كنت أرتعش. بدا أن شيئاً مسَّه، وحل تعبير طبيعي تقريباً محل لا مبالاته الخاوية، عادة، أو حركة عينيه الدائرية الانطوائية الحادة. حملني أسفل السلم إلى أريكة، وجاء بمنشفة، يكفكف بها دموعي. لكن علامات العودة إلى حالته الطبيعية، كانت قصيرة العمر. وقبل أن أفيق من صدمتي، كان عليّ النهوض والهرب، لأنه رفع يده هاماً بضربي.

بدلاً من السماح لأبي بتلقي العلاج الطبي، وجد «المتمردون» في جنونه مصدراً للتسلية. وكان يظهر بين يوم وآخر، مسلسل من الملصقات، عنوانه «القصة الداخلية للمجنون تشانغ». وكان أصحاب المسلسل، وهم من قسم أبي، يسخرون منه ويهجونه. والملصقات تُعلق في بقعة بارزة خارج القسم مباشرة، وتجتذب حشوداً من

المتذوقين. أجبرتُ نفسي على قراءتها، رغم إدراكي لنظرات القراء الآخرين، الذين كان كثيرون منهم يعرفون مَنْ أنا.

سمعتهم يهمسون لمن كانوا لا يعرفون هويتي. كان قلبي ينتفض غضباً وألماً، لا يطاق على أبي، لكنني كنت أعرف أن تقارير عن ردات أفعالي ستصل إلى مضطهدي أبي. كنتُ أريد أن أبدو هادئة، وأدعهم يعرفون أنهم لا يستطيعون أن يحطموا معنوياتنا. لم يتملكني خوف أو إحساس بالمهانة، لم يكن عندي سوى الازدراء لهم.

ما الذي حوَّل البشر إلى وحوش؟ ما سبب كل هذه الهمجية، التي لا معنى لها؟ في هذه الفترة، بدأ الوهن يعتري تفانيَّ في سبيل ماو. في السابق، حين كان الآخرون يتعرضون للاضطهاد، لم أكن قادرة على التوثق بشكل مطلق من براءتهم. ولكني كنتُ أعرف والديَّ. أخذتْ الشكوك في أن ماو معصوم، تتسلل إلى ذهني، ولكني في تلك المرحلة، كنتُ، شأن كثيرين، أنحو باللائمة على زوجته و«سلطة الثورة الثقافية» بالدرجة الرئيسية. ماو نفسه، الأمبراطور الشبيه بالآله، كان لا يزال فوق الشبهات.

كنا نراقب أبي يتدهور عقلياً وجسدياً، مع كل يوم يمر. ذهبتْ أمي لتطلب المساعدة ثانية من تشين مو. وعد بأن يفعل ما يستطيع. انتظرنا، ولكن شيئاً لم يحدث: كان صمته يعني أنه لا بد قد فشل في حمل الزوجين تنغ على السماح لأبي بتلقي العلاج. وبدافع اليأس، ذهبتْ أمي إلى مقر مجموعة «تشينغدو الحمراء» لرؤية يان ويونغ.

كانت المجموعة المهيمنة في كلية الطب في سيشوان، جزءاً من «تشينغدو الحمراء». وكان لدى الكلية مستشفى للأمراض النفسية ملحق بها، وكلمة من مقر «تشينغدو الحمراء» تكفي لإدخال أبي. كانت يان ويونغ متعاطفين للغاية، ولكن عليهما أن يقنعا رفاقهما.

كان ماو قد أدان الاعتبارات الإنسانية، بوصفها «نفاقاً بورجوازياً»، ومن نافلة القول، أن لا رحمة إزاء «الأعداء الطبقيين». كان على يان ويونغ أن يقدما سبباً سياسياً لمعالجة أبي. ولديهما سبب وجيه: إنه يتعرض للاضطهاد على أيدي الزوجين تنغ. وكان أبي يستطيع أن يوفر الذخيرة ضدهما، وربما استطاع أن يساعد على إسقاطهما. وهذا بدوره يمكن أن يؤدي إلى انهيار مجموعة «٢٦ آب/ أغسطس».

كان هناك سبب آخر. قال ماو إن اللجنة الثورية الجديدة، يجب أن تضم «مسؤولين ثوريين»، فضلاً عن «المتمردين» وأفراد من القوات المسلحة. وكانت «تشينغدو الحمراء» و«٢٦ آب/أغسطس»، على السواء، تحاولان إيجاد مسؤولين، يمثلونهما في اللجنة الثورية لسيشوان. يضاف إلى ذلك، أن «المتمردين» بدأوا يكتشفون كم هي السياسة معقدة، وكم هي جسيمة مهمة الإدارة الفعلية. كانوا في حاجة إلى سياسيين أكفاء، يكونون مستشارين لهم. ورأت «تشينغدو الحمراء»، أن أبي مرشح مثالي لذلك، فأصدرت موافقتها على العلاج الطبي.

كانت «تشينغدو الحمراء» تعرف أن أبي شُجب، لأنه نطق كفراً ضد ماو والثورة الثقافية، وأن زوجة ماو أدانته. ولكن هذه المزاعم، لم يطلقها إلا أعداؤهم في الملصقات الجدارية، حيث كانت الحقيقة تختلط، في أحيان كثيرة بالأكاذيب. وبالتالي فإنهم يستطيعون نفيها.

أُدخل أبي مستشفى الأمراض العقلية، التابع لكلية الطب في سيشوان. كان المستشفى في ضواحي تشينغدو، تحيطه حقول الرز. وأوراق الخيزران تهفهف فوق الأسوار، المبنية من الآجر، والبوابة الرئيسية المصنوعة من الحديد. كانت بوابة أخرى تفصل فناء مسوراً، اخضرّ بالطحلب ـ منطقة سكن الأطباء والممرضات. في نهاية الفناء، سلم درجاته من الحجر الرملي الأحمر، يفضي إلى الجانب الخالي من الشبابيك لمبنى من طابقين، على جانبيه أسوار عالية صلدة. وكانت الدرجات الطريق الوحيد إلى الداخل ـ إلى ردهات الأمراض النفسية.

كان الممرضان، اللذان جاءا لأخذ أبي، يرتديان ملابس عادية، وقالا له إنهما يأخذانه إلى اجتماع تنديدي آخر. حين وصلوا إلى المستشفى، حاول أبي أن يهرب. سحباه إلى الأعلى، إلى غرفة صغيرة فارغة، وأغلقا الباب، لكي لا نضطر أنا وأمي إلى رؤيتهما، وهما يلبسانه سترة المجانين. كنت محطمة القلب لرؤيته يعامل هذه المعاملة الخشنة، ولكني أعرف أن ذلك لمصلحته.

كان المحلل النفساني، الدكتور سو، في الثلاثينات من العمر، ذا وجه رقيق وسلوك مهني. قال لأمي إنه سيمضي أسبوعاً في مراقبة أبي، قبل أن يعطي تشخيصه. وفي نهاية الأسبوع، توصل إلى النتيجة: انفصام الشخصية. عولج أبي

بالصدمات الكهربائية وحقن الأنسولين، التي من أجلها كان يتعين ربطه إلى السرير بإحكام. في غضون أيام، بدأ أبي يسترد قواه العقلية. وبعينين دامعتين، توسل إلى أمي أن تطلب من الطبيب تغيير العلاج: «إنه موجع جداً»، ثم انقطع صوته. وبعيد ذلك أردف: «إنه شعور أسوأ من الموت». ولكن الدكتور سو، قال إنه لا توجد طريقة أخرى.

عندما رأيت أبي في المرة التالية، كان يجلس على السرير، يتجاذب أطراف الحديث مع أمي ويان ويونغ. كانوا كلهم يبتسمون. بل كان أبي يقهقه. بدا في حالة جيدة من جديد. وكان عليَّ أن أتظاهر بالذهاب إلى دورة الماء، لمسح دموعي.

بناء على أوامر مجموعة «تشينغدو الحمراء»، كان أبي يتلقى تغذية خاصة، ولديه ممرضة متفرغة، وكان يان ويونغ يزورانه في أحيان كثيرة، مع أعضاء قسمه، الذين تعاطفوا معه، وأُخضِعوا أنفسهم لاجتماعات تنديدية، بقرار من مجموعة السيدة شاو. أحب أبي يان ويونغ كثيراً، ورغم أنه يمكن أن يكون ضعيف الملاحظة، لكنه أدرك أنهما عاشقان، وكان يداعبهما بلطف ساحر. كنتُ أستطيع أن أرى أنهما يجدان متعة عظيمة في ذلك. شعرتُ بأنه تبدد أخيراً الكابوس. الآن، وقد تماثل أبي من مرضه، نستطيع أن نواجه أية كوارث معاً.

دام العلاج حوالي أربعين يوماً. وفي منتصف تموز/يوليو، عاد إلى وضعه الطبيعي. سُمح له بمغادرة المستشفى، وأُخذ مع أمي إلى جامعة تشينغدو، حيث أُعطي لهما جناح، في فناء صغير قائم بذاته. ووضع حراس من الطلاب على البوابة. أُعطي أبي اسماً مستعاراً، وقيل له أن لا يخرج من الفناء أثناء النهار، حفاظاً على سلامته. كانت أمي تجلب وجباتهما من مطبخ خاص. وكان يان ويونغ يأتيان لزيارته كل يوم، وكذلك قادة «تشينغدو الحمراء»، الذين كانوا جميعاً في غاية الأدب معه.

كثيراً ما كنتُ أزور والديَّ هناك. تستغرق الرحلة بالدراجة الهوائية حوالي ساعة، على طرق ريفية مليئة بالحفر. بدا أبي هانئاً. كان يردد، المرة تلو الأخرى،امتنانه لهؤلاء الطلاب، لتمكينه من تلقي العلاج.

حين كان الليل يرخي سدوله، كان يسمح له بالخروج، ونذهب في جولات طويلة، هادئة، على الأقدام، حول الحرم الجامعي، يتبعنا عن بعد اثنان من الحراس. كنا نمشي على طرق، تحفها أحزمة من الياسمين. وكانت الزهور البيضاء،

التي تبلغ حجم قبضة اليد، تفوح شذاً قوياً في نسيم الصيف. بدا ذلك كأنه حلم من الصفاء، بعيداً عن الإرهاب والعنف. كنت أعرف أن هذا سجن أبي، ولكني تمنيت أن لا يخرج منه أبداً.

في صيف ١٩٦٧، أخذ صراع الأجنحة بين «المتمردين»، يتصاعد إلى حرب أهلية صغيرة في الصين. كان التناحر بين أجنحة «المتمردين» أقوى من غضبهم المفترض على أنصار الطريق الرأسمالي لأنهم، كانوا يقاتلون بالظفر والناب من أجل السلطة. وقاد كانغ شينغ، رئيس مخابرات ماو، وزوجة ماو، «سلطة الثورة الثقافية» في إذكاء الأحقاد، بتسمية صراع الأجنحة «امتداداً للصراع بين الشيوعيين والكومنتانغ»، دون أن يحددا أي مجموعة تمثل هؤلاء، وأي مجموعة تمثل أولئك. وأمرت «سلطة الثورة الثقافية»، الجيش بـ «تسليح «المتمردين» للدفاع عن النفس»، دون أن تبين له أي الأجنحة يدعم. فكان من المحتوم أن تقوم وحدات عسكرية مختلفة، بتسليح أجنحة مختلفة، على أساس أفضلياتها الخاصة.

كانت القوات المسلحة، أصلاً، في حالة من الغليان الشديد، لأن لن بياو كان منهمكاً في محاولة تطهير خصومه، وإحلال رجاله محلهم. في النهاية، أدرك ماو أنه لا يستطيع أن يغامر بانعدام الاستقرار في الجيش، ولجم لن بياو. ولكنه بدا موزع الفكر حول صراع الأجنحة بين «المتمردين». فمن جهة، كان يريد من الأجنحة أن تتوحّد، ليتمكن من إقامة صرح سلطته الشخصية. ومن الجهة الأخرى، بدا عاجزاً عن إخماد حُبِّه للصراع: فيما كانت حروب دموية تشتعل في الصين، قال: «إنه ليس بالأمر السيىء، أن يكتسب الشباب بعض الممارسة في استخدام السلاح ـ فنحن لم نشهد حرباً، منذ زمن طويل».

كانت المعارك ضارية، بصفة خاصة في سيشوان، ومرد ذلك جزئياً أن الإقليم هو مركز صناعة السلاح الصينية. كان الجانبان يأخذان دبابات وعربات مدرعة ومدافع من معامل الإنتاج والمستودعات. ومن الأسباب الأخرى، أن الزوجين تنغ شرعا في التخلص من خصومهما. وفي يي بِين، اندلع قتال شرس، بالبنادق والقنابل اليدوية ومدافع الهاون والرشاشات. وقتل أكثر من مئة شخص، في مدينة يي بِين وحدها. وفي النهاية، أُجبِرت مجموعة «تشينغدو الحمراء» على التخلي عن المدينة.

نزح الكثير إلى مدينة لوجو القريبة، التي كانت تخضع لسيطرة «تشينغدو

الحمراء». ودفع الزوجان تنغ بأكثر من ٥٠٠٠ عضو من أعضاء مجموعة «٢٦ آب/ أغسطس» إلى الهجوم على المدينة، والاستيلاء عليها، في نهاية المطاف، بعد مقتل زهاء ٣٠٠ شخص، وإصابة عدد أكبر بجروح.

في تشينغدو، كان القتال متقطعاً، ولم يشارك فيه إلا الأشد تعصباً. مع ذلك، رأيتُ مسيرات لعشرات الآلاف من «المتمردين»، وهم يحملون الجثث الدامية لأشخاص قتلوا في المعارك، ورأيت آخرين يطلقون نيران البنادق في الشوارع.

في هذه الأوضاع، طلبتْ مجموعة «تشينغدو الحمراء» ثلاثة أمور من أبي: أن يعلن تأييده لهم، وأن يحدثهم عن الزوجين تنغ، وأن يصبح مستشاراً، وبالتالي أن يمثلهم في لجنة سيشوان الثورية.

رفض أبي. وقال إنه لا يستطيع أن يدعم مجموعة ضد أخرى، ولا يستطيع أن يقدم معلومات عن الزوجين تنغ، لأن هذا قد يزيد الوضع تفاقماً، ويخلق مزيداً من الأحقاد. وقال أيضاً إنه لن يمثل جناحاً في لجنة سيشوان الثورية ـ بل إنه لا يرغب في أن يكون عضواً فيها.

في النهاية، تحولت الأجواء الودية إلى أجواء بشعة. كان زعماء مجموعة «تشينغدو الحمراء» منقسمين. قال أحد أجنحتهم إنهم لم يعرفوا أحداً عنيداً ومنحرفاً بهذا الشكل الذي لا يصدق. فقد اضطُهِد أبي، حتى كاد يلقى حتفه، ولكنه رفض أن يثأر آخرون له. وتجرأ على معارضة «المتمردين» الأقوياء، الذين أنقذوا حياته، ورفض عرضاً برد اعتباره وإعادته إلى السلطة. وصرخ البعض، بدافع الغضب والإحباط: «لنضربه ضرباً مبرحاً. ينبغي، على الأقل، أن نكسر بعضاً من عظامه، لتلقينه درساً!».

ولكن يان ويونغ وقفا إلى جانبه، وكذلك بعض الآخرين القلائل. قال يونغ: «إنه لمن النادر، أن نرى شخصية مثله. ليس صحيحاً أن نعاقبه. إنه لن ينحني، حتى إذا ضربناه حتى الموت. وتعذيبه سيلحق بنا الخزي والعار. فها هنا رجل مبدئي!».

رغم التهديد بالضرب، ورغم امتنان أبي لهؤلاء «المتمردين»، فإنه رفض العمل ضد مبادئه. وذات ليلة، في نهاية أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧، نقلته سيارة إلى البيت مع أمي. لم يعد في إمكان يان وتونغ حمايته. فرافقا والديَّ إلى البيت، وقالا وداعاً.

وقع والداي، في الحال، بأيدي الزوجين تنغ ومجموعة السيدة شاو. ورأى الزوجان تنغ، أنه من الواضح أن الموقف الذي يتخذه أعضاء الكادر من أبي، سيقرر مستقبلهم. وتلقت السيدة شاو وعداً بمنحها مركزاً، يعادل مركز أبي في لجنة سيشوان الثورية المقبلة، شريطة سحق أبي «حتى العظام». وقد أدين من أبدوا تعاطفاً مع أبي.

ذات يوم، جاء رجلان من مجموعة شاو إلى شقتنا، لأخذ أبي إلى «اجتماع». وعادا فيما بعد، ليقولا لي ولإخوتي، أن نذهب إلى قسمه لإعادته.

كان أبي يستند إلى جدار في فناء القسم، في وضع يبين أنه يحاول الوقوف. كان وجهه أسود وأزرق، وكان متورماً بشكل لا يصدق. كان رأسه نصف حليق، بطريقة فظة جداً.

لم يكن هناك اجتماع تنديدي. حين وصل إلى المكتب، دُفع، على الفور، إلى غرفة صغيرة، حيث انقض عليه ستة من الغرباء الضخام. انهالوا لكماً وركلاً على القسم السفلي من جسمه، ولا سيما أعضائه التناسلية. صبوا ماء في فمه وأنفه، عنوة، ثم داسوا على معدته. فاعتُصِر منه ماء ودم وبراز. وأغمي على أبي.

حين استعاد وعيه، كان العتاة قد اختفوا. شعر أبي بعطش شديد. جر نفسه خارج الحجرة، واغترف بعض الماء من بركة في الفناء. حاول أن يقف، ولكنه لم يتمكن من الوقوف على قدميه. كان أعضاء من مجموعة السيدة شاو في الفناء، ولكن أحداً منهم، لم يحرك ساكناً لمساعدته.

جاء العتاة من جناح «٢٦ آب/أغسطس»، في تشونغ كنغ، التي تبعد حوالي ١٥٠ ميلاً عن تشينغدو. وقعت هناك معارك واسعة، أطلقت فيها المدفعية الثقيلة قذائف عبر نهر يانغ تزي. وطُرِدت مجموعة «٢٦ آب/أغسطس» من المدينة، فهرب الكثير من الأعضاء إلى تشينغدو، حيث أُسكن البعض في مجمعنا. كانوا مهتاجين ومحبطين. وقالوا لمجموعة السيدة شاو، إن قبضاتهم «تحكُّهم، توقاً إلى إنهاء حياتهم النباتية وتذوق بعض الدم واللحم». فقدُم لهم أبي.

أبي، الذي لم يتأوه قط بعد حفلات الضرب السابقة، كان في تلك الليلة يصرخ من العذاب. وفي صباح اليوم التالي، انطلق أخي جين منغ، ابن الأربعة عشر عاماً، إلى مطبخ المجمع، فور فتح أبوابه، لاستعارة عربة، ينقله عليها إلى المستشفى.

وخرج شياو ـ هي، الذي كان في الثالثة عشرة، لشراء مقص، أزال به الشعر المتبقي من رأس أبي نصف الحليق. وحين رأى أبي رأسه الأصلع في المرآة، ابتسم ابتسامة ساخرة معلقاً: «هذا جيد. لن يتعين علي أن أقلق من شد شعري، في المرة القادمة، التي أذهب فيها إلى اجتماع تنديدي».

وضعنا أبي على العربة، وسحبناه إلى مستشفى قريب لأمراض العظام. هذه المرة، لم نكن في حاجة إلى تخويل لمعاينته، لأن علّته لا تمت بصلة إلى عقله. فالمرض العقلي منطقة حساسة جداً، والعظام ليس لها لون إيديولوجي. كان الطبيب في منتهى اللطف. وحين رأيتُ كيف كان يلمس أبي بعناية، شعرتُ بغصة. فلقد شاهدت الكثير من التدافع والصفع والضرب، والقليل من الرقة.

قال الطبيب إن اثنتين من أضلع أبي كُسرتا، ولكن ليس من الممكن تطبيبه، فإن هذا يتطلب موافقة. يضاف إلى ذلك، أن هناك من الإصابات الحادة، ما يفوق طاقة المستشفى على استقبالها. لقد كان المستشفى مزدحماً بمن جرحوا في الاجتماعات التنديدية وفي القتال بين الأجنحة المختلفة. ورأيتُ شاباً على نقالة، اختفى ثلث رأسه. قال لنا رفيقه، إن قنبلة يدوية أصابته.

ذهبت أمي لرؤية تشين مو، مرة أخرى، وطلبت منه أن يتوسط لدى الزوجين تنغ، للكف عن ضرب أبي. بعد أيام قليلة، قال تشين لأمي إن الزوجين تنغ مستعدان «للصفح» عن أبي، إذا كتب ملصقاً جدارياً يمتدح فيه «المسؤولين الجيدين» ليوجي - تنغ وجانغ شي ـ تنغ. وأكد أن «سلطة الثورة الثقافية»، جددت، لتوها، دعمها الصريح، والكامل لهما، وإن شو إن لاي، قال على وجه التحديد، إنه يعتبر الزوجين تنغ «مسؤولين جيدين». وقال تشين لأمي إن الاستمرار في معارضتهما، ستكون كـ «رمي بيضة على صخرة». حين نقلت أمي ذلك إلى أبي، قال: «ليس هناك شيء جيد يقال عنهما». توسلت إليه أمي باكية: «ولكن هذا ليس من أجل استرداد وظيفتك، أو حتى من أجل رد الاعتبار، إنه من أجل حياتك! ماذا يعني ملصق بالمقابلة بحياة؟» أجاب أبي: «إني لن أبيع روحي».

على امتداد أكثر من عام، حتى نهاية ١٩٦٨، كان أبي يُعتقل ثم يفرج عنه، مع معظم المسؤولين الكبار، سابقاً، في الحكومة الإقليمية. وكانت شقتنا تُدهم

باستمرار، وتقلب محتوياتها رأساً على عقب. كان الاعتقال يسمى «دورات لدراسة فكر ماو تسي تونغ». وكان الضغط في هذه «الدورات» شديداً، بحيث إن كثيرين استسلموا صاغرين للزوجين تنغ، وانتحر البعض. لكن أبي لم يرضخ قط لمطالب الزوجين تنغ، بالعمل معهما. وقال، فيما بعد، كم ساعده امتلاك عائلة تغمره بحبها. فأغلبية الذين انتحروا، فعلوا ذلك بعد أن تنكرت لهم عوائلهم. وكنا نحن نزور أبي في المعتقل، كلما سمح لنا بزيارته، الشيء الذي كان نادراً، وكنا نحيطه بالمحبة، كلما كان في البيت لفترة عابرة.

كان الزوجان تنغ، يعرفان حب أبي الكبير لأمي، وحاولا إسقاطه من خلالها. مورس عليها ضغط شديد للتبرؤ منه. كان لديها أسباب كثيرة للتحامل على أبي. فهو لم يدعُ أمها إلى زواجهما، وتركها تمشي مئات من الأميال، ولم يمنحها كثيراً من العطف في أزماتها. وفي يي بِين، رفض السماح لها بالذهاب إلى مستشفى أفضل، حين كانت في حالة ولادة ذات خطر. وكان دائماً يعطي الحزب والثورة أولوية عليها. ولكن أمي كانت تفهم أبي وتحترمه - وفوق كل شيء لم تكف قط عن حبه. وستقف، بصورة خاصة الآن، إلى جانبه. وما من معاناة، مهما بلغت، قادرة على حملها على التخلي عنه.

لم يأبه قِسْمُ أمي لأوامر الزوجين تنغ، بأن يذيقها الأمرّين، ولكن مجموعة السيدة شاو، كانت سعيدة بأن تأخذ هذه المهمة على عاتقها، وكذلك بعض المنظمات الأخرى، التي لم تكن لها علاقة بأمي. كان على أمي إجمالاً أن تتحمل زهاء مئة اجتماع تنديدي. وذات مرة، أُخذت إلى اجتماع حاشد، في منتزه الشعب، في مركز تشينغدو للتنديد بها. لم تكن لدى أغلبية المشاركين فكرة عمن هي أمي. ولم تكن قط مهمة بما فيه الكفاية، كي تستحق مثل هذا الحدث الجماهيري.

أُدينت أمي بصنوف شتى من التهم، ليس أقلها أن أباها كان جنرالاً من أسياد الحرب. لم يغير موت الجنرال شو، وهي بالكاد في السنة الثانية من عمرها، من الأمر شيئاً.

في تلك الأيام، كان لكل مناصر للطريق الرأسمالي فرقة أو أكثر، تحقق في تاريخه بتفصيل دقيق، لأن ماو أراد أن يفحص تاريخ كل من يعمل له فحصاً شاملاً. وفي أوقات مختلفة، كان لأمي أربع فرق مختلفة، تحقق معها، آخرها تضم حوالي

خمسة عشر شخصاً. وكانوا يُرسَلون إلى مناطق مختلفة من الصين.

ومن خلال هذه التحقيقات، أصبحت أمي تعرف أماكن أصدقائها القدماء وأقاربها، الذين فقدت الاتصال بهم منذ سنوات. كان معظم المحققين يذهبون للسياحة فقط، ويعودون دونما شيء تجريمي، ولكن مجموعة واحدة، عادت ومعها «خبر».

في جنجو، في أواخر الأربعينات، كان الدكتور شيا قد أجَّر غرفة للعميل الشيوعي يو ـ وو، الذي كان مسؤول أمي، وكانت مهمته جمع معلومات عسكرية، وتهريبها خارج المدينة. ومسؤول يو ـ وو نفسه، الذي كانت أمي تجهل حقيقته، حينذاك، كان يتظاهر بالعمل للكومنتانغ. وخلال الثورة الثقافية، تعرض لضغط شديد، للاعتراف بأنه كان جاسوساً للكومنتانغ، وقد عُذِّب تعذيباً وحشياً. في النهاية، «اعترف» ملفقاً حلقة من الجواسيس، بينهم يو ـ وو.

يو ـ وو أيضاً، تعرض لتعذيب وحشي. ولكي لا يورط آخرين، قتل نفسه، بقطع رسغيه. لم يأت على ذكر أمي. ولكن فريق التحقيق، عرف بعلاقتهما، وزعم أنها كانت عضواً في «حلقة الجواسيس».

نُبش ارتباطها بالكومنتانغ في سنوات المراهقة. وفُتح، من جديد، ملف كل الأسئلة التي أثيرت في عام ١٩٥٥. هذه المرة، لم تُطرح للحصول على إجابة. فقد أُمِرَت أمي، ببساطة، أن تعترف بأنها كانت جاسوسة للكومنتانغ. جادلت قائلة إن التحقيق الذي أُجري في عام ١٩٥٥، برأ ساحتها، ولكن قيل لها إن كبير المحققين حينذاك، السيد كوانغ، كان هو نفسه «خائناً، وجاسوساً للكومنتانغ».

كان الكومنتانغ قد سجنوا السيد كوانغ في شبابه. ووعد الكومنتانغ بالإفراج عن الشيوعيين في العمل السري، إذا وقعوا براءة تنشر في الجريدة المحلية. في البداية، رفض ورفاقه التوقيع، ولكن الحزب أصدر إليهم توجيهات بالقبول. قيل لهم إن الحزب يحتاج إليهم، وليس لديه اعتراض على نشر «تصريحات معادية للشيوعية»، غير صادقة. التزم السيد كوانغ بالأوامر، وأفرج عنه على هذا الأساس.

كثيرون آخرون فعلوا الشيء نفسه. وفي قضية مشهورة، من عام ١٩٣٦، أطلق سراح ٦١ شيوعياً معتقلاً بهذه الطريقة. كان أمر «النبذ» صادراً عن اللجنة المركزية للحزب، وقام ليو شاوتشي بتسليمه. البعض من هؤلاء الـ ٦١، أصبحوا، لاحقاً،

مسؤولين كباراً في الحكومة الشيوعية، بينهم نواب لرئيس الوزراء، ووزراء، وسكرتيرون أوائل لأقاليم. وخلال الثورة الثقافية، أعلنت زوجة ماو وكانغ شينغ، أنهم «٦١ خائناً وجاسوساً كبيراً». وقد صادق ماو شخصياً على هذا الحكم، وتعرض هؤلاء الأشخاص لأقسى صنوف التعذيب. وحتى الأشخاص، الذين تربطهم بهم علاقة بعيدة، وقعوا في مهالك.

على أثر هذه السابقة، اتهم «بالخيانة والتجسس» مئات الألوف من مناضلي العمل السري السابقين وأقربائهم، كانوا من أشجع الرجال والنساء، الذين ناضلوا من أجل الصين الشيوعية، اتُّهموا وعانوا الاعتقال واجتماعات الإدانة الوحشية والتعذيب. واستناداً إلى تقرير رسمي، صدر لاحقاً، فإن أكثر من ١٤ ألف شخص، ماتوا في إقليم يونان، المجاور لسيشوان. وفي إقليم هيبي، المحيط ببكين، تعرض ٨٤ ألف شخص للاعتقال والتعذيب، ومات ألوف. وعلمت أمي، بعد سنوات، أن أول صديق لها، ابن الخال هو، كان بينهم. كانت تعتقد أن الكومنتانغ أعدموه، ولكن أباه، في الحقيقة، اشترى حريته بسبائك ذهبية. ولم يقل أحد لأمي قط، كيف مات.

وقع السيد كوانغ تحت طائلة التهمة نفسها. وخلال التعذيب حاول الانتحار، دون نجاح. وزُعم أن إبراء ساحتها، في عام ١٩٥٦، يثبت أنها «مذنبة». تعرضت أمي لصور مختلفة من الاعتقال، في فترات متقطعة، لمدة عامين تقريباً ـ من أواخر ١٩٦٧ إلى تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٩. وكانت ظروفها تعتمد، إلى حد كبير، على حراسها. كان البعض طيبين معها ـ حين يكونون وحدهم. وقد هيّأت حارسة منهم، وهي زوجة ضابط عسكري، دواء لنزيف أمي. كما طلبت من زوجها، الذي كان قادراً على الوصول إلى إمدادات غذائية، مخصصة لأصحاب الامتيازات، أن يجلب لأمي بعض اللبن والبيض والفراخ، كل أسبوع.

وبفضل حراس طيبين مثلها، سُمح لأمي، عدة مرات، بالذهاب إلى البيت، لبضعة أيام. علم الزوجان تنغ بذلك، فاستُبدل بالحراس الطيبين امرأة متجهمة، لم تكن أمي تعرفها، وكانت تضطهدها وتعذبها للتسلية. وحين تستبد بها نزواتها، كانت تجبر أمي على الوقوف منحنية، طيلة ساعات، في الفناء. وفي الشتاء، كانت ترغمها على الركوع في ماء بارد، إلى أن يغمى عليها. وُضعِتْ أمي، مرتين، على ما يسمى

«منضدة النمر». كان على أمي أن تجلس على منضدة ضيقة، وساقاها ممدودتان أمامها. وكان جذعها يربط إلى عمود، وفخذاها تربطان إلى المنضدة، بحيث لا تستطيع أن تحرك ساقيها أو تثنيهما. ثم كانت كتل من الآجر، تدفع تحت كعبيها. كان الغرض تكسير الركبتين أو عظام الورك. قبل عشرين عاماً، في جنجو، هُددت أمي بذلك في غرفة التعذيب، لدى الكومنتانغ. وتعين وقف «منضدة النمر»، لأن الحارسة كانت تحتاج إلى رجال يساعدونها على دفع كتل الآجر. وقد ساعدوا على ذلك، على مضض، بضع مرات، ثم رفضوا أن تكون لهم علاقة بهذه العملية. بعد سنوات، أمست المرأة مختلّة عقلياً، وهي اليوم في مستشفى للأمراض العصبية.

وقَّعت أمي عدة «اعترافات»، تقر فيها بأنها متعاطفة مع «الطريق الرأسمالي»، ولكنها رفضت أن تنبذ أبي، ونفت كل الاتهامات بـ «التجسس»، التي كانت تعرف أنها ستؤدي، حتماً، إلى تجريم آخرين.

لم يكن يُسمح لنا، في أحيان كثيرة، بزيارة أمي، بل لم تكن لدينا فكرة عن مكانها. كنت أجوب الشوارع خارج الأماكن المحتملة، على أمل أن ألمحها.

مرت فترة، كانت معتقلة خلالها في سينما مهجورة، في شارع المتاجر الرئيسي. وهناك كان يسمح لنا، أحياناً، بتسليم شيء لها، إلى أحد السجانين، أو برؤيتها لبضع دقائق، ولكن ليس على انفراد. وحين يكون الحارس شرساً، علينا أن نجلس تحت أنظار جليدية. ذات يوم، في خريف ١٩٦٨، ذهبتُ هناك لتسليم شيء من الغذاء، وقيل لي إنه لا يمكن أن يُقبل. لم يقدَّم سبب لذلك. وأُبلغت بأن لا أرسل شيئاً بعد الآن. حين سمعتْ جدتي بذلك، أغمي عليها. ظنّت أن أمي لا بد أن تكون قد ماتت.

لم يكن في وسعنا أن نطيق عدم معرفة ما حدث لأمي. أخذتُ شقيقي، ابن الست سنوات شياو ـ فانغ، من يده وذهبتُ إلى السينما. ذرعنا الشارع جيئة وذهاباً، أمام البوابة. فتشنا صفوف النوافذ في الطابق الثاني. وباستماتة، صرخنا: «ماما! ماما!» بأعلى الصوت المرة تلو الأخرى. كان المارة يحملقون إلينا، ولكني لم أكترث. كنت أريد فقط رؤيتها، بكى أخي، ولكن أمي لم تظهر.

بعد سنوات، قالت لي إنها سمعتنا. بل إن حارستها، المضطربة عقلياً، فتحت النافذة قليلاً لتكون أصواتنا أوضح. قيل لأمي إنها تستطيع أن ترانا، في الحال، إذا وافقت على نبذ أبي، والاعتراف بالتجسس لحساب الكومنتانغ. «وبخلاف ذلك»، قالت الحارسة، «فربما لا تخرجين من هذا المبنى حية على الإطلاق». قالت أمي لا. وطول الوقت كانت تنشب أظفارها في راحتيها، محاولة حبس دموعها.

٢١ ـ «فحم في الثلج» ـ إخوتي وأصدقائي (١٩٦٧ ـ ١٩٦٨)

طول العامين ١٩٦٧ و١٩٦٨، فيما كان ماو يكافح لإقامة نظام سلطته الشخصية، أبقى ضحاياه، من أمثال والديَّ، في حالة من اللايقين والمعاناة. العذاب الإنساني، لم يكن يعنيه. فلقد كان الآخرون موجودين لمساعدته فقط على تحقيق مشاريعه الاستراتيجية. ولكن غرضه لم يكن الإبادة، وعائلتي، شأنها شأن الكثير من الضحايا الآخرين، لم تتعرض للتجويع عن عمد. فقد ظل والداي يتسلمان مرتبيهما، كل شهر، رغم أنهما لم يكونا يؤديان أي عمل، فضلاً عن أنهما كانا يتعرضان للإدانة والتعذيب. كان مطعم المجمّع الرئيسي، يعمل بصورة طبيعية، لتمكين «المتمردين» من مواصلة «ثورتهم»، ويجري إطعامنا، مثل عوائل أنصار الطريق الرأسمالي الآخرين. وكنا نحصل أيضاً من الدولة على الحصص الغذائية نفسها، التي توزع على الآخرين في المدن.

لقد أُبقي قسم كبير من سكان المدن «مستنفرين»، تحفزاً إلى الثورة. كان ماو يريد من السكان أن يتقاتلوا، وأن يعيشوا في آن. وفَّر الحماية لرئيس الوزراء المقتدر للغاية، شو إن لاي، كي يستطيع إبقاء الاقتصاد عاملاً. وكان يعرف أنه يحتاج إلى إداري آخر من الدرجة الأولى في الاحتياط، تحسباً لأي طارىء يحدث لشو، فأبقى دينغ شياوبنغ في أمان نسبي. لم يُسمح للبلاد بالانهيار انهياراً كاملاً.

ولكن عندما طالت الثورة، أُحيلت أقسام كبيرة من الاقتصاد إلى حالة من الشلل.

وازداد عدد سكان المدن عشرات الملايين، ولكن لم تُبن، عملياً، مساكن جديدة أو مرافق خدمة أخرى في المدن. كل شيء تقريباً، من الملح ومعجون الأسنان وورق التواليت إلى كل أنواع المأكل والملبس، كانت إما توزع بنظام الحصص، أو أنها اختفت بالكامل. في تشينغدو، لم يكن هناك سكر، لمدة عام، ومرت ستة أشهر، دون وجود قطعة صابون واحدة.

ابتداء من حزيران/يونيو ١٩٦٦، توقفت الدراسة في المدارس. وكان المعلمون إما يتعرضون للإدانة أو ينظمون مجموعاتهم من «المتمردين». تعطل المدارس كان يعني زوال المراقبة. ولكن ماذا عسانا نفعل بحريتنا؟ عملياً، لم تكن هناك كتب، ولا موسيقى، ولا أفلام، ولا مسرح، ولا متاحف، ولا مقاهٍ، ولا وسيلة يشغل المرء بها نفسه ـ باستثناء ورق اللعب، الذي عاد خلسة، رغم أنه لم يكن مباحاً رسمياً. لكنه عاد. بخلاف جل الثورات، لم يكن هناك شيء يمكن عمله، في ثورة ماو. «الحراسة الحمراء» أصبحت، بالطبع، مهنة الكثير من الشباب، الذين كانوا يزاولونها بتفرغ. والطريقة الوحيدة، التي يستطيعون تصريف طاقتهم وإحباطهم من خلالها، كانت الإدانات العنيفة والمعارك الجسدية والشفهية مع بعضهم بعضاً.

الانضام إلى «الحرس الأحمر»، لم يكن إلزامياً. ومع تفكك النظام الحزبي، تراخت الرقابة على الأفراد، وتُركتْ أغلبية السكان وشأنهم. بقي كثيرون عاطلين يتبطلون في البيوت، وكانت إحدى نتائج ذلك، تفاقم المشاجرات الصغيرة. حلت الفظاظة محل الخدمة الجيدة والسلوك المؤدب، في الأيام السابقة على «الثورة الثقافية». وأصبح من الشائع جداً رؤية الناس يتشاجرون في الشوارع ـ مع الباعة، ومع قاطعي التذاكر في الحافلات، ومع المارة. وكان من النتائج الأخرى انفجار في المواليد، لأنه لم يكن هناك أحد يسهر على تحديد النسل. لقد ازداد عدد السكان، خلال الثورة الثقافية، ٢٠٠ مليون.

في نهاية عام ١٩٦٦، كنت أنا وإخوتي قد ضقنا ذرعاً بكوننا حراساً حمراً. كان يجب على أطفال العوائل المدانة، أن «يرسموا خطاً فاصلاً» بينهم وبين آبائهم، وقد فعلها كثيرون. وكتبت إحدى بنات الرئيس ليو شاوتشي ملصقات جدارية، «تفضح» فيها أباها. وكنت أعرف أطفالاً غيروا كناهم، ليبينوا أنهم يتبرأون من

آبائهم، وآخرين لم يزوروا آباءهم قط في المعتقل، وبعضاً شاركوا في اجتماعات تنديدية ضد آبائهم.

ذات مرة، حين كانت أمي تحت ضغط هائل لكي تطلّق أبي، سألتنا رأينا. كان الوقوف إلى جانبه، يعني أننا يمكن أن نصبح «سوداً»، وقد رأينا كلنا التمييز والعذاب اللذين يعانيهما مثل هؤلاء. ولكننا قلنا إننا سنبقى معه، وليحدث ما يحدث. قالت أمي إنها مسرورة وفخورة بنا. وازداد تفانينا من أجل والدينا، بمعايشتنا معاناتهما، وإعجابنا بنزاهتهما وشجاعتهما، وكرهنا لمعذبيهما. أصبحنا نشعر بكثير من الاحترام، والحب، لوالدينا.

كان نمونا سريعاً. لم تكن بيننا مزاحمات، ولا خصومات، ولا مماحكات، لا شيء من المشاكل ـ أو المسرّات ـ المعهودة بين المراهقين. لقد دمرت الثورة الثقافية مرحلة المراهقة الطبيعية بكل منزلقاتها، ورمتنا مباشرة في سن الرشد، ونحن في أوائل العقد الثاني من العمر.

في الرابعة عشرة، كان حبي لوالديَّ شديداً جداً، بحيث لم يكن ليبلغ تلك الدرجة في الأحوال الطبيعية. كانت حياتي كلها تدور حولهما. كلما يكونان في البيت لفترة قصيرة، أراقب مزاجيهما، محاولة أن أكون لهما صحبة أنيسة. وحين يكونان رهن الاعتقال، أذهب مراراً إلى «المتمردين»، أصحاب الأَنَفة، وأطالب بزيارة. أحياناً كان يسمح لي ببضع دقائق، أجلس خلالها وأتحدث مع أحد والديَّ، في رفقة حارس. وكنت أخبرهما كم أحبهما. أصبحتُ معروفة، على نطاق واسع، بين الكوادر السابقة لحكومة سيشوان ومنطقة تشينغدو الشرقية، وكنت مصدر إزعاج لمعذبي والديَّ، الذين كانوا يكرهونني أيضاً، بسبب رفضي إبداء أيّ خوف منهم. ذات مرة، صرختْ السيدة شاو مستنكرة أن «أنظر اليها مباشرة ». وقد قادهم حقدهم إلى تلفيق تهمة، نشرت في أحد ملصقاتهم الجدارية، ومفادها أن مجموعة «تشينغدو الحمراء»، قدمت العلاج لأبي، لأني استخدمت جسدي في إغواء يونغ.

عندما لم أكن مع والديَّ، كنت أمضي القسم الأعظم من وقت فراغي الوفير، مع أصدقاء. وبعد عودتي من بكين، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦، ذهبتُ، لمدة شهر، إلى معمل لصيانة الطائرات، في أطراف تشينغدو، مع «دبدوبة» وتشنغ ـ تشنغ،

إحدى صديقاتها. كنا في حاجة إلى شيء نشغل به أنفسنا، وأهم ما نستطيع أن نعمله، بحسب ماو، هو أن نذهب إلى المعامل، للتحريض على أعمال التمرد، ضد أنصار الطريق الرأسمالي. كان الغليان يزحف على الصناعة زحفاً، أبطأ من أن يروق لماو.

التحرك الوحيد، الذي حرَّضنا عليه، نحن الثلاث هو إثارة اهتمام بعض الشباب من فريق المعمل، بكرة السلة الذي أمسى،الآن، غير موجود. كنا نمضي كثيراً من الوقت في المشي، في الطرق الريفية مستمتعات بعبير أزهار الفول المبكرة، في المساء. ولكني بعد فترة وجيزة، عندما ازدادت معاناة والديَّ تفاقماً، عدتُ إلى البيت، مخلفة أوامر ماو، ومشاركتي في الثورة الثقافية، ورائي إلى الأبد.

استمرت صداقتي مع «دبدوبة» وتشنغ ـ تشنغ ولاعبي كرة السلة. كما ضمت حلقتنا شقيقتي شياو ـ هونغ، وعدة فتيات أخريات من مدرستي. كنَّ جميعاً أكبر مني سناً. كنا كثيراً ما نلتقي في هذا البيت أو ذاك، من بيوتنا، حيث نمكث النهار كله، وفي أحيان كثيرة الليل كذلك، إذ لم يكن لدينا ما نفعله.

كنا ندخل في نقاشات لا نهاية لها، حول مَنْ من لاعبي كرة السلة معجب بمَنْ. وكان مركز التخمينات كابتن الفريق، وهو شاب وسيم في التاسعة عشرة، اسمه ساي. كانت الفتيات يتساءلن إن كان معجباً أكثر بي أو بتشنغ ـ تشنغ. كان قليل الكلام ومتحفظاً في سلوكه، وكانت تشنغ ـ تشنغ شديدة الإعجاب به. وكلما نذهب لملاقاته، كانت تغسل شعرها، الذي يصل إلى كتفيها وتمشطه بحرص كبير، وتكوي ملابسها، وتعدلها بعناية فائقة، لكي تبدو أنيقة، بل كانت تضع قليلاً من البودرة وأحمر الشفاه، وتخط حاجبيها أيضاً. كنا نداعبها بلطف.

أنا أيضاً كنتُ منجذبة إلى ساي. كنت أشعر بقلبي يذوب كلما فكّرت فيه. أستيقظ في الليل، فأرى وجهه، وأشعر أني محمومة. كنتُ، في أحيان كثيرة، أغمغم اسمه، وأتحدث إليه في ذهني، كلما استشعرت خوفاً أو قلقاً. ولكني لم أبح له بشيء قط، أو لصديقاتي. لم تكن لديَّ إلا خيالات خجولة حوله. كان والداي يستحوذان على حياتي، وعلى أفكاري الواعية. وأي استغراق في شؤوني الخاصة، كان يقمع، في الحال، بوصفه جحوداً. لقد حرمتني «الثورة الثقافية»، أو أنقذتني من مراهقة الأنثى الطبيعية، بثورات غضبها، ومشاحناتها وأصدقاءها من الشبان.

ولكني لم أكن من دون خيلاء. فلقد خطتُ رقعاً زرقاء كبيرة، ذات صبغة شمعية وأشكال تجريدية، على ركبتي ومقعدة سروالي، التي تحوّلت إلى لون رمادي شاحب. كانت صديقاتي يضحكن من منظرها. وكانت جدتي مرتاعة بهذه الفضيحة، ودائمة الامتعاض منها: «ما من بنات أخريات يلبسن لبسكِ». ولكني كنت مصرة. لم أكن أحاول أن أبدو جميلة، بل مختلفة فقط.

ذات يوم، قالت لنا إحدى صديقاتي، إن والديها، وكان كلاهما ممثلاً بارزاً، قد انتحرا، للتو، إذ أنهما لم يتمكنا من تحمل الإدانات. ولم يمض وقت طويل على ذلك، حين وصلت أخبار بأن شقيق فتاة أخرى قتل نفسه. كان طالباً في كلية هندسة الطيران، في بكين، وقد أدين مع البعض من زملائه الطلاب، لمحاولتهم تنظيم حزب ضد ماو. رمى نفسه من نافذة في الطابق الثالث، عندما حضر رجال الشرطة لاعتقاله. بعض شركائه «المتآمرين» أُعدموا، والبعض الآخر حكم عليهم بالسجن مدى الحياة، وهي العقوبة المألوفة لكل من يحاول تنظيم معارضة، مما أدى إلى ندرة المعارضة. مآسٍ كهذه، كانت جزءاً من حياتنا اليومية.

لم تكن عوائل «دبدوبة» وتشنغ ـ تشنغ وبعض الأخريات تتعرض للضرب. وهنَّ بقين صديقاتي. لم يضايقهن مضطهدو والديَّ، الذين لم يتمكنوا من توسيع سطوتهم إلى هذا الحد. ولكنهن كن مع ذلك يركبن الأخطار، بعدم السباحة مع التيار. صديقاتي كنَّ من الملايين، الذين يقدسون ميثاق الإخلاص الصيني التقليدي ـ «إعطاء فحم في الثلج». وقد ساعدني وجودهن حولي على تجاوز أسوأ سنوات الثورة الثقافية.

قدمت صديقاتي لي الكثير من المساعدة العملية أيضاً. ففي أواخر ١٩٦٧، بدأت مجموعة «تشينغدو الحمراء» تهاجم مجمَّعنا، الذي تسيطر عليه مجموعة «٢٦ آب/ أغسطس»، وتم تحويل عمارتنا إلى حصن. صدرت إلينا أوامر بالانتقال من شقتنا في الطابق الثالث، إلى غرف في الطابق الأرضي، في العمارة المجاورة.

كان والداي معتقلين، حينذاك. واكتفى قسم أبي، الذي يتولى في الأحوال العادية أمر الانتقال، بإصدار الأوامر بالجلاء. ولأنه لم تكن هناك شركات لنقل الأثاث، كان المطاف سينتهي بعائلتي دون سرير، لولا مساعدة أصدقائنا. مع ذلك لم

نقل إلا الضروري من الأثاث، مخلفين وراءنا أشياء، مثل صناديق كتب أبي الثقيلة، التي لم نتمكن من رفعها، فكيف بإنزالها عدة طوابق، على الدرج!

كان سكننا الجديد في شقة، تشغلها عائلة مناصر آخر للطريق الرأسمالي، صدرت إليها أوامر بإخلاء نصفها. كان يعاد تنظيم الشقق على هذا النحو، في كل المجّمع، بغية استخدام الطوابق العلوية مراكز للقيادة. اشتركنا أنا وأختي في غرفة. أبقينا النافذة، التي تواجه الحديقة الخلفية المهجورة، الآن، مغلقة على الدوام، لأنه في اللحظة، التي تفتح، كانت رائحة كريهة تغزو الداخل، من المجاري المسدودة في الخارج. وفي الليل، كنا نسمع صيحات تدعو إلى الاستسلام، من خارج سور المجمع، وإطلاق نار متقطعاً. ذات ليلة، أيقظني صوت زجاج يتحطم: اخترقت الشباك رصاصة، استقرت في الجدار المقابل. الغريب أني لم أكن خائفة. فبعد الأهوال التي عشتها، فَقَد الرصاص تأثيره.

لإشغال نفسي، بدأت أكتب الشعر بالأساليب الكلاسيكية، وأول قصيدة شعرتُ بالاقتناع بها، كُتبتْ في عيد ميلادي السادس عشر، في ٢٥ آذار/ مارس ١٩٦٨. لم تكن هناك حفلة عيد ميلاد. فوالداي كانا رهن الاعتقال. في تلك الليلة، وأنا مستلقية على الفراش، أستمع إلى صوت الرصاص، ومكبرات صوت «المتمردين»، تهدر بخطابات، تجمد الدم في العروق، وصلتُ إلى نقطة انعطاف. كان يقال لي دائماً، وكنتُ أصدِّق، إنني أعيش في فردوس على الأرض، في الصين الاشتراكية، في حين أن الرأسمالية جحيم. والآن، سألتُ نفسي: إذا كانت هذه هي الجنة، فكيف يكون الجحيم؟ قررت أن أرى بنفسي، إن كان هناك حقاً مكان أكثر امتلاء بالألم. وللمرة الأولى، كرهتُ، عن وعي، النظام الذي أعيش في ظله، وأخذتُ أصبو إلى بديل.

مع ذلك، كنت أتجنب ماو، لا شعورياً. لقد كان جزءاً من حياتي، منذ كنت طفلة. كان المعبود والإلّه والإلهام. وقد صيغت حياتي باسمه. قبل عامين، كنت سعيدة بالموت من أجله. ورغم أن قوته السحرية اختفت من داخلي، فإنه كان لا يزال مقدساً ومنيعاً. وحتى في هذا الوقت، لم أكن أطعن فيه.

بهذا المزاج، نظمتُ قصيدتي. كتبتُ عن موت ماضيّ الملقّن والبريء، بوصفه أوراقاً ميتة، تكنسها زوبعة عن شجرة، وتحملها إلى عالم، لا عودة منه. وصفتُ

حيرتي في العالم الجديد، وفي عدم معرفتي بماذا أفكر، وكيف أفكر. كانت قصيدة عن التخبّط في الظلام، والبحث.

كتبتُ القصيدة، وكنتُ مستلقية على السرير، أراجعها في ذهني، حين سمعت طرقاً على الباب. وعرفت من الصوت أنه دهم. فقد دهم «متمردو» السيدة شاو شقتنا عدة مرات. وأخذوا «تَرَفيّات بورجوازية»، مثل ملابس جدتي الأنيقة، من أيام ما قبل الشيوعية، ومعطف أمي المنشوري، المخطط بالفرو، وبدلات أبي ـ رغم أنها من طراز بدلة ماو. صادروا حتى سراويلي الصوفية. ودأبوا في العودة، محاولين العثور على «أدلة» ضد أبي. أصبحتُ معتادة رؤية مسكننا يقلب رأساً على عقب.

تملكني القلق مما سيحدث، لو رأوا قصيدتي. فحين تعرض أبي للهجوم، أول مرة، طلب من أمي أن تحرق قصائده. كان يعرف كيف يمكن تحريف الكتابة، أي كتابة، ضد صاحبها. ولكن أمي لم تتمكن من حمل نفسها على إتلافها جميعاً. احتفظت ببعض منها، كان قد كتبها لها. وقد كلفته هذه عدة اجتماعات تنديدية وحشية.

في إحدى القصائد، سخر أبي من نفسه، لفشله في تسلق قمة جبل بديع المنظر. واتهمته السيدة شاو ورفاقها، بأنه «يندب طموحه المحبط، إلى اغتصاب قيادة الصين العليا».

في قصيدة أخرى يصف العمل في الليل:

«الضوء يتألق أكثر بياضاً، حين يزداد الليل ظلاماً.

«قلمي يسرع لملاقاة الفجر...»

زعم «المتمردون» أنه يشير إلى الصين الاشتراكية، بوصفها «ليلاً مظلماً»، وأنه يعمل بقلمه لاستقبال «فجر أبيض» ـ عودة الكومنتانغ (كان الأبيض لون الثورة المضادة). في تلكم الأيام، كان من الشائع إقحام مثل هذه التأويلات، المثيرة للسخرية، على كتابات أحدهم. وماو، الذي كان من عشاق الشعر الكلاسيكي، لم يفكر في استثناء ذلك من هذه القاعدة المريعة. لقد أصبحت كتابة الشعر مهنة محفوفة بالأخطار.

حين بدأ الطرق على الباب، ركضتُ مسرعة إلى المرحاض، وأغلقت الباب، فيما كانت جدتي ترد على السيدة شاو وزمرتها. وبيدين مرتجفتين، تمكنتُ من تمزيق

القصيدة قصاصات صغيرة، ورميها في الحوض، وشد السيفون. فتشتُ الأرض بعناية للتوثق من عدم سقوط أية قصاصات. ولكن الورق، لم يختف كله. وكان عليَّ الانتظار، وشد السيفون ثانية. في ذلك الوقت، كان «المتمردون» يخبطون على باب المرحاض، آمرين بلهجة قاطعة أن أخرج في الحال. لم أرد عليهم.

أخي جن ـ منغ، نال أيضاً نصيبه من الخوف، تلك الليلة. فمنذ أن بدأت «الثورة الثقافية» كان يتردد إلى سوق سوداء، متخصصة بالكتب. فالسليقة التجارية لدى الصينيين، كانت قوية، حتى إن الأسواق السوداء، أكبر ممو ث رأسمالي عند ماو، كانت موجودة في معامع «الثورة الثقافية».

في مركز تشينغدو، وسط الشارع التجاري الرئيسي، كان هناك تمثال من البرونز لصن يات ـ صن، الذي قاد ثورة ١٩١١ الجمهورية، التي أطاحت بألفي عام من الحكم الأمبراطوري. أقيم التمثال قبل مجيء الشيوعيين إلى السلطة. وماو لم يكن متحمساً لأي قادة ثوريين قبله، بمن فيهم صن. ولكن السياسة كانت تقتضي الادعاء بمواصلة تقليده، فسمح للتمثال بالبقاء، وأصبحت رقعة الأرض المحيطة به حاضنة للنباتات. وحين اندلعت «الثورة الثقافية»، انقض الحراس الحمر على رموز صن يات ـ صن، إلى أن أمر شون إن لاي بحمايتها. بقي التمثال، ولكن حاضنة النباتات، هُجرت بوصفها «انحطاطاً بورجوازياً». وحين بدأ الحراس الحمر يدهمون بيوت الناس ويحرقون كتبهم، أخذ نفر منهم يتجمعون على هذه الرقعة المنسية، للتعامل بالمجلدات التي أفلتت من النار. أناس من شتى الأصناف، كان يُعثر عليهم هناك: حراس حمر، يريدون كسب بعض النقود من الكتب التي صادروها، أصحاب أعمال محبطون اشتمُّوا رائحة المال، مفكرون لا يريدون أن تحترق كتبهم، ولكنهم يخافون الاحتفاظ بها، وعشاق الكتب.

كانت الكتب، التي يجري التعامل بها، قد صدرت أو زُكيت في ظل النظام الشيوعي، قبل الثورة الثقافية. وإلى جانب الكلاسيكيات الصينية، كانت تشتمل على أعمال شكسبير وديكنز وبايرون وشيلي وشو وثاكاري وتولستوي ودوستويفسكي وتورغنيف وتشيخوف وإبسن وبلزاك وموباسان وفلوبير ودوما وزولا، والكثير من الكلاسيكيات العالمية الأخرى، حتى شرلوك هولمز، لكونان دويل، الذي كان يحظى بتقدير عظيم في الصين.

كان سعر الكتب يعتمد على عوامل متنوعة. فإذا كان عليها ختم مكتبة ما، كانت الأغلبية تبتعد عنها. كانت الحكومة الشيوعية ذائعة الصيت، على صعيد الرقابة والنظام، بحيث كان الآخرون لا يريدون المخاطرة، بأن يضبطوا وفي حوزتهم ممتلكات دولة، آلت إليهم بطريقة غير قانونية، الأمر الذي يعاقبون عليه عقاباً شديداً.

كانوا أسعد بكثير بابتياع كتب مملوكة ملكية خاصة، دون علامات تعرّف بها. كانت الروايات ذات المقاطع المثيرة جنسياً، هي الأعلى أسعاراً، وتحمل أيضاً أكبر الأخطار. فرواية ستاندل «الأحمر والأسود»، التي تُعد مثيرة، كانت تباع بما يعادل أجر أسبوعين للشخص العادي.

كان جن ـ منغ يذهب إلى هذه السوق السوداء، كل يوم. وتحقق رأسماله الأول من كتب، حصل عليها من متجر لإعادة تصنيع الورق، كان مواطنون خائفون يبيعون مجموعاتهم إليه، كورق خردة. وأقام جن ـ منغ، من خلال حديث، علاقة ببائع في المتجر، وابتاع الكثير من هذه الكتب، التي كان يبيعها من جديد بأسعار أعلى. ثم كان يشتري مزيداً من الكتب من السوق السوداء، ويقرأها، ثم يبيعها ويشتري المزيد.

بين بداية «الثورة الثقافية» ونهاية ١٩٦٨، مرَّ بين يديه ما لا يقل عن ألف كتاب. وكان يقرأ بمعدل كتاب أو كتابين في اليوم. ولم يكن يجرؤ إلا على الاحتفاظ بدزينة منها، أو نحو ذلك، في أي وقت، وعليه أن يخفيها بعناية. كان أحد مخابئه تحت برج ماء مهجور في المجمّع، إلى أن دمر وابل من المطر مخزوناً من الكتب المفضلة لديه، بما فيها رواية جاك لندن «نداء البرية». كان يحتفظ بالقليل منها في البيت، مخبأة في الحشيات وزوايا غرفة المؤن. في ليلة الدهم، كانت رواية «الأحمر والأسود» مخبأة في حشية سريره. ولكنه، كعهده، مزق الغلاف، واستعاض عنه بغلاف «مختارات ماو تسي تونغ»، ولم تعاينه السيدة شاو ورفاقها.

كان جن ـ منغ يتعامل بسلع أخرى، من سلع السوق السوداء. فحماسته للعلم لم تفتر. وفي ذلك الوقت، كانت السوق السوداء هي الوحيدة التي تتعامل بالبضائع العلمية في تشينغدو، تتاجر بأجزاء الراديو شبه الموصلة: هذا الفرع من الصناعة، كان ذا حظوة، لأنه «ينشر كلمات ماو». كان جن ـ منغ يبتاع أجزاء، ويصنع منها أجهزة راديو، يبيعها بأسعار جيدة. وكان يشتري مزيداً من الأجزاء، لغرضه الحقيقي: اختبار نظريات مختلفة في الفيزياء، كان يتوق إلى نتائجها.

وبغية الحصول على المال اللازم لتجاربه، كان جن ـ منغ يتجر حتى بشارات ماو. فكثير من المعامل أوقفت إنتاجها لشارات من الألمنيوم، عليها رأس ماو. وكانت هواية الجمع بكل أنواعها، بما في ذلك جمع الطوابع واللوحات الفنية، قد حظرت بوصفها «عادة بورجوازية». لذا، اتجه نزوع الناس بالفطرة إلى الجمع، نحو هذا الشيء المزكّى ـ رغم أنهم لم يكونوا قادرين على الاتجار به، إلا في السر. جمع جن ـ منغ ثروة صغيرة. ولم يكن «الربان العظيم» يعرف أن صورة رأسه أصبحت قطعة من الممتلكات، خاضعة للمضاربة الرأسمالية، وهي النشاط نفسه، الذي حاول جاهداً أن يقضي عليه.

كانت هناك حملات متكررة. ففي أحيان كثيرة، كان «متمردون» يصلون محمولين بالشاحنات، ويغلقون الشوارع، ويخطفون كل من يبدو مريباً. كانوا أحياناً يرسلون جواسيس يتظاهرون بمشاهدة السلع، ثم تنطلق صفارة، وإذا بهم ينقضون على المتعاملين. ومَنْ يقع في المصيدة تصادر ممتلكاته. وكانوا، في العادة، يتعرضون للضرب. ومن العقوبات المنتظمة «إراقة الدماء» ـ طعنهم في الأرداف. وكان بعضهم يُعذّبون، وكلهم يُهدَّدون بعقاب مضاعف، إذا لم يكفوا. ولكن معظمهم كانوا يعودون، المرة تلو الأخرى.

شقيقي الآخر، شياو ـ هي، كان في الثانية عشرة، في مطلع ١٩٦٧. وإذ لم يكن لديه شيء يفعله، فإنه سرعان ما وجد نفسه متورطاً مع عصابة من عصابات الشوارع. وهذه العصابات، التي كانت غير موجودة، عملياً، قبل «الثورة الثقافية»، أخذت، الآن، تزدهر. كانت العصابة تسمى «الميناء»، وزعيمها «الربان». وكان كل واحد من الآخرين «أخ»، وله لقب يرتبط عادة بالحيوانات: «الكلب النحيف» إذا كان الصبي نحيفاً، و«الذئب الأغبر» إذا كانت لديه خصلة شعر غبراء. كان أخي يسمى «الحافر الأسود»، لأن جزءاً من اسمه «هي» يعني «أسود»، ولأنه أيضاً كان أدكن، وسريعاً في نقل الرسائل، وهي إحدى واجباته لأنه أصغر سناً من جل أفراد العصابة.

في البداية، كان أعضاء العصابة يعاملونه كضيف محترم، لأنهم نادراً ما عرفوا أطفال مسؤولين كبار. إذ كان أفراد العصابات، في الغالب، من عوائل فقيرة، وكثيراً ما كانوا هاربين من المدارس، قبل «الثورة الثقافية». لم تكن عوائلهم مستهدفة من قبل الثورة، ولا كانت العوائل مهتمة بالثورة.

كان بعض الفتيان يحاولون أن يقلدوا أطفال المسؤولين الكبار، متجاهلين حقيقة أن المسؤولين الكبار قد أُسقطوا. كان أطفال المسؤولين الكبار، في أيام الحرس الأحمر، يفضلون بزات الشيوعيين العسكرية القديمة، لأنهم كانوا الوحيدين، الذين يستطيعون الحصول عليها، من خلال آبائهم. واقتنى بعض أولاد الشوارع هذه البدلات القديمة، من خلال التعامل في السوق السوداء، أو راحوا يصبغون ملابسهم باللون الأخضر. ولكنهم كانوا يفتقرون إلى مظهر النخبة المتعالي، وفي أحيان كثيرة، لم يكن اللون الأخضر صحيحاً تماماً. وكان أطفال المسؤولين الكبار، وكذلك أصدقاؤهم، يهزأون منهم، بوصفهم «مزيَّفين».

فيما بعد، تحول أطفال المسؤولين الكبار إلى ارتداء جاكيتات وسراويل زرقاء دكناء. ورغم أن معظم السكان، كانوا يرتدون الأزرق، حينذاك، إلا أن أزرقهم كان من درجة معينة، وكان من غير المألوف أيضاً، أن تكون السترة والسروال من لون واحد. وبعد أن اتخذوا من هذا علامة مميزة لهم، كان على الفتيان والفتيات، ذوي الأصول الأخرى أن يجتنبوه، فإنهم لا يريدون أن يُعاملوا كـ «مزيَّفين». وكان الأمر نفسه ينطبق على نوع معين من الأحذية: ظاهر خيطي أسود بنعل بلاستيكي أبيض، وشريط بلاستيكي أبيض ظاهر بينهما.

ابتكر بعض أعضاء العصابات زيهم الخاص. كانوا يرتدون طبقات متعددة من القمصان، تحت رداء خارجي، ويقلبون كل ياقاتها إلى الخارج. وكلما كان عدد الياقات المقلوبة أكثر، كانت الأناقة أكمل. في أحيان كثيرة، كان شياو ـ هي يرتدي ستة أو سبعة قمصان، تحت سترته، حتى في حرارة الصيف المحرقة، كان يرتدي قميصين. وكان يتعين دائماً، أن يظهر سروال الركض من تحت سراويلهم المقَصَّرة. كانوا ينتعلون أيضاً أحذية بيضاء خفيفة، بلا شراك، ويعتمرون قبعات عسكرية، مسنودة من الداخل بأشرطة من الورق المقوى، لجعل النهايات منتصبة إلى الأعلى، فيبدون أكثر هيبة.

كانت السرقة إحدى الطرائق الرئيسية، التي يملأ «إخوان» شياو ـ هي أيامهم الفارغة بها. وأياً يكن ما تقع أياديهم عليه، كان يتعين تسليم الغنيمة إلى الربان، لتقسيمها بالتساوي بينهم. كان شياو ـ هي أشد خوفاً من أن يسرق أي شيء، ولكن «إخوانه» كانوا يعطونه نصيبه، بلا تبرم.

كانت السرقة متفشية على نطاق واسع، خلال «الثورة الثقافية»، وخاصة النشل وسرقة الدراجات الهوائية. ومعظم الذين كنتُ أعرفهم، نُشلوا مرة واحدة على الأقل. وبالنسبة إلي، كانت جولات التسوق، تقترن في أحيان كثيرة، بفقدان محفظتي، أو رؤية أحد ما يصيح، بعد أن سرقت محفظته. وكانت قوى الشرطة، التي انقسمت إلى أجنحة، لا تمارس إلا مراقبة اسمية.

حين جاء الأجانب، في بادىء الأمر، إلى الصين، بأعداد كبيرة، إبان السبعينات، أعجب كثير منهم بـ«النظافة الأخلاقية» للمجتمع: الجورب المرمي، يتبع صاحبه ألف ميل، من بكين إلى غوانغجو، نظيفاً، مرتَّباً، وموضوعاً في غرفة فندقه. لم يكن الزوار يدركون أن الأجانب والصينيين الواقعين تحت المراقبة الدقيقة، وحدهم، الذين يحاطون باهتمام كهذا، أو أن لا أحد يجرؤ على السرقة من الأجانب، لأن سرقة منديل يمكن أن يعاقب عليها بالموت. وأن الجورب المرتَّب النظيف، لم يكن يمت بصلة إلى حالة المجتمع الحقيقية: لم يكن إلا جزءاً من مسرح النظام.

كان «إخوان» شياو ـ هي مهووسين أيضاً بمعاكسة البنات. الفتيان في الثانية عشرة والثالثة عشرة، مثل شياو ـ هي، كانوا، في أحيان كثيرة، أكثر خجلاً من أن يطاردوا الفتيات بأنفسهم، فأصبحوا مراسلي الصبيان الأكبر، حاملين رسائلهم الغرامية، الحافلة بالأخطاء. كان شياو ـ هي يطرق الباب، متضرعاً أن تفتحه الفتاة نفسها، وليس أبوها أو أخوها، الذي من المؤكد أنه سيصفعه. وعندما كان يتغلّب عليه الخوف، كان يدس الرسالة تحت الباب.

وعندما ترفض الفتاة الدعوة، يصبح شياو ـ هي والصبيان الآخرون الأصغر، أداة لانتقام العاشق المرفوض، يثيرون ضجيجاً خارج بيتها، ويطلقون المرجمات (النقيفات) في اتجاه نافذتها. وحين تخرج الفتاة، يبصقون عليها، ويهزون أصابعهم الوسطى نحوها، ويزعقون بكلمات وسخة لا يفهمونها تماماً. والمصطلحات الصينية البذيئة، في خصوص المرأة، هي مصطلحات تصويرية: «مكوك» (لشكل فرجها)، و«سرج الحصان» (لصورة ركوبها)، و«قنديل زيتي طافح» («كثرة» الإفرازات)، و«حذاء بالٍ» («كثرة» الاستعمال).

كان بعض الفتيات يحاولن إيجاد حماة داخل العصابات، والأكثر اقتداراً منهن، كنَّ يصبحن هن أنفسهن «ربابنة». وكانت الفتيات اللواتي ينخرطن في هذا العالم

الذكوري، يستعرضن استعاراتهن التصويرية الخاصة، مثل «فاوانيا سوداء نَدِيَّة» و«قارورة نبيذ محطمة» و«سحر الأفعى».

شُغل العصابات الثالث الرئيسي كان العراك، لأبسط التحرشات. كانت المعارك مبعث إثارة بالغة لشياو ـ هي، ولكن من دواعي أسفه الشديد، أنه وُهِب ما كان يسميه «مزاجاً جباناً». كان يلوذ بالفرار، عند أول بادرة توحي بأن المعركة في طريقها إلى الاحتدام. وبفضل افتقاره إلى الشجاعة، كان يخرج سالماً، فيما الكثير من الفتيان يصابون بجروح، بل يُقتلون في هذه الاشتباكات العابثة.

في عصر أحد الأيام، كان و«إخوانه» يتسكعون، كالعادة، حين ركض نحوهم أحد أفراد العصابة، وقال إن «ميناء» آخر، أغار على بيت أحد الإخوان، وإن هذا الأخ، أُخضِع لـ «إراقة الدم». عادوا إلى «رصيف مينائهم» لحمل أسلحتهم: عصي وحجارة وسكاكين وأسواط سلكية وهراوات. ودس شياو ـ هي هراوة ثلاثية المقاطع في حزامه الجلدي. ركضوا إلى البيت، الذي وقع فيه الحادث، ولكنهم وجدوا أن أعداءهم قد رحلوا، وأن أخاهم الجريح قد نقلته عائلته إلى المستشفى. كتب «ربان» شياو ـ هي رسالة، تعج بالأخطاء، يتحدى فيها العصابة الأخرى، وكلَّف شياو ـ هي بتسليمها.

طالبت الرسالة بمعركة نظامية، في «ملعب الشعب» الرياضي، حيث يوجد مكان رحيب. بعدما أمسى الملعب لا يستضيف أي نوع من الرياضة، إثر إدانة ماو للألعاب التنافسية. وكان على الرياضيين، أن يكرسوا أنفسهم للثورة الثقافية.

في اليوم المعين، كانت عصابة شياو ـ هي، تنتظر في ميدان الركض. مرت ساعتان بطيئتان، ثم دخل الملعب رجل في أوائل العشرينات. كان تانغ «الأعرج»، وهو شخصية مشهورة من شخصيات العالم السفلي، في تشينغدو. ورغم شبابه النسبي، كان يعامل بالاحترام، الذي يُخصُّ به الكبار، عادة.

أصيب تانغ بالعرج،إثر تعرضه لشلل الأطفال. كان أبوه مسؤولاً في الكومنتانغ، فأعطي الابن عملاً غير مرغوباً عنه، في ورشة صغيرة، كائنة في بيت عائلته القديم، الذي صادره الشيوعيون. لم يكن العاملون في وحدات صغيرة كهذه، يتمتعون بالمنافع المتاحة للعمال في المصانع الكبيرة، مثل الضمان والخدمات الصحية المجانية والتقاعد.

حال وضع تانغ دون مواصلة دراسته إلى مرحلة التعليم العالي، ولكنه كان حاد الذكاء، وأصبح زعيم العالم السفلي، في تشينغدو. وقد جاء، الآن، بالتماس من «الميناء» الآخر ليطلب هدنة. أخرج عدة كرتونات من أفخر السجائر، ودار بها على الجميع. قدم اعتذارات من «الميناء» الآخر، ووعداً منهم بدفع الفواتير عن أضرار البيت والعناية الطبية. وافق «ربان» شياو ـ هي، إذ كان يستحيل أن تقال كلمة «لا» لتانغ «الأعرج».

وسرعان ما أُلقي القبض على تانغ . في بداية ١٩٦٨، انطلقت مرحلة رابعة جديدة من «الثورة الثقافية». المرحلة الأولى كانت الحراس الحمر المراهقين، ثم جاء «المتمردون» والهجوم على أنصار الطريق الرأسمالي، وكانت المرحلة الثالثة حروب الأجنحة بين «المتمردين». والآن، قرّر ماو وقف صراع الأجنحة. ولفرض الطاعة، أشاع الإرهاب، ليبين أنه ليس هناك أحد بمنأى عنه. وأصبح قسم كبير من السكان، الذين لم يتأثروا بالمراحل السابقة، حتى ذلك الحين، بمن فيهم بعض «المتمردين»، ضحايا ذلك الإرهاب. كانت تطلق حملات سياسية جديدة، الواحدة تلو الأخرى، لاتهام أعداء طبقيين جدد. وأكبر هذه الحملات، كانت مطاردة الساحرات، تحت شعار «نظفوا صفوف الطبقة»، وقد طالت تانغ «الأعرج». أُطلق سراحه بعد انتهاء «الثورة الثقافية»، في عام ١٩٧٦، وفي أوائل الثمانينات، أصبح رجل أعمال موسراً، من أغنى الرجال في تشينغدو. أعيد إليه بيت عائلته المتداعي . هدمه وشيَّد مبنى كبيراً من طابقين. وحين ضرب الصين جنون محلات الديسكو، كان يشاهد، في أحيان كثيرة، جالساً في أرقى مكان، يراقب بوداعة فتيان وفتيات بطانته وهم يرقصون، فيما كان هو يعدُّ ببطء رزمة سميكة من الأوراق النقدية، بعدم اكتراث مقصود، استعراضي، دافعاً حساب الحاضرين كلهم، وفرحاً بسطوته حديثة العهد ـ أي المال.

خربت حملة «نظفوا صفوف الطبقة» حياة الملايين. وفي حالة واحدة، قضية حزب الشعب في منغوليا الداخلية، أُخضع زهاء ١٠ في المئة من سكان منغوليا الراشدين للتعذيب. ومات منهم ٢٠ ألف شخص على الأقل. خُطِّطت هذه الحملة، تحديداً، على أساس دراسات إرشادية، تناولت ستة معامل وجامعتين، في بكين، تحت إشراف ماو الشخصي. وفي تقرير عن أحد المعامل الستة، وهو وحدة شنهوا الطباعية، جاء في أحد المقاطع:

«بعد أن وُصِمت هذه المرأة بمعاداة الثورة، كانت ذات يوم، تؤدي أعمال السخرة، والحارس غافلاً عنها، فاندفعت إلى الطابق الرابع لمهجع النساء، وقفزت من النافذة منتحرة. من المحتوم، أن يقتل أعداء الثورة أنفسهم. ولكن ما يؤسف له، أننا نقصنا، الآن، «مثالاً سلبياً»». وكتب ماو على هذا التقرير: «إن هذا أفضل ما كتب من كل التقارير التي قرأتُها».

كانت الحملات بإدارة «اللجان الثورية»، التي كانت تشكل في سائر أنحاء البلاد. وقد شكلت لجنة سيشوان الثورية الإقليمية، في ٢ حزيران/يونيو ١٩٦٨. وكان قادتها الأشخاص الأربعة أنفسهم، الذين ترأسوا «اللجنة التحضيرية» ـ المسؤولان العسكريان والزوجان تنغ. وكانت اللجنة تضم زعماء معسكري «المتمردين» الرئيسيين، وهما «تشينغدو الحمراء» و«٢٦ آب/أغسطس»، وبعض «المسؤولين الثوريين».

كان لتعزيز نظام سلطة ماو الجديد هذا، آثار بالغة في عائلتي. وكان من أولى النتائج، قرار بحجب قسم من مرتبات أنصار الطريق الرأسمالي، وإبقاء علاوة نقدية صغيرة فقط، لكل فرد من الذين يعيلونهم. انخفض دخل عائلتنا إلى ما دون النصف. ورغم أننا لم نكن جائعين، لكننا أصبحنا غير قادرين على الشراء من السوق السوداء، وكانت إمدادات الدولة من الغذاء، تتردى بوتائر متسارعة. فالحصة المقررة من اللحم، على سبيل المثال، كانت رطلاً واحداً، في الشهر، للشخص الواحد. كانت جدتي قلقة، تخطط، ليل نهار، لتمكيننا نحن الأطفال من الأكل على نحو أفضل، وإعداد رزم من الطعام لوالدينا في المعتقل.

قرار «اللجنة الثورية» التالي، كان صدور أمر إلى جميع «أنصار الطريق الرأسمالي» بمغادرة المجمّع لتهيئة مكان للقادة الجدد. خُصص لعائلتي بعض الغرف، في أعلى مبنى من ثلاثة طوابق، كان مكتب مجلة فيما مضى. لم يكن هناك ماء جارٍ أو مرحاض في الطابق العلوي. وكان علينا النزول إلى الطابق الأدنى، لتنظيف أسناننا، أو لسكب قدح من بقايا الشاي. ولكنني لم أمتعض، لأن البيت كان أنيقاً جداً، وكنت متعطشة إلى الأشياء الجميلة.

بخلاف شقتنا في المجمّع، التي كانت كتلة إسمنتية، بلا ملامح، كان محل سكننا الجديد قصراً رائعاً، ذا واجهة مزدوجة، مبنياً من الآجر والخشب، بنوافذ بُنّية

ضاربة إلى الحمرة، مؤطرة تأطيراً بديعاً، تحت أفاريز مقوسة برشاقة. الحديقة الخلفية، كانت ملأى بأشجار التوت، واعترشت في الحديقة الأمامية كرمة مترعة، وحولها جنينة من الدفلى، وشجرة توت ورقي، وشجرة ضخمة، لا اسم لها، كانت ثمارها الشبيهة بالفلفل، تنمو في عناقيد صغيرة، داخل ثنايا أوراقها البنية النضرة، التي لها شكل الزورق. كنت أحب بصفة خاصة أشجار الموز التزيينية، وقوسها الطويل من السعف، فهي منظر غريب، في مناخ ليس مدارياً.

في تلكم الأيام، كان الجمال محتقراً، حتى إن عائلتي أُرسلت إلى هذا البيت الرائع، عقاباً لها. كانت الغرفة الرئيسية كبيرة ومستطيلة، ذات أرضية من الباركية. ثلاثة جوانب منها زجاجية، تجعلها مضيئة بتألق، وتقدم أيام الصحو منظراً بانورامياً لجبال غرب سيشوان، الثلجية النائية. الشرفة لم تكن مبنية من الإسمنت المعتاد، بل من الخشب، المدهون بلون بني ضارب إلى الحمرة، مع سياج مصمَّم بشكل «المفتاح الإغريقي». غرفة أخرى تنفتح على الشرفة، لها سقف مدبب عال بصورة غير عادية ـ ارتفاعه حوالي عشرين قدماً ـ بدعائم حمراء شاحبة، مكشوفة. عشقتُ محل سكنانا الجديد، في الحال. وأدركتُ، فيما بعد، أن الغرفة المستطيلة تكون، في الشتاء، ساحة معركة للرياح اللاذعة، من كل الاتجاهات، عبر الزجاج الرقيق، والغبار يسقط كالمطر من السقف العالي، عندما تهب الريح. مع ذلك، كنت في الليل الهادىء، أمتلىء فرحاً، وأنا مستلقية على الفراش، حيث ضوء القمر يطل من الشبابيك، ويتراقص ظل شجرة التوت الورقي العالية، على الجدار. كنت سعيدة بالخروج من المجمّع وكل سياسته القذرة، حتى إني كنت أرجو أن لا تقترب عائلتي منه مرة أخرى.

أحببتُ شارعنا الجديد أيضاً. كان اسمه «شارع الشهاب»، لأن نيزكاً سقط هناك، قبل مئات السنين. كان الشارع مرصوفاً بالحجارة المسحوقة، التي كنت أفضلها كثيراً على السطح الإسفلتي للشارع، الواقع خارج المجمع.

الشيء الوحيد، الذي كان يذكرني بالمجمع، هو بعض جيراننا، الذين يعملون في قسم أبي، وينتمون إلى «متمردي» السيدة شاو. فحين ينظرون إلينا، كانوا يفعلون ذلك بتعابير جمود حديدي، وفي المناسبات النادرة، التي لا مفر منها، عندما كان علينا أن نتواصل، كانوا يكلموننا بجفاء. كان أحدهم محرر المجلة المغلقة، وزوجته

معلمة. كان لديهما ولد في السادسة، اسمه جو ـ جو، بعمر أخي شياو ـ فانغ. جاء موظف حكومي صغير، له ابنة في الخامسة، للسكن معهم، وكان الأطفال الثلاثة كثيراً ما يلعبون معاً في الحديقة. كانت جدتي تتوجس من لعب شياو ـ فانغ، معهما، ولكنها لم تجرؤ على منعه ـ جيراننا يمكن أن يفسروا ذلك، بأنه عداء ضد «متمردي» الرئيس ماو.

عند أسفل الدرجات الحلزونية الحمراء ـ النبيذية، التي تفضي إلى غرفنا، توجد منضدة كبيرة، على شكل هلال. في الأيام الخوالي، كانت توضع عليها زهرية ضخمة من الخزف، فيها باقة من الياسمين الشتائي أو أزهار الدراق. المنضدة، الآن، عارية، وغالباً ما كان الأطفال الثلاثة يلعبون عليها. ذات يوم، كانوا يلعبون لعبة «الطبيب»: جو ـ جو كان الطبيب وشياو ـ فانغ الممرض والفتاة ابنة الخامسة المريضة. تمددت الفتاة على المنضدة، ورفعت تنورتها لتلقي الحقنة. كان شياو ـ فانغ يمسك قطعة من الخشب، من مؤخرة كرسي مكسور، كأنها «إبرته». في تلك اللحظة، صعدت أم الفتاة درجات السلم إلى منبَسَطِه. صرخت، واختطفت ابنتها من فوق المنضدة.

وجدت بضعة خدوش في باطن فخذ الطفلة. وبدلاً من أخذها إلى المستشفى، جلبت بعض «المتمردين»، من مكتب أبي، على بعد شارعين. وسرعان ما سار حشد داخلاً الحديقة الأمامية. أمي المعتقلة، التي اتفق وجودها في البيت، لبضعة أيام، أوقفت على الفور. وقام الكبار باختطاف شياو ـ فانغ، والصياح عليه. قالوا له إنهم «سيضربونه حتى الموت»، إذا رفض أن يقول مَنْ علّمه أن «يغتصب الفتاة». حاولوا إجباره على القول إن إخوته الأكبر علّموه. شياو ـ فانغ كان عاجزاً عن قول أي كلمة، بل عاجزاً حتى عن البكاء. وبدا جو ـ جو خائفاً بشدة. بكى، وقال إنه هو الذي طلب من شياو ـ فانغ إعطاء الحقنة. بكت الطفلة، أيضاً، قائلة إنها لم تحصل على حقنتها. ولكن الكبار صرخوا بهما أن يخرسا، واستمروا في تهديد شياو ـ فانغ. أخيراً، باقتراح من أمي، انطلق الحشد إلى «مستشفى الشعب» في سيشوان، دافعين أمي، وساحبين شياو ـ فانغ.

ما أن دخلت أم الطفلة والحشد الهائج، بصورة دراماتيكية، قسم العيادة الخارجية، حتى بدأوا يكيلون الاتهامات أمام الأطباء والممرضات والمرضى الآخرين: «ابن مناصر للطريق الرأسمالي، اغتصب ابنة «متمرد»! وعلى الوالدين

نصيري الطريق الرأسمالي أن يدفعا الثمن!». وفيما كانت الفتاة تُفحص في غرفة الأطباء، صاح شاب في الرواق، شاب غريب تماماً: «لماذا لا تنقضُوا على الوالدين المناصرين للطريق الرأسمالي، وتضربوهما حتى الموت؟».

حين انتهت الطبيبة من فحص الفتاة، أعلنت أنه ليس هناك أي أثر على الإطلاق، يشير إلى أن الفتاة تعرضت للاغتصاب. وأن الخدوش على فخذها، ليست حديثة العهد، وما كان من الممكن أن تسببها قطعة شياو ـ فانغ الخشبية، المدهونة والناعمة، مبرزة إياها للحشد. والأرجح أنها ناجمة عن تسلق شجرة. تفرق الحشد على مضض.

ذلك المساء، كان شياو ـ فانغ محموماً. كان وجهه أحمر أدكن وكان يصرخ هاذياً بشكل غير مفهوم. في اليوم التالي، حملته أمي إلى مستشفى، حيث أعطاه أحد الأطباء جرعة كبيرة من المسكنات. وبعد أيام قليلة، استرد عافيته، ولكنه توقف عن اللعب مع الأطفال الآخرين، إثر هذا الحادث، قال كلمة الوداع لطفولته، وهو في السادسة من العمر.

تُرك انتقالنا إلى «شارع الشهاب» وقفاً على موارد جدتي ونحن الأطفال الخمسة. ولكننا كنا، حينذاك، نحظى بمساعدة تشينغ ـ يي، صديق أختي شياو ـ هونغ.

كان والد تشينغ ـ يي مسؤولاً صغيراً، في ظل الكومنتانغ، ولم يتمكن من الحصول على عمل مناسب، بعد عام ١٩٤٩، بسبب ماضيه غير المرغوب فيه، من جهة، ولأنه كان مصاباً بمرض السل، وبقرحة معدية، من جهة أخرى. كان يقوم بأعمال مختلفة، مثل تنظيف الشوارع، وجباية الرسوم عند حنفية ماء بلدية. وخلال المجاعة، مات وزوجته، في تشونغ كنغ، حيث كانا يعيشان، بسبب المرض، الذي تفاقم بالجوع.

كان تشينغ ـ يي عاملاً في مصنع لإنتاج محركات الطائرات، والتقى بأختي في بداية ١٩٦٨. وكان، شأنه شأن معظم العاملين في المصنع، عضواً خاملاً في مجموعة «المتمردين» الرئيسية فيه، التي كانت تنتمي إلى معسكر «٢٦ آب/ أغسطس». في تلكم الأيام، لم تكن هناك تسلية ترفيهية، فعمدت أغلبية مجموعات «المتمردين» إلى تشكيل فرقها الخاصة، للرقص والغناء، التي كانت تؤدي الأغنيات القليلة، المزكاة،

من أقوال ماو، وفي مديحه. تشينغ ـ يي، الذي كان موسيقياً جيداً، كان عضو فرقة كهذه. ورغم أن شقيقتي، التي تعشق الرقص، لم تكن من عمال المصنع، إلا أنها انضمت إلى الفرقة مع «دبدوبة» وتشنغ ـ تشنغ. وسرعان ما وقعت وتشينغ ـ يي في غرام أحدهما بالآخر. تعرضت العلاقة لضغوط من كل الجوانب: من شقيقته وزملائه العمال، الذين كانوا قلقين من أن يهدد الارتباط بعائلة مناصر للطريق الرأسمالي، مستقبله، ومن وسطنا نحن أبناء المسؤولين الكبار، الذين كنا نزدريه، لأنه لم يكن «واحداً منا» ومني أنا، اللامعقولة، إذ اعتبرت رغبة أختي في أن تعيش حياتها، تنكراً لوالدينا. ولكن حبهما صمد، بل دعم أختي في السنوات العصيبة التالية. وسرعان أن أصبحتُ أستلطف تشينغ ـ يي، وأحترمه كثيراً، وكذلك فعلت عائلتي كلها. ولأنه كان يستخدم نظارات، فقد أخذنا نسميه «نظير».

موسيقي آخر في الفرقة، وهو أحد أصدقاء «نظير»، كان نجاراً، وابن سائق شاحنة. كان شاباً طيباً، ذا أنف كبير بشكل عجيب، يجعله يبدو غير صيني. في تلكم الأيام، كان الأجانب الوحيدون، الذين كثيراً ما نرى صورهم، هم من الألبان، لأن ألبانيا الصغيرة، النائية، كانت حليف الصين الوحيد. لذا، كان أصدقاؤه يلقبونه بـ «آل»، مختصر «ألباني».

جاء «آل» ومعه عربة، لمساعدتنا على الانتقال إلى «شارع الشهاب». وإذ كنا لا نريد إجهاده، فقد اقترحتُ أن نترك بعض الأشياء، ولكنه أرادنا أن نأخذ كل شيء. وبابتسامة لا مبالية، شد قبضته، وقلَّص بفخر عضلاته البارزة المتصلبة. وكان أخوتي يتلمسون الكتل الصلبة بإعجاب كبير.

كان «آل» شديد الإعجاب بـ «دبدوبة». وفي اليوم التالي لانتقالنا، دعاها وتشنغ ـ تشنغ وأنا معهما، إلى الغداء في بيته، وهو من بيوت تشينغدو الشائعة، عديمة النوافذ بأرضية طينية، وتنفتح مباشرة على الرصيف. كانت تلك أول مرة أدخل فيها أمثال هذه البيوت. حين وصلنا إلى الشارع، الذي يسكن فيه «آل»، رأيت مجموعة من الشبان يتسكعون على قارعة الطريق. تبعتنا عيونهم، وهم يحيّون «آل» تحية مشدَّدة. خجل في افتخار، وتوجه إليهم لمحادثتهم. عاد بابتسامة مشرقة على وجهه. وبلهجة غير متكلفة، قال: «أخبرتهم أنكن بنات مسؤولين كبار، وأني عقدتُ صداقة معكن، لأتمكن من وضع يدي على سلع ممتازة، عندما تنتهي الثورة الثقافية».

كنتُ مذهولة. أولاً، ما قاله كان يوحي أن الناس يعتقدون أنه يمكن أبناء المسؤولين الحصول على سلع استهلاكية، الأمر الذي لم يكن صحيحاً. وثانياً، أني عَجِبتُ لسروره الواضح بعلاقته بنا، وللمكانة التي من الواضح أنها تمنحه إياها، في نظر أصدقائه. وفي وقت كان والداي رهن الاعتقال، وكنا طردنا، لتونا، من المجمع، وشكلت «اللجنة سيشوان الثورية»، وأُسقط أنصار الطريق الرأسمالي، وبدا أن «الثورة الثقافية» تكللت بالانتصار، كان «آل» وأصدقاؤه لا يزالون، على ما يبدو، يعتبرون من المسلم به، أن يعود مسؤولون مثل والديَّ، ثانية.

قدّر لي أن أصادف مواقف مماثلة، المرة تلو الأخرى. فكلما خرجت من بوابة فنائنا الشامخة، كنتُ دائماً أحسّ بنظرات الناس، في «شارع الشهاب»، نظرات كانت خليطاً من الفضول والتهيّب. كان واضحاً لي، أن الرأي العام يعتبر «اللجان الثورية» هي العابرة، وليس أنصار الطريق الرأسمالي.

في خريف ١٩٦٨، جاء فريق، من نوع جديد، لاستلام مدرستي. كانوا يسمون «فرق الدعاية لفكر ماو تسي تونغ». وإذ كانت تتألف من جنود أو عمال، لم يشاركوا في اقتتال الأجنحة، فقد كانت مهمتهم إعادة النظام. في مدرستي، كما في كل المدارس الأخرى، استدعى الفريق كل التلاميذ، الذين كانوا في المدرسة عندما بدأت «الثورة الثقافية»، قبل عامين، حتى يمكن إبقاؤهم تحت المراقبة. لوحق القلائل، الذين كانوا خارج المدينة، وتم استدعاؤهم برقياً. وقلة منهم تجرأوا على التخلف.

في المدرسة، لم يكن المعلمون، الذين لم يقعوا ضحية، يمارسون التدريس. لم يجرؤوا على ذلك. فالكتب المدرسية القديمة كلها، أُدينت بوصفها «سمّاً بورجوازياً»، ولم يكن لدى أحد الشجاعة الكافية، لوضع كتب جديدة. لذا، كنا نجلس في الصفوف، نتلو مقالات ماو، ونقرأ افتتاحيات صحيفة «الشعب» اليومية. كنا ننشد أغنيات، كلماتها من أقوال ماو، أو نتجمع لأداء «رقصات الولاء» دائرين وملوحين بكتبنا الحمراء الصغيرة.

كان إعلان «رقصات الولاء» إلزامية، أحد الأوامر الرئيسية، الصادرة عن اللجان الثورية، في سائر أنحاء الصين. وكان هذا التلوي اللامعقول قسرياً، في كل مكان: في المدارس والمعامل، في الشوارع، في المتاجر، على أرصفة المحطات، بل في المستشفيات للمرضى، الذين ما زال في إمكانهم أن يتحركوا.

كانت فرقة الدعاية، التي أُرسلت إلى مدرستي، وديعة إلى درجة معقولة. ولم تكن الفرق الأخرى كذلك. فالفرقة العاملة في جامعة تشينغدو، كانت من اختيار الزوجين تنغ، لأن الجامعة كانت مقر عدوهما، معسكر «تشينغدو الحمراء». وقد عانى يان ويونغ أكثر من سواهما. أوعز الزوجان تنغ إلى فرقة الدعاية، بالضغط عليهما من أجل أن يدينا أبي. رفضا. وفيما بعد، قالا لأمي إنهما كانا معجبين بشجاعة أبي، بحيث قررا اتخاذ موقف حاسم.

في نهاية ١٩٦٨، أُعلن عن «تخريج» كل الطلاب الجامعيين في الصين، بالجملة، دون امتحانات، وتم تعيينهم في وظائف، وتشتيتهم في كل زاوية. وحُذر يان ويونغ من أنهما إذا لم ينبذا أبي، فلن يكون لهما مستقبل. ولكنهما ثبتا على موقفهما. فأُرسلتْ يان إلى منجم فحم صغير، في جبال شرق سيشوان. وكان هذا أسوأ عمل يمكن أن يُعطى لأحد، حيث كانت ظروف العمل بدائية جداً، ولم تكن هناك إجراءات سلامة، من الناحية العملية. وكان على النساء، شأنهن شأن الرجال، أن يزحفن إلى قعر المنجم، على الأطراف الأربعة، لسحب سلال الفحم إلى الخارج. كان مصير يان، في أحد أسبابه، نتيجة الخطابية المشوهة، في ذلك الوقت: أصرت زوجة ماو على أن تؤدي المرأة العمل نفسه، الذي يؤديه الرجل، وكان أحد شعارات تلك الأيام، قول ماو: «النساء قادرات على أن يرفعن نصف السماء». ولكن المرأة، كانت تعرف أنها حين أُعطيت امتياز هذه المساواة، كان ينتظرها عمل عضلي شاق.

بعد طرد الطلاب الجامعيين، اكتشف طلاب المدارس المتوسطة، من أمثالي، أنهم سوف يُنفَون إلى مناطق ريفية وجبلية نائية، لأداء عمل زراعي يقصم الظهر. كان ماو يريدني أن أقضي ما تبقى من حياتي فلاحة.

٢٢ ـ «إصلاح الفكر، من خلال العمل» ـ إلى حافة جبال الهملايا (كانون الثاني/يناير ـ حزيران/يونيو ١٩٦٩)

في عام ١٩٦٩، طُردنا أنا ووالداي وأختي وأخي جن ـ منغ، من تشينغدو، الواحد تلو الآخر، وأُرسلنا إلى مناطق متباعدة من أرياف سيشوان. كنا بين ملايين من سكان المدن، الذين نُفوا إلى الريف. بهذه الطريقة لن يتسكع الشباب في المدن، عاطلين، يثيرون المتاعب بدافع الضجر القاتل، وسيكون للكبار، من أمثال والديَّ، «مستقبل». فقد كانوا جزءاً من الإدارة القديمة، التي حلت محلها لجان ماو الثورية، وكان نفيهم إلى الأرياف للقيام بأعمال شاقة، حلاً مريحاً.

أُرسلنا إلى الريف بغية «إصلاحنا»، وفقاً لخطاب ماو. فقد دعا ماو الجميع إلى «إصلاح الفكر، من خلال العمل»، ولكنه لم يوضح قط العلاقة بين الاثنين. وبالطبع، لم يطلب أحد إيضاحاً. فمجرد التفكير في سؤال كهذا، يعدّ خيانة. كان الجميع في الصين، يعرفون أن الأشغال الشاقة، وخاصة في الريف، تعني دائماً عقوبة. وكان لافتاً أن أحداً من أعوان ماو، أعضاء اللجان الثورية حديثة التشكيل، وضباط الجيش ـ والقليل جداً من أطفالهم ـ لم يتعين عليه أن يفعل ذلك.

أول من طُرد منا، كان أبي. ففي عام ١٩٦٩، أُرسل إلى محافظة مي يي، في مقاطعة شيتشانغ، على الحافة الشرقية من جبال الهملايا، وهي منطقة نائية، بحيث إنها اليوم قاعدة إطلاق الأقمار الصناعية الصينية. وهي تبعد حوالي ٣٠٠ ميل عن تشينغدو، وتستغرق الرحلة إليها بالشاحنة أربعة أيام، لعدم وجود خط سكة حديد.

في الأزمنة القديمة، كانت المنطقة تستخدم كمنفى، إذ كان يعتقد أن جبالها ومياهها مشبعة بـ «هواء شرير» غامض. وبمصطلحات اليوم، كان «الهواء الشرير» أمراضاً شبه مدارية.

أقيم معسكر هناك، لإسكان مسؤولي الحكومة الإقليمية السابقين. كانت هناك آلاف من هذه المعسكرات، في سائر أنحاء الصين. تسمى «مدارس الكوادر». ولكنها لم تكن مدارس، إلى جانب أنها لم تكن للمسؤولين وحدهم. فالكتاب والمفكرون والعلماء والمعلمون والأطباء والممثلون، الذين أصبحوا «عديمي الفائدة»، في نظام ماو التجهيلي الجديد، كانوا أيضاً يشحنون إلى هناك.

لم يكن أنصار الطريق الرأسمالي، من أمثال أبي، وغيرهم من الأعداء الطبقيين، وحدهم هم الذين يرسلون إلى المعسكرات، من المسؤولين. فجل زملائهم «المتمردين» طردوا أيضاً، لأن لجنة سيشوان الثورية، لم تتمكن من استيعابهم جميعاً، بعد أن استأثر بمناصبها عسكريون، و «متمردون» من أصول أخرى، مثل الفلاحين والطلاب. أصبح «إصلاح الفكر، من خلال العمل» طريقة سهلة للتعامل مع الفائض من المتمردين. ولم يبق إلا قلة في تشينغدو، في قسم أبي. وأصبحت السيدة شاو نائبة مدير الشؤون العامة، في لجنة سيشوان الثورية. وكل منظمات «المتمردين» قد حُلَّت، الآن.

«مدارس الكوادر»، لم تكن معسكرات اعتقال، بل كانت أماكن حجْر معزولة، حيث للنزلاء حرية مقيدة، وعليهم أداء أعمال شاقة، تحت إشراف صارم. ولأن كل منطقة زراعية، في الصين، هي ذات كثافة سكانية عالية، فإن المناطق القاحلة أو الجبلية وحدها، هي التي كان فيها مجال لاحتواء المنفيين من المدن. كان على النزلاء أن ينتجوا غذاء، ويعيلوا أنفسهم بأنفسهم. ورغم أنهم استمروا في تسلم مرتباتهم، فإنه لم يكن هناك الكثير مما يمكن شراؤه. كانت الحياة قاسية جداً.

أُفرج عن أبي، من معتقله في تشينغدو، قبل أيام قليلة من رحيله، لكي يتهيأ للرحلة. الشيء الوحيد، الذي كان يتوق إليه، هو رؤية أمي. كانت لا تزال معتقلة، وظن أنه ربما لا يراها مرة أخرى. كتب إلى «اللجنة الثورية»، بتواضع قدر الإمكان، متوسلاً السماح له برؤيتها. وقوبل طلبه بالرفض.

السينما، التي كانت أمي محتجزة فيها، تقع في شارع من أكثر الشوارع التجارية

ازدحاماً، في تشينغدو. وكانت المتاجر، آنئذٍ، شبه فارغة، ولكن السوق السوداء، للأجزاء شبه الموصلة، التي كان أخي جن ـ منغ يتردد إليها، كانت على مقربة منا، وكان، أحياناً، يرى أمي تسير في الشارع، ضمن طابور من المعتقلين، حاملة سلطانية وزوجاً من عيدان الأكل. المطعم في السينما، لم يكن يعمل كل يوم، فكان على المعتقلين أن يخرجوا لتناول وجباتهم. كان اكتشاف جن ـ منغ، يعني أننا نستطيع، أحياناً، أن نرى أمي، عبر الانتظار في الشارع. أحياناً، كانت لا تظهر مع المعتقلين الآخرين، فيستبد بنا القلق. لم نعرف أن هذه كانت هي المرات، التي تعاقبها حارستها المختلة عقلياً، بحرمانها من الإذن بالخروج والأكل. ولكننا ربما كنا نلمحها في اليوم التالي، واحدة بين مجموعة من الرجال والنساء الصامتين المتجهمين، رؤوسهم مطأطأة، وكلهم يضعون عصائب بيضاء على أذرعهم، عليها أربعة رموز سوداء خبيثة: «الشيطان، الثور، إبليس، الأفعى».

أخذتُ أبي إلى الشارع، عدة أيام متتالية، وكنا ننتظر هناك، من الفجر حتى وقت الغداء. ولكن لم يكن لها أثر. كنا نذرع المكان جيئة وذهاباً، خابطين أقدامنا على الرصيف المغطى بالجليد، طلباً للدفء. ذات صباح، كنا نراقب الضباب الكثيف، ينقشع كاشفاً عن المباني الإسمنتية الجامدة، عندما ظهرت أمي. وإذ كانت قد رأت أطفالها مرات عديدة في الشارع، فقد رفعت نظرها بسرعة، لترى إن كنا هناك هذه المرة. التقت عيناها بعيني أبي. ارتجفت شفاههما ولكن لم تخرج منهما أصوات، ثبَّتا أنظارهما فقط أحدهما على الآخر، حتى صاحت الحارسة بأمي أن تخفض رأسها. وبعد فترة طويلة من انعطافها عند الزاوية، كان أبي واقفاً يحدق في اتجاهها.

بعد يومين، رحل أبي. رغم هدوئه وتحفظه، لمستُ دلائل على أن أعصابه على وشك الانهيار. كنت قلقة إلى حد اليأس، خشية أن يصاب بالجنون ثانية، لا سيما الآن، إذ يتعين عليه أن يعاني عذابه الجسدي والذهني وحيداً، دون أن تكون عائلته قريبة منه. قررتُ أن أذهب إلى مي يي، عما قريب، لأكون رفيقة له، ولكن كان من الصعب جداً إيجاد واسطة نقل إليها، لأن الخدمات العامة إلى مناطق نائية كهذه، كانت مشلولة. لذا، حين قيل لي، بعد أيام، إن مدرستي سترسل إلى مكان اسمه نينغنان، لا يبعد إلا خمسين ميلاً عن معسكره، كنت جد مسرورة.

في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٩، أُرسلت كل مدرسة متوسطة إلى منطقة ريفية، في

مكان ما من سيشوان. وكان علينا أن نعيش في القرى، بين الفلاحين، وأن «يعاد تثقيفنا» على أيديهم. ولم يُحدَّد، على وجه الدقة، ما الذي عليهم أن يثقفونا فيه، ولكن ماو، كان دائماً يرى أن الذين لديهم قسط من التعليم متخلفون عن الفلاحين الأميين، ويحتاجون إلى إصلاح أنفسهم، ليكونوا مثلهم. وكان أحد أقواله: «إن للفلاحين أيادي قذرة، وأقداماً غارقة في روث الأبقار، ولكنهم أكثر نظافة من المثقفين».

كانت مدرستي ومدرسة أختي مليئتين بأبناء مناصرين للطريق الرأسمالي، فأُرسلوا إلى أماكن قاسية، على نحو خاص. ولم يذهب أي من أبناء الأعضاء في اللجان الثورية. لقد انضموا إلى القوات المسلحة، التي كانت البديل الوحيد، من الريف. وابتداء من هذا الوقت، كان أوضح علامات السطوة، أن يكون أبناء المرء في الجيش.

أُرسل زهاء خمسة عشر مليون شاب وشابة إلى الريف، في واحدة من أكبر الحركات السكانية في التاريخ. وكانت هذه الحركة سريعة، وعلى درجة عالية من حسن التنظيم. كل واحد أعطي منحة للمساعدة على شراء ملابس إضافية، ولحف وملاءات، وحقائب، وشِبَاك ضد البعوض، وقطع بلاستيكية للف الفراش. وأولي اهتمام دقيق لتفاصيل ثانوية، مثل تزويدنا بأحذية خفيفة وقناني ماء ومشاعل. وكان يتعين صنع معظم هذه الأشياء خصيصاً، لأنها لم تكن متوافرة في المتاجر الفقيرة. وكان في مقدور أبناء العوائل الفقيرة، أن يطلبوا معونة مالية إضافية. وتقرر أن تدفع لنا الدولة، في العام الأول، مصروف جيب، وتزودنا بحصص غذائية، بما في ذلك الرز وزيت الطهي واللحم. وكان من المزمع أن تُجمع من القرية المخصصة لنا.

نظم الريف، منذ «الطفرة الكبرى إلى الأمام»، في كوميونات، وكانت كل كوميونة منها تضم عدداً من القرى، ويمكن أن تشتمل على عدد يراوح بين ألفين و٢٠ ألف عائلة. وتخضع للكوميونة كتائب إنتاج، تحكم، بدورها، عدة فرق إنتاجية. وكانت الفرقة الإنتاجية تعادل قرية تقريباً، وتشكل الوحدة الأساسية لحياة الريف. في مدرستي، أُلحق بكل فرقة إنتاجية عدد من التلاميذ، يصل إلى ثمانية، وكان مسموحاً لنا أن نختار مَنْ نريد تشكيل مجموعة معهم. اخترتُ أنا صديقاتي من صف «دبدوبة». واختارت أختي أن تذهب معي، بدلاً من الذهاب مع مدرستها: كان مسموحاً لنا أن نختار الذهاب إلى مكان مع قريب. أخي جن ـ منغ، رغم أنه كان في

مدرستي نفسها، بقي في تشينغدو، لأنه لم يبلغ بعد السادسة عشرة، التي هي الحد الأدنى لانضمام إلى فرقة إنتاجية. «دبدوبة» لم تذهب أيضاً، لأنها كان الابنة الوحيدة لعائلتها.

كنت أتطلع إلى نينغنان. لم تكن لديَّ خبرة حقيقية بالمعاناة الجسدية، ولم أكن أقدِّر كثيراً ما تعنيه. تخيلت نينغنان بيئة رعوية، حيث لا وجود للسياسة. جاء مسؤول منها ليتحدث إلينا، فوصف المناخ شبه المداري، بسمائه الزرقاء العالية، وأزهار الخبازى الحمراء الضخمة، وموز طول الواحدة منه قدم، و«نهر الرمل الذهبي» ـ القسم العلوي من نهر يانغ تزي ـ يتألق في الشمس الساطعة، متموجاً مع النسمات العذبة.

كنت أعيش في عالم من الضباب الرمادي، والشعارات الجدارية السوداء، وكان ضوء الشمس والنباتات المدارية، كالحلم عندي. وإذ كنتُ أستمع إلى المسؤول، فقد تصورتُ نفسي في جبل من الأزهار، مع نهر ذهبي تحت قدمي. أتى المسؤول على ذكر «الهواء الشرير» الغامض، الذي قرأتُ عنه في الأدب الكلاسيكي، ولكن ذلك أضاف لمسة من سر الماضي الساحر. لم يكن الخطر موجوداً عندي، إلا في الحملات السياسية. كنت تواقة إلى الذهاب، أيضاً، لأنني اعتقدتُ أن زيارة أبي ستكون سهلة. ولكن، فاتني أن ألاحظ أن بيننا جبالاً بلا ممرات، ترتفع ١٠ آلاف قدم. ولا غرو، فإني لم أتقن، يوماً قراءة الخرائط.

في ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٦٩، انطلقت مدرستي إلى نينغنان. سمح لكل تلميذ أن يأخذ معه حقيبة واحدة، وفراشاً. حُملنا في شاحنات، حيث لم تكن هناك إلا مقاعد قليلة، وجلس معظمنا على الفرش أو على أرضية الشاحنة. بقي رتل الشاحنات على الطرق الريفية ثلاثة أيام، قبل أن نصل إلى حدود شيتشانغ. مررنا بسهل تشينغدو والجبال الممتدة على الحافة الشرقية للهملايا، حيث تعين على الشاحنات أن تضع سلاسل على عجلاتها. حاولت أن أجلس قرب المؤخرة لكي أتمكن من مراقبة وابل الثلج والبَرَد الدراماتيكي، يبيِّض الكون، ثم ينجلي في الحال، تقريباً، عن سماء فيروزية، وشمس تعشي بإشراقتها. تركني هذا الجمال العاصف مشدوهة، عاجزة عن الكلام. ومن بعيد، في الغرب، كانت تشمخ قمة ارتفاعها ٢٥ ألف قدم تقريباً، تكمن وراءها برارٍ غابرة، نما فيها الكثير من نباتات العالم. لم أدرك، إلا حين جئت إلى

الغرب أن مشاهد يومية مثل الدفلى الوردي والأقحوان وأغلبية الورود والكثير من الزهور الأخرى، ، جاءت من هذه البراري. وكانت لا تزال غير مأهولة بحيوان الباندا.

مساء اليوم الثاني، دخلنا مكاناً اسمه «محافظة الإسبستوس» على اسم منتجها الرئيسي. وفي مكان ما في الجبال، توقفت قافلتنا، لنتمكن من استخدام المراحيض ـ كوخان من الطين، فيهما حفر جماعية دائرية، تغطيها يرقات. ولكن إذا كان المنظر داخل المرحاض مقززاً، فإن المنظر في الخارج كان مرعباً. كانت وجوه العمال رمادية بلون الرصاص، وخاوية من أية حياة. وسألتُ، مرتاعة، رجلاً لطيفاً من الفرقة الدعائية اسمه دونغ ـ آن، الذي كان يأخذنا إلى وجهتنا، مَنْ يكون أشباه الموتى هؤلاء. أجاب، سجناء من أحد معسكرات لاو ـ غي (الإصلاح من خلال العمل). لأن استخراج الإسبستوس عملية شديدة الأذى، ولذلك كانت تنجز بأعمال السخرة، مع القليل من احترازات السلامة أو الصحة. كان هذا لقائي الأول، والوحيد، مع غولاغ صيني.

في اليوم الخامس، أنزلتنا الشاحنة عند مخزن حبوب، على قمة جبل. أوحى لي الإعلام الدعائي، أن أتوقع احتفالاً، حيث الناس تضرب الطبول، وتعلق زهوراً ورقية حمراء على صدور الوافدين الجدد، بحفاوة بالغة. ولكن كل ما حدث أن مسؤولاً من الكوميونة، جاء لملاقاتنا في محطة الحبوب. ألقى كلمة ترحيبية، بلغة الجرائد الطنانة. ثم قدمت مجموعة من الفلاحين لمساعدتنا على حمل أفرشتنا وحقائبنا. كانت وجوههم جامدة ومغلقة، وكلامهم غير مفهوم لي.

مشينا أنا وأختي إلى بيتنا الجديد مع الفتاتين الأخريين والفتيان الأربعة، الذين يكونون مجموعتنا. الفلاحون الأربعة، الذين حملوا بعض متاعنا، كانوا يمشون بصمت مطبق، وبدا أنهم لم يفهموا الأسئلة، التي طرحناها عليهم. نحن أيضاً التزمنا جانب الصمت. ومشينا لساعات، في صف، متوغلين أعمق فأعمق في العالم الكبير لجبال خضراء دكناء. ولكنني كنت متعبة بحيث لم أقدّر جمالها. قمت مرة، بعد عناء، لكي أسند نفسي إلى صخرة، وأسترد أنفاسي، بالنظر إلى البعيد. بدت مجموعتنا ضئيلة، وسط العالم الجبلي، الشاسع بلا حدود، حيث لا طرق ولا بيوت ولا من كائن بشري في الأفق، وحدها الريح، تصفر في الغابات، وخرير جداول خفية. شعرت أنني أتلاشى في برية غريبة ساكنة.

وصلنا، وقت الغروب، إلى القرية غير المنارة. لم تكن هناك كهرباء، وكان الزيت أثمن من أن يهدر، إن لم يكن الظلام دامساً. وقف الناس أمام أبوابهم، وكانوا يحدقون إلينا بنظرات خاوية بلهاء. لم أعرف إن كان ذلك دليل اهتمام، أم عدم اكتراث. مثل هذه النظرات، كان كثير من الأجانب يصادفونه في الصين، بعد انفتاحها أول مرة، إبان السبعينات. والحق، أننا كنا كالأجانب، في نظر الفلاحين، كما كانوا هم أجانب، في نظرنا.

أعدت القرية مسكناً لنا، من الخشب والطين، يتألف من غرفتين كبيرتين ـ غرفة للفتيان الأربعة، وغرفة للفتيات الأربع. وكان ممر يؤدي إلى قاعة القرية، حيث بُني موقد من الآجر لكي نطهو عليه.

سقطتُ متعبة على لوح الخشب الصلب، الذي كان السرير المشترك بيني وبين شقيقتي. تبعنا بعض الأطفال، مطلقين أصواتاً هائجة. بدأوا يطرقون بابنا، ولكن حين نفتحه، كانوا يتفرقون متراكضين، ليعودوا إلى الظهور ودق الباب من جديد. كانوا يسترقون النظر من نافذتنا، التي لم تكن سوى ثقب مربع الشكل في الجدار، بلا مصراع، وكانوا يصرخون مطلقين أصواتاً غريبة. في البداية، ابتسمنا ودعوناهم إلى الداخل، ولكن توددنا لم يلق استجابة. كنت تواقة إلى الاغتسال. علقنا، بالمسامير، قميصاً قديماً على إطار النافذة، كستارة، وبدأنا نغمس مناشفنا في الماء المثلج، في الأحواض المعدة لنا. حاولتُ أن أتجاهل كرير الأطفال، وهم يرفعون «الستارة» مرات متكررة. كان علينا أن نبقى متلفعين بستراتنا المدثرة، أثناء الاغتسال.

قام أحد الفتيان في مجموعتنا بدور القائد، وصلة الوصل بالقرويين. قال لنا إن لدينا أياماً قليلة، ينبغي أن نحصل خلالها على كل ضروراتنا اليومية، مثل الماء والكاز والحطب. وبعد ذلك، سيتعين علينا أن نعمل في الحقول.

كل شيء في نينغنان، كان يتم يدوياً، كما كان منذ ٢٠٠٠ عام على الأقل. لم تكن هناك آلات ـ ولا حيوانات للجر. كان الفلاحون يعانون نقصاً في الغذاء، بحيث إنهم لم يكونوا قادرين على تهيئة أي منه للخيول أو الحمير. وبمناسبة وصولنا، ملأ القرويون خزان ماء دائرياً، من الخزف. وفي اليوم التالي، أدركتُ كم هي عزيزة كل قطرة منه. للحصول على الماء، كان علينا أن نتسلق، لثلاثين دقيقة، ممرات ضيقة إلى البئر، حاملين برميلين خشبيين بواسطة عصا، تُحمل بدورها على

الكتفين. وكان البرميلان، يزنان وهما مملوءان، ٩٠ رطلاً. وكادت كتفاي تنهدان من شدة الألم، حتى حين كان البرميلان فارغين. وشعرت بارتياح بالغ، حين أعلن الفتيان بشهامة أن نقل الماء مهمتهم.

كان الفتيان يطهون أيضاً، لأن ثلاثاً منا نحن البنات، بمن فيهن أنا، لم يمارسن الطهي قط في حياتهن، لكونهن من العوائل المترفة. الآن، بدأتُ أتعلم الطهي بالطريقة الصعبة. كانت الحبوب لما تزل في قشورها، ويتعين وضعها في هاون حجري، وسحنها بمدقة الهاون، بكل ما أوتي المرء من قوة. ثم يتعين صب الخليط في سلة كبيرة، من الخيزران غير عميقة تُهز بحركة معينة من الذارعين، بحيث تتجمع القشور الخفيفة في الأعلى، ويمكن اغترافها بعيداً، وإبقاء الرز. بعد دقيقتين، كانت ذراعاي تؤلماني ألماً لا يطاق، وسرعان ما ترتجفان، بحيث لا أتمكن من رفع السلة. كانت معركة مضنية من أجل كل وجبة.

ثم كان علينا، بعد ذلك، أن نجمع الوقود. كانت المسيرة تستغرق ساعتين إلى الأحراج، التي عينتها أنظمة حماية الغابات منطقة نستطيع أن نجمع الحطب منها. لم يكن مسموحاً لنا إلا بقطع أغصان صغيرة، فكنا نتسلق أشجار الصنوبر المنخفضة، وننهال عليها تشريطاً بسكاكيننا. ثم تُحزم قطع الخشب، وتحمل على ظهورنا. كنت الأصغر سناً في مجموعتنا، فلم يكن عليَّ سوى حمل سلة من إبر الصنوبر. رحلة العودة كانت تستغرق ساعتين إضافيتين، عبر الممرات الجبلية، صعوداً ونزولاً. كنت متعبة لدى العودة، حتى إني شعرت أن حملي لا بد أنه يزن ١٤٠ رطلاً، على أقل تقدير. لم أصدق عيني، حين وضعتُ سلتي في الميزان: كانت خمسة أرطال فقط. وهذه ستحترق في لمح البصر: لم تكن كافية حتى لغلي قدر صغير من الماء.

في واحدة من الرحلات الأولى لجمع الوقود، انمزقت مؤخرة سروالي، خلال نزولي من إحدى الأشجار. كنتُ محرَجة، حتى إني اختبأتُ في الغابة، وخرجتُ الأخيرة، لكي لا يمشي أحد ورائي. الفتيان، الذين كانوا كلهم في منتهى الكياسة، ظلوا يصرون على أن أكون في المقدمة، لكيلا يكون مسيرهم سريعاً بالنسبة إلي. كان عليَّ أن أكرر مرات متعددة، أنني سعيدة بأن أكون الأخيرة، وأنني لا أقول ذلك إمعاناً في الأدب.

حتى الذهاب إلى المرحاض، لم يكن مهمة يسيرة. كان ذلك يتطلب نزول

منحدر زلق حاد، إلى حفرة عميقة، قرب زريبة الماعز. وكانت عجيزة من يذهب إليه، أو رأسه، صوب الماعز، التي لا تتردد في نطح المتطفلين. كنت متوترة، حتى إني لم أتمكن من التغوط، طيلة أيام. وبعد الخروج من زريبة الماعز، كان تسلق المنحدر معركة أخرى. وفي كل مرة أقفل عائدةً، أحمل معي رضوضاً جديدة في مكان ما.

في اليوم الأول من عملنا مع الفلاحين، كُلِّفتُ بحمل روث الماعز والسماد، من «المرحاض» الذي نستعمله، إلى الحقول الصغيرة، التي أُحرقت، لتوها، بغية التخلص من الدغل والعشب، فأمست أرضها مغطاة الآن بطبقة من الرماد النباتي، الذي يسمّد التربة مع روث الماعز وبراز الإنسان، للحراثة الربيعية، التي كانت تنجز يدوياً.

كنتُ أحمل السلة الثقيلة على ظهري، وأزحف بشق النفس، متسلقة المنحدر على الأطراف الأربعة. كان الروث جافاً إلى حد معقول، ومع ذلك، بدأ شيء منه يتسرب إلى سترتي القطنية، ومن خلالها إلى قميصي الداخلي ـ وقفايَ. وكان يتساقط أيضاً من فوق السلة، ويتسرّب إلى شعري. وحين وصلت إلى الحقل، كنتُ أرى الفلاحات يفرغن حمولتهن بمهارة، بثني خصورهن جانباً، وقلب السلال بطريقة، تجعل المحتويات تندلق متساقطة. ولكن لم تمكنني تلك الطريقة. واستعجالاً للتخلص من الثقل الواقع على ظهري، كنت أحاول نزع السلة. أخرجت ذراعي اليمنى من حزامها، وفجأة، مالت السلة ميلاً حاداً إلى اليسار، آخذة كتفي اليسرى معها. سقطتُ على الأرض، وسط السماد. وفي وقت لاحق، خلعت إحدى الصديقات ركبتها، بهذه الطريقة. أنا لم أُصَبْ إلا بالتواء طفيف في خصري.

كانت المقاساة جزءاً من «إصلاح الفكر». نظرياً، كان ينبغي التلذذ بها، لأنها تقرّب المرء من أن يصبح إنساناً جديداً، أكثر شبهاً بالفلاحين. قبل «الثورة الثقافية»، كنت أؤيد هذا الموقف الساذج، من كل قلبي، وكنت أتعمد القيام بعمل شاق، لأجعل من نفسي شخصاً أفضل. ذات مرة، في ربيع ١٩٦٦، كان تلاميذ صفي يساعدون على بعض أعمال الطرق. طُلب من البنات أداء أعمال خفيفة، مثل فصل الأحجار، التي كان الفتيان، بدورهم، يكسّرونها. عرضتُ أنا أن أؤدي عمل الفتيان، وانتهيت بذراعين متورمتين ورماً فظيعاً، من سحق الأحجار بمطرقة ضخمة، كنت بالكاد أستطيع رفعها. الآن، بعد ثلاث سنوات فقط، كان تلقيني ينهار. وإذ تبدد السند السيكولوجي، الناجم عن الإيمان الأعمى، فقد وجدتُ نفسي أكره المقاساة في جبال نينغنان. بدتْ لي بلا أي معنى.

ظهر على جلدي طفح ذو خطر، فور وصولي إلى نينغنان. وعلى امتداد أكثر من ثلاث سنوات، كان هذا الطفح يعود ما أن أكون في الريف، وبدا أنه ليس هناك دواء قادر على علاجه. كنت أتعذب، ليل نهار، بالحكة، ولم أستطع منع نفسي من الحك. وفي غضون ثلاثة أسابيع من بدء حياتي الجديدة، توزّعت جسمي قروح عديدة، تنز قيحاً، وكانت ساقاي متورمتين من الالتهابات. كما أصبتُ بإسهال وتقيؤ. كنت ضعيفة ومريضة على نحو بغيض، طول الوقت الذي كنت أحتاج فيه إلى قوة جسدية أكثر من أي شيء آخر، وكان مستوصف الكوميونة يبعد ثلاثين ميلاً، أو نحو ذلك.

ما لبثتُ أن خلصتُ إلى أنه ليس لديَّ فرصة تذكر، لزيارة أبي في نينغنان. كان أقرب الطرق إليه يستغرق يوماً من المشي الحثيث. وحتى عند الوصول إليه، لم تكن هناك وسائل نقل عامة. كانت الشاحنات قليلة، وتمر في فترات متباعدة، وكان من المستبعد جداً أن تكون ذاهبة من مكان وجودي، إلى مي يي. ولحسن الحظ، جاء رجل الفرقة الدعائية دونغ ـ آن إلى قريتنا، ليتأكد من استقرارنا على ما يرام، وحين رآني مريضة، اقترح، بكرم، أن أعود إلى تشينغدو للعلاج. وكان هو عائداً مع آخر الشاحنات، التي نقلتنا إلى نينغنان. وهكذا بعد ٢٦ يوماً من وصولي، انطلقتُ عائدة إلى تشينغدو.

أدركتُ، وأنا مغادرة، أنه لم يتسن لي معرفة الفلاحين في قريتنا. الوحيد الذي تعرفتُ به، كان محاسب القرية، الذي إذ كان أكثر الموجودين تعليماً، فقد كان يأتي لزيارتنا في أحيان كثيرة، مدعياً صلة قربى فكرية. بيته كان البيت الوحيد، الذي دخلتُه، وما أذكره أكثر من أي شيء آخر، نظرات الارتياب في عيني زوجته الشابة. كانت تنظف أمعاء خنزير دامية، وعلى ظهرها رضيع صامت. عندما حييتها، رمقتني بنظرة عدم اكتراث، ولم ترد تحيتي. شعرتُ بكوني غريبة ومتضايقة، وسرعان ما غادرت.

في الأيام القليلة، التي عملت خلالها مع القرويين، لم تكن لديَّ طاقة إضافية تذكر، ولم أتحدث معهم حديثاً حقيقياً. كانوا يبدون بعيدين، غير مهتمين، تفصلهم عني جبال نينغنان المنيعة. كنتُ أعرف أنه علينا أن نبذل مجهوداً لزيارتهم، كما كانت صديقاتي وأختي، اللواتي كنَّ في حالة أفضل، يفعلن في الأماسي، ولكني كنتُ متعبة ومريضة وأحك، طول الوقت. يضاف إلى ذلك، أن زيارتهم كانت ستعني

استسلامي لهذا النوع من الحياة، وإن بقدر، وأنا رفضت لا شعورياً، القبول بحياة فلاحة. ودون أن أقولها لنفسي، رفضت الحياة التي خصَّني بها ماو.

عندما حان وقت رحيلي، افتقدت فجأة جمال نينغنان الاستثنائي. لم أقدر الجبال حق قدرها، حين كنت في صراعي مع الحياة هنا. جاء الربيع مبكراً، في شباط/فبراير، وكانت الياسمينات الشتائية الذهبية، تتألق إلى جانب المخاريط الثلجية المتدلية من أشجار الصنوبر. وكانت الجداول في الوادي تصنع البركة تلو الأخرى، من البرك الصافية، التي تتخلل ما حولها صخور ذات أشكال طريفة. كانت الانعكاسات في الماء انعكاسات سُحب رائعة، وقمم أشجار وارفة، وأزهار عديمة الأسماء منبثقة برشاقة من الشقوق في الصخور. كنا نغسل الملابس في هذه البرك السماوية، وننشرها على الصخور، لكي تجف في حرارة الشمس والهواء العليل. ثم نستلقي على العشب، ونستمع إلى اهتزازات غابات الصنوبر، عندما يداعبها النسيم. كنت أتأمل، بإعجاب، سفوح الجبال البعيدة أمامنا، تكسوها أشجار الدراق البري، وأتخيل كتل الورد، التي ستتكون في غضون أسابيع قليلة.

حين وصلتُ إلى تشينغدو، بعد أربعة أيام متواصلة في مؤخرة شاحنة فارغة، وآلام معدية متواصلة وإسهال مستمر، توجهتُ فوراً إلى المستوصف الملحق بالمجمّع. ساعدتني الحقن والحبوب بسرعة فائقة. كان المستوصف لا يزال مفتوحاً لعائلتي، كالمطعم. فـ «اللجنة الثورية» في سيشوان، كانت منقسمة ـ وكانت من الدرجة الثانية: لم تتمكن من تنظيم إدارة عاملة، ولم تفلح حتى في إصدار أنظمة، تتعلق بالكثير من نواحي الحياة اليومية. نتيجة لذلك، كان النظام مليئاً بالثغرات، واستمر الكثير من الأساليب القديمة، وكان الناس يُتركون لتدبير أمورهم بوسائلهم الخاصة. لم ترفض إدارتا المطعم والمستوصف خدمتنا، فبقينا متمتعين بخدمات هذين المرفقين.

بالإضافة إلى الحقن والحبوب الغربية في المستوصف، رأت جدتي إني أحتاج إلى عقاقير صينية. وذات يوم، جاءت إلى البيت ومعها فرخة وجذور البيقة الحليبية الغشائية وحشيشة الملاك الصينية، التي كانت كلها تعتبر «بو» (شافية)، وأعدّت لي حساء، رشّت عليه قطعاً صغيرة جداً من بصل الربيع. هذه المواد لم تكن موجودة في الأسواق، وكان عليها أن تقطع أميالاً، لشرائها من سوق سوداء في الريف.

جدتي هي نفسها، لم تكن في صحة جيدة. أحياناً كنتُ أراها مستلقية على السرير. الشيء الذي لم يكن معهوداً منها على الإطلاق. فقد كانت دائماً نشيطة، حتى إني كنت نادراً ما أراها تجلس ساكنة، لدقيقة واحدة. الآن، كانت عيناها مغلقتين بإحكام، وكانت تعض شفتيها بقوة، جعلتني أشعر أنها لا بد تعاني ألماً شديداً. ولكن حين كنت أسألها عما يعتريها، كانت لا تبوح بشيء، وكانت تواصل تسلُّم العقاقير، وتقف في الصف للحصول على غذاء لي.

سرعان ما تحسنت صحتي. ولأنه لم تكن هناك سلطة لتأمرني بالعودة إلى نينغنان، بدأتُ التخطيط للقيام برحلة من أجل زيارة أبي. ولكن وصلتْ في ذلك الوقت برقية من يي بِين، تقول إن عمتي جون ـ ينغ، التي تعتني بأخي الأصغر شياو ـ فانغ، مريضة جداً. فرأيت أن عليَّ الذهاب والاعتناء بها.

كانت العمة جون ـ ينغ وأقارب أبي الآخرون، في يي بِين، طيبين جداً إزاء عائلتي، رغم أن أبي خرق التقليد الصيني الراسخ، في العناية بذوي القربى. تقليدياً كان يعتبر من واجبات الابن حيال الوالدين، أن يحضِّر لأمه تابوتاً خشبياً ثقيلاً، ذا طبقات متعددة من الدهان، وأن يقيم جنازة مهيبة ـ وفي أحيان كثيرة، مرهقة مالياً. ولكن الحكومة كانت تشجع، بقوة، على الحرق، ضناً بالأرض، وتحض على مراسيم تشييع أبسط. وعندما ماتت أمه، في عام ١٩٥٨، لم يبلغ أبي بموتها، إلا بعد التشييع، لأن عائلته كانت تخشى أن يعترض على الدفن والمراسيم المستفيضة. وبعد انتقالنا إلى تشينغدو كانت عائلته نادراً ما تزورنا.

ولكن حين وقع أبي في المتاعب، خلال «الثورة الثقافية»، جاؤوا لزيارتنا، وعرضوا علينا المساعدة. وفي النهاية، أخذت العمة جون ـ ينغ، التي كانت كثيرة السفر بين تشينغدو ويي بِين، على عاتقها العناية بشياو ـ فانغ، لتخفيف بعض العبء عن كاهل جدتي. كانت تشترك في بيت مع شقيقة أبي الصغرى، ولكنها أيضاً تنازلت، بنكران ذات، عن نصف نصيبها، لعائلة قريب، كان عليها أن تهجر مسكنها المتداعي.

حين وصلتُ، كانت عمتي تجلس على كرسي خيزراني صغير، عند الباب الأمامي، المفضي إلى قاعة الاستقبال، التي تقوم مقام غرفة الجلوس. وفي مكان الشرف، يوجد تابوت ضخم، مصنوع من خشب أحمر أدكن ثقيل. هذا التابوت هو

تابوتها، كان الشيء الوحيد، الذي لم تبخل على نفسها به. منظر عمتي غمرني بالحزن. كانت أصيبت، لتوها، بجلطة، وساقاها نصف مشلولتين. كانت المستشفيات لا تعمل إلا بصورة متقطعة. وإذ لم يكن هناك من يسهر على الخدمات، فقد انهارت هذه، وكان إعطاء الدواء عشوائياً. قالت المستشفيات لجون ـ ينغ، إنه ليس هناك ما تستطيع عمله لها، فقررت البقاء في البيت.

ما وجدته عمتي مؤذياً أشد الأذى، هو حركات أمعائها. فبعد الأكل، تشعر بانتفاخ لا يطاق، ولكنها لا تستطيع قضاء حاجتها، دون عذاب شديد. كانت وصفات أقاربها تساعد أحياناً، ولكنها تفشل في أحيان كثيرة. وغالباً ما كنت أدلِّك معدتها، وذات مرة، عندما كانت في أمس الحاجة إلى التغوّط، قمتُ بوضع إصبعي داخل شرجها، في محاولة لإخراج الغائط. كل هذه العلاجات، لم تكن تمنحها إلا راحة مؤقتة. نتيجة لذلك، لم تكن تجرؤ على أكل الكثير. كانت شديدة الضعف، تجلس على الكرسي الخيزراني في قاعة الاستقبال، ساعات، محدقة إلى أشجار الببايا والموز في الحديقة الخلفية. لم تشكُ قط. مرة واحدة فقط، قالت لي بهمس رقيق: «إني جائعة جداً. أتمنى لو أستطيع أكل...».

لم تعد قادرة على المشي دون مساعدة، حتى الجلوس كان يتطلب مجهوداً كبيراً. وللحيلولة دون تقرح ظهرها، لطول الاستلقاء، كنت أجلس إلى جانبها، لتتمكن من الاتكاء عليَّ. قالت إني ممرضة جيدة، ولا بد أني تعبة وضجرة من الجلوس إلى جانبها. ومهما بلغ إصراري، كانت لا تجلس إلا لفترة قصيرة، كل يوم، لكي أستطيع «الخروج والاستمتاع بشيء من التسلية».

بالطبع، لم تكن هناك تسلية في الخارج. كنتُ توّاقة إلى شيء أقرأه. ولكن عدا الأجزاء الأربعة من «مختارات ماو تسي تونغ»، كل ما اكتشفته في البيت، هو قاموس. كل شيء آخر أُحرق. شغلتُ نفسي بدراسة الخمسة عشر ألف رمز في القاموس، متعلمة الرموز، التي لم أكن أعرفها عن ظهر غيب.

كنت أقضي ما تبقى من وقتي في العناية بشقيقي، ابن السبع سنوات، شياو ـ فانغ، أمشي معه مسافات طويلة، وأحياناً كان يشعر بالسأم، ويطالب بأشياء، مثل لعبة مسدس للأطفال، أو حلويات بلون الفحم، كانت الوحيدة المعروضة في المتاجر. ولكن لم تكن لديَّ نقود ـ كانت علاوتنا الأساسية ضئيلة. لم يكن شياو ـ فانغ، وهو في السابعة

من العمر، يُدرك ذلك، وكان يرمي نفسه على الأرض الترابية، يركل، ويصيح، ويمزق سترتي. كنتُ أجثو متوسلة وراجية، وحين يسقط في يدي، كنت أنا أيضاً أبدأ بالبكاء. وحينذاك، كان يتوقف ويصالحني، ونعود إلى البيت متعبين.

كانت يي بِين مدينة حميمة جداً، حتى إبان «الثورة الثقافية». كانت الأنهار المتموِّجة، والروابي الخضراء، والأفق الضبابي، وراءها، تثير فيَّ إحساساً بالأبدية، وتخفّف مؤقتاً من التعاسات في كل مكان حولي. وعندما يحل المغيب، كانت العتمة تطمس ملامح الملصقات ومكبرات الصوت في سائر أنحاء المدينة، ويلف الضباب الشوارع الخلفية غير المنارة، فلا يخترقه إلا بصيص المصابيح الزيتية، متسرباً من الشقوق بين أطر الأبواب والنوافذ. ومن حين إلى آخر تكون هناك رقعة مضيئة: كشك صغير، مفتوح لتقديم الطعام. لم يكن هناك الكثير مما يباع، ولكن هناك مائدة خشبية مربعة، على الرصيف، وأربعة مقاعد ضيقة طويلة حولها، كلها بنية دكناء ولماعة، بفعل سنوات من الاستخدام. وعلى المائدة مصباح يحرق زيت اللفت. لم يكن هناك أحد قط يجلس إلى هذه المنضدة، ولكن صاحب الكشك كان يبقيه مفتوحاً. في الأيام الخوالي كان يزدحم بالناس، يتبادلون القيل والقال، ويحتسون الشراب المحلي المُسْكِر «ذا الحبات الخمس»، مصحوباً بلحم البقر المنقوع، ولسان الخنزير المطهو بصلصة الصويا، والفول السوداني المشوي بالملح والفلفل. كانت الأكشاك الفارغة تستحضر عندي مدينة يي بِين، أيام لم تستحوذ السياسة على الحياة بالكامل.

ما أن أغادر الشوارع الخلفية، حتى تنقض مكبرات الصوت على أذنيَّ. فعلى امتداد فترة، تصل إلى ثماني عشرة ساعة، في اليوم، كان مركز المدينة صاخباً دائماً بالهتاف والإدانة. وبصرف النظر تماماً عن المحتوى، فإن مستوى الضوضاء، كان لا يطاق، وكان عليَّ أن أبتكر طريقة، أجبر بها نفسي على أن لا أسمع شيئاً، للحفاظ على سلامة عقلي.

ذات مساء، في نيسان/ أبريل، استرعى اهتمامي، فجأة، نبأ إذاعي. لقد عقد مؤتمر للحزب في بكين. وكالعادة، لم يتم إطلاع الشعب الصيني على ما دار في هذا الاجتماع، البالغ الأهمية «لممثليه»، وأُعلن عن قيادة عليا جديدة. وازداد خفقان قلبي، عندما سمعت إقرار التنظيم الجديد للثورة الثقافية.

هذا المؤتمر، التاسع، كان إيذاناً بإقامة نظام سلطة ماو الشخصية، رسمياً. ولم يفلح في الوصول إلى هذا المؤتمر، إلا قلة من القادة الكبار، الذين شاركوا في المؤتمر السابق، في عام ١٩٥٦. فمن بين سبعة عشر عضواً في المكتب السياسي، كان أربعة فقط ـ ماو ولن بياو وشو إن لاي ولي شيانيان ـ لا يزالون في مناصبهم. وكل الآخرين، عدا من ماتوا، إما أدينوا أو أقصوا. وبعض هؤلاء ماتوا بعد فترة وجيزة.

الرئيس ليو شاوتشي، الرجل الثاني في المؤتمر الثامن، كان رهن الاعتقال، منذ عام ١٩٦٧ وتعرض لضرب مبرح، في الاجتماعات التنديدية. حُرم من الدواء لمرضه العضال، السكّري، ولذات الرئة، المرض الذي أصيب به حديثاً، ولم يعالج إلا حين كان على حافة الموت، لأن زوجة ماو، أمرت صراحة بإبقائه على قيد الحياة، ليكون لدى المؤتمر التاسع «هدف حي». وفي المؤتمر، تلا شو إن لاي الحكم بأنه «خائن مجرم وعميل للعدو، ومأجور في خدمة الإمبرياليين والتحريفيين الجدد [الروس] ورجعيي الكومنتانغ». بعد المؤتمر، سمح لليو بأن يموت، معذَّباً.

المارشال هو لونغ، وهو عضو سابق في المكتب السياسي، وأحد مؤسسي الجيش الشيوعي، مات بعد قرابة الشهرين من انعقاد المؤتمر. وبسبب سلطته في الجيش، أُخضع، عامين ونصف العام، للتعذيب البطيء «الهدف منه هو تدمير صحتي ليتمكنوا من قتلي دون سفك دمي»، كما قال لزوجته. وكان التعذيب يشتمل على عدم السماح له بأكثر من إناء صغير من الماء، كل يوم، خلال الصيف الحارق، وقطع التدفئة عنه، خلال الشتاء، حين كانت درجة الحرارة دون الصفر بكثير، طول أشهر متصلة، وحرمانه من الدواء لمرضه السكَّري. في النهاية، مات بعد إعطائه جرعة كبيرة من الكلوكوز، حين تفاقم مرضه.

تاو جو، عضو المكتب السياسي، الذي ساعد أمي، في بداية «الثورة الثقافية»، اعتُقل في ظروف لا إنسانية، حوالي ثلاث سنوات، دمرت صحته. حُرم من العلاج المناسب، حتى استفحل السرطان في مثانته، وأصدر شو إن لاي موافقته على إجراء عملية له. ولكن نوافذ غرفته في المستشفى، كانت تغطى دائماً بالجرائد، ولم يسمح لعائلته برؤيته على فراش الموت، أو بعد مماته.

المارشال بينغ دهواي، مات بالنوع نفسه من التعذيب المديد، الذي استمر ثماني

سنوات، حتى عام ١٩٧٤. كان طلبه الأخير، أن يرى الأشجار وضوء النهار، خارج نوافذ مستشفاه المغطاة بالجرائد، وقد رفض طلبه هذا.

كانت أعمال الاضطهاد هذه، وكثير غيرها، معهودة في أساليب ماو، خلال «الثورة الثقافية». فبدلاً من توقيع أوامر بالموت، كان ماو يلمح ببساطة إلى نياته، فكان البعض يتطوع لتنفيذ عملية التعذيب، وارتجال التفاصيل المروعة. كانت أساليبهم تشتمل على الضغط النفسي، والوحشية الجسدية ومنع العلاج الطبي، بل استخدام الدواء للقتل. وأصبح للموت بهذه الطريقة مصطلح خاص في اللغة الصينية: بو ـ هي جيسي ـ «الاضطهاد حتى الموت». كان ماو على علم تام بما يجري، ويشجع المنفذين بإعطاء «موافقته الصامتة» (مو ـ شو). وقد مكَّنه ذلك من التخلص من أعدائه، دون استنزال ملامة على نفسه. كانت المسؤولية مسؤوليته، لا مناصّ منها، ولكنها لم تكن مسؤوليته وحده. كان المعذِّبون يبدون قدراً من المبادرة. إنهم مرؤوسو ماو، المتحفزون دائماً إلى البحث عن طرائق من أجل إرضائه، وذلك بقراءة رغباته مسبقاً، وبالطبع، إطلاق العنان لنوازعهم السادية.

لم تكشف التفاصيل المريعة، لأعمال الاضطهاد بحق الكثير من القادة الكبار إلا بعد سنوات. وعندما أميط عنها اللثام، لم تفاجىء أحداً في الصين. فقد كنا نعرف الكثير من الحالات المماثلة، من خلال تجاربنا الذاتية.

عندما وقفتُ في الميدان المزدحم، أستمع إلى الإعلان الإذاعي، تُلِيَتْ أسماء الأعضاء في اللجنة المركزية الجديدة. وبرعب، انتظرتُ اسمي الزوجين تنغ. وها هما قد تليا: ليو جي ـ تنغ وجانغ شي ـ تنغ. وشعرتُ، حينذاك، بأنه لن تكون هناك نهاية لمعاناة عائلتي.

بعد ذلك بفترة قصيرة، وصلت برقية تقول إن جدتي انهارت، وهي تلازم سريرها. لم يحدث لها شيء كهذا قط، من قبل. حضَّتني العمة جون ـ ينغ على العودة إلى البيت، والعناية بها. أقلنا أنا وشياو ـ فانغ القطار التالي، عائدين إلى تشينغدو.

كانت جدتي تدنو من عيد ميلادها الستين. وفي النهاية، قهر الألم قوَّتها على الاحتمال. كانت تشعر به خارقاً، ويسري في كل جسمها، ثم يتركز في أذنيها. قال الأطباء في مستوصف المجمّع، إنها الأعصاب، وليس لديهم من علاج لها سوى

المحافظة على مزاج رائق. أخذتُها إلى مستشفى، يبعد نصف ساعة مشياً على الأقدام، من شارع «الشهاب».

كان أصحاب السلطة الجدد ينعمون في سياراتهم، التي يقودها لهم سائقون، ومن ثم لم يكن يهمهم كثيراً، كيف يتعين على الناس العاديين أن يعيشوا. لم تكن الحافلات تعمل في تشينغدو، لأنها أمست غير ضرورية للثورة، ومُنعت العربات التي تساق بدواسات، على أساس أنها تستغل العمل. ولم تكن جدتي قادرة على المشي، بسبب الألم الحاد. كان عليها أن تجلس على رف الأمتعة لدراجة هوائية، وضعت عليه وسادة، متشبثة بالمقعد. كنت أنا أدفع الدراجة، وشياو ـ هي يسند جدتي، وشياو ـ فانغ يجلس إلى المقود.

كان المستشفى لا يزال يعمل، بفضل احتراف بعض العاملين وتفانيهم. على أسواره المبنية من الآجر، رأيتُ شعارات ضخمة لزملائهم الأكثر نضالية، يتهمونهم فيها بـ «استخدام العمل لإخماد الثورة» ـ وهي تهمة معهودة، في حق من يبقون في أعمالهم.

الطبيبة، التي رأيناها، كان جفناها يرتعشان باستمرار، وتحت عينيها دوائر سوداء. خمنتُ أن كثرة المرضى قد أضنتها، فضلاً عن الهجمات السياسية التي عليها أن تتحملها. كان المستشفى يغص برجال ونساء متجهمين، بعضهم بوجوه رضيضة، والبعض الآخر بأضلع مكسورة، ممددين على نقالات ـ ضحايا الاجتماعات التنديدية.

لم يتمكن أحد من الأطباء، أن يشخص علة جدتي. لم يكن هناك جهاز أشعة، أو أية معدات أخرى، لفحصها على الوجه المطلوب. أعطيت جدتي مسكنات متنوعة. وعندما عجزت هذه عن قتل الألم، أُدخلت المستشفى. كانت الردهات مزدحمة، والأسرة متراصة لصق بعضها. حتى الأروقة، كانت مرصوفة بالأسرة. ولم تكن الممرضات القليلات، اللواتي يتراكضن من ردهة إلى أخرى، قادرات على العناية بكل المرضى، فقررتُ أن أبقى أنا مع جدتي.

ذهبتُ إلى البيت، وأخذتُ بعض اللوازم المطبخية، لكي أستطيع أن أطهو لها هناك. كما حملتُ حشية من الخيزران فرشتها تحت سريرها. في الليل، كان أنينها يوقظني باستمرار، فأنسلُ من تحت لحافي الخفيف، وأدلِّك جسمها، الأمر الذي كان

يريحها مؤقتاً. ومن تحت الأسرة، كانت الغرفة تفوح برائحة البول الحادة. فإن أوعية التبول، لدى الجميع، كانت توضع تحت الأسرة. جدتي كانت نيِّقة حول النظافة، تصر على النهوض والذهاب إلى المرحاض، في نهاية الرواق، حتى ليلاً. ولكن المرضى الآخرين لم يكونوا يجشِّمون أنفسهم عناء ذلك، وفي أحيان كثيرة، كانت أوعية التبول، لا تفرَّغ، طول أيام. فالممرضات أكثر انشغالاً من الاهتمام بتفاصيل كهذه.

كانت النوافذ القريبة من سرير جدتي، تطل على الحديقة الأمامية. نما فيها الدغل عالياً، وكانت مقاعدها الخشبية متداعية. عندما نظرت، للمرة الأولى، إلى الحديقة، شاهدت عدة أطفال منهمكين في محاولة كسر الأغصان القليلة لشجرة مغْنولية صغيرة، لا تزال تحمل زهرة أو زهرتين على أغصانها. كان الكبار يمرون بلا اكتراث. فأعمال التخريب ضد الأشجار، أصبحت جزءاً من الحياة اليومية، وأمست لا تثير أي انتباه.

ذات يوم، رأيتُ، من النافذة المفتوحة، بينغ، أحد أصدقائي، يهم بالنزول عن دراجته. اشتد خفقان قلبي، وشعرتُ بوجهي ساخناً، على حين غرة. أسرعتُ بتعديل هيئتي أمام زجاج النافذة. فالنظر إلى مرآة حقيقية علناً، كان بمثابة دعوة إلى الإدانة كـ «عنصر بورجوازي». كنتُ أرتدي سترة مخططة بالوردي والأبيض، وهي نقشة أجيزت، لتوها، في ملابس الشابات. كان الشعر الطويل مسموحاً به من جديد، ولكن في ضفيرتين فقط، وكنتُ أحار ساعات، كيف ينبغي أن تكون ضفيرتاي: متقاربتين أم متباعدتين؟ منسدلتين أم معقوفتين قليلاً في نهايتهما؟ هل ينبغي أن يكون الجزء المجدول أطول من الجزء الطليق، أم العكس بالعكس؟ القرارات، وكلها قرارات دقيقة، كانت لا تنتهي. لم تكن هناك أنظمة من الدولة حول تسريحات الشعر، أو تصميم الملابس. ما يرتديه الآخرون هو الذي يحدد قواعد ذلك اليوم. ولأن الخيار ضيق، كان الناس دائماً يبحثون عن أصغر التنويعات. كان اختباراً حقيقياً للعبقرية أن يُدبَّر مظهر مغاير وجذاب، ولكنه متماثل، بما فيه الكفاية، مع الآخرين، بحيث لا يستطيع أحد أن يشير بإصبع الاتهام إلى ما يُعتبر هرطقة.

كنتُ لا أزال أتساءل، كيف أبدو، حين دخل بينغ الردهة. مظهره لم يكن، قطعاً، خارج المألوف، ولكن سيماء معينة، كانت تميزه. فلديه شيء من الروح الساخرة، التي كانت شيئاً نادراً، في تلك السنوات، التي اختفت فيها الفكاهة. من

جهتي، كنتُ شديدة الإعجاب به. كان أبوه مدير قسم في الحكومة الإقليمية، قبل «الثورة الثقافية»، ولكن بينغ كان يختلف عن معظم أبناء المسؤولين الكبار الآخرين. «لماذا يجب أن أُرسل إلى الريف؟»، قال، ونجح، حقاً، في عدم الذهاب، بحصوله على شهادة «مرض، لا علاج له». كان أول شخص أراني ذكاء متحرراً، وذهناً تهكمياً فضولياً، لا يأخذ أي شيء على أنه من المسلَّمات. كان هو أول من فتح المناطق المحرمة في عقلي.

حتى ذلك الحين، تحاشيتُ أية علاقة حب. كنت متفانية في سبيل عائلتي تفانياً، زادته الويلات حدة، فطغى على كل عاطفة أخرى. ورغم أنه كان يوجد في داخلي دائماً كائن آخر، كائن جنسي، يصبو إلى الانطلاق، إلا أني نجحتُ في إبقائه محبوساً. معرفتي ببينغ، جرتني إلى حافة التورط.

في ذلك اليوم، ظهر بينغ في ردهة جدتي، بكدمة سوداء تحت عينه. قال إن وِن ضربه، للتو، وكان وِن شاباً، عاد من نينغنان مرافقاً فتاة، كسرت ساقها هناك. وصف بينغ المعركة بعدم اكتراث متعمد، قائلاً بارتياح بالغ، إن وِن يغار منه لتمتعه باهتمامي وصحبتي أكثر منه. فيما بعد، سمعتُ قصة وِن: ضرب بينغ، لأنه كان لا يطيق «تلك الضحكة المتعالية التي يضحكها».

كان وِن قصيراً وقوياً ذا يدين وقدمين كبيرة، وأسنان ناتئة. ومثل بينغ، كان ابن مسؤولين كبار. كان يشمر عن ساعديه، وعن ساقيه، وينتعل صندلاً من القش، كفلاح بروح الشاب النموذجي في الملصقات الدعائية. ذات يوم، قال لي إنه عائد إلى نينغنان، ليواصل «إصلاح» نفسه. وحين سألتُ لماذا، قال، بلا تكلف: «للسير وراء الرئيس ماو. ماذا غير ذلك؟ فأنا حارس الرئيس ماو الأحمر». وقفت لحظة، عاجزة عن النطق. فقد كنتُ بدأت أفترض أن الناس لا يتكلمون هذه اللغة، إلا في المناسبات الرسمية. والأهم أنه لم يحوّل سحنته إلى ذلك الوجه المهيب الإلزامي، الذي كان جزءاً من المسرحية. فالطريقة التي تكلم بها، على سجيته، جعلتني أشعر أنه صادق.

طريقة وِن في التفكير لم تدفعني إلى تجنبه. «فالثورة الثقافية»، علمتني أن لا أُقسِّم الناس بحسب معتقداتهم، بل وفقاً لما إذا كانوا قادرين على القسوة والخبث، أم لا. كنت أعرف أن وِن شخص شريف، وحين أردتُ الخروج من نينغنان، بصورة دائمة، توجهت إليه طلباً للمساعدة.

مضى أكثر من شهرين على ابتعادي عن نينغنان. لم تكن هناك قاعدة ضد ذلك، ولكن كان لدى النظام سلاح ماضٍ، للتوثق من أنه سيتعين عليّ أن أعود إلى الجبال، عاجلاً أو آجلاً: تسجيل إقامتي نُقل إلى هناك من تشينغدو، وما دمتُ في المدينة، فلا يحق لي الحصول على غذاء، أو أي حصص أخرى مقننة. في هذه الأثناء، كنت أعيش على حصص عائلتي، ولكن ذلك لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. أدركتُ أن عليَّ أن أنقل تسجيلي إلى مكان قريب من تشينغدو.

تشينغدو هي نفسها، كانت غير واردة، لأنه لم يكن مسموحاً لأحد بنقل سجل إقامته من الريف إلى المدينة. ونقل التسجيل من مكان جبلي قاسٍ إلى منطقة أغنى، مثل السهل المحيط بتشينغدو، كان أيضاً محرماً. ولكن كانت هناك ثغرة: نستطيع الانتقال، إذا كان لدينا أقارب مستعدون لقبولنا. وكان من الممكن اختراع قريب، لأنه ما من أحد يستطيع التوثق، كم لدى الصيني من أقارب.

خططتُ الانتقال مع نانا، وهي صديقة طيبة، عادت، لتوها، من نينغنان، لمحاولة إيجاد طريقة، نخرج بها من هناك. أشركنا في خطتنا أختي، التي كانت لا تزال في نينغنان. وبغية نقل تسجيلنا، كنا نحتاج أولاً إلى ثلاث رسائل: رسالة من كوميونة، تقول إنها ستقبلنا، بتوصية من قريب في تلك الكوميونة، ورسالة ثانية من المحافظة، التي تعود إليها الكوميونة، تؤكد الرسالة الأولى، ورسالة ثالثة من مكتب شبيبة المدينة في سيشوان، بالموافقة على النقل. وعندما نحصل عليها جميعاً، علينا أن نعود إلى فرقنا الإنتاجية في نينغنان، للحصول على موافقتها، قبل أن يعطينا المسجل في محافظة نينغنان، انفكاكنا النهائي. حينذاك فقط، يمكن تسليمنا الوثيقة الحاسمة، التي كانت لازمة لكل مواطن في الصين ـ كُتُب تسجيلنا ـ والتي علينا أن نقدمها إلى السلطات، في محل إقامتنا التالي.

كانت الحياة دائماً شاقة ومعقّدة على هذا النحو، كلما اتخذ أحد أدنى الخطوات، خارج خطة السلطات الجامدة. وفي جل الحالات، تكون هناك تعقيدات غير متوقعة. وفيما كنت أخطط كيفية ترتيب عملية النقل، أصدرت الحكومة المركزية، دون سابق إنذار، توجيهاً، يجمد كل عمليات نقل التسجيل، ابتداء من ٢١ حزيران/يونيو. كان ذلك في الأسبوع الثالث من أيار/مايو. وسيكون من المستحيل إتمام كل الإجراءات في الوقت المناسب.

لجأتُ إلى وِن. ودون أن يتردد لحظة واحدة، عرض «خلق» الرسائل الثلاث. كان تزوير الوثائق الرسمية جنحة ذات خطر يعاقب عليها بالسجن مدة طويلة. ولكن حارس ماو الأحمر المتفاني، نحّى كلماتي التحذيرية جانباً.

كان العنصر الحاسم في عملية التزوير، هو الأختام. في الصين، كل الوثائق تكون رسمية بأختامها. كان وِن يتقن الخط، وكان يستطيع الحفر بطريقة الأختام الرسمية. استخدم قطعاً من الصابون، وفي أمسية واحدة، جُهزت الرسائل الثلاث كلها، لكل منا، نحن الثلاث، وكان الحصول عليها سيتطلب شهوراً، إذا كنا محظوظين. عرض وِن أن يعود إلى نينغنان مع نانا ومعي، للمساعدة على إنجاز المتبقي من العملية الإجرائية.

عندما حان وقت الرحيل، كنتُ ممزقة بالعذاب، لأنه كان يعني ترك جدتي في المستشفى. هي حثتني على الذهاب، قائلة إنها ستعود إلى البيت، وتعتني بأشقائي. لم أحاول أن أثنيها عن ذلك: كان المستشفى مكاناً يبعث على الاكتئاب الشديد. ففضلاً عن الرائحة الكريهة، كان الضجيج فيه لا يصدق، حيث الأنين، والأحاديث بصوت عال في الأروقة، ليل نهار. وكانت مكبرات الصوت توقظ الجميع في الساعة السادسة صباحاً، وفي أحيان كثيرة، كانت الوفيات تحدث أمام أنظار المرضى الآخرين.

في الليلة التي غادرتْ جدتي، شعرتْ بألم حاد، في أسفل عمودها الفقري. لم تتمكن من الجلوس على رف الدراجة المخصص للأمتعة، فركب شياو ـ هي الدراجة، عائداً إلى البيت بملابسها ومناشفها وأحواض غسيلها واللوازم المطبخية، ومشيت أنا معها، حيث كنت أسندها. كان المساء خانقاً. والمشي، حتى ببطء شديد، يؤلمها، كما كنت أرى من حركة شفتيها، ومن ارتعاشها، عندما تحاول كتم أنينها. رويت لها قصصاً وقيلاً وقالاً، لإلهائها. الأشجار البسيطة، التي كانت تظلل الأرصفة، أخذت تعلوها بضعة أغصان بائسة من الفروع المورقة ـ لم تُقلَّم طيلة ثلاث سنوات من الثورة الثقافية. وهنا وهناك، كانت المباني متضررة، نتيجة القتال الضاري بين أجنحة «المتمردين».

استغرق قطع نصف الطريق حوالي الساعة. وفجأة تلبدت السماء. وكنست ريح عاتية الغبار ومِزَق الملصقات الجدارية. أخذت جدتي تترنح. أمسكتها بقوة. بدأ

المطر ينهمر مدراراً، وما هي إلا لحظة، حتى تبللنا. لم يكن هناك مكان نحتمي فيه، فواصلنا المسير بمشقة. كانت ملابسنا تلتصق بجسمينا وتعيق حركتنا. وأنا ألهث، شعرتُ بجسم جدتي الصغير، النحيل، يزداد ثقلاً بين ذراعيَّ. كان المطر يرشقنا، والريح تضرب جسمينا المبللين، فشعرتُ ببرد شديد. كانت جدتي تنشج: «أيتها السماء، دعيني أمت! دعيني أمت!». أنا أيضاً أردتُ أن أبكي، ولكني اكتفيت بالقول: «جدتي، سنكون في البيت بعد قليل...».

ثم سمعتُ جرساً يرن: «ها، هل تريدان الركوب؟». توقفت عربة، تساق بدواسات، وكان يقودها شاب بقميص مفتوح، والمطر يضرب على خديه. تقدم نحونا، وحمل جدتي إلى العربة المفتوحة، التي كان يجلس فيها شيخ. أومأ إلينا. قال الشاب إن الشيخ أبوه، وكان ينقله إلى البيت من المستشفى. أنزَلَنا عند بابنا، راداً على آيات الشكر الجزيل مني، بعبارة: «لا داعي لذلك البتة»، التي قالها بجذل، قبل أن يختفي في الظلمة. وبسبب ضغط الوابل المنهمر، لم أعرف اسمه قط.

بعد يومين، كانت جدتي، على قدميها، ناشطة في المطبخ، تعد العجائن، لإطعامنا وجبة دسمة. بدأت ترتب الغرف، أيضاً، بطريقتها المعتادة، دون توقف. كنتُ أستطيع أن أرى أنها تبالغ في الأمور، وطلبتُ منها أن تبقى في الفراش، ولكنها رفضت.

كان الوقت، حينذاك، بداية حزيران/ يونيو. ودأبتْ تقول لي إنني يجب أن أرحل، وأصرتْ على أن يذهب جن ـ منغ، أيضاً، للعناية بي، لأني مرضتُ مرضاً شديداً في المرة السابقة، حين كنت في نينغنان. ورغم أن جن ـ منغ، بلغ، لتوه، سن السادسة عشرة، فإنه لم يُكلَّف بالذهاب إلى كوميونة.

أرسلتُ برقية، أطلب من أختي أن تعود من نينغنان، لتعتني بجدتنا. ووعد شياو ـ هي، الذي كان في الرابعة عشرة، حينذاك، أن في الإمكان التعويل عليه، وقطع شياو ـ فانغ، ابن السبع سنوات، العهد نفسه بمهابة.

حين ذهبتُ لتوديع جدتي، بكتْ، وقالت إنها لا تعرف إن كانت ستراني ثانية. ربت على يدها النحيلة، التي برزت عروقها، وضغطتها على خدي. حبستُ دموعي، وقلتُ إني سأعود قريباً.

بعد بحث طويل، وجدت، في النهاية، شاحنة ذاهبة إلى منطقة شيتشانغ. منذ منتصف الستينات، أمر ماو الكثير من المعامل الهامة (بما فيها المعمل الذي كان صديق أختي «نظير» يعمل فيه) بالانتقال إلى سيشوان، وخاصة إلى شيتشانغ، حيث كانت تبنى قاعدة صناعية جديدة. كانت نظرية ماو تذهب إلى أن جبال سيشوان توفر خير رادع، في حالة هجوم الأميركيين أو الروس. وكانت شاحنات من خمسة أقاليم مختلفة، تعمل على إيصال البضائع إلى القاعدة. وبوساطة أحد الأصدقاء، وافق سائق من بكين على أخذنا ـ أنا وجن ـ منغ ونانا وون. كان علينا أن نجلس في مؤخرة الشاحنة المفتوحة، لأن القمرة تُحجز للسائق المساعد. كانت كل شاحنة تنضم إلى رتل، يتجمع في المساء.

كان هؤلاء السائقون معروفين باستعدادهم، عن طيب خاطر، لنقل البنات، لا الفتيان، ـ على غرار أمثالهم في العالم أجمع. ولأنهم كانوا المصدر الوحيد، تقريباً، لوسائط النقل، فإن ذلك كان يثير غضب بعض الفتيان. وفي الطريق، رأيتُ شعارات ملصقة على جذوع الأشجار: «نحتج بشدة على سائقي الشاحنات، الذين ينقلون الإناث، ولا ينقلون الذكور!». بعض الفتيان، الأكثر جرأة، كانوا يقفون في وسط الطريق، محاولين إجبار الشاحنات على التوقف. صبي من مدرستي، لم يتمكن من القفز مبتعداً في الوقت المناسب، فقُتل.

وردت بعض الأخبار من الإناث المحظوظات، اللواتي نقلتهن شاحنات، عن وقوع حوادث اغتصاب، ولكن العلاقات الغرامية كانت أكثر أخباراً. وقد أسفرت هذه الرحلات عن عدد لا يستهان به من حالات الزواج. كان سائق الشاحنة، الذي يشارك في بناء القاعدة الاستراتيجية، يتمتع بامتيازات معينة، أحدها حق نقل تسجيل زوجته من الريف إلى المدينة، حيث يعيش. وكان بعض الفتيات يغتنمن هذه الفرصة.

كانا سائقين طيبين جداً، وتصرفا تصرفاً لا شائبة فيه. وحين نتوقف للمبيت، كانا يساعداننا على تأمين سرير، وفي أحد الفنادق، قبل الذهاب إلى دار ضيافتها، وكانا يدعواننا إلى العشاء معهما لنتمكن من مشاركتهما في طعامهما الخاص، مجاناً.

مرة واحدة، شعرتُ بأن هناك شيئاً جنسياً، بدرجة طفيفة، في ذهنيهما. في إحدى الوقفات، وجه سائقان دعوة إليَّ وإلى نانا للذهاب في شاحنتهما، خلال المرحلة التالية

من الرحلة. عندما أخبرنا سائقنا، عبس، وقال متبرماً: «اذهبا إذاً، اذهبا مع صاحبيكما اللطيفين هذين، إذا كنتما تحبانهما أكثر». نظرنا، أنا ونانا، إحدانا إلى الأخرى، وقلنا بحرج: «لم نقل إننا نحبهما أكثر. أنتم جميعاً لطفاء معنا...». ولم نذهب.

كان وِن يحيطنا بحمايته، ويحذرنا باستمرار من السائقين، ومن الرجال عموماً، ومن اللصوص، ويشير علينا بما ينبغي أن نأكل، وما ينبغي أن لا نأكل، وبوجوب عدم الخروج في الظلام. كما كان يحمل حقائبنا، ويأتينا بماء ساخن. وفي وقت العشاء، كان يقول لي ولنانا وجن ـ منغ، أن ننضم إلى السائقين، لتناول الطعام، فيما كان يبقى هو في الفندق، للسهر على حقائبنا، لأن السرقة كانت متفشية. وكنا نعود حاملين إليه طعاماً.

لم تكن هناك أية مداعبات جنسية، من جانب وِن. وفي المساء، الذي عبرنا فيه الحدود إلى شيتشانغ، أردنا أنا ونانا أن نغتسل في النهر، لأن الجو كان حاراً، والمساء جميلاً. وجد وِن لنا منعطفاً هادئاً في النهر، حيث استحممنا، في صحبة البط البري والقصب المتمايل. كانت أشعة القمر تسقط على سطح النهر، فتتناثر الصورة كتلاً من الحلقات الفضية المتلألئة. وكان وِن يجلس قرب الطريق، وقفاه إلينا بثبات، متولياً الحراسة. إنه مثل كثيرين من الشبان الآخرين، رُبي على الشهامة، في الأيام التي سبقت «الثورة الثقافية».

لدخول الفندق، كنا نحتاج إلى رسالة من وحدتنا. وكنا أنا ونانا وون قد أمَّنا رسالة من فرقنا الإنتاجية في نينغنان، ولدى جن ـ منغ رسالة من مدرسته. كانت الفنادق رخيصة، ولكن لم تكن لدينا نقود كثيرة، لأن مرتبات والدينا خفضت تخفيضاً حاداً. كنتُ ونانا نأخذ سريراً لشخص واحد في قسم داخلي، وكان الفتيان يفعلان الشيء نفسه. كانت الفنادق قذرة، وبدائية جداً. قبل أن نأوي إلى الفراش، كنت ونانا نقلب اللحاف، المرة تلو الأخرى، بحثاً عن البراغيث والقمل. أحواض الاغتسال في الفندق تلفّها، عادة، حلقات من الوسخ رمادية دكناء أو صفراء: كانت التراخوما والالتهابات الفطرية شائعة، فاستخدمنا أحواضنا الخاصة.

ذات ليلة، أيقظتنا، في حوالي الساعة الثانية عشرة، خبطات قوية على الباب: على كل مَنْ في الفندق أن ينهضوا لتقديم «تقرير مسائي»، إلى الرئيس ماو. كانت هذه المهزلة تنتمي إلى الطائفة نفسها، التي تنتمي إليها «رقصات الولاء». وتقتضي

التجمع أمام تمثال أو صورة لماو، مع ترديد أقواله من «الكتاب الأحمر الصغير»، والهتاف: «عاش الرئيس ماو، عاش الرئيس ماو، وعاش عاش عاش الرئيس ماو!» والتلويح خلال ذلك بالكتاب الأحمر الصغير.

خرجنا أنا ونانا من الغرفة، نترنح نصف نائمتين. المسافرون الآخرون كانوا يخرجون مثنى وثُلاث، وهم يفركون عيونهم، ويزررون سترهم، مجررين مؤخرات أحذيتهم القطنية. لم تكن ثمة شكوى. لم يكن أحد يجرؤ عليها. وفي الساعة الخامسة صباحاً، كان علينا أن نتحمل الشيء نفسه ثانية، مما يسمى «طلب التعليمات الصباحي» من ماو. فيما بعد، حين كنا في طريقنا، قال جن ـ منغ: «لا بد أن رئيس اللجنة الثورية في هذه المدينة مصاب بالأرق».

كانت أشكال غريبة عجيبة، من عبادة ماو، جزءاً من حياتنا، لبعض الوقت ـ الهتاف، ووضع شارات ماو، التلويح بالكتاب الأحمر الصغير. ولكن العبادة تصاعدت، عندما شكلت اللجان الثورية رسمياً في سائر أنحاء البلاد، في أواخر عام ١٩٦٨. فقد حسب أعضاء اللجان أن أسلم طرائق العمل، وأكثرها جدوى، هي عدم القيام بأي شيء سوى ترويج عبادة ماو ـ وبالطبع، الاستمرار في ممارسة أعمال الاضطهاد السياسي. ذات مرة، في صيدلية، في تشينغدو، غمغم بائع عجوز ذو عينين جامدتين، وراء نظارات ذات إطار رمادي، دون أن ينظر إليَّ: «حين نجوب البحار، نحتاج إلى ربان...». كان هناك وقفة يشوبها الترقب. وبعد برهة، أدركتُ أن عليّ إكمال الجملة بأحد أقوال لن بياو، يتملق فيه ماو. فكان عليَّ أن أردف: «وحين نصنع الثورة، نحتاج إلى فكر ماو تسي تونغ».

أمرت اللجان الثورية، في كافة أنحاء الصين، بإقامة تماثيل لماو. وكان المخطط لمركز تشينغدو، إقامة تمثال ضخم من المرمر الأبيض. ولإيجاد مكان يوضع فيه، فُجِّرت بالديناميت بوابة القصر القديمة الأنيقة، التي وقفتُ عليها بكل سعادة، قبل سنوات قليلة فقط. وتقرر أن يكون المرمر الأبيض من شيتشانغ، فقامت شاحنات خاصة، تسمى «شاحنات الولاء» بنقل المرمر من الجبال. زيِّنت هذه الشاحنات، كأنها عربات ذات منصات في المسيرات الاستعراضية، تتهدل منها أشرطة حريرية حمراء، وزهرة حريرية ضخمة في المقدمة. كانت تقطع المسافة من تشينغدو فارغة، لأنها مكرسة حصراً لحمل المرمر. لم يكن مسموحاً لها بتلويث المادة، التي ستشكل جسم ماو.

بعد توديع السائق، الذي نقلنا من تشينغدو، توقفت لنا واحدة من «شاحنات الولاء» هذه، للمرحلة الأخيرة من الرحلة إلى نينغنان. وفي الطريق، توقفنا عند مقلع مرمر، للراحة. كانت مجموعة من العمال المتعرقين، العراة حتى الخصر، يحتسون الشاي، ويدخنون غلايينهم، التي يمتد طولها ياردة. قال لنا أحدهم، إنهم لا يستخدمون أية آلات، لأن العمل بأيديهم العارية، وحده، الذي يمكن أن يعبر عن ولائهم لماو. وقد راعني أن أرى شارة ماو مثبتة على صدره العاري بدبابيس. حين عدنا إلى الشاحنة، لاحظ جن ـ منغ أن الشارة، ربما كانت ملتصقة بلزاق. وأما بالنسبة إلى تفانيهم في القلع باليد، «فالأرجح أنهم لا يملكون آلات، أصلاً».

كثيراً ما كان جن ـ منغ يطلق تعليقات مشككة كهذه، فتضحكنا. كان هذا غير معهود في تلكم الأيام، حيث الفكاهة خطر. فماو، إذ كان يدعو، برياء، إلى «التمرد»، لم يكن يريد أي استقصاء صادق، أو تشكيك حقيقي. وكانت القدرة على التفكير بطريقة تشكيكية، خطوتي الأولى نحو التنور. لقد ساعدني جن ـ منغ، كما فعل بينغ، على تدمير عاداتي الجامدة في التفكير.

فور دخولنا نينغنان، التي ترتفع حوالي ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، عادت إليَّ مشاكل المعدة. كنت أتقيأ كل ما آكله، ويبدو لي أن العالم يدور من حولي. ولكننا لم نتمكن من تحمل ترف التوقف. كان علينا الوصول إلى فرقنا الإنتاجية، وإنجاز المتبقي من معاملة النقل، قبل ٢١ حزيران/يونيو. ولأن فرقة نانا كانت الأقرب، قررنا أن نذهب إلى هناك أولاً. كانت تبعد مسيرة يوم واحد على الأقدام، عبر جبال وعرة. كانت سيول الصيف تهدر نازلة في الوديان، التي كان معظمها دون جسور.

وفيما كان وِن يخوِّض في المقدمة، لاختبار عمق الماء، كان جن ـ منغ يحملني على ظهره النحيل. وكثيراً ما كان علينا أن نمشي على طرق الماعز، التي لا يزيد عرضها على قدمين، على حافات منحدرات شاهقة، ترتفع آلاف الأقدام. العديد من أصدقائي في المدرسة، قُتلوا وهم يمشون عليها، عائدين في الليل. كانت الشمس تصب حرارتها المحرقة علينا، وبدأت بشرتي تتقشر. أصبحتُ مهووسة بالعطش، وشربت كل الماء من قناني الجميع. وحين كنا نصل إلى ساقية، كنت أرمي نفسي على الأرض، وأنهل السائل البارد. حاولت نانا أن تمنعني، وقالت حتى الفلاحون لا

يشربون هذا الماء، إن كان غير مغلي. ولكني كنت مسكونة، بالعطش فلم آبه. بالطبع، كان يعقب ذلك تقيؤ حاد.

أخيراً، وصلنا أحد البيوت. كانت أمامه عدة أشجار عملاقة، من أشجار الكستناء الشامخة بقممها الجليلة.

دعانا الفلاحون إلى الداخل. لعقتُ شفتي المتشققتين، وتوجهتُ، في الحال، نحو الموقد، حيث كنت أستطيع أن أرى إناءً خزفياً كبيراً، ربما كان يحوي عصير الرز. هنا في الجبال، يعتبرونه ألذ المشروبات، وقد عرضه صاحب الدار، بكرم، علينا. عصير الرز، عادة، أبيض، ولكن ما رأيته، كان أسود. انبعث منه طنين، وانزاحت كتلة من الذباب عن سطحه الهلامي. نظرتُ إلى الإناء، ورأيتُ بعض الضحايا تغرق فيه. كنتُ دائماً شديدة التطير بالذباب، ولكني، الآن، رفعتُ الإناء، وأبعدتُ الجثث جانباً، وعببتُ السائل بجرعات كبيرة.

كان الظلام قد حلَّ، عندما وصلنا إلى فرقة نانا. وفي اليوم التالي، كان قائد فرقتها الإنتاجية مسروراً بختم رسائلها الثلاث، والتخلص منها. ففي الأشهر القليلة السابقة، علم الفلاحون أن ما اكتسبوه ليس أيدي عاملة إضافية، وإنما أفواه إضافية، يجب إطعامها. لم يستطيعوا طرد شباب المدينة، وكانوا يغتبطون حين يعرض أحد المغادرة.

كنتُ أشد مرضاً من أن أذهب إلى فرقتي، فانطلق وِن وحده ليحاول تأمين انفصالي وانفصال أختي. حاولت نانا والفتيات الأخريات في فرقتها ما في وسعهن لتمريضي. كنتُ لا آكل، ولا أشرب، إلا أشياء أغليت، وأعيد إغلاؤها مرات عديدة، ولكني كنتُ متمددة هناك، أشعر بالتعاسة، مفتقدة جدتي وحساء الفراخ، الذي تعدّه. كانت الفراخ تعد أكلة فاخرة، في تلك الأيام، وكانت نانا تمازحني قائلة إني تمكنت، بطريقة ما، من الجمع بين الاضطراب في معدتي، وشهيتي لأحسن الأطعمة. مع ذلك، حاولت هي والفتيات الأخريات وجن ـ منغ، جاهدين، شراء فرخة. ولكن الفلاحين المحليين، كانوا لا يأكلون، ولا يبيعون الفراخ، لأنهم لا يربونها إلا من أجل البيض. كانوا ينسبون هذه العادة إلى أحكام أسلافهم، ولكن أصدقاء قالوا لنا، إن الفراخ هنا مصابة بالجذام، الذي كان متفشياً في هذه الجبال. فامتنعنا عن أكل البيض أيضاً.

كان جن ـ منغ مصمماً على أن يعد لي حساء مماثلاً لحساء جدتي، وجرب ميله

إلى الاختراع، في التطبيق العملي. وفي الفسحة الموجودة أمام البيت، أسند بعصا غطاء دائرياً كبيراً، من الخيزران، ونثر بعض الحبوب تحته. ثم ربط خيطاً بالعصا، واختبأ وراء أحد الأبواب، ماسكاً النهاية الأخرى للخيط، ووضع مرآة بحيث يستطيع أن يراقب ما يجري تحت الغطاء، نصف المكشوف. هبطت أسراب من العصافير للاقتتال على الحبات، وأحياناً، كانت قُمْرية تدخل متهادية. كان جن ـ منغ ينتظر اللحظة المناسبة لجر الخيط، وإسقاط الغطاء. وبفضل عبقريته، تناولتُ حساء لذيذاً من طيور القنص.

كانت الجبال، خلف البيت، مكسوة بأشجار الدراق، التي أخذت الآن تحمل ثماراً يانعة، وكان جن ـ منغ والبنات يعودون، كل يوم، بسلال مليئة بالدراق. قال جن ـ منغ إني يجب أن لا آكلها غير مطبوخة، وصنع لي مربى.

شعرتُ أنني مدللة، وكنتُ أمضي أيامي في قاعة الاستقبال، أحدق إلى الجبال البعيدة، وأقرأ تورغنيف وتشيخوف، اللذين جلبهما جن ـ منغ، من أجل الرحلة. تأثرتُ تأثراً بالغاً بالمزاج في أعمال تورغنيف، وحفظت مقاطع عديدة من «الحب الأول»، عن ظهر قلب.

في الأماسي، كانت بعض الجبال النائية، التي تلتف كالأفعى، تتوهج كأنها تنين ناري دراماتيكي، يلقي ظله على السماء المظلمة. مناخ شيتشانغ مناخ جاف جداً، وكانت قواعد حماية الغابات، لا تطبق، وفرق إطفاء الحرائق، لا تعمل. نتيجة لذلك، كانت الجبال تشتعل، يوماً بعد يوم، ولا يتوقف حريقها، إلاّ إذا اعترضته كتلة صخرية، تسد عليه الطريق، أو زوبعة تخمد اللهب.

بعد أيام قليلة، عاد وِن ومعه الإذن بمغادرتي ومغادرة أختي من الفرقة الإنتاجية. انطلقنا، على الفور، للعثور على المسجِّل، رغم أني كنتُ لا أزال ضعيفة، ولا أستطيع السير، إلا بضع ياردات، قبل أن تعشي عينيَّ كتلة من النجوم المتلألئة.

وصلنا عاصمة محافظة نينغنان، ووجدنا الأجواء هناك كأنها حالة حرب. في معظم أنحاء الصين، كان القتال العنيف بين الأجنحة، قد توقف، ولكن في أماكن نائية، كهذا المكان، كانت المعارك المحلية مستمرة. يختبىء الطرف الخاسر في الجبال، وفي أحيان كثيرة، يشن هجمات خاطفة. كان هناك حراس مسلحون في كل مكان، غالبيتهم أبناء جماعة إثنية، هي الـ «يي»، التي كان كثير من أفرادها يعيشون

في أعماق براري سيشوان. وتذهب الأسطورة إلى أن الـ «يي»، كانوا، حين ينامون، لا يستلقون، بل يجلسون القرفصاء، دافنين رؤوسهم بين ثنايا أذرعهم. وقد أقنعهم قادة ذلك الجناح، وكلهم من الـ «هان»، بتولي مهمات فيها خطر، مثل القتال على خط النار، والحراسة. وإذ كنا نفتش مكاتب الإقليم بحثاً عن المسجِّل، فقد كان علينا، في أحيان كثيرة، أن ندخل في شروح طويلة، معقدة مع الحراس من الـ «يي»، مستخدمين الإشارات، لأنه لم تكن لدينا لغة مشتركة. وحين نقترب، كانوا يرفعون أسلحتهم ويصوبونها نحونا، في وضع الرمي. كنا نخاف خوفاً قاتلاً، ولكن كان علينا أن نبدو غير مبالين. فلقد تلقينا نصيحة، بأنهم سيعتبرون أي مظهر من مظاهر الخوف، دليلاً على الذنب، ويتصرفون على هذا الأساس في ردة فعلهم.

في النهاية، وجدنا مكتب المسجّل، ولكنه لم يكن هناك. ثم التقينا بصديق، قال لنا إنه لجأ إلى الاختباء، بسبب الأفواج من شباب المدن، الذين كانوا يحاصرونه لحل مشاكلهم. لم يكن صديقنا يعرف مكان المسجل، ولكنه أخبرنا عن وجود مجموعة من «شباب المدن القدامى»، قد يعرفون مكانه.

«شباب المدن القدامى» هم مَنْ ذهبوا إلى الريف قبل «الثورة الثقافية». إذ كان الحزب يحاول إقناع مَنْ فشلوا في امتحانات القبول في المدارس العليا والجامعات بالذهاب إلى الريف و«بناء ريف اشتراكي جديد رائع»، يفيد من تعليمهم. وقد استجاب عدد من الشباب، في حماستهم الرومانسية، لدعوة الحزب.

إن الواقع القاسي لحياة الريف، مع انعدام فرص الهرب، وإدراك نفاق النظام ـ إذ إن أحداً من أبناء المسؤولين، لم يذهب إلى الريف، وإن كان فاشلاً في الامتحان ـ حوّلا الكثير منهم إلى كلبيين.

كانت هذه المجموعة «من شباب المدن القدامى»، ودية للغاية. قدموا لنا وجبة شهية من لحم الطيور، وعرضوا أن يعرفوا مكان المسجل. وفيما ذهب اثنان منهم للبحث عنه، أخذنا نتجاذب أطراف الحديث مع الآخرين، جالسين في شرفتهم الصنوبرية الرحبة، في مواجهة نهر هادر، اسمه «الماء الأسود». وعلى الصخور العالية فوقنا، كانت طيور بنات الماء، تتوازن على ساق رشيقة طويلة واحدة، رافعة الأخرى، في أوضاع راقصة مختلفة. وكانت أخرى تطير ناشرة أجنحتها الناصعة البياض، البديعة. لم أكن قد رأيت، من قبل، هذه الراقصات الأنيقات، جامحات، وطليقات.

أشار مضيفونا إلى كهف مظلم عبر النهر. من سقفه، كان يتدلى سيف برونزي، يبدو صدئاً. كان الكهف عصياً على الوصول إليه، لأنه يقع بجوار النهر الهائج مباشرة. وتذهب الأسطورة إلى أن السيف، تركه هناك رئيس وزراء مملكة سيشوان القديمة، الحكيم الشهير، المركيز جوغي ليانغ، في القرن الثالث. وهو الذي قاد سبع حملات من تشينغدو، في محاولة لقهر القبائل البربرية، هنا، في منطقة شيتشانغ. كنتُ أعرف القصة جيداً، وهزني أن أرى أدلة عليها أمام أنظاري. أسر المركيز زعيم القبائل، سبع مرات، وكان يطلق سراحه، كل مرة، على أمل أن يكسبه بحلمه. لم يتأثر الزعيم، ست مرات، وكان يواصل تمرده، ولكنه بعد المرة السابعة، أصبح موالياً مخلصاً للملك السيشواني. كانت العبرة من هذه الأسطورة، أنه لكسب قوم، يجب كسب قلوبهم وعقولهم ـ استراتيجية، كان ماو والشيوعيون يتفقون معها. ورأيتُ، في تأمل مبهم، أن هذا هو السبب في تمريرنا بعملية «إصلاح الفكر» ـ لكي نتبع الأوامر طائعين. ولهذا السبب، قُدم الفلاحون نماذج: كانوا أكثر الرعايا إذعاناً وخنوعاً. ولدى التأمل في ذلك اليوم، أعتقد أن صيغة تشارلس كولسن، مستشار نكسون، كانت تعبر عن الجنود الخفية: عندما تكون تستحوذ على طاعتهم، فإن قلوبهم وعقولهم ستكون التالية.

قطع مضيفونا سلسلة أفكاري. نصحوا، بحماسة، أن ما ينبغي أن نفعله، هو التلميح للمسجل بمراكز آبائنا. وأعلن شاب لطيف المظهر، «أنه سيضع الختم بلمح البصر». كانوا يعرفون أننا أبناء مسؤولين كبار، بسبب سمعة مدرستي. ساورتني شكوك في نصيحتهم. وأشرتُ بتردد: «لكن آباءنا أصبحوا بعيدين عن هذه المناصب. فقد وصموا بكونهم من أنصار الطريق الرأسمالي».

ـ «وما أهمية ذلك؟». أصوات متعددة، نحّت قلقي جانباً.

ـ «أبوك شيوعي مخضرم، صحيح؟».

ـ «صحيح»، غمغمتُ قائلة.

ـ «مسؤول كبير، صحيح؟».

ـ «شيء من هذا القبيل، رددتُ قائلة، ولكن هذا، كان قبل الثورة الثقافية. الآن. . .».

ـ «دعكِ من ذلك. هل أعلن أحد عن طرده؟ لا؟ إذاً، كل شيء على ما يرام. أوَ

لا ترين أن من الواضح وضوح الشمس، أن تفويض المسؤولين الحزبيين لم ينته. هو سيقول لك ذلك». وأشار الشاب اللطيف في اتجاه سيف رئيس الوزراء القديم الحكيم. لم أدرك، في حينه، أن الناس، بوعي أو من دونه، كانوا لا ينظرون إلى هيكل سلطة ماو الشخصية، على أنه بديل من الإدارة الشيوعية القديمة. فالمسؤولون المخلوعون سيعودون. في هذه الأثناء، واصل الشاب اللطيف، هازاً رأسه تأكيداً لما يقول: «ما من مسؤول هنا، سيجرؤ على إزعاجك، وخلق مشاكل لنفسه في المستقبل». فكّرتُ في ثارات الزوجين تنغ المروعة. بالطبع، الناس في الصين، كانوا دائماً منتبهين إلى احتمال الانتقام من جانب أصحاب السطوة.

ونحن نهم بالمغادرة، سألتُ كيف ينبغي التلميح للمسجل إلى موقع أبي، دون أن أبدو مبتذلة. ضحكوا من أعماق قلوبهم: «إنه كالفلاحين تماماً! ليس لديهم هذا النوع من الحساسية. ولن يكونوا قادرين على تمييز الفرق، على أية حال. قولي له بصراحة: «أبي هو رئيس. . .» ». راعتني لهجة الازدراء في أصواتهم. فيما بعد، اكتشفتُ أن معظم شباب المدينة، القدامى أو الجدد، أخذوا ينظرون باحتقار شديد إلى الفلاحين، بعد أن استقروا بين ظهرانيهم. كان ماو، بالطبع، يتوقع ردة الفعل المعاكسة.

في ٢٠ حزيران/يونيو، بعد أيام من البحث المضني في الجبال، عثرنا على المسجل. أثبت التلميح إلى مركزي والديَّ أنه لم يكن لازماً. فالمسجل هو نفسه أخذ زمام المبادرة بسؤالي: «ماذا كان أبوك يعمل قبل الثورة الثقافية؟». وبعد الكثير من الأسئلة الشخصية، التي طُرحت فضولاً، وليس ضرورة، أخرج منديلاً قذراً من جيب سترته، وفتح طياته، ليكشف عن ختم خشبي وعلبة مسطحة من الصفيح، فيها إسفنجة مضمخة بحبر أحمر. وبمهابة، ضغط الختم على الإسفنجة، ثم ختم رسائلنا.

بهذا الختم الحيوي، وبالكاد ـ قبل أقل من ٢٤ ساعة على الموعد ـ أنجزنا مهمتنا. كان لا يزال علينا أن نعثر على الكاتب المسؤول عن دفاتر التسجيل، ولكننا كنا نعرف، أن هذا لن يكون مشكلة كبيرة. وتم الحصول على التخويل. استرخيتُ في الحال ـ وعاودتني آلام مِعَدية وإسهال.

عدتُ بشق النفس، مع الآخرين، إلى عاصمة المحافظة. كان الوقت ليلاً، لدى وصولنا. توجهنا نحو دار الضيافة الحكومي، وهو مبنى جهم، من طابقين، يقف

وسط معتزل مسوَّر. كانت غرفة البواب فارغة، ولم يكن هناك أحد مرئي في المكان. أغلبية الحجرات مغلقة، ولكن في الطابق العلوي، كانت أبواب بعض غرف النوم مفتوحة.

دخلت واحدة منها، بعد التأكد من عدم وجود أحد فيها. كانت نافذة مفتوحة، تطل على بعض الحقول، ووراء سور متداع من الآجر. على الجانب الآخر من الرواق، كان صف آخر من الغرف. كان المكان خاوياً. ومن بعض الممتلكات الشخصية، وقدح شاي نصف مملوء، استنتجتُ أن أحداً كان هنا، من وقت قريب. ولكني كنت أشد إعياءً من أن أتساءل لماذا هُجر المبنى. ومن دون حتى القدرة على غلق الباب، رميتُ نفسي على الفراش، ونمت بكامل ملابسي.

أيقظني مكبر صوت، يردد بعض أقوال ماو، ومنها قوله: «إذا رفض العدو أن يستسلم، سنقضي عليه!». وإذ بي صاحية تماماً. فقد أدركتُ أن بنايتنا تتعرض للهجوم.

الشيء التالي، الذي سمعته، كان أزيز الرصاص على مقربة، ونوافذ تتحطم. زعق مكبر الصوت، باسم منظمة ما من منظمات «المتمردين»، يحضها على الاستسلام، وإلا، كما صرخ المكبر، فإن المهاجمين سيفجرون المبنى بالديناميت.

اندفع جن ـ منغ إلى الداخل. كان مسلحون عدة يعتمرون خوذاً من الروطان، يتراكضون داخلين الغرف المقابلة لغرفتي، التي كانت تطل على البوابة الأمامية. أحدهم كان صبياً، يحمل على كتفه بندقية أطول منه. وبلا أي كلام، أسرعوا نحو النوافذ، وحطموا الزجاج بأعقاب بنادقهم، وبدأوا يطلقون النار. رجل بدا أنه قائدهم، قال لنا، على عجل، إن المبنى مقر مجموعته، وإن المجموعة المعارضة تهاجمه، الآن. ويحسن بنا أن نخرج بسرعة ـ ولكن ليس بنزول السلَّم، الذي يفضي إلى المدخل. كيف إذاً؟

نزعنا بشكل محموم الملاءات والدثارات عن السرير، وصنعنا حبلاً من نوع ما. ربطنا إحدى نهايتيه بإطار النافذة، ونزلنا الطابقين بواسطته. وعندما هبطنا، كانت الطلقات تئز حولنا. احنينا ظهورنا وسيقاننا، وركضنا في اتجاه السور المتداعي. وبعد تسلقه، واصلنا العدو وقتاً طويلاً، قبل أن نشعر بالأمان بما فيه الكفاية، للتوقف.

كانت السماء وحقول الذرة، قد بدأت تكشف عن ملامحها الشاحبة. توجهنا نحو بيت أحد الأصدقاء، في كوميونة قريبة، لالتقاط أنفاسنا، وتقرير ما سنفعله تالياً. في الطريق، سمعنا من بعض الفلاحين، أن دار الضيافة نُسفت.

في بيت صديقنا، كانت تنتظرني رسالة. وصلت برقية من أختي في تشينغدو، فور مغادرتنا قرية نانا، بحثاً عن المسجل. ولأن أحداً لم يكن يعرف مكان وجودي، فقد فتحها أصدقائي، وراحوا ينقلون مضمونها إلى الآخرين، ليستطيع من يراني إبلاغي بها.

بهذه الطريقة، علمتُ بموت جدتي.

٢٣ ـ «كلما قرأت المزيد من الكتب، ازداد غباؤك» ـ عملي فلاحة وطبيبة حافية
(حزيران/يونيو ١٩٦٩ ـــ ١٩٧١)

جلسنا أنا وجن ـ منغ على ضفة «نهر الرمل الذهبي»، ننتظر العبَّارة. أسندتُ رأسي إلى يديَّ، ورحت أحدق إلى النهر الجامح، يتدفق أمامي، في رحلته الطويلة من الهملايا إلى البحر. إنه سيصبح أطول نهر في الصين ـ نهر يانغ تزي، بعد أن يلتقي بنهر «من»، في يي بِين، على بعد ٣٠٠ ميل. يتشعب نهر يانغ تزي، في نهاية رحلته، لإرواء مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية السهلية. ولكنه، هنا، في الجبال أشد هياجاً من أن يُبنى عليه جسر. العبَّارات وحدها، كانت تربط إقليم سيشوان بيونان إلى الشرق. وفي كل صيف، حين تكون السيول عالية وجارفة، إثر ذوبان الثلوج، كانت مياه النهر، تحمل في تدفقها الخطر. قبل أيام قليلة فقط، ابتلع عبَّارة، على متنها ثلاثة من زملائي في المدرسة.

كان الغسق يزحف على النهار. وشعرتُ أني مريضة جداً. فرش جن ـ منغ سترته على الأرض، كيلا أجلس على العشب الرطب. كان هدفنا أن نعبر إلى يونان، وأن نحاول إيجاد من ينقلنا معه إلى تشينغدو. كانت الطرق التي تخترق شيتشانغ مقطوعة، بسبب القتال بين أجنحة «المتمردين»، فكان علينا أن نعبر طريقاً ملتوياً. عرضت نانا ووِن إيصال دفتر تسجيلي وأمتعتي، وذينك العائدين لجن ـ منغ، إلى تشينغدو.

كانت مجموعة من الرجال الأقوياء، يجذفون العبَّارة، ضد التيار، منشدين على

إيقاع واحد. وحين وصلوا منتصف النهر، توقفوا، وتركوا العبَّارة تنجرف مع التيار، صوب يونان. تكسرت أمواج ضخمة فوقنا، عدة مرات. وكان عليَّ أن أتشبث بحافة المركب بقوة، فيما كان يتمايل مستسلماً. في الأحوال العادية، كنتُ سأرتعب، ولكني الآن، لم أشعر إلا بخَدَر. كنتُ حزينة لموت جدتي.

كانت شاحنة وحيدة، تقف داخل ملعب لكرة السلة، في مدينة تشايوجيا، على ضفة النهر في يونان. وافق السائق، بلا تردد، على نقلنا معه، في المؤخرة. كنت طول الوقت، أقلِّب في رأسي ما كان في مقدوري أن أفعله لإنقاذ جدتي، وفيما كانت الشاحنة تترنح، كنا نمر ببساتين الموز، وراء بيوت طينية، في أحضان جبال تعتمر الغيوم. وإذ رأيتُ أوراق أشجار الموز العملاقة، فقد تذكرتُ شجرة الموز الصغيرة، الهزيلة، العجفاء، عند باب ردهة المستشفى، حيث كانت ترقد جدتي، في تشينغدو. حين كان بينغ يأتي لرؤيتي، كنا نجلس إلى جانبها، متجاذبين أطراف الحديث، حتى ساعة متأخرة من الليل. لم تكن جدتي تحبه، بسبب ضحكته الساخرة وتخلّيه عن الحشمة في تعامله مع الكبار، الأمر الذي كانت تعده عدم احترام. نزلتُ، مرتين، السلم مترنحة، لمناداتي. كنت أكره نفسي لإثارة هواجسها، ولكن لم يكن في اليد حيلة. لم أكن قادرة على لجم رغبتي في رؤية بينغ. والآن، ها أنا أتمنى رؤيته من جديد! ما كنت لأفعل شيئاً يكدرها. كنت سأحرص على أن تتحسن صحتها ـ وإن كنتُ لا أعرف كيف.

اخترقنا يي بِين. كان الطريق يلتف حول «ربوة الستارة الزمردية»، على حافة المدينة. وإذ نظرتُ إلى الشجر الأحمر الأنيق وبساتين الخيزران، فقد عدتُ بذاكرتي إلى نيسان/ أبريل، حين عدت، لتوي، من يي بِي إلى البيت، في «شارع الشهاب». كنتُ أحدِّثُ جدتي، كيف ذهبتُ لكنس قبر الدكتور شيا، إلى جانب هذه الربوة، في يوم ربيعي مشرق. كانت العمة جون ـ ينغ قد أعطتني بعض «النقود الفضية» الخاصة لحرقها على القبر. الله وحده يعلم من أين حصلت عليها، لأن هذه النقود أدينت بوصفها «إقطاعية». بحثتُ، صعوداً ونزولاً، طيلة ساعات، ولكني لم أعثر على القبر. كان سفح الربوة في حالة يرثى لها. فالحراس الحمر سوُّوا المقبرة بالأرض، وحطموا شواهد القبور، لأنهم يعتبرون الدفن ممارسة «قديمة». لن أنسى أبداً جذوة الأمل، في عيني جدتي، عندما ذكرتُ الزيارة، وكيف خبتْ، في الحال تقريباً،

عندما أضفتُ، بغباء، أن القبر قد طمس. كانت نظرة الخيبة في عينيها تلاحقني. وها أنا، الآن، ألعن نفسي، لأني لم ألفق لها كذبة بيضاء.

حين وصلنا أنا وجن ـ منغ إلى البيت، بعد أكثر من أسبوع، لم يكن هناك إلا فراشها الخالي. تذكرتُ رؤيتها ممددة عليه، شعرها منسدل، ولكنه ما زال مرتباً، تعض شفتيها بقوة، ووجنتاها غائرتان. قاست آلامها القاتلة بصمت ورباطة جأش، لم تصرخ قط، ولم تتلوَّ يوماً. بسبب قدرتها على التحمّل، لم أدرك خطر مرضها.

كانت أمي رهن الاعتقال. وما رواه لي شياو ـ هي وشياو ـ هونغ، عن أيام جدتي الأخيرة سبب لي عذاباً شديداً، حتى إني طلبتُ منهما أن يتوقفا عن الكلام. لم أعرف ما حدث في أعقاب مغادرتي، إلا بعد سنوات. كانت تقوم ببعض الأعمال المنزلية، ثم تعود إلى الفراش، حيث تستلقي معتصرة وجهها، محاولة صد الألم. كانت تغمغم باستمرار قائلة إنها متوجسة من رحلتي، وقلقة على إخوتي الصغار. كانت تتنهد قائلة: «ماذا سيحل بالأولاد، دون مدارس؟».

وذات يوم، لم تتمكن من مبارحة الفراش. ولم يكن هناك طبيب مستعد للمجيء إلى البيت، فحملها صديق أختي، «نظير» إلى المستشفى، على ظهره. كانت أختي تمشي إلى جانبه تسندها. بعد رحلتين، طلب منهما الأطباء أن لا يأتيا بها. قالوا إنهم لم يجدوا فيها علة، وليس هناك ما يستطيعون فعله.

وهكذا لازمتْ الفراش، تنتظر الموت. أصبح جسدها، شيئاً فشيئاً، بلا حياة. كانت شفتاها تتحركان من حين إلى آخر، ولكن أختي وأخويَّ لم يتمكنوا من سماع شيء. ذهبوا، مرات عديدة، إلى المكان الذي تحتجز فيه أمي، للتوسل من أجل السماح لها بالمجيء إلى البيت. وفي كل مرة، كانوا يُطرَدون، دون أن يتمكنوا من رؤيتها.

كان جسم جدتي يبدو ميتاً. ولكن عينيها ظلتا مفتوحتين، تتطلعان حولها بتساؤل. كانت لا تريد إغلاقهما، قبل أن ترى ابنتها.

أخيراً، سمح لأمي بالمجيء إلى البيت. وخلال اليومين التاليين، لم تبتعد عن فراش جدتي. بين حين وآخر، كانت جدتي تهمس لها شيئاً. كلماتها الأخيرة، كانت حول كيفية الوقوع في هذا الألم.

قالت إن الجيران، الذين ينتمون إلى مجموعة السيدة شاو، عقدوا اجتماعاً تنديدياً ضدها، في الفناء. وصادر بعض «المتمردين» في عملية دهم، إيصال جواهرها، التي تبرعت بها، خلال «الحرب الكورية». قالوا إنها «عضو نتن من أعضاء الطبقة المستغِلة»، وإلا كيف اقتنت كل هذه الجواهر أصلاً؟

قالت جدتي، إنها كانت تجبر على الوقوف على منضدة صغيرة. الأرض لم تكن مستوية، فكانت المنضدة تتمايل، وكانت هي تشعر بدوار. كان الجيران يصرخون بها. المرأة التي اتهمت شياو ـ فانغ باغتصاب ابنتها، وجهت ضربة قوية بهراوة إلى إحدى سيقان المنضدة. لم تتمكن جدتي من الحفاظ على توازنها، وسقطت إلى الوراء على الأرض الصلبة. قالت إنها شعرت بألم حاد، منذ ذلك الحين.

لم يكن هناك، في الحقيقة، اجتماع تنديدي. ولكن هذه هي الصورة، التي لاحقت جدتي، حتى نفسها الأخير.

في اليوم الثالث بعد مجيء أمي إلى البيت، أسلمت جدتي الروح. وبعد يومين من حرق جثمانها، كان على أمي أن تعود إلى المعتقل.

كثيراً ما حلمتُ بجدتي، منذ ذلك الحين، وكنت أستيقظ ناشجةً. كانت شخصية رائعة ـ حيوية، موهوبة، ومقتدرة إلى حد بعيد. ولكن لم يكن لديها متنفس، لإطلاق قدراتها. ابنة شرطي طموح في مدينة صغيرة، جارية سيد من أسياد الحرب، زوجة الأب، في عائلة كبيرة منقسمة، وأم وحماة اثنين من المسؤولين الشيوعيين ـ في كل هذه الظروف، لم تعرف شيئاً يذكر من السعادة. أيامها مع الدكتور شيا، عاشاها في ظل ماضيهما، ومعاً قاسيا الفقر والاحتلال الياباني والحرب الأهلية. كان من الممكن أن تجد سعادة في العناية بأحفادها، ولكنها نادراً ما كانت متحررة من القلق علينا. عاشت الشطر الأعظم من حياتها في خوف، وواجهت الموت مرات عديدة. كانت امرأة قوية، ولكن، في النهاية، كانت الكوارث التي نزلت بوالديَّ، والقلق على أحفادها، وموجة العداء البشري البشع ـ كلها تآمرت لسحقها. ولكن الطامة الكبرى، بالنسبة إليها، كانت ما حدث لابنتها. كأنها كانت تعيش في جسدها وروحها، كل لحظة من الألم، الذي كانت أمي تعانيه، وفي النهاية، قتلها تراكم العذاب.

كان هناك عامل آخر، أكثر مباشرة في موتها: لقد حُرمتْ من العلاج الطبي

المناسب ـ ولم تتمكن ابنتها من العناية بها، فضلاً عن رؤيتها، حين كانت مريضة مرضاً مميتاً. كل ذلك بسبب الثورة الثقافية. سألتُ نفسي، كيف يمكن أن تكون الثورة جيدة، وقد زرعت كل هذا الدمار، من أجل لا شيء؟ المرة تلو الأخرى، قلتُ لنفسي إني أكره الثورة الثقافية، واستشعرتُ حالة أكثر سوءاً، لأنه لم يكن هناك ما أستطيعه.

لمتُ نفسي، لعدم العناية بجدتي، كما كان حرياً بي. كانت في المستشفى، عندما تعرفتُ إلى بينغ ووِن. صداقتي معهما همدتني وعزلتني، وخدَّرت وعيي بمعاناتها. قلتُ لنفسي، إنها لخسَّة مني، أن تكون لديَّ أي مشاعر من السعادة، وجدتي على فراش الموت. قررتُ أن لا يكون لي صديق أبداً. ظننتُ أني بحرمان الذات وحده، أستطيع أن أكفر عن شيء من ذنبي.

بقيت الشهرين التاليين في تشينغدو، أبحث مع نانا وشقيقتي، عن «قريب»، تقبلنا كوميونته. كان علينا أن نجده، قبل انتهاء الحصاد الخريفي، حين يوزع الغذاء، وإلا لن يكون لدينا ما نأكله في السنة التالية ـ تموييننا من الدولة، نفد في كانون الثاني/يناير.

حين جاء بينغ لرؤيتي، كنتُ باردة جداً معه، وقلتُ له أن لا يأتي مرة أخرى. كتب لي رسائل، ولكني كنت أرميها في الموقد، دون أن أفتحها ـ حركة ربما التقطتها من روايات روسية. عاد وِن من نينغنان، ومعه دفتر تسجيلي وأمتعتي، ولكني رفضت رؤيته. ذات يوم، مررت به في الشارع، ونظرتُ إليه مباشرة، لأختطف لمحة إلى عينيه، اللتين رأيت فيهما ارتباكاً وألماً.

عاد وِن إلى نينغنان. وذات يوم صيفي، من عام ١٩٧٠، اندلع حريق في إحدى الغابات، قرب قريته. هرع وصديق له إلى الخارج، حاملين مكنستين ليحاولا إخماده. عصفت ريح، رمت كرة من اللهب في وجه صديقه، تركته مشوهاً بصورة دائمة. غادر الاثنان نينغنان، وعبرا إلى لاوس، حيث كانت تستعر حرب بين المقاتلين اليساريين والولايات المتحدة. حينذاك، كان عدد من أبناء المسؤولين الكبار، يتوجهون إلى لاوس وفيتنام، لمقاتلة الأميركيين سراً، لأن الحكومة كانت تمنع ذلك. هؤلاء الشباب خذلتهم «الثورة الثقافية»، وكانوا يأملون في أن يستردوا عنفوانهم، بمنازلة «إمبرياليي الولايات المتحدة».

ذات يوم، بعد فترة وجيزة على وصولهما إلى لاوس، سمع وِن الإنذار من اقتراب طائرات أميركية. كان أول من وثب، واندفع خارجاً، ولكنه إذ كانت تنقصه الخبرة، داس لغماً زرعه رفاقه، أنفسهم. آخر ذكرياتي عنه، عيناه الحائرتان، والمجروحتان، تتابعاني من زاوية شارع موحل، في تشينغدو.

في هذه الأثناء، تفرق شمل عائلتي. في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٩، أمر لن بياو بإعلان حالة الحرب في البلاد، متذرعاً بالاشتباكات، التي اندلعت، في وقت سابق من ذلك العام، على الحدود مع الاتحاد السوفياتي. وباسم «الجلاء»، أرسل خصومه في الجيش، وكبار القادة المغضوب عليهم، خارج العاصمة، ووضعهم تحت الإقامة الجبرية، أو رهن الاعتقال، في أنحاء مختلفة من الصين. واغتنمت «اللجان الثورية» هذه الفرصة، للإسراع بإبعاد «غير المرغوب فيهم». صدرت أوامر إلى أسرة العاملين في منطقة أمي الشرقية، البالغ عددهم ٥٠٠ شخص، بالرحيل عن تشينغدو، إلى مكان في عمق شيتشانغ، يسمى «سهل راعي الجاموس». سُمح لأمي بقضاء عشرة أيام في البيت، للقيام بالترتيبات اللازمة. وضعت شياو ـ هي وشياو ـ فانغ على قطار إلى يي بِين. فعلى الرغم من أن العمة جون ـ ينغ، كانت نصف مشلولة، فقد كان هناك عمات وأعمام آخرون، يستطيعون العناية بهما. جن ـ منغ أرسلته مدرسته إلى كوميونة، تبعد خمسين ميلاً، شمال شرق تشينغدو.

في الوقت نفسه، وجدنا، أنا ونانا وشقيقتي، أخيراً، كوميونة، تقبل بنا، في محافظة اسمها ديانغ، لا تبعد كثيراً عن مكان جن ـ منغ. كان لدى «نظير»، صديق أختي، زميل من المحافظة، مستعد للادعاء بأننا أبناء عمومته. وكان بعض الكوميونات في المنطقة، في حاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة في الزراعة. وعلى الرغم من أنه لم يكن لدينا ما يثبت صلة القربى، فإن أحداً لم يسأل. كان الشيء الوحيد المهم، هو أننا، أو في الأقل، نبدو أننا أيدِ عاملة إضافية.

وُزِّعنا على فريقين إنتاجيين مختلفين، لأن شخصين إضافيين، كانا أقصى ما يستطيع أي فريق استقباله. ذهبنا أنا ونانا إلى فريق وأختي إلى فريق آخر، يبعد ثلاثة أميال. كانت محطة القطار تبعد حوالي خمس ساعات، مشياً على الأقدام، شطر كبير منها على حيود، عرضها ١٨ بوصة، بين حقول الرز.

صارت عائلتي ذات السبعة أفراد مشتتة، الآن، في ستة أماكن مختلفة. شياو ـ

هي كان سعيداً بالرحيل عن تشينغدو، حيث كتاب اللغة الصينية الجديد في مدرسته، الذي وضعه بعض المعلمين وأعضاء الفريق الدعائي هناك، يتضمن إدانة لأبي بالاسم، وكان شياو ـ هي معزولاً ومضطهداً.

في أوائل صيف ١٩٦٩، أرسل طلاب مدرسته إلى الريف، على أطراف تشينغدو، للمساعدة على الحصاد. كان الفتيان والفتيات يعسكرون منفصلين، في قاعتين كبريين. وفي الأماسي، تحت قبة السماء المرصعة بالنجوم، كانت الممرات بين حقول الرز، يرتادها، في أحيان كثيرة، شبان وشابات، في خلوات ثنائية. لقد كان الغرام منتعشاً، وليس أقله انتعاشاً في قلب أخي، ابن الأربعة عشر عاماً، الذي بدأ يعجب بفتاة في مجموعته. وبعد أيام من استجماع شجاعته، فاتحها، ذات عصر، بأعصاب متوترة، حين كانا يحصدان القمح، ودعاها إلى الخروج في جولة، ذلك المساء. أحنت الفتاة رأسها، ولم تقل شيئاً. ظن شياو ـ هي أن «السكوت علامة الرضا» (مو ـ شو).

اتكأ شياو ـ هي على كومة قش، في ضوء القمر، وأخذ ينتظر، بكل هواجس الحب الأول وصبواته. فجأة، سمع صوت صفير. وظهرت عصبة من فتيان صفه الدراسي. دفعوه، وشتموه، ثم رموا سترة على رأسه، وراحوا يضربونه ويركلونه. تمكن من الإفلات، وتوجه مترنحاً إلى باب أحد المعلمين، وصرخ طالباً النجدة. فتح المعلم الباب، ولكنه دفعه بعيداً قائلاً: «لا أستطيع نجدتك! ولا تتجاسر على العودة!».

كان شياو ـ هي أشد خوفاً من العودة إلى معسكره، وأمضى الليلة مختبئاً في كومة قش. أدرك أن «الحبيبة»، هي التي استنفرت مَنْ تنمروا عليه: شعرتْ بالإهانة لتجاسر ابن «مناصر للطريق الرأسمالي معادٍ للثورة» على الإعجاب بها.

حين عادوا إلى تشينغدو، لجأ شياو ـ هي إلى عصابته في الشارع، طالباً معونتها. ظهروا في مدرسته باستعراض كبير للعضلات مع كلب ذئبي عملاق، وأخرجوا كبير العتاة من الصف. كان يرتجف، وجهه تحول رمادياً. ولكن قبل أن تنقض عليه العصابة، غلبت شياو ـ هي الشفقة، وطلب من ربانه أن يخلي سبيل الصبي.

الشفقة أصبحت مفهوماً غريباً، وكانت تعد دليل غباء. ازدادت الاعتداءات على

شياو ـ هي. قام بمحاولة هزيلة للاستعانة بعصابته ثانية، ولكنهم أخبروه، أنهم لن ينجدوا «متخاذلاً».

توجه شياو ـ هي إلى مدرسته الجديدة، في يي بِين، متوجساً المزيد من الاضطهاد. ولكنه لاقى استقبالاً حاراً، يكاد يكون عاطفياً. إذ المعلمون وأعضاء الفريق الدعائي، الذين يديرون المدرسة، والأطفال ـ بدا أنهم جميعاً سمعوا بأبي، وكانوا يشيرون إليه بإعجاب مكشوف. وفي الحال، نال شياو ـ هي صيتاً معيناً. صارت أجمل بنت في المدرسة صديقته. وحتى أشد الصبيان شغباً، كان يعامله باحترام. بدا واضحاً له أن أبي شخصية محترمة، في يي بِين، رغم أن الجميع يعرفون أنه مغضوب عليه، وأن الزوجين تنغ يمسكان مقاليد السلطة. لقد عانى سكان يي بِين الأمرَّين، تحت سلطة الزوجين تنغ. ومات ألوف، أو جرحوا في القتال بين الأجنحة، أو تحت التعذيب. وقد نجا صديق للعائلة من الموت، لأنه كان لا يزال يتنفس، عندما ذهب أبناؤه لاستلام جثته من المشرحة.

كان لدى الناس، في يي بِين، توق شديد إلى أيام السلام، إلى مسؤولين لا يسيئون استخدام سلطتهم، إلى حكومة تكرس نشاطها لتصريف الأمور. محور هذا الحنين كان أوائل الخمسينات، حين كان أبي هو الحاكم. وقتذاك، كان الشيوعيون في أوج شعبيتهم ـ مباشرة بعد أن أزاحوا الكومنتانغ، وأنهوا المجاعة، وأشاعوا سيادة القانون والنظام، ولكن قبل حملاتهم السياسية المتواصلة (ومجاعتهم بدفع من ماو). أصبح أبي يتماهى في الذاكرة الشعبية مع الأيام الخوالي. كان يعتبر المسؤول الطيب، الأسطوري، على نقيض صارخ للزوجين تنغ.

كان شياو ـ هي يستمتع بإقامته في يي بِين، بسبب أبي ـ رغم أنه كان لا يتعلم الكثير في المدرسة. كانت مواد التدريس ما زالت تتألف من أعمال ماو وافتتاحيات صحيفة «الشعب» اليومية، ولم تكن لدى أحد أية سلطة على التلاميذ ـ لأن ماو لم يتراجع عن رفضه الشامل للتعليم النظامي.

حاول المعلمون وفريق الدعاية العمالية، أن يستعينوا بشياو ـ هي، لفرض الانضباط في صفه. ولكن حتى سمعة أبي باءت بالفشل. وفي النهاية، عمد بعض الفتيان إلى عزل شياو ـ هي، لكونه أمعة. بدأت حملة من الهمس، تدعي أنه يعانق صديقته، تحت أعمدة الضوء في الشارع، وتلك «جريمة بورجوازية». فَقَد شياو ـ هي

موقعه الممتاز، وقيل له أن يكتب انتقادات ذاتية، وأن يتعهد بإصلاح فكره. وظهرت، ذات يوم، أم الفتاة ملحة على إجراء معاينة طبية، لإثبات عفة ابنتها. وبعد مشاجرة كبيرة، أَخرجتْ ابنتها من المدرسة.

كان لدى شياو ـ هي صديق حميم، في صفه، صبي محبوب، في السابعة عشرة، كانت عنده نقطة حساسة واحدة: أمه لم تتزوج قط، ولكن لديها خمسة أطفال ـ كلهم من آباء مختلفين ومجهولين، الأمر الذي كان غريباً جداً، في مجتمع تدان فيه «اللاشرعية»، بقوة، رغم إلغائها رسمياً. والآن، في واحدة من موجات «مطاردة الساحرات»، تعرضت الأم إلى المهانة، علناً، بوصفها «عنصراً سيئاً». كان الصبي يشعر بالخجل الشديد لوضعه، وقال لشياو ـ هي، في مجلس خاص بينهما، إنه يكرهها. وذات يوم، كانت المدرسة تريد أن تمنح جائزة لأحسن سباح (لأن ماو يحب السباحة)، وأجمع التلاميذ على ترشيح صديق شياو ـ هي. ولكن حين أُعلنت الجائزة، لم تكن له. يبدو أن معلمة شابة اعترضت: «لا نستطيع أن نمنحها له. فأمه «حذاء بالٍ» (قحبة)».

عندما سمع الصبي ذلك، اختطف ساطوراً من المطبخ، واقتحم مكتب المعلمة. قام أحدهم بإيقافه، فيما ولت المعلمة الأدبار مختبئة. كان شياو ـ هي يعرف إلى أي حد جرح هذا الحادث صديقه: أول مرة شوهد الفتى ينتحب بمرارة. في تلك الليلة، سهر شياو ـ هي وبعض الفتيان الآخرين معه، محاولين مواساته. وفي اليوم التالي، غاب عن الأنظار. جرف الماء جثته على ضفة «نهر الرمل الذهبي». وكان قد أوثق يديه، قبل أن يقفز.

لم تفعل «الثورة الثقافية» شيئاً، لتحديث العناصر القروسطية، في الثقافة الصينية، بل إنها، في الواقع، جعلتها موضع احترام سياسي. كانت الدكتاتورية «الحديثة»، واللاتسامح القديم، يتغذيان أحدهما بالآخر. وكل من يخرج عن المواقف المحافظة، الموغلة في القدم، يمكن أن يصبح، الآن، ضحية سياسية.

كوميونتي الجديدة، في ديانغ، كانت في منطقة من الروابي المنخفضة، تتخللها شجيرات وأشجار الأوكالبتوس. أرضها الزراعية خصبة في الغالب، وتنتج محصولين رئيسيين في السنة، محصول قمح ومحصول رز. وكانت الخضراوات واللفت والبطاطس الحلوة، تزرع بوفرة. بعد تجربة نينغنان، كانت أكبر راحة لي، أنه لم يكن

عليّ أن أقوم بأية عمليات تسلُق، وأنني أستطيع التنفس بصورة عادية، بدلاً من اللهاث طول الوقت. لم أتردد في المشي على أضلع موحلة ضيقة، بين حقول الرز. وكثيراً ما سقطت على عجيزتي، وأحياناً، في تخبطي للإمساك بما يسندني، كنت أدفع الشخص الذي أمامي ـ عادة نانا ـ إلى حقل الرز. كما لم أتردد في المشي ليلاً: رغم احتمال أن تعضني كلاب، كثير منها مصاب بداء الكَلَب.

حين وصلنا، البداية، أقمنا، بجوار زريبة خنازير. في الليل، كنا ننام على ألحان سمفونية من أصوات الخنازير وطنين البعوض ونباح الكلاب. كانت الغرفة تفوح دائماً برائحة روث الخنازير والبخور الطارد للبعوض. بعد فترة،أقام الفريق الإنتاجي، لي ولنانا، كوخاً من غرفتين، على قطعة أرض، كانت تستخدم لقطع الآجر المصنوع من اللبن. كانت الأرض أكثر انخفاضاً من حقل الرز، الذي يقع عبر ممر ضيق للمشاة مباشرة، وفي الربيع والصيف، حين تكون حقول الرز مغمورة بالماء، أو بعد هطول المطر بغزارة، كان الماء، ينز من الأرض الطينية. وكان علينا أنا ونانا، أن نخلع أحذيتنا، ونشمر عن سيقاننا، وندخل الكوخ خوضاً. لحسن الحظ، كان للسرير المزدوج الذي نتشارك فيه، سيقان طويلة، فكنا ننام فوق الماء العكر بنحو قدمين. وكان دخول الفراش يتطلب وضع سلطانية من الماء النظيف على كرسي بلا مساند، وتسلق هذا الكرسي، وغسل أقدامنا. وإذ كنا نعيش في هذه الظروف الرطبة، فقد كانت عظامي وعضلاتي تؤلمني طول الوقت.

ولكن الكوخ كان مسلياً كذلك. فحين ينحسر ماء الفيضان، كان نبات الفطر ينبثق تحت السرير، وفي زوايا الغرف. وبقليل من الخيال، كانت الأرض تبدو مشهداً من إحدى حكايات الجن. ذات مرة، ألقيتُ مقدار ملعقة من البازلاء على الأرض. وبعد أن جاء الماء، وذهب، تفتحت إضمامة من الأوراق الغضة، على سيقان نحيفة، كأنها استيقظت، لتوها، على أشعة الشمس، التي كانت تنساب من الفتحة المؤطرة بالخشب، في الجدار، باعتبارها نافذتنا.

كان المنظر، على الدوام، ساحراً في عينيّ. وراء بابنا، تقع بركة القرية المكسوّة بزنابق الماء واللوتس. كان الممر أمام الكوخ يفضي إلى طريق في التلة، التي ترتفع حوالي ٣٥٠ قدماً فوقنا. تغيب الشمس وراءها، مؤطرة بصخور سوداء. وقبل أن يحل الظلام، كان ضباب فضي ينتشر فوق الحقول، تحت قاعدة الربوة. كان الرجال

والنساء والأطفال، يمشون عائدين إلى القرية، بعد عمل اليوم، في ضباب المساء، حاملين السلال والمعازق والمناجل، وكانت كلابهم تستقبلهم نابحة، متقافزة حولهم. كانوا يبدون كأنهم يسبحون في غيوم. الدخان يتصاعد ملتفاً من الأكواخ المسقوفة بالسعف. كانت أصوات عالية، تسمع من الذين يتجاذبون أطراف الحديث، في بساتين الخيزران، حيث الرجال يجلسون القرفصاء، ويدخنون غلايينهم الرفيعة الطويلة. النساء كنَّ لا يدخنَّ، ولا يجلسنْ القرفصاء: كان ينظر، تقليدياً، إلى هذه الأفعال على أنها لا تليق بالمرأة، ولا أحد في الصين «الثورية»، تحدث عن تغيير هذه المواقف.

في ديانغ، عرفت كيف يعيش فلاحو الصين حقاً. كل يوم، يبدأ بتوزيع المهمات من قائد الفريق الإنتاجي. وعلى جميع الفلاحين أن يعملوا، ويكسب كل واحد منهم عدداً محدداً من «نقاط العمل» (غونغ ـ فين) عن عملهم في ذلك اليوم. فمجموع نقاط العمل، عنصر هام في التوزيع، في نهاية السنة. ويحصل الفلاحون على مواد غذائية، ووقود وضروريات يومية أخرى، مع مبلغ صغير من النقود، من الفريق الإنتاجي. بعد الحصاد، يدفع الفريق الإنتاجي جزءاً منه ضريبة للدولة، ثم يقسم الباقي. أولاً توزع كمية أساسية، بالتساوي، على كل ذكر، وكمية تقل عنها بحوالي الربع، لكل من الإناث. ويتسلم الأطفال دون الثالثة، نصف الكمية. وبما أن الطفل، الذي يزيد عمره على الثالثة بقليل، لا يستطيع، كما هو واضح، أن يأكل قدر ما يأكله الكبير، فإن من المرغوب فيه إنجاب مزيد من الأطفال. لقد كان النظام يعمل كمثبط إيجابي لتحديد النسل.

يوزع باقي المحصول، بعد ذلك، بحسب عدد النقاط التي جمعها كل واحد. ومرتين في السنة، يجتمع الفلاحون كلهم، لتحديد نقاط العمل اليومية لكل شخص. ولا يغيب أحد عن هذه الاجتماعات. في النهاية، تمنح لمعظم الشباب ومتوسطي الأعمار عشر نقاط، في اليوم، وللنساء ثماني نقاط. واحد أو اثنان، تعترف القرية كلها بأنهما قويان على نحو استثنائي، يمنحان نقطة إضافية. ويمنح «أعداء طبقيون» مثل ملاّك القرية السابق وعائلته، نقطتين أقل من الآخرين، رغم أنهم لا يقلون عنهم مثابرة في عملهم، وتناط بهم عادة أصعب الأعمال. وإذ كنا، أنا ونانا، شابتين من «شباب المدن»، تنقصنا الخبرة، فقد كنا نحصل على أربع نقاط ـ عدد النقاط نفسه

الذي يحصل عليه أطفال في العِقد الثاني من العمر. قيل لنا إن هذا العدد هو «في البداية» فقط، رغم أن عدد نقاطي لم يرفع أبداً.

ولأنه لا يوجد فارق يذكر، بين فرد وآخر، ينتميان إلى جنس واحد، من حيث النقاط اليومية، فإن مجموع نقاط العمل، يعتمد، بالدرجة الرئيسية، على عدد الأيام، التي يعمل فيها المرء، وليس على كيفية عمله. كان هذا مصدر استياء دائم بين القرويين، فضلاً عن كونه كابحاً هائلاً للكفاءة. كل يوم، يقطب الفلاحون الجبين، ليراقبوا كيف يعمل الآخرون، خشية أن يتعرضوا للاستغلال والغبن. لم يكن أحد يريد العمل، أكثر من آخرين يكسبون العدد نفسه، الذي يكسبه من نقاط العمل. وكانت النساء يشعرن بالمرارة، إزاء رجال يؤدون، أحياناً، النوع نفسه من العمل الذي يؤدينه، ولكنهم يكسبون نقطتين أكثر مما يكسبنه. كانت هناك جدالات دائمة.

في أحيان كثيرة، كنا نمضي عشر ساعات في الحقول، للقيام بعمل من الممكن إنجازه في خمس ساعات. ولكن كان علينا البقاء هناك عشر ساعات، لكي يحتسب يوماً كاملاً. كنا نعمل في حركة بطيئة، وكنت أنظر إلى الشمس متمنية مغيبها بتأفف، وأحسب الدقائق إلى أن تنطلق الصفارة، معلنة انتهاء العمل. ما لبثتُ أن اكتشفتُ أن الضجر متعب، كالكدح الذي يقصم الظهر.

هنا، كما في نينغنان، وكما في قسم كبير من سيشوان، لم تكن هناك آلات. أساليب الزراعة مماثلة، إلى حد ما، لتلك المستخدمة قبل ٢٠٠٠ عام، باستثناء بعض الأسمدة الكيمياوية، التي يتلقاها الفريق من الحكومة، مقابل حبوب. لم تكن هناك، عملياً، أية حيوانات تستخدم في العمل، باستثناء الجواميس للحراثة. كل شيء آخر، بما في ذلك نقل الماء والروث والمحروقات والخضراوات والحبوب، كان يتم باليد، وعلى الأكتاف، مستخدمين سلال الخيزران أو البراميل الخشبية على عصا، توضع على المنكبين. مشكلتي الأكبر، كانت حمل الأثقال. كان منكبي الأيمن متورماً على الدوام، ومتقرحاً من جراء حمل الماء من البئر إلى البيت. وكلما يأتي شاب معجب بي لزيارتي، كنتُ أبدي عجزاً، بحيث إنه كان لا يتردد في ملء خزان الماء لي. وليس خزان الماء وحده، بل الأباريق والسلطانيات وحتى الأقداح.

كف قائد الفريق، مراعاة منه، عن تكليفي بحمل أشياء، وأرسلني إلى أداء أعمال

«خفيفة»، مع الأطفال والشيوخ والحوامل. ولكنها لم تكن دائماً خفيفة عليَّ. فاغتراف الروث، سرعان ما تسبب بتقرح ذراعيَّ، ناهيكم من إصابتي بالغثيان، حين كنت أرى اليرقات السمينة تعوم على السطح. ربما كان قطف القطن في بحر من البياض الناصع، صورة رعوية، لكني ما لبثتُ أن أدركتُ ما يتطلَّب ذلك من جهد، تحت الشمس اللافحة، في درجات حرارة تزيد كثيراً على ٨٥ درجة فهرنهايت، ورطوبة عالية، بين أغصان شوكية، كانت تترك خدوشاً في كل جسمي.

كنتُ أفضل استنبات شتلات الرز. كان هذا يعتبر عملاً شاقاً، لأن على المرء أن ينحني كثيراً. وفي أحيان كثيرة، كان حتى أشد الرجال صلابة، يشكون، في نهاية اليوم، عجزهم عن الوقوف باعتدال. ولكني كنت أحب انصباب الماء على ساقيَّ في الحرارة، التي لا تطاق لولا ذلك، ومنظر الصفوف الأنيقة من الخضرة الغضة، والطين الناعم تحت قدميَّ، الذي كان يمنحني لذة حسية. الشيء الوحيد الذي كان حقاً يضايقني هو العَلَق. كان أول لقاء لي معه، حين شعرت بشيء يدغدغ ساقي. رفعتها فرأيت مخلوقاً زلقاً سميناً، يدفن رأسه في جلدي، محاولاً بدأب أن يخترقه. أطلقتُ صرخة مدوية، فقهقهت فتاة فلاحة، كانت إلى جنبي. وجدت خوفي مضحكاً. مع ذلك تقدمت نحوي، وصفعت ساقي فوق العلَقَة مباشرة. فسقطت في الماء محدثة صوت حجر ساقط.

في الصباحات الشتائية، خلال فترة العمل، التي تمتد ساعتين قبل الفطور، كنتُ أتسلق الروابي مع النساء «الأضعف»، لجمع الحطب. نادراً ما كانت هناك أشجار على الروابي، بل إن الشجيرات كانت قليلة، ومتباعدة. كثيراً ما كان علينا أن نمشي مسافة طويلة. نقطع بمنجل قابضين على النباتات بأيدينا. كانت الشجيرات مكسوة بالأشواك، وكان عدد لا يستهان به منها، ينغرز في راحتي ورسغي الأيسرين. في البداية، كنت أمضي وقتاً طويلاً في محاولة إخراجها، ولكني، في النهاية، تعودتُ تركها لتخرج بنفسها، بعد التهاب أماكنها.

كنا نجمع ما يسميه الفلاحون «وقوداً ريشياً». كان هذا عديم الفائد تماماً، ويحترق بسرعة خاطفة. ذات مرة، أبديتُ أسفي لعدم وجود أشجار حقيقية. قالت النساء اللواتي كن معي، إن الحال لم تكن دائماً كذلك. وقلن لي إن الروابي، قبل «الطفرة الكبرى إلى الأمام»، كانت مكسوة بأشجار الصنوبر والأوكالبتوس والسرو.

وأنها قطعت جميعاً، لتغذية «أفران الفناءات» من أجل إنتاج الفولاذ. قالت النساء لي ذلك بهدوء، دون مرارة، كأن ذلك لم يكن سبب معركتهن اليومية من أجل الوقود. بدا أنهن يعاملنه معاملة شيء أقحمته الحياة عليهن، شأن الكثير من المصائب الأخرى. لقد صدمتني المواجهة، أول مرة، مع الآثار السيئة للطفرة الكبرى، التي لم أعرفها، إلا بوصفها «نجاحاً باهراً».

اكتشفتُ الكثير من الأمور الأخرى. فقد نُظمت جلسة من جلسات «مرِّ الكلام» للفلاحين، يصِفون فيها معاناتهم في ظل الكومنتانغ، وبهدف توليد مشاعر الامتنان لماو، وخاصة بين أبناء الجيل الناشىء. تحدث بعض الفلاحين عن طفولة من الجوع، بلا مغيث، وتأسفوا أن يكون أطفالهم مدللين، بحيث كثيراً ما كان يتعين استدراجهم، لكي ينهوا طعامهم.

ثم انتقل حديثهم إلى مجاعة بعينها. وصفوا اضطرارهم إلى أكل أوراق البطاطس الحلوة، وحفر الأضلع الممتدة بين الحقول، بأمل العثور على بعض الجذور. وذكروا الوفيات الكثيرة في القرية. قصصهم استدرت دموعي. وبعد أن قالوا كم يكرهون الكومنتانغ، وكم يحبون الرئيس ماو، أشاروا إلى هذه المجاعة، على أنها حدثت «وقت تشكيل الكوميونات». وفجأة، أدركتُ أن المجاعة، التي يتحدثون عنها، كانت في عهد الشيوعيين. فقد خلطوا بين النظامين. سألتُ: «ألم تكن هناك كوارث طبيعية، لم يسبق لها مثيل، في تلك الفترة؟ ألم يكن ذلك هو سبب المشكلة؟». فقالوا «أوه، كلا. الأحوال الجوية، ما كان من الممكن أن تكون أفضل، وكانت هناك وفرة من الحبوب في الحقول. ولكن ذلك الرجل [أشاروا إلى رجل منكمش في الأربعين] أمر الرجال بالذهاب لصنع فولاذ، فضاع نصف المحصول في الحقول. ولكنه قال لنا: لا يهم، نحن الآن في فردوس الشيوعية، ولا يتعين علينا أن نقلق في شأن الغذاء. في السابق، كان علينا دائماً أن نتحكم في بطوننا، ولكننا كنا، حينذاك، نأكل حتى نشبع في مطعم الكوميونة. كنا نرمي الفضلات، ونطعم حتى الخنازير الرز الثمين. ثم لم يعد لدى المطعم غذاء، ولكنه وضع حراساً خارج المخزن. وتقرر شحن المتبقي من الحبوب، إلى بكين وشنغهاي ـ كان هناك أجانب».

وقطعة فقطعة، اكتملت الصورة. الرجل المنكمش، كان قائد الفريق الإنتاجي،

خلال «الطفرة الكبرى». وقام مع جماعته بتحطيم قدور الفلاحين ومواقدهم، كيلا يتمكنوا من الطهي في البيوت، ولتغذية الأفران بالقدور. قدم تقارير عن جني محاصيل مبالغ فيها كثيراً، فأسفر ذلك عن ضرائب عالية، بحيث إنهم أخذوا حبة تركها الفلاحون. مات القرويون بالعشرات. وبعد المجاعة، حُمِّل مسؤولية كل الأخطاء في القرية. سمحت الكوميونة للقرويين بالتصويت لمصلحة إقصائه، ووصمته بكونه «عدواً طبقياً».

وشأنه شأن جل الأعداء الطبقيين، لم يُلق به في السجن، بل وضع «تحت المراقبة»، يمارسها عليه قرناؤه القرويون. كانت هذه طريقة ماو: إبقاء شخوص من «العدو» بين الناس، بحيث يكون لديهم من يكرهونه. وكلما جاءت حملة جديدة، يكون هذا الرجل أحد «المشبوهين المعهودين»، بغية اعتقاله ومهاجمته من جديد. كان دائماً يُكلَّف بأشق الأعمال، ولا يمنح إلا سبع نقاط في اليوم، ثلاث نقاط أقل من معظم الرجال الآخرين. لم أر قط أحداً يكالمه، ولمحتُ، عدة مرات، أطفال القرية، يرشقون أبناءه بالحجارة.

أعرب الفلاحون عن شكرهم للرئيس ماو، لمعاقبته. لم يشك أحد في ذنبه، أو في درجة مسؤوليته. بحثتُ عنه، بمفردي، ولما وجدته طلبتُ منه أن يروي قصته. بدا ممتناً للسؤال، على نحو يثير الشفقة. ظل يردد: «كنتُ أنفذ الأوامر. كان عليّ أن أنفذ الأوامر...». ثم تنهد: «بالطبع، لم أكن أريد أن أفقد منصبي. فسوف يحل آخر مكاني. وحينذاك، ماذا كان سيحدث لي ولأطفالي؟ كنا على الأرجح سنموت من الجوع. إن قائد الفريق الإنتاجي شخص صغير، ولكنه، يستطيع على الأقل، أن يموت بعد كل الآخرين في القرية».

كلماته وقصص الفلاحين هزتني من الأعماق. كانت تلك المرة الأولى، التي رأيت فيها الجانب البشع من الصين الشيوعية، قبل «الثورة الثقافية». كانت الصورة تختلف اختلافاً هائلاً عن النسخة الرسمية الوردية. وفي روابي ديانغ وحقولها، تعمقت شكوكي في النظام الشيوعي.

كنتُ، أحياناً، أتساءل إن كان ماو يعرف ما يفعل، بوضعه شباب الصين المديني، على اتصال مع الواقع. ولكنه كان واثقاً أن قسماً كبيراً من السكان، لن

يكونوا قادرين على الخروج باستنتاجات عقلانية، لأن المعلومات، التي كانت متاحة لهم، كانت مجتزأة. والحق أني، في الثامنة عشرة، لم أكن قادرة بعد، إلا على الإحساس بشكوك مبهمة، وعاجزة عن إجراء تحليل صريح للنظام. ومهما بلغ كرهي للثورة الثقافية، فإن الشك في ماو، لم يدخل عقلي بعد.

في ديانغ، كما في نينغنان، كانت قلة من الفلاحين يستطيعون قراءة أبسط مقالة في الجرائد أو كتابة رسالة. ولم يكن الكثير قادرين حتى على كتابة اسمائهم. فحملة الشيوعيين السابقة، لمعالجة الأمية، نحّتها جانباً الحملات المتواصلة، لمطاردة الساحرات. كان هناك، ذات يوم، مدرسة ابتدائية في القرية، مدعومة مالياً من الكوميونة، ولكن في بداية الثورة الثقافية، تفنن الأطفال في اضطهاد المعلم. داروا به حول القرية، بقدور ثقيلة من الحديد، مكدسة على رأسه، ووجهه مسوَّدٌ بالسخام. وذات مرة، كادوا يهشمون جمجمته. ومنذ ذلك الحين، تعذر إقناع أحد بتولي مهمة التعليم.

لم يفتقد معظم الفلاحين المدرسة. «ما جدواها؟»، كانوا يقولون. «تدفع الرسوم، وتَقرأ طول سنوات، وفي النهاية، تبقى فلاحاً، تكسب لقمتك بعرق جبينك. لا تحصل على حبة رز أكثر، لقدرتك على قراءة الكتب. فلماذا هدر الوقت والمال؟ والأجدر أن تبدأ بكسب نقاط عملك، في الحال». إن غياب أية فرصة، عملياً، في مستقبل أفضل، وانعدام الحراك التام، تقريباً، لكل من وُلد فلاحاً، قتلا حافز الرغبة في التعلم. كان الأطفال يبقون في البيت لمساعدة عوائلهم على عملهم أو العناية بالإخوة والأخوات الأصغر. أما البنات، فقد كان الفلاحون يرون أنه لمضيعة وقت، أن يذهبن إلى المدرسة: «إنهن يتزوجن، ويكنَّ ملك آخرين. كمن يسكب ماء على الأرض».

جرى التزمير بالثورة الثقافية، بوصفها حملت التعليم إلى الفلاحين، من خلال «الدروس المسائية». وذات يوم، أعلن فريقي الإنتاجي عن بدء دروس مسائية، وطلب مني ومن نانا، أن نكون المعلمتين. كنت مسرورة. ولكن ما أن بدأ «الدرس» الأول، حتى أدركتُ أن هذا ليس تعليماً.

كانت الدروس تبدأ، دائماً، بأن يطلب قائد الفريق الإنتاجي مني ومن نانا، أن

نتلو مقالات بقلم ماو، أو مواد أخرى من صحيفة «الشعب» اليومية. ثم كان يلقي خطبة، مدتها ساعة، تتضمن آخر التعابير السياسية، في مقاطع غير متساوقة، بل غير مفهومة. وبين حين وآخر، يعطي أوامر محددة، كلها تصدر، بمهابة، باسم ماو: «الرئيس ماو يقول، إننا يجب أن نأكل وجبتين من عصيدة الرز، ووجبة واحدة فقط من الرز الصلب، في اليوم». «الرئيس ماو يقول، إننا يجب أن لا نهدر البطاطس الحلوة للخنازير».

بعد يوم عمل شاق، في الحقول، تكون أذهان الفلاحين منصرفة إلى أعمالهم المنزلية. لقد كانت أماسيهم ثمينة عندهم، ولكن أحداً لم يجرؤ على الغياب عن «الدروس». كانوا يغفون ما أن يجلسوا هناك. لم أشعر بالأسف على رؤية هذا الشكل من «التعليم»، المعَدّ للتبليد، لا للتنوير، وهو يضمحل تدريجياً.

من دون تعليم، كان عالم الفلاحين ضيقاً بشكل مؤلم. كانت أحاديثهم تدور، عادة، حول تفاصيل دقيقة في حياتهم اليومية. فهذه، امرأة تمضي الصباح كله شاكية، لأن زوجة أخيها، استخدمت عشر حزم من الوقود الريشي، لطهي الفطور، في حين كان في مقدورها أن تكتفي بتسع حزم (الوقود، مثل كل شيء آخر، كان مشتركاً). وتلك تتذمر ساعات، لأن حماتها وضعت أكثر مما ينبغي من البطاطس الحلوة في الرز (كان الرز عزيزاً، ومرغوباً أكثر من البطاطس الحلوة). كنت أعرف أن أُفُقَهم الضيق ليس ذنبهم، ومع ذلك، كنت أجد أحاديثهم لا تطاق.

كان من مواضيع القيل والقال، الحاضرة على الدوام، الجنس، بطبيعة الحال. فامرأة في العشرين، اسمها مِي، من عاصمة محافظة ديانغ، أُرسلت إلى القرية المجاورة لقريتي. وزُعم أنها نامت مع الكثير من شباب المدينة، فضلاً عن الفلاحين، وبين حين وآخر، في الحقول، كان أحدهم يطلع بقصة مثيرة عنها. أشيع أنها حامل، وأنها تشد خصرها، لإخفاء حملها. وفي محاولة لإثبات أنها لا تحمل «ابن حرام»، كانت مِي تتعمد القيام بكل الأعمال، التي تتجنب الحامل القيام بها، مثل رفع أشياء ثقيلة. في النهاية، عثر على رضيع ميت في الحرج، المجاور لجدول، في قريتها. قالوا إنه طفلها. لم يكن أحد يعرف إن وُلِد ميتاً. أمر قائد فريقها الإنتاجي بحفر قبر، ودفن الطفل. وكانت هذه نهاية الأمر، إلا أن الأقاويل اشتدت سعاراً.

القصة كلها أثارت اشمئزازي، ولكن كان هناك صدمات أخرى. كان لدى أحد جيراني أربع بنات ـ أربع حسناوات ذوات بشرة دكناء وعيون مدوَّرة. ولكن القرويين، كانوا لا يعتقدون أنهن جميلات. دُكْن جداً، كانوا يقولون: البشرة الشاحبة، كانت معيار الجمال الرئيسي، في الكثير من الريف الصيني. وعندما حان الوقت لزواج الابنة الكبرى، قرر الأب أن يبحث عن صهر، يعيش معهم في بيتهم. وبهذه الطريقة لن يحتفظ بنقاط عمل ابنته فحسب، بل سيكتسب زوجاً إضافياً من الأيدي العاملة أيضاً. في الأحوال العادية، تعيش الزوجة مع عائلة الرجل، وكان يُعد مهانة كبيرة، أن ينتقل الزوج للعيش مع عائلة زوجته. ولكن جارنا عثر، في النهاية، على شاب من منطقة جبلية فقيرة جداً، كان تواقاً إلى الرحيل عنها ـ ولم يكن يستطيع ذلك، إلا من خلال الزواج. وهكذا كانت مكانة الرجل وضيعة جداً، وكثيراً ما كنتُ أسمع عمّه يشتمه بأعلى صوته. ولتعذيب الشاب، كان يحمل ابنته على النوم بمفردها، حين يعن له ذلك. وهي لم تكن تجرؤ على الرفض، لأن «طاعة الوالدين»، ذات الجذور العميقة في الأخلاق الكونفوشية، تقضي بالنزول عند مشيئتهما ـ ولأنه يجب أن لا تبدو في شوق إلى النوم مع رجل، ولو كان زوجها: كان تمتع المرأة بالجنس، يعد مخزياً. صحوتُ، ذات صباح، على ضجة وراء نافذتي. وقع الشاب، بطريقة ما، على بضع قنانٍ من الكحول الصناعي، وأفرغها في جوفه. وكان عمه يركل باب غرفة نومه، ليحمله على بدء العمل. وعندما حطم الباب، كان الصهر ميتاً.

ذات يوم، كان فريقي الإنتاجي يصنع معكرونة البازلاء، واستعار وعائي المطلي بالمينا لحمل الماء. في ذلك اليوم، انفرطت الشرائط العجينية، في كتلة لا شكل لها. الحشد الذي تجمع مهتاجاً ومتسائلاً عن وعاء صنع العصائب، بدأ يغمغم حين رآني مقتربة، ونظر إليَّ بتقزز. كنتُ خائفة. فيما بعد، قال لي بعض النساء، إن القرويين ألقوا باللائمة عليَّ، لما حصل للمعكرونة. قالوا إني لا بد قد استعملت الوعاء للاغتسال، عندما جاءني الطمث. وقالت لي النساء، إنني محظوظة أن أكون «شابة من المدينة». ولو كنت واحدة منهن، لأعطاها زوجها «علقة ساخنة حقاً».

في مناسبة أخرى، كانت مجموعة من الشباب، الذين يمرون بقريتنا حاملين سلالاً من البطاطس الحلوة، يستريحون على طريق ضيق. كانت العصي، التي يحملون بها السلال على أكتافهم، ملقاة على الأرض، قاطعة الطريق. وقد وطئتُ

واحدة منها. وفجأة، وثب أحد الشبان على قدميه، والتقط عصاه، ووقف أمامي بعينين يتطاير الشرر منهما. بدا كأنه يوشك أن يضربني. علمتُ من الفلاحين الآخرين، أنه يعتقد بأنه سيصاب بقروح في منكبيه، إذا وطئت عصاه امرأة. وقد أُجبرتُ على العبور من فوقها، عائدة، «لإبطال مفعول السم». لم أشهد قط، طيلة الوقت الذي كنت خلاله في الريف، أية محاولة لمعالجة مثل هذا التفكير المشوه ـ في الحقيقة، لم يرد ذكر لها على الإطلاق.

كان الملاّك السابق، الأكثر تعليماً، في فريقي الإنتاجي. جرى تكييفي، بحيث أنظر إلى الملاّك على أنه شرير، والآن، وبعد شعوري، في البداية، بعدم الارتياح، وجدتُ أني في غاية الانسجام مع هذه العائلة. لم يكن فيهم وجه شبيه بالقوالب التي غُرست في ذهني. لم تكن للزوج عينان قاسيتان خبيثتان، ولم تكن زوجته تهز عجيزتها، أو تتكلم بصوت، تبدو به مغناجاً.

أحياناً، عندما نكون بمفردنا، كان يتحدث عن تظلماته. قال ذات مرة: «تشانغ يونغ، أعرف أنكِ شخص طيب. ولا بد أنكِ شخص معقول، أيضاً، لأنك قرأتِ كتباً. تستطيعين أن تحكمي إن كان هذا عدلاً». ثم أخبرني لماذا صُنِّف في عداد الملاّك. كان نادلاً في تشينغدو، في عام ١٩٤٨، وادخر بعض المال بالحرص على كل قرش. وقتذاك، كان بعض الملاّك بعيدي النظر، يبيعون أراضيهم بأسعار بخسة، لأنهم كانوا يرون الإصلاح الزراعي قادماً، إذا وصل الشيوعيون إلى سيشوان. لم يكن النادل محنكاً، سياسياً، فابتاع بعض الأرض، معتقداً أنه عقد صفقة مربحة. لكنه سرعان ما فقد معظمها في الإصلاح الزراعي، بل أصبح عدواً طبقياً، يستحق الركل أيضاً. قال باستسلام، مقتبساً قولاً كلاسيكياً مأثوراً: «يا حسرتاه، زلة واحدة، سببت ألف عام من الأسى».

بدا أن القرويين لا يناصبون الملاّك وعائلته العداء، رغم أنهم أبقوا مسافة بينهم وبينه. ولكن، شأنهم شأن كل «الأعداء الطبقيين»، كانوا دائماً يكلفون بالأعمال، التي لا يريدها الآخرون. وكان الابنان يحصلان على نقاط عمل، تقل نقطة عن الرجال الآخرين، رغم أنهما كانا أكثر الرجال كدًا في القرية. كانا يبدوان لي على جانب كبير من الذكاء، وكذلك أكثر الرجال تهذيباً. كانت رقَّتهما ودماثتهما، تميزانهما عن الآخرين، ووجدتني أشعر أنني أقرب إليهما من كل الشباب الآخرين في القرية. ولكن رغم شمائلهما، لم تكن هناك فتيات يردن الاقتران بهما. أخبرتني أمهما، كم

أنفقت من المال على شراء الهدايا للقلة من البنات، اللواتي قام وسطاء بتقديمهن. كانت الفتيات يقبلن الملابس والنقود ثم يختفين. الفلاحون الآخرون، كانوا يستطيعون المطالبة بإعادة الهدايا، ولكن عائلة الملاّك، لا حيلة لها في الأمر. كانت الأم تزفر حسرات طويلة، وبصوت عال، لأن ابنيها، ليس لديهما آفاق يعتدّ بها في عقد زواج لائق. ولكنهما، كما قالت لي، يتحملان نكدهما، بمعنويات عالية: بعد كل خيبة، يحاولان التهوين عليها. وكانا يعرضان عملهما في أيام السوق، للتعويض عن ثمن الهدايا الضائعة.

ذكرت لي كل هذه المصائب، دون كثير من الدراما أو العواطف. هنا، حتى الوفيات الصادمة، كانت تبدو كأنها حجر يلقى في بركة، حيث الماء وتموجه يعودان إلى الركود بلمح البصر.

في سكون القرية، في عمق الليالي في بيتي الرطب، كنتُ أمارس الكثير من القراءة والتفكير. حين جئتُ إلى ديانغ، في البداية، أعطاني جن ـ منغ عدة حقائب كبيرة، مليئة بكتبه من السوق السوداء، التي تمكن من جمعها، لأن من كانوا يدهمون البيوت، أُرسلو الآن إلى «مدرسة الكوادر»، في مي يي، مع أبي. وطول اليوم، خلال وجودي في الحقول، كنت أتحرق شوقاً للعودة إليها.

التهمتُ ما نجا من حرق مكتبة أبي. كانت هناك الأعمال الكاملة للكاتب الصيني الكبير، إبان العشرينات والثلاثينات، لو شون. ولأنه مات في عام ١٩٣٦، قبل مجيء الشيوعيين إلى السلطة، فقد أفلت من اضطهاد ماو، بل أصبح بطلاً عظيماً من أبطاله ـ في حين أن تلميذ لو شون الأثير، وزميله الأقرب، هو فينغ، وصمه ماو شخصياً بمعاداة الثورة، وسُجن عشرات السنين. وأدت ملاحقة هو فينغ إلى حملة مطاردة الساحرات، التي اعتُقلتْ أمي خلالها، في عام ١٩٥٥.

كان لو شون المفضل لدى أبي. وحين كنت طفلة، كثيراً ما كان يقرأ لنا مقالات بقلم لو. لم أفهمها، حينذاك، حتى مع شروح أبي، ولكني، الآن، مأخوذة بها. وجدتُ أن حدَّها الهجائي، يمكن أن يصح على الشيوعيين، فضلاً عن الكومنتانغ. لم تكن لدى لو شون إيديولوجيا، إنسانية متنورة فقط. عبقريته تتحدى كل الافتراضات. لقد كان واحداً، من بين آخرين، ساعد ذكاؤهم المتحرر على تحريري من التلقين.

مجموعة أبي من الكلاسيكيات الماركسية، كانت أيضاً نافعة لي. كنت أقرأ عشوائياً، متبعة الكلمات العويصة بإصبعي، ومتسائلة عن علاقة تلك السجالات الألمانية، من القرن التاسع عشر، بصين ماو. ولكن شيئاً استهواني، نادراً ما كنت أجده في الصيني ـ المنطق الذي يسري في المحاجَّة. إن قراءة ماركس، ساعدتني على التفكير تفكيراً عقلانياً وتحليلياً.

كنتُ أستمتع بهذه الطرائق الجديدة في تنظيم أفكاري. وفي أوقات أخرى، أترك ذهني ينزلق إلى أمزجة سديمية أكثر، وأكتب الشعر بالأساليب الكلاسيكية. وفيما أعمل في الحقول، كنت كثيراً ما أستغرق في نظم قصائد، الشيء الذي كان يجعل العمل محتملاً، وفي بعض الأحيان، مستساغاً. بسبب ذلك، كنت أفضل الاختلاء بنفسي، وأتجنب محادثة الآخرين بلباقة.

ذات يوم، كنتُ أقطع القصب بمنجل، وآكل الأجزاء الأغنى بالعصير قرب الجذور. كان القصب يذهب إلى معمل السكر في الكوميونة، مقابل الحصول على السكر. وكان علينا جمع حصة معينة، فكنا نأكل أفضل الأجزاء. وعندما يحين وقت الغداء، ويتعين على أحد ما أن يبقى في الحقل، تحوطاً من اللصوص، كنتُ أعرض خدماتي، ليتوافر لي وقت، أختلي فيه بنفسي. كنت أذهب لتناول غدائي، عندما يعود الفلاحون ـ وبذلك أكسب وقتاً أكثر أقضيه مع نفسي.

أستلقي على كومة من القصب، وقبعة من القش تظلل جزءاً من وجهي. ومن خلال تلك القبعة، كنت أستطيع أن أرى السماء الفيروزية الشاسعة. كانت ورقة تنتأ من الكومة فوق رأسي، حيث تبدو ضخمة على نحو لا ينسجم مع حجمها، على خلفية السماء. أغمض عيني، وأنا أشعر براحة تدبُّ فيَّ من الخضرة الباردة.

ذكَّرتني تلك الورقة بالأوراق المتمايلة لبستان من الخيزران، في عصر يوم صيفي حار، قبل سنوات. وإذ كان أبي يستظل بها وهو يصيد السمك، فقد كتب قصيدة وجدانية. وبطريقة جي ـ لو نفسها ـ نمط من الإيقاعات والقوافي وأنواع الكلمات ـ التي كتب بها قصيدته، بدأتُ أنظم قصيدة من قصائدي. بدا الكون ساكناً، باستثناء الهفهفة الخفيفة للنسمة المنعشة في أوراق القصب. شعرتُ بالحياة جميلة، في تلك اللحظة.

خلال هذه الفترة، كنت أقتنص الفرصة للاختلاء بنفسي، وكنت أُبيِّن، بطريقة

استعراضية، أنني لا أريد أن أمتَّ بصلة إلى العالم من حولي، الشيء الذي جعلني أبدو متعالية. ولأن الفلاحين، كانوا النموذج الذي يراد مني الاقتداء به، فقد كانت ردة فعلي بالتركيز على صفاتهم السلبية ومثالبهم. لم أحاول أن أعرفهم أو أتفاهم معهم.

لم أكن محبوبة كثيراً في القرية، رغم أن الفلاحين كانوا، من حيث الأساس، يتركونني وشأني. كانوا يستنكرون تخلفي عن العمل بالمثابرة، التي يعتقدون أنني ينبغي أن أعمل بها. كان العمل حياتهم كلها، والمعيار الرئيسي، الذي يحكمون من خلاله على كل واحد. وكانت نظرتهم إلى العمل الكادّ نظرة غير مهادنة، وعادلة على السواء، وكان واضحاً لهم أنني أكره العمل العضلي، وأغتنم كل فرصة للبقاء في البيت، وقراءة كتبي. عادت مشاكل المعدة والطفح الجلدي، التي أصابتني في نينغنان، فور مجيئي إلى ديانغ. وكل يوم، كنت أصاب بنوع من الإسهال، وانتشرت القروح الملتهبة في ساقيّ. كنت أشعر بالوهن والدوار، طول الوقت، ولكن لا جدوى من الشكوى للفلاحين. فحياتهم القاسية، جعلتهم يعتبرون كل الأمراض، غير المميتة، أمراضاً تافهة.

لكن الشيء الذي جعلني غير محببة، إلى حد بعيد، هو غيابي في أحيان كثيرة. فقد أمضيت ثلثي الوقت، الذي كان ينبغي أن أقضيه في ديانغ، في زيارة والديَّ في معسكريهما، أو في العناية بالعمة جون ـ ينغ، في يي بين. وكانت كل رحلة تستغرق عدة أشهر، ولم يكن هناك قانون يمنع ذلك. ولكن رغم أني لم أعمل، تقريباً، ما فيه الكفاية لكسب معيشتي، فقد كنتُ، مع ذلك، أحصل على الغذاء من القرية. إذ كان الفلاحون أسرى نظام توزيعهم المساواتي، وكانوا عالقين معي ـ لم يتمكنوا من طردي. كانوا، بالطبع، يلومونني، وأنا أشعر بالعطف عليهم. ولكني عالقة معهم أيضاً. لم يكن في مقدوري الخروج.

رغم سخط فريق عملي، فقد كان يسمح لي بالمجيء والذهاب كما يحلو لي، لأسباب، منها أني كنت أبقي على مسافة بيني وبينهم. تعلمت أن خير طريقة للتعايش، هي أن يُعد المرء غريباً منزوياً، بعيداً عن الأنظار. إذ ما أن تصبح «واحداً من الجماهير»، حتى تكشف نفسك للتطفل عليها والتحكم فيها.

في هذه الأثناء، كانت أختي شياو ـ هونغ، موفقة في عملها، في القرية

المجاورة. ورغم أنها كانت، شأنها شأني، هدفاً دائماً للسعات البراغيث والتسمم بالروث، حتى إن ساقيها كانتا، أحياناً، تتورمان بحيث إنها تصاب بالحمى، فقد واصلت العمل بمثابرة، وكانت تُمنح ثماني نقاط عمل، في اليوم. كان «نظير» يأتي، في أحيان كثيرة، من تشينغدو، لمساعدتها. كان معمله، مثل معظم المعامل الأخرى، عاطلاً، من الناحية الفعلية. فقد «سُحقت» الإدارة، ولم يكن للجنة الثورية الجديدة مِن همٍّ، سوى حمل العمال على المشاركة في الثورة، بدلاً من الإنتاج، والأغلبية تأتي وتذهب كما تشاء. أحياناً، كان «نظير» يعمل في الحقول، محل شقيقتي، من أجل راحتها. وأحياناً أخرى، يعمل معها، الأمر الذي كان يغتبط له القرويون قائلين: «إن هذه صفقة رابحة. لقد أخذنا فتاة شابة وانتهينا بزوجين من الأيدي العاملة!».

كنا، أنا ونانا وأختي، نذهب إلى السوق الريفي، الذي كان يقام مرة في الأسبوع. كنت أعشق الأزقّة الصاخبة، التي تحفها السلال وعصي الأكتاف. والفلاحون يمشون ساعات لبيع فرخة واحدة، أو دزينة بيض، أو حزمة من الخيزران. كانت أغلبية الأنشطة، التي تدر المال، مثل زراعة محاصيل نقدية، أو صنع سلال، أو تربية خنازير للبيع، قد حُظرت على العوائل الفردية، على أساس أنها أنشطة «رأسمالية». ونتيجة لذلك، لم يكن لدى الفلاحين الكثير مما يبادلونه بنقود. ومن دون نقود، كان يتعذر عليهم السفر إلى المدن، فكان يوم السوق مصدر الترفيه الوحيد، تقريباً، المتاح لهم. كانوا يلتقون بأقربائهم وأصدقائهم، حيث يجلس الرجال القرفصاء يدخنون غلايينهم على الأرصفة الطينية.

في ربيع ١٩٧٠، عقد قران أختي و«نظير». لم يكن هناك حفلة زفاف. في أجواء تلك الأيام، لم يخطر ببالهما إقامة حفلة كهذه. اكتفيا بأخذ شهادة زواجهما من مقر الكوميونة، ثم عادا إلى قرية أختي، ومعهما حلويات وسجائر القرويين. كان الفلاحون فرحين: نادراً ما كانوا يستطيعون شراء هذه الأطايب الثمينة.

كان العرس عند الفلاحين حدثاً كبيراً. وما أن بلغهم النبأ، حتى تجمعوا في كوخ أختي، المسقوف بالسعف لتقديم التهاني. حملوا معهم هدايا، مثل حفنة من المعكرونة المجففة ورطل من فول الصويا وقليل من البيض، مغلّفة بعناية بورق أحمر، من القش، ومربوطة بقشة طويلة، في عقدة مبتكرة. هذه لم تكن هدايا

عادية. فقد حرم الفلاحون أنفسهم من مواد ثمينة. تأثرت شقيقتي و«نظير» تأثراً بالغاً. وعندما ذهبنا، أنا ونانا، لزيارة الزوجين الجديدين، كانا يعلّمان أطفال القرية «رقصات الولاء»، للسلوى.

لم يُخرِج الزواج أختي من الريف، لأن المتزوجين لم يكونوا يمنحون، تلقائياً، الإذن بالسكن معاً. بالطبع، لو كان «نظير» مستعداً للتنازل عن تسجيله في المدينة، لأمكنه بسهولة أن يستقر مع أختي، ولكنها لا تستطيع الانتقال إلى تشينغدو معه، لأنها مسجلة في الريف. ومثل عشرات الملايين من المتزوجين في الصين، عاشا منفصلين يحق لهما، بموجب النظام، اثنا عشر يوماً في السنة، في العيش معاً. من حسن حظهما أن معمل «نظير»، لم يكن يعمل بصورة طبيعية، فكان في مقدوره أن يمضي الكثير من الوقت في ديانغ.

بعد عام في ديانغ، طرأ تغير على حياتي: انخرطتُ في مهنة الطب. كانت الكتيبة الإنتاجية التي تنتمي إليها فرقتي، تدير مستوصفاً، يعالج الأمراض البسيطة، وتموله كل الفرق الإنتاجية التابعة للكتيبة. وكان العلاج مجاناً، ولكنه محدود جداً. كان هناك طبيبان، أحدهما شاب، ذو وجه ذكي، لطيف، تخرَّج في كلية الطب، في محافظة ديانغ، إبان الخمسينات، وعاد ليعمل في قريته الأصلية. وكان الطبيب الآخر كهلاً، ذا لحية قصيرة. بدأ متمرناً عند طبيب ريفي عجوز، يمارس الطب الصيني، وفي عام ١٩٦٤، أرسلته الكوميونة إلى دورة مكثفة في الطب الغربي.

في بداية ١٩٧١، أمرتْ سلطات الكوميونية المستوصف بتشغيل «طبيب حافٍ». جاءت هذه التسمية لأنه على «الطبيب» أن يعيش حياة الفلاحين، الذين يعتزون بأحذيتهم، حتى إنهم لا ينتعلونها في الحقول الموحلة. حينذاك، كانت هناك حملة دعائية واسعة، تحيي الأطباء الحفاة، بوصفهم من اختراع «الثورة الثقافية»، وقد اغتنمت فرقتي الإنتاجية هذه الفرصة، للتخلص مني: إذا عملتُ في المستوصف، فإن الكتيبة ستكون مسؤولة عن غذائي ودخلي، وليس فرقتي.

كنتُ دائماً أريد أن أكون طبيبة. فالأمراض في عائلتي، وخاصة موت جدتي، أفهمتني أهمية الأطباء. وقبل أن أذهب إلى ديانغ، بدأتُ أتعلم العلاج بالإبر على أحد الأصدقاء، وكنتُ أدرس كتاباً عنوانه «دليل الطبيب الحافي»، الذي كان واحداً من المواد المطبوعة، القليلة، المسموح بها حينذاك.

كانت الدعاية عن الأطباء الحفاة، إحدى مناورات ماو السياسية. فقد أدان وزارة الصحة، قبل «الثورة الثقافية»، لعدم عنايتها بالفلاحين ولتركيزها فقط على سكان المدن، وخاصة المسؤولين الحزبيين. كما أنه أدان الأطباء، لأنهم لا يريدون العمل في الريف، وخاصة في المناطق النائية. ولكن ماو لم يتحمل مسؤوليته، بوصفه رئيس النظام، ولا هو أمر بأية خطوات عملية، لمعالجة الوضع، مثل إصدار تعليمات ببناء مزيد من المستشفيات، أو إعداد أطباء أكثر تأهيلاً. وخلال «الثورة الثقافية»، ازداد الوضع الطبي سوءاً. كان الموقف الدعائي عن افتقار الفلاحين إلى الأطباء، يراد به، في الحقيقة، إثارة الكراهية ضد المنظومة الحزبية، قبل «الثورة الثقافية»، وضد المثقفين (كانت هذه الفئة تشمل الأطباء والممرضين).

قدم ماو علاجاً سحرياً للفلاحين: «أطباء» يمكن إنتاجهم بالجملة ـ أطباء حفاة. وقال: «ليس من الضروري أبداً أن يكون هناك هذا القدر من الإعداد النظامي. فإنهم يستطيعون أن يتعلموا، ويرفعوا مستواهم بالممارسة». وفي ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٦٥، أطلق تعليقاً، أصبح توجيهاً للصحة والتعليم: «كلما قرأتَ مزيداً من الكتب، ازداد غباؤك». وقد توجهتُ إلى العمل، دونما أي إعداد.

كان المستوصف في قاعة كبيرة، على قمة ربوة، تبعد حوالي ساعة على الأقدام من كوخي. وإلى جواره، كان دكان يبيع الكبريت والملح وصلصلة الصويا، التي كانت كلها توزع بالبطاقة التموينية. أصبحت إحدى غرف المستوصف غرفة نومي. وتُركتُ واجباتي المهنية غامضة.

الكتاب الطبي الوحيد، الذي وقع عليه نظري، كان «دليل الطبيب الحافي». وقد قرأتُه بنهم. لم تكن هناك مادة نظرية فيه، بل مجرد تلخيص للأعراض، تليه وصفات مقترحة. وحين كنت أجلس إلى منضدتي، والطبيبان الآخران ورائي، كلنا نرتدي ملابسنا اليومية التربة، كان واضحاً أن الفلاحين المرضى، لا يريدون الاقتراب مني. وهو عين العقل، إزاء فتاة في الثامنة عشرة، بلا خبرة، لديها كتاب من نوع ما، لا يستطيعون قراءته، بل إنه لم يكن كتاباً سميكاً جداً. كانوا يمرون بي مباشرة إلى المنضدتين الأخريين. كنتُ أشعر بالارتياح، أكثر من شعوري بالمهانة. لم يكن العمل طبيبة، تقوم باستشارة كتاب، كلما وصف المرضى أعراضهم، ثم تنقل الوصفة المقترحة، فكرة من بنات أفكاري. أحياناً، وأنا في مزاج تهكمي، كنتُ أتساءل إن

كان قادتنا الجدد ـ كان الرئيس ماو لا يزال فوق الشكوك ـ يريدونني أن أكون طبيبتهم الشخصية، حافية، أو غير حافية. وكنت أقول لنفسي، طبعاً لا: على الأطباء الحفاة، «أن يخدموا الشعب، لا المسؤولين» في المقام الأول. اكتفيتُ سعيدةً بمجرد كوني ممرضة، أقدم الدواء، بحسب الوصفة، أحقن الحقن التي تعلمتُ حقن أمي بها، إبان معالجة نزيفها.

الطبيب الشاب الذي درس في كلية الطب، كان مطلوباً من الجميع. كانت وصفاته من الأعشاب الصينية، تشفي الكثير من العلات. وكان أيضاً ذا ضمير حي جداً، يعود المرضى في قراهم، ويجمع الأعشاب، ويزرعها، في وقت فراغه. الطبيب الآخر، ذو اللحية الصغير، كان يرعبني بعدم اكتراثه طبياً. كان يستعمل الإبرة نفسها لحقن عدة مرضى مختلفين، دون تطهير. وكان يحقن البنسلين، دون أن يتبين ما إذا كان عند الشخص حساسية منه، الأمر الذي كان فيه خطر، لأن البنسلين الصيني، ليس نقياً ويمكن أن يسبب ردات فعل مخطرة، بل الموت. عرضتُ بأدب، أن أفعل ذلك عنه. ابتسم، دون أن يجرحه تدخلي، وقال إن أي حوادث لم تقع ذات يوم: «الفلاحون ليسوا مثل سكان المدينة الناعمين».

كنتُ أحب الطبيبين، وكانا طيِّبَين جداً معي، دائماً يقدمان المعونة، حين أطرح أسئلة. وليس بمستغرب، أنهما لم يريا فيَّ تهديداً. فهناك في الريف، كان المحك مهارات الشخص المهنية، وليس الخطابية الثقافية.

كنتُ أستمتع بالعيش على قمة الربوة تلك، بعيدة عن أية قرية. كل صباح، أنهض مبكرة، وأقوم بجولة على امتداد حافة الربوة، وأتلو للشمس المشرقة أبياتاً من كتاب شعر قديم، عن العلاج بالإبر. وتحت قدمي، تبدأ الحقول والأكواخ تستيقظ على صياح الديكة. كانت «الزُهرة» تراقب وحيدة، بوهج باهت، في سماء تزداد صفاءً كل دقيقة. وأحببت شذا صَريمة الجَدْي، في نسيم الصباح، والأوراق الكبيرة لعنب الثعلب، تنفض عنها لآلىء الندى. كانت الطيور تغرد من حولي، فتلهيني عن تلاواتي. أتوقف قليلاً، ثم أمشي عائدة لإشعال موقدي، من أجل تحضير الفطور.

بمساعدة تخطيط بياني في التشريح وأَشعاري في العلاج بالإبر، تكونت لديَّ فكرة واضحة بقدر معقول، عن المواقع التي ينبغي أن أغرز فيها الإبر في جسم

الإنسان. كنت تواقة إلى استقبال مرضى. وكان لدي بعض المتطوعين المتحمسين - فتيان من تشينغدو، يعيشون، الآن، في قرى أخرى، ويتوقون إلى إقامة علاقة بي. كانوا يمشون ساعات، من أجل جلسة علاج بالإبر. وأعلن أحد الشبان، بشجاعة، وهو يشمر عن ساعده، ليكشف نقطة توخَز قرب مرفقه: «ما نفع الأصدقاء إذاً؟».

لم أقع في حب أي منهم، رغم الضعف الذي أخذ يعتري قراري بحرمان نفسي من الصديق، بغية التفرغ لوالديَّ، وتهدئة شعوري بالذنب إزاء موت جدتي. ولكني وجدت من الصعب أن أطلق العنان لقلبي، وكانت تربيتي تمنعني من إقامة أية علاقة جسدية، دون تسليم قلبي. في كل مكان من حولي، كان الفتيان والفتيات الآخرون من المدينة، يعيشون حياة أكثر تحرراً. ولكني كنت أجلس، وحيدة، على قاعدة تمثال. وشاع أني أنظم الشعر، فساعدني ذلك على البقاء هناك.

الشباب كلهم كانوا يتصرفون بكل شهامة. أعطاني أحدهم آلة موسيقية، اسمها سان - شيان، مصنوعة من كرة مجوفة، من جلد الأفعى، ذات مقبض طويل، وثلاثة أوتار من الحرير، وقد أمضى أياماً، يعلمني العزف عليها. كانت الألحان المسموح بها، كلها في مديح ماو، وكانت محدودة جداً. ولكن ذلك لم يكن يهمني كثيراً: فقد كانت قدرتي أكثر محدودية.

في الأماسي الدافئة، كنت أجلس إلى جنب الحديقة الطبية العطرة، محاطة بمتسلقات بُوقِّية صينية، وأعزف لنفسي. وحين يغلق المتجر المجاور بابه، في نهاية اليوم، أكون وحيدة تماماً. القمر يشع برقَّة، وأنوار الأكواخ البعيدة تضيء متلألئة. أحياناً تتوهج يراعات وتمر عائمة في الهواء، كأنها مشاعل يحملها رجال طائرون صغار غير مرئيين. كان شذا الحديقة يُسْكرُني متعة. وألحاني بالكاد تضاهي الجوقة المتحمسة من الضفادع الهادرة، ودندنة الجُدجُد الحزينة. ولكنني وجدت فيها سلواي.

٢٤ ـ «أرجوك أن تقبلي اعتذاراتي، التي تأتي متأخرة عمراً بطوله» ـ والداي في المعسكرات (١٩٦٩ ـ ١٩٧٢)

على بعد ثلاثة أيام بالشاحنة من تشينغدو، في شمال شيتشانغ، يقع «سهل راعي الجاموس». وهنا يتشعب الطريق، فرع منه يتجه نحو الجنوب الغربي، إلى مي يي، حيث معسكر أبي، والفرع الآخر نحو الجنوب الشرقي، إلى نينغنان.

أسطورة مشهورة منحت «السهل» اسمه. كانت «الإلّهة حائكة» ابنة «الأم الملكة السماوية»، تهبط من البلاط السماوي للاستحمام في بحيرة هناك (يُفترض أن النيزك الذي سقط على «شارع الشهاب» كان حجراً يسند نولها). شاهد فتى، يعيش قرب البحيرة، حيث يرعى الجاموس، الإلّهة، فأحب أحدهما الآخر. تزوجا وأنجبا ابناً وبنتاً. حسدتهما «الأم الملكة السماوية» على سعادتهما، وأرسلت بعض الآلهة لاختطاف الإلّهة. فحملوها معهم، وانطلقوا، وأسرع راعي الجاموس في أثرهم. وحين أوشك أن يمسك بهم، سحبت «الأم الملكة السماوية» دبوساً، وخطت نهراً ضخماً بينهما. «النهر الفضي» يُباعِد بين الاثنين بصورة دائماً، إلا في اليوم السابع من القمر السابع، عندما تحلق طيور العقعق من كل أنحاء الصين، لتمد جسراً من أجل لقاء العائلة.

«النهر الفضي» هو الاسم الصيني لـ «درب اللبانة». وفوق شيتشانغ، يبدو شاسعاً، ويضم حشوداً من النجوم، «النسر الواقع» بضوئه الساطع، أو الإلّهة

«حائكة»، في جانب. و«النسر الطائر» أو «راعي الجاموس»، مع طفليه، في الجانب الآخر. هذه الأسطورة استهوت الصينيين طول قرون، لأن الحروب، وقطاع الطرق، والفقر، والحكومات الغاشمة، كثيراً ما شتتوا شمل عوائلهم. والمفارقة، أن هذا المكان، هو الذي أُرسلت إليه أمي.

وصلت أمي هناك، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٩، مع زملائها الخمسمئة من «المنطقة الشرقية» ـ «متمردون» فضلاً عن مناصرين للطريق الرأسمالي. ولأن الأوامر صدرت إليهم بمغادرة تشينغدو على عجل، لم يكن هناك مكان يعيشون فيه، إلا بعض الأكواخ، التي تركها مهندسون، كانوا يمدون خطاً للسكة الحديد، من تشينغدو إلى كونمنغ، عاصمة يونان. بعضهم حشروا أنفسهم في هذه الأكواخ، والبعض الآخر، كان عليهم أن يحشروا فرشهم الملفوفة، في بيوت الفلاحين المحليين.

لم تكن هناك مواد بناء، سوى عشب الكوجون والطين، الذي يتعين حفره وحمله من الجبال. وكان الطين اللازم للجدران، يُخلَط بالماء، ويصنع منه الآجر. لم تكن هناك آلات، ولا كهرباء، ولا حيوانات للعمل. وعلى السهل المنبسط، الذي يرتفع حوالي ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، ينقسم اليوم، وليس السنة، إلى أربعة فصول. في الساعة السابعة صباحاً، حين تبدأ أمي عملها، تكون الحرارة قريبة من درجة التجمد. وفي منتصف النهار، يمكن أن تصل درجة عالية في حدود الثمانين. وفي حوالي الرابعة عصراً، تهب رياح حارة، من خلال الجبال، وتكنس الناس من على الأرض، بالمعنى الحرفي للكلمة. وفي الساعة السابعة مساء، عندما ينهون العمل، تعود درجة الحرارة إلى الهبوط. وبين هذه الأجواء القاسية، كانت أمي والنزلاء الآخرون يعملون اثنتي عشرة ساعة، في اليوم، دون استراحة، إلا لتناول غداء سريع. في الأشهر القليلة الأولى، لم يكن لديهم ما يأكلونه، إلا الرز والكرنب المسلوق.

كان المعسكر منظماً على غرار الجيش، يديره ضباط عسكريون، ويخضع لسيطرة «اللجنة الثورية»، في تشينغدو. في البداية، عوملت أمي كعدو طبقي، وكانت تُجبر، كل فترة غداء بطولها، على الوقوف مطأطئة الرأس. كانت وسائل الإعلام توصي بهذا الشكل من العقاب، المسمى «إدانة على جانب الحقل» بوصفه طريقة لتذكير الآخرين، الذين يستطيعون الاستراحة، بأنهم ينبغي أن يحتفظوا بشيء من الطاقة للكره. احتجت أمي لدى قائد سريتها، قائلة إنها لا تستطيع أن تعمل طول اليوم، دون أن تريح

ساقيها. كان الضابط في «القِسِم العسكري للمنطقة الشرقية»، قبل «الثورة الثقافية»، منسجماً معها، وقد وضع حداً لهذه الممارسة. مع ذلك، كانت أمي تُكلَّف بأشق الأعمال، ولم تكن تتمتع بعطلة أيام الأحد، بخلاف النزلاء الآخرين. ازداد النزيف في رحمها تفاقماً. ثم أصيبت بالتهاب الكبد. كان جسمها كله أصفر، ومتورماً، وبالكاد تستطيع الوقوف.

كان الشيء الوحيد، المتاح في المعسكر، هو الأطباء، لأن نصف كوادر المستشفى في «المنطقة الشرقية»، أُرسلوا إلى هناك. وبقي في تشينغدو أولئك الذين كان عليهم أكبر طلب من زعماء «اللجان الثورية». الطبيب الذي عالج أمي، أخبرها عن امتنانه وامتنان الآخرين من العاملين في المستشفى لها لحمايتها لهم، قبل «الثورة الثقافية»، وقال إنه لولاها، لوُصم على الأرجح باليمينية، في عام ١٩٥٧. لم يكن هناك دواء غربي، فكان يقطع أميالاً، لجمع أعشاب، مثل لسان الحَمل الآسيوي ونباتات شمسية، يعتبرها الصينيون مفيدة لمعالجة التهاب الكبد.

كما أنه بالغ في عدوى مرضها، أمام سلطات المعسكر، التي قامت، عند ذاك، بنقلها إلى مكان خُصص لها وحدها، على بعد نصف ميل. تركها معذبوها وشأنها، خوفاً من العدوى، ولكن الطبيب كان يعودها، كل يوم، ويأمر أحد الفلاحين المحليين، في السر، بمؤونة يومية لها من لبن الماعز. كان مسكن أمي الجديد زريبة خنازير مهجورة. وكان نزلاء متعاطفون، ينظفونها لها، ويفرشون طبقة سميكة من القش على الأرض، اعتبرتها أمي حشية وثيرة. وكان هناك طاهية ودود، تتطوع لإعداد الوجبات. وحين لا يكون هناك من يراقبها، كانت تضيف بيضتين. وعندما يصبح اللحم متوافراً، تتناوله أمي، كل يوم، فيما كان الآخرون، لا يحصلون عليه، إلا مرة في الأسبوع. كما كانت لديها فاكهة طازجة ـ كمثري ودراق ـ يقدمها أصدقاء يشترونها من الأسواق. بالنسبة إليها كان التهاب كبدها هبة من السماء.

بعد حوالي أربعين يوماً، كان من دواعي أسفها، أنها تماثلت من مرضها وأعيدت إلى المعسكر، الذي أصبح، الآن، في أكواخ طينية جديدة. إن «السهل» المنبسط مكان غريب، من حيث إنه يستنزل البرق والرعد، ولكنه لا يستنزل المطر، الذي يسقط على الجبال المحيطة. لم يكن الفلاحون المحليون، يزرعون محاصيل في الأراضي المنبسطة، لأن التربة جافة للغاية وذات خطر، خلال الزوابع الرعدية

الجافة، التي تهب في أحيان كثيرة. ولكن هذه الأرض هي المورد الوحيد، المتاح للمعسكر، فكانوا يزرعون ضرباً خاصاً من الذرة المقاومة للجفاف، ويحملون إليها الماء من سفوح الجبال القريبة. وبغية الحصول على تموين من الرز للمستقبل، كانوا يعرضون على الفلاحين المساعدة على جني محصولهم من الرز.

كان الفلاحون يوافقون على ذلك، ولكن العادات المحلية، تمنع النساء من حمل الماء، وتحظر على الرجال زراعة الرز، التي لا يمكن أن تمارسها إلا متزوجات، لهن أطفال، وخاصة أبناء. وكلما كان أبناء المرأة أكثر عدداً، كان الطلب عليها أكبر للقيام بهذا العمل، الذي يقصم الظهر. كان الاعتقاد السائد، أن المرأة التي تنجب كثيراً من الأبناء، تنتج حبوباً أكثر من الرز، الذي تزرعه (لكلمتي «أبناء» و«بزر» لفظ واحد، «زي»، في اللغة الصينية). كانت أمي «المستفيد» الأول من هذه العادة القديمة، ولأنه لديها ثلاثة أبناء، أكثر مما لدى أغلبية زميلاتها، فقد كان عليها أن تمضي نحو خمس عشرة ساعة، في اليوم، منحنية الظهر والساقين، في حقول الرز، مصابة بالتهاب في الجزء السفلي من بطنها، وبنزيف.

في الليل، تشترك مع الآخرين في التناوب على حراسة الخنازير من الذئاب. كانت أكواخ الطين والعشب، تمتد قريباً من سلسلة جبلية، لها اسم يليق بها، هو «وجار الذئاب»، وكان أهل المنطقة يقولون للوافدين الجدد، إن الذئاب ذكية جداً، فحين يدخل ذئب زريبة الخنازير، يخمش الخنزير برقة ويلعقه، لا سيما وراء أذنيه، لتخديره في نوع من الغيبوبة اللذيذة، بحيث لا يثير ضجة. ثم يقوم الذئب بعضّ الخنزير عضة خفيفة على إحدى أذنيه ويقوده خارج الزريبة، مدلكاً جسمه طول الوقت بذيله الكثيف الشعر. ويكون الخنزير ما زال يحلم بأنامل الحبيبة تلاطفه، عندما ينقض عليه الذئب.

كان الفلاحون يقولون لأهل المدينة إن الذئاب ـ وأحياناً النمور ـ تخاف النار. فكانت تشعل النار، كل ليلة، خارج الزريبة. وقد أمضت أمي ليالي، ساهرة، تراقب النيازك تمر عابرة قبة السماء، المنورة بالنجوم، وفي خلفيتها «وجار الذئاب»، وهي تنصت إلى عواء الذئاب من بعيد.

ذات مساء، كانت تغسل ملابسها في بركة، جالسة القرفصاء. وعندما اعتدلت، وجدت أنها تحدق إلى عينين حمراوين لذئب، يقف على بعد حوالي عشرين ياردة.

وقف شعر رأسها، ولكنها تذكرت أن صديق طفولتها، «العجوز الكبير لي»، قال لها إن طريقة التعامل مع الذئب، هي التراجع ببطء، دون إبداء أية علامة على الهلع، وعدم الاستدارة والركض. فتراجعت أمي، وسارت بهدوء، قدر الإمكان، صوب المعسكر، مواجهة طول الوقت الذئب، الذي كان يتبعها. وحين وصلت أطراف المعسكر، توقف الذئب. كانت النار مرئية. وكان من الممكن سماع أصوات. استدارت أمي بسرعة، واندفعت داخلة أحد الأبواب.

كانت النار هي الضوء الوحيد، تقريباً، في أعماق الليل، في شيتشانغ. ليس هناك كهرباء. وكانت الشموع، إن وجدت أصلاً، باهظة الثمن بصورة رادعة عن شرائها. وكان هناك القليل جداً من الكاز. ولكن لم يكن هناك الكثير مما يُقرأ على أية حال. بخلاف ديانغ، حيث كانت لديَّ حرية نسبية، لقراءة كتب جن ـ منغ من السوق السوداء. كانت مدرسة الكوادر، تخضع لرقابة محكمة. والمطبوعات الوحيدة المسموح بها هي مختارات ماو وصحيفة «الشعب» اليومية. في بعض الأحيان، يعرض فيلم جديد، في ثكنة عسكرية، على بعد أميال: كان، على الدوام، واحداً من أوبرات زوجة ماو النموذجية.

بمرور الأيام، ثم الشهور، أصبح العمل الشاق، وانعدام الراحة، لا يطاقان. كان الجميع يفتقدون عوائلهم وأطفالهم، بمن فيهم «المتمردون». ولعل سخط هؤلاء، كان أشد، لأنهم شعروا، الآن، أن كل حماستهم السابقة، كانت من أجل لا شيء، وأنهم مهما فعلوا، لن يعودوا أبداً إلى السلطة في تشينغدو. «فاللجان الثورية» شُغلت في غيابهم، وفي غضون أشهر من الوصول إلى السهل، وكانت أمي أحياناً تطيب خاطر «المتمردين». حلت الكآبة محل الإدانات، مُنحت أمي لقب «كوانين» الإلّهة الطيبة.

في الليل، إذ كانت أمي تستلقي على حشيتها من القش، تتذكر سنوات أطفالها الأولى. أدركت أنه ليس هناك الكثير من الحياة العائلية، لكي تتذكره. كانت أُماً غائبة، عندما كنا ننمو، واهبة نفسها للقضية، على حساب عائلتها. والآن، أخذت تفكر بندم في لا جدوى تفانيها. وجدت أنها تفتقد أطفالها، بألم لا يطاق.

قبل عشرة أيام من «السنة الجديدة» الصينية، في شباط/فبراير ١٩٧٠، وبعد حوالي ثلاثة أشهر في السهل، صُفَّتْ سرية أمي أمام معسكرها، للترحيب بقائد

عسكري، قادم في زيارة تفقدية. وبعد انتظار طويل، لمح الجمع شخصاً صغيراً يقترب على الممر الترابي الصاعد من الطريق البعيد. الجميع نظروا إلى الشخص المتحرك، وقرروا أنه لا يمكن أن يكون المسؤول الكبير: إنه سيكون في سيارة، ومعه بطانة. ولكنه لا يمكن أن يكون فلاحاً محلياً أيضاً: طريقة لف الوشاح الصوفي، الأسود، الطويل، على الرأس المنحني، كانت شديدة التأنق. لقد كانت امرأة شابة وعلى رأسها سلة كبيرة. وإذ راقَبتها أمي تدنو ببطء، أقرب فأقرب، بدأ قلبها يدق بعنف. شعرتْ أنها تبدو كأنها أنا، ثم ظنت أنها ربما كانت تتخيل. قالت لنفسها: «كم سيكون رائعاً لو أنها إير ـ هونغ!». فجأة،كان الآخرون يبشرونها مهتاجين: «إنها ابنتُكِ! ابنتُكِ هنا لتراك! إير ـ هونغ هنا!».

كان هذا وصف أمي، الذي روت فيه كيف رأتني قادمة، بعد ما بدا لها عمراً بطوله. كنتُ أول زائر للمعسكر، واستُقبلتُ بخليط من الدفء والحسد. جئت بالشاحنة نفسها، التي أخذتني إلى نينغنان، من أجل نقل تسجيلي، في حزيران/يونيو من العام السابق. السلة الكبيرة على رأسي، كانت مليئة بالسجق والبيض والحلويات والكعك والمعكرونة والسكر واللحوم المعلبة. قمنا، نحن الأبناء الخمسة و«نظير»، بجمع أشياء من حصصنا التموينية أو نصيباً من فرقنا الإنتاجية، لإعطاء والدينا ما يُشتهى. كان الثقل، عملياً، يجرني إلى الأسفل.

شيئان لفتا نظري، على الفور. كانت أمي تبدو بصحة جيدة ـ فقد تماثلت، لتوها، من التهاب الكبد، كما قالت لي، فيما بعد. والأجواء من حولها، لم تكن معادية. في الواقع، كان البعض، بالفعل، يسمونها «كوانين»، الأمر الذي ما كنت لأصدقه، قطعاً، لأنها، رسمياً، كانت عدواً طبقياً.

كان يغطي شعرها وشاح أزرق أدكن، ومعقود تحت ذقنها. وجنتاها لم تعودا رائقتين ورقيقتين. أصبحتا خشنتين، وحمراوين حمرة قانية، تحت الشمس اللامعة والريح اللاذعة، وبدت بشرتها تشبه كثيراً بشرة فلاحة من شيتشانغ. بدتْ أكبر من سنواتها الثماني والثلاثين، بعشر سنوات، على الأقل . حين لمست وجهي، شعرتُ كأن يديها لحاء شجرة قديمة.

بقيتُ عشرة أيام، وكنتُ بصدد المغادرة إلى معسكر أبي، في يوم السنة

الجديدة. كان ينبغي أن يقلني سائق الشاحنة اللطيف، من المكان الذي أنزلني فيه. اغرورقت عينا أمي، لأنه رغم أن معسكر أبي، لم يكن بعيداً، فقد كان محرماً عليها وعليه أن يتزاورا. وضعتُ سلة الغذاء على ظهري دون أن تمسها يد ـ أصرَّتْ أمي على أن آخذ كل ما فيها إلى أبي. ادخار أغذية عزيزة للآخرين، كان دائماً طريقة رئيسية من طرائق التعبير عن الحب والاهتمام، في الصين. كانت أمي حزينة جداً لذهابي، وظلت تردد أنها آسفة لاضطراري إلى تفويت فطور السنة الجديدة الصينية التقليدي، الذي سيقدمه المعسكر: تانغ ـ يوان، وهي زلابية مدورة، ترمز إلى اجتماع شمل العائلة. لكني لم أتمكن من انتظاره، خشية أن تفوتني الشاحنة.

سارت أمي نصف ساعة معي إلى جانب الطريق، وجلسنا على العشب العالي ننتظر، كانت الطبيعة تتموج مع التموجات الرقيقة لعشب الكوجون الكثيف. والشمس ساطعة ودافئة. أخذتني أمي في حضنها، فبدا أن جسدها كله، يقول إنها لا تريدني أن أرحل، إنها خائفة أن لا تراني مرة أخرى. حينذاك، لم نكن نعرف إن كان معسكرها وكوميونتي، سينتهيان ذات يوم. قيل لنا إننا سنبقى هناك مدى الحياة. كانت هناك مئات الأسباب لموتنا، قبل أن يرى أحدنا الآخر ثانية. حزن أمي أصابني بعدواه وفكرتُ في موت جدتي، قبل أن أتمكن من العودة من نينغنان.

ارتفعت الشمس أعلى فأعلى. لم يكن هناك أثر لشاحنتي. وإذ تلاشت الحلقات الكبيرة من الدخان، التي كانت تنبعث من مدخنة معسكر أمي، عن بعد، استبد بها الندم، لأنها لم تتمكن من إعطائي فطور «السنة الجديدة». أصرت على العودة للحصول على شيء منه لي.

وفي أثناء غيابها، وصلت الشاحنة. نظرتُ نحو المعسكر ورأيتها تعدو في اتجاهي، والعشب الذهبي ـ الأبيض يتصاعد حول وشاحها الأزرق. في يدها اليمنى، كانت تحمل سلطانية كبيرة ملونة، مطلية بالمينا. كانت تركض بذلك النوع من الحذر، الذي يدل على أنها لا تريد للحساء بالزلابيا أن ينسكب. كانت لا تزال بعيدة، وأستطيع أن أرى أنها لن تصلني قبل عشرين دقيقة أخرى، أو نحو ذلك. لم أشعر أن في إمكاني أن أطلب من السائق الانتظار كل هذا الوقت، لأنه أصلاً كان يقدم لي خدمة كبيرة. تسلقتُ راكبة في مؤخرة الشاحنة. وكنت أستطيع أن أرى أمي تعدو نحوي من بعيد. ولكن بدا أنها لم تعد تحمل السلطانية.

بعد سنوات، قالت لي إن السلطانية سقطت من يدها، حين رأتني أصعد إلى الشاحنة. ولكنها ظلت تركض إلى البقعة التي كنا نجلس فيها للتوثق من أنني رحلتُ فعلاً، رغم أن مَنْ ركب الشاحنة، ما كان من الممكن أن يكون أحداً سواي. لم يكن هناك إنسان في تلك الصُفرة المترامية الأطراف. وخلال الأيام القليلة التالية، كانت تطوف حول المعسكر كأنها في غيبوبة، تشعر بالخواء والضياع.

بعد ساعات طويلة، وصلتُ معسكر أبي. كان في عمق الجبال، وكان معسكراً لأعمال السخرة ـ غولاغ. خلق السجناء مزرعة في الجبال القاحلة، وانتقلوا منها لفتح مزيد من الأراضي البكر القاسية، تاركين هذه البقعة المزروعة نسبياً، لمن هم في درجة أحسن على سلم العقوبات الصيني، للمسؤولين المبعَدين. كان المعسكر هائلاً: يضم آلاف الموظفين السابقين في الحكومة الإقليمية.

كان عليَّ أن أمشي ساعتين للوصول إلى «سرية» أبي. أخذ الجسر المعلق، المصنوع من الحبال، يترجح فوق هوة عميقة، عندما وطئته، شعرتُ بأنني أفقد توازني. وعلى ما كنتُ أشعر به من إعياء، للحمل الذي على ظهري، تمكنتُ من تأمل جمال الجبال المذهل. رغم أن الوقت لم يكن، إلا بداية الربيع، فإن الزهور كانت في كل مكان، إلى جوار أشجار القبُك وشجيرات الببايا. حين وصلتُ أخيراً إلى مهجع أبي، رأيت زوجين من طيور الحجل الملونة، يتهاديان بمهابة تحت فرجة من أزهار الكمثري والخوخ واللوز المبكرة. بعد أسابيع كانت أوراقها المتساقطة، الوردية والبيضاء، تغطي الممر الطيني.

كان منظر أبي مروعاً، حين رأيته أول مرة، بعد أكثر من عام. نظرت إليه يهرول داخل الفناء، حاملاً سلتين مليئتين بالآجر، على عصا تمتد فوق كتفيه. كانت سترته الزرقاء القديمة، تتدلى فضفاضة عليه، وسرواله المنحسر، يكشف عن ساقين ناحلتين جداً، بأوتار بارزة. كان وجهه، الذي لفحته الشمس، متجعداً، وشعره يكاد يكون أشيب. ثم رآني. وضع حمله على الأرض بحركة مرتبكة، نتيجة انفعاله المفرط، حين أسرعتُ نحوه. ولأن التقليد الصيني لا يبيح الكثير من الاتصال الجسدي بين الآباء والبنات، أخبرني عن مدى سعادته، من خلال عينيه. كانتا تفيضان بالحب والحنان. وفيهما رأيت آثار المحنة التي يمر بها. طاقته وعنفوانه أخليا مكانهما لمظهر من الالتباس، مع لمسة من التصميم الهادىء. مع ذلك كان لا يزال في الثامنة

والأربعين من العمر فقط. شعرت بغصة. فتشتُ في عينيه عن علامات على أشد ما أخشاه، عودة جنونه. ولكنه كان يبدو على ما يرام. وانزاح عن قلبي عبء ثقيل.

كان يشترك في غرفة، مع سبعة أشخاص آخرين، كلهم من قسمه. ليس للغرفة إلا نافذة واحدة صغيرة، فكان يتعين إبقاء الباب مفتوحاً، طول اليوم، لدخول بعض الضوء. مَنْ في الغرفة، نادراً ما كانوا يتكالمون، ولم يحيِّني أحد منهم. شعرتُ، على الفور، أن الأجواء أشد قسوة، مما هي عليه في معسكر أمي. السبب أن هذا المعسكر واقع تحت السيطرة المباشرة للجنة سيشوان الثورية، وبالتالي سيطرة الزوجين تنغ. وعلى جدران الفناء، كانت لا تزال هناك طبقات من الملصقات والشعارات، التي تقول: «يسقط فلان ابن فلان»، أو «اقضوا على فلان ابن فلان»، أُسنِدت عليها معاول ومساحٍ قذرة. وكما اكتشفت بعد قليل، فقد كان أبي لا يزال يخضع لاجتماعات تنديدية، كثيراً ما تعقد في الأماسي، بعد عمل يوم شاق. وبما أن إحدى الطرائق للخروج من المعسكر، هي الدعوة إلى العودة للعمل مع «اللجنة الثورية»، والطريق إلى ذلك هو إرضاء الزوجين تنغ، فقد كان بعض «المتمردين» يتسابقون فيما بينهم إلى إبداء نضاليتهم، وكان أبي ضحيتهم الطبيعية.

لم يكن مسموحاً لأبي بدخول المطبخ. وبوصفه «مجرماً معادياً لماو»، كان يُزعم أنه يمثل خطراً، إلى درجة أنه يمكن أن يسمم الطعام. ليس مهماً إن كان أحد يصدق ذلك. كانت الغاية هي الإهانة.

تحمل أبي هذا وغيره، من أعمال القسوة، برباطة جأش. مرة واحدة، سمح لغضبه بالظهور. حين جاء إلى المعسكر، أُمر بوضع عصابة بيضاء على ذراعه، كتبت عليها رموز، تقول: «عنصر معادٍ للثورة في العمل». دفع العصابة بعيداً بعنف، وقال وأسنانه مُطبَقَة: «تعالوا واضربوني حتى الموت. فلن أضع هذه!». تراجع «المتمردون». إذ كانوا يعرفون أنه يعني ما يقول ـ ولم يكن لديهم أمر بقتله.

هنا في المعسكر، كان الزوجان تنغ قادرين على الانتقام من أعدائهما. وكان بين هؤلاء رجل له ضلع في التحقيق معهما، عام ١٩٦٢. كان قد عمل في التنظيم السري، قبل عام ١٩٤٩، وتعرض للسجن والتعذيب، على يد الكومنتانغ، فتدهورت صحته. وفي المعسكر، سرعان ما مرض مرضاً شديداً، ولكن كان عليه الاستمرار

في العمل، ولم يسمح له بيوم واحد من الاستراحة. ولأنه كان بطيئاً، فقد أُمر بالتعويض في المساء. كانت الملصقات الجدارية تشجبه لتقاعسه. أحد الملصقات التي رأيتها، يبدأ بالكلمات التالية: «هل لاحظتَ أيها الرفيق هذا الهيكل العظمي، الحي، المخيف، ذا الملامح البشعة؟». تحت شمس شيتشانغ اللافحة، أصبح جلده محروقاً وذاوياً، وكان يتقشر بقطع كبيرة. كما أخرجه الجوع من شكله الإنساني: استُئصل ثلثا معدته، وكان لا يستطيع أن يهضم إلا كمية صغيرة من الطعام. ولأنه لم يتمكن من تناول وجبات متقاربة، كما تقتضي حالته الصحية، فقد كان في جوع دائم. ذات يوم، دخل المطبخ، بدافع اليأس، ليبحث عن شيء من عصير المخلل، فاتُّهم بمحاولة تسميم الطعام. وإذ كان يعرف أنه على حافة الانهيار التام، كتب إلى سلطات المعسكر يقول، إنه يحتضر، ويطلب إعفاءه من بعض الأعمال الشاقة. كان الجواب الوحيد حملة مسمومة من الملصقات. بعد ذلك بفترة وجيزة، سقط مغشياً عليه في الحقل، تحت الشمس المحرقة، عندما كان ينشر الروث. نُقل إلى مستشفى المعسكر، حيث لفظ أنفاسه في اليوم التالي. لم تكن لديه عائلة تودعه وهو على فراش الموت. إذ كانت زوجته قد انتحرت.

أنصار الطريق الرأسمالي، لم يكونوا وحدهم الذين يعانون في مدرسة الكوادر. فثمة أشخاص كان لهم ارتباط، مهما كان بعيداً، بالكومنتانغ، وكل من تسبب حظه المنكود بأن يصبح هدفاً لانتقام شخصي، أو موضع حسد ـ حتى قياديون في الأجنحة الفاشلة من «المتمردين» ـ كانوا يموتون في المعسكر بالعشرات. وكثير منهم رموا أنفسهم في النهر الهادر، الذي يشق الوادي. كان النهر يسمى نهر «السكون» (آن ـ نينغ ـ هي). وفي سكون الليل، تتردّد أصداؤه أميالاً عديدة، وتبعث القشعريرة في أبدان النزلاء، الذين يقولون إنها كانت أصواتاً شبيهة بعويل الأشباح.

بعد سماعي بحالات الانتحار هذه، ازددت تصميماً على المساعدة على التخفيف من الضغط النفسي والجسدي على أبي، بوصفه قضية ملحة. كان عليَّ أن أجعله يشعر أن الحياة تستحق العيش، وأنه موضع حب. في اجتماعاته التنديدية، التي أمست الآن غير عنفية، من حيث الأساس، لأن النزلاء استنزفوا طاقتهم، كنتُ أجلس حيث يستطيع أن يراني، ليتمكن من الشعور بالاطمئنان بوجودي معه. وما إن ينتهي الاجتماع، حتى كنا نبتعد مختليين معاً. أروي له أشياء سارة، لكي ينسى بشاعة

الاجتماع، وأدلك رأسه ورقبته وكتفيه. وكان يُسمعني أشعاراً كلاسيكية. خلال النهار، أساعده على أعماله، التي كانت، بالطبع، أشق الأعمال وأقذرها. أحياناً كنتُ أحمل أثقاله، التي تزن أكثر من مئة رطل. وأتدبر الظهور أمامه بمظهر غير المكترث، رغم أني كنتُ بالكاد أستطيع الوقوف تحت وطأة الثقل.

بقيتُ في المعسكر أكثر من ثلاثة أشهر. سمحتْ لي السلطات بالأكل في المطعم، وأعطتني سريراً في غرفة مع خمس نساء أخريات، كنَّ لا يتكلمن معي إلا باقتضاب وبرود، إذا هنّ تكلمن. أغلبية النزلاء، كانوا يتقمصون، في الحال، مظهراً معادياً، كلما رأوني. كنتُ أنظر فقط إلى عيونهم. ولكن كان هناك أخيار أيضاً، أو أشخاص أشجع من الآخرين، في إبداء طيبتهم.

أحد هؤلاء رجل في أواخر العشرينات من العمر، ذو وجه حساس وأذنين كبيرتين. كان اسمه يونغ، وهو جامعي، جاء للعمل في قسم أبي، قبيل «الثورة الثقافية». كان «قائد الفرقة»، التي ينتمي إليها أبي. ورغم أنه أُلزم بتكليف أبي أشق الأعمال، فقد كان يخفف عنه عبء عمله، دون أن يلفت الانتباه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. في أحد أحاديثي العابرة معه، قلتُ له إني لا أستطيع أن أطهو الغذاء، الذي جلبته معي، بسبب عدم وجود الكاز لموقدي الصغير.

بعد يومين، مر بي يونغ، وعلى وجهه تعبير خاوٍ. أحسست بشيء معدني، يُدس في يدي: كان موقداً سلكياً، ارتفاعه حوالي ثماني بوصات، وقطره أربع، صنعه بنفسه. كان يستهلك كرات ورقية، مصنوعة من جرائد قديمة ـ صار يمكن تمزيقها، الآن، لأن صور ماو اختفت من صفحاتها. (ماو هو نفسه أوقف ممارسة نشرها، لأنه اعتبر أن الغرض منها ـ «إقامة السلطة العليا المطلقة إلى حد بعيد، وعلى نحو خاص»، أي سلطته هو ـ قد تحقق، وأن الاستمرار فيها، لن يسفر إلا عن مغالاة متمادية). وعلى لهب الموقد الأزرق والبرتقالي، كنت أطبخ طعاماً أرقى من أكل المعسكر. وعندما كان البخار اللذيذ يتسرب من قدر الصلصة، أرى فكوك زملاء أبي السبعة في غرفته، تلوك تلقائياً. وقد تأسفتُ لأني لم أكن قادرة على تقديم أي منه إلى يونغ، لأننا كلينا، كنا سنقع في متاعب، لو عرف زملاؤه المناضلون الأمر.

بفضل يونغ وآخرين طيبين مثله، كان مسموحاً لأبي بزيارات أبنائه له. ويونغ هو

نفسه مَنْ منح أبي إذناً بمغادرة أرض المعسكر، في الأيام الممطرة، التي كانت أيام استراحته الوحيدة، إذ كان عليه، بخلاف النزلاء الآخرين، أن يعمل في أيام الأحد، على غرار أمي. وفور توقف المطر، كنا، أنا وأبي، نذهب إلى الغابات، ونجمع نبات الفطر البري، من تحت أشجار الصنوبر، أو نبحث عن بازلاء برية، كنت أطهاها مع علبة من لحم البط، أو أي لحم آخر، لدى عودتنا إلى المعسكر. ونستمتع بوجبة سماوية.

بعد العشاء، كنا نمشي، في أحيان كثيرة، إلى بقعتي المفضلة، التي كنتُ أسميها «حديقة حيواناتي» ـ مجموعة من الصخور، ذات أشكال عجيبة، في فرجة معشبة من الغابة. الصخور تبدو كأنها قطيع من الحيوانات الغريبة، التي تتبطل في الشمس. كان في بعضها تجاويف على مقاس جسمينا، حيث نستلقي، ونحدق إلى الفضاء البعيد. وفي أسفل المنحدر من ناحيتنا، كان صف من أشجار القبُك العملاقة، أوراقها زهور حمراء، تنمو مباشرة من الفروع السوداء العارية، التي تنمو كلها معتدلة إلى الأعلى. وخلال الأشهر التي أمضيتها في المعسكر، كنت أراقب هذه الزهور العملاقة تتفتح، كتلة من اللون القرمزي، على خلفية من الأسود. ثم تحمل ثماراً بحجم التين، وكل ثمرة تنفلق عن صوف حريري، تذروه الرياح الدافئة فوق الجبال كلها، وكأنه ثلج ريشي. وراء أشجار القبُك، يقع «نهر السكون»، وخلفه تمتد جبال لانهائية.

ذات يوم، عندما كنا نسترخي في «حديقة حيواناتنا»، مر فلاح مشوه، وقميء، إلى درجة أنه أفزعني. أخبرني أبي أن التزاوج بين ذوي القربى شائع، في هذه المنطقة المنعزلة. ثم قال: «هناك الكثير مما ينبغي عمله في هذه الجبال! يا له من مكان جميل ذي إمكانات هائلة. بودي لو آتي وأعيش هنا، للعناية بكوميونة أو ربما كتيبة إنتاجية، والقيام ببعض العمل الحقيقي. بشيء نافع. بل أرضى أن أكون فلاحاً عادياً. لقد ضقت ذرعاً بكوني مسؤولاً. كم سيكون لطيفاً لو تمكنتْ عائلتنا من المجيء إلى هنا والتمتع بحياة المزارعين البسيطة!». في عينيه، رأيتُ إحباط رجل نشيط، موهوب، مندفع في العمل. كما تعرفتُ بالحلم الرعوي التقليدي للمفكر الصيني، الذي خاب أمله بحياته الوظيفية. قبل كل شيء، كنتُ أستطيع أن أرى أن الحياة البديلة، أصبحت خيالاً، عند أبي، شيئاً رائعاً، ولا يمكن بلوغه، لأن ترك

الحزب، كان مستحيلاً، ما أن يصبح المرء مسؤولاً شيوعياً.

زرتُ المعسكر ثلاث مرات. وفي كل مرة، كنت أبقى عدة أشهر. وكان إخوتي يفعلون الشيء نفسه، ليكون أبي محاطاً بالدفء، طول الوقت. كثيراً ما كان يقول باعتزاز، إنه موضع حسد المعسكر، لأنه ما من أحد آخر، يحظى بهذا القدر من الصحبة من أبنائه. والحق، أن قلائل كانوا يستقبلون زواراً: «الثورة الثقافية» وحّشتْ العلاقات الإنسانية، وتسببت بتغريب عوائل لا تحصى.

عائلتي أصبحت، بمرور الزمن، أكثر إلفة. أخي شياو ـ هي، الذي كان أبي يضربه في طفولته، أصبح الآن يحبه. وفي زيارته الأولى للمعسكر، كان عليه وعلى أبي أن يناما في سرير واحد. ولكي يتيح لأبي أن ينام نوماً هانئاً في الليل ـ الأمر الذي كان هاماً بصفة خاصة لحالته العقلية ـ كان شياو ـ هي لا يسمح لنفسه أبداً بالغط في نوم عميق، خشية أن يتقلّب ويزعجه.

كان أبي، من جانبه، يؤنب نفسه، لأنه كان قاسياً مع شياو ـ هي، فكان يلمس رأسه ويعتذر قائلاً: «يبدو أمراً لا يمكن تصوره، أني كنت قادراً على ضربك بهذه القوة. كنت شديد القسوة عليك. لقد فكرتُ كثيراً في الماضي، وأشعر بذنبٍ كبيرٍ في حقك. من المضحك أن تحولني «الثورة الثقافية» إلى شخص أفضل».

كان طعام المعسكر يتألف، بالدرجة الرئيسية، من كرنب مسلوق. وكان الناس يشعرون بالجوع دائماً، بسبب الافتقار إلى البروتين. كل يوم يُقدَّم فيه اللحم، كان يُنتَظر بفارغ الصبر، ويُحتفى به، في أجواء تقرب من الابتهاج. حتى أشد «المتمردين» تزمتاً، كانوا يبدون في مزاج أفضل. في هذه المناسبات، كان أبي يلتقط قطعة اللحم من سلطانيته، ويفرضها على أبنائه. ولم يخلُ الأمر دائماً من معركة من نوع ما، بعيدان الأكل والسلطانيات.

كان أبي في حالة ندم دائمة. يحكي لي كيف أنه لم يدعُ جدتي إلى عرسه، وأرسلها في رحلة مخطرة، عائدة إلى منشوريا من يي بين، بعد شهر واحد فقط من وصولها. وقد سمعته يؤنب نفسه، مرات كثيرة، لأنه لم يبد لأمه هي نفسها محبة كافية، ولأنه كان قاسياً، لم يُبلّغ بتشييعها. كان يهز رأسه: «لقد فات الأوان الآن!». ويلوم نفسه أيضاً على معاملته شقيقته جون ـ ينغ، في الخمسينات، عندما حاول

إقناعها بالتخلي عن معتقداتها البوذية، وحتى إجبارها، وهي النباتية عن إيمان، على أكل اللحم.

ماتت العمة جون ـ ينغ، في صيف ١٩٧٠. فقد غزا شللها، تدريجاً، جسمها كله، ولم تتلق علاجاً مناسباً. ماتت في الحالة نفسها من رباطة الجأش الهادئة، التي أبدتها طول حياتها. عائلتي حجبت النبأ عن أبي. كنا جميعاً نعرف حبه واحترامه العميقين لها.

في خريف ذلك العام، كان شقيقاي شياو ـ هي وشياو ـ فانغ، يقيمان مع أبي. وذات يوم، كانوا يتمشون، بعد العشاء، عندما أفلت من شياو ـ فانغ، ابن الثماني سنوات، نبأ موت العمة جون ـ ينغ. فجأة، تغيرت سحنة أبي. وقف ساكناً، وبدا خاوياً، فترة طويلة، ثم انعطف إلى جانب الممر، وخرَّ جاثماً، وغطى وجهه بيديه الاثنتين. كانت كتفاه تهتزان بنشيجه. وإذ لم يرَ شقيقاي أبي يبكي، يوماً، فقد وقفا مصعوقين.

في بداية ١٩٧١، تسربت أنباء عن طرد الزوجين تنغ. حدث بعض التحسن في حياة والديَّ، لا سيما أبي. بدآ يتمتعان بعطلة يوم الأحد، ويؤديان أعمالاً أسهل. وشرع المعتقلون الآخرون يكالمون أبي، وإن ظلوا يكالمونه ببرود. وجاء دليل على أن الأمور، حقاً، أخذت تتغير، عندما وصل المعسكر نزيل جديد، في أوائل ١٩٧١ ـ السيدة شاو، معذِّبة أبي القديمة، التي أصبحت من المغضوب عليهم مع الزوجين تنغ. ثم سُمح لأمي بقضاء أسبوعين مع أبي ـ أول فرصة لهما كي يكونا معاً، منذ سنوات. وهي في الواقع أول مرة يلقي أحدهما نظرة على الآخر، منذ ذلك الصباح الشتائي في الشارع، في تشينغدو، قبيل مغادرة أبي إلى المعسكر، منذ أكثر من عامين.

ولكن تعاسة والديَّ، كانت بعيدة عن نهايتها. فلقد استمرت «الثورة الثقافية». فالزوجان تنغ، لم يقصيا بسبب ما ارتكبته أياديهما من إثم، بل لأن ماو ارتاب في علاقتهما الوثيقة مع تشين بودا، أحد قادة «سلطة الثورة الثقافية»، الذين طالهم غضب ماو. وفي عملية التطهير هذه، وقع مزيد من الضحايا. وانتحر تشن مو، الساعد الأيمن للزوجين تنغ، الذي ساعد على تأمين الإفراج عن أبي من السجن.

ذات يوم من صيف ١٩٧١، أصيبت أمي بنزيف حاد في الرحم. أُغمي عليها، وتعين نقلها إلى المستشفى. لم يُسمح لأبي بزيارتها، وعندما استقرت حالتها، سُمح لها بالعودة إلى تشينغدو، للعلاج. وهناك تم، أخيراً، وقف النزيف، ولكن الأطباء اكتشفوا أنها أصيبت بمرض جلدي، اسمه تصلب الجلد. فقد تصلّبت رقعة جلد وراء أذنها اليمنى، وبدأت تنكمش. صار الجانب الأيمن من فكها أصغر من الجانب الأيسر، وأخذت تفقد السمع بأذنها اليمنى. كان الجانب الأيمن من رقبتها متيبساً، وتشعر بتشنج وخَدَر في يدها وذراعها اليمنيين. قال لها أطباء الأمراض الجلدية، إن تصلّب الجلد يمكن، في النهاية، أن ينتشر إلى الأعضاء الداخلية، وإذا حدث ذلك، فإنها يمكن أن تضمر وتموت، في غضون ثلاث أو أربع سنوات. وقالوا إن الدواء الغربي، لا يستطيع أن يفعل شيئاً. وكل ما يستطيعون اقتراحه، هو الكورتيزون، الذي كانت أمي تأخذه على شكل حبوب ـ وحقن في رقبتها.

كنتُ في المعسكر مع أبي، عندما وصلت رسالة من أمي تحمل هذه الأنباء. وفي الحال، ذهب أبي ليطلب الإذن بالذهاب إلى البيت، لرؤيتها. يونغ كان متعاطفاً جداً، ولكن سلطات المعسكر رفضت. انفجر أبي باكياً، أمام كل النزلاء المتجمعين في الفناء. دهش مَنْ كانوا مِن قسمه. كانوا يعرفونه «رجلاً من حديد». وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، توجه إلى مكتب البريد، وانتظر في الخارج حتى فتح أبوابه. أرسل برقية من ثلاث صفحات إلى أمي. استهلها: «أرجوك أن تقبلي اعتذاراتي، التي تأتي متأخرة عمراً بطوله. أنا سعيد بأي عقاب، بسبب ما اقترفته من ذنب في حقك. لم أكن زوجاً لائقاً. أرجوكِ أن تشفي وتمنحيني فرصة أخرى».

في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧١، جاء «نظير» لرؤيتي في ديانغ، ومعه خبر صاعق: مقتل لن بياو. أُبلغ «نظير»، رسمياً، في معمله، أن لن حاول اغتيال ماو، وأنه بعد أن فشل في محاولته، حاول الهروب إلى الاتحاد السوفياتي، وسقطت طائرته في منشوريا.

كان موت لن بياو يلفه الغموض. رُبط موته بسقوط تشين بودا، قبل عام. فقد ارتاب ماو بالاثنين، عندما تماديا في المغالاة في تأليهه، فتوجّس من أن يكون في الأمر مخطط لرفعه عالياً إلى مجد مجرَّد، وحرمانه من السلطة الدنيوية. ارتاب ماو، على الأخص، بلن بياو، وريثه المختار، الذي كان معروفاً بأنه «لا يدع الكتاب

الأحمر الصغير يترك يده أبداً، ولا عبارة «عاش ماو!» تسقط من شفتيه»، كما جاء في شعر ذلك الوقت. قرر ماو أن لن، كونه المرشح لوراثة العرش، كان يضمر سوءاً. فتحرك ماو أو لن، أو تحرك الاثنان، لإنقاذ سلطتهما وحياتهما.

بعد ذلك بفترة وجيزة، قدمت الكوميونة لقريتي الرواية الرسمية عن الأحداث. لم يكن النبأ يعني شيئاً للفلاحين. إذ كانوا بالكاد يعرفون اسم لن، ولكني تلقيت النبأ بفرحة غامرة. فأنا إذ لم أكن قادرة على تحدي ماو، في ذهني، فقد ألقيتُ بمسؤولية «الثورة الثقافية» على عاتق لن. وفكرتُ أن الخلاف الظاهر بينه وبين ماو، يعني أن ماو رفض «الثورة الثقافية»، وسيضع حداً لكل البؤس والتدمير. وبطريقة ما، فإن موت لن، أكد مجدداً ثقتي بماو. وكان كثيرون يشاركونني في التفاؤل، لأنه كان هناك علامات تشير إلى رد «الثورة الثقافية» على أعقابها. وفي الحال تقريباً، بدأ بعض أنصار الطريق الرأسمالي يُرد لهم اعتبارهم، ويُفرج عنهم من المعسكرات.

أُبلغ أبي بنبأ لن، في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر. وعلى الفور، ظهرت الابتسامة المحفوظة للمناسبات على وجوه بعض «المتمردين». وفي الاجتماع، طُلب منه أن يجلس، الشيء الذي لم يسمح به أبداً، وأن «يفضح يَهْ تشون» ـ زوجة لن بياو، التي كانت زميلته في يونان، في أوائل الأربعينات. لم يقل أبي شيئاً.

ولكن على الرغم من أن زملاء أبي، كان يُرد لهم اعتبارهم، وكانوا يغادرون المعسكر أفواجاً، فإن قائد المعسكر قال له: «لا تفترض أنك ستفلت الآن». فقد كانت جريمته ضد ماو، تعد بالغة الخطر.

كانت صحته تتردى بتضافر الضغط النفسي والجسدي، الذي لا يطاق، مع سنوات من الضرب الوحشي، أعقبتها أشغال جسدية شاقة، في ظروف مزرية. وعلى امتداد خمس سنوات، تقريباً، كان يتناول جرعات كبيرة من المهدئات، لإبقاء نفسه تحت السيطرة. وأحياناً، كان يلتهم ما يزيد عشرين مرة على الجرعة المطلوبة، وقد أبلى هذا جسده. كان يشعر بآلام قاصمة في مكان ما من جسمه، طول الوقت. وبدأ يتفل دماً، وكان، في أحيان كثيرة، يعاني ضيقاً في التنفس، تصاحبه نوبات من الدوار. في سن الخمسين، كان يبدو في السبعين من العمر. وكان الأطباء في المعسكر دائماً يحيونه بوجوه باردة، ووصفات، يكتبونها متأففين، بمزيد من المهدئات. يرفضون الاستماع لما يشكوه، فضلاً عن فحصه. وكانت كل زيارة

للمستوصف، تعقبها محاضرة زاعقة من بعض «المتمردين»: «لا تتخيل أنك تستطيع الإفلات، بالتمارض».

كان جن ـ منغ في المعسكر، في نهاية ١٩٧١. وقد قلق على أبي، حتى إنه بقي حتى ربيع ١٩٧٢. ثم تلقى رسالة من فريقه الإنتاجي، تأمره بالعودة فوراً، وإلا فلن يخصص له غذاء، وقت الحصاد. يوم مغادرته، ذهب أبي معه إلى محطة القطار ـ وصل خط للسكة الحديد، تواً، إلى مي يي، بسبب الصناعات الاستراتيجية، التي نقلت إلى شيتشانغ. خلال الرحلة الطويلة، مشياً على الأقدام، كان الاثنان صامتين. ثم انتابت أبي نوبة مفاجئة من ضيق التنفس، وكان على جن ـ منغ أن يساعده على الجلوس على جانب الطريق. لبث أبي فترة طويلة يصارع لالتقاط نَفَسه. ثم سمعه جن ـ منغ، يتنهد بعمق ويقول: «يبدو أنني لن أعيش طويلاً. الحياة تبدو حلماً». لم يسمعه جن ـ منغ قط يتحدث عن الموت، من قبل. وإذ أصيب بالذهول، فقد حاول أن يهوِّن عليه. ولكن أبي قال ببطء: «إني أسأل نفسي، إن كنت أخاف الموت. لا أعتقد أني أخافه. فحياتي كما هي عليه الآن، أسوأ منه. ويبدو أنه لن تكون هناك أي نهاية. أحياناً، أشعر بالضعف: أقف على ضفة «نهر السكون»، وأفكر، قفزة واحدة، وأنتهي من كل شيء. ثم أقول لنفسي يجب أن لا أفعل. فإذا متُ، دون أن تُبرأ ساحتي، لن تكون هناك نهاية لمتاعبكم... فكرتُ كثيراً، في الآونة الأخيرة. عشتُ طفولة صعبة، وكان المجتمع مليئاً بالظلم. ومن أجل مجتمع عادل، انضممت إلى الشيوعيين. حاولتُ كل ما في وسعي، على مر السنين. ولكن أي نفع حققه ذلك للشعب؟ أما أنا، فلماذا عليَّ أن أصبح سبباً لخراب عائلتي؟ مَنْ يؤمنون بالقصاص، يقولون إن نهايتك السيئة تعني أنه لا بد أن يكون هناك شيء يثقل ضميرك. لقد فكرتُ كثيراً في الأشياء التي فعلتها في حياتي. أصدرتُ أوامر بإعدام بعض الأشخاص...».

مضى أبي يحدِّث جن ـ منغ عن أحكام الإعدام التي وقَّعها، وأسماء وقصص الـ «إي ـ با» (المستبدون العتاة) في الإصلاح الزراعي، في تشاويانغ، وزعماء قطاع الطرق، في يي بين. «ولكن هؤلاء اقترفوا آثاماً كبيرة، حتى إن الله هو نفسه كان سيقتلهم. فأي جرم ارتكبته، لأستحق كل هذا؟».

بعد وقفة طويلة، قال أبي: «إذ متُ هكذا، لا تؤمن بالحزب الشيوعي، بعد الآن».

٢٥ ـ «شذا الريح العذبة» ـ
حياة جديدة مع دليل الكهربائيين وست أزمات
(١٩٧٢ ـ ١٩٧٣)

بالموت والحب والعذاب والتأجيل، انقضت الأعوام ١٩٦٩ و١٩٧٠ و١٩٧١. في مي يي، تعاقبت مواسم الجفاف والمطر، متسارعة، إثر بعضها. وعلى «سهل راعي الجاموس»، كان القمر يتوهج بدراً، ثم يخبو، والريح تعصف، ثم تسكن، والذئاب تعوي، ثم تصمت. وفي الحديقة الطبية، في ديانغ، كانت الأعشاب تزهر باطّراد. وكنتُ أنا أركض بين معسكري والديَّ، وفراش موت عمتي، وقريتي. وأنشر الروث في حقول الرز، وأنظم القصائد لسقي زنابق الماء.

كانت أمي في البيت، في تشينغدو، عندما سمعت بموت لن بياو. رُدَّ لها اعتبارها، في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧١، وقيل لها إنه لا يتعين عليها أن تعود إلى معسكرها. ولكن رغم أنها كانت تتسلم مرتبها كاملاً، لم تُعَدْ لها وظيفتها القديمة. قسمها في «المنطقة الشرقية»، ليس لديه الآن سوى سبعة مديرين: ـ الأعضاء الموجودون في اللجنة الثورية، والمسؤولون الذين رد لهم اعتبارهم حديثاً وعادوا، لتوهم، من المعسكر. الصحة المتردية، كانت سبباً لعدم عودة أمي إلى العمل، ولكن السبب الأهم، أن أبي لم يُرد له اعتباره، بخلاف معظم أنصار الطريق الرأسمالي.

وافق ماو على رد الاعتبار، بالجملة، لا لأنه ثاب أخيراً إلى رشده، ولكن بموت لن بياو، وتطهير رجاله المحتوم، فقد ماو اليد، التي كان يسيطر بواسطتها على الجيش. لقد أقصى واستعدى، عملياً، كل المارشالات الآخرين، الذين عارضوا

«الثورة الثقافية». وكان عليه أن يعتمد على لن وحده، تقريباً. وعهد إلى زوجته وأقربائه ونجوم «الثورة الثقافية» بمناصب عسكرية هامة، ولكن لم يكن لدى هؤلاء سجل عسكري، وبالتالي لم يتمتعوا بولاء الجيش. وبرحيل لن، كان على ماو أن يتوجه إلى القادة، الذين أقصوا عن القيادة، وما زالوا يحظون بولاء الجيش، بمن فيهم دينغ شياو بنغ، الذي سيعود، قريباً، إلى الظهور. أول تنازل كان على ماو أن يقدمه، هو إعادة جل المسؤولين المدانين.

كان يعرف أيضاً أن سلطته تعتمد على وجود اقتصاد عامل. لجانه الثورية، كانت منقسمة انقساماً لا رجاء فيه، وهي من الدرجة الثانية من حيث الكفاءة، ولم تتمكن من دفع عجلة البلاد إلى الأمام. لم يكن لديه من خيار سوى التوجه من جديد إلى المسؤولين القدماء، المغضوب عليهم.

كان أبي لا يزال في مي يي، ولكن الجزء الذي كان يقتطع من مرتبه، منذ حزيران/ يونيو ١٩٦٨، أعيد له. وفجأة وجدنا أن لدينا ما بدا لنا مبلغاً مهماً في البنك. ممتلكاتنا الشخصية، التي صادرها «المتمردون» في دهم البيت، أعيدت كلها، ما عدا قنينتين من ماو ـ تاي، المشروب الذي كان الجميع يبحث عنه في الصين. كانت هناك علائم مشجعة أخرى. فشو إن لاي، الذي ازدادت سلطته، الآن، شرع في تحريك عجلة الاقتصاد. أعيدت الإدارة القديمة، من حيث الأساس، وجرى التصميم على الإنتاج والنظام. واستؤنف تطبيق الحوافز. وسمح للفلاحين بممارسة بعض الأنشطة الجانبية النقدية. البحث العلمي، بدأ من جديد. وعادت المدارس إلى التعليم الحقيقي، بعد توقف دام ست سنوات، وبدأ أخي الأصغر شياو ـ فانغ دراسته متأخراً، في سن العاشرة.

ومع انتعاش الاقتصاد، بدأت المعامل تجند عمالاً جدداً. وفي إطار نظام الحوافز، سمح لها بإعطاء الأولوية لأطفال العاملين، الذين أرسلوا إلى الريف. ورغم أن والديَّ لم يكونا من العاملين في المصانع، فقد كالمت أمي، في شأني، مدير معمل لإنتاج الآلات، كان، في السابق، تابعاً لمنطقتها الشرقية، ويتبع، الآن، المكتب الثاني للصناعة الخفيفة، في تشينغدو. وقد وافق دون تردد، على قبولي. وهكذا غادرتُ ديانغ، نهائياً، قبل أشهر قليلة من عيد ميلادي العشرين. كان على

أختي أن تبقى، لأن شباب المدن، الذين تزوجوا بعد الذهاب إلى الريف، كانوا ممنوعين من العودة، حتى لو كان أحد الزوجين من المسجلين في المدينة.

كان التحول إلى عاملة خياري الأوحد. فأغلبية الجامعات لا تزال مغلقة، ولم تكن هناك مهن أخرى متاحة. والوجود في المعمل، يعني العمل ثماني ساعات فقط، في اليوم، بالمقابلة بيوم الفلاح، الذي يبدأ عند الفجر، وينتهي مع الغروب. لم تكن هناك أحمال ثقيلة أحملها، وأستطيع العيش مع عائلتي. ولكن الأهم كان استرداد تسجيلي في المدينة، الذي يعني ضمان الغذاء وغيره من الضرورات الأخرى، من الدولة.

كان المعمل في الضواحي الشرقية من تشينغدو، يبعد حوالي ٤٥ دقيقة، على الدراجة الهوائية، من البيت. كنت أقطع شطراً كبيراً من الطريق على مقربة «نهر الحرير»، ثم على طرق ريفية موحلة، عبر حقول اللفت والقمح. وأخيراً، أصل إلى بناء مسيج، بائس المنظر، تتخلله أكوام من الآجر والحديد الصدىء. كان هذا معملي. مؤسسة بدائية، فيها بعض الآلات، التي يعود تاريخها إلى مطلع القرن. وبعد خمس سنوات من الاجتماعات التنديدية والشعارات الجدارية والمعارك الجسدية، بين الأجنحة في المعمل، كان المديرون والمهندسون قد أعيدوا، لتوهم، إلى العمل، وبدأ المعمل يستأنف إنتاج الآلات. رحب العمال بي ترحيباً خاصاً، بسبب والديَّ أساساً: تدميرية «الثورة الثقافية» جعلتهم يتوقون إلى الإدارة القديمة، التي كان هناك نظام واستقرار في ظلها.

عُيِّنتُ متمرنة في قسم السباكة، تحت إشراف امرأة، كان الجميع يسمونها «العمة وي». كانت فقيرة جداً، في طفولتها، ولم يكن لديها حتى سروال لائق، في مراهقتها. تغيرتْ حياتها، عندما جاء الشيوعيون، وكانت عظيمة الامتنان لهم. انضمت إلى الحزب، وفي بداية «الثورة الثقافية»، كانت بين «الموالين»، الذين دافعوا عن المسؤولين الحزبيين القدامى. وعندما وقف ماو، علناً، إلى جانب «المتمردين»، ضُربت مجموعتها حتى استسلمت، وتعرضت هي للتعذيب. أحد أصدقائها الحميمين، وهو عامل عجوز، كان أيضاً يدين بالكثير للشيوعيين، مات بعد تعليقه، أفقياً، من رسغيه وكاحليه (طريقة في التعذيب، اسمها «سباحة البطة»). روت لي «العمة وي» قصة حياتها، بعينين دامعتين، وقالت إن مصيرها مرتبط بالحزب، الذي

ترى أن «عناصر معادية له»، مثل لن بياو، قامت بتخريبه. كانت تعاملني كأنني ابنتها، لأني من عائلة شيوعية. وكنت أشعر بالضيق معها، لأني لم أكن قادرة على مضاهاة ثقتها بالحزب.

كان هناك حوالي ثلاثين رجلاً وامرأة، يؤدون العمل نفسه الذي أقوم به، وهو حشو القوالب بالتراب. كان الحديد المصهور يُرفع متوهجاً، مبقبقاً، ويُصب في القوالب، مولداً كتلة من النجوم المتلألئة. وتصرُّ الرافعة فوق ورشتنا صريراً مخيفاً، بحيث كنت دائماً قلقة من أن تُسقط بوتقة الحديد السائل المغلى على مَنْ يحشون تحتها.

عملي كسباكة، كان عملاً شاقاً وقذراً. تورَّمت ذراعاي من دكّ التراب في القوالب، ولكن معنوياتي كانت عالية، لأني حسبتُ، بسذاجة، أن «الثورة الثقافية» مقبلة على نهايتها. انكببتُ على العمل بحماسة، كانت ستدهش الفلاحين في ديانغ.

رغم حماستي المكتَشَفة حديثاً، شعرتُ بالارتياح لسماعي، بعد شهر، أني سأُنقَل. ما كان في وسعي الاستمرار طويلاً في الحشو، ثماني ساعات في اليوم. وبفضل السمعة الطيبة لوالديَّ، قُدمت لي عدة أعمال للاختيار من بينها ـ عاملة خراطة، أو مشغِّلة رافعة، أو عاملة تلفون، أو نجّارة، أو كهربائية. ترددتُ بين الاثنتين الأخيرتين. راقت لي فكرة أن أكون قادرة على تشكيل أشياء خشبية جميلة، ولكن ليس لدي يدان موهوبتان. وبوصفي كهربائية، سأزهو بكوني المرأة الوحيدة في المعمل، التي تؤدي هذا العمل. كانت هناك امرأة واحدة في فريق الكهربائيين، ولكنها مغادرة إلى وظيفة أخرى. إلاّ أنها كانت دائماً موضع إعجاب. عندما تتسلق إلى قمة أعمدة الكهرباء، كان الناس يتوقفون لإبداء تعجبهم. عقدتُ على الفور صداقة مع هذه المرأة، التي قالت لي شيئاً حسم لي الأمر: لا يتعين على الكهربائيين أن يقفوا أمام الآلة ثماني ساعات في اليوم. يستطيعون البقاء في مقراتهم، في انتظار دعوتهم للقيام بعمل. كان هذا يعني أنه سيكون لدي وقت للقراءة.

تلقيتُ خمس صدمات كهربائية في الشهر الأول، إذ لم يكن هناك تدريب نظامي: نتيجة احتقار ماو للتعليم. الرجال الستة في الفريق، كانوا يعلمونني بصبر، ولكني بدأتُ من مستوى متدنٍ جداً. لم أكن أعرف شيئاً عن الكهرباء. أعطتني المرأة الكهربائية نسختها من «دليل الكهربائيين»، وقد غرقتُ فيه. ولكني، مع ذلك، خرجت وأنا

جاهلة بالكهرباء. في النهاية، شعرت بالخجل لتضييع وقت الكهربائيين، وحاولتُ أن أقلد ما يفعلون، دون أن أفهم كثيراً من النظرية. نجحتُ في تدبير ذلك، على نحو لا يستهان به. وتدريجاً، أصبحتُ قادرة على إجراء بعض التصليحات بمفردي.

ذات يوم، أَبلغ أحد العمال عن مفتاح معطوب، على لوحة لتوزيع الطاقة. استدرت خلف اللوحة لفحص الأسلاك، وقررتُ أن مسماراً ملولباً لا بد أنه ارتخى في مكانه. وبدلاً من قطع التيار الكهربائي أولاً، عمدتُ، بتهور، إلى وخز المسمار بمفك الفحص، الذي كان عندي. مؤخرة اللوحة كانت شبكة من الأسلاك والوصلات، بقوة ٣٨٠ فولط. وإذ كنتُ في حقل الألغام هذا، فقد كان عليَّ أن أدفع مفكِّي بحذر شديد، داخل فجوة. بلغتُ المسمار لأجد أنه لم يكن رخواً. حينذاك، بدأت ذراعي ترتجف قليلاً، بسبب التوتر والانفعال. بدأتُ سحبها حابسة أنفاسي. وعند الحافة تماماً، فيما كنت على وشك الاسترخاء فيها، اخترقت يدي اليمنى إلى قدميَّ سلسلة من الهزات الهائلة. طرتُ في الهواء، وطار المفك من يدي. لقد لامس المفك وصلة، في مدخل شبكة توزيع الطاقة. جلستُ على الأرض خائرة القوى، وأنا أفكر، في أنه كان من الممكن أن أموت، لو انزلق المفك، قبل ذلك بقليل. لم أخبر الكهربائيين الآخرين، لأنني لم أكن أريدهم أن يشعروا بضرورة الذهاب معي، عند الطلب.

صرتُ معتادة الصدمات. وما كان ليثير الآخرون ضجة حولها. كهربائي قديم، قال لي إنه قبل عام ١٩٤٩، عندما كان المعمل ملكية خاصة، كان عليه أن يستخدم ظاهر يده لفحص التيار. وفي عهد الشيوعيين فقط، أصبح المعمل ملزماً بشراء أجهزة فحص للكهربائيين.

كان هناك غرفتان في مقرنا، وحين لا يكون الكهربائيون في الخارج، بناء على دعوة لإصلاح شيء، فإنّ معظمهم يلعبون الورق في الغرفة الأمامية، فيما كنتُ أنا أقرأ في الغرفة الداخلية. في صين ماو، كان الامتناع عن الانضمام إلى من حولكَ، يُنتَقَد بوصفه «انعزالاً عن الجماهير»، وفي البداية، كنتُ قلقة إزاء اختلائي بنفسي، للقراءة. كنت ألقي كتابي جانباً، ما أن يدخل أحد الكهربائيين، وأحاول تجاذب أطراف الحديث معه، بطريقة خرقاء نوعاً ما. نتيجة لذلك، كانوا نادراً ما يدخلون. كنتُ أشعر بارتياح بالغ لعدم اعتراضهم على غرابة أطواري، بل إنهم كانوا يحرصون

على عدم إزعاجي. ولأنهم بهذا اللطف معي، كنتُ أتطوع لإجراء أكبر عدد ممكن من التصليحات.

كهربائي شاب في الفريق، اسمه داي، كان في إحدى المدارس العليا، حتى بداية «الثورة الثقافية»، وكان يعتبر على قدر كبير من العلم. كان خطاطاً جيداً، ويعزف على عدة آلات موسيقية عزفاً جميلاً. أعجبت به أيّما إعجاب، وفي الصباح، كنتُ دائماً أجده متكئاً على باب مقر الكهربائيين، منتظراً أن يحييني. وجدتُ نفسي ألبي الكثير من دعوات التصليح معه. وذات يوم، في مطلع الربيع، بعد الانتهاء من عملية صيانة، أمضينا فترة الغداء مستندين إلى كومة قش، خلف المَسْبَك، مستمتعين بأول يوم مشرق في السنة. كانت العصافير تزقزق فوق رأسينا، متصارعة على الحبات المتبقية على نبات الرز. وتنبعث من القش رائحة التقاء ضوء الشمس والأرض. كنتُ شديدة الفرح بأن أكتشف أن داي يشاركني اهتمامي بالشعر الكلاسيكي الصيني، وأن في إمكاننا أن ننظم قصائد، أحدنا للآخر، مستخدمين قافية واحدة في تتابعها، في مطاردة شعرية، مثلما كان الشعراء الصينيون القدماء يفعلون. في أبناء جيلي كان قلائل هم الذين يفهمون الشعر الكلاسيكي أو يحبونه. عدنا متأخرين جداً إلى العمل، عصر ذلك اليوم، ولكن لم تكن هناك انتقادات. الكهربائيون الآخرون، لم يفعلوا سوى استقبالنا بابتسامات تنم على معنى.

وسرعان ما كنا أنا وداي، نعدُّ الدقائق، خلال أيام عطلتنا، في توق إلى العودة معاً إلى المعمل. كنا نبحث عن أية فرصة لنكون قريبين، أحدنا للآخر، لتتلامس الأصابع، ونشعر بإثارة الاقتراب، ونشم رائحة أحدنا الآخر والبحث عن أسباب الضيق - أو المتعة - بكلمات أحدنا للآخر، نصف المنطوقة.

ثم بدأتُ أسمع أقاويل، أن داي غير جدير بي. كان من أسباب هذا الاستهجان، أنني كنتُ أُعتبر من طينة خاصة. وكان أحد الأسباب، أنني كنتُ الوحيدة من ذرية مسؤولين كبار في المعمل، بل الوحيدة، التي صادفها معظم العمال في حياتهم. كانت هناك قصص كثيرة عن كون أطفال المسؤولين الكبار متعالين ومدللين. ويبدو أنني جئتُ مفاجأة سارة، وبدا أن بعض العمال، يشعرون بأنه ما من أحد في المعمل يمكن أن يكون جديراً بي.

ومما يأخذونه على داي، أن أباه كان ضابطاً في الكومنتانغ، وكان في معسكر

عمل. وكان العمال مقتنعين بأن لدي مستقبلاً باهراً، وينبغي «أن لا أُبتلى» بارتباطي بداي.

في الواقع، كانت مصادفة بحتة، أن والد داي أصبح ضابطاً في الكومنتانغ. ففي عام ١٩٣٧، كان هو وصديقان له في طريقهم إلى ينان، للانضمام إلى الشيوعيين، من أجل محاربة اليابانيين. وما كادوا يصلون إلى ينان، حتى أُوقفوا عند حاجز من حواجز الكومنتانغ، حيث حضهم الضباط على الانضمام إلى الكومنتانغ، بدلاً من الشيوعيين. وفي حين أن الصديقين أصرا على المضي إلى ينان، قَبِل والد داي بالكومنتانغ، ظاناً أن لا فرق بين أي جيش صيني ينضم إليه، ما دام يقاتل اليابانيين. وعندما اندلعت الحرب الأهلية من جديد، انتهى المطاف به وبصديقيه إلى جانبين متعاديين. بعد عام ١٩٤٩، أُرسل إلى معسكر عمل، فيما أصبح رفيقاه ضابطين كبيرين في الجيش الشيوعي.

بسبب ذلك، كان داي هدفاً للتقريع في المعمل، لأنه لا يعرف مكانته بـ «معاكسته» لي، وحتى لكونه وصولياً اجتماعياً. كنت أستطيع أن أرى في وجهه الضامر وابتساماته المريرة، أن الأقاويل الوضيعة كانت تجرحه، ولكنه لم يقل شيئاً. كنا لا نفعل سوى التلميح إلى مشاعرنا، بتوريات في قصائدنا. والآن، كف عن كتابة القصائد لي. اختفت الثقة التي بدأت صداقتنا بها، وأخذ يسلك سلوكاً خامداً وذليلاً معي، في مجالسنا الخاصة. وكان، في العلن، يحاول تهدئة مَنْ كانوا غير راضين عنه، محاولاً أن يبين، على نحو أخرق، أنه لا يحسب لي أي حساب. أحياناً، كنتُ أشعر أنه يتصرف برقاعة، حتى إني لم أكن أملك نحوه سوى الشعور بالحنق، فضلاً عن شعوري بالحزن. وإذ نشأتُ في موقع يتمتع بامتيازات، فإني لم أدرك أن الكرامة في الصين تَرَفٌ، نادراً ما يكون متاحاً لمن ليسوا من أصحاب الامتيازات. فإني لم أقدر مأزق داي، وأنه لم يكن قادراً على البوح لي بحبه، خشية تدميري. وتدريجاً، أصبحنا غريبين أحدنا عن الآخر.

خلال الأشهر الأربعة على تعارفنا، لم يذكر أي منا كلمة «الحب» قط. كنتُ أكتمها حتى في عقلي. فالمرء لا يستطيع أن يطلق العنان لنفسه، لأن مراعاة العامل الحيوي، المتمثل في الأصل العائلي، كانت راسخة في الذهن. وكانت عواقب الارتباط بعائلة «عدو طبقي» مثل عائلة داي، عواقب وخيمة جداً. وبسبب الرقابة

الذاتية اللاشعورية، لم أقع قط في حب داي.

خلال هذه الفترة، انتهت دورة الكورتيزون، الذي كانت أمي تتناوله، وأخذت تتلقى علاجها بأدوية صينية لمرض تصلب الجلد. كنا نقلِب الأسواق الريفية، بحثاً عن المواد الغريبة التي توصف لها ـ قشرة السلحفاة، ومثانة الأفعى وحراشف آكل النمل. وأوصى الأطباء بأن تذهب لرؤية بعض الإخصائيين الكبار في بكين في شأن رحمها وتصلب جلدها على السواء، عندما يصبح الجو دافئاً. وتعويضاً عن جزء مما عانته، عرضت السلطات أن ترسل مرافقاً معها. سألتُ أمي إن كان في مقدوري الذهاب معها.

غادرنا في نيسان/أبريل ١٩٧٢، وأقمنا مع أصدقاء للعائلة، أصبح الاتصال بهم مأموناً الآن. زارت أمي العديد من أطباء الأمراض النسائية في بكين وتيانجين، الذين شخصوا ورماً غير خبيث في رحمها، واقترحوا استئصال الرحم. في هذه الأثناء، قالوا إن في الإمكان السيطرة على نزيفها، إذا نالت قسطاً كبيراً من الراحة، وحاولت أن تبقى في مزاج منشرح. وكان أطباء الأمراض الجلدية، يعتقدون أن في الإمكان تطويق تصلب الجلد في موضعه، فلا يكون في هذه الحالة مميتاً. التزمت أمي بنصيحة الأطباء، وأجريت لها عملية لاستئصال الرحم، في العام التالي. ولم ينتشر تصلّب الجلد.

زرنا الكثير من أصدقاء والديَّ. وحيثما نذهب كان يُرد لهم اعتبارهم. البعض خرجوا، لتوهم، من السجن. وكان «ماو ـ تاي» وغيره من المشروبات المرغوبة، تنساب بوفرة، وكذلك الدموع. في كل عائلة، تقريباً، مات واحد أو أكثر من أفرادها، نتيجة «الثورة الثقافية». أم صديق قديم، في الثمانين من عمرها، ماتت بعد سقوطها من عن الدرج، حيث تعين عليها أن تنام، بعد طرد عائلتها من شقتهم. صديق آخر، كافح لكي يحبس دموعه، عندما وقع نظره عليَّ. فقد ذكَّرْتُه بابنته، التي كانت ستكون بعمري. أُرسلت مع طلاب مدرستها إلى مكان موحش، على الحدود مع سيبيريا، حيث أصبحت حاملاً. وبدافع الخوف، استشارت قابلة في الشوارع الخلفية، فربطت جراباً حول خصرها، وقالت لها أن تقفز عن حائط للتخلص من الطفل. ماتت بعد إصابتها بنزيف حاد. كانت القصص المأساوية تُروى في كل بيت. ولكننا كنا نتحدث أيضاً عن الأمل، وكنا نتطلع إلى أيام أسعد تنتظرنا.

ذات يوم، ذهبنا لزيارة تونغ، وهو صديق قديم لوالديَّ، أطلق سراحه، للتو، من السجن. كان مسؤول أمي في مسيرتها من منشوريا إلى سيشوان، وأصبح مدير مكتب في وزارة الأمن العام. في بداية «الثورة الثقافية»، اتهم بالتجسس لحساب الروس، وبالمسؤولية عن تركيب أجهزة تسجيل في مقر ماو ـ الأمر الذي يبدو أنه فعله بناء على أوامر. كل كلمة من كلمات ماو، كانت ثمينة، بحيث يتعين الحفاظ عليها. ولكن ماو كان يتكلم لغة محلية، وجد مستشاروه صعوبة في فهمها، إضافة إلى ذلك، كانوا، أحياناً، يُرسلون خارج الغرفة. في أوائل ١٩٦٧، اعتُقل تونغ، وأرسل إلى السجن الخاص بالمسؤولين الكبار، تشيتشنغ. أمضى خمس سنوات في السلاسل، في الحبس الانفرادي. ساقاه كانتا كأنهما عودا كبريت، فيما كان منتفخاً من الوركين فما فوق، بشكل فظيع. أُجبرت زوجته على نكرانه، وغيَّرت كنية أطفالهما، من اسمه إلى اسمها، لتبين أنهم هجروه إلى الأبد. وصودرت أغلبية ممتلكاتهم العائلية، بما في ذلك ملابسه، في دهم لبيته. ونتيجة لسقوط لن بياو، عاد إلى السلطة راعي تونغ، الذي كان من خصوم لن بياو، وأفرَجَ عن تونغ من السجن. واستُدعيت زوجته من معسكرها في المنطقة الحدودية الشمالية، لجمع شملهما من جديد.

في يوم الإفراج عنه، جاءته بملابس جديدة. كانت كلماته الأولى: «ما كان ينبغي أن تجلبي لي سلعاً مادية. كان ينبغي أن تأتيني بغذاء روحي [قاصداً أعمال ماو]». كان تونغ لا يقرأ شيئاً غير هذه، خلال سنواته الخمس في الحبس الانفرادي. كنتُ أقيم عند عائلته، حينذاك، ورأيته يحملهم على دراسة مقالات ماو، كل يوم، بجدية وجدتُها مأساوية، أكثر مما هي مثيرة للسخرية.

بعد أشهر قليلة على زيارتنا، أُرسل تونغ للإشراف على قضية، في أحد الموانىء في الجنوب. حبسه الطويل جعله غير مناسب للعمل الشديد التطلّب، وما لبث أن أصيب بنوبة قلبية. أرسلت الحكومة طائرة خاصة لنقله إلى مستشفى في غوانجو. كان المصعد في المستشفى عاطلاً، فأصر على الصعود أربعة طوابق، مشياً، لأنه اعتبر حمله على الدرج منافياً للأخلاق الشيوعية. مات على طاولة العمليات. عائلته لم تكن معه، لأنه ترك لهم خبراً يقول فيه: «إنهم ينبغي أن لا يقطعوا عملهم».

أثناء إقامتنا مع تونغ وعائلته، في نهاية أيار/مايو ١٩٧٢، تسلمنا، أنا وأمي،

برقية تقول إن أبي سمح له بمغادرة المعسكر. بعد سقوط لن بياو، قام أطباء المعسكر، أخيراً، بإجراء تشخيص لأبي، قائلين إنه يعاني ارتفاعاً مخطراً في ضغط الدم، ومتاعب مخطرة في القلب والكبد، فضلاً عن تصلب الشرايين. وأوصوا بإجراء فحص عام في بكين.

ركب القطار إلى تشينغدو، ثم طار إلى بكين. ولأنه لم يكن هناك نقل عام إلى المطار لغير المسافرين، تعين علينا، أنا وأمي، أن ننتظر لملاقاته في محطة المدينة. كان نحيلاً، وأحرقته الشمس حتى بات أسود.

كانت المرة الأولى، التي يخرج فيها من جبال مي يي، خلال ثلاثة أعوام ونصف العام. في الأيام القليلة الأولى، بدا تائهاً في المدينة الكبيرة، وكان يشير إلى عبور الطريق بوصفه «عبور النهر»، وإلى ركوب الحافلة بأنه «ركوب زورق». كان يمشي بخطى مترددة في الشوارع المزدحمة، ويبدو في حيرة، بسبب حركة المرور. اضطلعتُ أنا بدور الدليل له. كنا نقيم مع صديق قديم له من يي بِين، عانى أيضاً الأمرين في «الثورة الثقافية».

باستثناء هذا الرجل وتونغ، لم يقم أبي بزيارة أي أحد آخر ـ لأن اعتباره لم يُرد له. وبخلافي أنا، التي كنت مفعمة بالتفاؤل، كان مثقل القلب، في أغلب الأوقات. وفي محاولة للترويح عنه، كنتُ أستدرجه وأمي إلى الخروج، في جولات سياحية في درجات حرارة تزيد، أحياناً، على ١٠٠ درجة فهرنهايت. ذات مرة، أجبرته، تقريباً، على الذهاب إلى «السور العظيم» معي، في حافلة مزدحمة، يخنقها الغبار والعرق. وإذ كنت أثرثر، فقد كان يستمع بابتسامات كئيبة. طفل رضيع في حضن فلاحة، تجلس أمامنا، بدأ يبكي، فلطَمَته لطمة قوية. وثب أبي من مقعده، وصاح بها: «لا تضربي الطفل». سحبتُه من كمه، على عجل، وحملته على الجلوس. كانت الحافلة كلها تحدق إلينا. كان في منتهى الغرابة أن يتدخل صيني في قضية كهذه. فكرتُ متنهدة، كم تغير أبي منذ أيام، كان يضرب جن ـ منغ وشياو ـ هي!

في بكين، قرأتُ أيضاً كتباً، فتحت لي آفاقاً جديدة. فقد زار الرئيس نكسون الصين، في شباط/ فبراير من ذلك العام. كان الموقف الرسمي، أنه جاء حاملاً «راية بيضاء». الفكرة القائلة إن أميركا هي العدو رقم واحد، اختفت من ذهني. شعرتُ

بفرحة غامرة لمجيء نكسون، لأن زيارته ساهمت في إشاعة أجواء جديدة، أخذت تتاح فيها بعض الترجمات من الكتب الأجنبية. كانت موسومة «للتداول الداخلي»، الأمر الذي يعني، نظرياً، أن لا يقرأها إلا من لديهم تخويل، ولكن لم تكن هناك قواعد تحدد مع مَنْ ينبغي تداولها، ومن ثم تُتناقل بحرية بين الأصدقاء، إذا كان أحد منهم يتمتع بامتياز الحصول عليها، من خلال عمله.

تمكنتُ من وضع يدي على بعض هذه المطبوعات. وبسرور لا يمكن تخيله، قرأت عمل نكسون نفسه، «ست أزمات» (مقتَطَعاً، بطبيعة الحال، نظراً إلى ماضيه المعادي للشيوعية)، وعمل ديفيد هالبرستام: «الأحسن والألمع» وعمل وليام ل. شايرر: «صعود الرايخ الثالث وسقوطه»، و«رياح الحرب» بقلم هيرمان ووك، مع تصور هذه الأعمال الحديثة (حديثة بالنسبة إليّ) للعالم الخارجي. دفعني وصف إدارة كنيدي، في «الأحسن والألمع»، إلى الإعجاب بالأجواء المنفتحة للحكومة الأميركية، على النقيض من حكومتي ـ بعيدة ومخيفة وسرية. كنتُ مأسورة بأسلوب الكتابة، في الأعمال غير الروائية. كم كان رصيناً ومتجرداً! حتى عمل نكسون: «ست أزمات»، بدا نموذجاً للهدوء، بالمقابلة بأسلوب المطرقة الهائلة في الإعلام الصيني، كله وعيد وإدانات وادعاءات. في «رياح الحرب»، لم أتأثر بالأوصاف المهيبة للأزمنة، قدر تأثري بصوره، التي تبين الضجة الصاخبة، التي يمكن أن تثيرها المرأة الغربية حول ملبسها، وسهولة الحصول عليه، ومجموعة الألوان والتصاميم المتاحة. في سن العشرين، لم تكن لديَّ إلا ملابس قليلة، بالتصميم نفسه لدى كل الآخرين، حيث كل قطعة، تقريباً، زرقاء أو رمادية أو بيضاء. أغمضتُ عينيَّ وتلمَّستُ، في خيالي، كل الفساتين الجميلة، التي لم أرها أو ألبسها أبداً.

كان ازدياد المتاح من المعلومات الآتية من الخارج، بالطبع، جزءاً من الانفتاح العام، بعد سقوط لن بياو، ولكن زيارة نكسون، وفرت له ذريعة مناسبة ـ الصينيون يجب أن لا يفقدوا ماء الوجه، بإظهار أنفسهم جاهلين جهلاً تاماً بأميركا. في تلك الأيام، كان يتعين أن تُرفق كل خطوة في عملية الانفتاح بتبرير سياسي مستبعد. فتعلم الإنكليزية صار قضية تستحق العناء ـ من أجل «كسب أصدقاء من كل أنحاء العالم» ـ وبالتالي لم يعد جريمة. وكيلا نثير فزع ضيفنا المرموق، أو إخافته، فقدت الشوارع والمطاعم الأسماء النضالية، التي فرضها عليها «الحرس الأحمر»، في بداية «الثورة

الثقافية». وفي تشينغدو، عاد مطعم «نفحة البارود» إلى اسمه القديم «شذا الريح العذبة»، رغم أن نكسون لم يزرها.

أقمت في بكين خمسة أشهر. وكنت أفكر في داي، كلما كنت وحدي. لم نتراسل. كنتُ أنظم له قصائد، ولكني أحتفظ بها لنفسي. وفي النهاية، قهر أملي في المستقبل حسراتي على الماضي. فقد طغى نبأ واحد، على كل أفكاري الأخرى ـ أول مرة، منذ أن كنت في الرابعة عشرة، رأيت إمكانية مستقبل ما كنت أجرؤ على الحلم به: أن أكون قادرة على الدراسة في كلية. في بكين، سُجلتْ أعداد قليلة من الطلاب، خلال العامين السابقين، وبدا أن الجامعات، في سائر أنحاء البلاد، ستفتح أبوابها قريباً. كان شو إن لاي يشدد على قول من أقوال ماو، بما معناه أن الجامعات ما زالت مطلوبة، وخاصة للعلم والتكنولوجيا. كنتُ أتحرّق إلى العودة إلى تشينغدو، وبدء الدراسة، لكي أحاول اجتياز امتحان الدخول.

عدتُ إلى المعمل في أيلول/سبتمبر ١٩٧٢، ورأيت داي دون ألم مرير. هو أيضاً أصبح هادئاً، لا يكشف عن لمحة من الاكتئاب، إلا في بعض الأحيان. عدنا صديقين حميمين، ولكننا لم نعد نتحدث في الشعر. أنا دفنتُ نفسي في التحضيرات لمقرر جامعي، مع أنه لم تكن لدي أية فكرة عما سيكون عليه الامتحان. لم يكن الخيار خياري، لأن ماو قال: «يجب تثوير التعليم بالكامل». وكان هذا يعني، من بين أشياء أخرى، تسجيل الطلاب في مقررات، دون مراعاة لاهتماماتهم ـ من شأن ذلك أن يكون نزعة فردية، ومثلبة رأسمالية. بدأتُ أدرس كل المواضيع الرئيسية: اللغة الصينية والرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا واللغة الإنكليزية.

كما قرر ماو أن لا يأتي الطلاب من المصدر التقليدي: خريجو المدارس المتوسطة ـ بل يتعين أن يكونوا عمالاً أو فلاحين. كان هذا يناسبني، لأني كنتُ فلاحة حقيقية، وأنا الآن عاملة.

قرر شو إن لاي أن يكون هناك امتحان قبول، رغم أنه تعين عليه أن يغير مصطلح «امتحان» (كاو ـ شي) إلى «فحص وضع المرشحين، إزاء بعض المعارف الأساسية، وقدرتهم على تحليل المسائل الملموسة وحلها»، وهو معيار يستند إلى قول آخر من أقوال ماو. كان ماو لا يحب الامتحانات. كان النظام الجديد يقضي بأن

ينال المرء أولاً توصية من وحدة عمله، ثم تأتي امتحانات القبول، ثم تقوِّم سلطات التسجيل نتائج الامتحان و«السلوك السياسي» للمتقدم.

كل الأماسي وعطل نهاية الأسبوع، على مدى عشرة أشهر، والكثير من وقتي في المعمل أيضاً، أمضيتها منكبة على الكتب المدرسية، التي نجت من نيران «الحرس الأحمر». جاءت هذه الكتب من عدة أصدقاء، وكان عندي أيضاً شبكة من المعلمين، الذين تخلوا عن أماسيهم وعطلهم، بسرور وحماسة. فمحبو العلم يشعرون بصلة قربى تربط بعضهم ببعض. هكذا كانت ردة فعل أمة ذات حضارة عريقة، تعرضت للانقراض، من الناحية العملية.

في ربيع ١٩٧٣، رُدَّ اعتبار دينغ شياو بنغ، وعين نائباً لرئيس الوزراء، نائب شو إن لاي، المعتل الصحة في واقع الأمر. كنتُ فرحة. فعودة دينغ، بدت لي مؤشراً أكيداً إلى رد «الثورة الثقافية» على أعقابها. كان معروفاً بكونه متفانياً في سبيل البناء، لا التدمير، وكان إدارياً من الطراز الأول. أبعده ماو إلى معمل جرارات، في أمان نسبي، للاحتفاظ به في الاحتياط، في حال موت شو إن لاي. إن ماو، مهما بلغ جنونه بالسلطة، كان حريصاً دائماً على أن لا يهدم جسوره.

سررتُ برد الاعتبار إلى دينغ، لأسباب شخصية أيضاً. فقد كنت أعرف زوجة أبيه معرفة جيدة، حين كنت طفلة، وكانت أخته، غير الشقيقة، جارتنا، لسنوات، في المجمع - كنا جميعاً نسميها «العمة دينغ». وقد أدينت مع زوجها لمجرد قرابتهما من دينغ، وقاطعها سكان المجمع، الذين كانوا يتملقونها، قبل «الثورة الثقافية». ولكن عائلتي كانت تحييها كالمعتاد. وفي الوقت نفسه، كانت من القلائل جداً في المجمع، الذين كانوا يعربون لعائلتي عن مدى إعجابهم بأبي، في ذروة اضطهاده. في تلك الأيام، حتى الإيماءة أو الابتسامة العابرة، كانت نادرة وثمينة، ونشأت بين عائلتينا مشاعر حارة جداً.

في صيف ١٩٧٣، بدأ التسجيل في الجامعات. شعرتُ كأني أنتظر حكماً بالحياة أو الموت. مقعد واحد في قسم اللغات الأجنبية، بجامعة سيشوان، كان مخصصاً للمكتب الثاني للصناعة الخفيفة، في تشينغدو، الذي كان مسؤولاً عن ٢٣ معملاً، منها معملي. وكان على كل معمل، أن يقدم مرشحاً للامتحان. في معملي، كان هناك مئات العمال، وتقدم ستة أشخاص، بمن فيهم أنا. جرت انتخابات لاختيار

المرشح، واختارتني أربع ورش من ورش المعمل الخمس.

في ورشتي، كان يوجد مرشح آخر، صديقة لي في التاسعة عشرة. وكنا نحن الاثنتين محبوبتين، ولكن زملاءنا في العمل، كانوا لا يستطيعون التصويت إلا لواحدة منا. قرىء اسمها أولاً، وكان هناك تململ غير مريح ـ كان واضحاً أن الحاضرين، لم يتمكنوا من تقرير ما ينبغي عمله. كنتُ تعيسة أشد ما تكون التعاسة ـ إذا كانت هناك أصوات كثيرة لها، ستكون هناك أصوات قليلة لي. فجأة نهضتْ وقالتْ مبتسمة: «بودي أن أتنازل عن ترشيحي، وأن أصوت لتشانغ يونغ. فأنا أصغرها بسنتين. وسأحاول في العام القادم». انفجر العمال ضاحكين بارتياح، ووعدوا بالتصويت لها في العام القادم. وقد صوتوا لها. وذهبت إلى الجامعة في عام ١٩٧٤.

تأثرتُ تأثراً عميقاً بالتفاتتها، وكذلك بنتيجة التصويت. كان العمال يساعدونني على تحقيق أحلامي. أصلي العائلي، أيضاً، لم يضر بي، داي لم يتقدم للترشيح: كان يعرف أن لا أمل له.

أخذتُ امتحانات اللغة الصينية والرياضيات واللغة الإنكليزية. كنتُ متوترة في الليلة السابقة، حتى إنني لم أتمكن من النوم. وحين عدت إلى البيت، في فترة الغداء، وجدت أختي في انتظاري. دلكتْ رأسي برقة، ورحت أنا في إغفاءة خفيفة. كانت الامتحانات ابتدائية جداً، ولم تكد تلامس ما تشرَّبته بمثابرة من الهندسة وحساب المثلثات والفيزياء والكيمياء. حصلت على درجة شرف في كل الامتحانات، ولامتحاني الشفهي باللغة الإنكليزية، حصلت على أعلى علامة بين كل المرشحين في تشينغدو.

قبل أن أتمكن من الاسترخاء، جاءت ضربة ماحقة. ففي ٢٠ تموز/يوليو، ظهرت مقالة في صحيفة «الشعب» اليومية حول «ورقة امتحانات فارغة». فإن متقدماً اسمه جانغ تي ـ شينغ، كان قد أرسل إلى الريف قرب جنجو، سلَّم ورقة فارغة، مع رسالة يحتج فيها أن الامتحانات، إنما هي بمثابة «عودة إلى الرأسمالية»، إذ لم يتمكن من الإجابة عن الأسئلة. وتلقف رسالته ابن أخي ماو ومساعده الشخصي، ماو يوانشين، الذي كان يدير الإقليم. وأدانت زوجة ماو وأعوانها التشديد على المعايير الأكاديمية، بوصفه «دكتاتورية بورجوازية». وأعلنوا: «ماذا يهم حتى إذا أصبحت البلاد كلها أمية؟ ما يهم هو أن تحقق «الثورة الثقافية» أعظم انتصار».

أُعلنت الامتحانات، التي أُجريت لي، لاغية. وصار دخول الجامعات يتقرر بـ «السلوك السياسي» وحده. أما كيف يقاس ذلك، فقد أصبح سؤالاً كبيراً. التوصية التي رفعها معملي، كُتبت بعد «اجتماع تقويمي جماعي»، عقده فريق الكهربائيين. وقد أعدها داي، وقامت معلمتي الكهربائية السابقة بتنميقها. وصورتني التوصية مثالاً يقتدى: العاملة النموذجية، التي لم توجد قط عاملة مثلها. لم يكن لديَّ شك في أن المرشحين الاثنين والعشرين الآخرين، لديهم المؤهلات نفسها. وبالتالي ليس هناك مجال للتمييز بيننا.

الدعاية الرسمية، لم تكن عوناً كبيراً. فقد هتف «بطل» جرى التطبيل له كثيراً: «تسألونني عن مؤهلاتي للجامعة؟ مؤهلاتي هي هذه!» ـ وهنا رفع يديه وأشار إلى القروح. ولكننا جميعاً كانت أيدينا متقرحة. وكنا كلنا في معامل، وعمل معظمنا في مزارع.

كان هناك بديل واحد فقط: الباب الخلفي.

كان معظم مديري «لجنة التسجيل»، في سيشوان، زملاء قدامى لأبي، رُد لهم اعتبارهم، وأُعجبوا بشجاعته ونزاهته. ولكن أبي، رغم أنه يريدني أن أتعلم في الجامعة، بقوة، رفض أن يطلب منهم المساعدة. وقال: «لن تكون في ذلك عدالة لمن لا سلطة لهم. ماذا سيصبح بلدنا، إذا كانت الأمور تتم بهذه الطريقة؟». بدأتُ أُجادله، وانتهيتُ باكية. ولا بد أني بدوت، حقاً، محطمة القلب، لأنه قال في النهاية، بوجه معذَّب: «حسناً، سأفعل».

تأبطت ذراعه، ومشينا إلى مستشفى تبعد حوالي ميل واحد، حيث كان أحد مديري «لجنة التسجيل» يخضع للفحوصات. فكل ضحايا «الثورة الثقافية»، تقريباً، كانوا يعانون تردي صحتهم، نتيجة المحن التي مروا بها. كان أبي يمشي ببطء، مستعيناً بعصا. طاقته وعنفوانه القديمان، اختفيا. وإذ كنتُ أراقبه يجر قدميه، متوقفاً بين حين وآخر، مكافحاً بعقله وبساقيه، فقد كدت أقول: «لنعد أدراجنا». ولكني كنت أيضاً تواقة إلى دخول الجامعة.

في أرض المستشفى، جلسنا على حافة جسر حجري منخفض، لنستريح. كان أبي يبدو معذَّباً. وفي النهاية، قال: «هل تغفرين لي؟ فأنا، حقاً، أجد من الصعب

جداً أن أفعل ذلك. . .». ولبرهة، شعرتُ بسخط عارم، وأردتُ أن أصيح به قائلة، ليس هناك بديل أكثر عدالة. أردتُ أن أقول له كم حلمتُ بالذهاب إلى الجامعة، وإني جديرة به ـ لعملي المجد، ونتائج امتحاناتي، ولأنني كنتُ منتخبة. ولكنني كنت أعرف أن أبي يعرف ذلك كله. وهو الذي غرس فيَّ تعطشي إلى المعرفة. مع ذلك، كانت لديه مبادئه، ولأنني أحبه، كان عليَّ أن أقبله كما هو، وأن أتفهم مأزقه، بكونه رجلاً أخلاقياً، يعيش في أرض تخلو من الأخلاق. حبستُ دموعي وقلت: «طبعاً». وبخطى ثقيلة، عدنا إلى البيت صامتين.

كم كنتُ محظوظة بأمي ذات الحيلة الواسعة! ذهبتْ إلى زوجة رئيس «لجنة التسجيل»، التي تحدثت، بعد ذلك، إلى زوجها. كما ذهبت أمي لرؤية المديرين الآخرين، وكسبتهم إلى جانبي. أكدت نتائج امتحاناتي، التي تعرف أنها ستكون العامل الحاسم عند هؤلاء الأنصار السابقين للطريق الرأسمالي. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، دخلتُ قسم اللغات الأجنبية بجامعة سيشوان، في تشينغدو، لدراسة اللغة الإنكليزية.

٢٦ ـ «شم ضراط الأجانب وتسميته مسكاً» ـ تعلم الإنكليزية في أعقاب ماو (١٩٧٢ ـ ١٩٧٤)

منذ عودة أمي من بكين، في خريف ١٩٧٢، كانت مساعدة أطفالها الخمسة هي شغلها الرئيسي. أخي الأصغر شياو ـ فانغ، الذي كان في العاشرة حينذاك، كان في حاجة إلى رعاية يومياً، للتعويض عما فاته من سنوات الدراسة، وكان مستقبل أطفالها الآخرين، يعتمد عليها من حيث الأساس.

وإذ كان المجتمع نصف مشلول، لما يربو على ست سنوات، فقد وُجِد عدد هائل من المشاكل الاجتماعية، وتُركت ببساطة دون حل. وكانت المشكلة الأكثر خطراً، هي الملايين العديدة من الشباب، الذين أُرسلوا إلى الريف، وكانوا تواقين إلى العودة إلى المدن. بعد موت لن بياو، بدا أنه من الممكن أن يعود بعضهم، لأسباب منها أن الدولة تحتاج إلى أيدٍ عاملة، للنهوض بالاقتصاد المديني، الذي أخذت تحاول الآن إنعاشه. ولكن كان على الحكومة أن تضع، أيضاً، حدوداً صارمة لعدد من يستطيعون العودة، لأن سياسة الدولة في الصين، كانت السيطرة على سكان المدن: أخذت الدولة على عاتقها ضمان الغذاء والسكن والعمل لسكان المدن.

لذا، كانت المنافسة على «تذاكر العودة» المحدودة، منافسة محتدمة. وقد أصدرت الدولة أنظمة، لإبقاء العدد منخفضاً. وكان الزواج معياراً من معايير الاستبعاد. فعندما تتزوج، لن تأخذك أي منظمة في المدينة. وعلى هذا الأساس، استُبعدت أختي من التقدم إلى عمل في المدينة، أو دخول الجامعة، اللذين كانا

السببين المشروعين الوحيدين للعودة إلى تشينغدو. كانت تشعر بتعاسة مريرة، لأنها لم تستطع الالتحاق بزوجها. فقد بدأ معمله يعمل، على نحو طبيعي، من جديد، ونتيجة لذلك، كان لا يستطيع الذهاب إلى ديانغ والعيش معها إلا في «إجازة الزواج» الرسمية، التي تبلغ اثني عشر يوماً فقط، في السنة. فرصتها الوحيدة للوصول إلى تشينغدو، كانت الحصول على شهادة تقول إنها تعاني مرضاً لا علاج له ـ الأمر الذي كان الكثير من أمثالها يدّعونه. فكان على أمي أن تساعدها على الحصول على شهادة كهذه، من طبيب صديق، فحواها أن شياو ـ هونغ مصابة بتليُّف الكبد. وعادت أختي إلى تشينغدو، في نهاية ١٩٧٢.

أمست طريقة تدبير الأمور، تجري من خلال العلاقات الشخصية. وكان هناك أشخاص يأتون لرؤية أمي، كل يوم ـ معلمون وأطباء وممرضات وممثلون، وموظفون صغار ـ يناشدونها المساعدة على إخراج أطفالهم من الريف. في أحيان كثيرة، كانت أمي أملهم الوحيد، رغم أنها لم يكن لديها عمل، وكانت تحرك الخيوط لمصلحتهم، بطاقة لا تنضب. كان أبي يرفض المساعدة. وهو أشد ثباتاً على أساليبه، من أن يبدأ «تدبير الأمور بطرائق ملتوية».

عندما كانت القناة الرسمية تعمل، كانت العلاقات الشخصية ضرورية أيضاً، للتوثق من سير الأمور، دون معوقات، ولتفادي أية كارثة محتملة. أخي جن ـ منغ، خرج من قريته، في آذار/ مارس ١٩٧٢. فقد كانت مؤسستان تجندان عمالاً جداً من كوميونته: إحداهما معمل في عاصمة محافظته، يصنع اللوازم الكهربائية، والأخرى مؤسسة غير محددة، في المنطقة الغربية من تشينغدو. كان جن ـ منغ يريد العودة إلى تشينغدو، ولكن أمي استفسرت من أصدقائها في «المنطقة الغربية»، واكتشفت أن فرصة العمل المتاحة، كانت في مسلخ. وعلى الفور، سحب جن ـ منغ طلبه، وتوجه بدلاً من ذلك إلى العمل في المعمل المحلي.

كان المعمل، في الحقيقة، منشأة كبيرة، نُقلت من شنغهاي، في عام ١٩٦٦، في إطار خطة ماو لإخفاء الصناعة في جبال سيشوان، تحوّطاً لوقوع هجوم أميركي أو سوفياتي. نال جن ـ منغ إعجاب زملائه العمال بمثابرته ونزاهته. وفي عام ١٩٧٣، كان واحداً من أربعة شبان، انتخبهم المعمل للدراسة في جامعة، من بين ٢٠٠ متقدم. اجتاز امتحاناته بتفوق، ودون عناء. ولكن لأن أبي لم يُردُّ له اعتباره، كان

على أمي أن تتوثق من أنهم حين يأتون من الجامعة، لإجراء «التحقيق السياسي» الإلزامي، لن يعودوا مرتابين، وأن يتكون لديهم، بدلاً من ذلك، الانطباع بأنه على وشك أن تُبرأ ساحته. وكان عليها أيضاً أن تتأكد أن جن ـ منغ، لن يقصيه متقدم فاشل، لديه علاقات قوية. وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، حين ذهبت أنا إلى جامعة سيشوان، قُبل جن ـ منغ في كلية الهندسة لوسط الصين، في ووهان، لدراسة السباكة، على الرغم من أنه كان يفضل دراسة الفيزياء.

فيما كنا أنا وجن ـ منغ نستعد لمحاولة دخول الجامعة، كان أخي الثاني، شياو ـ هي، يعيش في حالة من القنوط. كان المؤهِّل الأساسي لدخول الجامعة، أن يكون المتقدم، في وقت ما، عاملاً أو فلاحاً أو جندياً، وهو لم يكن أياً من هؤلاء. كانت الحكومة مستمرة في طرد الشباب بالجملة إلى الأرياف، وكان هذا هو المستقبل الوحيد الذي يواجهه ـ باستثناء دخول القوات المسلحة. العشرات يتقدمون إلى الجامعة، وكان الطريق الوحيد للدخول يمر من خلال العلاقات.

أمي أدخلت شياو ـ هي إلى القوات المسلّحة، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٢، على الرغم من كل الاحتمالات، التي كانت تجعل دخوله يكاد يكون مستحيلاً، لأن أبي لم تُبرأ ساحته. أُرسل شياو ـ هي إلى كلية جوية، في شمال الصين، وبعد ثلاثة أشهر من التدريب الأساسي، أصبح جندياً مختصّاً باللاسلكي. كان يعمل خمس ساعات، يومياً، ويمضي المتبقي من الوقت في «الدراسات السياسية» وإنتاج الغذاء.

في جلسات «الدراسات»، كان الجميع يدَّعون أنهم انخرطوا في القوات المسلحة «لتنفيذ أمر الحزب، لحماية الشعب، للذود عن الوطن». ولكن كان هناك أسباب أكثر وجاهة. فشباب المدن، كانوا يريدون تجنب إرسالهم إلى الريف وشباب الريف، كانوا يأملون في استخدام الجيش نقطة وثوب إلى المدينة. وبالنسبة إلى الفلاحين في المناطق الفقيرة، كان الانخراط في القوات المسلحة يعني، على الأقل، الحصول على تغذية أفضل.

وإذ توالت سنوات السبعينات، أصبح الانضمام إلى الحزب، شأنه شأن الانخراط في الجيش، يزداد ابتعاداً عن أي ارتباط بالالتزام الإيديولوجي. كان الجميع يقولون في طلباتهم إن الحزب «عظيم ومجيد ومصيب»، وإن «الانضمام إلى الحزب يعني تكريس حياتي لأعظم قضية إنسانية ـ تحرير البروليتاريا العالمية». ولكن السبب

الحقيقي، كان عند الأغلبية منفعة شخصية. فقد كانت هذه هي الخطوة الإلزامية للوصول إلى سلك الضباط. وعندما يُسرح الضابط كان تلقائياً يصبح «موظفاً حكومياً»، بمرتب مضمون ومنزلة وسطوة، ناهيكم من تسجيل إقامته في المدينة. وكان على الجندي النفر، أن يعود إلى قريته، ليغدو فلاحاً من جديد. وفي كل عام، قبل وقت التسريح، كانت تظهر قصص عن حالات انتحار وانهيار وكآبة.

ذات مساء، كان شياو ـ هي يجلس مع زهاء ألف جندي وضابط، وعوائل الضباط، يشاهدون فيلماً في الهواء الطلق. وفجأة، سُمع إطلاق نار من مدفع رشاش، أعقبه انفجار هائل. تفرق الحاضرون وصراخهم يتعالى. جاءت الطلقات من حارس، كان على وشك أن يُسرَّح، ويُرسل عائداً إلى قريته، بعد أن أخفق في دخول الحزب، وبالتالي، في الترقي إلى رتبة ضابط. أطلق النار أولاً على مفوض سريته، الذي حمَّله مسؤولية قطع الطريق على ترقيته، فأرداه قتيلاً، ثم أطلق النار عشوائياً على الحشد، رامياً قنبلة يدوية. قُتل خمسة أشخاص آخرين، كلهم نساء وأطفال، من عوائل الضباط. وأصيب أكثر من عشرة بجروح. ثم هرب داخل عمارة سكنية، حيث حاصره قرناؤه الجنود، الذين دعوه بمكبرات الصوت إلى الاستسلام. ولكن ما إن أطلق الحارس النار من النافذة، حتى تشتتوا، وأخذوا يتراكضون، فأضحكوا مئات الحاضرين المهتاجين. في النهاية، وصلت وحدة خاصة. وبعد إطلاق نار كثيف، اقتحموا الشقة، فوجدوا أن الحارس قد انتحر.

شياو ـ هي، شأنه شأن جميع مَنْ حوله، كان يريد دخول الحزب. لم تكن قضية حياة أو موت بالنسبة إليه، كما كانت بالنسبة إلى الجنود الفلاحين، لأنه كان يعرف أنه لن يتعين عليه الذهاب إلى الريف، بعد فترته العسكرية. كانت القاعدة تقضي بأن يعود إلى حيث أتى، وبالتالي، سيمنح فرصة عمل في تشينغدو، سواء كان عضواً في الحزب أم لم يكن. ولكن العمل سيكون أفضل، إذا كان عضواً في الحزب. وستكون لديه إمكانية أكبر، أيضاً، للوصول إلى المعلومات، الأمر الذي كان هاماً عنده، لأن الصين، حينذاك، كانت صحراء فكرية، ليس فيها ما يُقرأ، تقريباً، خلاف الدعاية الأكثر فظاظة.

إلى جانب هذه الاعتبارات العملية، فإن الخوف لم يكن غائباً على الإطلاق. وبالنسبة إلى الكثيرين، كان الانضمام إلى الحزب بمثابة بطاقة تأمين. كانت عضوية

الحزب تعني أنك أقل شبهة، وكان هذا الإحساس بالأمن النسبي، مريحاً جداً. والأهم من ذلك، أنه في بيئة سياسية إلى حد بعيد، كالبيئة التي يوجد فيها شياو ـ هي، إذا كان المرء لا يريد الانضمام إلى الحزب، فسيشار إلى ذلك في ملفه الشخصي، وسوف تلاحقه الشبهة: «لماذا لا يريد الانضمام إلى الحزب؟». والتقدم بطلب الانضمام وعدم القبول، كان من المرجح أن يثير الشكوك أيضاً: «لماذا لم يُقبل؟ لا بد أن ثمة شيئاً، ليس على ما يرام».

كان شياو ـ هي يقرأ الكلاسيكيات الماركسية برغبة صادقة ـ كانت الكتب الوحيدة المتاحة، وهو في حاجة إلى أن يروي ظمأه إلى المعرفة. ولأن ميثاق الحزب الشيوعي ينص على أن دراسة الماركسية ـ اللينينية، هي الشرط الأول لعضوية الحزب، فقد رأى أنه يستطيع أن يجمع بين اهتمامه والكسب العملي. ولكن ذلك لم يترك أثراً إيجابياً، لا في مسؤوليه، ولا في رفاقه. في الحقيقة، شعروا أنهم مكشوفون، لأنهم كانوا، في الغالب، من أصول فلاحية، وشبه أميين، ولم يتمكنوا من فهم ماركس. وكان شياو ـ هي يتعرض للنقد لتعاليه وانعزاله عن الجماهير. فإذا كان يريد الانضمام إلى الحزب، فعليه أن يجد طريقة أخرى.

ما لبث شياو ـ هي أن أدرك أن الشيء الأهم، هو إرضاء مسؤوليه المباشرين. ثم إرضاء رفاقه. فإضافة إلى أن يكون محبوباً ومجدّاً في عمله، عليه أن «يخدم الناس» بأكثر المعاني حرفيَّة.

بخلاف معظم الجيوش، التي تناط المهمات الثقيلة والوضيعة فيها بالمراتب الأدنى، كان عناصر الجيش الصيني يتطوعون للقيام بأعمال مثل جلب الماء للاغتسال في الصباح، وكنس الأرض. كان نفير الاستيقاظ يبوق في الساعة السادسة والنصف صباحاً. وكانت «المهمة التشريفية» للنهوض قبل هذا الوقت، تقع على عاتق من يطمحون في الانضمام إلى الحزب، والكثيرون منهم كانوا يتقاتلون على المكانس. ولتأمين مكنسة، كان عليهم الاستيقاظ أبكر فأبكر. وذات صباح، سمع شياو ـ هي أحدهم يكنس الأرض، بعد الساعة الرابعة صباحاً بقليل.

كان هناك واجبات هامة أخرى، وأكثرها اعتباراً المساعدة على إنتاج الغذاء. كانت الحصة الأساسية من الغذاء صغيرة جداً، حتى للضباط. فاللحم لا يقدم إلا مرة واحدة، في الأسبوع. لذا، كان على كل سرية، أن تزرع حبوبها وخضراواتها، وأن

تربي خنازيرها. وفي موسم الحصاد، كان مفوض السرية يلقي، في أحيان كثيرة، كلمات حماسية: «رفاق، الآن وقت الاختبار من جانب الحزب! يجب أن ننتهي من الحقل كله هذا المساء! نعم، يحتاج العمل إلى عشرة أضعاف القوى العاملة التي لدينا. ولكن كل واحد منا، نحن المناضلين الثوريين، يستطيع أن ينهض بعمل عشرة رجال! وأعضاء الحزب الشيوعي، يجب أن يضطلعوا بالدور القيادي. ولمن يريدون الانضمام إلى الحزب، فإن هذا خير وقت لإثبات جدارتهم! ومن يجتز الاختبار سيكون قادراً على الانضمام إلى الحزب على ساحة القتال، في نهاية اليوم!».

وقد كان على أعضاء الحزب، أن يعملوا فعلاً بجد لأداء «دورهم القيادي». ولكن الطامحين إلى العضوية، هم الذين كان عليهم أن يكدحوا حقاً. وفي إحدى المناسبات، أصيب شياو ـ هي بالإعياء، حتى إنه انهار في وسط الحقل. وفيما كان الأعضاء الجدد، الذين كسبوا «التسجيل على ساحة المعركة»، يرفعون قبضاتهم اليمنى، ويقدمون العهد المتعارف عليه بـ «النضال كل حياتي، من أجل قضية الشيوعية المجيدة»، نُقل شياو ـ هي إلى المستشفى، حيث بقي أياماً.

كان أقصر الطرق إلى الحزب، هو تربية الخنازير. ولدى السرية عشرات منها، إنها تحتل موقعاً لا يضاهى، في قلوب الجنود. كان الضباط والأنفار، على السواء، يتجمعون حول زريبة الخنازير، يراقبون، ويعلقون، ويحثون الحيوانات على النمو. وإذا كانت الخنازير تحقق نتائج طيبة، فإن مربيها يكونون مدللي السرية، وعليه كثر المتزاحمون على هذه المهنة.

أصبح شياو ـ هي مربي خنازير متفرغاً. كان عملاً شاقاً، قذراً، ناهيكم من الضغط النفسي. فكل ليلة، كان وزملاؤه يتناوبون على النهوض في الساعات المبكرة، لإعطاء الخنازير وجبة علف إضافية. وحين تلد أنثى من الخنازير، كانوا يسهرون الليالي، خوفاً من أن تسحق صغارها. كان فول الصويا العزيز، يُنتَقى بعناية، ويُغسل، ويُطحن، ويُصفّى، ويُصنع منه «حليب الصويا»، ويقدم إلى الأم، بحنان، لإدرار حليبها. كانت الحياة في القوة الجوية، تختلف اختلافاً كبيراً عما تخيله شياو ـ هي. فإنتاج الغذاء، استهلك أكثر من ثلث إجمالي الوقت، الذي أمضاه في الجيش. وفي نهاية عام من تربية الخنازير، بعمل مضنٍ، قُبل شياو ـ هي في الحزب. وشأنه شأن كثيرين غيره، أراح نفسه وبدأ يصرف الأمور بتؤدة.

بعد العضوية في الحزب، كان طموح الجميع أن يصبحوا ضباطاً. فأية أفضلية تحققها الأولى، كانت الثانية تضاعفها. وكان دخول سلك الضباط، يعتمد على قيام مسؤولي المرء بانتقائه. لذا، كان المفتاح عدم إسخاطهم أبداً. ذات يوم، استُدعي شياو ـ هي لمقابلة أحد المفوضين السياسيين في الكلية. كان شياو ـ هي متوتر الأعصاب، لا يعرف ما إذا كانت تنتظره ضربة حظ، غير متوقعة، أو كارثة شاملة. بدا المفوض، وهو رجل ممتلىء الجسم في الخمسينات من العمر، له عينان منتفختان، وصوت جهوري مهيب، لطيفاً جداً، عندما أشعل سيجارة، وسأل شياو ـ هي عن أصله العائلي، وعمره وحالته الصحية. كما سأل إن كانت لديه خطيبة ـ الأمر الذي أجاب عنه شياو ـ هي بالنفي. وظن شياو ـ هي أنه لفأل حسن، أن يخوض الرجل في قضايا شخصية كهذه. ومضى المفوض يتحدث مادحاً إياه: «إنك درستَ الماركسية ـ اللينينية ـ فكر ماو تسي تونغ بضمير حي. وكنتَ كدوداً في العمل. ولدى الجماهير انطباع جيد عنك. بالطبع، يجب أن تبقى متواضعاً، فالتواضع يحقق لك التقدم»، وما إلى ذلك. وعندما أطفأ المفوض سيجارته، حسب شياو ـ هي أن ترقيته أصبحت حتمية.

أشعل المفوض سيجارة ثانية، وبدأ يروي قصة عن حريق في معمل قطن، وعن عاملة حياكة، أصيبت بحروق شديدة، وهي تندفع عائدة إلى داخل المعمل، لإنقاذ «ممتلكات الدولة». في الواقع، تعين بتر أطرافها، بحيث لم يبق سوى الرأس والجذع، رغم أن وجهها، كما أكد المفوض، لم يتأثر وكذلك ـ وهذا الأهم ـ قدرتها على إنجاب الأطفال. وقال المفوض إنها بطلة، وسيذاع خبرها على نطاق واسع في الصحافة، ويريد الحزب أن يلبي كل أمنياتها، وقد قالت إنها تريد الاقتران بضابط في القوة الجوية. وشياو ـ هي شاب ووسيم، وغير مرتبط، ويمكن أن يُصبح ضابطاً في أي وقت...

أبدى شياو ـ هي تعاطفه مع السيدة، ولكن الزواج منها قضية أخرى. ولكن كيف يستطيع أن يرفض للمفوض طلباً؟ لم يكن في وسعه تقديم أية أسباب مقنعة. الحب؟ المفروض أن يرتبط الحب بـ «مشاعر طبقية»، ومن يستحق مشاعر طبقية أكثر من بطلة شيوعية؟ القول إنه لا يعرفها، لن ينقذه من مأزقه. فزواج كثير في الصين، كان نتيجة ترتيب من الحزب. وشياو ـ هي، بوصفه عضواً في الحزب، وعلى الأخص عضواً

يأمل في أن يصبح ضابطاً، كان عليه أن يقول: «إني أطيع قرار الحزب، بلا نقاش». نَدمَ لأنه قال، إنه ليس لديه خطيبة. كان ذهنه يعمل بسرعة، للتفكير في طريقة يقول بها لا، بلباقة، فيما مضى المفوض يتحدث عن الأفضليات: ترقية فورية إلى رتبة ضابط، دعاية بوصفه بطلاً، ممرضة متفرغة لهما، ومخصص كبير مدى الحياة.

أشعل المفوض سيجارة أخرى، وتوقف. كان شياو ـ هي يزن كلماته. وإذ أقدم على مخاطرة محسوبة، سأل إن كان ذلك قراراً حزبياً، لا رجعة فيه. كان يعرف أن الحزب يفضل دائماً أن «يتطوع» الآخرون. وكما توقع، قال المفوض كلا: الأمر يتوقف على شياو ـ هي. قرر شياو ـ هي أن يشق طريقه بالحيلة: «اعترفَ» بأنه إذ لم تكن لديه خطيبة، فإن أمه اختارت له صديقة. كان يعرف أن هذه الصديقة، يجب أن تكون بمستوى يفوق مستوى البطلة، وكان هذا يعني امتلاكها ميزتين على التوالي: الأصل الطبقي الصحيح، والعمل الجيد. وهكذا أصبحتْ ابنة قائد منطقة عسكرية كبيرة، وتعمل في مستشفى عسكري. وقد بدآ، لتوهما، «الحديث عن الحب».

تراجع المفوض قائلاً، إنه أراد أن يقف على مشاعر شياو ـ هي فحسب، ولم يكن في نيته فرض زواج عليه. لم يعاقب شياو ـ هي، ولم يطل الوقت، بعد ذلك، حتى أصبح ضابطاً، ونيطت به مسؤولية وحدة اتصالات لاسلكية أرضية. وتقدم شاب ذو أصول فلاحية، للاقتران بالبطلة المقعدة.

في هذه الأثناء، أخذت زوجة ماو وأعوانها، يجددون مساعيهم لمنع البلاد من العمل. ففي الصناعة، كان شعارهم: «وقف الإنتاج ثورة بحد ذاته». وفي الزراعة، التي بدأوا، الآن، يتدخلون فيها تدخلاً خطيراً: «نفضل أن يكون لدينا دغل اشتراكي، على أن يكون لدينا محصول رأسمالي». وأصبح اقتناء تكنولوجيا أجنبية «شم ضراط الأجانب وتسميته مسكاً». وفي التعليم: «نريد شغيلة أميين، لا أرستقراطيين روحيين، متعلمين». ودعوا تلاميذ المدارس إلى التمرد مجدداً على معلميهم. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٧٤، جرى تحطيم نوافذ الصفوف والمناضد والكراسي في بعض مدارس بكين، كما حدث في عام ١٩٦٦. وزعمت زوجة ماو، أن ذلك شبيه بـ «العمل الثوري للعمال الإنكليز، وهم يدمرون الآلات، في القرن الثامن عشر». كل هذه الديماغوجية، كان لها غرض واحد: إثارة متاعب لكل من شو إن لاي ودينغ شياو بنغ، وإشاعة الفوضى. ففي ملاحقة الآخرين، وفي «الهدم» وحدهما، كان لدى

السيدة ماو وغيرها من نجوم «الثورة الثقافية»، فرصة «للتألق». أما «البناء»، فلم يكن لهم مكان فيه.

فيما كان شو ودينغ يبذلان جهوداً تجريبية لفتح الريف، شنت سيدة الصين هجوماً جديداً على الثقافة الأجنبية. وفي أوائل ١٩٧٤، كان هناك حملة إعلامية شعواء، ضد المخرج الإيطالي، ميكال أنجلو انطونيوني، بسبب فيلم أخرجه عن الصين، رغم أن أحداً في الصين لم ير الفيلم، بل إن قلة هم الذين سمعوا به أو بمخرجه. وامتد هذا الخوف من الأجانب إلى بتهوفن، بعد زيارة قامت بها فرقة فيلادلفيا السمفونية.

خلال العامين، اللذين انقضيا منذ سقوط لن بياو، تغير مزاجي من الأمل إلى اليأس والغضب. وكان مصدر العزاء الوحيد، أن هناك معركة ما برحت مستعرة، وأن الجنون ليس هو السيد المطلق، كما كان في السنوات الأولى من «الثورة الثقافية». خلال هذه الفترة، لم يمحض ماو دعمه الكامل لأي من الجانبين. كان يكره جهود شو ودينغ، لرد «الثورة الثقافية» على أعقابها، ولكنه كان يعرف أن زوجته وأعوانها، لا يستطيعون النهوض بتسيير عجلة البلاد.

ماو ترك شو يواصل إدارة البلاد، ولكنه ألَّب زوجته ضد شو، وخاصة في الحملة الجديدة ـ «النقد كونفوشيوس». كانت الشعارات تدين لن بياو، في الظاهر، ولكنها، في الحقيقة، موجهة ضد شو، الذي كان يُعتقد، على نطاق واسع، أنه يجسِّد الفضائل، التي دعا إليها الفيلسوف الحكيم القديم. ورغم أن شو كان وفياً، دون تردد، فإن ماو لم يستطع أن يتركه وشأنه. ولا حتى عندما كان مرض شو مرضاً مميتاً، سرطان المعدة والأمعاء.

في هذه الفترة، بدأتُ أدرك أن ماو هو المسؤول، في الحقيقة، عن «الثورة الثقافية». ولكني، مع ذلك، لم أحكم عليه صراحة بالإدانة، ولا حتى في ذهني. كان من الصعب جداً تدمير إلّه! ولكني كنتُ ناضجة نفسياً للكفر به.

أصبح التعليم خط الجبهة في التخريب، الذي قادته زوجة ماو وأعوانها، لأنه لم يكن ضرورياً ضرورة آنية للاقتصاد، ولأن كل محاولة للدرس والتدريس، كانت تنطوي على تراجع في الجهل المعلَّى للثورة الثقافية. حين دخلتُ الجامعة، وجدتُ نفسي في ساحة معركة.

كانت جامعة سيشوان مقر «٢٦ آب/أغسطس»، مجموعة «المتمردين»، التي كانت القوة الصدامية للزوجين تنغ، وكانت المباني مشوهة بآثار سبع سنوات من «الثورة الثقافية». نادراً ما كان هناك نافذة سالمة. البركة وسط الحرم الجامعي، التي كانت مشهورة بأزهار اللوتس الجميلة والأسماك الذهبية فيها، أمست مستنقعاً آسناً، يتكاثر فيه البعوض. أشجار الدُلِّب الفرنسية، التي كانت تحف بالشارع المؤدي إلى البوابة الرئيسية، جرى التمثيل بها.

ما إن دخلتُ الجامعة، حتى بدأت حملة سياسية ضد «الدخول من الباب الخلفي». بالطبع، لم يكن هناك ذكر لحقيقة أن قادة «الثورة الثقافية» هم أنفسهم سدوا «الباب الأمامي». وكنتُ أستطيع أن أرى أن هناك الكثير من أبناء المسؤولين الكبار، بين الطلاب الجدد «العمال ـ الفلاحين ـ الجنود»، وأن كل الآخرين لديهم ارتباطات ـ الفلاحون مع قادة فرقهم الإنتاجية أو سكرتيري الكوميونات والعمال مع مسؤوليهم في المعمل، إن لم يكونوا هم أنفسهم مسؤولين صغاراً. «الباب الخلفي» كان المدخل الوحيد. وزملائي الطلبة، لم يبدوا حماسة تذكر في هذه الحملة.

عصر كل يوم، وبعض الأماسي، كان علينا أن «ندرس» مقالات طنانة في صحيفة «الشعب» اليومية، تدين هذا أو ذاك، وأن نعقد «مناقشات» لا معنى لها، كان الجميع يرددون فيها لغة الصحيفة المنمقة، المبتذلة. وفرض علينا البقاء في الجامعة طول الوقت، باستثناء مساء السبت ويوم الأحد، والعودة مساء الأحد.

كنتُ أشترك في غرفة نوم مع خمس فتيات أخريات. في المكان صفّان، في كل منهما ثلاثة أسرَّة، عند جدارين متقابلين. بينهما منضدة وستة كراسٍ نعمل عليها. وبالكاد يوجد مكان للأحواض التي نغتسل فيها. نافذة الغرفة تنفتح على مجارٍ مكشوفة، تنبعث منها رائحة كريهة.

كانت اللغة الإنكليزية موضوع دراستي، ولكن لم تكن هناك طريقة لتعلمها. ولم يكن يوجد من يتكلم الإنكليزية، بوصفها لغة أصلية، بل لم يكن هناك أي أجانب. سيشوان كلها، كانت مغلقة في وجه الأجانب. أحياناً، كان يُسمح لأجنبي طارىء بالدخول، يكون على الدوام «صديقاً للصين»، ولكن التكلم معه دون موافقة، كان مخالفة جنائية. وكان من الممكن أن نُودَع السجن، بسبب الاستماع إلى هيئة الإذاعة البريطانية (بي. بي. سي) أو «صوت أميركا». لم تكن هناك مطبوعات أجنبية،

باستثناء «ذي ووركر»، صحيفة الحزب الشيوعي البريطاني الماوي، الصغير، وحتى هذه كانت تحفظ، مغلقاً عليها في غرفة خاصة. أذكر الإثارة التي شعرتُ بها، لدى إعطائي الإذن ذات مرة، مرة واحدة فقط، بالاطلاع على نسخة منها. وقد تبدد شعوري بالإثارة، عندما وقع نظري على مقالة الصفحة الأولى، التي تردد حملة نقد كونفوشيوس. وإذ جلست هناك حائرة، مرَّ محاضر، كنت أحبه، وقال مبتسماً: «لعلّ هذه الصحيفة، لا تُقرأ إلا في الصين».

كانت كتبنا المدرسية دعاية تثير السخرية. وأول جملة تعلمناها بالإنكليزية، هي «عاش الرئيس ماو!»، ولكن أحداً لم يجرؤ على شرح الجملة قواعدياً. ففي اللغة الصينية يعني المصطلح الدال على التمني أو الرغبة، «شيئاً غير حقيقي». وفي عام ١٩٦٦، تعرض محاضر في جامعة سيشوان للضرب «لوقاحته، بالإشارة إلى أن «عاش الرئيس ماو!» ليس حقيقياً!». وكان أحد الفصول عن بطل شاب نموذجي، غرق بعد أن وثب في سيل جارف، لإنقاذ عمود برقي، لأن العمود كان يحمل صوت ماو.

بصعوبة بالغة، تمكنتُ من استعارة بعض الكتب المدرسية باللغة، الإنكليزية، نشرتْ قبل «الثورة الثقافية»، من محاضرين في قسمي، ومن جن ـ منغ، الذي كان يرسل إليَّ كتباً من جامعته، بالبريد. كانت هذه الكتب تتضمن مقتطفات من كتَّاب، مثل جين أوستن، وتشارلز ديكنز وأوسكار وايلد، تروي قصصاً من التاريخ الأوروبي والأميركي. كانت قراءتها متعة، ولكن الكثير من طاقتي، كان يذهب في إيجادها، ومن ثم محاولة الاحتفاظ بها.

وكلما اقترب أحدهم، كنت أسارع إلى تغطية الكتب بجريدة. وكان من المهم، أيضاً، أن لا أبدو مجدة أكثر مما ينبغي في الدراسة، وأن لا أثير غيرة زملائي الطلاب، بقراءة شيء بعيد عن متناولهم. رغم أننا كنا ندرس الإنكليزية، والحكومة تدفع لنا أجراً ـ لأسباب منها قيمتنا الدعائية ـ فيجب أن لا نبدو شديدي الاستغراق في موضوعنا: كان من يفعل ذلك يعد «أبيض وخبيراً». في منطق تلك الأيام المجنون، كان إتقان المرء لمهنته («خبير») يُساوى تلقائياً بكونه غير موثوق سياسياً («أبيض»).

من سوء حظي، أني كنت، في الإنكليزية، أحسن من زملائي في الصف. ولذلك، كنتُ أقابل بسخط البعض من «المسؤولين الطالبيين»، وهم أدنى مستوى من

المراقبين، كانوا يشرفون على جلسات التلقين السياسي، ويفحصون «الظروف الفكرية» لزملائهم الطلبة. المسؤولون الطالبيون، في دورتي، كانوا، في الغالب، من الريف،يتوقون إلى تعلم الإنكليزية، ولكن معظمهم كانوا شبه أميين، وذوي قدرات محدودة. كنت أتعاطف مع قلقهم وإحباطهم، وأتفهم غيرتهم مني. ولكن مفهوم ماو عن «الأبيض والخبير»، جعلهم يشعرون أن مواطن ضعفهم هي فضائل، وأضفى على حسدهم مشروعية سياسية، ومنحهم فرصة لئيمة للتنفيس عن إحباطهم.

بين حين وآخر، كان أحد المسؤولين الطالبيين، يطلب لقاء «من القلب إلى القلب» معي. وكان قائد الخلية الحزبية في دورتي، فلاحاً سابقاً، اسمه منغ. انخرط في الجيش، ثم أصبح قائد فريق إنتاجي. كان طالباً ضعيفاً جداً، يلقي عليَّ محاضرات دعية طويلة، عن آخر التطورات في «الثورة الثقافية»، و«المهمات المجيدة، التي تقع على عاتقنا نحن الطلاب العمال ـ الفلاحين ـ الجنود»، والحاجة إلى «إصلاح الفكر». ويرى أني في حاجة إلى هذه الخلوات، «من القلب إلى القلب»، بسبب «نواقصي»، ولكن منغ لم يفصح عن مبتغاه، بطريقة مباشرة. كان يترك النقد معلقاً في الهواء ـ «إن الجماهير قدمت شكوى عليكِ. هل تعرفين ما هي؟» ـ ويراقب تأثير ذلك فيَّ. وفي النهاية، كان يكشف عن ادعاء ما. يوماً، التهمة الحتمية بكوني «بيضاء وخبيرة»، ويوماً، كوني «بورجوازية»، لأني تخلفت عن الاقتتال على فرصة تنظيف المرحاض، أو غسل ملابس رفاقي ـ كلها أعمال خيِّرة إلزامية. ويوماً آخر، ينسب إليَّ دافعاً حقيراً: أني لا أنفق جل وقتي في تعليم زملاء صفي، لأني لا أريدهم أن يلحقوا بي.

النقد، الذي كان منغ يوجهه إليَّ بشفتين مرتجفتين (من الواضح أن هذه كانت قضية كبيرة عنده) هو: «قدمت الجماهير تقارير تقول إنكِ منعزلة. إنك تبعدين نفسك عن الجماهير». كان شائعاً في الصين، أن يدعي الآخرون أنك تنظر إليهم باحتقار، إذا أخفقتَ في إخفاء رغبتك في شيء من الوحدة.

المستوى الأعلى مباشرة من المسؤولين الطالبيين، كان مستوى المشرفين السياسيين، الذين لا يعرفون، أيضاً، إلا الشيء البسيط من الإنكليزية، بل لا يعرفون منها شيئاً. كانوا لا يحبونني. ولا أنا كنتُ أُحبهم. ومن حين إلى آخر، كان عليَّ أن أنقل أفكاري إلى واحد منهم مسؤول عن سنتي الدراسية، وقبل كل جلسة، كنت

أتجول حول مبنى الجامعة ساعات، مستجمعة شجاعتي للطرق على بابه. رغم أنه لم يكن، في اعتقادي، شخصاً شريراً، إلا أنني كنتُ أخافه. ولكني كنتُ أرتعب، في المقام الأول، من الخطبة المبهمة، المملة المحتومة. كان، شأن كثيرين آخرين، يعشق لعبة القط والفأر، إرضاء لشعوره بالسطوة. وكان عليَّ أن أبدو ذليلة وجادة، وأن أعد بأشياء لا أعنيها، وليس في نيتي تنفيذها.

بدأتُ أشعر بالحنين إلى سنواتي في الريف والمعمل، حين كنت أُترك لشأني نسبياً. فقد كانت الجامعات تحت مراقبة أشد إحكاماً، لأنها تحظى باهتمام خاص من زوجة ماو. فأنا، الآن، بين أشخاص انتفعوا من «الثورة الثقافية». فلولاها لما وُجد الكثير منهم في هذا المكان.

ذات مرة، كلف الطلاب في سنتي بمشروع وضع قاموس بالمختصرات الإنكليزية. فقد قرر القسم أن القاموس الموجود «رجعي»، لأنه، كما هو متوقع، يتضمن من المختصرات «الرأسمالية»، أكثر مما يتضمنه من المختصرات ذات الأصل المقبول. وتساءل بعض الطلاب، بغضب: «لماذا يكون لروزفلت مختصر ـ ف. د. ر ـ ولا يكون للرئيس ماو؟». وبمهابة عظيمة، بحثوا عن مواد مقبولة، ولكن تعين عليهم، في النهاية، أن يتخلوا عن «مهمتهم التاريخية»، لأنه، ببساطة، لم يكن هناك ما يكفي من الأنواع المطلوبة.

وجدتُ هذه البيئة لا تطاق. إذ إن في مقدوري أن أتفهم الجهل، ولكني لا أستطيع القبول بتمجيده، وأقل من ذلك القبول بحقه في السيادة.

كثيراً ما كان علينا أن نغادر الجامعة، للقيام بما لا يمت بصلة إلى موضوعنا. قال ماو إننا ينبغي «أن نتعلم أشياء في المعامل، وفي الأرياف وفي وحدات الجيش». أما ما الذي يراد منا أن نتعلمه على وجه الدقة؟ فهذا، كالمعتاد، ما لم يكن محدداً. بدأنا بـ «التعلم في الريف». ذات أسبوع، خلال الفصل الأول من سنتي الأولى، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، شُحنتْ الجامعة كلها إلى مكان، في أطراف تشينغدو، اسمه «جدول جبل التنين»، كان ضحية زيارة، قام بها إليه أحد نواب رئيس وزراء الصين، تشين يونغْوِي. كان في السابق قائد كتيبة زراعية، اسمها داجاي، في إقليم شانشي الشمالي الجبلي، الذي أصبح نموذج ماو في الزراعة، لأنه اعتمد، في الظاهر، على حماسة الفلاحين الثورية، أكثر من اعتماده على الحوافز المادية. ولم

يلاحظ ماو، أو لم يأبه، أن ادعاءات داجاي، كانت كاذبة، من حيث الأساس.

عندما زار نائب رئيس الوزراء، تشين، «جدول جبل التنين»، علق قائلاً: «آه، لديكم جبال هنا! تخيلوا كم من الحقول تستطيعون أن تخلقوا!»، وكأن الروابي الخصبة المكسوة بالبساتين، شبيهة بالجبال الجرداء لقريته الأصلية! ولكن تعليقاته كان لها قوة القانون. فعمدت جموع الطلاب الجامعيين إلى اقتلاع أشجار البساتين، التي كانت تزود تشينغدو بالتفاح والخوخ والدراق والزهور. وكنا ننقل الأحجار، من بعيد، بعربات الجر، والعصي على الأكتاف، تمهيداً لحقول الرز على مصاطب الروابي.

كان إبداء الحماسة إلزامياً في هذا، كما في كل الأعمال، التي يدعو إليها ماو. وكان الكثير من قرنائي الطلاب، يعملون بطريقة تستدعي الالتفات إليهم. نُظر إليَّ على أنني أفتقر إلى الحماسة، بسبب الصعوبة التي لاقيتها في إخفاء نفوري من هذا النشاط، من جهة، ولأنني، من جهة أخرى، لم أكن أتعرق بسهولة، مهما بذلتُ من طاقة. الطلاب الذين يتصببون عرقاً، كانوا دائماً موضع إطراء في جلسات الإيجاز، كل مساء.

زملائي الجامعيون، كانوا بكل تأكيد تواقين إلى العمل، أكثر مما هم أكفاء. فأصابع الديناميت، التي يدفنونها في الأرض، كانت لا تنفجر عادة، وهو أمر يُحمدون عليه، لأنه لم تكن هناك إجراءات سلامة. الجدران الحجرية، التي بنيناها حول الحافات، سرعان ما انهارت، وعندما غادرنا، بعد أسبوعين، كان سفح الجبل أرضاً يباباً من حفر التفجير والإسمنت المتصلب، في كتل لا شكل لها، وأكوام الحجارة. وبدا أن قلة كانوا مكترثين لذلك. فالواقعة كلها، كانت، في النهاية، استعراضاً، مسرحية ـ وسيلة غير مجدية، من أجل غاية غير مجدية.

كنتُ أمقت هذه المهمات، وأكره حقيقة أن عملنا، ووجودنا كله يستخدمان في لعبة سياسية قذرة. ومما أثار حنقي الشديد، أني أُرسلت إلى وحدة عسكرية، مرة أخرى مع الجامعة كلها، في أواخر ١٩٧٤.

المعسكر الذي يبعد ساعتين بالشاحنة من تشينغدو، كان في بقعة جميلة، تحيط به حقول الرز وأزهار الدراق وحقول الخيزران. ولكني شعرت أن أيامنا السبعة عشر، التي قضيناها هناك، كانت سنة. كنتُ ألهث بلا توقف، من الركض مسافات طويلة،

كل صباح، وأتعرض للرضوض، من السقوط والزحف تحت النيران الوهمية لدبابات «العدو»، وأشعر بالإعياء من ساعات التسديد ببندقية صوب هدف، أو رمي قنابل يدوية خشبية. وكان يُنتَظر مني إبداء عاطفتي وبراعتي في كل هذه الأنشطة، التي كان ميؤوساً مني فيها. إذ إن هذه المهمات العسكرية تكليفات «سياسية»، وعليَّ أن أثبت جدارتي فيها. المفارقة أنه في الجيش نفسه، كان إتقان الرماية والمهارات العسكرية الأخرى، يؤدي إلى إدانة الجندي، بوصفه «أبيض وخبيراً».

كنتُ واحدة من مجموعة طلاب، نرمي القنابل اليدوية الخشبية مسافة قصيرة، حيث تغدو خطراًعلينا، فحرمنا من المناسبة العظيمة لرمي القنبلة الحقيقية. وإذ جلست مجموعتنا البائسة على قمة تل، تسمع الانفجارات البعيدة، انفجرت فتاة باكية، وإذ بي أنا أيضاً أشعر بكآبة شديدة، إزاء التفكير في أنني قدمت دليلاً ظاهراً على كوني «بيضاء».

كان اختبارنا الثاني في الرماية. وإذ سرنا إلى ساحة الرمي، فقد فكرتُ في نفسي: لا أستطيع أن أفشل في هذا، يجب أن أنجح قطعاً. وعندما نودي اسمي، وانبطحتُ على الأرض، محدقة إلى الهدف، من خلال منظار البندقية، رأيت ظلاماً تاماً. لا هدف، لا أرض، لا شيء. كنتُ أرتجف بشدّة، حتى إنني أحسستُ أن جسمي كله عاجز، لا حول له، ولا قوة. جاء الأمر بالرمي خافتاً، كأنه يسبح من مسافة شاسعة عبر الغيوم. ضغطتُ على الزناد، ولكني لم أسمع أي دوي، ولم أر أي شيء. وعندما فُحصت النتائج، ذُهل المدربون: ما من طلقة من طلقاتي العشر أصابت اللوحة، فضلاً عن إصابة الهدف.

لم أصدق ذلك. نظري كان سليماً بالكامل. قلتُ للمدرب إن ماسورة البندقية لا بد أن تكون ملتوية. بدا أنه يصدقني. قُدمت لي بندقية أخرى، أثار تقديمها احتجاجات من آخرين، طلبوا فرصة أخرى، عبثاً. كانت محاولتي الثانية أفضل قليلاً: اثنتان من الطلقات أصابتا الدوائر الخارجية. مع ذلك، بقي اسمي آخر الأسماء في الجامعة كلها. وإذ رأيتُ النتائج معلقة على الحائط كالملصق الدعائي، عرفتُ أن «بياضي» أصبح أنصع. سمعتُ تعليقات حاقدة من أحد المسؤولين الطالبيين: «هه! فرصة ثانية! كأن هذا سينفعها! إذا لم تكن لديها مشاعر طبقية، أو كراهية طبقية، فإن مئة محاولة لن تنقذها!».

في تعاستي، تراجعت منكفئة في أفكاري، وبالكاد لاحظتُ الجنود الذين دربونا، وهم فلاحون شبان، في العشرينات من العمر. حادث واحد، لفت انتباهي إليهم. ذات مساء، عندما جمعت بعض الفتيات ملابسهن عن الحبل الذي نشرنها عليه لكي تجف، كانت ملابسهن الداخلية ملطخة بالمني، على نحو لا يقبل الخطأ.

في الجامعة، وجدت ملاذاً في بيوت الأساتذة والمحاضرين، الذين حصلوا على وظائفهم قبل «الثورة الثقافية»، على أساس المؤهلات الأكاديمية. وكان العديد من الأساتذة، قد زاروا بريطانيا أو الولايات المتحدة، قبل استيلاء الشيوعيين على السلطة، وشعرتُ أن في إمكاني الاسترخاء والحديث معهم بلغة واحدة. مع ذلك، كانوا حذرين. أغلبية المثقفين كانوا حذرين، نتيجة سنوات من القمع. كنا نتحاشى الخوض في مواضيع ذات خطر. ومن زاروا الغرب، نادراً ما كانوا يتحدثون عن فترة وجودهم هناك. ورغم أني كنت أتحرق رغبة في السؤال، فقد كنت ألجم نفسي، حيث لا أريد أن أضعهم في موقف صعب.

وللسبب نفسه، لم أناقش أفكاري قط مع والديَّ. كيف كانا سيستجيبان ـ بحقائق ذات خطر أم بأكاذيب أمينة؟ يضاف إلى ذلك، أني لم أكن أريدهما أن يقلقا بسبب أفكاري الهرطقية. كنتُ أريدهما أن يكونا جاهلين، بحيث إنه إذا حدث لي شيء، يستطيعان أن يقولا، بصدق، إنهما لا يعرفان.

الأشخاص الذين أتواصل معهم بأفكاري، كانوا أصدقاء من أبناء جيلي. في الحقيقة، لم يكن هناك شيء يذكر سوى الكلام، وخاصة مع الأصدقاء الذكور. كان «الخروج» مع رجل ـ أن نُشاهد معاً في الأماكن العامة ـ بمثابة خطوبة. وعملياً، لم تكن هناك بعد أماكن لهو، نذهب إليها، في كل الأحوال. كانت السينمات، لا تعرض إلا الأعمال، التي وافقت عليها زوجة ماو. وأحياناً، كان يعرض فيلم أجنبي، ربما من ألبانيا، ولكن معظم التذاكر، كانت تختفي في جيوب مَنْ لديهم علاقات. وكان الناس يحتشدون غاضبين على شباك التذاكر، ويتدافعون للحصول على القليل المتبقي منها. كان باعة التذاكر، في السوق السوداء، يحققون ثروة منها.

لذا، كنا نلزم بيتنا. كنا نجلس، بكل وقار، كما في إنكلترا الفكتورية. فأن تقيم النساء صداقات مع الرجال، كان أمراً غير معهود، في تلك الأيام. وقالت لي

صديقة، ذات مرة: «لم أعرف قط فتاة لديها هذا العدد من الأصدقاء الرجال. فالفتيات، عادة، لديهن صديقات». كانت مُصيبة. وكنت أعرف فتيات كثيرات، تزوجن أول رجل اقترب منهن. كان التعبير الوحيد عن الاهتمام، الذي تلقيته من أصدقائي الرجال، بعض القصائد العاطفية، والرسائل الحبيّة، ولو أني أعترف بأن إحداها كانت مكتوبة بالدم ـ من حارس المرمى في فريق الكلية الكروي.

كنا أنا وأصدقائي، كثيراً ما نتحدث عن الغرب. حينذاك، خلصتُ إلى أنه مكان رائع. والمفارقة أن أول مَنْ غرس هذه الفكرة في ذهني، كان ماو ونظامه. فعلى امتداد سنوات، أدينت الأشياء التي كنت ميالة إليها بصورة طبيعية، بوصفها شرور الغرب: الملابس الحلوة، والزهور والكتب والترفيه والدماثة والرقة والعفوية والشفقة والطيبة والحرية، والنفور من القسوة والعنف، والحب بدلاً من «الكره الطبقي»، واحترام حياة الإنسان، والرغبة في أن يختلي الإنسان مع نفسه والكفاءة المهنية. . . كما كنتُ أتساءل في نفسي، كيف يمكن أحداً أن لا يريد الغرب؟

كنتُ شديدة الفضول في شأن بديل الحياة التي أعيشها. وكنتُ، أنا وأصدقائي، نتبادل الشائعات ونتف المعلومات، التي ننبشها من المطبوعات الرسمية. لم أتأثر بتطورات الغرب التكنولوجية ومستوى معيشته المرتفع، بقدر ما تأثرتُ بغياب الحملات السياسية لمطاردة الساحرات، وغياب الشك القاتل، وكرامة الفرد، ومقدار الحرية الذي لا يصدق. بالنسبة إلي، كان الدليل على الحرية في الغرب، أنه كان هناك، على ما يبدو، كثيرون يهاجمون الغرب، ويمتدحون الصين. كل يوم تقريباً، كانت الصفحة الأولى من «رِفِرَنْس»، الجريدة التي تنشر مواد الصحافة الأجنبية، تحمل شيئاً من المديح لماو و«الثورة الثقافية». في البداية، كانت هذه تغيظني، ولكنها ما لبثت أن جعلتني أرى إلى أي حد يمكن مجتمعاً آخر أن يكون متسامحاً. وأدركتُ أن هذا هو نوع المجتمع، الذي أريد أن أعيش فيه: حيث يسمح للأفراد أن يحملوا آراء مغايرة، بل آراء فاضحة. بدأتُ أرى أن التسامح مع المعارضة، مع المتظاهرين، هو نفسه الذي يُبقي الغرب متقدماً.

مع ذلك، لم أكن أملك إلا الشعور بالحنق على بعض الملاحظات. ذات مرة، قرأتُ مقالة بقلم غربي، جاء إلى الصين لزيارة بعض الأصدقاء القدماء، أساتذة

جامعيين، أعربوا له، بأسارير منشرحة، عن استمتاعهم بتعرضهم للإدانة، وإنزالهم إلى الحضيض، واستساغة عملية إصلاحهم. وخلص الكاتب إلى أن ماو صنع حقاً من الصينيين «شعباً جديداً» يعتبرون ما هو بؤس للغربي، متعة. كنتُ مصعوقة. ألم يعرف أن القمع يكون على أشده، حين لا يكون هناك احتجاج؟ ويكون أسوأ مئة مرة، عندما تقدم الضحية وجهاً باسماً؟ ألم ير إلى أية حال بائسة، صُيِّر هؤلاء الأساتذة، وأي رعب انطوى عليه ذلك؟ لم أدرك أن المسرحية التي يمثلها الصينيون، كانت شيئاً لم يألفه الغربيون، وما كان في مقدورهم أن يفكوا رموزها.

كما أني لم أقدِّر أن المعلومات عن الصين لم تكن متاحة بسهولة، أو أنها، في الأساس، موضع سوء فهم في الغرب، وأن مَنْ لم تكن لديهم خبرة بنظام مثل نظام الصين، يمكن أن يقبلوا دعايته وخطابيته كما تبدوان في ظاهرهما. نتيجة لذلك، افترضْتُ أن هذه المدائح، ليست صادقة. كنا، أنا وأصدقائي، ننتهي إلى القول إن «ضيافة» حكومتنا اشترتهم. فعندما سُمح للأجانب بدخول أماكن خاصة محددة في الصين، بعد زيارة نكسون، كانت السلطات، أينما ذهب هؤلاء، تسارع إلى عزل جيوب حتى داخل هذه الأماكن.

كانت أحسن وسائل النقل والمتاجر والمطاعم ودور الضيافة والبقع ذات الطبيعة الخلابة، تحجز لهم بلافتات تقول: «للضيوف الأجانب فقط». وكان مشروب ماو ـ تاي، المشروب المرغوب فيه، غير متاح للصينيين العاديين، ولكنه متوافر للأجانب، بلا حدود. أفضل الأطعمة كانت تحفظ للأجانب. وأوردت الصحف، بفخر واعتزاز، أن هنري كيسنجر قال إن خصره اتسع، نتيجة المآدب ذات الأطباق الاثني عشر، التي استمتع بها خلال زياراته للصين. كان هذا في وقت قاربت حصتنا من اللحم في سيشوان «هري السماء»، نصف رطل في الشهر، وشوارع تشينغدو مليئة بفلاحين، لا مأوى لهم، هربوا إليها من المجاعة في الشمال، وكانوا يعيشون متسولين. عمَّ استياء شديد بين السكان من معاملة الأجانب، وكأنهم أسياد. بدأنا، أنا وأصدقائي، نقول لأنفسنا: «لماذا نهاجم الكومنتانغ لسماحهم بلافتات تقول: «ممنوع دخول الصينيين أو الكلاب»! ألسنا نفعل الشيء نفسه؟».

أصبح الحصول على المعلومات هاجساً. وقد أفدتُ فائدة عظيمة من قدرتي على

قراءة الإنكليزية، لأنه على الرغم من نهب مكتبة الجامعة، خلال «الثورة الثقافية»، فإن أغلبية الكتب، التي ضاعت، كانت باللغة الصينية. مجموعتها الواسعة من الأدبيات الإنكليزية، قُلبت رأساً على عقب، ولكنها ما برحت سالمة.

كان المكتبيون مسرورين بأن لهذه الكتب مَنْ يقرأها، وخاصة أن تقرأها طالبة، وكانوا عوناً كبيراً لي. نظام الفهرسة، كان في فوضى، وكانوا يغوصون في أكداس الكتب لإيجاد ما أريده منها. ومن خلال جهود هؤلاء الشبان والشابات الطيبين، وقعتُ على بعض الكلاسيكيات الإنكليزية. كانت قصة «نساء صغيرات»، للكاتبة لويزا ماي ألكوت، الرواية الأولى، التي قرأتها بالإنكليزية. وقد وجدتُ كاتبات مثلها، جين أوستن، والأخوات برونتي، كتاباتهن أسهل قراءة من كتاب لديكنز مثلاً، وكنت أشعر أيضاً بتعاطف أكبر مع شخصياتهن. قرأتُ تاريخاً موجزاً للأدبين الأوروبي والأميركي، وتأثرتُ تأثراً شديداً بالتقليد اليوناني في الديموقراطية، وإنسانية عصر النهضة، وتشكيك عصر التنوير، في كل شيء. وحين قرأتُ في «رحلات غاليفر»، عن الأمبراطور، الذي «نشر قراراً، يأمر كل رعاياه، متوعداً بعقوبات شديدة، أن يكسروا النهاية الصغيرة لبيضهم»، تساءلتُ إن كان سْوِفْت في الصين. كانت فرحتي بالإحساس بتفتح ذهني وتوسُّعه، فرحة لا توصف.

كان وجودي وحدي في المكتبة جنة، بالنسبة إلي. يكاد قلبي يثب في صدري، وأنا أقترب منها، في الغسق، عادة، متوقعة لذة التوحد مع كتبي، حيث يكف العالم الخارجي عن الوجود. وإذ أسرع متسلقة الدرجات، المفضية إلى المبنى، المصمم وفق الطراز الكلاسيكي، كانت رائحة الكتب القديمة، التي طال خزنها في غرف بلا تهوية، تبعث فيَّ موجات من الإثارة، وكنت أكره الدرجات لطولها.

بمساعدة قواميس، أعارني إياها بعض الأساتذة، تعرفت بلونغفيلو وولت ويتمان والتاريخ الأميركي. استظهرتُ «إعلان الاستقلال» كله، وانشرح صدري للكلمات: «نعتبر هذه الحقائق بائنة لذاتها، إن كل البشر خُلقوا متساوين»، والكلمات التي تتحدث عن «حقوق البشر، غير القابلة للتصرف»، ومنها «الحرية والبحث عن السعادة». لم تكن هذه المفاهيم معروفة في الصين، وفتحتْ عالماً جديداً رائعاً أمامي. دفاتري التي أحملها معي كل الوقت، كانت مليئة بمقاطع كهذه، منسوخة بعاطفة متقدة ودموع منهمرة.

ذات يوم خريفي من عام ١٩٧٤، في أجواء من السرية الشديدة، أرتني صديقة نسخة من مجلة نيوزويك، عليها صورتا ماو وزوجته. لم تحسن قراءة الإنكليزية، وكانت تواقة إلى معرفة ما تقوله المقالة. كانت هذه أول مجلة أجنبية حقيقية، يقع نظري عليها. وقد صعقتني جملة في المقالة، كالبرق. قالت إن زوجة ماو هي «عينا ماو وأذناه وصوته». لم أكن أسمح لنفسي قط، حتى تلك اللحظة، بالتوقف عند العلاقة الواضحة بين أفعال ماو وزوجته. ولكن اسم ماو ذُكر لي، الآن، بوضوح لا لبس فيه. أفكاري الضبابية، التي تحيط بصورته، تبلورت، الآن، ساطعة. إن ماو هو الذي كان وراء التدمير والمعاناة. ولولاه لما استطاعت زوجته، وأعوانها من الدرجة الثانية، أن يستمروا يوماً واحداً. وعشت التجربة المثيرة لتحدي ماو تحدياً سافراً في ذهني، للمرة الأولى.

٢٧ ـ «إذا كانت هذه هي الجنة، فما هو الجحيم؟» ـ موت أبي (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦)

لم يُردّ لأبي اعتباره ولم يُعط عملاً، بخلاف معظم زملائه السابقين. كان يلازم البيت في «شارع الشهاب»، منذ عاد من بكين معي ومع أمي، في خريف ١٩٧٢. كانت المشكلة أنه انتقد ماو بالاسم. الفريق الذي يحقق معه كان متعاطفاً، وحاول أن يعزو بعض ما قاله ضد ماو، إلى مرضه العقلي. ولكن الفريق اصطدم بمعارضة شديدة من السلطات العليا، التي كانت تريد إدانته إدانة قوية. كان العديد من زملاء أبي متعاطفين معه، بل معجبين به. ولكن عليهم أن يفكروا في سلامة رقابهم. يضاف إلى ذلك، أن أبي لم يكن ينتمي إلى أية زمرة، ولم يكن لديه راع قوي ـ كان من الممكن أن يساعد ذلك على تبرئة ساحته. بدلاً من ذلك، كان له أعداء في مراكز هامة.

ذات يوم من ١٩٦٧، رأت أمي، التي خرجت من المعتقل لفترة قصيرة، صديقاً قديماً من أصدقاء أبي، عند كشك يقدم الأطعمة على جانب الطريق. هذا الرجل، وضع رهانه على الزوجين تنغ. وقد كان مع زوجته، التي تعرف بها من طريق أمي والسيدة تنغ، عندما كانتا تعملان معاً، في يي بِين. وعلى الرغم من إحجام الزوجين الواضح عن إقامة أية علاقة بها، تتجاوز الإيماءة السريعة، فقد سارت أمي نحو مائدتهما، وانضمت إليهما. طلبت منهما أن يناشدا الزوجين تنغ مراعاة أبي. بعد الاستماع إلى أمي، هز الرجل رأسه، وقال: «إن الأمر ليس بهذه البساطة...». ثم

غمس إصبعه في كأس الشاي، وكتب الرمز «زوو» على المائدة. نظر إلى أمي نظرة ذات معنى، ثم نهض مع زوجته، وغادرا دون أن يقولا كلمة أخرى.

كان زوو في السابق زميلاً مقرباً إلى أبي، وكان واحداً من المسؤولين الكبار القلائل، الذين لم يعانوا قط، إبان «الثورة الثقافية». أصبح حبيب «متمردي» السيدة شاو، وصديق الزوجين تنغ، ولكنه بقي، بعد سقوطهما وموت لن بياو، في السلطة.

كان أبي يرفض سحب كلماته ضد ماو. ولكن عندما اقترح الفريق، الذي يحقق معه نسبها إلى مرضه العقلي، وافق على مضض.

في هذه الأثناء، جعله الوضع العام قانطاً. لم تكن هناك مبادىء تحكم سلوك الأفراد، أو تصرفات الحزب. عاد الفساد مستفحلاً. إذ أصبح المسؤولون يعتنون بعوائلهم وأصدقائهم أولاً. والمعلمون، خوفاً من تعرضهم للضرب، يعطون كل التلاميذ أعلى العلامات، بصرف النظر عن نوعية عملهم. والمحصلون في الحافلات، لا يجبون أجور النقل من الركاب. كان التفاني من أجل المصلحة العامة، موضع استهزاء سافر. لقد دمرت ثورة ماو الثقافية الانضباط الحزبي والأخلاق المدنية، على السواء.

وجد أبي من الصعب أن يسيطر على نفسه، بحيث لا يفصح عما يجول في ذهنه، ويقول أشياء تزيد في تجريمه وتجريم عائلته.

كان عليه أن يعتمد على المهدئات. حين يكون المناخ السياسي أكثر انفراجاً، يأخذ منها القليل، وحين تشتد الحملات، يأخذ الكثير. وفي كل مرة يجدد الأطباء النفسيون إمداده بها، كانوا يهزون رؤوسهم قائلين، إن الاستمرار في أخذ مثل هذه الجرعات الكبيرة ذو خطر شديد. ولكنه لم يكن يستطيع الصمود من دون الحبوب، إلا فترات قصيرة. وفي أيار/مايو ١٩٧٤، أحس أنه على حافة الانهيار، وطلب معالجته نفسياً. هذه المرة، أُدخل المستشفى على جناح السرعة، بفضل زملائه السابقين، الذين عادوا الآن مسؤولين عن الخدمات الصحية.

أخذتُ إجازة من الجامعة، وذهبت للبقاء معه في المستشفى. الدكتور سو، المحلل النفسي، الذي عالجه من قبل، عاد يعتني به مرة أخرى. في ظل الزوجين تنغ، أدين الدكتور سو، لإعطائه تشخيصاً صحيحاً لحالة أبي، وأُمِر بكتابة اعتراف يقول فيه، إن أبي يتظاهر بالجنون. رفض، فأُخضع بسبب رفضه لاجتماعات

تنديدية، وضُرب، وطرد من مهنة الطب. رأيته، ذات يوم من عام ١٩٦٨، يفرغ القمامة، وينظف مباصق المستشفى. وَخَط الشيب رأسه، رغم أنه لم يتجاوز الثلاثينات من العمر. وبعد سقوط الزوجين، تنغ رُد له اعتباره. كان ودوداً جداً مع أبي ومعي، وكذلك كان كل الأطباء والممرضات. قالوا لي إنهم سيعتنون بأبي عناية جيدة، ولا ضرورة إلى بقائي إلى جانبه. ولكني كنتُ أريد البقاء معه. قدرت أنه في حاجة إلى الحب أكثر من أي شيء آخر. وكنتُ قلقة مما قد يحدث، إذا سقط ولم يكن هناك أحد قريب منه. كان ضغط الدم عنده عالياً إلى درجة الخطر، وانتابته، بالفعل، عدة نوبات قلبية صغيرة، أعاقة عن المشي. بدا كأنه يمكن أن يسقط في أي وقت. وحذَّر الأطباء من أن سقطة واحدة، يمكن أن تكون مميتة. انتقلتُ إلى ردهة الرجال معه، إلى الغرفة نفسها، التي شغلها في صيف ١٩٦٧. كانت كل غرفة تتسع لمريضين، ولكن الغرفة كانت لأبي وحده، وكنتُ أنا أنام في السرير الآخر.

كنتُ معه في كل لحظة، خشية أن يسقط. عندما يذهب إلى المرحاض، أنتظر في الخارج. وإذا تخطى بقاؤه فيه حدود الوقت المألوف، كنت أبدأ بتخيل إصابته بنوبة قلبية، وأجعل نفسي موضع سخرية، بمناداته. كل يوم، أمشي معه طويلاً في الحديقة الخلفية، التي كانت مليئة بمرضى نفسيين آخرين، في بيجامات ذات خطوط رمادية، يسيرون دون توقف، بعيون بليدة. كان منظرهم يخيفني دائماً، ويجعلني حزينة حزناً شديداً.

الحديقة كانت مترعة بالألوان الزاهية. فراشات بيضاء، ترفرف بين الطَّرَخْشَقون الأصفر. وفي أحواض الزهور المحيطة حور صيني وخيزران رشيق يتمايل، وبضع زهور عقيقية على أشجار الرمان، وراء أجمة من الدفلى. ونحن نمشي كنتُ أنظم قصائدي.

في نهاية الحديقة، كان هناك غرفة كبيرة للترفيه، يذهب إليها النزلاء للعب الورق والشطرنج، وتقليب بعض الجرائد والكتب المسموح بها. قالت لي إحدى الممرضات، إنه في وقت سابق من «الثورة الثقافية»، كانت هذه الغرفة تستخدم ليدرس فيها النزلاء أعمال الرئيس ماو، لأن ابن أخيه، ماو يوانشين، «اكتشف» أن كتاب ماو الأحمر الصغير، وليس العلاج الطبي، هو الذي يشفي المصابين بأمراض عقلية. وأخبرتني الممرضة، أن الجلسات الدراسية، لم تدم طويلاً، لأنه «كلما فتح

مريض فمه، كنا نموت خوفاً. إذ مَنْ يعرف ماذا سيقول؟».

لم يكن المرضى عنيفين، لأن العلاج استنزف قواهم الجسدية والعقلية. مع ذلك، كان العيش بينهم مخيفاً، لا سيما في الليل، حين تكون حبوب أبي قد أدت به إلى نوم عميق، والمبنى كله يرين الهدوء. غرفتنا، شأن كل الغرف الأخرى، كانت بلا مزلاج. وطالما صحوت مرعوبة، لأجد رجلاً يقف عند سريري، رافعاً شبكة البعوض، ومحدّقاً إليّ بملامح المجنون الحادة. كنتُ أتصبب عرقاً بارداً، وأسحب اللحاف لكي أكتم صرختي: كان آخر ما أريده إيقاظ أبي، إذ النوم كان ضرورياً لعلاجه. وفي النهاية كان المريض يجر قدميه مبتعداً.

بعد شهر، عاد أبي إلى البيت. ولكنه لم يتماثل من مرضه تماماً ـ كان عقله تحت ضغط شديد، لفترة طويلة، والبيئة السياسية،ما برحت أشد قمعية من أن تدعه يستريح. استمر في أخذ المهدئات. ولم يكن هناك ما يستطيع الأطباء النفسيون عمله. كان جهازه العصبي يذوي، وكذلك جسده وعقله.

في النهاية، أعد الفريق، الذي يحقق معه، مسودة حكم عليه. وقد جاء فيها أنه «ارتكب أخطاء سياسية جسيمة» ـ الأمر الذي يبعد خطوة واحدة عن وصمة «العدو الطبقي». وبموجب الأنظمة الحزبية، قدمت مسودة الحكم إلى أبي، للتوقيع مؤكداً قبوله. عندما قرأ الحكم بكى، ولكنه وقَّع.

لم يحظ الحكم بقبول السلطات العليا. كانت تريد حكماً أقسى.

في آذار/مارس ١٩٧٥، كان زوج أختي «نظير» مقبلاً على ترقية في معمله، وجاء مسؤولو الأفراد في المعمل إلى قسم أبي، لإجراء التحريات السياسية الإلزامية. «متمرد» سابق، من مجموعة السيدة شاو، استقبل الزوار، وقال لهم إن أبي «معاد لماو». ولم يحصل «نظير» على ترقيته. لم يذكر ذلك لوالديَّ، خشية إزعاجهما، ولكن صديقاً من قسم أبي، جاء إلى البيت، وسمعه أبي يهمس بالنبأ لأمي. الألم الذي أبداه أبي، كان مريعاً حين اعتذر إلى «نظير» عن تهديد مستقبله. وبدموع اليأس، قال لأمي: «ماذا فعلتُ لكي يزرى بصهري على هذا النحو؟ ماذا عليَّ أن أفعل لإنقاذكم؟».

قلما ذاق أبي طعم النوم، في الأيام والليالي التالية، رغم تناول عدد كبير من الحبوب المهدئة. وفي عصر ٩ نيسان/أبريل، قال إنه يرغب في قيلولة.

عندما فرغت أمي من إعداد العشاء في مطبخنا الصغير، في الطابق الأرضي،

ارتأت أن تدعه نائماً فترة أطول. وفي النهاية، صعدتْ إلى غرفة النوم، ووجدتْ أنها لا تستطيع إيقاظه. أدركتْ أنه أصيب بنوبة قلبية. لم يكن لدينا تلفون، فهرعت إلى المستوصف الحكومي الإقليمي، على بعد شارع واحد، وعثرت على مديره الدكتور جَن.

كان الدكتور جَن مقتدراً جداً، وقبل «الثورة الثقافية»، كان مسؤولاً عن صحة النخبة في المجمع. وكثيراً ما كان يأتي إلى شقتنا مطمئناً إلى صحة عائلتي كلها، بحرص كبير. ولكن عندما بدأت «الثورة الثقافية»، وكنا وحدنا المغضوب عليهم، فترت مودته، بل راح ينظر إلينا بازدراء.

رأيتُ كثيرين مثل الدكتور جَن، ولم يكفّ سلوكهم قط عن ترويعي.

حين عثرتْ أمي على الدكتور جَن، كان مغتاظاً بشكل ظاهر، وقال إنه سيأتي عندما ينتهي مما كان يفعله. قالت له إن النوبة القلبية، لا يمكن أن تنتظر، ولكنه نظر إليها، وكأنه يقول إن نفاد الصبر لن يعينها. مرت ساعة قبل أن يتكرم بالمجيء إلى بيتنا، ومعه ممرضة، لكن من دون أية أجهزة للإسعافات الأولية. كان على الممرضة أن تعود لإحضارها، مشياً. قام الدكتور جن بتقليب أبي بضع مرات، ثم اكتفى بالجلوس والانتظار. مرت نصف ساعة أخرى، مات أبي خلالها.

في تلك الليلة، كنتُ في القسم الداخلي في الجامعة، أدرس في ضوء الشموع، خلال أحد التعتيمات الكثيرة. وصل بعض الأشخاص من قسم أبي، وأخذوني إلى البيت بسيارة، دون تفسير.

كان أبي ممدداً على جنبه في الفراش، وجهه هادىء، على غير المعتاد، كأنه غط في نوم هانىء. ما عاد هرماً، بل في عمر الشباب، حتى أصغر سناً من سنواته الأربع والخمسين. شعرتُ أن قلبي يتشظى، وبكيتُ دون أن أستطيع السيطرة على نفسي.

بقيت عدة أيام أبكي، بصمت. فكرتُ في حياة أبي، وتفانيه المهدور، وأحلامه المحطمة. ما كان يجب أن يموت. ولكن موته بدا محتوماً، لم يكن له مكان في صين ماو، لأنه حاول أن يكون رجلاً شريفاً. خانه ما وهبه حياته كلها، والخيانة دمرته.

طالبت أمي بمعاقبة الدكتور جَن. فلولا إهماله، لكان من الممكن أن لا يموت

أبي. رُفض طلبها، بوصفه «انفعال أرملة». فقررتُ أن لا تتابع القضية. كانت تريد التركيز على معركة أهم: الاستحصال على كلمة مقبولة في ذكرى أبي.

كانت هذه الكلمة مهمة جداً، لأن الجميع سيفهمها بوصفها تقويم الحزب لأبي. ستوضع في ملفه الشخصي، وتستمر في تقرير مستقبل أبنائه، حتى وهو ميت. كان هناك أنماط محددة وصياغات ثابتة، لمثل هذه الكلمة. وأي خروج عن التعابير المعهودة، التي تستخدم لمسؤول برِّئت ساحته، سوف يفسر بأن لدى الحزب تحفظات إزاء الميت، أو أن الحزب يدينه. أُعدت مسودة خطاب، وعُرضت على أمي. كانت المسودة مليئة بالانحرافات اللعينة. كانت أمي تعرف أنه بهذه الخطبة الوداعية، لن تتحرر عائلتي أبداً من الشبهة. في أحسن الأحوال، سوف نعيش في حالة من القلق الدائم. والأرجح أننا سنتعرض للتمييز، جيلاً بعد جيل. رفضت أمي عدة مسودات.

كانت شتى الاحتمالات ضدها، ولكنها تعرف أن هناك الكثير من التعاطف مع أبي. كان هذا هو الوقت التقليدي، لأن تلجأ العائلة الصينية إلى شيء من الابتزاز العاطفي. بعد موت أبي، أصيبت أمي بانهيار، ولكنها كافحت بتصميم لا هوادة فيه، وهي على فراش المرض. هددت بشجب السلطات خلال مراسم التأبين، إذا لم تحصل على خطبة وداعية مقبولة. استدعت أصدقاء أبي وزملاءه، وقالت لهم إنها تضع مستقبل أبنائها بأيديهم. وقد وعدوا بالكلام لمصلحة أبي. في النهاية، تراجعت السلطات. ورغم أن أحداً لم يجرؤ بعد على معاملة أبي، بوصفه من الذين رُد لهم اعتبارهم، فإن التقويم عُدِّل إلى تقويم حميد بقدر معقول.

أقيمت مراسم الجنازة، في ٢١ نيسان/أبريل. وبحسب الممارسة المتبعة، فقد نظمتها «لجنة تشييع»، من زملاء أبي السابقين، منهم أشخاص ساعدوا على اضطهاده، مثل زوو. كانت المراسم معدة إعداداً مسرحياً دقيقاً، حتى آخر التفاصيل، وحضرها زهاء ٥٠٠ شخص. كان هؤلاء موزعين بين أقسام الحكومة الإقليمية ومكاتبها، والدوائر التابعة لقسم أبي. حتى السيدة شاو، البغيضة، كانت حاضرة. وطُلب من كل منظمة، أن ترسل إكليلاً مصنوعاً من الزهور الصناعية، كان حجم كل إكليل محدداً. وعلى نحو ما، رحَّبت عائلتي بحقيقة أن المناسبة كانت رسمية. فإن المراسم الخاصة، كانت غير مسموح بها لشخص بمركز أبي، وكانت ستعد تبرُؤاً من

جانب الحزب. لم أعرف معظم الموجودين، ولكن كل أصدقائي القريبين، الذين علموا بموت أبي، حضروا، بمن فيهم «دبدوبة» ونانا، والكهربائيون من معملي القديم. وجاء أيضاً زملاء صفي، من جامعة سيشوان، بمن فيهم المسؤول الطالبي، منغ. وحضر صديقي القديم بنغ، الذي رفضتُ أن أراه بعد موت جدتي، وسرعان ما تواصلت صداقتنا، من حيث توقفت، قبل ست سنوات.

كانت الطقوس تقضي بأن يتكلم «ممثل عن عائلة المتوفى»، وقد وقع عليّ الاختيار. أعدتُ إلى الأذهان شخصية أبي ومبادئه الأخلاقية، وإيمانه بالحزب، وتفانيه المتقد من أجل الشعب. وأملت أن تعطي مأساة موته المشاركين مادة غنية للتفكير.

في النهاية، عندما مر الجميع تباعاً، مصافحين، رأيتُ الدموع على وجوه العديد من «المتمردين» السابقين. حتى السيدة شاو، بدت حزينة. كان لديهم قناع لكل مناسبة. غمغم بعض «المتمردين» لي: «إننا جميعاً نشعر بالأسف الشديد لما عاناه أبوك». ربما، ولكن ما أهمية ذلك؟ فلقد مات أبي ـ وكان لهم ضلع كبير في قتله. وتساءلتُ، هل سيفعلون الشيء نفسه لأحد آخر، في الحملة التالية.

امرأة شابة، لا أعرفها، وضعتْ رأسها على كتفي، ونشجت بمرارة. شعرتُ بورقة تُدس في يدي. قرأتها فيما بعد. وكان مكتوباً: عليها: «لقد تأثرتُ كبيراً بشخصية والدك. يجب أن نتعلم منه، ونكون ورثة جديرين بالقضية التي خلفها وراءه ـ القضية الثورية البروليتارية العظيمة». فكرتُ هل كلمتي أدت إلى هذا؟ بدا لي أن لا مفر من مصادرة الشيوعيين للمبادىء الأخلاقية والمشاعر النبيلة.

قبل أسابيع من موت أبي، كنت جالسة معه، في محطة القطارات، في تشينغدو، في انتظار وصول صديق من أصدقائه. كنا في منطقة الانتظار نصف المكشوفة نفسها، التي جلسنا فيها، أنا وأمي، قبل حوالي عقد من الزمان، عندما كانت ذاهبة إلى بكين، لتقديم مناشدة من أجله. منطقة الانتظار لم تتغير كثيراً،إلا أنها بدت أشد بؤساً، وأكثر ازدحاماً. وكان هناك أعداد أكبر من الناس، يكتظ بهم الميدان الواسع. كان البعض نياماً، والبعض جلوساً، والبعض الآخر نساء يرضعن أطفالهن، وكان عدد لا يستهان به متسولين. كان هؤلاء فلاحين من الشمال، حيث توجد مجاعة ـ نتيجة

سوء الأحوال الجوية، وفي بعض الحالات، نتيجة تخريب على أيدي حاشية زوجة ماو. جاؤوا بالقطارات، محشورين على سطوح العربات. كانت قصص كثيرة تروى عن أشخاص سقطوا، أو قُطعت رؤوسهم، لدى المرور عبر أنفاق.

في طريقنا إلى المحطة، سألتُ أبي إن كنتُ أستطيع الذهاب إلى نهر يانغ تزي، خلال العطلة الصيفية.

أعلنتُ «أن أولوية حياتي هي الاستمتاع». هز رأسه بعدم استحسان: «حين يكون المرء شاباً، ينبغي أن يجعل أولويته الدراسة والعمل».

أثرتُ الموضوع، ثانية، في منطقة الانتظار. كانت منظفة تكنس الأرض. وفي أثناء التنظيف، اعترضتْ طريقها فلاحة شمالية، تجلس على الأرض، وإلى جنبها رزمة مهلهلة، وطفلان يرتديان أسمالاً. طفل ثالث كان يرضع من ثديها، الذي عرته بلا أي حياء، وكان أسود، من القذارة. المنظفة كنست الغبار فوقهم تماماً، كأنهم غير موجودين. والمرأة الفلاحة، لم تحرك ساكناً.

التفتَ أبي إليَّ، وقال: «مع أناس يعيشون هكذا، في كل مكان من حولكِ، كيف تستطيعين الاستمتاع؟». كنتُ صامتة. لم أقل «ولكن ماذا عساي أنا، مجرد فرد، أن أفعل؟ هل يجب أن أعيش في بؤس، من أجل لا شيء؟». كان من شأن ذلك أن يبدو أنانية صادمة. لقد تربيت على التقليد القائل بـ «اعتبار مصلحة البلد كله واجبي» (يي تيان ـ شيا وي جي ـ رن).

الآن، في الخواء الذي شعرتُ به بعد موت أبي، بدأتُ التشكيك في كل هذه المفاهيم. فأنا لا أريد الاضطلاع برسالة عظيمة، ولا «قضايا»، مجرد حياة ـ حياة هادئة وربما حياة تافهة ـ خاصة بي. قلت لامي إنه حين تأتي العطلة الصيفية، أريد السفر عبر نهر يانغ تزي.

حضَّتني أمي على الذهاب. وكذلك أختي، التي كانت و«نظير»، يعيشان مع عائلتي، منذ عودتها إلى تشينغدو. معمل «نظير»، الذي كان ينبغي أن يكون المسؤول عن تهيئة مسكن له، في الأحوال العادية، لم يبن أية شقق، جديدة، خلال «الثورة الثقافية». وحينذاك، كان الكثير من العاملين، من أمثال «نظير»، عزاباً، ويعيشون في مهاجع، كل ثمانية منهم في غرفة واحدة. الآن، بعد عشر سنوات، كان معظمهم

متزوجين، ولديهم أطفال. وليس هناك مكان يعيشون فيه، فكان عليهم البقاء مع آبائهم أو أحمائهم، وكان من الشائع، أن تعيش ثلاثة أجيال في غرفة واحدة.

لم تُعط أختي عملاً، لأن زواجها قبل أن يكون لديها عمل في المدينة، كان يستبعدها عن التشغيل. الآن، بفضل نظام يقول إنه حين يموت الموظف الحكومي، يستطيع واحد من ذريته، أن يأخذ مكانه، عُينت شقيقتي موظفة في إدارة كلية الطب الصيني، في تشينغدو.

في تموز/ يوليو، انطلقتُ في رحلتي مع جن ـ منغ، الذي يدرس في ووهان، وهي مدينة كبيرة على نهر يانغ تزي. كانت محطتنا الأولى جبل لوشان القريب، الذي فيه نباتات رائعة، ويسوده مناخ بديع. كانت المؤتمرات الحزبية الهامة تعقد هناك، بما فيها مؤتمر ١٩٥٩، الذي أدين فيه المارشال بينغ ديهواي، وخُصصت المنطقة، بوصفها مكاناً يحظى بالاهتمام، «لتلقي تربية ثورية». عندما اقترحتُ الذهاب إلى هناك لإلقاء نظرة، قال جن ـ منغ ساخراً: «ألا تريدين استراحة من «التثقيف الثوري»؟».

التقطنا كثيراً من الصور على الجبل، واستهلكنا فيلماً كاملاً، فيه ٣٦ صورة، باستثناء لقطة واحدة. في طريقنا نزولاً، مررنا بفيلا من طابقين، مخفية في أجمة من أشجار البارَسول الصينية والمغْنولية والصنوبر. كانت تبدو كأنها كومة عشوائية من الحجارة على خلفية الصخور. وجدتُها مكاناً بديعاً، على غير المعتاد، والتقطتُ لها صورتي الأخيرة. فجأة، ظهر رجل وطلب مني بصوت خفيض، ولكنه آمر، أن أسلمه آلة التصوير. كان يرتدي ملابس مدنية، ولكني لاحظت أنه يحمل مسدساً. فتحتُ آلة التصوير وأحرقت الفيلم كله بتعريضه للضوء. ثم اختفى كأن الأرض ابتلعته. بعض السياح الواقفين إلى جانبي، تهامسوا أن هذه إحدى فيلات ماو الصيفية. شعرتُ بموجة نفور أخرى نحو ماو، لا بسبب امتيازه، وإنما بسبب النفاق في السماح لنفسه بهذا الترف، في وقت يقول فيه لشعبه، إن الراحة مضرّة به. بعد أن اجتزنا مسافة أمينة، بعيداً عن أسماع الحارس غير المرئي، وكنت أنا أندب ضياع صوري الست وثلاثين، ضحك جن ـ منغ قائلاً: «أوَ لا ترين إلى أين تؤدي بك الحملقة إلى الأماكن المقدسة!».

غادرنا لوشان بالحافلة. ومثل كل حافلة في الصين، كانت مزدحمة، وكان علينا أن نمط رقبتينا باستماتة، محاولين التنفس. عملياً، لم تُصنع حافلات جديدة، منذ

بداية «الثورة الثقافية»، وخلال هذا الوقت، ازداد سكان المدن عشرات الملايين. بعد دقائق قليلة، توقفنا فجأة. فُتح الباب الأمامي، عنوة، وحَشر نفسه رجل سلطوي المظهر، بملابس مدنية. صرخ: «انحنوا. انحنوا. إن بعض الضيوف الأميركيين قادمون على هذا الطريق. ومما يسيء إلى سمعة وطننا الأم، أن يروا كل هذه الرؤوس!». حاولنا الانحناء، ولكن الحافلة كانت مكتظة جداً. صرخ الرجل: «من واجب الجميع أن يصونوا شرف وطننا الأم. يجب أن نقدم مظهراً منتظماً ولائقاً. انحنوا. اثنوا ركبكم».

فجأة، سمعتُ صوت جن ـ منغ المدوي: «ألا يعلمنا الرئيس ماو أن لا نركع أبداً للإمبرياليين الأميركيين؟». كان هذا بحثاً عن المتاعب. لم تكن الطرفة موضع تقدير. رمقنا الرجل بنظرة صارمة، ولكنه لم يقل شيئاً. ألقى نظرة سريعة أخرى على الحافلة، وابتعد مسرعاً. كان لا يريد أن يشهد «الضيوف الأميركيون» مشاجرة. فإن أي دليل على الاختلاف، يتعين إخفاؤه عن أنظار الأجانب.

حيثما ذهبنا مع مجرى نهر يانغ تزي، كنا نرى آثار «الثورة الثقافية»: معابد مدمرة، وتماثيل مطوح بها، ومدن قديمة محطمة. لم تبق دلائل تذكر على حضارة الصين القديمة. ولكن الخسارة كانت أعمق من ذلك. فإن الصين لم تدمر أغلبية أشيائها الجميلة فحسب، بل فقدت قدرتها على تقديرها أيضاً، وكانت عاجزة عن صنع أشياء جديدة. وباستثناء الطبيعة، التي لحقت بها أضرار كثيرة، ولا تزال رائعة، فقد أصبحت الصين بلداً بشعاً.

في نهاية العطلة، استأجرت مركباً بخارياً، بمفردي، من ووهان، عائدة، ضد التيار، عبر مداخل نهر يانغ تزي. استغرقتْ الرحلة ثلاثة أيام. وذات صباح، إذ كنت مستندة إلى جانب المركب، هبت نسمة ريح، فتطاير شعري، وسقط دبوسه في النهر. مسافر، كنتُ أتجاذب أطراف الحديث معه، أشار إلى رافد يلتقي بنهر يانغ تزي، حيث كنا نمر، وروى لي قصة.

في عام ٣٣ قبل الميلاد، قرر أمبراطور الصين، في محاولة لتهدئة جيران البلاد الأقوياء في الشمال، الهان، أن يرسل امرأة، إلى الملك البربري. اختار واحدة من صور ٣٠٠٠ جارية في بلاطه، كثيرات منهن، لم يرهن قط. ولأنها كانت لبربري، فقد اختار أقبح صورة، ولكنه اكتشف، يوم رحيلها، أن المرأة، في الحقيقة، رائعة

الجمال. كانت صورتها بشعة، لأنها رفضت أن ترشو رسام البلاط. أمر الأمبراطور بإعدام الفنان، فيما كانت المرأة تنتحب عند النهر، لاضطرارها إلى مغادرة وطنها، والعيش بين البرابرة. حملت الريح دبوس شعرها وألقته في النهر، كأنما تريد إبقاء شيء منها في وطنها. فيما بعد، قتلت المرأة نفسها.

تذهب الأسطورة إلى أنه عندما سقط دبوس شعرها، تحول النهر ماء صافياً، كالبلور، وأصبح يعرف باسم «نهر البلور». وقال لي رفيقي في السفر، إن هذا النهر هو الرافد الذي نمر به. وبابتسامة أعلن: «آه، فأل سيء! يمكن أن ينتهي بك المطاف إلى أرض أجنبية، وأن تتزوجي بربرياً». ابتسمتُ ابتسامة خافتة للهاجس الصيني التقليدي، حول كون الأعراق الأخرى «برابرة»، وتساءلتُ ألم يكن ممكناً أن يكون زواج هذه السيدة بملك بربري أحسن حالاً؟ إنها ستكون، في الأقل، على احتكاك يومي بأرض العشب والخيل والطبيعة. فمع الأمبراطور الصيني، كانت تعيش في سجن فاخر، من دون شجرة واحدة قد تمكِّن الجواري من تسلق السور والفرار. فكرتُ كم نحن نشبه الضفادع في قعر البئر، في الأسطورة الصينية، حيث تدعي أن حجم السماء، لا يزيد على الفتحة الدائرية في أعلى بئرها. شعرتُ برغبة حادة وملحة في رؤية العالم.

في ذلك الوقت، لم أكن قد تحدّثت قط مع أجنبي، رغم أنني كنت في الثالثة والعشرين، وطالبة تدرس اللغة الإنكليزية، منذ سنتين تقريباً. الأجانب الوحيدون، الذين وقع نظري عليهم، كانوا في بكين، عام ١٩٧٢. فإن أجنبياً، واحداً من «أصدقاء الصين» القلائل، جاء، ذات مرة، إلى جامعتي. كان يوماً صيفياً قائظاً، وكنتُ في قيلولة، عندما اندفع طالب من زملائنا إلى غرفتنا، وأيقظنا جميعاً بصراخه: «أجنبي هنا! لنذهب وننظر إلى الأجنبي». بعض الآخرين ذهبوا، ولكني قررتُ البقاء، والاستمرار في إغفاءتي. وجدتُ أن الفكرة كلها مثيرة للسخرية. وعلى أية حال، ما جدوى رؤية الأجنبي، إذا كنا ممنوعين من فتح أفواهنا معه، رغم أنه من «أصدقاء الصين»؟

لم أسمع قط أجنبياً يتكلم، إلا على أسطوانة لنغوافون واحدة. عندما بدأتُ تعلم اللغة، استعرتُ الأسطوانة والحاكي، واستمعت إليها في البيت. بعض الجيران، تجمعوا في الفناء، وقالوا، وعيونهم جاحظة، ورؤوسهم تهتز: «يا لها من أصوات غريبة!». طلبوا مني أن أعيد الأسطوانة، المرة تلو الأخرى.

كان التكلم مع أجنبي حلم كل طالب، وأخيراً سنحت فرصتي. حين عدتُ من رحلتي عبر نهر يانغ تزي، علمتُ أن طلاب سنتي، سيرُسلون في تشرين الأول/ أكتوبر، إلى ميناء في الجنوب، اسمه جانجيانغ، لممارسة لغتنا الإنكليزية مع بحارة أجانب. شعرت بالإثارة والشوق.

تبعد جانجيانغ حوالي ٧٥٠ ميلاً عن تشينغدو، وهي رحلة تستغرق يومين وليلتين، بالقطار. وهي أبعد ميناء كبير، جنوب الصين، وقريبة جداً من الحدود الفيتنامية. كان الإحساس أنها بلد أجنبي، ذات مبانٍ من الطراز الاستعماري، في مطلع القرن، وأقواس تعكس الطراز الرومنسي، ونوافذ بورود، وشرفات كبيرة بمظلات ملونة. السكان المحليون يتكلمون الكانتونية التي تكاد تكون لغة أجنبية. وكان الهواء يعبق برائحة البحر غير المألوفة والنباتات المدارية الغريبة. كانت في مجملها عالماً آخر.

ولكن نشوتي بالوجود هناك، كانت دائماً تُثبط بالإحباط. فقد رافقنا مشرف سياسي وثلاثة محاضرين، قرروا عدم السماح لنا بالاقتراب من البحر، رغم أننا كنا نقيم على بعد ميل واحد منه. المرفأ هو نفسه، كان مغلقاً في وجه الغرباء، خوفاً من «التخريب» أو الهرب.

قيل لنا إن طالباً من غوانغجو، تمكن، ذات يوم، من الاختباء في مركب شحن بخاري، غير مدرك أن العنبر سيكون مقفلاً طول أسابيع، فهلك خلالها. كان علينا أن نقصر تحركاتنا على منطقة محددة بوضوح، من بضع عمارات حول محل إقامتنا.

كانت أنظمة كهذه جزءاً من حياتنا اليومية، ولكنها طالما أثارت حنقي. ذات يوم، تملكتني رغبة، لا تقاوم، في الخروج. تظاهرت بالمرض، وحصلت على إذن بالذهاب إلى مستشفى، في وسط المدينة. تجولتُ في الشوارع، محاولة باستماتة أن ألمح البحر، بلا جدوى. السكان المحليون، لم يكونوا مستعدين للمساعدة: كانوا لا يحبون الناطقين بغير الكانتونية، ورفضوا أن يفهموني. بقينا في الميناء ثلاثة أسابيع، ومرة واحدة فقط، سمح لنا، كمعاملة خاصة، بالذهاب إلى جزيرة، لرؤية المحيط.

بما أن الغرض من وجودنا هناك، كان التحدث مع بحارة، فقد نُظِّمنا في مجموعات صغيرة لتناوب العمل في المكانين، اللذين كان مسموحاً لنا بارتيادهما:

«مخزن الصداقة»، الذي يبيع بضائع بالعملة الصعبة، و«نادي البحارة»، الذي فيه بار ومطعم وغرفة بلياردو، وغرفة بنغ ـ بونغ.

كانت هناك قواعد صارمة، تحدد كيف نستطيع أن نتحدث مع البحارة. لم يكن مسموحاً لنا بالتكلم معهم على انفراد، إلا خلال المبادلات القصيرة، من وراء المكتب، في «مخزن الصداقة». وإذا سُئلنا عن أسمائنا وعناويننا، فعلينا ألا نعطي أسماءنا وعناويننا الحقيقية، بأي حال من الأحوال. هيَّأنا كلنا أسماء وهمية وعناوين لا وجود لها. وبعد كل محادثة، كان علينا كتابة تقرير مفصل حول ما قيل، وهي ممارسة مألوفة لكل مَنْ يكون على اتصال بأجانب. جرى تنبيهنا، المرة تلو الأخرى، إلى أهمية الالتزام بـ «الانضباط في الاتصالات بالأجانب» (شي وي جي ـ لو)، وإلا فإننا، كما قيل لنا، لن نقع في متاعب ذات خطر، فحسب، بل إن الطلاب الآخرين سيحرمون من متل هذه الرحلة.

في الواقع، كانت فرصنا لممارسة الإنكليزية قليلة ومتباعدة. فالسفن كانت لا تأتي كل يوم، والبحارة لم يكونوا كلهم ينزلون إلى الشاطىء. ومعظم البحارة، لم يكونوا من الناطقين الأصليين بالإنكليزية: كان هناك يونانيون ويابانيون ويوغسلاف وأفارقة والكثير من الفيليبينيين، الذين كان جلهم لا يتكلمون إلا القليل من الإنكليزية، رغم أنه كان هناك قبطان اسكتلندي وزوجته، فضلاً عن بعض الإسكندنافيين، الذين كانت إنكليزيتهم ممتازة.

فيما كنا ننتظر بحارتنا الأعزاء، في النادي، كنتُ، في أحيان كثيرة، أجلس في الشرفة، في المؤخرة، أقرأ وأنظر إلى بساتين أشجار جوز الهند والنخيل، التي كانت تعكس ظلالها على السماء الزرقاء الدكناء. وعندما يدخل البحارة بخطىً وئيدة، كنا نثب إليهم، بل نخطفهم، محاولين، في الوقت نفسه، أن نبدو وقورين، قدر الإمكان، هكذا كنا تواقين إلى جرهم إلى الحديث. كثيراً ما كنتُ أرى نظرة حائرة في عيونهم، عندما نرفض عروضهم بتناول كأس. كنا ممنوعين من قبول المشروبات منهم. في الحقيقة، لم يكن مسموحاً لنا بالشرب على الإطلاق: كانت القناني والعلب الفاخرة، المعروضة، مخصصة للأجانب حصراً. من جهتنا، كنا مجرد أربعة أو خمسة شبان وشابات، يبدون جديين، على نحو مخيف. لم تكن لديَّ فكرة عن غرابة ذلك لدى البحارة، ومدى مفارقته لما ينتظرونه من حياة الميناء.

حين وصل أول البحارة السود، نبه معلمونا، برقة، الطالبات إلى أن يتحوطن: «إنهم أقل تطوراً، ولم يتعلموا السيطرة على غرائزهم، وبالتالي فهم ينزعون إلى إبداء مشاعرهم أنىّ يحلو لهم: الملامسة والعناق، وحتى التقبيل». وأمام غرفة مليئة بالوجوه المرتاعة والمشمئزة، قال لنا معلمونا إن طالبة، في المجموعة السابقة، انفجرت صارخة، إبان الحديث، عندما حاول بحار من غامبيا احتضانها، ظنّت أنها ستُغتَصب (وسط الجمهور) وكانت خائفة، حتى إنها لم تتمكن من حمل نفسها على التحدث مع أجنبي آخر، خلال ما تبقى من إقامتها.

اضطلع الطلاب الذكور، وخاصة المسؤولون الطالبيون، بالمسؤولية عن حمايتنا، نحن النساء. وكلما بدأ بحار أسود بالتحدث مع واحدة منا، كانوا يتبادلون النظرات فيما بينهم، ويهرعون إلى إنقاذنا، بمشاركتهم في الحديث، ووضع أنفسهم بيننا وبين البحارة. وما كان للبحارة السود أن يلاحظوا تحوطاتهم، لا سيما أن الطلاب كانوا يبدأون، في الحال، بالحديث عن «الصداقة بين الصين وشعوب آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية». كانوا يرددون، مقتبسين من كتابنا المدرسي «إن الصين بلد نامٍ، وستقف، إلى الأبد، مع الجماهير المضطهدَة والمستغَلة في العالم الثالث، في نضالها ضد الإمبرياليين الأميركيين والتحريفيين السوفيات». كان السود يبدون تائهين، ولكنهم متأثرون. أحياناً، كانوا يعانقون الرجال الصينيين، الذين يردون باحتضانهم.

كان النظام يزمِّر كثيراً بكون الصين أحد البلدان النامية، وجزءاً من العالم الثالث، بحسب «نظرية ماو المجيدة». لكن ماو جعل ذلك يبدو كأنه ليس إقراراً بحقيقة واقعة، بل إن الصين تنزل إلى مستوى هذه البلدان تواضعاً. الطريقة التي كان يقول بها ذلك، لم تترك شكاً في أننا انضممنا إلى صفوف العالم الثالث لقيادته وحمايته، وأن العالم يعتبر مكاننا المشروع أعظم، على نحو ما.

كنتُ أشعر بحنق شديد من هذا الادعاء بالتفوق. ما الذي نتفوق به؟ سكاننا؟ حجمنا؟ في جانجيانغ، رأيت أن بحارة العالم الثالث، بساعاتهم البراقة، وكاميراتهم ومشروباتهم ـ التي لم نر أياً منها من قبل ـ كانوا أحسن حالاً، بما لا يقاس، وأكثر حرية، بما لا يقابل، من كل الصينيين، باستثناء قلة ضئيلة.

كنتُ شديدة الفضول حول الأجانب، وكنتُ تواقة إلى اكتشاف ما هم عليه في الحقيقة. كم يشبهون الصينيين؟ وكم يختلفون عنهم؟ ولكن كان عليَّ أن أحاول إخفاء

فضولي، الذي سيُعد إراقة لماء الوجه، إلى جانب كونه خطراً، من الناحية السياسية. في عهد ماو، كما في أيام المملكة الوسطى، كان الصينيون يعلقون أهمية كبيرة على التصرف بـ «إباء» أمام الأجانب، الأمر الذي كان يراد به الظهور بمظهر البعيد أو الغامض. ومن الأشكال الشائعة التي ارتداها ذلك، إبداء عدم اهتمام بالعالم الخارجي، والكثير من زملائي الطلاب، لم يطرحوا أي أسئلة.

ربما بسبب فضولي، الذي لم أتمكن من السيطرة عليه، من جهة، وبسبب إنكليزيتي الأفضل، من الجهة الأخرى، كان البحارة كلهم يبدون في شوق إلى التحدث معي، رغم أنني كنت أحرص على التكلم قليلاً، قدر الإمكان، لتتاح لزملائي الطلاب فرصة أكبر للمحادثة. بعض البحارة، كانوا يرفضون حتى التكلم مع الطلاب الآخرين. كنتُ أيضاً محبوبة جداً من مدير «نادي البحارة»، وهو رجل ضخم، قوي البنية، اسمه لونغ. أثار ذلك غيظ منغ وبعض المسؤولين الآخرين. وأخذتْ اجتماعاتنا السياسية تتضمن، الآن، فحص طريقتنا في الالتزام بـ «الانضباط في الاتصالات بالأجانب». قيل إني خرقتُ هذه الضوابط، لأن عينيَّ تبدوان «راغبتين جداً»، وأني «أبتسم أكثر من اللازم»، وعندما أضحك، أفتح فمي «واسعاً أكثر مما ينبغي». كما تعرضتُ للنقد لاستخدامي إشارات اليد: كان علينا، نحن النساء، أن نبقي أيدينا تحت الطاولة، وأن نجلس بلا حراك.

كان قسم كبير من المجتمع الصيني، لا يزال ينتظر من نسائه أن يتصرفن تصرفاً هادئاً، يخفضن رموشهن، استجابة لنظرات الرجل، ويقصرن ابتسامتهن على تقوس خفيف في الشفتين، لا يكشف عن أسنانهن. وينبغي أن لا يستخدمن الإشارات باليد على الإطلاق. وإذا خرقن أياً من قواعد السلوك هذه، يُعتبرن «غَنِجات». وفي ظل ماو كان الغنج مع الأجانب جريمة نكراء.

استشطتُ غضباً على الغمز من قناتي. فوالداي الشيوعيان، هما اللذان ربياني تربية ليبرالية. وكانا ينظران إلى القيود المفروضة على المرأة على أنها ما ينبغي أن تلغيه الثورة الشيوعية. ولكن اضطهاد المرأة، يجري، الآن، متساوقاً مع القمع السياسي، وكان يخدم مشاعر الحقد والحسد التافه.

ذات يوم، وصلت سفينة باكستانية. وعلى متنها الملحق العسكري الباكستاني في بكين. أمَرَنا لونغ أن ننظف النادي، بمناسبة الربيع، تنظيفاً شاملاً، وأقام مأدبة، طلب

مني أن أكون فيها مترجمته، الأمر الذي أثار غيرة شديدة لدى بعض الطلاب الآخرين. بعد أيام قليلة، أقام الباكستانيون مأدبة عشاء توديعية، على متن سفينتهم، ووجهت إليّ الدعوة. وأعدوا لي طبقاً سيشوانياً خاصاً. كان لونغ مسروراً بالدعوة، وأنا أيضاً.

ولكن رغم المناشدة الشخصية من القبطان، إزاء تهديد لونغ بمنع رحلات الطلاب في المستقبل، فقد قال معلموي إنه لا يسمح لأحد أن يكون على متن سفينة أجنبية. سألوا «مَنْ يتحمل المسؤولية، إذا رحل أحد مبحراً على ظهر السفينة؟». قيل لي أن أقول إني مشغولة ذلك المساء. وبذلك، كنت أرفض الفرصة الوحيدة، التي ستتاح لي للخروج في رحلة إلى البحر، وتناول وجبة أجنبية، وإجراء محادثة حقيقية بالإنكليزية، واكتساب خبرة بالعالم الخارجي.

مع ذلك، لم أتمكن من إسكات التهامس. وتساءل منغ، بلا مواربة: «لماذا يحبها الأجانب إلى هذا الحد؟»، كأن هناك شيئاً مريباً في ذلك. جاء في التقرير، الذي قُدِّم عني، في نهاية الرحلة، أن سلوكي كان «مشبوهاً، من الناحية السياسية».

في هذا الميناء البديع، بشمسه المشرقة، ونسائم بحره، وأشجار جوز الهند فيه، أحيلت فرحة كل مناسبة إلى تعاسة. كان لديَّ صديق طيب في المجموعة، حاول التهوين عليَّ، بوضع شقائي في إطاره الصحيح. بالطبع، ما واجهته لم يكن أكثر من منغّصات صغيرة، مقابلة بما عاناه ضحايا الحسد، في الأيام الأولى من «الثورة الثقافية». ولكن التفكير قي أن هذا ما ستكون عليه حياتي في أحسن الأحوال، جعلني أشد اكتئاباً.

كان هذا الصديق ابن زميل من زملاء أبي. الطلاب الآخرون من المدن، كانوا أيضاً ودودين معي. ومن السهل تمييزهم عن الطلاب ذوي الأصول الفلاحية، الذين كان معظم المسؤولين الطالبيين منهم. وكان طلاب المدينة أكثر أماناً وثقة لدى مواجهتهم عالم الميناء الجديد، وبالتالي لم يشعروا بالهواجس نفسها، وبالنزوع إلى العدوانية معي. كانت جانجيانغ صدمة ثقافية قوية للفلاحين السابقين، وكان شعورهم بالدونية، في جوهر نزوعهم إلى جعل حياة الآخرين جحيماً.

بعد ثلاثة أسابيع، كنتُ أشعر بالأسف والارتياح، على السواء، لتوديع جانجيانغ. وفي طريق العودة إلى تشينغدو، ذهبنا، أنا وبعض الأصدقاء، إلى غويلين

الأسطورية، حيث الجبال والمياه تبدو كأنها انبثقت من لوحة صينينة كلاسيكية. كان هناك سياح أجانب، ورأينا زوجين، مع طفل بين ذراعي الرجل. ابتسمنا لبعضنا بعضاً، وقلنا: «صباح الخير» و«وداعاً». وما إن اختفوا، حتى أوقَفَنا شرطي بملابس مدنية، للاستجواب.

عدتُ إلى تشينغدو في كانون الأول/ديسمبر، لأجد المدينة تغلي بالمشاعر المعادية لزوجة ماو والرجال الثلاثة من شنغهاي، جانغ تشونتشياو، وياو وينيوان، ووانغ هونغوين، الذين تحالفوا للدفاع عن حصن «الثورة الثقافية». أصبحوا قريبين فيما بينهم، حتى إن ماو حذرهم من تشكيل «عصابة الأربعة»، في تموز/يوليو ١٩٧٤، رغم أننا لم نعرف ذلك في حينه. فحينذاك، بدأ ماو، الذي كان في سن الحادية والثمانين، يمحضهم دعمه التام، بعد أن ضاق ذرعاً بالمقاربة البراغماتية لشو إن لاي، ثم دينغ شياو بنغ، الذي تولى تصريف الشؤون اليومية للحكم، منذ كانون الثاني/يناير ١٩٧٥، وبعد دخول شو المستشفى مصاباً بالسرطان. دفعت حملات «العصابة» الصغرى السكان إلى حدود صبرهم، وشرع الناس يروجون شائعات في مجالسهم الخاصة، بوصفها تقريباً المنفذ الوحيد لإحباطهم الشديد.

كانت تكهنات مشحونة بقوة، تستهدف على الأخص زوجة ماو. ولأنها كانت تُشاهد، في أحيان كثيرة، مع ممثل أوبرا معين، ومع لاعب بنغ ـ بونغ، ومع راقص باليه، كانت هي التي رقَّت كلاً منهم إلى قيادة مجاله، ولأنه اتفق أنهم جميعاً شبان وسيمون، فقد أخذ الناس يقولون، إنها اعتمدتهم بمثابة «جوارِ ذكور»، الأمر الذي قالت، بصراحة واستعراضية، إنه ما ينبغي أن تفعله النساء. في الحقيقة، عانى الصينيون قمعاً جنسياً شديداً، في ظل زوجة ماو، خلال «الثورة الثقافية». إذ إنه بسيطرتها على الإعلام والفنون، طول عشر سنوات تقريباً، مُحيت كل إشارة إلى الحب من أسماع السكان وأنظارهم. وعندما جاءت فرقة رقص وغناء، من الجيش الفيتنامي، إلى الصين، قال عريف الحفلة للقلة، الذين كانوا محظوظين جداً برؤية الفرقة، إن الأغنية، التي تذكر الحب بين أغاني الفرقة، هي «عن المحبة الرفاقية بين رفيقين». وفي الأفلام الأوروبية القليلة المسموح بها ـ بالدرجة الرئيسية من ألبانيا ورومانيا ـ كانت تُحذف كل المشاهد التي يظهر فيها رجال ونساء يقفون متلاصقين، ناهيكم من تقبيل بعضهم بعضاً.

وفي الحافلات المزدحمة، والقطارات والمتاجر، كثيراً ما كنتُ أسمع نساء يكلْن الشتائم للرجال، ويصفعن وجوههم. أحياناً، كان الرجل يصرخ نافياً، ويبدأ التراشق بالإهانات. وقد جرت عدة محاولات للتحرش بي. وعندما حدث ذلك، كنت أنسل مبتعدة عن الأيدي أو الركب المرتجفة. وأشفق على هؤلاء الرجال. فقد كانوا يعيشون في عالم، لا يمكن أن يكون فيه متنفس لطاقتهم الجنسية، إلا إذا كانوا محظوظين بالقدرة على بناء حياة زوجية سعيدة، الأمر الذي كانت فرصته ضئيلة. وضُبط نائب السكرتير الحزبي، في جامعتي، وهو رجل كبير السن، في متجر ضخم، والمني ينز من سرواله. فقد ضغطه الزحام على امرأة كانت أمامه. اقتيد إلى قسم الشرطة، ثم طرد من الحزب. كانت أيام المرأة عصيبة بالقدر نفسه. وبين الحين والآخر، كان بعض النساء يتعرضن للإدانة، بوصفهن «أحذية بالية»، بسبب إقامة علاقات خارج إطار الزوجية.

هذه المعايير، لم تكن تُطبق على الحكام. فقد أحاط ماو نفسه، في الثمانينات من عمره، بشابات مليحات. ورغم أن القصص عنه كانت تحكى همساً وبحذر، فإن القصص عن زوجته وأعوانها، «عصابة الأربعة»، كانت تروى علانية، وبلا وجل. في نهاية ١٩٧٥، كانت الصين تغلي بالشائعات اللاذعة. وفي الحملة الصغرى، المسماة «وطننا الاشتراكي جنة»، كان كثيرون يلمحون إلى السؤال الذي طرحته على نفسي، أول مرة، قبل ثماني سنوات: «إذا كانت هذه هي الجنة، فما هو الجحيم؟».

في ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٧٦، مات رئيس الوزراء شو إن لاي. بالنسبة إليّ وإلى كثيرين من الصينيين، كان شو يمثل حكماً عاقلاً، وليبرالياً نسبياً، يؤمن بدفع عجلة البلاد. وفي سنوات «الثورة الثقافية» السوداء، كان شو بارقة الأمل عندنا. لقد حزنتُ حزناً شديداً لموته، وكذلك حزن كل أصدقائي. وأصبح نعينا له، وكرهنا للثورة الثقافية وماو وأعوانه، متداخلَين على نحو لا فكاك منه.

ولكن شو تعاون مع ماو في «الثورة الثقافية». فهو الذي أعلن إدانة ليو شاوتشي، بوصفه «جاسوساً أميركياً». وكان يجتمع، كل يوم تقريباً، مع «الحرس الأحمر» و«المتمردين»، ويُصدر إليهم الأوامر. وعندما حاولت أكثرية في المكتب السياسي، كما حاول مارشالات البلاد وضع حد للثورة الثقافية، في شباط/فبراير ١٩٦٧، لم يمحضهم شو دعمه. كان خادم ماو الأمين. ولكنه ربما تصرف على هذا النحو،

للحيلولة دون وقوع كارثة أكثر فظاعة، مثل اندلاع حرب أهلية، كان من الممكن أن يشعلها تحدي ماو تحدياً سافراً. وبتصريفه شؤون الصين، مكن ماو من أن يعيث فيها خراباً، ولكن لعله أيضاً أنقذ البلاد من الانهيار التام. فقد أحاط بحمايته عدداً من الناس، بالحدود التي قدَّر أنها مأمونة، بمن فيهم أبي، لبعض الوقت، فضلاً عن حماية بعض أهم معالم الصين الثقافية. بدا أنه وقع في مأزق أخلاقي، لا مخرج منه، رغم أن ذلك لا يستبعد الاحتمال المتمثل في أن البقاء كان أولويته. فلا بد أنه كان يعرف أنه سيسحق، إذا حاول الوقوف في وجه ماو.

أصبح الحرم الجامعي بحراً زاخراً بالأكاليل الورقية البيضاء، والملصقات التأبينية والمقاطع الشعرية الثنائية. وكان الجميع يضعون عصابة سوداء على أذرعهم، وزهرة ورقية بيضاء على صدورهم، وتعابير الأسى على وجوههم. كان النعي عفوياً، في جزء منه، ومنظماً في جزئه الآخر. فلأنه كان معروفاً للجميع، أن شو، وقت موته، كان يتعرض للهجوم من «عصابة الأربعة»، ولأن «العصابة» أمرت بالانتقاص من شأن نعيه، كان إبداء الحزن على موته، طريقة لكي يعبر الرأي العام والسلطات المحلية، على السواء، عن تنكرهم للعصابة. ولكن كثيرين نعوا شو، لأسباب مختلفة جداً. فمنغ ومسؤولون طالبيون آخرون، من دورتي، امتدحوا مساهمة شو المزعومة في «قمع الانتفاضة المجرية، المعادية للثورة، في عام ١٩٥٦» ودوره في إرساء سمعة ماو، بوصفه زعيماً عالمياً وولائه المطلق لماو.

خارج الجامعة، كان هناك شرارات أكثر تشجيعاً من المعارضة. ففي شوارع تشينغدو، ظهرت كتابات على حواشي الملصقات الجدارية ـ وكانت حشود كبيرة تتجمع بأعناق مشرئبة لقراءة الكتابة الناعمة، بخط اليد. كان أحد الملصقات يقول:

السماء معتمة الآن،

لقد أفل نجم عظيم.

وكُتبت على الهامش الكلمات: «كيف يمكن للسماء أن تكون معتمة: ماذا عن «الشمس الحمراء، الحمراء»؟» (المقصود بها ماو). ظهرت كتابة أخرى على شعار جداري يقول: «إقلوا على نار حامية مضطهِدي رئيس الوزراء شو». وكانت الكتابة على الشعار تقول: «إن حصتك التموينية الشهرية، من زيت الطهي، ليانغان اثنان فقط (أربعة

أونسات). فماذا تستخدم لقلبي هؤلاء المضطهِدين؟». أول مرة، منذ عشر سنوات، كنتُ أرى التهكم والفكاهة، يعبر عنهما علناً، الأمر الذي رفع معنوياتي عالياً.

عيَّن ماو رجلاً نكرة، عديم الكفاءة، اسمه هوا غووفينغ، لخلافة شو، وشن حملة «لإدانة دينغ، والتصدي لعودة اليمين». ونشرت «عصابة الأربعة» خطابات دينغ شياو بنغ أهدافاً للتنديد. ففي خطاب ألقاه دينغ، في عام ١٩٧٥، اعترف أن الفلاحين في ينان أسوأ حالاً مما كانوا عليه قبل وصول الشيوعيين، أول مرة، إلى هناك، بعد «المسيرة الكبرى»، قبل أربعين عاماً. وفي خطاب آخر، قال إن المسؤول الحزبي، ينبغي أن يقول للمهنيين: «أنا أتبع، وأنتم تقودون». وفي ثالث، قدم الخطوط العريضة لمشاريعه من أجل تحسين مستوى المعيشة، والسماح بحرية أوسع، وإنهاء الاضطهاد السياسي. وأدت مقابلة هذه الوثائق بأعمال «عصابة الأربعة» إلى جعل دينغ بطلاً شعبياً، وأوصلت مقت الناس للعصابة إلى درجة الغليان. وفكرتُ ساخرة: يبدو أنهم ينظرون إلى السكان الصينيين بازدراء، حتى إنهم يفترضون أننا سنكره دينغ، بدلاً من أن نعجب به، بعد قراءة هذه الخطابات، والأكثر من ذلك، أننا سنحبهم!

في الجامعة، صدرت إلينا أوامر بشجب دينغ في اجتماعات جماهيرية، لا نهاية لها. ولكن الأغلبية أبدوا مقاومة سلبية، وكانوا يتجولون حول القاعة، أو يتجاذبون أطراف الحديث، أو يمارسون الحياكة أو القراءة أو حتى النوم، خلال هذه المسرحيات الطقوسية. وكان الخطباء يقرأون كلماتهم المعَدَّة بأصوات ضعيفة، خالية من التعبير، وتكاد تكون غير مسموعة.

لأن دينغ كان من سيشوان، فقد سَرَتْ شائعات كثيرة عن إرساله عائداً إلى تشينغدو، لتكون منفاه. وفي أحيان كثيرة، كنتُ أرى حشوداً تصطف على جوانب الشوارع، لأنهم سمعوا أنه يوشك أن يمر بها. وفي بعض الأحيان، كانت هذه الجموع تعد بعشرات الألوف.

في الوقت نفسه، ازداد أكثر فأكثر حقد العامة على «عصابة الأربعة»، المعروفة أيضاً باسم «العصابة القادمة من شنغهاي». وفجأة، توقف مبيع الدراجات الهوائية وغيرها من السلع المنتجة في شنغهاي. وعندما جاء فريق شنغهاي لكرة القدم، إلى تشينغدو، كانت أصوات الاستهجان تلاحقهم طيلة المباراة. وتجمعت حشود خارج الملعب، تشتمهم عند دخولهم وخروجهم.

اندلعت أعمال الاحتجاج في سائر أنحاء الصين، وبلغت ذروتها خلال «مهرجان كنس الأضرحة»، في ربيع ١٩٧٦، حين يقدم الصينيون، تقليدياً، آيات الاحترام للموتى. وفي بكين، احتشد مئات ألوف المواطنين، طول أيام متواصلة، في ميدان تيانانمين، لتأبين شو، بأكاليل مصنوعة خصيصاً، وقراءات شعرية، وكلمات متقدة. وفي الرمزية واللغة، التي فهمها الجميع، وإن كانت مشفَّرة، صبوا جام كرههم على «عصابة الأربعة»، بل على ماو أيضاً. وسُحقت التظاهرة في ليلة ٥ نيسان/أبريل، عندما انقضت قوى الشرطة على المحتشدين معتقلة المئات. اعتبر ماو و«عصابة الأربعة» ذلك «تمرداً معادياً للثورة من النمط المجري». واتُّهم دينغ شياو بنغ، الذي كان محتجزاً، بإخراج التظاهرات، ووصم بكونه «ناغي الصين» (كان ناغي رئيس الوزراء المجري، في عام ١٩٥٦). وقرر ماو طرد دينغ رسمياً، وصعَّد الحملة ضده.

لئن أخمدت التظاهرة، وأدينت في وسائل الإعلام، فإن حدوثها غيَّر مزاج الصين. فقد كان هذا أول تحد سافر، على نطاق واسع، للنظام، منذ تأسيسه في عام ١٩٤٩.

في حزيران/يونيو ١٩٧٦، شُحن صفي، لمدة شهر، إلى معمل في الجبال، «للتعلم من العمال». وعندما انتهى الشهر، ذهبتُ مع بعض الأصدقاء، لتسلق جبل إيمي الرائع، «حاجب الحسناء»، إلى الغرب من تشينغدو. وفي طريق النزول من الجبل، في ٢٨ تموز/يوليو، سمعنا راديو ترانزستور، كان يحمله أحد السياح، يذيع بصوت عال. كنتُ دائماً أشعر بانزعاج شديد من حب البعض، الذي لا يرتوي، لهذه الآلة الدعائية، وفي بقعة رائعة بجمال طبيعتها! كأن آذاننا لم تُخدَّش بما فيه الكفاية من كل الهراء، الذي تتقيأه مكبرات الصوت الحاضرة. ولكن شيئاً لفت انتباهي، هذه المرة. فقد كان هناك زلزال ضرب مدينة، يستخرج منها الفحم، قرب بكين، اسمها تانغشان. وأدركتُ أنها لا بد أن تكون كارثة، لم يسبق لها مثيل، لأن وسائل الإعلام لا تنقل، عادة، الأخبار السيئة. كان الرقم الرسمي ٢٤٢ ألف قتيل، و١٦٤ ألف جريح، إصاباتهم بالغة.

رغم أن «عصابة الأربعة» ملأت الصحافة بالدعاية حول اهتمامها بالضحايا، فقد حذرت قائلة، إن البلاد يجب أن لا يلهيها الزلزال فتنسى الأولوية: «إدانة دينغ». وقالت زوجة ماو، علناً: «كان هناك عدة مئات ألوف من القتلى لا غير. ماذا يعني

ذلك؟ إن إدانة دينغ شياو بنغ، تهم ٨٠٠ مليون إنسان». كان هذا يبدو، حتى من زوجة ماو، فاضحاً، بحيث لا يمكن أن يكون حقيقياً، ولكنه نُقل لنا رسمياً.

كان هناك إنذارات كثيرة من وقوع هزات أرضية، في منطقة تشينغدو، وحين عدتُ من جبل إيمي، ذهبتُ مع أمي وشياو ـ فانغ إلى تشونغتشنغ، التي تعتبر أكثر أماناً. شقيقتي، التي بقيت في تشينغدو، كانت تنام تحت منضدة سميكة ضخمة، من خشب البلوط، وتغطي نفسها بالبطانيات واللُّحُف. وقام المسؤولون بتنظيم المواطنين لبناء أكواخ مؤقتة، وإرسال فرق تراقب، على مدار الساعة، سلوك حيوانات مختلفة، يُعتقد أن لديها قدرات على التنبؤ بالزلازل الأرضية. ولكن أتباع «عصابة الأربعة»، علقوا ملصقات جدارية تزعق قائلة: «حذارِ من محاولة دينغ شياو بنغ الإجرامية، استغلال الخوف من الزلازل الأرضية، من أجل ضرب الثورة». وعقدوا اجتماعاً حاشداً «لإدانة أنصار الطريق الرأسمالي، الذين يستغلون الخوف من وقوع زلزال، من أجل تخريب عملية التنديد بدينغ، إدانة شديدة». كان الاجتماع فاشلاً.

عدتُ إلى تشينغدو في بداية أيلول/سبتمبر، وقد بدأ الخوف من الزلزال ينحسر. وفي عصر ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٧٦، كنت في أحد دروس الإنكليزية. وفي حوالي الساعة ٢,٤٠، قيل لنا إنه سيذاع بيان هام، في الساعة الثالثة، وعلينا أن نجتمع جميعاً في الفناء للاستماع إليه. كان علينا أن نفعل أشياء كهذه في السابق، ومشيتُ خارجة، في حالة من الغيظ. الجو غائم، كالمعهود عن الخريف في تشينغدو. كنتُ أسمع حفيف أوراق الخيزران على امتداد الجدران. وقبيل الساعة الثالثة، فيما كان المكبر يطلق صريراً، اتخذت السكرتيرة الحزبية لقسمنا موقعاً، أمام التجمع. نظرت إلينا بحزن، وبصوت خفيض، متقطع، قالت والعَبَرات تخنقها: «إن قائدنا العظيم، الرئيس ماو، صاحب المقام المبجل [تا ـ لاو ـ رن ـ جيا] قد. . . »

وفجأة أدركتُ أن ماو قد مات.

٢٨ ـ الكفاح من أجل السفر
(١٩٧٦ ـ ١٩٧٨)

أفعمني الخبر نشوة، حتى إني كنتُ، لبرهة، مخدَّرة. وفي الحال، بدأتْ رقابتي الذاتية الدفينة عملها: تنبهت إلى أن هناك مناحة تجري من حولي، وأن عليَّ أن أتقمص دوراً مناسباً. وبدا أنه ليس هناك مكان أخفي فيه افتقاري إلى المشاعر المطلوبة، سوى كتف المرأة التي أمامي، وهي إحدى المسؤولات الطالبيات، كانت محطمة القلب، على ما يبدو. وبسرعة، دفنت رأسي في كتفها، وتنهدتُ على الوجه المطلوب. وكما في أحيان كثيرة، في الصين، فإن شيئاً من الطقوس كان يؤدي الغرض المنشود. وإذ كانت تشهق باكية من صميم القلب، فقد قامت بحركة، وكأنها تهم بالاستدارة لاحتضاني. ضغطتُ بثقلي كله عليها، من الخلف، لإبقائها في مكانها، على أمل الإيحاء بأني في حالة من الحزن اللامحدود.

في الأيام، التي أعقبت موت ماو، فكرتُ كثيراً. كنتُ أعرف أنه يعتبر فيلسوفاً، وحاولت أن أفكر في «فلسفته». بدا لي أن مبدأها المركزي، هو الحاجة ـ أو الرغبة؟ ـ إلى صراع مستديم. كان يبدو أن جوهر تفكيره، هو أن الصراعات بين البشر، هي القوة المحركة للتاريخ، وأنه من أجل صنع التاريخ، يتعين، على الدوام، خلق «أعداء طبقيين»، بالجملة. وتساءلتُ إن كان هناك أي فلاسفة آخرين، أدت نظرياتهم إلى معاناة كل هذه الأعداد من الناس وموتهم. وفكرتُ في الإرهاب والبؤس، اللذين أُخضع لهما الصينيون. من أجل ماذا؟

ولكن نظرية ماو، قد تكون مجرد امتداد لشخصيته. بدا لي أنه كان، حقاً، مروِّج نزالات، لا يعرف الراحة، بطبيعته، وأنه كان يتقن عمله هذا. كان يفهم غرائز إنسانية

قبيحة، مثل الحسد والحقد، ويعرف كيف يسخّرها لغاياته. كان يحكم بدفع الناس إلى كره بعضهم بعضاً. وبعمله هذا، حمل الصينيين العاديين على تنفيذ المهمات، التي تضطلع بها، في الدكتاتوريات الأخرى، نخب مهنية. لقد تمكن ماو من تحويل الشعب إلى سلاح الدكتاتورية الأمضى. ولهذا السبب، لم يكن في عهده معادل حقيقي لجهاز الكي. جي. بي، في الصين. لم تكن هناك حاجة إلى ذلك. وبنبش وتغذية أسوأ ما في البشر، أوجد ماو مزبلة أخلاقية، وأرضاً من الكره. ولكن كم هو حجم المسؤولية الفردية، التي ينبغي أن يشترك فيها الناس العاديون؟ هذا ما لم أتمكن من تحديده.

السمة الأخرى للماوية، على ما كان يبدو لي، هي سيادة الجهل. بسبب حسابه أن الطبقة المثقفة هدف سهل لسكان، كان معظمهم أميين، وبسبب حقده الدفين على التعليم النظامي والمتعلمين، وبسبب جنون العظمة لديه، الذي أدى إلى ازدرائه أعلام الثقافة الصينية، وسبب احتقاره لوجوه الحضارة الصينية، التي لا يفهمها، مثل العمارة والفن والموسيقى، فقد دمَّر ماو الكثير من تراث البلاد الثقافي. ولم يخلف وراءه بلداً مُتوَحشاً فحسب، بل أرضاً بشعة، فيها القليل مما تبقى من مجدها السابق.

بدا أن الصينيين نعوا ماو من الصميم. ولكني كنتُ أتساءل كم من دموعهم كانت صادقة. لقد مارس الناس التمثيل، إلى درجة أنهم أخذوا يخلطون بينه وبين مشاعرهم الحقيقية. ولعل البكاء على ماو، كانَ مجرد مشهد مبرمج آخر، في حياتهم المبرمجة.

مع ذلك، كانت رغبة الأمة عن الاستمرار في سياسات ماو، واضحة على نحو لا يقبل الخطأ. فبعد أقل من شهر على موته، في ٦ تشرين الأول/أكتوبر، اعتُقلت زوجته، مع الأعضاء الآخرين في «عصابة الأربعة». لم يكونوا يحظون بدعم من أحد ـ لا من الجيش، ولا من الشرطة، ولا حتى من حراسهم هم أنفسهم. لم يكن لديهم سوى ماو. لقد كانت «عصابة الأربعة»، تمسك مقاليد السلطة، لأنها كانت، في الحقيقة، «عصابة خمسة».

عندما سمعتُ عن السهولة التي نُحي بها «الأربعة»، شعرتُ بموجة حزن. كيف يمكن مجموعة صغيرة كهذه، من طغاة من الدرجة الثانية، أن تعبث بمقدرات ٩٠٠ مليون إنسان، كل هذا الوقت؟ ولكن مشاعري الرئيسية، كانت مشاعر الفرح. فقد ولى، أخيراً، آخر طغاة «الثورة الثقافية». وكانت السعادة مشتركة على نطاق واسع. خرجتُ، مثل كثيرين من أبناء وطني، لشراء أحسن المشروبات، من أجل الاحتفال مع

عائلتي وأصدقائي، لأجد أن المتاجر نفدت بضاعتها ـ كان هناك الكثير من الابتهاج العفوي.

كان هناك أيضاً احتفالات رسمية ـ النوع نفسه تماماً من الاجتماعات الحاشدة، خلال «الثورة الثقافية»، الأمر الذي أغاظني. وما أغضبني بصفة خاصة، أن المشرفين السياسيين والمسؤولين الطالبيين، في قسمي، راحوا يرتبون العرض كله، مدعين الاستقامة الأخلاقية، دون حياء.

كانت القيادة الجديدة برئاسة خلف ماو، الذي اختاره بنفسه، هوا غووفينغ، الذي كانت مؤهلاته الوحيدة، على ما أظن، هي تدني مستوى كفاءاته. كان أول أعماله الإعلان عن بناء ضريح هائل لماو، في ميدان تيانا نمين. كنتُ حانقة: مئات الألوف كانوا لا يزالون مشردين، على أثر الزلزال في تانغشان، يعيشون في أكواخ مؤقتة على الأرصفة.

رأتْ أمي في الحال، بما لديها من خبرة، أن حقبة جديدة بدأت. وفي اليوم، الذي أعقب موت ماو، توجهتْ إلى قسمها للعمل. بقيت في البيت خمس سنوات، وتريد، الآن، توظيف طاقتها من جديد، في عمل مفيد. عُينت النائب السابع للمدير في قسمها، الذي كانت مديرته، قبل «الثورة الثقافية». ولكنها لم تعترض.

بالنسبة إليّ، في مزاجي العجول، بدت الأمور تسير كما في السابق. في كانون الثاني/ يناير ١٩٧٧، انتهت دورتي الجامعية. ورغم رحيل ماو و«عصابة الأربعة»، فإن قاعدة ماو، بأن نعود من حيث أتينا، كانت لا تزال سارية المفعول. كان هذا يعني، بالنسبة إليّ، العودة إلى معمل الآلات. فالفكرة القائلة إن التعليم الجامعي، ينبغي أن يحدث تغييراً في عمل المرء، أدانها ماو، بوصفها «إعداد أرستقراطيين روحيين».

كنتُ مستميتة تجنب إرسالي إلى المعمل من جديد. فإذا حدث ذلك، سأفقد كل فرصة في استخدام لغتي الإنكليزية: لن يكون هناك ما يُتَرجم، ولا أحد يمكن مخاطبته باللغة الإنكليزية. ومرة أخرى، لجأتُ إلى أمي. قالت إن هناك مخرجاً واحداً: على المعمل أن يرفض إعادتك. فعمد أصدقائي في المعمل إلى إقناع الإدارة بكتابة تقرير إلى المكتب الثاني للصناعة الخفيفة، تقول فيه إنه، رغم كوني عاملة جيدة، لكنهم يدركون أن عليهم التضحية بمصالحهم الخاصة، من أجل قضية أكبر: إن وطننا الأم سيفيد من لغتي الإنكليزية.

بعد ذهاب هذه الرسالة المعسولة، أرسلتني أمي لمقابلة مدير المكتب الأعلى، السيد هوي. كان أحد زملائها، وكان مولعاً بي، عندما كنتُ طفلة. تعرف أمي أنه ما زال لديه نقطة ضعف تجاهي. وفي اليوم، الذي أعقب ذهابي لمقابلته، دُعي مجلس مكتبه إلى الاجتماع لمناقشة قضيتي. كان المجلس يتألف من زهاء عشرين مديراً، يتعين أن يجتمعوا كلهم، لاتخاذ أي قرار، مهما كان تافهاً. وتمكن السيد هوي من إقناعهم بأنني ينبغي أن أُمنح فرصة لاستخدام لغتي الإنكليزية، فكتبوا رسالة رسمية بذلك إلى جامعتي.

رغم أن قسمي سبب لي كثيراً من المشاكل، فقد كانوا في حاجة إلى مدرسين، وفي كانون الثاني/يناير ١٩٧٧، أصبحتُ مساعدة محاضر باللغة الإنكليزية، في جامعة سيشوان. كانت لديَّ مشاعر مختلطة حول العمل هناك، لأنه سيتعين عليَّ أن أعيش في الجامعة، تحت أنظار المشرفين السياسيين، وزملاء طموحين وحسودين. والأنكى من ذلك، أنني ما لبثت أن علمتُ بأنه لن تكون لي علاقة بمهنتي، لمدة عام. فبعد أسبوع من تعييني، أُرسلتُ إلى الريف على أطراف تشينغدو، في إطار «برنامج إعادة تثقيفي».

كدحتُ في الحقول، وحضرتُ اجتماعات مملة، لا نهاية لها. الضجر والاستياء والضغط الواقع عليَّ لأنه ليس لديَّ خطيب في سن متقدمة، هي الخامسة والعشرون، ساعدت على دفعي إلى الهيام باثنين من الرجال. أحدهما لم أره قط، ولكنه كان يكتب رسائل جميلة. وقد تبدد حبي في اللحظة التي وقع فيها نظري عليه. الآخر، هاو، كان قيادياً من «المتمردين». كان بشكل ما نتاج العصر، ألمعياً، ولا وازع لديه. كنت مبهورة بسحره.

اعتُقل هاو في صيف ١٩٧٧، عندما بدأت حملة لاصطياد «أتباع عصابة الأربعة». وجرى تعريف هؤلاء بوصفهم «رؤساء المتمردين»، وكل مَنْ له علاقة بممارسة أعمال عنف إجرامية، وصِفَت وصفاً مبهماً، بأنها تشمل ممارسة التعذيب والقتل والتدمير، أو نهب ممتلكات الدولة. انحسرت الحملة، في غضون أشهر. وكان السبب الرئيسي أنه لا ماو نُبذ، ولا «الثورة الثقافية» ذاتها نُبذت. وكل من ارتكب إثماً، كان ببساطة يدَّعي أنه كان يتصرف بدافع الولاء لماو. ولم تكن هناك معايير واضحة للحكم على ما هو إجرامي أيضاً، إلا في حالة جرائم القتل، وأعمال التعذيب الصارخة. وقد كان كثيرون

ضالعين في دهم البيوت، وتدمير معالم تاريخية وآثار وكتب، وفي القتال بين الأجـ والإرهاب الأكبر، الذي مارسته «الثورة الثقافية» ـ القمع الغاشم، الذي دفع ء الألوف إلى الانهيار العصبي والانتحار والموت ـ كان السكان ينفذونه جما، والجميع تقريباً، بمن فيهم أطفال صغار، شاركوا في الاجتماعات التنديدية الوحـ ومد كثيرون يد المساعدة على ضرب الضحايا. والأكثر من ذلك، أن الضحايا كا في أحيان كثيرة، يصبحون جلادين، والعكس بالعكس.

وإذ لم يكن هناك قضاء مستقل للتحقيق والحكم، فقد كان المسؤولون الحز يقررون مَنْ يعاقب، ومَنْ لا يعاقب. وكثيراً ما كانت المشاعر الشخصية، هي العـ الحاسم. بعض «المتمردين» عوقبوا بحق. والبعض الآخر نالوا أحكاماً ظالـ وآخرون أفلتوا بعقوبات خفيفة. من مضطهدي أبي الرئيسيين: لم يحدث شيء لزو ونقلت السيدة شاو، ببساطة، إلى عمل قلما يرغب فيه أحد.

كان الزوجان تنغ معتقلين، منذ عام ١٩٧٠. ولكنهما لم يقدما إلى المحاكم لأن الحزب لم يصدر معايير يمكن محاكمتهما على أساسها. كل ما حدث لهما، تعين عليهما الجلوس في اجتماعات لاعنفية، يمكن فيها الضحايا أن يتحدثوا « الكلام» ضدهما. أمي تكلمت في اجتماع واحد، عرضت فيه كيف اضطهد الزوجـ أبي. وبقي الزوجان تنغ رهن الاعتقال، بلا محاكمة، حتى عام ١٩٨٢، عندما حـ على السيد تنغ بالسجن عشرين عاماً، وعلى السيدة تنغ بالسجن سبعة عشر عاماً.

هاو، الذي جافاني الكرى، إثر اعتقاله، سرعان ما أُفرج عنه. ولكن الانفعالا المريرة، التي استيقظت من جديد، قتلت ما كان لدي من شعور نحوه. ورغم أني ا أعرف قط مسؤوليته، على وجه التحديد، فقد كان واضحاً أنه كقائد جماهيري من قا «الحرس الأحمر»، في أشد السنوات همجية، ما كان يُعقل أن يكون بلا ذنب. مـ ذلك، لم أتمكن من حمل نفسي على كرهه شخصياً، ولكني لم أعد أشفق عليه. كنـ أرجو أن ينال الجزاء العادل، هو وكل من يستحقونه.

متى سيأتي هذا اليوم؟ متى يمكن العدالة أن تأخذ مجراها؟ وهل يمكن إحقا العدل، دون إثارة مزيد من المرارة والعداء، إزاء هذا القدر الكبير من المكبوت؟ فـ كل مكان حولي، أجنحة خاضت حروباً دامية ضد بعضها، صارت، الآن، تتعايشـ تحت سطح واحد. فأنصار الطريق الرأسمالي، أُلزموا بالعمل جنباً إلى جنب مـ

«متمردين» سابقين، أدانوهم وعذبوهم. وكانت البلاد لا تزال في حالة من التوتر الشديد. متى ستنخلص، إذا قدّر لنا الخلاص، من الكابوس الذي صنعه ماو؟

في تموز/ يوليو ١٩٧٧، رُدَّ من جديد اعتبار دينغ شياو بنغ، وعُين نائب هوا غووفينغ. وكان كل خطاب يلقيه دينغ، نفحة من الهواء العليل. فالحملات السياسية ستنتهي. و«الدراسات» السياسية، إنما هي «ضرائب ورسوم باهظة»، يجب وقفها. وسياسات الحزب، يجب أن تستند إلى الواقع، وليس إلى عقيدة جامدة. والأكثر أهمية، أن من الخطأ اتباع كل كلمة من كلمات ماو حرفياً. لقد كان دينغ يغير طريق الصين. ثم بدأتُ أعاني الهواجس: كنت أخشى أن لا يأتي هذا المستقبل الجديد أبداً.

في غمرة الروح الجديدة، التي أشاعها دينغ، انتهى الحكم عليَّ بالعمل في الكوميونة، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٧، قبل شهر من السنة، التي كانت مقررة في الأصل. هزني هذا الفارق، الذي لا يزيد على شهر، دونما سبب معقول.

وحين عدت إلى تشينغدو، كانت الجامعة توشك أن تجري امتحانات قبول متأخرة، لعام ١٩٧٧، وهي أول امتحانات حقيقية، منذ عام ١٩٦٦. وأعلن دينغ أن دخول الجامعة، يجب أن يكون من خلال الامتحانات الأكاديمية، وليس من الباب الخلفي. وتعين تأجيل فصل الخريف، بسبب الحاجة إلى تهيئة السكان للتغيير في سياسات ماو.

أُرسلتُ إلى جبال شمال سيشوان، لمقابلة مرشحين للدراسة في قسمي. ذهبتُ بطيبة خاطر. وخلال هذه الرحلة، مسافرة من محافظة إلى أخرى، على طرق ترابية ملتوية، بمفردي تماماً، خطرت في ذهني فكرة، للمرة الأولى: كم سيكون رائعاً، لو ذهبتُ للدراسة في الغرب!

قبل سنوات قليلة، روى لي أحد الأصدقاء قصة. جاء إلى «الوطن الأم» من هونغ كونغ، في عام ١٩٦٤، ولكن لم يسمح له بالمغادرة ثانية، إلا في عام ١٩٧٣، عندما صدر إليه الإذن، أثناء الانفتاح، الذي أعقب زيارة نكسون، بالذهاب ورؤية عائلته. وخلال ليلته الأولى في هونغ كونغ، سمع ابنة أخيه تتصل هاتفياً بطوكيو، لترتيب عطلة نهاية الأسبوع هناك. قصته، العادية في الظاهر، أصبحت مصدر قلق دائم لي. فهذه الحرية لرؤية العالم، وهي حرية لا أستطيع أن أحلم بها، كانت تعذبني. ولأن رغبتي في السفر خارج البلاد، كانت مستحيلة، فقد ظلت دائماً حبيسة

عقلي الباطن. كان هناك بعثات نادرة إلى الغرب، من بعض الجامعات في السابق، ولكن السلطات كانت، بالطبع، هي التي تختار المرشحين، وكانت عضوية الحزب شرطاً لازماً. لم يكن لديَّ أمل في ذلك، إذ لم أكن عضواً في الحزب، ولا موضع ثقة قسمي، هذا إن سقطت منحة من السماء على جامعتي. ولكن بدأت تتبرعم في مكان ما من ذهني، الفكرة القائلة، بما أن الامتحانات عادت فيصلاً، والصين أخذت تنزع سترة جنونها الماوي، فإن الفرصة يمكن أن تتاح لي. وما إن بدأت أحلم بذلك، حتى أجبرتُ نفسي على قتل الفكرة، إذ كنت خائفة جداً من الخيبة المحتومة.

حين عدتُ من رحلتي، سمعتُ أن قسمي نال منحة لمدرّس شاب أو متوسط العمر يذهب إلى الغرب. وأنهم قرروا أن يكون أحداً غيري.

كانت البروفسورة «لو»، هي التي زفت إليّ الخبر المدمِّر. كانت في مطلع السبعينات، تمشي مرتعشة على عصا، ولكنها كانت، مع ذلك، معتزة بنفسها، ومتسرعة حتى التهور في كل النواحي الأخرى. كانت تتكلم الإنكليزية بسرعة، كأنها في عجلة لإخراج كل ما تعرفه. عاشت في الولايات المتحدة حوالي ثلاثين عاماً. كان أبوها قاضياً في محكمة الكومنتانغ العليا، وأراد أن يربيها تربية غربية. وفي أميركا، اختارت لنفسها الاسم «لوسي»، ووقعت في حب طالب أميركي، اسمه لوك. كانا يعتزمان الزواج، ولكن عندما فاتحا أم لوك، قالت: «لوسي، إني أحبك كثيراً. ولكن كيف سيبدو أطفالكما؟ سيكون من الصعوبة بمكان...».

قطعت لوسي علاقتها مع لوك، لأنها كانت أكثر إباء من أن تُقبل في عائلته على مضض. وفي بداية الخمسينات، بعد استيلاء الشيوعيين على السلطة، عادت إلى الصين، ظانة أن كرامة الصين، أعيدت لها أخيراً. لم تنس لوك قط، واقترنت في زواج متأخر جداً، ببروفسور صيني في اللغة الإنكليزية، كانت لا تحبه، ويتخاصمان بلا توقف. طرد الاثنان من القسم، خلال «الثورة الثقافية»، وكانا يعيشان في غرفة صغيرة، مساحتها حوالي ١٠ × ٨ أقدام، مزدحمة بالجرائد القديمة الحائلة، والكتب الترِبة. كان أمراً يقطع نياط القلب، أن يرى المرء هذين الزوجين الواهنين، اللذين ابيض شعرهما، ينفر أحدهما من الآخر، إذ يجلس أحدهما على حافة السرير الزوجي، والآخر على الكرسي الوحيد، الذي أمكن حشره في الغرفة.

أصبحت البروفسورة «لو» شديدة التولع بي. وكانت تقول إنها ترى فيَّ شبابها

الزائل، قبل خمسين عاماً، عندما كانت هي أيضاً لا تعرف راحة البال، تريد السعادة من الحياة. قالت لي إنها فشلت في العثور عليها، ولكنها تريدني أن أنجح. وعندما سمعتُ عن المنحة للذهاب إلى الخارج، ربما إلى أميركا، شعرتُ بغبطة شديدة، ولكنها كانت قلقة أيضاً، لأني كنتُ في مكان آخر، ولم أتمكن من ترشيح نفسي. ذهب المقعد إلى الآنسة يي، التي كانت متقدمة عليَّ مدة عام، وهي، الآن، مسؤولة حزبية. وقد أُعدَّ لها وللمدرسين الشباب الآخرين في قسمي، الذين تخرجوا منذ قيام «الثورة الثقافية»، مشروع تدريب لتحسين لغتهم الإنكليزية، خلال وجودي في الريف. وكانت البروفسورة «لو» من أساتذتهم. كانت تعتمد، في جزء من تدريسها، على استخدام مقالات مأخوذة من مطبوعات إنكليزية، حصلت عليها من أصدقاء في المدن الأكثر انفتاحاً، مثل بكين وشنغهاي (سيشوان كانت لا تزال مغلقة تماماً، بالنسبة إلى الأجانب). وكلما عدت من الريف كنتُ أحضر دروسها.

ذات يوم، كان النص حول استخدام الطاقة الذرية في الصناعة الأميركية. وبعد أن شرحتْ البروفسورة «لو» معنى المقالة، رفعت الآنسة يي نظرها، واعتدلت في جلستها، وقالت بغضب شديد: «إن هذه المقالة يجب أن تُقرأ قراءة نقدية! كيف يمكن الإمبرياليين الأميركيين أن يستخدموا الطاقة الذرية سلمياً؟». شعرتُ بغيظي ينفجر، لمحاكاة الآنسة يي للخط الدعائي. ورددتُ عليها بتهور: «ولكن كيف تعرفين أنهم لا يستطيعون؟». نظرتْ الآنسة يي وأغلبية الصف إليَّ، غير مصدقين. فإن سؤالاً مثل سؤالي، كان لا يزال عندهم بعيداً عن التصور، بل كفراً. ثم رأيت الوميض في عيني البروفسورة «لو»، ابتسامة التقدير، التي كنت وحدي قادرة على التقاطها. شعرتُ أني مفهومة ومحصنة.

إلى جانب البروفسورة «لو»، كان بعض الأساتذة والمحاضرين الآخرين، يريدونني أن أذهب أنا إلى الغرب، وليس الآنسة يي. ولكن رغم أنهم بدأوا يحظون بالاحترام في الأجواء الجديدة، لم يكن لأي منهم أية كلمة. إذا كان هناك من يستطيع المساعدة، فهو أمي. وبناء على نصيحتها، ذهبتُ لرؤية زملاء أبي السابقين، الذين أمسوا الآن مسؤولين عن الجامعات، وقلتُ لهم إن لديَّ شكوى: بما أن الرفيق دينغ شياو بنغ، قال إن دخول الجامعة يقوم على أساس الاستحقاق، وليس من الباب الخلفي، فلا شك أن من الخطأ عدم تطبيق هذه الطريقة على الدراسة في الخارج. وتوسلتُ إليهم أن يسمحوا لي بمنافسَة نزيهة، الشيء الذي يعني إجراء امتحان.

وفيما كنا، أنا وأمي، نمارس ضغوطنا، فجأة، جاء أمر من بكين: للمرة الأولى، منذ عام ١٩٤٩، توزع المنح للدراسة في الغرب على أساس امتحان أكاديمي وطني، وسيجرى قريباً، في آن واحد، في بكين وشنغهاي وشيان، العاصمة القديمة التي اكتُشف فيها، لاحقاً، جيش الفخّار.

كان على قسمي أن يرسل ثلاثة مرشحين إلى شيان. سحَبَ منحة الآنسة يي، واختار مرشحين، كلاهما محاضر ممتاز، في حوالي الأربعين من العمر، كانا يمارسان التدريس، قبل «الثورة الثقافية». وبسبب أمر بكين باعتماد المقدرة المهنية في الاختيار، من جهة، وبسبب الضغط من حملة أمي، من الجهة الأخرى، قرر القسم أن المرشح الثالث، وهو مرشح أصغر سناً، ينبغي اختياره من بين مجموعة من الذين تخرجوا خلال «الثورة الثقافية»، وذلك من خلال امتحان تحريري، وآخر شفهي، في ١٨ آذار/ مارس.

حصلتُ على أعلى العلامات في الامتحانين، رغم أني فزت في الامتحان الشفهي بطريقة غير نظامية. كان علينا أن ندخل، كل على انفراد، إلى غرفة، يجلس فيها ممتحنان، البروفسورة «لو» وبروفسور شيخ آخر. وعلى منضدة أمامهما، كان بعض الكرات الورقية: كان علينا أن نلتقط واحدة، ونجيب عن السؤال الذي تتضمنه باللغة الإنكليزية. وكان السؤال الذي تضمنته كرتي: «ما هي النقاط الرئيسية للبيان الصادر عن الجلسة العمومية الثانية الأخيرة، للمؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الصيني؟». بالطبع، لم تكن لدي فكرة، ووقفتُ هناك مصعوقة. نظرتْ البروفسورة «لو» إلى وجهي، ومدت يدها إلى قصاصة الورق. نظرتْ إليها وأرَتها للبروفسور الآخر. وبصمت، وضعتها في جيبها، وأشارت إليَّ بعينيها، أن ألتقط أخرى. هذه المرة، كان السؤال: «قل شيئاً عن الوضع المجيد لوطننا الاشتراكي».

كانت سنوات التبجح الإلزامي بالوضع المجيد لوطني الاشتراكي، تضجرني حتى السقم، ولكن هذه المرة، كان لدي الكثير مما أقوله. في الحقيقة، كنت كتبتُ، لتوي، قصيدة جذلة عن ربيع ١٩٧٨. أصبح ساعد دينغ شياو بنغ الأيمن هو ياو بانغ، رئيس قسم التنظيم في الحزب، وبدأ عملية تبرئة ساحة شتى صنوف «الأعداء الطبقيين»، بالجملة. لقد كانت البلاد تنفض عنها الماوية، بشكل محسوس. وكانت الصناعة تعمل بكل طاقتها، وازدادت السلع كثيراً في المتاجر. وأخذت المدارس

والمستشفيات والخدمات العامة الأخرى، تعمل على الوجه المطلوب. وكانت تُنشر كتب، منعت زمناً طويلاً، والمواطنون ينتظرون خارج المكتبات يومين، أحياناً، للحصول عليها. كان هناك ضحك في الشوارع، وفي بيوت الناس.

بدأتُ التحضير بصورة محمومة للامتحانات في شيان، التي ستجرى بعد أقل من ثلاثة أسابيع. وعرض العديد من الأساتذة مساعدتهم. البروفسورة «لو» أعطتني قائمة بالمواد التي ينبغي قراءتها ومجموعة من الكتب الإنكليزية، لكنها رأت أنه لن يكون لدي متسع من الوقت لقراءتها كلها. فأوجدتْ بحركة سريعة مكاناً على منضدتها المزدحمة، لآلتها الكاتبة المحمولة، وأمضت الأسبوعين التاليين في طبع ملخصات لها بالإنكليزية. وقالت، بغمزة خبيثة، هكذا ساعدها لوك على امتحاناتها قبل خمسين عاماً، لأنها كانت تفضّل الرقص والحفلات.

أخذنا القطار، أنا والمحاضران، يرافقنا نائب سكرتير الحزب، إلى شيان، التي تبعد يوماً وليلة. وطيلة الشطر الأعظم من الرحلة، كنتُ مستلقية على بطني، على «سرير النوم الصلب»، منهمكة في كتابة الحواشي للمطالعات، التي أعدتها البروفسورة «لو».

لم يكن أحد يعرف، على وجه التحديد، عدد المنح، أو البلدان التي سيتوجه إليها الفائزون، لأن جل المعلومات، في الصين، سر من أسرار الدولة. ولكن عندما وصلنا إلى شيان، سمعنا أن هناك ٢٢ شخصاً يشاركون في الامتحانات، معظمهم محاضرون، متقدمون من أربعة أقاليم، في غرب الصين. ونُقلت ورقة الامتحان المغلقة بختم، جواً، من بكين في اليوم السابق. كان هناك ثلاثة أقسام في الامتحان، التحريري، الذي يستغرق فترة الصباح، فيه مقطع طويل من بداية «جذور»، علينا أن نترجمه بالصينية. وخارج نوافذ قاعة الامتحانات، كان وابل من أزهار الصفصاف يرش المدينة، في نيسان/أبريل، كأنما في رقصة حماسية رائعة. في نهاية الفترة الصباحية، جُمعت أوراقنا، وأُغلقت مختومة، وأُرسلت مباشرة إلى بكين، لتقدير علاماتها، مع الأوراق التي قدمت هناك، وفي شنغهاي. وفي العصر جرى الامتحان الشفهي.

في نهاية أيار/مايو، قيل لي، بصورة غير رسمية، إني نجحت في الامتحانين، بامتياز. وما إن سمعتْ أمي بالخبر، حتى صعَّدت حملتها لتبرئة ساحة أبي. فعلى الرغم من موته، ظل ملفه يقرر مستقبل أبنائه. وكانت في ملفه مسودة الحكم، التي تقول إنه ارتكب «أخطاء سياسية جسيمة». كانت أمي تعرف أن ذلك سيحرمني من

السفر إلى الخارج، رغم أن الصين بدأت تصبح أكثر ليبرالية.

قامت أمي بتوسيط زملاء أبي السابقين، الذين عادوا يمسكون مقاليد السلطة في الحكومة الإقليمية، شافعة قضيتها بورقة شو إن لاي، التي تقول إن من حق أبي مخاطبة ماو. وكانت جدتي قد أخفت هذه الورقة ببراعة فائقة، مخيطَةً داخل حذائها. والآن قررت أمي، بعد أحد عشر عاماً من تلقيها ورقة شو، أن تسلمها إلى السلطات الإقليمية التي يرأسها جاو زيانغ.

كان زمناً واعداً - بدأ سحر ماو يفقد قوته القاصمة، بمساعدة كبيرة من هو ياوبانغ، الذي كان مسؤولاً عن عمليات رد الاعتبار. وفي ١٢ حزيران/يونيو، ظهر مسؤول كبير في «شارع الشهاب»، يحمل حكم الحزب على أبي. سلَّم أمي قصاصة ورق مهلهلة، كُتب فيها أن أبي كان «مسؤولاً جيداً وعضواً حزبياً جيداً». وكان ذلك إيذاناً برد اعتباره رسمياً. وبعد ذلك فقط، وافقت وزارة التعليم في بكين على منحتي.

بلغني خبر ذهابي إلى بريطانيا، من خلال أصدقاء فرحين في القسم، قبل أن تخبرني السلطات. أشخاص بالكاد يعرفونني، شعروا بسرور بالغ من أجلي، وتلقيت الكثير من رسائل وبرقيات التهنئة. أقيمت حفلات، وذرف الكثير من دموع الفرح. لقد كان شيئاً عظيماً، أن يذهب المرء إلى الغرب. كانت الصين مغلقة، طول عقود، وكان الجميع يشعرون بالاختناق. كنتُ أنا أول شخص من جامعتي، بل أول شخص من سيشوان كلها (التي كان سكانها حينذاك زهاء تسعين مليوناً) يُسمح له بالدراسة في الغرب، منذ عام ١٩٤٩. وقد كسبتُ ذلك باستحقاق شخصي، إذ لم أكن حتى عضواً في الحزب. كانت تلك علامة أخرى على التغيرات الدراماتيكية، التي تجتاح البلاد. وأخذ الناس يرون أملاً وفرصاً تتفتح.

ولكن مشاعر الإثارة، لم تغمرني تماماً. فلقد حققت شيئاً مرغوباً، وبعيداً عن متناول كل الآخرين من حولي، حتى إني شعرتُ بالذنب تجاه أصدقائي. كان التعبير عن الابتهاج يبدو مُحرِجاً، بل قاسياً عليهم، ولكن إخفاءه أيضاً، ليس من الأمانة في شيء. شعرتُ أيضاً بالحزن، عندما فكرتُ كم كانت الصين ضيقة وصوّانية - فكل هؤلاء حُرموا من الفرص ولم تجد مواهبهم متنفساً. كنتُ أعرف أني محظوظة، لكوني من عائلة تتمتع بامتيازات، رغم ما قاسته من معاناة. والآن، إذ تجدُّ السير صين أكثر انفتاحاً وإنصافاً، كنت أريد بفارغ الصبر أن يأتي التغيير أسرع، ويشمل

المجتمع بأسره.

أنجزت، وأنا غارقة في أفكاري، كل ما يتعلق بمغادرة الصين من إجراءات معقَّدة، لا مفر منها. أولاً، كان عليَّ الذهاب إلى بكين، للمشاركة في دورة تدريب، مخصوصة بالمسافرين خارج البلاد. فعشنا شهراً من جلسات التلقين، أعقبه شهر من التجوال في أنحاء الصين. كان الغرض أن نتأثر بجمال الوطن، حتى لا نفكر في الهروب. كل الترتيبات المتعلقة بالسفر، أُنجزت، وأُعطينا علاوة ملابس. كان علينا أن نبدو أنيقين للأجانب.

كان «نهر الحرير» يمر ملتفاً حول الجامعة، وكثيراً ما تجولتُ على ضفافه، في أماسي الأخيرة. كان سطحه يتلألأ في ضوء القمر وضباب الليل، أيام الصيف. فكرتُ في سنواتي الست والعشرين: عرفتُ الامتياز، وعرفتُ الإدانة، عرفتُ الشجاعة، وعرفتُ الخوف، رأيت الطيبة والوفاء، ورأيت أعماق البشاعة الإنسانية. وفي غمرة المعاناة والخراب والموت، عرفت الحرب والقدرة البشرية، التي لا تقهر، على البقاء والبحث عن السعادة.

غمرتني انفعالات من كل الأصناف، وخاصة عندما فكرتُ في أبي، وكذلك في جدتي والعمة جون ـ ينغ. حتى ذلك الوقت، حاولتُ أن أكبت ذكرياتي عنهم، لأن موتهم ظل أشد الزوايا إيلاماً في قلبي. وتصورتُ كم كانوا سيفرحون ويفخرون بي، لو قدِّر لهم أن يكونوا أحياء!

طرتُ إلى بكين، وكان عليَّ أن أسافر مع ثلاثة عشر مدرساً جامعياً آخر، أحدهم المشرف السياسي. كان من المزمع أن تقلع طائرتنا في الساعة الثامنة مساء، في ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨، وكادت تفوتني، لأن بعض الأصدقاء جاؤوا لتوديعي في مطار بكين، فسهوت معهم، عن وقت الإقلاع. وعندما ألقيتُ نفسي على المقعد أخيراً، أدركت أنني بالكاد عانقتُ أمي على الوجه المطلوب. لقد جاءت لتوديعي في مطار تشينغدو، على سجيتها تقريباً، دون أثر لدموع، كأن رحيلي، كان مجرد واقعة في حياتنا الحافلة.

وفيما كنت أبتعد عن الصين، نظرتُ من النافذة، ورأيتُ كوناً عظيماً، وراء جناح الطائرة الفضي. ألقيتُ نظرة أخرى إلى حياتي الماضية، ثم التفتُ نحو المستقبل. كنت في شوق إلى معانقة العالم.

خاتمة

اتخذتُ من لندن موطني. ولعشر سنوات، تحاشيتُ التفكير في الصين، التي خلفتها ورائي. وفي عام ١٩٨٨، جاءت أمي إلى إنكلترا لزيارتي. روت لي، للمرة الأولى، قصة حياتها وحياة جدتي. وحين عادت إلى تشينغدو، جلستُ تاركة ذاكرتي تندفع خارجة، والدموع غير المذروفة تغمر عقلي. قررتُ أن أكتب «بجعات برية». أمسى الماضي أقلّ إيلاماً، لأني وجدت الحب، وحققت المراد، وبالتالي وجدت السكينة.

أصبحت الصين مكاناً مختلفاً بالكامل، منذ أن غادرتُها. في نهاية ١٩٧٨، تخلى الحزب الشيوعي عن «الصراع الطبقي». ورد اعتبار المنبوذين اجتماعياً، بمن فيهم «الأعداء الطبقيون»، وكان بينهم أصدقاء أمي، من منشوريا، الذين وصموا بـ «معاداة الثورة»، في عام ١٩٥٥. توقف التمييز الرسمي ضدهم وضد عوائلهم. وتمكنوا من ترك عملهم العضلي الشاق، وأعطيت لهم أعمال أفضل. دعي كثيرون منهم إلى صفوف الحزب الشيوعي، وعينوا مسؤولين. يو ـ جن، خال أمي، وزوجته وأطفاله، سُمح لهم بالعودة إلى جنجو، من الريف، في عام ١٩٨٠. وأصبح كبير المحاسبين في شركة أدوية، وأصبحت هي مديرة دار حضانة.

أُصدرت أحكام تبرىء ساحة الضحايا، وأرفقت بملفاتهم. وسُحبت السجلات التجريمية السابقة، ثم أُحرقت. وفي كل منظمة، في عموم الصين، أشعلت النيران في قصاصات الورق المهلهلة، التي خربت حيوات لا حصر لها.

كان ملف أمي مملوءاً بالشكوك حول ارتباطاتها، في سنوات المراهقة،

بالكومنتانغ. والآن، التهمت النيران كل كلمات الإدانة. وحل محلها حكم، يقع في صفحتين، بتاريخ ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٨، يقول بلغة لا تقبل اللبس، إن الاتهامات التي وجهت إليها اتهامات باطلة. بل أعاد الحكم تعريف أصلها العائلي: بدلاً من الأصل «سيد حرب»، غير المرغوب فيه، أصبح «طبيباً»، وهو أصل حميد.

في عام ١٩٨٢، عندما قررتُ البقاء في بريطانيا، كان ذلك خياراً غير معهود، إلى حد بعيد. وقد ظنت أمي أن ذلك يمكن أن يوقعها في مآزق في عملها، فطلبت إحالتها على المعاش، قبل السن القانونية، واستجيب طلبها، في عام ١٩٨٣. ولكن وجود ابنة لها تعيش في الغرب، لم يخلق لها متاعب، كما كان سيحصل، بكل تأكيد، في عهد ماو.

أخذت بوابة الصين تنفتح أوسع فأوسع. أشقائي الثلاثة كلهم، الآن، في الغرب. جن ـ منغ، وهو عالم معترف به دولياً، في فرع من فروع فيزياء الحالة الصلبة، يقوم بأبحاث في جامعة ساوثمبتون، في إنكلترا. وشياو ـ هي، الذي أصبح صحفياً، بعد الخروج من القوة الجوية، يعمل في لندن. والاثنان متزوجان، ولكل منهما طفل. شياو ـ فانغ نال شهادة الماجستير في التجارة الدولية، من جامعة ستراسبورغ، في فرنسا، وهو، الآن، رجل أعمال في شركة فرنسية.

شقيقتي شياو ـ هونغ، هي الوحيدة بيننا التي ما زالت في الصين، وتعمل في إدارة كلية الطب الصيني، في تشينغدو. وحين سمح بوجود قطاع خاص في الثمانينات، أخذت إجازة بدون راتب، مدتها عامان للمساعدة على تأسيس شركة لتصميم الملابس، كما كانت أمنيتها. وعندما انتهت إجازتها، كان عليها أن تختار بين أجواء الإثارة، والمخاطرة في النشاط التجاري الخاص وبين رتابة وظيفتها الرسمية وأمانها. فاختارت الوظيفة. زوجها «نظير» مسؤول إداري، في أحد البنوك المحلية.

الاتصال بالعالم الخارجي، أصبح جزءاً من الحياة اليومية. فالرسالة تصل من تشينغدو إلى لندن، في غضون أسبوع. وأمي تستطيع أن تراسلني، عبر الفاكس، من مكتب بريد في وسط المدينة. وأنا أتصل بها، هاتفياً، في البيت، بالخط المباشر، أينما كنتُ في العالم. وهناك أخبار وسائل الإعلام الأجنبية على شاشة التلفزيون، كل يوم، جنباً إلى جنب مع الدعاية الرسمية. وتنقل الأحداث العالمية الكبرى، بما في ذلك نقل أنباء الثورات والغليانات، في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي.

خلال الفترة الواقعة بين ١٩٨٣ و١٩٨٩، كنتُ أعود إلى الصين، لزيارة أمي، كل عام. وفي كل مرة، كان يغمرني إحساس طاغ بالانحسار الدراماتيكي في الشيء الوحيد، الذي وسم الحياة، في ظل ماو، أكثر من أي شيء سواه: الخوف.

في ربيع ١٩٨٩، طفتُ في أنحاء الصين، لغرض البحث في مادة هذا الكتاب. وقد شهدتُ انطلاق التظاهرات من تشينغدو إلى ميدان تيانانمين. ولفت انتباهي أن الخوف نُسي، حتى إن قلة من ملايين المتظاهرين، كانوا يستشعرون الخطر. وبدا أن معظمهم فوجئوا عندما فتح الجيش النار. وفي لندن، لم أكد أصدق عينيَّ، عندما رأيت القتل على شاشة التلفزيون. هل حقاً أمر به الرجل هو نفسه، الذي كان، بالنسبة إليّ وإلى كثيرين غيري محرراً؟

لقد عاد الخوف، ولكن من دون القوة السائدة والساحقة، في أيام ماو. فالناس ينتقدون، علانية، قادة الحزب بأسمائهم، في الاجتماعات السياسية. ونهج الانفتاح نهج لا رجعة فيه. ومع ذلك، ما زال وجه ماو يحدق، من فوق، إلى ميدان تيانانمين.

أحدثت الإصلاحات الاقتصادية، في الثمانينات، ارتفاعاً، لم يسبق له مثيل في مستوى المعيشة، بفضل أسباب عدة، منها التجارة الخارجية، والاستثمارات الأجنبية. وفي كل مكان في الصين، يحيِّي مسؤولون ومواطنون رجال الأعمال القادمين من الخارج بحرارة دافقة. في عام ١٩٨٨ كانت أمي، خلال رحلة لها إلى جنجو، تقيم في شقة يو ـ لن الصغيرة، البدائية المظلمة، التي تقع في جوار إحدى المزابل. وعبر الشارع، ينتصب أفخر فندق في جنجو، حيث تقام مآدب باذخة، كل يوم، لمستثمرين محتملين من وراء البحار. ذات يوم، لمحت أمي زائراً من هؤلاء، يغادر حفلة استقبال، وهو محاط بجمهرة محتفية به. كان يستعرض أمامهم صوراً فوتوغرافية لبيته المنيف وسياراته الفارهة، في تايوان. لقد كان ياو ـ هان، مشرف الكومنتانغ السياسي في مدرستها، الذي كان المسؤول عن اعتقالها، قبل أربعين عاماً.

أيار/ مايو ١٩٩١

المحتويات

الإهداء ٥

كرونولوجيا ٧

١ ـ «زنابق ذهبية بطول ثلاث بوصات»
جارية لجنرال من أسياد الحرب (١٩٠٩ ـ ١٩٢٢) ١٥

٢ ـ «حتى الماء العادي البارد حلو المذاق»
جدتي تتزوج طبيباً منشوياً (١٩٣٣ ـ ١٩٣٨) ٤١

٣ ـ «كلهم يقولون، يا لمانشوكوو من مكان سعيد!»
الحياة تحت سيطرة اليابانيين (١٩٣٨ ـ ١٩٤٥) ٦٣

٤ ـ «عبيد بلا وطن»
يحكمهم أسياد مختلفون (١٩٤٥ ـ ١٩٤٧) ٧٩

٥ ـ «ابنة للبيع بعشرة كيلوغرامات من الرز»
في المعركة من أجل صين جديدة (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨) ١٠١

٦ ـ «الكلام عن الحب»
زواج ثوري (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) ١٢٥

٧ ـ «عبور الممرات الجبلية الخمسة»
مسيرة أمي الكبرى (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠) ١٥٣

٨ ـ «العودة إلى البيت في حرير مطرز»
إلى العائلة وقطاع الطرق (١٩٤٩ ـ ١٩٥١) ١٦٥

٩ ـ «حين ينال الرجل سطوة، حتى فراخه وكلابه تصعد إلى السماء»
العيش مع رجل معصوم من الفساد (١٩٥١ ـ ١٩٥٣) ١٨٧
١٠ ـ «المكابدة ستجعلك شيوعياً أفضل»
أمي تحت طائلة الشبهة (١٩٥٣ ـ ١٩٥٦) ٢١١
١١ ـ «بعد الحملة ضد اليمين، لا أحد يفتح فمه»
إسكات الصين (١٩٥٦ ـ ١٩٥٨) ٢٢٥
١٢ ـ «النساء المقتدرات، يستطعن إعداد وجبة بلا طعام»
المجاعة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٢) ٢٤٣
١٣ ـ «العزيزة الصغيرة الذهبية»
في شرنقة ممتازة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٥) ٢٦٧
١٤ ـ «الأب قريب والأم قريبة، لكن لا الأب، ولا الأم، قريبان قرب الرئيس ماو»
عبادة ماو (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥) ٢٨٥
١٥ ـ «دمروا أولاً، والبناء سيتكفل بنفسه»
بدء الثورة الثقافية (١٩٦٥ ـ ١٩٦٦) ٣٠٥
١٦ ـ «اصعدوا إلى السماء، وشقوا الأرض»
حرس ماو الأحمر (حزيران/ يونيو ـ آب/ أغسطس ١٩٦٦) ٣١٧
١٧ ـ «هل تريد أن يصبح أطفالنا «سوداً»؟»
مأزق والديَّ (آب/ أغسطس ـ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٦) ٣٣٥
١٨ ـ «أكثر من أخبار رائعة عملاقة»
الحج إلى بكين (تشرين الأول/ أكتوبر ـ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦) ... ٣٤٩
١٩ ـ «حيثما تتوافر الإرادة للإدانة، تتوافر الأدلة»
عذاب الوالدين (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧) ٣٦٧
٢٠ ـ «لن أبيع روحي»
اعتقال أبي (١٩٦٧ ـ ١٩٦٨) ٣٨٩
٢١ ـ «فحم في الثلج»
إخوتي وأصدقائي (١٩٦٧ ـ ١٩٦٨) ٤١٥

٢٢ ـ «إصلاح الفكر، من خلال العمل»
إلى حافة جبال الهملايا (كانون الثاني/ يناير ـ حزيران/ يونيو ١٩٦٩) ... ٤٣٧
٢٣ ـ «كلما قرأت المزيد من الكتب، ازداد غباؤك»
عملي فلاحة وطبيبة حافية (حزيران/ يونيو ١٩٦٩ ـ ١٩٧١) ٤٧١
٢٤ ـ «أرجوك أن تقبلي اعتذاراتي، التي تأتي متأخرة عمراً بطوله»
والداي في المعسكرات (١٩٦٩ ـ ١٩٧٢) ٤٩٩
٢٥ ـ «شذا الريح العذبة»
حياة جديدة مع دليل الكهربائيين وست أزمات (١٩٧٢ ـ ١٩٧٣) ٥١٧
٢٦ ـ «شم ضراط الأجانب وتسميته مسكاً»
تعلم الإنكليزية في أعقاب ماو (١٩٧٢ ـ ١٩٧٤) ٥٣٣
٢٧ ـ «إذا كانت هذه هي الجنة، فما هو الجحيم؟»
موت أبي (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦) ٥٥٣
٢٨ ـ الكفاح من أجل السفر
(١٩٧٦ ـ ١٩٧٨) ٥٧٥
خاتمة ٥٨٧

جدي، الجنرال شوتزي هنغ، رئيس الشرطة في حكومة أسياد الحرب في بكين ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤.

أمي (يسار) مع أمها وزوج أمها، الدكتور شيا؛ جنجو، نحو ١٩٣٩. ويبدو في وسط الصورة واقفاً دي غوي، ابن الدكتور شيا الثاني، والعضو الوحيد في العائلة الذي وافق على زواج الدكتور شيا من جدتي. وكان الابن البكر للدكتور شيا قد أطلق النار على نفسه احتجاجاً. ويقف في أقصى اليمين ابن دي غوي.

الدكتور شيا.

أمي، فتاة في المدرسة، في سن الثالثة عشرة، في مانشوكوو، ١٩٤٤.

ابن عمي هو، صديق أمي الأول. ويوجد على ظهر صورته قصيدة كتبها بنفسه:

الريح والغبار صديقاي،
وآخر الدنيا موطني.

بعد أن خرج ابن عمي هو من السجن المنفي بتدخل من والده في العام ١٩٤٧، أعطى هذه الصورة إلى صديق وطلب منه أن يعطيها لأمي لكي تعرف أنه لا يزال على قيد الحياة. وبسبب الحصار، لم يشاهد الصديق أمي إلا بعد استيلاء الشيوعيين على جنجو. وعندما عرف أن أمي مغرمة بأبي، قرر ألا يعطيها الصورة. ولم يعطها الصورة إلا بعد أن لقيها مصادفة سنة ١٩٨٥. وعندها علمت أن ابن العم هو مات في الثورة الثقافية.

شقيقة جدتي لان وزوجها «ولاء» مع طفلهما بعد أن انضم «ولاء» إلى مخابرات الكومنتانغ، جنجو، ١٩٤٦.

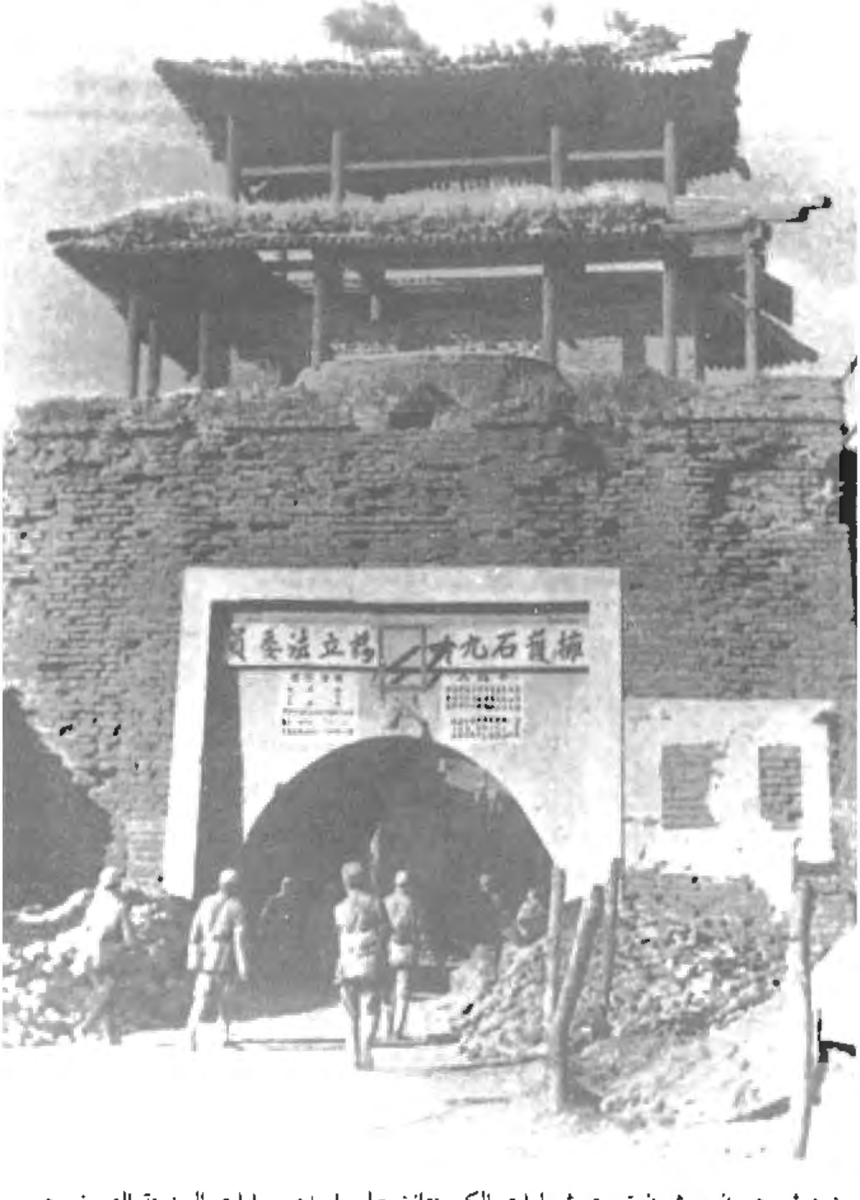

جنود شيوعيون يمشون تحت شعارات الكومنتانغ على إحدى بوابات المدينة التي نجت من حصار جنجو سنة ١٩٤٨.

كتابة الشعارات على نعال «أحذية التحرير» في أثناء الحرب الأهلية ـ «احرسوا أرضنا» (يسار) و «اهزموا شيان كاي شيك».

القوات الشيوعية تهاجم جنجو، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨.

والدي في نانجنغ، عاصمة الكومنتانغ سابقاً، في طريقهم من منشوريا إلى سيشوان، قبل أن تجهض أمي جنينها الأول، أيلول/ سبتمبر ١٩٤٩. وكلاهما يرتدي زي الجيش الشيوعي.

حفلة وداع لأمي قبل أن تترك يي بين، حزيران/ يونيو ١٩٥٣. من اليسار (في الخلف): شقيقة أبي الصغرى وأمي، (في الأمام): جدتي لأبي وشياو هونغ وجن منغ والعمة جون ينغ.

والدي (في الخلف) مع جدتي (يسار) التي تحمل شياو هونغ ومرضعتي (تحملني)، بعد فترة وجيزة من وصولنا إلى تشنغ دو، خريف ١٩٥٣.

جدتي تحملني (عمري سنتان وعلى شعري شريطتان) وجِن منغ وأمي تحمل شياو هي وشياو هونغ واقفاً، تشنغ دو، أواخر ١٩٥٤.

أبي في صورة أعتقد أنها تظهر مزاجه بشكل جيد، أثناء الرحلة من منشوريا إلى سيشوان، أواخر ١٩٤٩.

أمي تلقي خطاباً،
تشنغ دو، ١٩٥٨.

عمري ست سنوات.

أمي مع (من اليسار) شياو هونغ وجن منغ وشياو هي وأنا، تشنغ دو، أوائل ١٩٥٨. أخذت هذه الصورة على عجل لكي يحملها أبي معه إلى بي بين ويريها إلى أمي التي كانت مريضة جداً. وتبدو علامات العجلة على شعر أمي الذي لم يسرّح جيداً، وفي المنديل المعلق (كما هي العادة عند الأطفال الصغار) ببدلة البحار التي يرتديها جين منغ.

مع شياو هونغ (يسار) وشياو هي (في الخلف وجن منغ (يمين)
في معرض الزهور السنوي، ١٩٥٨.

في ساحة تيانانمين، كحرس أحمر (الصف الأمامي، الثانية من اليسار)، مع أصدقاء وضباط من سلاح الجو (فيهم امرأة واحدة) عيّنوا لتدريبنا. كنت أرتدي ربطة يد الحرس الأحمر و«سترة لينين» استعرتها من أمي وبنطلوناً مرقّعاً لأبدو «بروليتارية». كنا جميعاً نحمل «الكتاب الأحمر الصغير» في الوضعية المعروفة في ذلك الوقت. تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦.

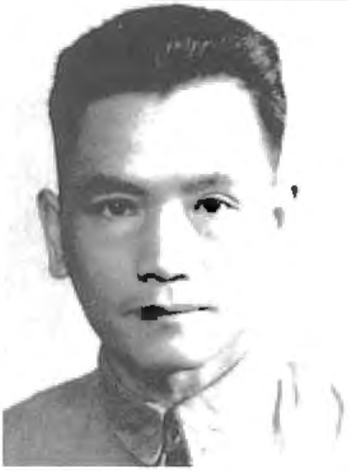

آخر صورة لأبي قبل الثورة الثقافية،
ربيع ١٩٦٦.

أبي في معسكر مي يي، مع جن منغ، ١٩٧١.

أمي في معسكرها في سهل بوفالوباي، أمام حقل ذرة ساعدت في
زراعته، ١٩٧١.

شقيق جدتي يو لين مع زوجته وولديه أمام المنزل الذي بنياه للتو بعد عشر سنوات من النفي في الريف، في العام ١٩٧٦. في ذلك الوقت قرروا الاتصال بجدتي بعد عقد من الزمن. وقد أرسلوا هذه الصورة لإبلاغها أنهم بخير، ولم يكونوا يعلمون أنها توفيت منذ سبع سنوات.

عشيه طردي إلى حافة جبال الهملايا (الثانية من اليمين وقوفاً). مع (وقوفاً من اليسار) جين منغ وشياو هونغ وشياو هي. في الصف الأمامي (من اليسار)، جدتي وشياو فانغ والعمة جون ينغ، تشينغدو، كانون الثاني/يناير ١٩٦٩. آخر صورة جمعت بين جدتي وعمتي.

مع فريق العمل الكهربائي في مصنع الآليات، تشينغدو (في وسط الصف الأمامي). الكتابة الصينية تقول «في وادع الرفيقة يونغ تشانغ إلى الجامعة، ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٧٣، فريق العمل الكهربائي».

التدريب العسكري كطالبة في جامعة سيشوان (الصف الخلفي، الثانية من اليمين)، الكتابة الصينية تقول «الرابطة بين السمك والماء [وهو شعار يصف العلاقة بين الجيش والشعب]، صف اللغة الانكليزية ١، دائرة اللغات الأجنبية، جامعة سيشوان، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٤.

ـ مع رفاق ذكور وبحار فليبيني (في الوسط) في رحلة لممارسة الإنكليزية، جانجيانغ، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٥. كان البحارة الأجانب الوحيدين الذي تحدّثت إليهم قبل أن أغادر الصين في عام ١٩٧٨.

مع صفي (الصف الأمامي، الثالثة من اليسار) خارج بوّابة جامعة سيشوان.

قبل حرق رفات أبي، أسند أمي مع جين منغ. ويقابلنا (من اليسار) شانغ يي وشياو فانغ وشياو هي (بلباس القوات الجوية) وشياو هونغ، نيسان/ أبريل ١٩٧٥.

في مراسم جنازة أبي (أقف مع عائلتي، الرابعة من اليمين). مسؤول يقرأ تقويم أبي. تشينغدو، ٢١ نيسان/ أبريل ١٩٧٥. كانت هذه الكلمة شديد الأهمية، لأنها كانت بمثابة تقويم الحزب لأبي، ومن شأنها أن تحدد مستقبل أبنائه حتى وهو ميت. ولأن أبي انتقد ماو، الذي كان لا يزال حياً، كانت النسخة الأصلية سلبية بصورة تنذر بالشر. وقد حاربت أبي لتعديلها وحصلت على تسوية محسّنة. نظمت المراسم من قبل «لجنة تشييع» من زملاء أبي السابقين، بمن فيهم أولئك الذين ساعدوا في اضطهاده. وقد أعدّت بدقة حتى آخر التفاصيل، وحضرها نحو خمسمئة شخص وفقاً لصيغة معدّة مُسبقاً. وقد حدد فيها حتى حجم الأكاليل.

في بكين، أيلول/سبتمبر ١٩٧٨، قبل أن أغادر الصين إلى بريطانيا.

في إيطاليا، صيف ١٩٩٠.

تجمع «بجعات برّية» بين حميمية المذكرات وملحمية الرواية، لتخبرنا قصة نساء ثلاث:

يونغ تشانغ، جدة الكاتبة، المولودة في ١٩٠٩ أيام الإقطاع في الصين، والتي مُنحت لأحد أمراء الحرب وجنرالاتها لتكون خليلته، فلم تستطع الهرب من قدرها هذا حتى ١٩٣٢، عندما أوشك الجنرال أن يموت.

ابنتها التي ترعرعت في منشوريا في ظل الاحتلالين الياباني فالروسي. وحين اندلعت الحرب الأهلية بين الكومنتانغ والشيوعيين، انضمت إلى المقاومة السرية وغامرت بحياتها كي تهرّب الأسرار إلى الشيوعيين فتم اعتقالها. وعندما أطلق سراحها اقترنت بشيوعي مثلها، وصار الاثنان من موظفي النظام الكبار ومن أهل ثورته.

الحفيدة التي تسمّت باسم جدتها يونغ تشانغ، قضت طفولتها في أوساط أصحاب الامتيازات والسلطة، لكن وحشية «الثورة الثقافية» حملتها على التساؤل والشكّ حتى في ماوتسي تونغ نفسه. أبواها تعرضا للقهر والنفي إلى معسكرات العمل البعيدة، فجنّ والدها، وانطفأ تدريجياً ومات. أما هي، ولما تبلغ العشرين، فنفيت إلى أطراف جبال هملايا.

«بجعات برّية» يجعلنا نتوغّل في الصين، في قصورها كما في سجونها، وفي مشاهدها الجماهيرية الحاشدة كما في مقصورات النساء والخليلات الهادئة.

إنه، في آن، عمل مهم من أعمال التاريخ المعاصر، وشهادة غير عاديّة على الروح الإنسانية.

ISBN 1 75446 654 8

علي مولا

DAR
AL SAQI
دار الساقي